فتح الودود

شرح المقصور والممدود

تأليف

الشيخ سيدي المختار الكنتي الشنقيطي

المتوفى عام ١٢٢٩هـ

جمع نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

مأمون محمد أحمد

الناشر
الحاج محمد طن ابجي
سكوتو نيجيريا ٠٦٠٢٣٦١٦٤

الناشر
مكتبة الثقافة الدينية
٥٢٦ شارع بور سعيد - القاهرة

فتح الودود

شرح المقصور والممدود

تأليف

الشيخ سيدى المختار الكنتى الشنقيطى

المتوفى عام ١٢٢٦ هجرية

حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه

مأمون محمد أحمد

الناشر

الحاج محمد طن إغى

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

رقم الإيداع

شكروتقدير

ولا يسعنى هنا إلا أن أقدم شكرى وامتنانى لأولئك الذين ساعدونى فى إخراج هذا الكتاب تصحيحًا ومقابلة وكتابة، وأخص منهم الأساتذة الكرام:

١ ـ الشيخ بيبة بن فاليلى (جد أهل).

٢ ـ الشيخ التَّلميدِى بن محمود.

٣ ـ الشيخ المهدى بن أبَّادى.

٤ ـ الشيخ عبد الله بن بُونَة.

فإليهم جميعًا أهدى تحياتى سائلاً المولى لهم دوام الصحة والعافية إنه سميع مجيب.

كما أني وبنفس المناسبة أقدم كذلك أخلص الشكر للأخوين الأديبين:

١ ـ السيد محمد محمود بن وَدَّادى.

٢ ـ السيد سِيدْ عمر بن سِيدنَا.

لما بذلاه لى من مساعدة وعون وتقديمهما لى النسختين الخطيتين اللتين كانتا أصلاً للكتاب، راجيًا لهما من الله التوفيق والسداد مع الصحة والرفاهية إنه ولى ذلك والقادر عليه.

مأمون محمد أحمد

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين:

وبعد:

فإن مما لا خلاف فيه بين عامة المسلمين أن اللغة العربية ذات ارتباط وثيق مع كتاب الله الكريم وسنة رسول الهدى صلوات الله عليه . إذ لا يمكن فهمهما بصورة جيدة إلا بفهم هذه اللغة وأسرارها وأساليبها، فهى والحالة هذه خير معين على فهم ديننا الحنيف:

لذا فإنى أقدم لك أيها القارئ الكريم كتاب «فتح الودود شرح المقصور والممدود» لمؤلفه الشيخ سيدى المختار الكنتى، لأضعه بين يديك، مساهمة متواضعة فى نشر جانب من تراثنا العربى الأصيل.

وقد بذلت كل جهد ممكن ليخرج سليمًا من الأخطاء، إلا أنى لم أوفق كما كنت أرجو وأتمنى، وذلك لأسباب أهمها:

أولاً: اختلاف النسختين اللتين اعتمدت عليهما وكثرة الأخطاء والتبييض والحذف فيهما وإبهام بعض الكلمات.

ثانيًا: صعوبة تخريج الأحاديث، لأن المؤلف رحمه الله عندما يورد حديثًا، فقد يورده بالمعنى، وربما بدأ بآخر الحديث أو ألف بين عدة أحاديث وساقها على أنها حديث واحد، وهذا النوع يزيد التخريج صعوبة ويضيف إلى العناء عناءً، هذا مع أن كثيرًا من الأحاديث المستدل بها لا توجد إلا فى كتب نادرة كالكبير للطبرانى، وجامع السيوطى الكبير، إلى غير ذلك من الأمور التى تعوق عملية التخريج.

ثالثًا: فى مجال الأعلام، نجد المؤلف رحمه الله يغاير بين الاسم والنسبة

والكنية، فعلى سبيل المثال يقول: قال محمد، وفى موضع آخر يقول: قال أبو علي، وفى موضع ثالث يقول: قال الضبى، مع أن الشخص واحد، وهذا على ما يبدو تجنبًا للتكرار، إلا أنه يصعب عملية الترجمة.

ومع هذا فالكتاب بالإضافة إلى كونه شَرَحَ منظومة محمد بن عبد الله بن مالك، وحل رموزها بأسلوب رصين، ففيه الكثير من المتعة والفائدة، فهو ملىء بالدعوة إلى التمسك بالقيم الرفيعة والمثل العليا، إلى جانب الأدب الشيق وشوارد اللغة والقصص المسلية وأخبار الأمم والملوك وأجاويد العرب ونوادرهم، إلى غير ذلك من العبر والحكم والرقائق:

ومع ما تقدم، فالكتاب لا يخلو من ملاحظات، وأهمها عندى:

١ - إيراد بعض الأحاديث الموضوعة أو الضعيفة دون أية إشارة أو تنويه.

وهذا الخطأ الخطير تفشى مع الأسف فى المجتمع الإسلامى من شرقه إلى غربه ولفترات طويلة، ولا تزال آثاره السيئة باقية إلى يومنا هذا.

٢ - الإكثار من الإسرائيليات.

٣ - إيراد بعض القصص الخيالية.

وقد يكون للمؤلف بعض العذر فى هذا إذا علمت أنه عاش وسط صحراء مترامية الأطراف، بعيدة كل البعد عن المراكز الحضارية، ويرغب أهلها فى هذا النوع من الأساليب، ولكل عصر خصائصه. فهو على كل حال مشكور ومأجور إن شاء الله.

* * *

منهج التحقيق

أولاً: لقد عولنا فى نشر هذا الكتاب على نسختين خطيتين، ثم رجعنا إلى المصادر الأصلية للكتاب حسب الاستطاعة وما وجدنا من خطأ أصلحناه، ومن نقص كمّلناه.

ثانيًا: خرجت أغلب الأحاديث الموجودة فى الكتاب معتمدًا فى ذلك على أقوال كبار علماء الفن ومثبتا قبل الحكم على الحديث أقوال العلماء فى كل حديث عند اختلافهم، ونأخذ من ذلك ما ظهر أنه الأصوب والأحوط.

وذلك لأن قضية التصحيح والتضعيف من أصعب الأمور وأكثرها خطورة، لانتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة على ألسنة أفراد الأمة الإسلامية ناسبين ذلك إليه ﷺ، دونما علم بصحة نسبة الحديث إليه ﷺ على الرغم مما فى هذا التصرف من خطورة الدخول فى الوعيد الوارد فى الحديث المتواتر «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده فى النار» وفى رواية «من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار» أعاذنا الله وإياكم من ذلك.

لهذا الوعيد فقد اعتنيت بالتخريج أكثر من غيره، ولِمَا بلغنى أن بعض المحدثين قال لا يجوز إسناد حديث لرسول الله ﷺ، إلا إذا نص على صحة هذا الحديث حافظ من الحفاظ المعروفين، فمن قال: قال رسول الله ﷺ وهو لا يعلم صحة ذلك عن طريق أحد الحفاظ يوشك أن يصدق عليه الحديث المتقدم.

ثالثًا: وضعت أرقام جميع الآيات القرآنية وأثبتُّ كل آية بين قوسين.

رابعًا: وضعت ترجمة لأكثر الأعلام.

خامسًا: شرحت كل كلمة أرى أنها تحتاج إلى توضيح.

سادسًا: صوبت جميع الكلمات أو الجمل التى يظهر خطؤها، ونوهت عن ذلك فى الهامش.

سابعًا: نوهت كذلك فى الهامش عن كل اختلاف بين النسختين، وأثبت

أقربهما إلى الصواب.

ثامنًا: علقت على كل قصة بما يتلاءم معها.

تاسعًا: أصلحت كل بيت شعر ظهر أنه مختل الوزن.

عاشرًا: فَصلْت ورقمت أبيات المنظومة وأضفت فى الهامش ما سقط على المؤلف من الأبيات.

ومع هذا فإنى معترف بالتقصير. ورحم الله الحريرى حيث قال:

وإن تجـد عيبًا فسد الخللا   فجَل من لا عيب فيه وعلا

* * *

وصف النسخ المنقول منها الكتاب

لقد توفرت لنا عند الشروع فى التحقيق نسختان خطيتان:

الأولى: نسخة حديثة نسبيًا مملوكة للسيد/ سيدى عمر بن سيدنا، حفيد المؤلف، ويسكن الغرب الموريتانى وتقع فى مجلد واحد، عدد أوراقه ٤٦٠ ورقة من الحجم الكبير، تحتوى كل صفحة فى المتوسط على ٢١ سطرًا ومكتوبة بالخط المغربى القريب من النسخ، وفى آخر ورقة منها كتبت عبارة «وكان الفراغ منه فى شهر ربيع الأول عام ١٩٦٠م»، ومع أن خطها جيد وحديث، فإن الأخطاء منتشرة فيها بكثرة، مما حمل على الاعتقاد بأنها إما منقولة من أصل ردىء، أو أنها لم تقابل على أصلها.

الثانية: نسخة قديمة ربما كانت مكتوبة فى القرن الماضى ومملوكة للسيد/ محمد محمود بن ودادى ويسكن وسط موريتانيا وهى نسخة لوالده الورع، الشيخ محمد ابن ودادى، رحمه الله، وتقع فى مجلد واحد، كذلك عدد أوراقه ٤٣٠ ورقة تحتوى كل صفحة فى المتوسط على ٢٤ سطرًا وخطها مغربى بين الرقعة والنسخ، وجيدة للغاية ومصححة إلا أنها لقدمها ووصول الماء إلى بعض أجزائها ووجود كثير من الأوراق المهترئة فيها، قَلَّتْ قيمتها وفشت فيها الأخطاء بسبب ذلك.

ترجمة المؤلف

هو الشيخ سيدى المختار بن أحمد بن أبى بكر الكنتى، ولد فى عام ١١٤٢ هـ، فى مكان يدعى (كثيب أوغال) من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط، جنوب الصحراء الكبرى وفى القسم المعروف (بأزواد) ويتبع إداريًا جمهورية مالى وهى منطقة صحراوية قاحلة لا يوجد فيها الآن عمران بسبب الجفاف السائد فى غرب أفريقيا، إلا أنها كانت فى عهد المؤلف مليئة بالحياة والنشاط الإنسانى.

• نسبه:

ينتسب الشيخ سيدى المختار إلى قبيلة كنتة إحدى القبائل العربية المنتشرة فى غرب أفريقيا: موريتانيا ومالى والنيجر وجنوب المغرب والجزائر وحتى السنغال. ويرجع نسبها إلى عقبة بن نافع الفهرى فاتح أفريقيا. والجد الذى سميت به القبيلة، هو الشيخ سيدى محمد الكنتى، وقبره فى شمال غرب موريتانيا فى محل يسمى (فصك)، وسبب التسمية أن والد هذا الشيخ ويدعى الشيخ سيدى على بن يحيى تزوج بنت زعيم عشيرة أبدوكل المتفرعة من قبيلة لمتونة الكبرى، ويدعى محمد بن العالم بن كنتة، فأنجبت له الشيخ سيدى محمد هذا، ولقب بالكنتى نسبة لجده منْ أمه، كما هو الشائع عند كثير من القبائل الصحراوية. فأصبح لا يعرف إلا بالكنتى، وترك هذا الاسم لأولاده من بعده حتى صار علمًا على القبيلة.

ولم ينجب الشيخ سيدى محمد الكنتى إلا ولدًا واحدًا هو الشيخ سيدى أحمد البكاى، وقبره مشهور فى مدينة ولاته التاريخية شرق موريتانيا. وهذا أنجب ثلاثة أولاد هم أجداد عامة كنتة الغربيين والشرقيين.

• نشأته:

ولد الشيخ سيدى المختار، فى بيئة صحراوية، ونشأ على الطريقة التقليدية للبدو، فى وسط ثقافى رفيع المستوى، فقد كانت أسرته وأجداده على جانب كبير

من العلم والصلاح والتقوى، وكانت مخايل النبوغ بادية عليه منذ نعومة أظفاره، يعرف ذلك منه كل المحيطين به ويتوقعون له مستقبلاً زاهراً.

• طلبه للعلم:

درس الشيخ رحمه الله ـ وهو صغير ـ القرآن الكريم على أخيه الأكبر وعلى جده لأمه، ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره، تاقت نفسه إلى المزيد من المعرفة، فترك أهله وذهب إلى حى قريب منهم وبدأ يتعلم الفقه، ثم انتقل إلى حى آخر، واستمر فى تعليم الفقه صابراً على مضايقة الطلاب له لتفوقه عليهم، حتى استوعب مختصر خليل، فاشتاق إلى المزيد من التعليم وانتقل إلى حاضرة المنطقة ـ مدينة تينبكتو ـ فوجدها خالية آنذاك من العلم، وأخذ فى التجوال حتى وجد ضالته فى المربى الكبير وعالم زمانه الشيخ سيدى على بن النجيب، وعنه أخذ جميع مروياته فى التفسير والحديث والفقه والأصول والنحو، والبلاغة، فعنه أخذ على سبيل المثال:

١ ـ فى التفسير:

١ ـ تفسير الجلالين.

٢ ـ معالم التنزيل ـ للبغوى.

٣ ـ لباب التأويل ـ للخازن.

٤ ـ المحرر الوجيز ـ لابن عطية.

٥ ـ تفسير النسفى.

٦ ـ تفسير البيضاوى.

٢ ـ فى الحديث:

١ ـ الصحاح الستة.

٢ ـ جامع الأصول ـ لابن الأثير.

٣ ـ الجامع الكبير للسيوطى.

٤ ـ الشفاء للقاضى عياض.

٥ ـ كشف الغمة للشعرانى.

٦ ـ الترغيب والترهيب للمنذرى.

٣ ـ فى الفقه المالكى:

١ ـ رسالة ابن أبى زيد.

٢ ـ مختصر ابن عرفة.

٣ ـ جامع الأمهات لابن الحاجب.

٤ ـ فى النحو:

١ ـ المقدمة لابن أجروم.

٢ ـ الخلاصة لابن مالك.

٣ ـ الفريدة للسيوطى.

٤ ـ الكافية لابن مالك.

٥ ـ فى البلاغة:

عقود الجمان للسيوطى.

كما أخذ على الشيخ أند عبد الله الولانى.

٦ ـ فى الأصول:

١ ـ ورقات إمام الحرمين.

٢ ـ جامع الأصول لابن السبكى.

٣ ـ الكافية لابن الحاجب.

٤ ـ تنقيح الأصول.

٥ ـ القواعد للمبجور.

وبالإضافة إلى هذه المرويات، فقد أخذ على الشيخ/ سيدى على بن النجيب، الطريقة القادرية وأصول التربية، وهو الذى لعب الدور الرئيسى فى تكوين شخصيته العلمية والروحية فيما بعد.

• **حياته:**

عاش الشيخ سيدى المختار فى بيئة صحراوية، فى أزواد المنطقة الواقعة شرق موريتانيا، وشمال نهر النيجر، وجنوب الجزائر، وغرب جمهورية النيجر، وهى الآن تابعة لجمهورية مالى، وكانت فى ذلك الوقت من الأطراف الشرقية لبلاد شنقيط، التى تعرف اليوم بموريتانيا.

والسكان الأصليون لهذه المنطقة، هم قبائل من الطوارق الملثمين، وقدمت عليهم هجرات عربية عديدة كانت آخرها فى القرن الثامن الهجرى، والحرب بين هذه القبائل لا تكاد تنتهى إلا لتبدأ، فلا سلطة ولا سلطان إلا للقوة.

فإلى الشرق من منطقة الشيخ توجد قبائل الطوارق المحاربة، مثل قبائل الأييروايلمدن، وإلى الشرق من ذلك توجد إمارة مستقرة هى إمارة بورنو، وإلى الشمال توجد قبائل الهوجار، وهم من المحاربين الأشداء، وإلى الجنوب وعلى امتداد نهر النيجر، يستقر أجناس من الزنوج لهم نظم وحكومات مستقرة نسبيًا قبل الغزو الذى قام به سلطان المغرب الأقصى مولاى أحمد الذهبى مع نهاية القرن العاشر الهجرى والذى أدى إلى تفكك الحكومات السوداء الإسلامية التى كانت مستقرة. وأضاف بالتالى إلى المنطقة فوضى جديدة.

وفى الغرب أكثرية من القبائل العربية والإمارات الصغيرة على امتداد الأراضى الموريتانية وحتى المحيط الأطلسى:

والقانون السائد فى هذه المجتمعات خلال فترات متعددة هو قانون القوة، لذلك فالحروب مستمرة، ومن لم يحارب، اعتدى عليه وأصبح تابعًا لمن هو أقوى منه.

وكان السكان ينقسمون إلى طبقات اجتماعية متميزة هى:

أولاً: الطبقة الأولى (العرب):

وهم العرب المحاربون، ويدخل فى هذه الطبقة كل من حمل السلاح وامتهن الحرب سواء أكان من أصل عربى أم لم يكن.

ثانيًا: الطبقة الثانية:

وأهلها هم الذين يمتهنون العلم، وقد يكون أفرادها محاربين ولكن بدرجة أقل

من الطبقة الأولى، وتسمى (الزوايا). ويدخل فى هذه الطبقة كذلك كل من جعل العلم مهنة له بصرف النظر عن أصله.

ثالثًا: الطبقة الثالثة (اللحمة):

وأهلها هم رعاة الماشية، ويدخل فيها كل من امتهن تربية الماشية أو ألجأته الظروف إلى الدخول تحت ظل زعيم لسبب من الأسباب كالجناية، سواء كان أصله عربيًا أم لم يكن.

رابعًا: الطبقة الرابعة (الحراطين):

وهم الزنوج المستعربون الذين يعتنون بالزراعة .

وإلى جانب هذا التقسيم الطبقى القاسى الذى لا يعرف الفرد فيه من النظام إلا القوة ولا من الحكومة إلا القبيلة. وإلى جانب الحروب المتواصلة بسبب وبدون سبب، كانت هذه الصحراء من القرن العاشر وحتى اليوم مركزًا هائلاً لتدارس العلوم من منطق وبيان ولغة ونحو وتفسير وحديث وفقه، كل ذلك وغيره يدرس فى هذه الصحراء، ومن تحت خيامها تخرج العلماء الأفذاذ فى كل المجالات، حقًا إنها صحراء عجيبة ولعلها الصحراء الوحيدة فى العالم التى يوجد فيها هذا الترف العلمى إلى جانب الفوضى.

وفى ظل هذا التناقض ولد وعاش شيخنا موجهًا ومعلمًا ومرشدًا، داعيًا إلى الله وإلى تطبيق الشريعة السمحاء باللين وبالبذل وبالوعظ والإرشاد، وأحيانًا بالقوة. فتراه متنقلاً فى شرق المنطقة بين قبائل الطوارق يصلح بين هذه القبيلة وتلك، ويعلّم هذا الزعيم ويرشد ذاك. كما تراه وبنفس الأسلوب والقوة يجوب أرجاء بلاد شنقيط غربًا يلم شمل القبائل المتحاربة ويهيئ سبل الصلح بين الإمارات المتعادية، كما تراه فى الجنوب يفك حصار المدن ويعزل الزعماء القبليين المتمردين باذلاً ماله وجاهه فى سبيل إصلاح حال المسلمين وحقن دمائهم، هدفه أن يرى الإسلام قويًا موحدًا، فدانت إليه المنطقة كلها، على الرغم من اتساعها وتنافر سكانها، ودانت له رغبة لا رهبة، ومحبة لا طمعًا؛ تأتيه الوفود من الجميع؛ يستوى فى ذلك العدو والصديق والعربى والطارقى والزنجى، يزودهم

بماله وعلمه ونصائحه، يعلم الجاهل ويرشد الضال ويطعم المحتاج ويؤمن الخائف، كما تأتيه الرسائل والهدايا من الأمراء الذين يضعون أنفسهم تحت تصرفه، كما هو الحال مع أمير بورنو فى الشرق، وأمراء الفلان فى الجنوب، والأمراء الزنوج، وأمراء طوارق الأييروايلمدن، كذلك أمراء العرب فى شنقيط كالبراكنة والترارزة وأولاد داود وأولاد الناصر، وأولاد دليم وأمراء أيدوعيش، وغير هؤلاء وأولئك.

كما راسله مولاى سيدى محمد بن مولاى عبد الله بن مولاى إسماعيل سلطان المغرب الأقصى. ولم يزل ذلك دأبه حتى لقى ربه مجاهدًا صابرًا محتسبًا.

• مؤلفاته:

لقد ألف أكثر من ٣٠٠ كتاب، عرف منها قرابة الثمانين، والموجود منها الآن أقل من الأربعين، منها على سبيل المثال:

١ ـ تفسير البسملة.

٢ ـ تفسير الفاتحة.

٣ ـ بلوغ الوسع على الآيات التسع.

٤ ـ نضار الذهب.

٥ ـ نزهة الراوى وبغية الحاوى.

٦ ـ هداية الطلاب.

٧ ـ فتح الوهاب.

٨ ـ الشموس الأحمدية.

٩ ـ الجرعة الصافية.

١٠ ـ بديعة المنوال.

١١ ـ فتح الودود. (المحقق له الآن).

١٢ ـ كشف اللبس.

١٣ ـ نصيحة المنصف.

١٤ ـ الأجوبة المهمة.

١٥ ـ زوال الإلباس فى طرد الشيطان الخناس.

١٦ ـ البرد الموشى.

١٧ ـ ألفية فى العربية.

١٨ ـ جذوة الأنوار.

وغير هذا من الكتب والرسائل، إلا أن هذه الكتب لم يطبع منها شىء حسب علمى.

● تلامذته:

أخذ عنه خلائق لا يحصون، وأشهر من نقل عنه العلم وعن ابنه الشيخ سيدى محمد فى الغرب الموريتانى.

١ ـ الشيخ سيديا الكبير بن المختار بن الهيبة.

٢ ـ الشيخ سيدى عبد الله العلوى.

٣ ـ الشيخ المصطفى بن العربى.

٤ ـ الشيخ القاضى بن الحاج الفغة.

٥ ـ الشيخ المصطفى بن الحاج الفغة.

٦ ـ الشيخ سيدى محمد بن عويسى.

٧ ـ الشيخ بن أمنّى (المجلسى الزينبى).

٨ ـ الشيخ بابا الحى بن محمد بن الشيخ (الأبدوكلى).

٩ ـ الشيخ المختار السباعى الدميسى.

١٠ ـ الشيخ أبات بن الطالب.

وغير هؤلاء كثير وكثير.

● **وفاته:**

توفى رحمه الله يوم الأربعاء الخامس من شهر جمادى الأولى عام ١٢٢٦ هجرية، عن عمر يناهز ٨٤ عامًا، قضاها فى التعلم والتعليم والتأليف والتربية.
ودفن في مكان يدعى (بو الأنوار) شمال مالى حاليًا وشرق موريتانيا، رحمه الله رحمة واسعة، إنه سميع مجيب.

المدينة المنورة فى ٢٠/٨/١٤٠٥ هـ

مأمون محمد أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

[مقدمة المؤلف]

وصلَّى الله وسلَّم على سيدنا محمد وآله وصحبه وأزواجه وسلم تسليمًا:

الحمد لله ذي الكرم والجود، الذى لا شريك له فى الوجود، إذ أتحفنى بفَيضه المجدود(١)، حتى تيسَّر ما قصدتُه من شرح «تحفة الودود». حسبما طلب منى ذلك أخٌ فى الله ودود.

والصلاة والسلام على النبىِّ المحمود، المخصَّص بقصر جميع الممدود من أهل الكفر والجحود.

فجاء بحمد الله وعَونه على المنية والمقصود، بل زاد بهاءً وبهجةً على كل شارح جىء به على المقْصور والممدود، إذ جاريت مصنِّفه أبا عبد الله محمد بن مالك، وطاولتُه فى جميع المسالك. حتى غطَّى بحرى نَهْرَهُ، واجتاح ثمرى زَهْرَهُ، إلا أن دهرى لا يوازى دَهْرَهُ، إذْ له رتبة السابق، كما أن لى مزية اللاحق.

فأبرزت مخدِّرات عرائسه، والتقطت من قاموس بحره يواقيت نفائسه، وهذَّبتُ ما فيه من دسائسه(٢) وأجهزت على كل ما أثخنه من فرائسه، فأربيت على كل شارح يزعم أنه من مكائسه(٣) إذ جاريته على متُون الأعوجيات، حين جاوزهُ على البراذن والسُّكَيْنَات(٤) فلما تحاكتْ بنا الرُّكبان، وظنَّ الجاهل القرب والتَّدانى، خُضْتُ به بحر الحقائق والمعانى. فكعَّ(٥) جواده عن خوض ما رمته، ولم يَحُمْ

(١) الواسع العظيم.

(٢) الدسائس جمع دسيسة: دفن الشىء تحت الشىء لإخفائه والمراد هنا الإشارات الخفية الموجودة بكثرة فى المنظومة

(٣) المكائس: مصدر، وهو تمكين النفس من استنباط ما هو أنفع.

(٤) السكينات جمع سكينة كجهينة: الأتان الخفيفة السريعة، وسكين كزبير: الحمار السريع الخفيف. والبرذون دابة الحمل الثقيلة.

(٥) كَعَّ: ضعف وجبن.

حول ما حُمْتُه، فحبَّرت كتابه بآى التنزيل تحبيرًا، وطرَّزته بغرائب اللغات تنويرًا، فجئت فيه بالمواعظ الهائلة، والغرر[١] السائلة، والمذاهب المائلة عن الطريق الباطلة، وبحكايات الأمجاد، وروايات الأجواد، ونفائس الأعراب، وغرائب الإعراب، ونُبَذ من الآداب والأدباء، وقصص الأنبياء والأولياء، وكيفية بدء الخلق والانتهاء، والزَّجر عن الظلم والاعتداء، وما يَجُرَّان إليه من البلاء والجُلاَّء[٢]، ونُكَت من الترغيب والترهيب، مما يُذيب أو يكاد ذهن اللبيب، ومن غرائب المسائل الفقهية، وبصوص[٣] نصوص الدلائل العقلية، مما يفوق ويروق، ويوجب على من سمعه أن لا يقابله بالعقوق، ومن الحِكَم الطبِّيَّة والنفحات الغيبية ما يشوق كل مشوق، وإليه النفوس الزكية تتوق.

ورتَّبتُ طوالعه وبيَّنت لوامعه، تَرتيب المنازل الفلكية بالأحاديث النبوية، فَجرَيْتُ فيه بَيْنَ الإسهاب والإطناب، وصنته عن التطويل المُمِلِّ، والتقصير المُخِلِّ، والهَذَيان المُزِلّ، فصار أذكى من الزبد، وأحلى من الشهد، إذ لا تنقضى نفيسة من نفائسه. إلا أسفرت لك عن وجه عروس من عرائسه. ثم ختمته بشذى مسك سيرته الشريفة والتفجُّع بوفاته المنيفة، وذكر آله وأصحابه، والصلاة عليه وعلى آله.

فجنيتُ فيه من كل ثمرة فقهية أحلاها، ومن كل نفحة صوفية أذكاها، ومن كل حقيقة ربَّانية أعلاها، ومن كل نبعة نبوية أجلاها، ومن كل حِكمة قرآنية أشهاها، ومن كل حكاية إسرائيلية أبهاها[٤].

واختصرته مع ذلك غاية الاختصار، واقتصرت على كثير مما يحصل به الانتفاع كل الاقتصار، ليكون على القدر الكافى، وليشرب منه متناوله المشرب الصافى، حتى يكون لدى الغُلَّة[٥] والعلة كالترياق الشافى، وليكون ساترًا لعورات الجهل

---

(١) الغرر: جمع غرة: سيد القوم - بياض فى جبهة الفرس - أول كل شىء. وهو هنا كناية عن الحسن الموجود فى الآى والحديث والحكم والروايات.
(٢) الجُلَّى بالضم، جمع جلل، مؤنث الأجل: الأمر الشديد والخطب العظيم.
(٣) البصيص: البريق واللمعان.
(٤) هذا إذا كان فى الإسرائيليات شىء بهى حقًا.
(٥) الغلة: العطش الشديد، تجمع على غلل وهى بضم الغين.

كالثوب الضَّافي.

ولقد أجاد صاحب المنظومة وأفاد، وسهَّل السبيل للسالكين بل زاد، فَلْيَسْلُك القادر إن شاء أو أراد، إذ أتى بها على أسلوب لم يُسبق إلى مثاله ولم يَنْسج أحد بعده على منواله، فأتقن العبارة، ودقق الإشارة، حتى صارت أخفى من دبيب النمل على الصفا، بل هى أدق من الإبر، وأرق من الشعر، إذ أكثرها أمثال وحقائق وأحوال ـ وحقيقة الأمثال الإتيان باللفظ الوجيز على وجه التعجيز ـ إذْ المراد به غير ما يدل عليه صريح لفظه، ولذلك نفى الله عِلْمها عن غير العالمين بها فقال: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣] حتى قيل: إن فهمها وتَحقيقها على ما وضعت له من نوع الإلهام، بل من نوع الكشف والإعلام.

ومن الدليل على وسع باعه، أن جاء بمنظومته هذه، فألف فيها بين ما ينبغى تأليفه من نوعى المقصور والممدود، فحشاها بأنواع العلوم من القرآن والحديث وعلمَ التَّصوف والوعظ وأنواع الأدب والفقه واللغة على أوجز عبارة وأدق إشارة، فلا يُنكرُ شذاه إلا مزكوم، ولا يستمرُّ[1] طعمه إلا محموم، أو معاند غشوم، ولا يحجب عن ضوء شموسه إلا أرْمَد أو مطموس البصيرة أكمد[2]. لكن لما تصعب مسلكه، وعزَّ مطلبه ومدركه، قلت شروحه، إذ توعر عليهم وضوحه، قال الشاعر:

* إذا عَظُم المطلوبُ قَلَّ المساعدُ[3] *

فلو أنى تتبَّعت إشاراته على ما فتح الله به على، لأتَيت عليه بدفاتر تقصر دون تناول النزر منها همم أهل العصر لقصور الهمم اليوم عن التتبُّع لما طال،

(١) يستمر: أى لا يكون مرًا إلا عند المحموم.

(٢) الأكمد: مريض القلب.

(٣) الشاعر هو أحمد بن الحسين الجعفى المعروف بالمتنبى ولد سنة ٣٠٣ بالكوفة ومات عام ٣٥٤ هجرى، وشطر البيت هو:

* وحيد من الخلان فى كل بلدة *

وهو من قصيدة يمدح بها سيف الدولة مطلعها:

عواذل ذات الخال منى حواسد ... وإن ضجيج الخود منى لماجد

فانكمشت لذلك على قدر ذلك ليقع الإمتاع بما هو هنا دون ما هنالك.

قال أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائى نسبًا[١]:

وهم حى منْ مذحج انفصلوا عنهم تفرق أيادى سبأ حين أصابهم سَيْل العَرِم، فَجاوروا مضر، وحالفوا أسدًا وغطفان، فسموا من يومئذ بالأحلاف، وفى ذلك يقول الشاعر يمدح الحارث بْن عوف وحَرْمَلَة لما ضمنا الضمانات وتحملا الحمالات فى صلح حرب داحس والغبراء:

هما أَلْفَيا الأحلاف قد ثل عرشها   وذبيان قد زلت بأقدامها النَّعْلُ

(الأندلُسى إقليمًا الجيَّانى وطنًا) وله الرحلة المشهورة فى طلب العلم وتحصيل فنون الأدب، وكان مشهورًا بالزهد، معروفًا بالمروءة والرشد، حج مرات، وجاور وطاف الشام والموصل وديار بكر والسواد، فلما تجهبذ[٢] قطن جيان حتى توفى بها رحمه الله وهو من رجال القرن الخامس وقيل الرابع[٣] له القدم الراسخ فى فنون العربية والأدب وجميع العلوم. لكن أشهر تواليفه ما كان فى العربية لاعتنائه بفنونها؛ لأنه أدرك زمن تغلب العُجمة ودخول الأعاجم فى الإسلام، ولا سبيل إلى معرفة حقائق الكتاب والسُّنَّة إلا بمعرفة الأساليب العربية والتوغُّل فى فنونها وإتقان قوانينها.

يروى أن الزندقة لم تكثر حتى أسلمت الأعاجم، واستعجمت العرب، وسبب ذلك الجهل بلسان العرب، إذ من أعظم معجزاته ﷺ القرآن الكريم، ولذلك تحدَّى الله العرب أنْ يأتوا بمثله، فى حسن تأليفه، وغرابة فَصاحته، وغزارة معناه، وجميل براعته، وجودة بلاغته، وحلاوته وبهجة طلاوته، فجاء الله به على الأسلوب الذى يأخذ بمجامع القلوب، لا تمجُّه الأسماع، ولا تملّه الطِّباع، فلما لم يكن فى وسعهم الإتْيان بمثله جملةً، تحدَّاهم على أن يأتوا بسورة من مثله، إذ

(١) فى النسختين هنا بياض.

(٢) تجهبذ: صار جهبذًا، وهو الناقد العارف بتمييز الجيد من الردىء، والجمع جهابذة.

(٣) محمد بن عبد الله بن مالك ولد فى جيان قرية من قرى الأندلس عام ٦٠٠ وتوفى فى دمشق سنة ٦٧٢ هجرية وهو قطعًا من رجال القرن السابع، لا الخامس ولا الرابع، ولم يمت بجيان والله أعلم.

الإتيان بالبعض أسهل فى العادة من الإتيان بالكل[١]، فسجَّل عليهم العجز قبل وقوع العجز، ليكون ذلك أبلغ فى الحجة، وأظهر فى المعجزة، فقال: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا**﴾ [البقرة:٢٤] فلم يفعلوا كما أخبر عنهم سبحانه، وكانوا أحرص شيء على إبطاله وتكذيبه بما هو من مقدورهم، إذ هم فرسان البلاغة وأرباب الفصاحة. يتعاطَوْن فنونها، ويحقِّقون شئونها، فمنهم الخطيب المصقع، والشاعر المبدع وذو البيان الساحر، فهو فيه كالبحر الزاخر.

فلما علموا أنه ليس من جنس ما تعاطَوْه من فصيح المقال، تيقَّنوا أنه من تنزيل الملك الحق ذى الجلال، فأسلم أكثرهم بمجرد سماعه إياه، وأقر المكابر الكافر أنه ليس من جنس كلام البشر، فمنعه من الإيمان النافع الخذلان، والشقاوة السابقة له والحرمان، كأبى طالب، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة.

روى محمد بن كعب القرظى قال: حدثت أن عتْبة بن ربيعة وكان سيدًا مُطاعًا، قال يومًا وهو جالس فى نادى قريش: ألا أقوم إلى محمَّد فأكلِّمه وأعرض عليه أمورًا فلعله يقبل منا بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكف عنا، قالوا: بلى يا أبا الوليد، وكان النبى ﷺ جالسًا وحده، فقام عتبة حتى جلس إلى النبى ﷺ، فقال: يا ابن أخى إنك منا حيث علمت من التوسط فى العشيرة، والمكان فى النسب، فإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقْت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها، فلعلك تقبل منا بعضها، فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع، قال: يا ابن أخى إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفًا سوَّدناك علينا، وإن كان هذا رَئِيًا[٢] تَراه لا تستطيع رده، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه أو نعذر، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يسمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟

(١) تعريف الكل والبعض، غير معروف فى اللغة العربية وينكره قدماء اللغويين.
(٢) الرِّئى: جنى يريه كهانة أو طبًا، أو يلقى على لسانه شعرًا، وأصل الرئى كغنى بالفتح، وقد يكسر: مس الجن يقال: به رئى من الجن أى مس.

قال: نعم. قال: فاسمع منى، قال: أفعل، قال: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ إلى ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:١ ـ ٥] ومضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها عتبة أنْصت لها وألقَى بيديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثم قال: أسمعته يا أبا الوليد؟ قال: قد سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائى أنى سمعت قولاً والله ما سمعتُ مثله قَطُّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، كما تزعمون، يا معشر قريش أطيعونى واجعلوها بى، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعتُ نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإنْ يظهر على العرب فَعِزُّه عِزُّكم، ومُلكه مُلككم، وكنتم أسعد الناس به، فقالوا له: لقد سحرك يا أبا الوليد بلسانه، فقال هذا رأيى فاصنعوا ما بدا لكم(١).

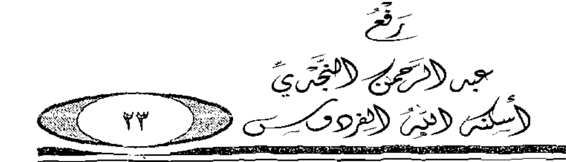
ويروى أن أعرابيًا سمع رجلاً يقول: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر:٩٤] فخرَّ ساجدًا، فقيل له: لم سجدت؟ قال: سجدتُ لفصاحة هذا القول.

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه بينما هو جالس، إذ قام على رأسه بِطْريق(٢) من بَطارقة الرُّوم يُحسن العربية، فإذا هو يَشهد بشهادة الحق، فسأله عمر عن سبب إسلامه، فقال: سمعت رجلاً من المسلمين يقرأ آية من القرآن، فإذا هى قد جمعت ما جاء به موسى فى توراته، وما جاء به عيسى فى إنجيله، قال: وما هى؟ قال قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ إلى ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠] فأسلم وحسن إسلامه، وكان بعد ذلك له باع فى العلم واجتهاد فى العبادة، ذا نيَّة وبصيرة وتحقيق.

* * *

(١) هذه القصة رواها أبو بكر الأنبارى عن محمد بن كعب القرظى وهى موجودة فى جميع التفاسير بألفاظ متقاربة.

(٢) البطريق، القائد من قواد الروم، وجمعه بطارقة.



• قال رحمه الله (١):

باب ما يفتح أوله فيقصر ويمد باختلاف المعنى

فالمقصور عبارة عَمَّا حبس آخره عن ظهور حركات الإعراب فيه من غير بناء فيتسبب عن ذلك ختمه بألف لفظًا قبلها فتحة لازمة، وإنما قُلت لفظًا لأنه ليس بألف حقيقية، وإنما هو صفة لما يشاكل الفتحة عند الإشْباع، وهو الألف، كما تشاكل النون التَّنوين لقصد التمكين، ولذلك يرسم تارة بألف، وتارة بياء، مراعاة لأصله، وهو فعله أو تثنيته أو جمعه أو مفرد مؤنثه، فإن ظهرت الواو في هذه المواضع، رسم ألف المقصور ألفًا، وإن ثنى أو جمع بواو أو ياء معًا، حمل على الأغلب منهما، فإن لم يكن له شيء من ذلك اختُبر بالإمالة والتفخيم، فالممال يرسم بالياء، وغيره بالألف، ويرسم من ذوات الياء بالألف ما أضيف، كهدا الله، ويرسم بالألف باجتماع ياءين ما كان كالحياء والزكا، ويرسم ألف ما كان كهوى ياء لظهور الياء في فعله، وهو هويت بكسر الواو، ولأن ذلك يدل على أن الألف في الرسم ياء.

وهذا التفصيل إنما يعتبر في المقصور الثلاثي، وهو الغالب، وأما الزائد على الثلاث منه، فيرسم بالياء وإن انقلبت ألفه عن واو، لأن أقوى دليل على أن أصله

---

(١) بدأ الشيخ رحمه الله هنا في أول باب من المنظومة وترك مقدمتها واستكمالاً للفائدة أثبتها وهي:

بدأنا بحمـــد الله فهـــو سناء	وللنطق منـــه بهجـــة وبهـــاء
وأهـديت مختـار السـلام مصليًا	على المصطفى الموصى إليه شفاء
وبالآل والأصحـاب ثنيت مثنيًا	بخير الثنـا إذ هم به جـــدراء
وبعـد فإن القصر والمد من يحط	بلفظيهمـــا تستنبـه النبهـــاء
وقـــد يسر الله انتهـــاج سبيله	بنظـم يرى تفضيلـه البصـــراء
له تحفـــة الودود تسمية فقـــد	تأتى بهـــذا للمـــراد جـــلاء
حوى كل بيت منه لفظين وجها	بوجهين في الحكمين فهو ضياء
دعـا فأجـابته المعـاني مطيعـة	وقـــد كـان منهـا منعـــة وإباء
وهـا أنا بالمنـــوى واف وإنمـــا	علامـة صـــدق العـازمين وفاء
ويا رب عـونًا فالمعـــان مـــؤيد	ومـــا لامرئ إن لم تعنه كفـاء

من الواو هو ظهورها فى الفعل الثلاثى، وذلك مفقود فيما زاد على ثلاثة أحرف من الأفعال، نحو أغزيت، واستغزيت، وغازيت، لأن الياء فى هذه الأفعال أصلها واو، بدليل الغزو، وعلة انقلاب الواو ياءً فى هذه الأفعال وقوع الواو فى مضَارعها إثر كسرة، وهو عند العرب مستقبح، ووقوع الواو إثر كسرة كوقوع الضمة بعد الكسرة، إذ الواو متولدة من الضمة، والخروج من كسرة إلى ضمة ثقيل، وكذلك الخروج من الكسرة إلى ما يتولد من ضمة وهو الواو، فترك من أجل فتحة، وهو الموجب لقلب الواو ياءً.

فإن قلت: إنما وجد ذلك فى المضارع فقط، فلم حمل عليه الأمر والماضى؟

قلت: لقربه من المصدر الذى هو أصل الجميع، ولمضارعة الاسم واعتباره فى البنية، وكثرة دورانه على المعتبرات من قواعد الأصول، فتقول: غزا يغزو غَزْوًا، فاتفق المضارع مع المصدر فى رد اللفظ إلى أصله وبقى الماضى ملازمًا لما دعا إليه التخفيف ونفى الاستثقال ولو خالف أصل البنية، فإذا وصلته بضمير رفع بارز متحرك، قلت: غزوت، وكسوت، وقسوت، وصبوت، ودنوت، وغدوت، وحبوت، بخلاف نوى وثوى وعتى[1]، فإنك تقول فى ذلك ومثله ثويت، ونويت، وعتيت، وبغيت، وعسيت، فإذا جمعت فى الأول، قلبت الواو ألفًا، كما فى مواضعها، فتقول: غزاة فى جمع غازٍ، وغَدوات فى جمع غداة، فلم يعتبر الماضى فى حالتيه، بل اعتبر الجمع والمضارع، وكذلك كساة وصباة، ولذلك حمل الماضى والأمر عليه، فيرسم آخر المقصور المبنى منها بالياء من أجل التلفظ بها فى فعله، وما ليس له فعل يحمل على ما له فعل فى الرسم، كالهناء، فإنه يحمل على ما له فعل كالخبا، إذ هو مشتق من الخباء أو الخبو، وهو الإخفاء والسكوت. قال الأعرابى للنبى ﷺ: خبأت لك خبيئًا قال له النبى ﷺ: إنى لست بكاهن، فقال له الأعرابى: بم أعرف أنك رسول الله؟ قال: أرأيت إن دَعَوْتُ تلك الشجرة فأقبلت تسعى، أتعرف أنى رسول الله؟ قال: نعم، قال له

---

(١) عتا: استكبر وجاوز الحد فهو عاتٍ، ويجمع على عتاة وهو واوى ويائى، والمصدر عتوًا وعتيًا، واوى، ولا يكتب إلا بالألف، ولعل الشيخ يقصد عنى بالنون التى تكتب بالياء لا عتا بالتاء، والله أعلم.

اذهب إليها، وقل لها: إن رسول الله يأمركِ أن تُقْبلي إليه، فأقبلت . . . الحديث.

أو هو من خبا يخبو: إذا خمد فنام، لأن الإنسان إذا نام فقد خبا، أى خمد، كما أن النار إذا خمد لهبها يقال لها: خبت.

وما تمحضت فيه الياء من نوع المعتل يقال له: منقوص، قيل: لنقص حرف الياء المعوض منها التنوين فى غير النصب، وقيل لقصره عن رتبة صاحبيه كقاضٍ، ورامٍ، وداعٍ، وناعٍ، وغواشٍ، وباغٍ، وطاغٍ، ويقال لها حروف اللين، أى الضعف، لأنها ليست بحروف عمدة كما قال المبرد، ويقال لها حروف العلة، وهى ضد الصحة، لكونها بالتقدير تمنع أواخر الكلم من ظهور علامات الإعراب ظهوراً يرى ويسمع، فما كان منها على الألف سمى تعذُّراً، وهو ما لا يوجد البتة، وما كان على واو أو ياء سمى استثقالاً، لصحة وجوده والنطق به، لكن مع الثقل لكون ذلك لغة لبعض العرب، وهى لغة رديئة، فإذا كانت العلامة خفيفة، ساغ ظهورها على الواو والياء لخفة الفتحة، وخفة حرفى اللين، إذ اجتماع الخفيفين يؤدى إلى إسقاط الكلِّ، بخلاف الألف لشبهه بحروف الإمالة وتمام رتبته فى اللين، لكونه يمد تارةً، ويقصر أخرى.

فإن قُلت: لِمَ لَمْ يكن خفيفًا كالواو والياء، وهما يَنْشآن عن حركتين ثقيلتين، وهو ينشأ عن حركة خفيفة؟

فالجواب: أنه صار وصفًا لحرف هو عمدة الحروف التى يعتمَد عليها، إذ الحروف كلها تألفت عنه، ولذلك سمى ألفًا، فاكتسب بذلك عدم الخفة، إذ للصفة ما لموصوفها من الحكم. قال الشاعر:

أربع بهـا تألَّه قلبى واستـ ... ـنارت بهـا همـوم سرِّى
ألف قـد تألَّف الكـون منه ... ثم لام إلى الحقيقـة تَسْرى
ثم لام مخصوصة بالمعـانى ... ثم هاء بها حياتى وسكرى

وقيل: إنما ظهرت الفتحة على الواو والياء دون الضمة والكسرة، لمجانسة الفتحة والواو والياء، لأنهما حرفان هوائيان، كما أن الفتحة حركة هوائية، إذ إنما سميت الفتحة فتحة، لانفتاح الشفتين عند التَّفوُّه بهما، وسُمِّيت الضمة ضمة

لانضمام الشفتين عند النطق بها، وسُمِّيت الكسرة كسرة لانكسار الحلقوم عند استخراجها، فمنشأ كلتا الحركتين من الشفتين، فتذهب الضمة صاعدة، ولذلك سُمِّيت حركة إعرابها رفعًا، وتذهب الكسرة منخفضة نحو الحلقُوم، ولذلك سُمِّيت حركة إعرابها خفضة، فالضم والفتح والكسر والسكون أصول، والرفع والنصب والخفض والجزم فروع، إذ هي أوصاف لأحوال الكلم حال الانتقال من الأصول إلى طوارئ انتقالات الإعراب بالعوامل الداخلة عليه لفظية كانت أو معنوية، فإذا بقي الكلم على أصله من غير موجب انتقال، فلا رفْع ولا نَصبَ ولا خفض ولا جزم.

والحاصل أن التوغُّل والإمعان فى هذه المباحث، يخرج بنا عن قصد الاختصار، فمن أراد شفاء الغليل، فلينظر فى شارح التسهيل شفاء العليل، يرى من ذلك العَجب العُجاب.

وأما المد، فهو ختم للكلمة بهمزة قبلها ألف لازمة، فى حال كون ذلك على أسلوب يختلف فيه المعنى المدلول عليه بالمقصور والممدود المتفقين فى المادة وترتيب الحروف، فأخرج بقوله: ما يفتح، ما يكسر وما يضم، وأدخل بقوله: ما يمد، اشتراك المقصور والممدود فى فتح الأول، فالذى لا يشارك فيه المقصور الممدود، هو أن يكون المقصور مفتوحًا، والممدود مكسورًا، أو العكس، أو يكون المقصور مضمومًا، أو مكسورًا، أو العكس، أو مع فتح المقصور، وأخرج بقوله: باختلاف المعنى، ما اتَّفقا فى معناه، وذلك أن المقصور والممدود المتفقين فى اللفظ قسمان، قسم مختلف فى المعنى، وقسم متفق فيه، وبدأ الناظم بالكلام على المختلف المعنى، لكثرة أنواعه، وتنوُّع جزئياته بالنسبة إلى المتفق فى المعنى، وكل من القسمين قد يتفق فى الحركة، وقد يختلف فيها، فالمتفق فى الحركة ثلاثة، والممدود أنواع، فى كل منها أنواع، وهى فتح المقصور، وفتح الممدود، وعكسه، وفتح المقصور، وضم الممدود، وعكسه، وضم المقصور، وفتح الممدود، وعكسه، فمجموع الأنواع تسعةٌ، فكلها استوفاها المختلف المعنى، وجاء المتفق المعنى منها بنوعين، فتح المقصور مع ضم الممدود، وضم المقصور مع ضم الممدود، وضم المقصور مع كسر الممدود، فصار مجموع ذلك ستة عشر بابًا.

• ثم قال رحمه الله:

١١ ـ أَطَعْتَ الهَوَى فَالْقَلْبُ مِنْكَ هَواءُ   قَسا كَصَفىً مُذْ بَانَ عَنْـهُ صَفَـاءُ

قوله: أطعت الهوى، فيه نوع من البديع، يقال له التجريد، وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصًا يخاطبه، والطواعية: الانقياد والإذعان معنى.

فإن قيل: الهوى معنى، والمعنى لا يتأتَّى منه الخطاب حتى يستحق الطواعية والانقياد. . .

فالجواب: أن الأكوان كلها مرتَّبة على أربعة أنواع، الحس، والمعنى، والعَرَض، والجوهر.

ثم الحس على أربعة أقسام، كثيف كجسم الإنسان، وجرم الأرض وأنواع الناميات، وخفيف كالهواء، ومخلخل كالماء والنار، وشفاف كالسماء والزجاج.

والأجسام منفعلة[١] للمعانى ولذلك صار الجسم تابعًا للقلب، أى للمعنى الحاصل، لا للمضغة الصنوبرية[٢].

قال رسول الله ﷺ: «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب»[٣].

وقال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] ومعناه: أن العمى المضر ليس هو عمى الأبصار المتعلقات بالمحسوسات، وإنما هو عمى البصائر المتعلقات بالمعانى والمعنويات، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلق الأكوان كلها دفعةً، ثم رتَّبها على حكمته فى الأزل، فأول شىء خلقه الذرة، فجعلت تسبح ألف ألف عام حيث لا أرض ولا سماء ولا لوح ولا قلم ولا عرش ولا كرسى، فلما أراد ظهور الأكوان نظر إليها بعين الجلال فتصدعت فانبجست[٤]

---

(١) يريد أن الجسم يتأثر بالأشياء المعنوية، كما هو مشاهد فى السرور والحزن والأمراض وغير ذلك.

(٢) الصنوبرى: ما كان بهيئة ثمر الصنوبر مستديرًا طويلاً أو مخروطيًا.

(٣) هذا جزء من حديث رواه الشيخان وغيرهما وأوله: «الحلال بين والحرام بين». وهو عن النعمان ابن بشير ولم يرو صحيحًا إلا عنه، ذكر ذلك الحافظ فى الفتح (جـ١ ص١٢٦).

(٤) انبجست: انفجرت. وقيل: الانبجاس: أول الانفجار.

منها العناصر الخمسة، وهى الماء، والرياح، والنور، والظلمة، والنار، فنظر إلى الماء، فلما نظر إليه ذاب وجعل يرتعش، ثم جرى فصار بحارًا وأنهارًا، وخلق العرش فنصبه على متن الماء، وذلك قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧] ثم خلق اللوح والقلم والنُّون[١] دفعةً، فجعل القلم يمد من النون، واللوح يمد من القلم، وكل يمد من علم الله الأزلى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] وكان اللوح من ياقوتة حمراء، والقلم من الذهب النفيس، والمحبرة من النور الخالص، فلما شرع القلم فى الكتابة قال: أى رب، وما أكتب قال: اكتب مقادير كل شىء حتى تقوم الساعة.

قيل: إن أول ما كتب اسم محمد ﷺ وأمته، فقال: أمة مذنبة، فلما كتب أمة مذنبة، قال الله له: مه يا قلم تأدَّب، فانشق هيبة لخطاب الله تعالى، فقال: أُمَّةٌ مرحومة، وربٌّ غفور، فكتب مقادير كل شىء فى يوم واحد، وذلك قوله ﷺ: جف القلم بما هو كائن[٢].

فَإِنْ قلت: فما وجه الموافقة بين الأثر والآية؟ وهى قوله: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

فالجواب أن القلم جف من الابتداءات، وبقى سوق المقادير إلى المواقيت، وهى التى سمع رسول الله ﷺ صرير الأقلام بها ليلة أسرى به، وهو قوله «حتى ظهرتُ لمستوى أسمع فيه صرير الأقلام»[٣] وهو استنساخ الملائكة من الأم.

ثم لما أكمل العالم كله خلق آدم، لأن العالم مخلوق من أجل آدم، فلما تم

(١) النون: الدواة ـ المحبرة.

(٢) هذه القصة لم أجد لها سندًا، أما جف القلم بما هو كائن، فهو حديث حسن، روى بهذا اللفظ، وورد جزءًا من حديث طويل عن ابن عباس بلفظ: كنت رديف النبى ﷺ فقال يا غلام... إلخ. رواه أبو القاسم بن بشران وكذا القضاعى عن أبى هريرة، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وهو حديث حسن وللقضاعى عن ابن مسعود بلفظ: جف القلم بالشقى والسعيد، ورواه الديلمى بلفظ جرى بدل جف. اهـ، والله أعلم.

(٣) أسمع صرير الأقلام، جزء من حديث الإسراء الذى رواه الشيخان وغيرهما وهو عند البخارى بلفظ صريف بدل صرير. اهـ.

خلقه قال: يا آدم أتدرى لم خلقتك؟ فألهمه أن قال: خلقتنى لأعبدك وأعرفك، فقال له: صدقت فإنى خلقتك من أجلى، وخلقت الخلق من أجلك: فلا يشغلنَّك ما خلق لك عما خلقتَ له، فأخذ عليه العهد وعلَّمه الأسماء كلها، وذلك مقدار أربعين يومًا من أيام الدنيا، ثم خلق الله تبارك وتعالى جسمًا روحانيًا نورانيًا، فأمره أن يتوغَّل فى جسد آدم، وأن يكون حاكمًا على عالمه، فلما أدخله قال[١]: إذ جعلتنى حاكمًا على هذا الجسم المخالف لنوعى، فأعِنِّى، فقال له: أعينك بملَك من أكرم الملائكة يكون معك فى بيتى، وهو قلب آدم وقلوب بنيه، فخلق العقل وأرسله، وأمره بسكنى القلب وإعانة الروح على من ناوأه، ثم خلق النفس من عالم الشيطان، فركبها بين نار وظلمة، ثم أمرها بالتوغُّل فى جسد آدم، ووكلها على مصالحه الدنيوية وسياسة معايشه البهيمية، فقالت له: أى رب اجعل لى وزيرًا من جنسى أستأنس به، وأستعين به على مطالبى، فقال لها: إنى قد خلقت لك الهوى، فَبعثه وأمره بسكنى الجانب الأيسر، فقال له: أى رب إنى أستوحش وأضعف إن لم تجعل لى وزيرًا من أهلى، فقال الله تَبارك وتَعالى: إنى جعلت لك الشيطان وزيرًا، ولكن لم أجعل لكما سلطانًا على حزبى ومن أطاعنى، فجعلت النفس تشتهى، والشيطان يعد ويمنى، والهوى يقود ويكايد، ويدعو إلى نفسه. ثم الهوى على ثلاثة أقسام، هوى قرب، وهوى حجب، وهوى سلب.

فهوى القرب هو الذى يورث التهتك وعدم التمالك.

قالت رابعة العدوية[٢]:

أحبك حُبَّين حُبَّ الهـوى	وحُـبًا لأنـك أهـل لـذاك
فأما الذى هـو حُـب الهوى	فشغلى بذكرك عمن سـواك
وأمـا الذى أنـت أهـل له	فرفعك للحجب حتَّى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى	ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

(١) كذا فى الأصل، ولعل العبارة، أى رب إذ جعلتنى.

(٢) رابعة بنت إسماعيل العدوية أم الخير مولاة آل عتيك صالحة مشهورة بصرية لها أخبار فى العبادة والنسك اختلف فى محل وسنة وفاتها، والأرجح أنها توفيت بالبصرة عام ١٨٥ هجرية، الأعلام (ص٣١ جـ ٣).

وهو حظُّ المقربين، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] فإن قلت: ما الحكمة فى التكرار؟

قلت: السابقون أولاً الذين سبقت لهم منا الحسنى، بأن رش عليهم الحق من نوره، قال الرسول ﷺ: خلق الله الخلق فى ظلمة، فرَشَّ عليهم من نُوره، فمن أصابه اهتدى، ومن لم يصبه ضل[1] فسبقوا بذلك هوى الغواية والنفس الأمَّارة، فما تَلَوَّثُوا بجرم، وما تريثوا بظلم، وما تدنَّسوا بِهَمٍّ. لم يقرءوا من سطور الدنيا حرفًا، وما منحوها طرفًا، وما اشتموا من شهواتها عرفا، فجوزوا أن لا يسمعوا للنار حسيسًا إذ لم يباشروا محرمًا ولا خسيسًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١، ١٠٢] وأما السبق الأخير، فهو السبق إلى الخير بامتثال كل الأوامر من غير كسل ولا تثاقل، مقرونًا بالبر والإخلاص، عاريًا عن الأغراض والرياء والسمعة[2] حتى يكون كأبى بكر[3] الصديق رضى الله عنه. روى أنه لم يسبق إلى مكرمة ولا إلى أمر خير حتَّى أن النبى ﷺ حث أصحابه يومًا على الصدقة، وما كان ثمة، فقال عمر[4] رضى الله عنه: لئن سبقتُ أبا بكر اليوم فلا أبالى أن لا أسبقه بعدها، فذهب مبادرًا أن يأتى بشطر ماله، فبلغ ذلك أبا بكر، فتجرد من جميع ماله، فلما جاء عمر بشطر ماله، وجده عند رسول الله ﷺ وقد تجرَّد منْ ماله، فلم يترك إلا عباءة فتخلل فيها، فقال عمر: إنك لا تُسْبَق، إذ لم أسبقك اليوم، فهم أصحاب الرفيق الأعلى .

---

(١) لم أجد هذا الحديث.

(٢) السمعة اسم المرة من سمع، يقال فعل الشىء رياءً وسمعة، أى ليراه الناس ويسمعوه.

(٣) أبو بكر هو عبد الله بن أبى قحافة كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة فسماه النبى ﷺ عبد الله، التيمى القرشى، وقيل كان اسمه عتيق وهو أول من أسلم من الرجال وأفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ وخليفته من بعده وصاحبه فى الغار وله من المآثر الشىء الكثير توفى فى جمادى الآخرة سنة ثلاثة عشرة وعمره ٦٣ سنة. اهـ. استيعاب مختصرا (ص٣٢ جـ ٢).

(٤) هو عمر بن الخطاب بن نفيل القرشى العدوى أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بثلاث عشرة سنة وله من المآثر ما لا يحصى، كان إسلامه فتحًا، وسماه النبى ﷺ الفاروق، وبويع بالخلافة بوصية من أبى بكر الصديق، وتوفى يوم الأربعاء لأربع بقين من شهر ذى الحجة سنة ٢٣ شهيدًا ودفن مع صاحبيه رضى الله عنه. استيعاب بتصرف (ص٤٥٩ جـ ٢).

وأما هوى الحجب، فهو الذى يحجب أصحابه عن أن يدركوا بصفاء زجاجة القلوب أنوار مشكاة الغيوب، فلا يلهمون علمًا، ولا يشاهدون عَلَمًا، قال الرسول ﷺ: «من أخلص لله أربعين صباحًا تفجرت ينابيع الحكمة من قلبه، وجرت على لسانه»(١) وقال: إن تسأل عنى أغبر أشعث رأى علمًا فهو يطلبه حتى يدركه.

لكن هؤلاء حجبهم الران(٢) قال تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين:١٤] من ارتكاب مباح الشهوات حتى أنتج سنوح(٣) الغفلات المفضى إلى ارتكاب صغائر المحظورات، فهؤلاء أصحاب المعاناة، فتارة يستيقظون من نوم الغفلة فيقدون(٤) حجاب الشهوات، ويقبلون على النفس باللوم ويقطعون مادتها بالذكر والصوم، لرقة الحجاب، وقرب العهد بالمثاب، فيخنس الشيطان المعانى، ويظهر الملك الروحانى. لخبر: إن الله وكل بالقلب ملكًا وشيطانًا، فمسكن الملك جانب القلب الأيمن، ومسكن الشيطان جانب القلب الأيسر، فإذا ذكر المؤمن الله خنس الشيطان، وظهر الملك، فلا يزال يأمر بالخير ما ذكر الله، وإذا غفل العبد وسوس الشيطان وسلطت الأعوان، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦] فهذا مُقتصد، فإن جاهد نصر، وإلا قهر، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت:٦٩].

---

(١) حديث «من أخلص لله»... إلخ. ضعيف جدًا، أورده ابن الجوزى فى الموضوعات وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (ص١٤٥ جـ ٣) وقال المناوى بعد أن ذكر كلام ابن الجوزى فيه وتعقبه المؤلف بأن الحافظ العراقى اقتصر فى تخريج الإحياء على تضعيفه وهو تعقيب لا يسمن ولا يغنى (ص٤٤ جـ ٦) كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت (رقم ٣٨ جـ ١)، قلت جميع الروايات التى عثرت عليها بلفظ ظهرت بدل تفجرت وطرق الحديث إلى أبى أيوب وأبى موسى وابن عباس كلها ضعيفة فرواية أبى أيوب فيها يزيد الواسطى قال فيه ابن حبان كثير الخطأ فاحش الوهم. وأما رواية أبى موسى ففيها عبد الملك وهو مجهول، وقال ابن عدى: إنه منكر الحديث. وأما رواية ابن عباس ففيها سوار بن مصعب قال فيه أحمد ويحيى متروك ولذلك فأقل درجات الحديث الضعف الشديد والله أعلم.

(٢) الران: الغلبة، ران الشيء فلانًا وعليه وبه غلب عليه، تقول: ران هواه على قلبه: غلب عليه.

(٣) سنح: عرض، ومراده ما يعرض للإنسان من الغفلات.

(٤) يقدون: يشقون.

والثالث هو الظالم لنفسه، لملازمة هوى السلب، لأنه يسلبه حلية التقوى، ويكسوه جلباب البلوى، إذ الهوى ضد التقوى، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] للمقتصدين ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٣٧ ـ ٣٩].

والطغيان لغة: مجاوزة حد الصلاح إلى الفساد، قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة: ٥] وهى الصيحة المجاوزة لحد الإمكان حتى قطعت نياط قلوب أمم عظيمة فى أجوافها، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ﴾ [الحاقة: ١١] أى على الخزَّان، أى بأنْ لم يزنُوهُ، واصطلاحًا: الكِبْر، والإعجاب، وبَطَر الحق، واحتقار الخلق، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧] ويطلق ويراد به الظلم والكفر، قال الله تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ [النجم: ٥٢] ويطلق ويراد به الغُلُوُّ فى الدِّين، قال الله تعالى لبنى إسرائيل: ﴿وَلا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١] وإنما ذكر النفس فى كفة المقتصدين، لأن زمامها بأيديهم، إذ لم يتوغَّلوا فى مزابل العاجلة، ولم يمكنوا الهوى من أنفسهم كل التمكين، فهو ووزيره لم يزالوا منهم فى عناء!

وأما الطائفة الظالمة، فقد اتخذت الهوى معبودًا، والشيطان خِلاًّ مودودًا، والدنيا عذبًا مورودًا، يمرحون فى رياضها، ويكرعون فى حياضها، ويتيهون فى غياضها[١] مكنوها من رقابهم، فصارت سببًا لتبابهم[٢] لا يتقون شبهة ولا حرامًا، ولا يخافون بغيًا ولا آثامًا.

ويروى أن الشيطان إذا رأى قومًا يبكون من الموعظة، اعتزلهم وهو يقول: يا ويلاه، فتقول له الدنيا مالك؟ فيقول: كيف لا أبكى وقد خاب كدى، وبطل كيدى وجدى، هؤلاء عبيدى كنتُ قد استحوذت عليهم، يبكون من خشية الله، فتقول له مهلاً، ما هو إلا أن يتفرقوا من هذا المجلس، فآخذ رقاب الكل،

---

(١) الغياض جمع غيضة: مجتمع الشجر فى مغيض الماء.
(٢) التباب: الهلاك.

فأمكنك من نواصيهم، فإنى قد عرفت من حبى فى قلوبهم ما لم تعرفه، فلا يفلحون أبدًا، وذلك قوله ﷺ: «حب الدنيا رأس كل خطيئة»[(١)].

يروى أن يحيى بن زكريا رأى الشيطان يومًا فقال: ما تبتغى منى يا لعين، فقال: إنى لم آتك عن رضى منى، ولكن الله اضطرنى إلى الذهاب إليك، وأمرنى أن أصدقك، فكان مما قال له: إن بنى آدم على ثلاث طوائف، أما اثنتان فقد استرحت منهما، طائفة معصومة مثلك، وطائفة قد كفتنى مئونة أنفسها، يركبون من الغى أكثر مما آمرهم به، وأما الثالثة فإنى منها فى عناء ومشقة، فيوم أُدال عليهم حتى أبلغ منهم الأمانى، ويوم يدالون علىَّ حتى لا أجد إليهم سبيلاً حتى يفْسدوا علىَّ جميع ما تقدم، ولست أدرى لمن تكون العاقبة، ولا أراهم إلا غالبىَّ.
قال الرسول ﷺ: «إنما بعثنى الله داعيًا إليه، مبشرًا ونذيرًا وناصحًا، وليس إلىَّ من الهداية شىء، وجعل الشيطان يعد ويمنى، وليس إليه من الضلالة شىء، ومصداق ذلك فى كتاب الله قوله: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦] وقال فى حق إبليس: ﴿**يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا**﴾ [النساء: ١٢٠].

فمن أراد الله هدايته تجلَّى عليه باسمه الهادى عند بعثة الرسول أو دعوة الولى أو أمر العالم، وربما وقعت الهداية من غير واسطة كما لِقُس[(٢)]، وبحيرا[(٣)]،

---

(١) حب الدنيا... إلخ. ضعيف جدا، رواه البيهقى فى الزهد له وأبو نعيم فى الحلية، وأورده السيوطى ورمز له بالضعف والإرسال قال المناوى. قال البيهقى لا أصل له من حديث النبى ﷺ وقال العراقى هو من مراسيل الحسن وهى عندهم شبه الريح ومثل به فى شرح الألفية للموضوع إلى أن قال وتعقبه ابن حجر بأن ابن المدينى أثنى على مراسيل الحسن. اهـ (ص٣٦٩ جـ٣) كما أورده صاحب كشف الخفاء وقال رواه البيهقى فى «الشعب» له بإسناد حسن إلى الحسن البصرى، ورواه البيهقى أيضًا فى كلام عيسى، وقال ابن الغَرْسِ الحديث ضعيف. اهـ (رقم ١٠٩٩ جـ١) كشف. قلت: أقل درجات الحديث الضعف الشديد. والله أعلم.

(٢) هو قس بن ساعدة بن جذامة الإيادى البليغ الخطيب عده بعضهم من الصحابة والصحيح أنه مات قبل البعثة وكان من المعمرين وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا، وأول من قال أما بعد (إصابة ص٢٦٤ جـ٣) باختصار.

(٣) بحيرا الراهب: قيل إنه كان من يهود تيماء، وقيل كان نصرانيًا من عبد القيس يدعى جرجيس =

وزيد بن نفيل[1].

ومن أراد إضلاله تجلّى عليه باسمه المانع فلا ينجع فيه رسولٌ ولا كتاب ولا دَعْوةُ داعٍ، ولا يرشده برهان، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦]، وقال: ﴿وَمَا تُغْنِى الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١].

فالهوى بمنزلة الملك، والنفس زوجته، والشيطان وزيره، والشهوات حبائله وأسلحته، وأعمال السوء جنده، والدنيا محلُّ سرِّه ومكره قال الشاعر:

إنى بُليت بأربع يرمونني | بالنَّبل عن قوس لها توتير
إبليس والدنيا ونفسيَ والهوى | يا رب أنت على الخلاص قدير

قال ﷺ: «لا يزال المؤمن فى جهد جهيد حتى يلاقى ربه» لأنه لا يزال بين منافق يؤذيه، وكافر يعاديه، وفاسق يحسده، وشيطان يعده، ونفس تشهيه، ودنيا تستهويه، وهوى يكابده، فإن جاهد الكل وصابره وتوكل على الله، كفاه شرهم، ووقاه ضرهم، اقرءوا إن شئتم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٣] المجاهدة تُيسِّرُ المشاهدة فيضْعُفُ كيدهم[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦] ولكن لا مطلقًا بل بالنسبة إلى كيد الله، لأنه لا يدعو إلى حق ولا حقيقة، وقد بين الله قوة كيده بقوله: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [النساء:٨٣] وذلك من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه موكول إلى ذلك، معان عليه إلا من عصم الله.

الثانى: أنه لا شغل له يشغله عن غواية بنى آدم. وقد ركب الله فى هذا النوع

= وله قصة مع النبى ﷺ حين خرج تاجرًا إلى الشام، ولا يعلم أأدرك البعثة أم لا. اهـ إصابة (ص ١٧٩ جـ ١).

(١) زيد بن عمرو بن نفيل العدوى: والد سعيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، مات قبل البعثة بخمس سنين وكان على دين إبراهيم عليه السلام، إصابة (ص ٥٥٢ جـ١).

(٢) هكذا وردت هذه العبارة فى الأصل، وهى غير واضحة.

الإنسانى من الحظوظ والكلف ما لا يكاد يقوم بتدبيره من مرمّة[١] معاشه، وضروريات طبعه، من منكح وملبس وغير ذلك، فضلاً عن أن يقوم بمعاناة عدوٍّ غَوى[٢] مسلَّط عليه، ومع ذلك يراه ولا يراه.

الثالث: أنه لا يكابر ولا يأتى فى صورة صديق ناصح، ولا يأمر النفس إلا بما يخف عليها ويوافق طبعها، ولذلك صار الباطل خفيفًا. وجدير بميزان لا يوضع فيه إلا الباطل أن يكون خفيفًا، وجدير بميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يكون ثقيلاً. قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ**﴾ [القارعة: ٦ ـ ٩]، وقال ﷺ: «أكبر معبود عبد فى الأرض الهوى»[٣].

وقال الله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ**﴾ [الجاثية: ٢٣] وأما قوله[٤] فى المعانى: إنها لا تخاطب لأنها جماد فهو مذهب كلامى لا طائل تحته، ومذهب القرآن والسُّنَّة والرسل والأولياء متفق على أن المعانى تؤمر وتنهى وتعقل حتى تدخل فى ذلك الجمادات، إذ لا تخصيص للحيوانات عن غيرها، بل كل ذلك موكول إلى تخصيص الله، قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿**إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ**﴾ [يوسف: ٥٣]، وقال النبى ﷺ: «يؤتى بالموت على صورة كبش أملح، حتى يوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة ويا أهل النار هل تعرفون هذا فيقولون: هذا الموت فيذبح»[٥].

---

(١) أصل المرمة: تناول الدابة العيدان بفمها، أو الأكل عموما، والمراد هنا ما يجمعه الإنسان لمعاشه.

(٢) الغوى الضال المنقاد للهوى.

(٣) حديث أكبر معبود عبد فى الأرض الهوى موضوع أخرجه الخرائطى من طريق الحسن بن دينار عن خصيب وعنه أورده ابن الجوزى فى موضوعاته بلفظ ما تحت ظل السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع وقال هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ والحسن والخطيب كذابان عند علماء النقل (٣/١٣٩) موضوعات.

(٤) الضمير فى عبارة: أما قوله، لا أدرى على من يرجع، لعل العبارة: أما قول من قال إن المعانى لا تخاطب. والله أعلم.

(٥) حديث «يؤتى بالموت» حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب التفسير (ص ٤٢٨ جـ ٨)، وفى كتاب الرقاق (ص٤١٥ جـ ١١ فتح)، ومسلم فى باب جهنم (ص ١٨٦ جـ ١٧) نووى، =

وأنه ﷺ قال: «إن البقرة وآل عمران يأتيان يوم القيامة وكأنهما غمامتان أو غيايتان[١] يشفعان لقارئهما»[٢].

فبان من هذا واتضح أن المعانى تتشكّل وتخاطب وتعقل وتعرف الله وصالح عباده، كخطاب أم ملدم[٣] النبى ﷺ وأمره إياها أن تذهب إلى الجحفة، ورؤية بعض الصحابة لها، وكانوا سيارة، فسألهم رسول الله ﷺ: «هل رأيتم فى مقدمكم هذا أحدًا»؟ قالوا: لا، إلا أنا رأينا امرأة سوداء ثائرة الرأس، فقال رسول الله ﷺ: «تلكم الحمى أمرتها أن تذهب إلى مهيعة» وهى الجحفة كما فى حديث: «اللهم انقل حمى المدينة واجعلها بالجحفة» ورؤية خالد بن[٤] الوليد العُزّى تدعو بالويل فضربها فجدلها باثنتين[٥]. وفى هـذا الباب مجال رحب، والحاصل أن قدرة الله صالحة لكل شىء فلا فرق بين ما تقدم وبين سماع العظم وإنطاق اللحم

= والترمذى فى تفسير سورة مريم (ص ١٠٦ جـ ٨) تحفة، وأوله فى بعض روايات البخارى إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جىء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ثم يذبح... إلخ.

(١) الغمام: السحاب الملتف، والغياية إذا كانت قريبًا من الرأس. اهـ.

(٢) حديث إن البقرة وآل عمران... إلخ. صحيح رواه مسلم فى باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة (ص ١٩٧ جـ ٢) كما رواه أحمد. وأوله اقرءوا القرآن فإنه يأتى يوم القيامة شفيعًا لأصحابه اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران... إلخ.

(٣) أم ملدم: الحمى. وقصة دعائه ﷺ بنقل الحمى إلى مهيعة ثابتة فى الصحيح.

(٤) خالد بن الوليد بن المغيرة القرشى المخزومى سيف الله أبو سليمان شهد مع كفار قريش الحروب إلى عمرة الحديبية ثم أسلم سنة سبع بعد خيبر، شهد فتح مكة وما بعده فى بلاد العرب والشام والعراق، مات بحمص سنة ٢١ هـ وقيل بالمدينة (إصابة ص ٤١٥ جـ ١).

(٥) قصة العزى التى أشار إليها الشيخ رحمه الله هى كما نقل: أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره. كانت العزى شيطانة تأتى ثلاث سمرات ببطن نخلة فلما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد فقال: ائت بطن نخلة تجد ثلاث سمرات فاعْضُد الأولى فأتاها فعضدها فلما جاء إليه قال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا، قال: فاعْضُد الثانية، فأتاها فعضدها ثم أتى النبى ﷺ فقال: هل رأيت شيئًا؟ قال: لا، قال: فاعضد الثالثة، فأتاها فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها تعرف بأنيابها وخلفها دبيَّةُ السلمى وكان سادنها فضربها ففلق رأسها فإذا هى حممة ثم عضد الشجرة وقتل دبية السادن ثم أتى النبى ﷺ فأخبره فقال تلك العزى. اهـ (١٧ ص ١٠٠) قرطبى.

وإبصار الشحم.

والحاصل أن الهوى من حيث هو هوى، عبارة عن جماع الشر حتى يدخل فى ذلك الكفر، وسمى الهوى بذلك، لأنه يهوى بصاحبه فى النار أو المهالك التى تؤدى إلى العطب.

قوله: فالقلب، الفاء استئنافية، وسمى قلبًا لكثرة تقلُّبه، مبتدأ، خبره هواء. قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [الأنعام: ١١٠] فلما نزلت هذه الآية شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: «أنخشى سلب الإيمان بعدما خالطت بشاشته قلوبنا واطمأنت إليه أنفسنا؟ قال: نعم، إن قلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها ظهرًا لبطن» فلما سمعوا ذلك تغشَّوا إحراماتهم، وجعلوا يبكون، فأنزل الله ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧][1].

وقال ﷺ: «لقلب ابن آدم أشد تقلُّبًا من ريشة ملقاة بأرض فلاة تقلِّبها الرياح ظهرًا لبطن»[2] فالقلب بيت الله، إذا صار قلبًا بأن انسدت ثقب الرياح الأربع ببلاط التفويض ولَبِنِ التسليم، وأسكفُّ التقوى، ومنازل اليقين، فإذا لم تجد رياح الأهواء منفذًا إلى سويداء القلب، اشتعل مصباح البصيرة، لأن المصباح لا يضىء مع هبوب الرياح فيأخذ القيم المصباح بيده فيقتل أفاعى الشهوة، وعقارب الغفلة، وقُطَّاع المعصية، وجواسيس الهوى، ثم تمده عساكر التقوى فيغُض بها جنود الهوى، فيأخذه أسيرًا، فيسجنه، ويَتَزَوَّجُ الروح النفس بعد إسلامها واستسلامها فيهذِّبها بعد ما عذَّبها، وفى هذه الرياح وضدها والبصيرة نظمت فقلتُ:

---

(١) حديث إن قلوب العباد... إلخ. صحيح رواه مسلم فى باب تصريف الله تعالى القلوب (جـ ٨ ص ٥١) كما رواه أحمد والنسائى إلا أن رواية مسلم إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ثم قال ﷺ اللهم مقلب القلوب صرف قلوبنا على طاعتك. اهـ.

(٢) حديث لقلب ابن آدم أشد تقلبًا... إلخ. هذا حديث حسن رواه الطبرانى فى الكبير، والبيهقى فى شعب الإيمان قال العراقى فى تخريج الإحياء إسناده حسن وللبزار نحوه بإسناد ضعيف إلا أن أوله مثل القلب كمثل ريشة: (جـ ٣ ص ٤٥) قلت وروى أحمد نحوه باسناد رمز له السيوطى بالصحة. وقال فيه الحاكم على شرط البخارى ورده الذهبى انتهى مناوى (ص ٢٨١ جـ ٥).

أيها السالك نهج القوم لا ... تَدَع الباب رهيًا(١) للرياحْ

وتدبَّر قوله تذروه إن ... كنت ذا سرٍّ تصب عين الفلاحْ

فبماءِ العلم تحيا وبه ... يخرج النبتُ رويًا بالبطاح

وإذا حلَّ الذوى ساحته ... بسموم الغيظ تبدو بالصباحْ

أو بيات عن رياح أربع ... شُرَّع تترى بحتف وارتياحْ

فَبِشُحٍّ ثم حرصٍ ونزا ... عٍ وشكٍّ تنفرى وتُبَاحْ

فبذا يخمد مصباح الهنا ... ويعود الليل بالويل البواحْ

فتعوَّذ بالعزيز الحق من ... كلِّ شرٍّ تكف من كل التياح

واترك الخوف من الغير فما ... ينفع الخوف فتيلاً بالصفاح

وتدرَّج بنيار الحق لا ... تترك الحزم وبالعزم النجاح

ثم سلِّم للمليك الحق لا ... تخلع الربقة من ذاك الملاح

فإذا ظهر أصحاب اليمين على أصحاب الشمال، صار القلب كله يمينًا فأمطرت سماء همته على أرض عزْمته فأنبتت حدائق ذات بهجة، فانهمرت سيول العلم، فجرت في بساتين الفهم، فاستقلت الإشارة، وكلت العبارة، وشوهد حق اليقين ببصائر التمكين، وانتفى الخلاف، وثبت العدل والإنصاف، وأمنت الغوائل، واتضحت الدلائل، وأجريت على حقائقها الرسائل، واتسع البيت، وأثمر الزيت، واتصلت الأنوار، وزكت الأسرار، وانعقدت بالأعمال الصالحة الثمار، وتبسمت أزهار الأحوال وزالت الحجب بين العرش وطيبات المقال، فثبتت الولاية، ورسخت وأينعت(٢) أغصانها فشمخت وشحنت البيت المعمور بالزوار، وطافت به العمار وجرت شمس المعرفة فى بروج القطبانية وقمر الأنس فى منازل القدس ونجوم الاستدلال فى مراكز أبدال الرجال، ودارت أفلاك الجلال بطباق طبقات ذى الجلال، وخط قلم التعبير فى لوح محفوظ التذكير، وسبَّحت رعود الغيم،

(١) رهيًا: ضعيفًا.

(٢) أينعت الثمرة، نضجت ولم أجد من وصف الغصن بالنضوج.

وسحت أصداف الحكم في بحار العلم، وغرَّدت أطيار الشوق على أشجار الذوق، وتظاهرت المعصرات، وتواطأت المسرَّات، وهبَّت رياح النشور مبشرات بالحبور، وطاب الهوى، وأينع الذوى، وتاب الاعتدال عن معالجة الدواء، وساح بحر العين على بحر الرَّيْن، فعذُب الأجاج، وذهب اللجاج، وخامرت الأنوار الزجاج، وقل الفجاج، وصفا الامتزاج، وفقد الهرج، إذ عدم المرج، ولم يحاول الخرج، فقرت العين وزال البين فصار بحرًا مسجورًا، وبيتًا معمورًا، ورقًا منشورًا، وسقفًا مرفوعًا، وحمى ممنوعًا، واسعًا لا موسوعًا، قال الله تعالى: لا تسعنى أرضى ولا سمائى، ولا عرشى ولا كرسيى، ولكن يسعنى قلب عبدى المؤمن[1] أى لا يعرفه حق معرفته إلا قلب المؤمن، وما ذاك إلا لما أودع الله فيه من لطائف المعارف والكشوفات والطرائف، وهذا التنصيص بالتخصيص بلغ غاية التشنيف[2] بالتشريف، حتى يفضلوا بذلك عالم الملائكة الكرام، وظهر ذلك ليلة الإسراء، لما جاوز جبريل سدرة المنتهى، أقام فقال رسول الله ﷺ: أيترك الخليل خليله فى مثل هذا الموضع؟ فقال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ [الصافات: ١٦٤] فلو تجاوزته قيد شبر لاحترقت، فسار رسول الله ﷺ فى خفارة سره حتى مزق جميع الحجب، وحتى بلغ إلى قاب قوسين أو أدنى، فتواطأ قلبه وقالبه، وبصره وبصيرته، وهمه وهمته، وليلة المكر[3].

آخى الله بين جبريل وميكائيل، ثم قال لهما: إنى قد جعلتكما أخوين، وإن عمر أحدكما أطول من عمر الآخر، فهل فيكما من يؤثر أخاه بفضل عمره؟ فقالا: إن لم تكن عزيمة منك فلا.

فقال لهما: اذهبا إلى محمد وأعلماه أن قومه قد هموا أن يمكروا به ليثبتُوه أو

---

(١) حديث لا تسعنى أرضى ولا سمائى... إلخ. قال فيه العراقى: لم أر له أصلا ولفظه فى الإحياء لم تسعنى أرض ولا سماءٌ ووسعنى قلب عبدى المؤمن اللين الوادع. اهـ (ص ١٤ جـ ٣) إحياء، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٢٥٦ وقال فيه قال ابن تيمية: هو مذكور فى الإسرائيليات وليس له إسناد معروف عن النبى ﷺ والله أعلم.

(٢) التشنيف: تزيين الكلام. وأصله كل ما يعلق فى أذن الجارية من الحلى.

(٣) ليلة المكر: هى الليلة التى هم المشركون فيها بقتل النبى ﷺ وأقام عليًا مكانه ولم يصبه سوء لحماية الله له.

يخرجوه أو يقتلوه، فلا يبت على فراشه، وليأمر عليًا فليبت على فراشه يبشر نفسه بنفسه، فإنه يرضى بذلك، فاحرساه ولا يصلوا إليه بمكروه، فلما فعل علىٌّ ذلك، جلس جبريل عند رأسه، وميكائيل عند رجليه، وهما يقولان بخ بخ[1] من مثلك يا ابن أبى طالب؟

وكذلك لما زُج بإبراهيم فى المنجنيق[2] ضجت ملائكة السبع فقالوا إلهنا ليس لك فى الأرض إلا خليل واحد، وقد أجمع أهل الأرض على أن يرسوه فى النار فيك، فقال لهم: إن استغاث بكم فأغيثوه، فأتاه ملك المياه فقال: إن شئت فجرت لك الأرض عيونًا، فأطفأت نارهم، فقال لا أستغيث بغير ربى، فرجع وهو يبكى، ثم أتاه ملك الظلام فقال له: إن شئت أطفأت لهيبها بالظلال، فقال له: لا، فرجع كذلك فأتاه جبريل حين زُج به فقال له: ألك حاجة؟ فقال له أما إليك فلا. وأما إلى الله فبلى، فقال: سله، فقال علمه بحالى أغنانى عن سؤاله، فلما رفع همته الشريفة عن الخلق أقبل عليه الحق فقال: ﴿يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلامًا﴾ [الأنبياء:٦٩] فبطلت النيران فى ذلك اليوم، فلم ينتفع بها أحد، ولو لم يقل وسلامًا لمات إبراهيم من البرد. اهـ. فلا يزال القلب يتقلَّب حتى تثقله صنوج[3] اليقين، ومع ذلك فينبغى للمؤمن أن لا يزال خائفًا من تقلبه، لأن الرسول ﷺ كان كثيرًا ما يقول «اللهم مثبت القلوب ثبت قلبى على الإيمان»[4] ويأمر أصحابه بذلك، إذ هو محل الكنز، والكنز لا يؤمن عليه، إذ لابد له من خازن أمين، وبيت حصين، وقفل متين، فالكنز الإيمان، وخازنه القرآن، وأمينه الرسول، وحصنه القلب، وقفله اليقين، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]، وقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧]، وقال: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ

---

(١) بخ بخ: اسم فعل معناه عظم الأمر، ويكون للإعجاب بالشيء والمدح ويكرر للمبالغة. اهـ.

(١) المنجنيق: آلة حربية ترمى بها القذائف ـ يونانية ـ جـ مجانيق.

(٣) صنوج: ما يوضع فى الميزان ليوزن به، معربة.

(٤) حديث اللهم مثبت القلوب... إلخ. حسن رواه الترمذى والحاكم وصححه بلفظ «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك» وفيه زيادة: قالوا أو تخاف يا رسول الله قال وما يؤمننى والقلب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.
كما أورده فى الكشف تحت رقم ٣٢١٥. والله أعلم.

قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فالقلب من حيث هو قلب لا حركة ولا سكون للجوارح إلا به.

انتبه بعض المحبين من نوم الغفلة، ولمع له صباح الوصلة، فرأى قرطاسًا قد أسودَّ وجهه، فقال: عهدى بك أبيض اللون كافورى[1] الأديم، فلم سوَّدتَ وجهك؟ قال: ما سوَّدتُه باختيارى، ولكن سودنى الحِبْر، فقال للحِبْر: لم سوَّدتَ وجه القرطاس حتى عاد نَهارُهُ ليلاً؟ فقال: كنت ساكنًا فى المحبرة التى هى وطنى، فجاء القلم بالقهر فاختطفنى، فقال للقلم: لم أخرجتَ الحِبْر من وطنه، وأزعجته عن سكنه؟ فقال: اسمع قضيتى فإنى مظلوم، ولعله قَدر وأنت تلوم، كنت قصبة نابتة على شاطئ النهر بين الغُصن والزهر فى نعيم دائم وصلاح قائم، أعانق الرند[2] وأُقَبِّل الورد، فجاءت اليد بسكِّين صنعت للقطع والفصل، فأخرجتنى من محل الوصل، وأزالت قشرتى التى كانت لى بُرْدًا وقدَّتنى قدًا، وفصلتنى على قدر الشبر، وألزمتنى خِدْمة المِحْبَرة والحبر، فلا أزال فى كد وانزعاج، وحثٍّ واستخراج، ولقد نثرت الملح على جرحى بسؤالك[3] فاسأل اليد: فقالت اليد: لا أملك لنفسى ضرًا ولا نفعًا، ولا لغيرى جلبًا ولا دفعًا، وهل رأيت جسمًا يتحرك بنفسه، أو يتصرف دون أن يصرف؟ وإنما ركبتنى فوارس، وهى القدرة والقوة والاستطاعة، فقالت الاستطاعة: ليس بيدى تسخير، ولا أقدر على تقديم وتأخير، إنما أنا منتظرة لما يرد على من حضرة القلب، والإرادة على لسان العقل بواسطة العلم، فأنا لا أعدم ولا أوجد، ولا أقيم ولا أقعد، إنما أنا رق المغدور، ولا أحدث أمرًا من الأمور، فاسأل الإرادة الآدمية ماذا صنعت؟ فقالت: على الخبير وقعت، أنا منقطع الحوالات، إلا أن عندى حوالة أخرى، ولا يمكننى إفشاؤها قال: ولم؟ قالت: لا تفهمها، قال: ولم؟ قالت: لأنك فى عالم الملك والشهادة، وأنا مبدأ عالم الملكوت والسعادة، إنما أنا البحر، إن أمكنك أن تطيق

---

(١) كافورى الأديم: نسبة إلى الكافور المادة البيضاء المعروفة التى تستخرج من شجرة الكافور. والكافور: طلع النخل. والأديم: الجلد، والمراد أنه أبيض.

(٢) الرند: شجرة صغيرة طيبة الرائحة صالحة للزينة وتعتبر رمزًا للنصر.

(٣) كناية عن الألم الشديد، لأن الملح يثير الجروح.

تلاطم أمواجى، وإلا فعليك بالساحل، لأن ذلك العالم لا يُسمع بهذا الصماخ، ولا يبصر بهذه العين، وإنما تبصر ببصرك الصور وتعى بقلبك العبر، أما سمعت قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وكانوا يسمعون الأصوات، لكنهم أحياء كالأموات، فاسأل القلب، فقال القلب: إنما أنا كاللوح لم أنبسط بنفسى، ولكنى بسطت، فاسأل العقل، فقال العقل: إنما أنا سراج لم أشتعل بنفسى، ولكنى أُشعلت، فاسأل العلم، فقال العلم: إنما أنا نقش ولم أنقش نفسى، ولكنى نُقشت، فاسأل القلم، فقال: قد سُئلت فى أول الأمر، قال: وأى طريق سلكته فى النظر؟ أطريق البصيرة، أم طريق البصر؟ قال: طريق البصر، قال: هيهات، تركت الطريق، وخالفت الركب والرفيق، وسلكت طريقًا لا توصل إلى مقصود، ولا تحمل على قرب المعبود:

فانظر بقلبك إن العين كاذبة ... واسمعْ بقلبك إنَّ السمع خَوَّانُ

فاسلك طريق العبرة، وأعدَّ زاد الفكرة، تصل إلى الحضرة، فإنْ لم تقدر على هذا الطريق، فبضاعتك مُزجَاة[1]، وعملك قليل، ومركبك ضعيف، والهلاك فى الطريق الذى تتوجَّه فيه كثير، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت عليه، فما هذا بفعل من يصل إليه، فادرج فإن الكُلَّ ميسَّر لما خلق له، فإن الأُذُنَ التى فى الرأس، عند البهيمة والكافر، فافتح أُذُنَ قلبك، وبصِّر بصيرتك لتدرك القلم الذى لا كالأقلام، الذى ينقش على الدوام، أنواع العلوم والإرادات، وأسباب الشقاء والسعادات، فلم يخطئ وكاتب لا يسأم، وحروف تعجم بآيات لا تتوهَّم، فقلمه لا كالأقلام، ويده لا كالأيدى، ففتح عين بصيرته، فرأى القلم الإلهى، فسأله: فقال: جوابى جواب القلم الأول، فقال: وكيف وأنت لا تشبهه؟ فقال: وأى فرق بينى وبينه؟ فى معنى التسخير هو ظاهر للعيان، وأنا لا أدرك إلا بالأذهان، مَثِّلْ بعين بصيرتك الملِكَ، والسموات مطويَّات بيمينه، وكذلك الأقلام فى قبضته، فسأل، فقال: سلِ القادر، فقال: لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون:

(١) مزجاة يدفعها كل من رآها لرداءتها: أى مغشوشة.

لابد من جريان الحكم يا لُكَع[1] والبحث عن سرِّه فى الصدر لا يسعُ
حُكْم المهيمنِ جـارٍ فى بريَّتـه وكلهم لنفاذ الحكم قـد خَضَعوا
فـذا يقرِّبه من غير مـا عمل وذا يُبَعِّـدُه منـه فَيَنْقَطعُ
وليس يُسأل عن شىء يُقَدِّرُهُ لأنـه مَلِك والملك مُتَّسـعُ

فلما أكمل رتبة القلب، وبوَّأ له عالم القلب، وفكَّه من ربقة السلب، وردَّه إلى حضرة القرب، اشترى له زوجته فحرَّرها من ربقة الطبع، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] فيا له من بيع ما أسرَفه! ومن خطاب ما أظرفه! وإذا كان المشترَى جليلاً والدَّلال نبيلاً، والثمن جزيلاً، كانت السِّلعةُ نفيسة، وهذه صفة نفس المؤمن، فالله مشتريها، ومحمدٌ دَلاَّلُها، والجنةُ ثمنُها، والقلب الشريف مَسكنُها، وإنما اشترى النفس، ولم يشتر القلب، لأن القلب سليم، والنفس معيبة، أو لأن النفس معيبة، والقلوب حبيبة، فاشْترى المعيب لمصلحته، لأنه قادر على إصلاح العيوب وذهاب أمراض النفوس. وقيل: إنما اشترى نفس المؤمن ليؤيس منها إبليس، فإن ادَّعى فيها دعوة صارت دعواه باطلة، لأن المشترى الأول أحق بها منه ومن سواه.

واعلم أن القلب مع اتساعه، ليست له إلا وجهة واحدة، كما قال الصادق المصدوق.

فقلب العارف لا وجهة له إلا ربه، فوجهته أبدًا إلى فوق، وقلب المؤمن الكامل الإيمان، وجهته أبدًا إلى اليمين، وقلب المنافق لا وجهة له، تقلِّبه الرياح أبدًا كالريشة، ووجهة قلب الفاسق إلى الشمال فى غالب أحواله، ووجهة قلب الكافر إلى تحت أبدًا.

قوله: هواء، أى فارغٌ خالٍ من كل خير، لأن الهوى إذا تسلط على القلب لا يُبْقى ولا يَذَر، فيصير الروضُ هشيمًا، والخير رميمًا[2] والغَنى عديمًا، والصحيح سقيمًا، فإعصاره يهدم، وعواصفه تردم، وحريق نيرانه يعدم، فلما كانت تلك

---

(١) يا لكع: يا لئيم أو يا أحمق.
(٢) رميمًا: باليًا.

حالة أصحاب الهوى، قُبضوا عليها، وبعثوا بها، قال الله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ [إبراهيم:٤٣] وفيه من البديع نوع واحد، وهو الجناس التام على رأى ابن الحاجب، خلافًا للسَّفُّوجى القائل بأن المقصور والممدود متغايران، فيكون على رأيه الجناس الناقص بوصف حرف.

وقال شيخنا المغيلى: المد والقصر لا يُعد نقصًا ولا مغايرة، إذ يجوز فى صنعة الشعر قصر الممدود ومد المقصور، ولم أعثر على كتاب وقع كله فى الجناس إلا فى هذا الكتاب، وفيه من المنطق الاشتراك، وهو اتفاق اللفظ، واختلاف المعنى، عكس الترادف، فالهوى خلو القلب من كل خير، والهواء الفراغ، والهواء ما بين السماء والأرض، والهواء الرياح، وهو من باب تسمية الشَّىء باسم ملازمه، لأن حقيقة الريح تحرّك الهواء، فَلَمَّا كانت كلما تحركت تحرك الهواء، سميت هواءً.

فإن قلت: ما الفرق بين الريح والهواء؟

قلت: الفرق بينهما أن الهواء جسم خفيف، فلا لون له، بخلاف قوس قُزح(١) فإن له لونًا يدرك به، ويقال له الفتق والفراغ، إذ لا يمنع التحيز، ومنزلته للطير منزلة الماء لدواب البحر، ألا تراها سابحة فى الجو تَصفُّ تارة، وتقبض أخرى، وكما أنه لا حياة لدواب البحر إلا بجو الماء، كذلك لا حياة لحيوانات البر إلا بجذب الهواء، فتبرد الحرارة الغريزية بما يلابسها من برودة الهواء المجذوب بالتنفس، ثم يخرج قدر ذلك من الحرارة المنعكسة فى الصدر، فيلقيها فى الفراغ، فتتكثف الحرارة فى الهواء، فتأتيها الأرواح فتغرقها(٢) ولذلك روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن الله أمسك الرياح يومًا واحدًا لأنتن كُل ما على وجه الأرض، ولماتت الحيوانات، وهى جند الله الأعظم»(٣).

---

(١) قوس قزح: حادث جوى يظهر بشكل قوس فى السحاب يتكون من الألوان الآتية بالترتيب: بنفسجى - نيلى - أزرق - أخضر - أصفر - برتقالى - أحمر - وسببه تحليل أشعة الشمس فى كريات ماء السحاب.

(٢) هذا التحليل قبل أن يكتشف الأكسجين، وباقى مكونات الهواء بالتحديد. وما عبر عنه بالبرودة هو الأكسجين وما عبر عنه بالحرارة هو ثانى أكسيد الكربون وبخار الماء والغازات الأخرى.

(٣) حديث «لو أن الله أمسك الرياح». . . إلخ. لم أجده مخرجا.

وأما الرياح، فعنصر من العناصر الخمسة. ولها حقيقة وتكيف، فتأتي بيضاء وصفراء وحمراء وسوداء وغبراء، وجنوبًا وشمالاً وصبًا ودَبُورًا ونكباء[١] وصرًا وإعصارًا، وعاصفًا وقاصفًا، ومبشرات ونشرًا ومرسلات، ولها فلك يخصها، وخازن يكفُّها ويزنها، وهو إسرافيل عليه السلام، وهو كروبى[٢] وله أعوان لا يحصون، وهو مَلَك عظيم، قدماه تحت الأرض السابعة، وعُنُقه تحت العرش، والأرضون إنما يبلغن حقوه، وله جناح بالمغْرب، وجناح بالمشرق، وقد التقم الصور.

وفى كتاب «العظمة» لأبى الشيخ بن حبان ما نصه: إن إسرافيل أتى النبى ﷺ فقال له: على أى شىء أنت؟ قال: على الريح والنفخ فى الصور، قال: وميكائيل؟ قال: على خزائن المال، قال: وعزرائيل؟ قال: على قبض الأرواح، قال: وجبريل؟ قال: على الوحى والجنود، والريح مسلَّطة على الخفيفين الماء والهواء، ويقال لهما: الأطيبان، لأنهما يطهران كل خبيث، وذلك أن الله تعالى لما خلق العناصر سلَّط الريح على الماء، فهيَّجت أمواجه، فاضطربت حتى علاها الزبد، وثار بينهما دخان، فتراكم الكل فانعقد الزبد، فصار الجميع رتقًا[٣] فتجلى الله عليهما فقال لهما: ﴿ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] فأمرهن فتفتَّقن إلى أربعة عشر فتقًا، فخلق الأيام، ثم بدأ خلق الأرض فى يومين، وقدَّر فيها أرزاقها، ومدَّها فى يومين، تلك أربعة، ثم استوى إلى السماء وهى دخان، فقلب أعيانها، ورفع سمكها فى يومين، فصيَّر الدنيا[٤] زُجاجة، والثانية حديدًا، والثالثة نحاسًا، والرابعة[٥] وَرِقًا، والخامسة ذهبًا، والسادسة ياقوتة حمراء، والسابعة نورًا يتلألأ، وذلك فى ستة أيام، ثم خلق الشمس والقمر، والأفلاك والنجوم والشهور فيما بين العصر والمغرب من يوم الجمعة، وخزن الريح تحت

(١) ليست الرياح عنصرًا، وإنما هى مجموعة من الغازات، أما تلونها فبسبب ما يعلق بها من غبار وأتربة وخلاف ذلك.

(٢) الكروبيون: سادة الملائكة ـ وهم المقربون ـ مأخوذ من الكرب وهو القرب (١٨/ ٢٦٧) قرطبى.

(٣) رتقًا: ملتئمًا، أو مسدودًا.

(٤) أى السماء الدنيا من زجاج.

(٥) وَرِقًا فضة.

البحر المسجور، فهي التي تجفف ماء البحار يوم القيامة بعد تفْجيرها، وتثير النار وتنفخها وتزيد في زفيرها.

وفي كتاب «العظمة» أنها ليست في الأرض دابة إلا ومثلها يسكن الهواء، حتى السمك فترزق في الهواء، كما ترزق دوابُّ البحر في الماء(١).

وفي «الصواعق المحرقة» للسيوطي(٢) ما نصه: أن المأمون(٣) العباسي خرج يومًا يتصيد في خيل من خواصه، ومعه بيزان(٤) وشواهين، فاستعلى بعضُهم حتى غاب في الهواء، فجاء بسمكة قدر الشِّبْر، فعجبوا، فقال المأمون: هلم نختبر عِلْم النفس الرضية، فإن بَني عليٍّ يدَّعون علومًا لا نعرفها، فغَيَّبوا السمكة، وأقفلوا نحوه، فلما أتوه، قال له المأمون: إنَّا جئناك لنسألَك عن أمر جهلناه، فقال له بديهَة: إن الله أسكن الهواء أممًا، من جملتها حيتان على قدر الأشبار، خلقها الله ليمتحن الملوك بها ذرية الأنبياء، فأدهش المأمون ما سمع، فترجل عن فرسه، وقبَّله بين عينيه، وقال له: قد فرَّجتَها يا قُرَّة العين، وأظهرت فضل أهل بيتك، فما ينكره بعد هذا إلا حاسد معاند، فأمر له بمال جزيل ومراكب فُرْه(٥)، وديار، وأدناه وقرَّبه، حتى صار لا يتغدَّى إلا معه، وحتى همَّ باستخلاف بنيٍ علي، فَصدَّهُ عن عزمه بنو عمه من بني العباس، إلا أنه أدْناهم، ورفع منزلتهم، وأبطل ما كانت تسومهم به ملوك بني العباس وبني أمية من القتل والتشريد(٦).

---

(١) لا سند لهذه القصة ولعلها من الإسرائيليات.

(٢) المعروف أن «الصواعق المحرقة» للشيخ شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ هـ واسمه الكامل «الصواعق المحرقة على أهل الرفض والزندقة» والذي للسيوطي، هو «الصواعق على النواعق» المتوفى سنة ٩١١ هـ. فليتنبه.

(٣) المأمون العباسي: هو عبد الله بن هارون الرشيدي بن محمد المهدي، سابع خلفاء بني العباس وأحد أعاظم الملوك، ولي الخلافة بعد خلع أخيه الأمين سنة ١٩٨ فقامت دولة الحكمة في أيامه توفي عام ٢١٨ هجرية ٤/ ٢٨٧/ أعلام ز.

(٤) البيزان: جمع باز: طائر القنص المعروف. والبازدار: حامل الباز ـ فارسية.

(٥) فره: جمع فاره، وهو النشيط الخفيف!

(٦) هذه القصة التي نقل الشيخ رحمه الله من كتاب «الصواعق» يبدو عليها الوضع لاستحالة ما ورد فيها شرعًا وعقلاً من معرفة علم الغيب ووجود الأسماك في الهواء والله أعلم.

قوله «قسا كصفا» أى القلب، وذلك كناية عن عدم قبوله المواعظ والنصح، وعدم رحمته للصغير والبهيمة والضعيف، وعدم شفقته على الكبير والفقير، وكفرانه العشير، وعدم تحننه على المعاهد، قال الرسول ﷺ: «حسن العهد من الإيمان»[١]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] ثم بيّن كونها أشد قسوة بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] فكذلك قلوب الخاصة، فقلوب الأنبياء والوارثين من الأولياء تتفجّر منها أنهار العلْم والحكمة، فالأنبياء بالوحى تارة، وتارة بالإلهامات، وتارة بالمكالمات، وتارة بالنفث فى الرّوع، وتارة رؤيا منام، وتارة يؤخذون عن عالم الحس إلى عالم الغيب، إلى سبعين نوعًا، ومادتُهم جبريل، وبساطهم ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: ٦]، و ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٧].

وأما الأولياء، فكذلك[٢] إلا أنهم لا يأتون بشرع جديد، ولم يؤخذ عليهم العهد بالتبليغ، كما أخذ على الأنبياء، بل واجب عليهم الكتمان[٣] إلا ما لا بُدَّ منه قال بعضهم:

من سَارَرُوهُ فأبدى السِّرَّ مُنْكشفًا	لَم يَأْمنوه على الأسرار ما عاشا
وأبعـــدوه ولم يحظ بقربهمُ	وأبدلوه مكان الأُنس إيحاشا

ومادتهم إسرافيل، وبساطهم ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وأما التى تتشقق فيخرج منها الماء، فَقلوب السالكين أهل المجاهدة، ولا مادة لهم، وبساطهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩].

---

(١) حديث «حسن العهد من الإيمان» حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وهو من حديث طويل أوله: جاءت عجوز إلى النبى ﷺ أخرجه الحاكم فى المستدرك (١/ ١٦) والديلمى عن عائشة وهو فى كشف الخفاء تحت رقم ١١٤٦ وقال رواه ابن عبد البر عن أبى عاصم. اهـ، والله أعلم.

(٢) إن الأولياء ليسوا كالأنبياء. ولعل العبارة غير هذا.

(٣) الشرع لا يجوز كتمان شىء منه على الإطلاق. وأحرى أن يكون واجبًا وإن لم يكن المكتوم شرعًا فلا خير فيه.

وأما التي تهبط من خشية الله، فقلوب كانت في غُرورِ الشرف، وزخرف التَّرف، فذكرت بوادر ربَّانية، فانحطت إلى رتبة التواضع، فانتفعت ثم ارتفعت، ولذلك مثال، وهو ماء الغيث، فإنه يلقى بنفسه من عنصر رفعته إلى الأرض الجرز[1] فيتبدَّد، وتبتلعه الأرض، ويأخذ منه كل حيوان بغيته، فلا يمكث إلا أيامًا قلائل حتى يُرى وقد علا غصون الأشجار، وكساها خضرة، وصارت له مراكب وطية، وثيابًا هنية نقية، ثم يصير روضًا أنيقًا ذا حسن عتيق، ثم يعلو عن ذلك فيصير نَوْرًا[2] وزهرًا، ثم يعلو عن ذلك فيصير زرعًا وثمرًا، وفواكه غُلْبًا[3]، فيأكله الأنبياء والأولياء والمؤمنون، فيصير لحمًا ودمًا، فيصير حيوانًا بعد ما كان من جنس الجمادات، ثم يدخلون به الجنة، فيكون خالدًا بعد ما كان فانيًا، وبعضه يمطر على البحار فتبتلعه الأصداف، فيكون جواهر نفسية[4] فيلتقطه الغوَّاصون، فيذهبون به إلى الملوك والأشراف، فيتخذون منه تيجانًا يجعلونها على المفارق، وحليًا تجعله العذارى على النحور والترائق؛ لأن من كان في الله تلفُه، كان على الله خَلَفُه، ومن كان في الله كسره، كان على الله جبره، ومن كان في الله بدايته، كانت إلى الله نهايته.

وعلامة قسوة القلب عدم الضراعة، لا سيما عند مخايل العذاب، قال الله تعالى ﴿**فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنعام: ٤٣].

يروى أن الله تعالى لا يعذِّب قومًا خُشَّعًا بالرقة، ولا خُضعًا بالطاعة والدعاء، قال الرسول ﷺ: «لولا بهائم رتَّع وصبيان رُضَّع، ومشايخ رُكَّع، لَصُبَّ عليكم العذاب صبًا»[5].

---

(١) الجرز القاحلة: الأرض التي لا تنبت.

(٢) النور ـ بفتح النون ـ: الزهور.

(٣) لعل العبارة وحدائق غلبًا، وهى الحدائق الملتفة الكثيرة.

(٤) يريد بالجواهر: اللؤلؤ، وهو ما يستخرج من الأصداف من الدر، إلا أنه ليس من المطر وإنما هو من عيب ينشأ داخل الصدفة فتفرز مادة، تكون حبات اللؤلؤ. وقد أنشئت أماكن لإنتاجه باليابان بواسطة وخز الصدف بالإبر.

(٥) حديث: لولا بهائم رتع... إلخ. حديث ضعيف، أورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن، إلا أن شارحه المناوى قال: قال الذهبى فى «المهذب» ضعيف، ومالك وأبوه مجهولان.. وقال =

وقال «لا يردُّ القضاءُ إلا الدعاءُ، فإنهما يلتقيان في الجو، فلا يزالان يعتلجان ويتصعَّدان[١] حتى تقوم الساعة»[٢]، وقال ﷺ «ثلاثة من علامات الشقاء: جمود العين، وقساوة القلب وذرابة اللسان»[٣]، وقال «إن الله نزع الرحمة من قلوب المنافقين».

ويروى أن عيينة بن حصن[٤] دخل على النبي ﷺ فوجده يُقبِّل الحسن[٥] فقال: أتقبِّل الصبيان يا محمد وإني ولدت أحد عشر ولدًا فما قبَّلت واحدًا منهم، فقال له الرسول ﷺ: «قد نزع الله من قلبك الرحمة».

فظهر عليه بعد وفاة الرسول ﷺ من الارتداد والخبث والنكث ما هو مشهور في كتب السير. ومن شؤم القساوة أنها تمنع الإجابة، ولا يزداد صاحبها بذكر الله إلا بُعدًا منه، قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

يروى أن الصحابة أتوا النبي ﷺ عندما أنزل الله قوله: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ

= الهيثمي بعدما عزاه للطبراني: فيه عبد الرحمن بن سعد ابن عمار، وهو ضعيف، وبه يعرف ما في رمز المصنف لحسنه من التأمل، إلا أن يكون اعتضد. اهـ (٥/ ٣٤٤).

قلت: والسيوطي أورده بلفظ «لولا عباد لله، بدل بهائم. قال صاحب «كشف الخفاء» بعد أن أورده بألفاظ كثيرة وفي «التحفة» لابن حجر وورد في خبر ضعيف (٢/ ٢٣٠) والله أعلم.

(١) يعتلجان: يتصارعان.

(٢) حديث «لا يرد القضاء إلا الدعاء» هذه الفقرة صحيحة، والحديث بتمامه... إلخ. ضعيف رواه أحمد والطبراني والبزار بلفظ «لا ينفع حذر من قدر. والدعاء ينفع ما لم ينزل القضاء، وإن البلاء والدعاء ليلتقيان بين السماء والأرض فيعتلجان إلى يوم القيامة».

كما أخرجه الهيثمي في كتابه (١٠/ ١٤٦) وقال رواية أحمد والطبراني فيها انقطاع. ورواية البزار فيها إبراهيم بن خثيم وهو متروك. والله أعلم.

(٣) حديث ثلاثة من علامات الشقاء... إلخ. لم أجده مخرجا بهذا اللفظ.

(٤) عيينة بن حصن الفزاري يقال كان اسمه حذيفة فسمي عيينة لأنه كان أصابته شجة، فجحظت عيناه، أسلم قبل الفتح ثم ارتد في عهد أبي بكر ثم عاد إلى الإسلام، وكان فيه جفاء سكان البادية، وسماه النبي ﷺ الأحمق المطاع. مات في خلافة عثمان رضي الله عنه سنة ٢٠ (٣/ ٥٦). اهـ.

(٥) الحسن بن علي بن أبي طالب سبط رسول الله ﷺ وريحانته، أمير المؤمنين، ولد في شهر رمضان عام ٣، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ «إن ابني هذا سيد وسيصلح الله به بين فئتين من المسلمين» مات مسمومًا سنة ٥٠ أو ٤٩ هجرية (١/ ٣٣٠) إصابة.

﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ﴾ [الأنعام:١٢٥]. فقالوا لرسول الله ﷺ: هل لذلك من علامة؟ قال: «نَعم التجافى عن دار الغُرور، والرغبة فى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت».

والقسوة أمر محسوس، يمنع حلاوة الدِّين، ويصدُّ عن الإقبال، ويحرم التوفيق، قال الله تعالى: **﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾** [الأنعام:١٢٥] وذلك أنه لا يجد فى قلبه محلا لقبول الحق، ولا قابليته أصلاً، ولو أراد ذلك واجتهد فيه، فيجد ذلك كالمستحيل، كما أن الصعود إلى السماء بغير سُلَّم مستحيل، فضرب لذلك مثَالين فى عدم إمكان التَّصعُّد إلى السماء، ووجود الحرج، وهو ما يُحَاولُ[1]، لكن مع مشقة فادحة تمنع من لم يذق حلاوة الإيمان مكابدة العمل فى طلب تحصيل المرغوب، إذ من علامات الخذلان بذل المجهود مع وجود الحرمان، وعلامة التوفيق تيسير أعمال الخير بدون كبير مؤونة، وعلامة الرقة، جريان أنهار الدموع من عين معين الخشوع، قال الله تعالى: **﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾** [الحديد:١٦] فجعل الإيمان ناقصًا ما لم تخشع القلوب لذكر الله، قال الرسول ﷺ: «إذا اقشعرت أبشاركم لذكر الله، فاسألوا الله من فضله، فإن الله لا يردُّ دعاءً برز من قلب خاشع» وفى رواية: «فإن الدعاء عند الرقة مستجاب».

قال الشاعر:

إِذا قسا القلبُ لم تَنْفَعْـهُ موعظَـةٌ　　　كالأرض إِنْ أسبخَتْ لم يَنْفَعِ المطر

ثم ضرب الله مثلا للقلوب بما أنزل من الوحى والإلهام بقوله: **﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾** [الرَّعد:١٧] من الباطل رابيًا على مياه الحق **﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾** [الرعد:١٧] فالسماء سماء الغيوب، والماء ماء العلم، والأودية أودية القلوب، فقلوب الأنبياء أنهار، وقلوب الأولياء أودية، وقلوب المؤمنين شعاب، فكلٌّ سال بقدره **﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾** [البقرة:٦٠] فاحتمل سبيلُ الصفا زبد الجفا حتى غمره فاختفى، فأرسل الله

---

(١) كذا فى الأصل «ما يحاول» بالبناء للمجهول.

رياح الاصطفاء فصيرت الزبد[١] جفاءً، وعاد الغلو هباءً، فسكن العلم النافع، ومكث، وعزل الباطل ونكث، فالحق يدوم، والباطل يحوم، والصفا نوع من الحجارة معروف، وله بريق وصلابة، ولذلك سمى باسم الصفا، والصفا جبل بمكة معروف، وهو من شعائر الحج[٢] وعليه أغاث الله هاجر أم إسماعيل بالسقى، بعد أن سعت سبعة أشواط بينها وبين المروة، وهو جبل أيضًا، وسمى بالمروة، لأن عامة حجارته مراوى، وهى حجارة زرعية[٣] هينة الصدع، وهى أول من سعى، وقيل: إن آدم سعى مع جبريل بينهما لما بنى البيت المشرَّف، فوفق الله هاجر، ففعلت ذلك من غير علم ولا قصد، فصار بعد ذلك نُسُكًا إلى يوم القيامة، وإنما عبَّر المصنف بالصفا، إشارة إلى أن القلب أصله الصفا، إلا أن كدرته أمور طارئة عليه من جهة الشهوة والهوى والطبع، قال الرسول ﷺ «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه».. إلخ[٤]. فالقلب فى البدن بمثابة الحجر الأسود فى البيت، أنزل من الجنة، وله شعاع، فسودته ذنوب بنى آدم بكثرة لمسها إياه، وكذلك القلب لما خلقه وأسكنه الله العقل والروح؛ اتصل شعاعه بشعاع العرش، فدنَّسته النفس والشيطان والهوى بلمس أيديهم، وحجبوه بدخان مكائدهم وغُبار عوائدهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء:٨٤] فمنصور مؤيد، ومقهور مقيد، وذلك قول الناظم «مذْ بان عنه صفاء» فـ «مُذ» من أدوات الجر، منذ، «بان» بمعنى انفصل، تقول: أبنت الرأس، أى قطعته وفصلته عن بدنه، ويأتى بمعنى بَعُد.

قال الشاعر:

* بانت سُعاد فَأَمْسَى حَبْلُها انفصما *

وتُغُزِّلَ بـ«بانت سعاد» فى سبعين قصيدة، ويقال: بان إذا ظَهَرَ، وأبان: إذا

---

(١) فى الأصل (ب): الزبدين ـ بالتثنية.

(٢) يقصد الطواف بين الصفا والمروة، وهو ركن من أركان الحج.

(٣) كذا فى الأصل. ولعل مراده أن حجارة المروة تصلح لإنبات الزرع لعدم تماسكها، والله أعلم.

(٤) حديث كل مولود يولد على الفطرة... إلخ. طرف من حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما بروايات مختلفة.

أفصح، وأبان المرأة: إذا طلَّقها، قال الحجاج[١] لهند: كُنتِ فَبِنْتِ، فيقال: طلاق بائن، والبينونَة: المفازة. و «عنه» متعلق بـ «بان» والضمير عائد على القلب ونكر الصفا للشُّمُول والاستغراق، كقوله ﷺ: «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين»[٢] والصفا إما يوصف به أربعة أشياء: القلب، قال الشاعر:

وقالوا قد صفَتْ منَّا قلوب … نَعَمْ صَدَقوا ولكنْ من ودادِ

والزجاجة: قال الشاعر:

إن الزُّجاج وإن صفت جواهره … يشينهُ اثنان كَشْفُ السِّرِّ والخَبَرِ

والماء، قال الشاعر:

ولى خُلُق كَسِلْسَالٍ مَعِينٍ … زلال من على الأحجار جار

يقال: صفا مشربه، وصفا مورده، كناية عن الماء، وعن الطمأنينة بعد التشريد، والتمكين بعد المصاولة والتنكيد، والحدقة إذا لم يكن بها ظفر ولا رواق ولا قذى.

وفى «الحكم العطائية»: ليس الصوفى من لبس الصوف، ولكن الصوفى من صفا قلبه من الكدر، وامتلأ من العبر، واستوى عنده الذهب والمَدَر[٣] ونَعْت القلب بالصفاء أمر معنوى، وهو عبارة عن لينه ورِقَّته، قال الرسول ﷺ: «أهل اليمن ألين قلوبًا وأرقُّ أفئدة، والغلظة والجَفاء فى الفدَّادين[٤] أهل الوبر من

(١) الحجاج: هو الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى داهية سفاك خطيب، ولد ونشأ بالطائف، ثم سافر إلى الشام والتحق بشرطة روح بن زنباع نائب عبد الملك ثم قلده عبد الملك بن مروان أمر عسكره، وأمره بقتال عبد الله بن الزبير، فزحف إلى مكة المكرمة، وقتل ابن الزبير، ثم ولاه عبد الملك مكة والمدينة والطائف، وأضاف إليهما العراق له حسنات مغمورة فى بحر ذنوبه مات بواسط عام ٩٥ هجرية.

(٢) حديث «من يرد الله به خيرًا يفقهه فى الدين» حديث صحيح أخرجه البخارى فى باب العلم ومسلم فى باب النهى عن المسألة، وأخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه إلا أن فى رواية الشيخين زيادة «وإنما أنا قاسم ويعطى الله». اهـ.

(٣) المدر: التراب.

(٤) حديث أهل اليمن حديث صحيح، رواه البخارى فى كتاب بدء الخلق، ومسلم فى كتاب الإيمان كما رواه غيرهما إلا أنى لم أجد اللفظ الذى أورده الشيخ. والذى يظهر لى أنه مؤلف من عدة روايات. اهـ.

ربيعة ومضر»[١].

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٣] ثم يوصف أيضًا بالطهارة، قال الله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ [المائدة:٤١]، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤] فهما تطهيران شرعى وحقيقى.

فالشرعى: طهارة الثوب والبدن للقيام بين يدى الله لأداء فرائضه.

والحقيقى هو تطهير ثياب القلب بماء الغيب.

قال الشاعر:

بالماء يَطْهرُ ما بالثوب من دَرَنٍ[٢] وليس يغسلُ قلبَ المذنب الماءُ

يروى أن التابعين قالوا لأصحاب رسول ﷺ: مالنا يا أصحاب محمد نراكم أقل منَّا علومًا، وأكثر تقوى، قالوا: إنا بذرنا فى قلوبنا بذر الإيمان، ثم سقيناه بماء العلوم، فأنبَت التقوى، وأما أنتم، فإن ماء العلوم سبق إلى قلوبكم قبل بذر الإيمان، فأنبتت الأرض قبْل البذر فَفَسد أكثره، فلذلك كنتم أقل منَّا تقوى، قال الله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨].

قال الشاعر:

قُلوبنـــا أوعيـــةٌ فكُلَّمـــا طاب الوِعاءُ طابَ ما قد حَصَّلَهْ

قلـــب التـقىِّ وَزْنُـهُ بِـدُرَّةٍ وغيـــره فـوزنه بِخَـــرْدَلَه

فواحـد بالذِّكر صـار روضـةً وآخرُ باللهـو صـــار مَـزْبَلَهْ

لو سقىَ الحَنْظَلُ شهــدًا دائمًا لم يَلِـدِ الحنظـــل إلا حَنْظَلَهْ

مـــا مَنْبِـتُ الـورد كَنَبْتِ غَيره ولا شذى المِسْكِ كريح البَصَلَهْ

ودليله قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ

(١) والفدادون الذين تعلو أصواتهم عند سوق المواشى.

(٢) الدرن: الوسخ.

إلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [المائدة:٦٤] جعلنا الله ممن جعل له من نفسه واعظًا ولم يكله إلى علم ولا عمل، فهما سبب هلاك إبليس حتى جرَّأه إلى الكبر والعجب ومخالفة أمر الرَّبِّ، وفيه من أنواع البديع التلميح، وحقيقته الإشارة الخفية إلى مناسبة بين لفظين متغايرين في الظاهر متوافقين في الحقيقة، كاشتقاق الصفا من الصفو وفطْرَة القلب على الصفاء.

وأشار إلى ذلك بقوله:

* ... مُذ بَان عنه صفاء *

إذ لا يبين عن الشيء إلا ما كان ملازمًا له، وبالله التوفيق.

* * *

● **قوله:**

١٢ ـ وَرُمْتَ جَدىً مَا إنْ يَدومُ جَدَاؤُهُ وَسِيَّــان فَقْــرٌ فى الثَّـرى وَثَــراءُ

قوله: ورمت، أي: طلبت، أو حاولت يقال: لا يرام، لا يحاول، قيل: سبْحان من لا يرام ولا يضام، والروم والرئامة عطف الناقة على فصيل غيرها.

قال الشاعر:

وليس يَنْفَعُ ما تأتى العلوق به رِئْمَانُ أنْفٍ إذا ما ضُنَّ باللبن[1]

والجدى بالفتح والقصر: هو المطر، ويطلق ويراد به العطاء.

---

(١) البيت لأفنون التغلبى واسمه ظالم بن معشر وهو «كما فى الخزانة».

أم كيف ينفع ما تعطى العلوق به رئمــان أنف إذا مــا ضن باللبن

وهو من الشواهد المعروفة.

قيل: إن الكسائى أنشده فى مجلس الرشد بحضرة الأصمعى فرفع رئمان فرده الأصمعى وقال إنه بالنصب، فقال له الكسائى: اسكت ما أنت وهذا؟ يجوز الرفع والنصب والجر فسكت.

ووجهه: أن الرفع بدل من (ما) والنصب بتعطى، والخفض بدل من الهاء.

والعلوق: الناقة التى علق قلبها بولدها، فإذا مات حشوا جلده فتحك أنفها به دون أن تدر لبنًا. والله أعلم.

قال الشاعر:

يُجْدِيكَ معنٌ إذا ما رُمتَ نائله قَبْل السؤال فلا تلوى إلى أحد

ويطلق ويراد به الرجاء.

وقال الشاعر:

وصلتُ الجدى بالله فى كل أزمة فألفيتُه يعطى المنَى ويزيد

والجداء بالمد والفتح: العطاء.

قال الشاعر:

إن الجداء حليفُ الفضل لو طَلَبَتْ يَداهُ شُحًا لما شحَّتْ أنَاملُهُ
يمطرنَ بالتِّبرِ إن سحَّ الغمامُ بمَا فذا بماءٍ وذا بالتبرِّ نائلهُ

ومعناه أنك قد اشتغلت بباطل حيث طلبتَ من سراب الدنيا شرابًا، لأنها سراب فى طى شراب فالمطمئن إليها مغرور، والمحب لها مبتور[1]، وهى كما وصفها الرسول ﷺ فقال: «نعم المرضعة، وبئست الفاطمة، ما ملئ بيت بها فرحًا إلا وملئ حُزنًا، وما ملئ حبوراً إلا استحال غروراً».

وقال تعالى: ﴿فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣] إذ لو دامت لغيرك، لم تصل إليك، وكلما وصلت إليك من غيرك تصل إلى غيرك منك وأنت راغم، فإنك إنْ جمعتها فَرقتك، وإن فرَّقتها جمعتك.

يروى أن أول ما يخاطب به الميت قول الملائكة له: أجَمَعْتَ الدنيا، أم الدنيا جمعتك أفرَّقت الدنيا أم الدنيا فرَّقتك؟ أتركت الدُّنيا أم الدنيا تركتك؟ فتجيبهم الحفظة بحقيقة أمره.

يروى أن معاوية[2] لما احتُضرَ، جمع أهله فقال لهم: ألستم أهلى، وفيكم كان

---

(١) مبتور: هالك.

(٢) معاوية: هو معاوية بن أبى سفيان الأموى القرشى أمير المؤمنين ولد قبل البعثة بخمس سنين أسلم عام الفتح، وكان من الكتبة الحسبة الفصحاء حليمًا وقوراً، صحب النبى ﷺ وكتب له، ولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد، وأقره عثمان، ثم استمر ولم يبايع عليًا، ثم حاربه واستقل =

حربى وسلمى؟ قالوا: بلى نفديك بأنفسنا وأبنائنا، فقال: إن الموت قد بلغت ركبتى، فهل أنتم مغنون عنى من هولها شيئًا؟ فَبَكوا وقالوا: لو كان بالجهاد أو بالدفاع لبذلنا المجهود، ولكنْ لا حيلة لنا. فقال: المغرور من غَرَّتْهُ الدنيا بعدى، ملكتُ مشارق الأرض ومغاربها، فلم تغْن عنى من مصرعى هذا شيئًا.

وإنما عابها المصنف بعيبين، وكفى بهما، وهما عدم الدوام، بقوله: «ما إن يدوم جداؤه» الثانى: استواء الغنى والفقير فى القبر وفى طعم الموت أيضا بقوله: «وسيَّان فَقْرٌ فى الثرى وثراء» - لأن خزفًا يبقى خَيرٌ من ذهب يفنى، فكيف إذا كان الذهب يبقى، والخزف يفْنى؟.

قال الشاعر:

أنت نعم المتاعَ لو كنت تبقى ... غير أن لا بقـــاء للإنســان

ليس فيمـا بدا لنا منك عيب ... عـابه الناس غيـر أنك فَـان

وكان عمر بن عبد العزيز[1] كثيراً ما يتمثل بهذا البيت وهو قوله:

نفسى التى تملك الأشيــاءَ ذَاهبة ... فكيف آسى على شىء إذا ذهبا؟

وقال على[2] كرَّم الله وجهه: العجب كُلُّ العجب ممن يعلم ذهاب الدنيا كيف يفرح بزخرفها؟ ويعلم غوائلها كيف يطمئن إليها؟ ويرى قلة غنائها ثم يركن إليها، ويرى انقلابها بأرْبَابهَا وسرعة خَرابها ثم يغتر بها.

= بالشام، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن واجتمع عليه الناس فسمى ذلك العام عام الجماعة، مات فى رجب عام ٦٠ هجرية. والله أعلم.

(١) هو عمر بن عبد العزيز بن مروان القرشى الأموى الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما سمى خامس الخلفاء نشأ وتعلم بالمدينة، وولى إمارتها للوليد، ثم استوزره سليمان بن عبد الملك، وولى الخلافة بعده سنة ٩٩ هجرية وتوفى سنة ١٠١ بدير سمعان ومدة خلافته ستتان.

(٢) على: هو على بن أبى طالب الهاشمى القرشى أمير المؤمنين، أول الناس إسلامًا فى قول كثير من أهل العلم، ولد قبل البعثة بعشر سنين، تربى فى حجر النبى ﷺ، وشهد معه المشاهد كلها، إلا غزوة تبوك، وزوَّجه ابنته فاطمة، ومناقبه كثيرة، حتى قال الإمام أحمد: لم ينقل لأحد من الصحابة ما نقل لعلى بويع بالخلافة بعد قتل عثمان بن عفان وكان هاديًا مهديًا، قتل رضى الله عنه ليلة ١٧ رمضان عام ٤٠ هجرية والله أعلم.

وفى البيت نَوعٌ من الاقتباس، وهو الإتيان بالبيت مضمنًا معنى آية من كتاب الله أو حديثا، إذ ضرب للدنيا مثلا بالمطر بقوله ـ ورمت جدى ـ مطرًا من الدنيا «ما» نَافية و «إن» نَافية أيضا، أى: لا يدوم جداؤه، أى عطاؤه، لأن الدنيا تعطى فيما يرى الجاهل الرزق والأموال والآمال وشرخ الشباب، كما أن المطر يعطى فيما يرى الجاهل الخصب والنبات والزرع والغُدُر(١)، وكل من النوعين لا بقاء له، ولا ثبات عليه، بل إنما جُعِل للتزوُّد والاعتبار، فمن طلب منها غير هذا فقد أخطأ وخاب، قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً﴾ [الكهف:٤٥] من ذهابها والإتيان بمثلها، ثم فسر المثل بقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦] لا فائدة فيهما إن لم يكونا زادًا وعونًا على تحصيل الباقيات الصالحات ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦].

واختُلف فى الباقيات الصالحات، فقيل: الأعمال الصالحة التى تبقى مع الإنسان فى حياته، وتحفظه عند مماته، وتَقَرُّ بها عينه بعد وفاته، ويبتهج بها عند بعثته وملاقَاته، من جميع أعمال البر الصالحات من الآفَات(٢) الزاكيات الطيبات من الهفوات ومن التصنعات. وقيل: هى: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

والثرى بالفتح والقصر: الأرض النَّدية، وهى هنا كناية عن القبر، وهى من باب تسمية الشىء باسم ملازمه، والثراء بالفتح والمد: كثرة المال. يقال: مال ثَرى: إذا نَمى وكثر.

قال الشاعر:

لعمــــرك مــــا يُغْنى الثّــراءُ عن الفتى

إذا حَشْرَجَتْ يومًا وضـــاق بها الصَّدرُ

قوله «سيان» لفظ مستعمل فى أشعار العرب وخطبها ونثرها، وكثيرًا ما يستْعمل

(١) الغدر: جمع غدير، قطعة من الماء يتركها السيل.

(٢) كذا ورد فى الأصل وربما كانت هناك كلمة ناقصة أو جملة والله أعلم.

فى أغياء[١] المدح، قال الفرزدق[٢]:

لا ينقص العـدمُ بسطًا مـن أكفهم ... سيَّان فى ذاك إن أَثْروا وإن عَدِمُوا

«سيان» تثنية سواء، وسوغ الابتداء بالنكرة حصرها بالمجرور، فهو فى قُوة الفقر، والثراءُ فى حالة الدفن فى الثرى سيان.

يروى أن ذا القرنين[٣] مر على مدينة عظيمة من مدائن المغرب، فلما دنا منها لم تبق فى المدينة مخدَّرة إلا برزَت لتنظر إلى عساكره، وفقير جالس عند المقابر لم يعبأ به، ولم يلتفت إليه ولا إلى عساكره، فلما اطمأن أتاه أهل المدينة بالتحف والهدايا، فقال لهم: ألمدينتكم مَلِكٌ؟ فقالوا: كان بها ملوك فانقرضوا، وما ملَّكنا أحدًا بعد، فقال: ألم يبق من نسلهم أحد؟ قالوا: لا إلا رجل مدله[٤] قد لزم المقابر، يفتش عظام الموتى فذهب إليه ليعلم شأنه، فقال له ذو القرنين: بلغنى أنك من نسل ملوك هذه المدينة، فهلم إلىَّ أُحيى شرفك وشرف آبائك إن كانت لك همة، فقال: لى همة عالية إن وجدت إلى ذلك سبيلا، قال: وما بلغ من همتك؟ قال: إن أعطيتنى أربعة أشياء أطعتك فيما طلبته منى، قال: وما هى؟ قال:

الأولى: أن تَضْمنَ لى على ربك أن لا أحاسب قال: ليس ذلك إلى .

والثانية: أن تضمن لى أنى أُخَلَّدُ فلا أموتُ، قال: ليس ذلك إلىَّ، ولا أطيقه لنفسى.

قال **الثالثة:** أن تُعطينى مُلْكًا لا يبيد، قال: ليس ذلك إلى.

والرابعة: أن تضمن لى على الله أن لا أدخل النار. قال: ليس ذلك إلىَّ، قال: إن كنت لا تقدر على هذا فدعنى أطلبه ممنْ يقدر عليه، ثم قال له: مالك حين

---

(١) أغياء: الذى يظهر لى أنه جمع غاية منتهى المدح، والله أعلم.

(٢) الفرزدق: همام بن غالب بن صعصعة التيمى، شاعر من النبلاء من أهل البصرة عظيم الأثر فى اللغة، وهو صاحب الأخبار مع الأخطل وجرير، ومهاجاته لهما معروفة، لقب بالفرزدق لجهامة وجهه، توفى فى بادية البصرة وقد قارب مائة عام.

(٣) ذو القرنين: الإسكندر الكبير المقدونى، ملك الدنيا، كما قص الله فى كتابه، ولقب بذى القرنين لعظم قدرته وسطوته لأن القرنين كناية عن السلطان. اهـ، والله أعلم.

(٤) مدله: ذاهب القلب.

مررتُ بجنودى عليك لم تلتفت إلىَّ ولا إلى جنودى، وقد برزت المخدّرات للنظر إلىَّ؟ قال: إنما ينظرون إلى سراب بِقِيعَةٍ يظهر ثم يضمحل، ولو علمت أنى أحصل فائدة بالنظر إليك وإلى جنودك لَفعلت، وكان أولى بك أن تشتغل بما يعنيك من فكاك مهجتك من تسيير هذه العساكر التى لا تقع من تدبيرها على طائل، بل فك مهجتك أولى بك، فبكى ذو القرنين حتى أخضل لحيته، ثم قال له: ما تُريد من تفتيش عظام الموتى؟ قال: أعتبر بذلك، وأرى نفسى حقارة شرف الدنيا، وقلة غَنَاء عنُاها، فإنه لا فرق بين جيفة الملك والعبد بعد ثلاث، ولا بين الشريف والمشروف، ولا الغنى والفقير، ولذلك زهدت فى غير الباقى، فرجع من عنده ذو القرنين وقد زهد فى الدنيا، ورغب عن المُلْك.

قال الشاعر:

وما هذه إلا حياة قليلةٌ ... تمرُّ وأيام تمرُّ سِرَاعُ

وما وصفَها الواصفون بأشمل من قول الشاعر:

هى الدنيا تقول بملء فيها ... حذارِ حذارِ من بطشى وفتكى

فلا يغررنكم منى ابتسام ... فقولى مضحك والفعل مُبكى

وقول الآخر:

ومن يصحب الدنيا طويلا تكشف ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وقول الآخر:

هى الدار دار الأذى والقذى[1] ... ودار الغُرور ودار الغِيَرْ[2]

فلو نلْتَها بحذافيرها ... لَشِبْتَ ولم تقض منها الوَطَرْ

أيا من يأمل طول الحياة ... وطولُ الحياة عليه ضَرَرْ

إذا ما كبرتَ وبان المشيب ... فلا خير فى العيش بَعد الكِبر

وقال آخر:

---

(١) القذى: ما يسقط فى العين أو الشراب من الأشياء الصغيرة.

(٢) الغير: جمع أغيار، الانتقال من حال إلى حال.

فما قضى أحـد منهـا لبانته[١] ولا انتهى أرب إلا إلى أَرب

وهو مقتبس من قول النبى ﷺ «الدنيا هم لا ينقطع أبدًا؛ وفقر لا يدرك غناه أبدًا وشغل لا يفرغ منه أبدًا » وقال ﷺ «منهومان لا يشبعان أبدا، طالب دنيا، وطالب علم، ولا سواء، طالب الدنيا لا يزداد من الله إلا بُعدا، وطالب العلم لا يزداد من الله إلا قربًا، وطالب العلم غَرْثَانٌ[٢] إلى حلم»[٣].

وقد تنال الدنيا بنية الآخرة، ولا تنال الآخرة بنية الدنيا.

فإن قلت: قد شَاع وانتشر سَبُّ الدنيا وعيبها، حتى بلغوا فى ذلك أن قال رسول الله ﷺ: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه أو عالمًا أو متعلمًا»[٤].

وقد ثبت ثناؤه عليها بقوله: « الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر».

وقال: «لا تسبُّوا الدنيا، فإنها مطية الآخرة»[٥].

ونَهى عن إضاعة المال، وهو عَيْنُ الدنيا وزينتها، قال تعالى: ﴿**وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا**﴾ [النساء: ٥] فصار فى ذلك وجه تناقض عند من لم يَتَدبَّر ذلك، فالخروج هو ما بينه الترمذى بقوله: الدنيا كالآلة، فهى لما استعملت فيه، فإن استعملتها فى طلب مرضاة الله والدار الآخرة، فهى مطية لصاحبها، عليها يبلغ خير القربات، وبها ينجو منْ دركات المحرمات والشُّبهات، قال ﷺ:

---

(١) لبانته: حاجته.

(٢) حديث منهومان لا يشبعان. . . إلخ. ضعيف رواه الطبرانى بلفظ «منهومان: منهوم العلم ومنهوم المال» أما الزيادة التى أوردها الشيخ فلم أجدها، وهذا القدر الذى رواه الطبرانى ضعيف قاله العراقى فى تخريج الإحياء (٣/ ٢٣٢) والله أعلم.

(٣) غَرثان: جائع ـ أى محتاج.

(٤) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها: رواه الترمذى وحسنه كما رواه الطبرانى فى الأوسط رمز له السيوطى بالحسن قال المناوى نقلا عن الطبرانى إنه لم يروه عن ثوبان عن عبدة إلا أبو المطرف قال الهيثمى: ولم أر من ذكره (٣/ ٥٥٠) الفيض

(٥) حديث لا تسبوا الدنيا. أورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٣٠٢٩ وعزاه للديلمى ولفظه: «لا تسبوا الدنيا فنعم مطية المؤمن» وسكت عليه. اهـ.

«من جمع مالاً من حِلِّه، وصرفه فى محلِّه، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر»[١].

ويرى أنه قال: «من جمع مالاً من حِلِّه، وأدى فيه حق ربِّه، تعطفًا على الفقراء، وتعففًا عن المسألة، ونفقةً على العيال، يكرم الضيف، ويعطى فى نوائب الحق، جاء يوم القيامة وكأنه نبى مرسل، أو ملك مقرب يتراآه أهل المحشر غبطة بحاله، وأما من جمعه من غير حِلِّه مكاثرًا مفاخرًا متطاولاً متخوضًا فى مال الله بغير حق، جاء يوم القيامة وعلى وجهه قترة[٢] الغضب، ولقى الله وهو عليه غضبان، وأما من لم يبال من أى وجه جمعه، فإن الله لا يبالى فى أى وادٍ من أودية النار أوبقه[٣]، فإن تصدق منها صار زاده إلى النار، وإن أمسكه، كان زيادة له فى الإِثم».

فبان من هذا أن الدنيا لا تذم على الإِطلاق، ولا تمدح على الإِطلاق، بل تحمد وتذم بحسب ما استعملت فيه، فالناس فى الدنيا على ثلاث طوائف:

فقوم رأوا الدنيا، فقالوا: هذه جيفة قذرة، وطالبها لذاتها كلب، لكن لابد منها إذ قد وضعت على جادة الطريق، ولا بلاغ لنا إلا بها، فحصَّلوا منها ما أوصل وتركوا ما شغل، فهم السابقون بالخيرات، قد جعلها الله فى أكفهم، وطهر منها قلوبهم.

وطائفة امتثلوا ظاهر الحديث من غير غوص إلى الحقيقة، فرفضوها رأسًا فَمن أُيد باليقين نجا مخففًا ومن لم يؤيد به مات فى ترهات[٤] الضلال، وربما انْبَتَّ[٥] فلا هو فقير صابر، ولا هو غنى شاكر فهؤلاء مقتصدون.

(١) حديث «من جمع مالا فى حله وصرفه فى محله» ضعيف أخرجه أبو نعيم فى الحلية وعنه الغزالى فى «الإحياء» بلفظ: «من طلب الدنيا حلالا مكاثرًا مفاخرًا لقى الله وهو عليه غضبان، ومن طلبها استعفافًا عن المسألة، وصيانة لنفسه، جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر».
قال العراقى: رواه أبو نعيم والبيهقى عن أبى هريرة بسند ضعيف (٣/ ٢١٧)، والله أعلم.

(٢) القترة: الغبرة.

(٣) أوبقه: ذلَّله أو أهلكه.

(٤) الترهات: الأباطيل.

(٥) هذه الكلمة فى الأصل غير واضحة وأقرب شيء إليها ما أثبتناه ومعنى انبت: انقطع.

وطائفة استعملت ظَاهر قَوله ﷺ: «الدنيا مطية الآخرة»[1] فاقتحموا لُججها من غير سفينة ولا دليل، فغرقوا في لججها إذ حسبوها ممدوحة لذاتها ولواجب صفاتها، ولم يعلموا أن الممدوح مَنْ قلب أعيانها، وبدَّل أجبانها[2] وعلى هذا الخط نظم الشاعر فقال:

أيها العبد إن دنياك بحر طامح موجه ... فلا تأمنهـا وسبيل النجــاة فيها مُبين

وهو أخذ الكفاف والقوت منها. ثم حصرها الله تبارك وتعالى في آية واحدة فجمع فيها بين الوصف والإخبار والمثل والإنذار والتزهد والاعتبار، فقال: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾ إلى قوله: ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، وبالله التوفيق.

* * *

● **قوله:**

١٣ ـ وَلَوْ فى المَلاَ رمتَ المَلاَءَ حَلَلْتَ فى ... رَجَـاهُ إذَا مَـا صَحَّ مِنْكَ رَجَـاءُ

قوله: «ولو في الملا» بالفتح والقصر: الغنى، والملاء بالفتح والمد: الأشراف والأعيان من بني آدم والملائكة. قال الله تعالى حكاية عن بلقيس: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل:٣٢] والملأ بالقصر، مشتق من المال، وقيل: من الملء، يقال: تملأ القوم: إذا كثرت أموالهم، ويقال: تمول، وفيه نوع من القلب الطبيعي معناه: لو أنك طلبت اتخاذ الملأ أي الأشراف أعوانًا وأخلاء لوجدته زمن كونك ذا ملأ، أي غنى، إذ الأشراف والكبراء لا يعبئون بمن لا مال له.

---

(١) حديث «الدنيا مطية الآخرة» لم أجده بهذا اللفظ: إلا أن السخاوي أورده بلفظ: «الدنيا مزرعة الآخرة»، وقَبله الغزالي. وعنه صاحب «الكشف» تحت رقم ١٣٢٠ وقال لم أقف عليه وهو في «الفردوس» بلا سند: قلت قد رواه الحاكم وصححه بلفظ: نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته حتى يرضى ربه وبئست الدار لمن صدته عن آخرته وقصرت به عن رضاء ربه، إذا قال العبد قبح الله الدنيا قالت الدنيا قبح الله أعصانا لربه. اهـ. لكن الذهبي رده وقال: بل منكر وعبد الجبار لا يعرف (٤/٣١٣) مستدرك.

(٢) هذه العبارة وردت هكذا ولعل معناها قلب أعيانها أي أعاليها، وأجبانها أسافلها، إذ الأجبان الأرض المستوية. والله أعلم.

قال الشاعر:

فأنت ما استغنيتَ عن صاحبك الدَّهر أخُوهُ

وإذا احتجتَ إليه مَرةً مَجَّك فُوه

وقال غيره:

النَّاسُ أعوان من وَالَتْهُ دَولَتُه وهم عليه إذا خَانَتْهُ أَعْوَانُ

وقال غيره:

إذا كنتَ ذا ثَرْوَةٍ فى الورى فأنتَ المقدَّم والمكرَّمْ

ويكفيكَ من نَسب صورة تُنْبِئُ أنَّك من آدمْ

وقال غيره:

مَنْ جاد بالمال مَال العالَمون له وشرَّفوهُ فصار الأنفَ والسَّناما[١]

وكان ﷺ يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر، والفقر، ومن عذاب القبر»[٢].

وكان كثيرا ما يقول: «اللهم وسِّعْ علىَّ الدنيا، وزَهِّدْنى فيها، ولا تقترها علىَّ وترغبُنى فيها».

ويقول: «اللهم إنى أسألك الموت فى الدولة، وأعوذ بك من الموت فى العَيْلة».

ويقول: «الفقر الموت الأحمر، والأعمى ميت لم يقبر، ومن لم يترك ولدًا ذكرًا لم يذكر».

وقال: «كاد الفقر أن يكون كفرًا».

وقال على كرَّم الله وجهه: إذ افتقر الرجل، أورثه رِقَّةً فى دِينه، ووهنًا فى مروءته، واحتقارًا فى قلوب العامة، فجافاه القريب، وتباعد عنه الحبيب، ولذلك

---

(١) فى الأصل السناما هكذا: ولعلها السنما ليستقيم الوزن.

(٢) حديث «اللهم إنى أعوذ بك من الكفر»... إلخ. رواه النسائى فى باب الاستعاذة (٨/ ٢٦٢) وهو بدون من كما رواه الحاكم بزيادة وقال صحيح الإسناد وسكت عليه العراقى فى تخريج الإحياء (١/ ٣٢٥).

قال الشاعر:

أرى الفقر يزرى بالكرام أولى النُّهى ... فيا ربّ جنّبْهُ بيوتَ الأكارم

وقال ﷺ: «أسعد الناس من جمع الله له غنى الدنيا ورحمة الآخرة، وأشقى الناس من جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة»(١).

وفى ذلك يقول الشاعر:

ما أحسن الدِّين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبحَ الكفر والإفلاس بالرجل

وقال ﷺ: «أسعد الناس من أطال الله عمره، ورزقه الإِنَابة»(٢).

وأما قَول بعض شروحه: إن الملاهى الأرض الواسعة، فلمْ أطَّلِعْ عليه فيما طالعت من كتب اللغة، إلا أنى رأيتُ فى شارح الهمزية عند قول البوصيرى(٣) وكان الملاء، فقال: وجه الأرض، فإن كان له اشتقاق، فهو من الميل، وهو سير الراكب حتى يميل من التعب، أو هو ما يملأ عين الناظر من البيداء حتى تحار دونه، فمعنى البيت على رأيه: الحثُّ على العزلة طلبًا للسلامة، ولم آخذ به، ولم أدر ما هو، لكن معنى البيت: لو طلبت الوصلة بالملأ أى: الأشراف زمن الملاء لحَلَلْتَ فى أرجائهم وأكنافهم، ولشرفت بشرفهم، والرجاء مفرد الأرجاء، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة:١٧] إن صح منك رجاء - وحقيقة الرجاء: تعلق القلب بمطموع فيه مع العمل فى تحصيله، قال صاحبُ «الحكم»: الرجاء: ما قارنه عمل، وَإِلاَّ فَأُمْنية.

---

(١) حديث أسعد الناس... إلخ. رواه الطبرانى وأبو الشيخ بلفظ أشقى الأشقياء من اجتمع عليه عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، وأورد الجزء الأخير منه صاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ وسكت عليه.

(٢) حديث أسعد الناس من أطال الله عمره... إلخ. حسن رواه أحمد والبيهقى بإسناد حسن وأوله «لا تمنَّوا الموت فإن هول المطلع شديد، وإن من السعادة أن يطول عمر العبد ويرزقه الله الإنابة. وبهذا اللفظ أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٨٥ وقال ضعيف لأن فى سنده الحارث بن أبى يزيد ولم يوثقه إلا ابن حبان، وقد اضطرب فى اسمه والله أعلم.

(٣) البوصيرى: هو محمد بن سعيد بن حماد الصنهاجى المصرى، شاعر مليح المعانى، ينسب إلى بوصير من أعمال بنى سويف بمصر، وأصله من المغرب، له ديوان شعر، وأشهر شعره البردة.

وفى معنى حصول الشرف بمجاورة الأشراف والتصدير[١] بملازمة أرباب الصدور.

يقول الشاعر:

عليكَ بأرباب الصدور فَمن غدا ... مضافًا لأرباب الصدور تصدَّرا

وإياكَ أن تَرضى بصحبة ساقطٍ ... فينحطَّ قدرٌ مِنْ عُلاك وتُحقرا

والرجاء أساس الأعمال الصالحات وزمامها، قال الله تعالى: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٨٧]، وقال: «أنا عند ظن عبدى بى، ومعه ما تحركت شفتاه بذكرى»[٢].

ومن ذلك حديث «الجليس الصالح وجليس السوء» المشهور والمخرج فى «الصحيحين» بأسانيد جَمَّة، وروايات مختلفة.

وقول الرسول ﷺ فى «صحيح مسلم»: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم»[٣].

وقال: «عليكم بالسواد الأعظم»

وقال: «من شذَّ شذَّ إلى النار».

وقال: «الشيطان كالذئب، إنما يأخذ الشاة الفاذة».

وقال تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ﴾ [النساء:١١٥].

(١) كذا فى الأصل: والمراد التصدر.

(٢) حديث «أنا عند ظن عبدى بى»... إلخ. متفق عليه من حديث أبى هريرة، وهو أول حديث طويل رواه البخارى فى باب التوحيد، ومسلم فى باب الذكر، أما اللفظ الذى أورد الشيخ، فلم أجده، إلا أن البيهقى روى «أنا عند عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه» وللحاكم «عبدى أنا عند ظنك بى، وأنا معك إذا ذكرتنى».

(٣) حديث الجليس الصالح. طرف من حديث متفق عليه رواه البخارى فى باب المسك كتاب الذبائح، ومسلم فى كتاب البر والصلة باب استحباب مجالسة الصالحين، وأوله عند البخارى «مثلُ الجليس الصالح» وعند مسلم «إنما مثل الجليس الصالح»:
وأما حديث «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم» فهو جزء من حديث طويل أوله إن لله ملائكة يطوفون»... إلخ. وهذا الحديث متفق عليه، رواه البخارى فى كتاب الدعوات بلفظ «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» ومسلم فى كتاب الذكر والدعوات باللفظ الذى أورده الشيخ رحمه الله (٨/ ٦٨) والله أعلم.

ويطلق الرجا بالقصر، ويراد به التأخير، قال الله تعالى: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١، والشعراء: ٣٦].

ويطلق ويراد به الانتظار، تقول للرجل: أرجنى حتى آتيك.

واختلف فى العزلة والخلطة، أيهما أفضل؟ فذهبت طائفة إلى تفضيل العُزلة، لقربها من السلامة، محتجين بقول رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خيرَ مال المسلم غنمٌ يَتْبَعُ بها شعف[١] الجبال، ومواقع القطر، يفرُّ بدينه من الفتن»[٢].

وقوله: «إذا رأيتَ شُحا مطاعًا وهوى متّبعًا، وإعجابَ كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك».

وقوله: «يوشك أن يكون خير المسلمين رجل ضعيف الحاذ لا يعبأ به، قلّت بواكيه، وقل تُراثه، وقل حسابه، وله حَظٌّ من صلاة الليل»[٣].

وفى رواية من غير إضافة «من اعتزل الناس فى شعب من الشعاب اتّقى شرهم وقد كفاهم شرّه، يعبدُ ربه حتى يأتيه اليقين»

وقيل: الخلطة أفضل، لكثرة الأجور المستفادة منها، من تعليم الجاهل، وإرشاد الضالِّ، وتحصيل العلم، والجليس الصالح، وصحبة الأخيار، وزيارة الصالحين، وصلة الأرحام، وإغاثة الملهوف، وإطعام الجائع، وسدِّ خَلَّة الفقير، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وتحمُّل الأذى، إلى غير ذلك مما لا ينال فى الخلوة. قال الرسول ﷺ: «لأن يهدىَ الله بك رجلاً واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء تنفقها فى سبيل الله»[٤].

---

(١) شعف الجبال: رءوسها.

(٢) حديث: «يوشك أن يكون خير مال المسلم»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب الإيمان باب من الدين الفرار من الفتن. كما رواه أبو داود والنسائى. والله أعلم.

(٣) حديث يوشك أن يكون خير المسلمين رجل... إلخ. ضعيف رواه الحاكم (١٢٣/٤)، وأبو يعلى وغيرهما بألفاظ كلها ضعيفة مع أن الحاكم قال صحيح عندهم ولم يخرجاه، وردّه الذهبى قائلا لا بل إلى الضعف هو أقرب، والله أعلم.

(٤) حديث «لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من أن يكون لك حمر النعم»: هذا جزء من حديث طويل رواه البخارى فى كتاب المغازى، ومسلم فى كتاب فضائل الصحابة، وأوله =

وقال ﷺ: «خياركم عند الله وأقربكم منى مَنازل يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقًا، الموطؤون أكنافًا، الذين يَألفون ويُؤلَفون»(١).

وقال: «خيركم خيركم لأهله وجيرانه»(٢).

وقال: «الخلق عيال الله وأحبكم إليه أنفعكم لعياله»(٣).

وقال: «إن لله عبادًا خلقهم الله لحوائج عباده، يفزعون إليهم فى حوائجهم، آلى على نفسه أن لا يعذِّبهم بناره»(٤).

وقال: «إن لله عبادًا اختصهم بنعمته، ووجَّه إليهم طلابها ويَسَّرَ عليهم أسبابها ما بذلوها، فإذا منعوها نقلها إلى غيرهم»(٥).

وفى رواية: «ما بذلوها، فإذا ملُّوها نقلها إلى غيرهم» وهذا الفضل الجزيل لا يتأتَّى مع العُزلة.

= «لأعطين هذه الراية غدًا»... إلخ. أما الزيادة فقد رواها الطبرانى، ورمز لها السيوطى بالحسن، إلى قوله «خير لك مما طلعت عليه الشمس وغربت» قال المناوى: قال الهيثمى: فيه يزيد بن أبى زياد مولى ابن عباس. اهـ (٥/ ٢٦٠) مناوى أما بقية الزيادة فلم أعثر عليها.

(١) حديث «خياركم عند الله».. إلخ. رواه الطبرانى فى مكارم الأخلاق بلفظ «إن أقربكم منى مجلسًا أحاسنكم أخلاقًا»... إلخ. وسنده ضعيف كما قال العراقى فى تخريج الإحياء (٢/ ١٥٤).

(٢) حديث «خيركم خيركم لأهله»، رواه الترمذى وابن ماجه بلفظ «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلى» وله بقية عند الترمذى، وقد صححه كما صححه السيوطى فى الجامع (٣/ ٤٩٤) مناوى.

(٣) حديث «الخلق عيال الله، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله». موضوع رواه أبو يعلى والبزار والطبرانى قال الهيثمى: فيه يوسف بن عطية الصفار وعمير القرشى وهما متروكان (٧/ ١٩١) مجمع. وقال المناوى قال ابن الجوزى: حديث لا يصح (٣/ ٥٠٦) قال فى الميزان يوسف بن عطية الصفار مجمع على ضعفه ومن مناكيره: (الخلق كلهم عيال الله) (٤/ ٤٦٩) ميزان.

(٤) حديث «إن لله خلقًا» حديث ضعيف رواه الطبرانى وقال فيه الهيثمى فيه شخص ضعفه الجمهور وأحمد بن طارق الراوى عنه لم أعرفه وبقية رجاله رجال الصحيح (٨/ ١٩٢) مجمع، ورمز له السيوطى بالحسن فى جامعه (٢/ ٤٧٦) مناوى

(٥) حديث «إن لله أقوامًا اختصهم بالنعم لمنافع العباد يقرهم فيها ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحولها إلى غيرهم» رواه الطبرانى وقال الهيثمى فيه محمد بن حسان السمتى فيه لين وشيخه أبو عثمان ضعفه الأزدى (٨/ ١٩٢) مجمع، ورمز له السيوطى بالحسن والله أعلم.

فالحاصل أن الخِلطة أفضل ما أُمنت الفتنة، فإذا خِيفت الفتنة، فالعزلة خير للإنسان فى خاصة نفسه.

والحاصل أن الخلْطة أفضل للعالم الراسخ المحقق مطلقًا، لأنه يمنع الناس فى حالة[١] الفتنة من التوغُّل فى الهَرْج[٢]، ويدعو إلى السّداد، ويكفُّ العبادَ عن الفساد.

وأما القاصر عن هذه المنزلة، فالعزلة أولى به مطلقًا، ما لم يخف أن يدخل عليه العُجب، فالخلطة حينئذ خير له، ولكل من الحالتين شروط لا تتمُّ إلا بها، وكل من الرتبتين قد أشار إليها السيد محمد البوصيرى فى بردة المديح بقوله:

وَاخْشَ الدسائس من جـوع ومن شِبَعٍ
فـربَّ مَخْمَصَـــــةٍ شـرٌّ مـن التُّخَـمِ

أى، رُبَّ عزلة أورثتْ عِزا وافتخارًا، خير منها خلطة أورثت ذُلاً وانكسارًا.

قال الرسول ﷺ: «إن الله ليمنع العبد من الأعمال مخافة عليه أن يقع فيما هو أشد منها، قالوا: وما هو يارسول الله؟ قال: العُجب العجب»[٣].

قال القوم: خذ جزءين من كليتين واجعلهما كلية تَنْجُو، وذلك أن تأخذ من الاغترار الرجاء، ومن القنوط الخوف، وتجعلهما جناحيك فى طلب الخير، والفرار من الضمير، فإذا هَدَأ أحدهما بطل الآخر، لكن ينبغى ترجيح الرجاء عند الموت والأهوال والخوف فى الأمن والصحة، والصواب من ذلك ما عليه عمر رضى الله عنه فإنه يقول: لو بلغنى أنه لا يدخل الجنة إلا رجل واحد لرجوت أن أكونه، ولو بلغنى أنه لا يدخل النار إلا رجل واحد لَخِفت أن أكونه.

وبلغ من خوفه أنه كان إذا مرَّ بآية من حزبه فيها وعيد، يخرُّ مغشيًا عليه، ويلزم الفراش حتى يعاد يحسبه الجاهل مريضًا، وما به إلا ألم الخوف.

---

(١) كذا فى الأصل. والأولى حال الفتنة.

(٢) الهرج: القتل، وهو بسكون الراء.

(٣) حديث «إن الله ليمنع العبد من الأعمال»... إلخ. ضعيف رواه أحمد والحاكم وعنهما السيوطى فى جامعه بلفظ قريب من لفظ الشيخ وبدون العجب العجب ورمز له بالضعف وأقره المناوى (٢/ ٢٦١) والله أعلم.

ويطلق الرجاء، ويراد به الخوف، وهو من باب تسمية الشيء باسم نقيضه قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا لا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ [النبأ:٢٧] أي لا يخافون من ذلك، قوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران:١٨]، وقوله: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن:١٥].

فالأول العدل، والثاني الجَوْر، وكذلك العدل الأخذ بالحق، والعدل الميل عن السبيل، قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٨١].

قال الشاعر:

وَدَان بالحق لم يعـدل ولم يَزِغ ... ولم يداهن ولم ينكث ولم يَزِعِ

وبالله التوفيق.

* * *

● **قال رضي الله عنه:**

١٤ ـ كَفَى بالْفَنَا قوتًا لنَفْسٍ فَناؤُها ... قَرِيبٌ وَيَكْفِيَها صَـرًا وَصَراء

كفى: فعْل ماض بمعنى الانتهاء، كما تقول: كفى بالله وكيلاً، وكفى بالله شهيدًا، فالأول الانتهاء في الضّعة، والثاني الانتهاء في الرفعة، «بالفنا» جار ومجرور متعلق بكفى، والباء زائدة بمعنى التأكيد «قُوتًا» منصوب على التميز.

فالفَنَا بالقصر: ما تساقط على الأرض من الطعام، قال الرسول ﷺ «أكل الفنَا ولعق الإنا وترك الزنا يورث الغنى».

ويطلَق ويُراد به التَّافهُ من الرثة[1].

قال الشاعر:

تركـتُ الفنـا للقـومِ ينتهبـونه
وصممت أبغي الوتْر والسلب عن قسرى
ومـا راقني مـذْ عـاقني ربع منزل
أو أدرك ثَـأْرى مـن تميـم بنـي مُـرِّ

(١) الرثة: جمعه رث ورثاث: السقط من متاع البيت.

والفنا مؤخر خف البعير وهو عين عكس الكوع، والفناء بالمد ضد البقاء، قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] فلما نزلت هذه الآية، طمع سُكَّان السموات والبحار فى البقاء، فأنزل الله قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] فيئس كل ذى نفس منفُوسة[1] من البقاء، وطمع فيه الجمادات، حتى أنزل الله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] فيئست الكائنات كلها من البقاء، وأما القدم فلا مطمع لأحد فيه، إلا أن الفلاسفة والطبيعية[2] قبَّحهم الله يقولون بقدم العالم، مستدلين على ذلك بأنَّ علم البارى جل وعلا قديم، وإنما علمه تعلَّق كشفه بإيجاد المعلومات أزلاً، ومتعلق القديم قديم، وقد ضلُّوا إذ لا يتعلق القديم إلا بالحادث تعلقًا إيجاديا من غير مماسة ولا اتصال ولا مجانسة، إذ شتَّان ما بين العلم والمعلوم، فالعلم صفة ذاته، والمعلوم جميع مخلوقاته، كما لا مناسبة بين القبض والمقبوض فى الخارج.

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: ٦٧] فتتفرع القَضية إلى قابض وقبض ومقبوض عليه.

قوله: لنفس فَناؤها قريب.

فإن قلت: لم أضاف المصنف الفناء للنفس دون الجسم، والمعلوم المجمع عليه أن أرواح السعداء باقية نَاعمة إلى يوم الدين، وأرواح أهل الشقاء معذَّبة إلى يوم القيامة؟ فالفَانى لا يعذَّب وإنما يعذَّب الباقى، قال محمد بن إسماعيل وهو البخارى:

يا رب أعضاءُ السجود عتقتها	بفضلك الوافى وأنت الواقى
والعتق يسرى بالفنا ياذا الغنى	فامنن على الفانى بعتْق الباقى

فالفانى الجسم، والباقى الروح.

---

(١) منفوسة: مولودة.

(٢) الطبيعية: هم الذين يقولون: إن الطبيعة هى التى أوجدت الكائنات، وهم الدهرية. قبحهم الله.

(٣) البخارى هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخارى أمير المؤمنين فى الحديث ومؤلف صحيح البخارى أصح الكتب بعد كتاب الله ولد فى ١٣/ ١٠/ ١٩٤ وتوفى رحمه الله فى اليوم الأول من شهر شوال عام ٢٥٦ هجرية.

وقال غيرُه:

ولَو كُنَّـا إذَا متْنَـا تُرِكْنـا لكـان الموتُ راحةَ كُلٍّ حَى
ولكنَّـا إذا متنـا بُعثنـا ونسألُ بعد ذَا عَنْ كُلِّ شَى

وقال غيرُه:

بلغن أهلَنَـا ولا تُخْـفِ عَنهُمْ مـا لقينا فى البرْزَخ الخَنَّاقِ
قد سئلنا عن كل ما قـد فعلنا فارحموا وحشتى وما قد ألاقى

وهتف هاتف من قبر على رضى الله عنه لبعض زُوَّاره فقال له:

قد كنت ميتًا فصرت حيًا وعـن قريـب تَصير ميتًا
فـابن لـدار البقـاء بيتًا واهـدم لدار الفنـاء بيتًا

فيعتذر عن المصنف أنه إنما أراد بفناء النفس انقطاع نعيم الدنيا عنها، فصارت بذلك كأنها قد فنيت، وبأن طعم الموت إنما تذوقه النفس، لأنها حسَّاسة، بخلاف الجسم، إذ إنما هو جماد كالخشبة، وإنما يتألم بواسطة النفس.

قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ [آل عمران:١٨٥] الآية أو يريد بالنفس ذات الشَّئْءِ. قال عيسى عليه السلام: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ [المائدة:١١٦] لأن النفس المحسوسة يستحيل إطلاقها على البارى جل وعلا، والمراد بها فى حقه تعالى العلم والإدراك.

أخرج البيهقى منْ طريق أبى أمامة: أن النفوس يُنكرن يوم القيامة كونهن بَاشرن الذنوب، فيأمر الله الأعضاء فيشهدون بما عَمِلُوا، فإذا شهدوا قالت لهم النفس: سُحقًا وبُعدًا، إنما كان جِدى واجتهادى فى تخليصكم، فحيث شهدتم على أنفسكم، فهلمَّ أُحاكمكم إلى الله فإنما أنا ريح، فيتحاكمان إليه، فيقول الجسم: أى رب إنما أنا خشبة ملقاة لا أسمع ولا أبصر ولا أعقل ولا أسعى حتى أتتنى النفس، فحملتنى وجعلتْ تسعى بى إلى مآربها، حتى اكتسبتُ ما اكتسبت، واقترفتُ ما اقترفت، فلم تزل على تماديها فيما اشتهته حتى أتَاها رسولك، فذهب بها، فصرت جماداً كما كنت، فإن كنت معذبًا فعذِّبْها، فإنه لا ذنب لى، وإنما

جاءنى الخذلان من قِبَلها، فتقول النفس: أى رب، إنما أنا ريح مارة، ونفحة طاهرة، حتى أمرتنى بسياسة هذا البدن الجرمودى[١] فباشرتُه وخَالطتُه، فلوَّثنى بعيوبه، ودنَّسنى بذنوبه، ركَّبتَ فيه الشهوات وحجبته بالغفلات، فجعلتُ أصيره إلى أوطاره، حتى أتانى رسولك، فذهب بى إلى عالمى، وتركته مرتهنًا بعالمه، فإن كنتَ معذِّبًا فعذبه، فإنه لا ذنْب لى، إذ ليس لى بطن ولا فَرج، ولا يَدٌ ولا رجل، فيقول الله لهما: إنى أحكم بينكما، أرأيتُما إذا جاء رجلان إلى شجرة مثمرة، أحدهما مقعد، والآخر أعمى، فالمقعد يبصر ولا قدرة له على النهوض، والآخر يَقْدِر على السعى والنهوض، ولا يبصر الثمار، فقال المقعد المبصر للأعمى: إنى أرى ثماراً ولو كانت لى قدرة على النهوض لتناولتها، فقال الأعمى: هلم فارتحلنى[٢] حتى أسعى بك إليها، فلنأكل منها ولتناولنى حتى نقضى نهمتنا[٣]، ففعلا، فإذا قدر عليهما ربُّ الشجرة، فأيهما يؤاخذ بالذنب؟ فيقولان له: يؤاخذهما معًا، فيقول لهما: فذلكما أنتما، فيأمر بهما إلى النار إن شاء أو يعفو.

وفى ذلك أنزل الله قوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

وقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

وقوله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

وقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

قوله: قريب لأنها هُيِّئَتْ له، لأن الغناء عرض، والعرض لا يُنْسب إلى قُرب ولا بُعد، وهو هيئة تنشأ عن مباشرة العدم بنفس الوجود، تضمحل لكنها لا تزال تتكرر حتى تُرجع الموجود للعدم المحض على ما اصطلحت عليه طائفة المتكلمين،

---

(١) الجرمودى: الكثيف، الغليظ.

(٢) كذا فى الأصل ولعل الصواب فاحتملنى.

(٣) النهمة: الشهوة، أو الحاجة.

أو لأن كل ما هو آتٍ قريب، فالجديدان لا يزالان يتراكضان، حتى يُبْليا كُلَّ جديد، ويقرِّبا كل بعيد.

ويروى أن أمة من الأمم الماضية، كانت لهم أعمار طوال، وكانوا إذا تزوج الرجل لعبوا له مائة سنة، حتى اتفق أن رجلا منهم تزوَّج، فلعبوا له سبعين سنة، ثم منع مانع من أن يتموا له المائة، فغضب، فقال لهم نبيُّهم: إن أمة تأتى بين يدى الساعة، غالب أعمارهم إلى السبعين، فقالوا: لو كنا أولئك القوم لاكتفينا بظل الشجر، ولما تكسَّبنا، فقال: إنهم ليبنون الحصون، ويجمعون، ويأملونَ أكثر مما تأملون، وكانوا إنما يتخذون بيوتًا صغارًا من القصب تقليلاً لعمر الدنيا[1].

قوله: ويكفيها: ينفعها عن التغالى فى تناول الملذات من المطاعم والمشارب أدنى موجود تتحصل به البلغة، ويسد به الرمق، كالصرى وهو الماء المتغير من طول المكث، وقيل ما يبقى فى الحوض من الحصارة والهشيم الممزُوجين بالماء المتغيِّر بما تلقيه الرياح من فتيت الأرواث. ومن مطعوم الدنيا.

الصراء بالمد: وهو عجم[2] الحنظل العامى، لأن العرب كانت تتقوَّت به فى المجاعة.

قال الشاعر:

أتينـــاك والعـــذراء يدمى لَبَانُهـــا[3]	وقـد شُغلـت أُم الصبى عـن الطفلِ
وألقى بكفيـــه الفَتَى لاستكـــانه	من الجوع ضعفًا مـا يمر ولا يحلو
ولا شَىْءَ ممـــا يأكـل الناس عنـدنا	سوى الحنظل العامى أو العلهز الفَسْلِ[4]

---

(١) هذه القصة لا مستند لها من نقل صحيح وأغلب الظن أنها من وضع القصاصين، والله أعلم.

(٢) الحنظل: نبات يمتد على الأرض ثمره، يشبه ثمر البطيخ لكنه أصغر منه وهو سام ويضرب المثل بمرارته، ويعرف بالشرى. وعجمه: حبه. العامى: القديم الذى له سنة. والمراد أن العرب كانوا يأكلون حب الحنظل القديم فى المجاعة.

(٣) لبانها بالفتح صدرها وأصل اللبان الصدر أو وسطه أو هو ما بين الثديين ويكون للإنسان وغيره. وزعم بعضهم أنه لا يطلق إلا على ذوات الحوافر خاصة، والله أعلم.

(٤) العلهز: طعام كان العرب يستعملونه فى المجاعة وهو عبارة عن دم وشعر، مخلوطين ثم يشوى الخليط فى النار ويدق ويؤكل وغالبا ما يكون من دم الحلم، ولا يستعمل إلا فى المجاعة =

وليس لنا إلا إليك فرارنا　　وأين فرار الناس إلا إلى الرسل

وذلك أن الحياة الفانية كما تتحصل بأعلى مطعوم ومشروب، تتحصل بأدنى مطعوم ومشروب، إذ المطلوب من ذلك قوام البنية، والتَّقوِّي على العبادة، وهو حاصل مما ذكر، وقد فاز بعدم الحساب والسؤال وعدم المطالبة بشكر النعمة التي قلَّ من يقوم بشكرها، مع كفِّ النفس عن فضول شهواتها وزمِّها بزمام الشرع عن الهوى في مروج مألوفات الطبع، وتخلُّقها بأخلاق الرسل.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

ويروى أن النبي ﷺ أقبل في بعض الأيام من المسجد إلى بيوت نسائه وقد أصابته مخمصة، فسألهنَّ عما يسدُّ به الرمق، فلم يجد في بيوتهن كفًّا من دقيق، ولا جرعة من سويق[(١)] فخرج فلقيه صاحباه أبو بكر وعمر، فسألاه عن سبب خروجه من بيته بظهر الهجيرة، فقال: إنما أخرجني من بيتي الجوع، قالا: ونحن والله ما أخرجنا من بيوتنا إلا الجوع، فذهبوا إلى بيت أبي طلحة[(٢)]، فلما رآهم رحَّب بهم ثم قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لأي شيء جئتَ وصاحباك في هذه الساعة؟ فقال: ما أخرجني وصاحبي من بيوتنا إلا الجوع، فقال: طوبى لي، فإني أمسيت اليوم خير أهل الأرض ضيفًا، ثم أخذ المدية، وأقبل إلى دواجنَ في بيته، فقال له الرسول ﷺ: «إياك وذات الدَّرِّ[(٣)]» فأخذ منهن شاة فذبحها، ثم أقبل على أم سليم[(٤)] فقال هل عندك من شيء يا أم سليم، قالت: نعم عندي صاع من دقيق في رقعة، فقال هلمي برمتك[(٥)]، فأثردي لرسول الله ﷺ وصاحبيه رضي الله

= الشديدة، والبيت حسب رواية اللسان بالفاء والسين «الفسل» وهو الرديء من كل شيء، وبالفاء والشين الفزع والجبن والضعف (١١/ ٥٢٠) و(٥/ ٣٨١) لسان.

(١) السويق الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير.

(٢) أبو طلحة: اسمه زيد بن سهل بن الأسود الأنصاري النجاري الخزرجي شهد العقبة وبدرًا وحنينًا، توفي على أشهر الأقوال في عام ٣٤ وصلى عليه عثمان بن عفان رضي الله عنهما.

(٣) ذات الدر: الشاة التي فيها لبن.

(٤) أم سليم: اسمها سهلة بنت ملحان بن زيد بن حرام الأنصارية أم أنس بن مالك أسلمت مع السابقين إلى الإسلام وهي زوج أبي طلحة وكان رسول الله ﷺ يزورها وكانت تغزو معه وتعد من عقلاء النساء. اهـ.

(٥) البرمة: وعاء ضيق الفم يطبخ فيه.

عنهما على هذه الشاة، فقالت: أفعل بأبى وأمى هو، ثم ذهب إلى حائط له فأتاهم بعذق[(١)] عنب، وبماء باردٍ فى شَنٍّ، فلما طعموا وشربوا انصرفوا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «والله لتسألنَّ عن هذا النعيم خرجنا من بيوتنا جياعًا، فما رجعنا حتى طعمنا أحب الطعام إلينا وأشهاه إلى أنفسنا، وشربنا ماءً باردًا، ثم انقلبنا بنعمة وعافية فى أبداننا، فجعلوا يبكون، فأنزل الله: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨][(٢)] فيسأل الشاكرون سؤال تكريم وتشريف وتفخيم وتعريف، ويسأل المفرِّطون والمفْرِطون سؤال تبكيت وتعنيف.

يروى أنه ما من نعمة من نعم الله يسأل عبده أداء شكرها، إلا استغرقت أعماله كلها، وبقيت عليه التَّبِعات، وذلك معنى قوله ﷺ: «لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[(٣)].

فإن قلت: بين هذا الأثر الصحيح، وقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢] مغايرة، فما وجه الجمع بينهما؟

قلت: الجمع بينهما أن لا تُدخل الجنة إلا بفضله، ثم يتوارثون بعد الدخول منازلها ودرجاتها بأعمالهم.

يروى أن الله يقول لأهل الجنة عندما يأتونها وقد فتحت أبوابها: ادخلوها برحمتى، واقتسموها بأعمالكم فَبنت الجبرية[(٤)] على متن هذا الأثر الشريف.

---

(١) العذق: كل غصن له شعب، والمراد به هنا القنو: وهو فى النخل كالعنقود فى العنب، ويطلق على النخلة وعلى عنقود العنب والذى فى صحيح مسلم وغيره فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب والله أعلم.

(٢) قصة ذهاب النبى ﷺ إلى رجل من الأنصار قصة صحيحة أوردها مسلم فى كتاب الأشربة له كما رواها غيره، ورواية مسلم تغاير ما رواه الشيخ فى بعض ألفاظه، وعلى كل حال فصاحب القصة ليس هو أبو طلحة كما ذكر الشيخ وإنما هو أبو الهيثم مالك بن التيهان وقد وردت قصة غير هذه مع أبى طلحة وكانت دعوة له ﷺ وجاء ومعه سبعون شخصًا وقصة أخرى مع جابر بن عبد الله فى حفر الخندق والله أعلم.

(٣) حديث «لن يدخل أحدًا عمله الجنة»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب المرضى ومسلم فى كتاب صفة القيامة ولفظ البخارى: «لن يدخل أحدًا عمله الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضل ورحمة» إلى آخر الحديث. والله أعلم.

(٤) الجبرية: فرقة إسلامية، تدعى أن العبد مجبر على أعماله السيئ منها والحسن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الدهر: ٣٠] مذهبها الفاسد، فأبطلت حكمة الأمر والنهى، وأنكرت حقيقة التكليف، ونفت عن الله أن يفعل فى خلقه ما يشاء، حتى أفضى بهم ذلك إلى نسبة الظلم إلى الله فى تعذيب العاصى، فتمذهبوا مذهب اليهود، وما فهم الأغبياء معنى الآية، لأن الله أثبت لهم الإرادة الكسبية أولاً بقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ ولو كانت لكم إرادة كسبية مجازية إلا أن يشاء الله إمضاء ما تعلقت به مشيئتكم المجازية الكسبية بجريان مشيئته الملكية الحقيقية، هذه حقيقة قاهرة، وتلك مجازية مقهورة ظاهرة.

والمذهب الثانى مذهب القدرية[١]، وهم فرقة الإشراك بَنَوْا أساس أهوائهم الفاسدة على متن قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] فعموا عمَّا هو لهم، ونسبوا لأنفسهم ما هو له، فزعموا أن الله يخلقهم، وهم يخلقون أعمالهم، وأنَّهم قادرون على الخير والشر، وأنه يجب على الله رحمة المطيع وتعذيب العاصى، فكذَّبهم الله بقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] فجمع أهل الحق والسنة بين المذهبين على وجه يطابق الحكمة، فتأدَّبوا مع الحق بارتكاب الأسباب التى نصب الله صيانة للسر، وتبرءوا من الحول والقوة امتثالاً للأمر فركبوا سفينة التسليم فجرت بهم فى يم التعليم حتى وقفوا. على ساحل التنعيم بتيسير رياح التكريم، فنُودوا من حضرة السميع العليم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فازدادوا بعد صريح الإيمان يقينًا، ومكَّن لهم دينهم الذى ارتضى لهم تمكينًا، فاطمأنوا بما فتح الله عليهم من فضله تطمينًا، فما يخافون شكًا ولا تخمينًا.

أجمع أهل السنة من هذه الأمة على أن ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والحنيفية[٢] بينهما، وهو أن تفعل الأسباب من غير اعتماد عليها، فإن الرسول ﷺ كان يبنى الحصون ويُخندق ويُظَاهر[٣] بين دِرعين، ويبعث

(١) القدرية: فرقة تزعم أن الشر فعل العبد وحده، وهى بفتح القاف والدال.
(٢) كذا فى الأصل: ولعله يريد: واعتقاد أهل الملة الحنيفية بينهما.
(٣) ظاهر: طابق بينهما.

العيون[١]، ويسيِّر الأجْناد، فإذا قهر أمة أو فتح مدينة، رد الأمر إلى أصله وتبرَّأ من فعله فقال: تائبون آيبون لربنا حامدون، صدق الله وعده. ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شيء بعده[٢].

ومن هذا القبيل قول الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال:١٧] رمى إيصال ـ إذ رميتَ رمى القذف، ولكن الله رمى بكف، فكَفَّ الألْفَ. إذ صار ريحًا عقيمًا، فما من أحد من المشركين إلا وهو يعالج عينيه ليزيل منْهما الحصى، بل نشأت منْها ريح بَاطِنَةٌ هي أشد من الريح الظَّاهرة، وهو ما يجدونه من الرُّعب في قلوبهم، وما يسمعونه بآذانهم.

وقال رجل من هوازن كان في جيش المشركين: ما هو إلا أن رمانا محمد بذلك الكفِّ فجعلنا نسمع في قلوبنا وقع الحصى الشديد على إناء النحاس الجديد، فَرُعبنا ولم نشكَّ أنه العذاب، فلم تكن لنا همة إلا الفرار.

ومن جنس هذا قول تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ [الأنفال:١٧] وفسر ذلك بقوله: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٤] فأثبت المجاز[٣] ليرتب عليه الثواب والعقاب، وليظهر حكمة التكليف المبنى عليها حكم الشرع المرتَّب على العقل السليم المنقسم إلى أمر ونهى، وتخيير، وتلك ثمرةُ الإيجاد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

---

(١) العيون: الجواسيس.

(٢) حديث تائبون آيبون... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي، وأوله كان ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض إلى آخر الحديث.

وهو عند البخاري في كتاب الحج باب ما يقال إذا رجع من الحج.

(٣) الحق الذي لا ينبغي أن يشك فيه مسلم منصف هو أن القرآن لا مجاز فيه، لأن المجاز يجوز نفيه، والقرآن كله حق لا يجوز نفي حرف واحد منه هذا مع أن كثيرًا من السلف والخلف قال بالمجاز في القرآن فكل ما يسمى عندهم مجازًا في القرآن فهو أسلوب من أساليب اللغة العربية لا مجاز لما تقدم والله أعلم.

فإذ قلت: قد اتفق المتكلمون على أن أفعال الله لا تعلَّل بالبواعث، وهذا كتاب الله مملوء بالعِلل.

فالجوابُ أن الله خلقهم، وقرن خلقهم بعبادته، فالتعليل مجازى لا حقيقى - وقيل: معنى العبادة فى كتاب الله: التوحيد، قال الرسول ﷺ: «كان الله كنزاً لا يعرف، فخلق خلقه ليعرفوه، فإذا عرفوه كان مستحيلاً أن لا يعبدوه»(١).

فرتَّبهم على تجلِّيَيْن، تجلِّى الفضل، وتجلِّى العدل، وكل قد عرفُوه، فأهل الفضل تجلَّى عليهم باسمه الهادى، فهدوا بنُوره لنوره، وأهل العدل تجلَّى عليهم باسمه المانع، فضلُّوا فلا يهتدون سبيلاً، فعمهم بالدعوة إليه، وخص من شاء بالتوفيق. فمَا ظلمهم الله، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون باتِّباع الأهواء بعد وضوح البرهان، وهذا بحر لا يدرك قعره، لكن طمح بى عنان القلم حتى أتيت بجذْوة من القدر المحتاج إليه، ليقع بذلك إمتاع السامع، وتمرينُ الطامع.

ولنرجع إلى المقصود من بيان هذه المنظومة التى لم تشرح قبلى بشرح يشفى الغليل، ولا يبرئ العليل، لكونها منظُومة على فن التصوف، وحقائق التعرف، والتزهيد فى الدنيا، ونبذ من البلاغة، والتمييز بين الممدود والمقصور، والفرق بين المبانى والمعانى إلى غير ذلك من اللغة الغريبة، والأساليب العجيبة، وكثيراً ما طلب منى بعض الطلبة الذين استشفوا من روح نشرها ما أكدوا(٢) به عن نزع قشرها لعسرها، إذ إنما هى رموز فى طَيِّها كنوز وإشارات تُلَوِّحُ إلى عبارات.

يروى أن يحيى بن زكريا كان قوته قلوب الشجر، وإدامه مرق الجراد فإذا طعم شكر الله كثيرًا، ثم يقول من أنعمُ منك يا يحيى؟ طعامك قلوب الشجر، وإدامك مرق الجراد.

---

(١) حديث كان الله كنزًا... إلخ. موضوع ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف أورده السخاوى تحت رقم ٨٣٨ وصاحب «الكشف» تحت رقم ٢٠١٦ بلفظ «كنت كنزًا لا أعرف فأحببت أن أعرف فخلقت خلقًا فعرفتهم بى فعرفونى» وقالا قال ابن تيمية ليس هذا من كلام النبى ﷺ وليس له سند وتبع ابن تيمية فى ذلك الزركشى والحافظ بن حجر والسيوطى.
قلت: المشهور عند الناس: «كنت كنزًا مخفيًا». والله أعلم.

(٢) أكدوا بلغوا الصخر: وهو كناية عن عجزهم عن توضيح المعانى.

ويروى أنه ما شبع فى عمره إلا ليلة واحدة، فنام تلك الليلة عن ورده، فأتاه الشيطان بعد أمَّة[١]، فسأله هل نلت منى شيئًا قَطُّ؟ قال: ليلة واحدة، شبعتَ فيها فنمت عن وردك، قال: لا جرم[٢] أنى لا أشبع بعدها أبدًا، فقال إبليس: لا جرم أنى لا أنصح بعدك أحدًا أبدًا.

وأما عيسى عليه السلام، فكان يقول للحواريين: إنما الدنيا سبيل إلى الآخرة، فمن أقام على السبيل، انقطع عن المقصود، فاعبروها، ولا تعمروها، أما أنا فإن أمى ولدتنى ولا مال لى، وأحب أن ألقاه على الحالة التى فطرنى عليها، فقالوا له: كيف تعيش؟ قال: أما بيوتى، فالكهوف، وأما سراجى، فالقمر، وأما طعامى فبقل الصحراء، وأما أنيسى فربى، وأما صاحبى فعملى، وأما فراشى فالمدر[٣]، وأما وسادى، فالحجر، وأما ثيابى، فالمسوح[٤] وأما قائدى فرجائى، وأما سائقى، فخوفى من ربى.

وأما النبى ﷺ، فإنه كان على أكمل الحالين، فلم يتنعَّم تنعُّم سليمان ويوسف، ولم يتقشَّف تقشُّف عيسى ويحيى.

على الجميع سلام الله، إذ كانت شرعته أكمل الشرائع، إذ جمعت بين شدة شريعة موسى، ودماثة شريعة عيسى، فشريعة موسى فى تجلِّى الجلال، فَلا دية فيها، ولا عفو فيها، بل الواجب القصاص والانتصار ممن ظلم، وقتال من طلب القتال من غير مداراة ولا مدافعة بالتى هى أحسن، وقتل النفس فى التوبة، وقطع الثوب، والجلد فى إصابة النجاسة، ووجُوب الوصال، وتحريم الغنائم، إلى غير ذلك من الإِصار[٥].

وأما شريعة عيسى فإنها فى تجلِّى الجمال، فالقتال فى شرعه حرام، وفى الإنجيل: من صفَعَك على خَدِّك الأيمن فناوله خَدَّك الأيسر، ومن يشاتمك، فلا

(١) أمة: طائفة من الليل.
(٢) معنى لا جرم: حقا، وهنا معناها القسم أى والله إنى لا أشبع.
(٣) المدر: الطين الذى لا يخالطه رمل، ويطلق على وجه الأرض.
(٤) (المسوح): كساء من شعر يلبس على البدن تقشفًا.
(٥) الإصار: جمع إصر، وهو العبء أو الذنب.

تشاتمه، ولا قصاص على القاتل، بل الدية أم العفو.

وكانت شريعتنا فى تجلى الكمال، فجمعت بين التنعُّم بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية [الأعراف:٣٢]، والتقشُّف بقوله: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ الآية [الأحقاف:٢٠].

فعلى قدر ذلك كانت سيرته ﷺ، إذ كانت تُشْتَرى له الحُلَّة بعشرين جَملا، وكان يلبسها للقاء الوفود، وفى ذلك يقول أبو بكر: ما رأيت من ذى لمة سوداء فى حُلَّة حمراء فى ليلة قمراء، أجمل من رسول الله ﷺ.

وكان يحب الحلوى والعسل، وكان يقول: حُبِّب إليَّ من دنياكم ثلاث النساء، والطِّيب، وجعلت قُرة عينى فى الصلاة[1] فلم يكن حُبُّه لهذه الأشياء تشهيًا ولا طبعًا، بل كان تطبُّعًا.

وأمَّا التجمل للوفود، فليميل قلوبهم بجمال هيئته، وكمال صورته، فيكون ذلك جالبًا لهم إلى سعادة الدارين، لأن الله جبل القلوب على حُبِّ الجمال، وهو الغاية القصوى فيه، فإذا أحبوه جَذَبهم حُبُّه إلى حب ما هو عليه من جمال باطنه، كما ثبت أن الطبع يسرق من الطبع، بحيث لا يعلم السارق ولا المسروق منه، كما أسلم كثير من الأعراب لمجرد نظرهم إليه قائلين عند مشاهدته: والله إن هذا الوجه المشرق لخليق أن يكون وجه نبى، وبعضهم يقول: والله إنا لنرى وجهًا ما هو بوجه ساحر ولا كذَّاب، فإذا خلا بأصحابه وخاصته تقشَّف ليريهم ما هو جبلَّته وطبعه ليقتدوا به فى ذلك، بخلاف الوفود إذ لا تعلق لهم إلا بحسن الظاهر ليساير كُلا من الفريقين على قدر سيرته، ويعامله بحسب جبلَّته وسريرته مكايسة ومسايسة، فيخاطبهم على قدر طبقاتهم، ويغذِّيهم من معارفه على قدر نفقاتهم، ألا ترى أنه ليلة أسرى به، أخبر كل فريق بما هو من عالمه، فأخبر المشركين الذين هم أصحاب الحضيض بما يلائم طباعهم، وهو مسيره ومرجعه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى فى جزء من الليل، فاستعظموا سرعة سيره، ولم يستعظموا مسيره، لأنه

---

(١) حديث حبب إلى من دنياكم، حديث حسن رواه النسائى والطبرانى وغيرهما. قال ابن حجر فى التلخيص وقد اشتهر على الألسنة بزيادة: ثلاث. ولم أجدها فى شىء من طرقه المسندة (٣/ ١١٦) قلت وكأن الشيخ أوردها تبعا للغزالى فى الإحياء.

من مقدور البشر، فجعلوا يسألونه عن عيراتهم(١)، وجعل يخبرهم بمكان كل عير من عيراتهم، ويخبر بأن عير بنى فلان نفرت من حفيف دابته، وأنه رأى منها جملاً عليه جولقان فتكسرا وأنها تقدم يوم الأربعاء، يقدمها جمل أورق، عليه غرارتان، ثم سألوه عن صفة بيت المقدس، فحمله جبريل حتى وضعه بموضوع دار أبى عقيل، فجعل يصفه وهو ينظر إليه، فلما استثبتوا ذلك بموافقة، نعته له ما عندهم، لأنه لم تتقدم له رؤية لبيت المقدس، وبموافقة العيرة فيما أخبر به عنهم تحقَّقوا صدقه، فنسبوه إلى السحر، إذ لم يجدوا مدفعًا غير ذلك، ثم جعل يخبر علية أصحابه بالمستوى(٢) والكفاح والخطاب، ويخبر من هو دونهم بالرفرف(٣) وسدرة المنتهى والجنة، ويخبر من هو دون ذلك بالمساوات والأفلاك. وملاقاته للأنبياء، وصلاته بهم، إلى غير ذلك، واختص بما اختص به مما لا تتحمله عقولهم، فلم يخبرهم به، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] فأبهمه تفخيمًا لأمره، وهو ما استؤثرت به الأولياء بعد الأنبياء(٤).

قال ﷺ: «إن الله أنزل علىَّ ثلاثة علوم، أما أحدها وهو علم الشريعة، فإنه أخذ على العهد بتبليغه للخاص والعام، وأما الثانى فخيَّرنى فيه، وهو علم الحقيقة الذى لا يحمله حقيقة حمله إلا الخواص من أمتىَ، وأما الثالث فأخذ على العهد بكتمانه، فهو الذى يلهمه الأبدال من بعدى، لا تحيط به العبارة ـ اقرءوا إن شئتم: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]»(٥).

---

(١) عيراتهم: جمع عير: القافلة من الجمال، والأصل لقافلة الحمير.

(٢) يشير بالمستوى إلى ما فى الحديث الصحيح، حتى إذا بلغت مستوى أسمع فيه صرير الأقلام، أما الكفاح فهو التردد على رب العزة طلبًا لتخفيف الصلاة.

(٣) الرفرف: البسط، الفراش الرقيق من الثياب.

(٤) ثبت عن على بن أبى طالب أنه أقسم وهو على المنبر أن النبى ﷺ لم يخصهم بشىء إلا ما فى القرآن، وما فى صحيفة أشار إليها وكان فيها، العقل وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر وفى بعض الروايات أسنان الإبل وحرم المدينة.
فليس هناك سر اختص به شخص دون شخص، ولا طائفة دون أخرى، وما أبهم لا سبيل إلى معرفته إلا عن طريق النبى ﷺ، إذ هو المبلغ عن الله والمأمور بالبيان والله أعلم.

(٥) حديث إن الله أنزل على ثلاثة علوم... إلخ. لم أجد من خرجه ومع ذلك أجزم بوضعه لمخالفته نصوص الشرع العامة ومنافاته لتمام التبليغ هذا بالإضافة إلى أن كبار الصحابة كعلى =

فانْقسم ذلك إلى أقسام كثيرة على قدر درجاتهم وطبقاتهم، فمنهم المحدَّثُ، ومنهم الملهم، ومنْهم المشاهد، إلى ما لا يدخل تحت حصر. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧] فلو خاطب أمته على قدره، لم تنتفع بما جاء به قال الله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [1] [التوبة:١٢٨].

وفي ذلك يقول صاحب بردة المديح وقد أجاد:

لم يمتحنّا بمــا تعيى العقــول به — حِرْصا علينا فلم نرتب ولم نهم

ومع ذلك كان يعيد الكلمة ثلاثا لتُفْهم عنه، وما يسرد سرد غيره، بل لو شاء السامع لعد حروفَ قوله عَدا، فلما أطبقت[2] أمته على الإسلام، واختارته على غيره، واشرأبَّ فيها الإسلام، ورسخ الإيمان، واشتاقت أنفسها إلى الباقيات الصالحات، وكشفوا عن الدنيا جلباب غرورها، وحلة حبورها، تَاقت أنفس فريق منهم إلى الجَبِّ[3] والاختصاء، وترك اللحم والطيب والنساء، والترهب على رءوس الجبال، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فاستخبرهم عما بلغه عنهم، فأخبروه بصدقه، فقال: «أليس لكم فيَّ أُسوة حسنة؟ قالوا: بلى»، قال: «والله إني لأعلمكم بالله، وأتقاكم له، وإني لأنكح النساء، وآكل اللحم، وأشم الطيب، وأنه لا رهبانية في الإسلام»[4] فَدعاهم إلى أكمل الحالات.

وإنما سياحة أمتي الصوم، والجهاد، وكذلك شرعه، فإنه كان من جنس سيرته، فجمع بين الشدة والدماثة في الأحكام في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، وفي العفو مجانًا وأخذ الدية في قوله: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ

= وعائشة نفوا بشدة أن يكون النبي ﷺ كتم حرفًا واحدًا مما أنزل إليه ووصفت عائشة رضى الله عنها قائله بالكذب على الله، والله أعلم.

(١) ما عنتم: أي مشقتكم.

(٢) أطبقت: اجتمعت.

(٣) الجب: قطع ذكر الرجل.

(٤) حديث إني لأعلمكم بالله وأتقاكم له صحيح رواه الشيخان ولفظ البخاري في كتاب النكاح أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء.



فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة:١٧٨] فى الدنيا برفع الحرج ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ فى الآخرة بترك المؤاخذة بالذَّنب، ودية الخطأ وتخفيفها خاص بهذه الأمة.

وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [النحل:١٢٦، ١٢٧].

وقوله: ﴿وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٧].

ثم أمره بالعدل فى حق العدو، فقال: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢].

وقال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

وقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ(١) إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال:٥٨].

ونسخ الوصال بقوله: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقتل النفس فى التَّوبة بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ [النساء:٦٦] إلى غير ذلك مما لو تتبَّعته لجئت فيه بمجلدات، إذ العلوم كالوحش المهاج يثير بعضه بعضًا.

قوله: كفى، يأتى متعديًا، كقول الشاعر:

* كفى المرء نُبْلاً أن تعدَّ معايبُه *

ولازمًا، كقوله: كفى بالغنى قوتًا، إذ من نوع اللازم ما لا يتعدى إلا بحرف الجر، كَمَرَّ، وقال ومنه ما لا يتعدى بدخول همزة التعدية، قام، فتقول: أقامه.

والغنى أصله فاعل إذ اللفظة فى قوة كفَانا الغنى من جنْس القوت، كما أن كفى بالله وكيلاً فى قوة كفانا الله من جنس الوكلاء وكيلاً، وفناؤها مبتدأ، خبره قريب، وضمير المضاف عائد على النفس. وقُصارى المصنف فى هذا البيت التزْهيد فى المشروب والمأكول، وذلك لثلاثة أوجه:

---

(١) انبذ إليهم: اطرح عهدهم.

أحدها: أن النبى ﷺ كثيرًا ما كان يقول: «حبُّ الطعام من شأن اللئام» كما أخرجه الإمام السيوطى فى جامعه بأسانيد متصلة.

والنهم لا حظ له فى مكارم الأخلاق. وفى الجمان ما نصه أن النبى ﷺ بينما هو يطوف، إذ وجد رجلاً متعلقًا بأستار الكعبة يبكى، ويتحرَّق، ويسأل الله بحرمة بيته المكرَّم، فقال له رسول ﷺ: «يا مؤمن، سل الله بحرمتك، فإن المؤمن أعظم حرمة عند الله من البيت، فقال: إن لى ذَنْبًا عظيما، قال: وما ذنبك؟ فإن الله لا يتعاظمه ذنب، قال: إنى رجل ذو مال وثروة من كل ما آتَى الله من إبل وغنم وبقر وعقار، وإذا جاءنى سائل يسألنى، فكأنما صب على وجهى الملة[١]، فقال له النبى ﷺ: تنح عنى، لا تحرقنى بنارك، فلو أنك قمت بين الركن والمقام، وصمت لله ألف عام، وتفجَّرت من دموعك الأنْهار، حتى سقيت منها الأشجار، ومتَّ وأنت لئيم لكبَّك الله على وجهك فى النار. فقال: يا رسول الله، إن كان ذلك كذلك فإنى أشهدك أنى قد انخلعت مما أصبحت فيه، على أن ينجينى الله من النار، فقال رسول الله ﷺ: «لا تفعل، ولكن جاهد نفسك، أن يذهب الله عنك طبع اللؤم حتى يدخلك الجنَّةَ، فإن الله أقْسم حين خلق جنة عدن[٢] أن لا يدخلها مشرك ولا لئيم، فقال: يا رسول الله سل الله أن يُزيل عنى ما أجد من طبع اللؤم، فدعا رسول الله ﷺ ربه، فزال عنه ذلك، فأخرج ثلث ماله، وأقبل على ماله يفعل فيه ما أمره به رسول الله ﷺ على بصيرة حتى أتاه اليقين»[٣].

وهذه معجزة من معجزاته ﷺ، لأنه يَقُول: «إذا سمعت بجبل زال عن موضعه، فلا تكذب، وإذا سمعت بطبع زال عن صاحبه، فكذِّب» وفى رواية: «تزول الجبال، ولا تزول الطباع»[٤].

---

(١) الملا والملة: الرماد الحار.

(٢) عدن: إقامة.

(٣) حديث: أن النبى ﷺ بينما هو يطوف إذ وجد رجلاً. . . إلخ. حديث باطل لا أصل له، قاله العراقى فى تخريج الإحياء (٣/ ٢٤٩). مع أن رواية الغزالى تزيد تارة وتنقص أخرى عن رواية الشيخ، إلا أنهما متفقتان فى معظم القصة.

(٤) حديث: «إذا سمعت بجبل زال» أخرجه الإمام أحمد بلفظ «إذا سمعتم بجبل زال» وهو ضعيف (٦/ ٤٤٣) وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم (١٣٥) وقال بعد مناقشة محسنيه: إنه منكر.

وقال الشاعر:

وكل امرئ يبغى السماحة والندى ... ولكنَّ طبع المرء للمرء جالبُ

ومن شؤم اللئيم: أن المرتبة الرفيعة لا تزيده إلا خبثًا، كما أن الكنيف لا يزيده وابل المطر إلا نتنا.

وقال أبو بكر الطرطوشى[1] فى سراجه: إذا ساد اللئيم أنكر معارفه، وجفا أقاربه، وأساء إلى أرباب المناصب، وكانت ولايته سبب الدمار.

وقال ﷺ: «إن الله يحب معالى الأمور وأشرافها، ويبغض سفسافها»[2].

وقال: «الدنيا رواية، فليحسن أحدكم روايته».

وفى ذلك يقول الشاعر:

ما الدهر إلا خَبَرٌ فكن حديثا حسنا ... وصاحبنه بالعبر تكن كريما ذا سنا

واخلَع جلابيب الخنا تكرما عن الدنا ... ما ساد إلا من غدا مشمرا مع العنا

الثانى: أن البطنة تذهب الفطنة. أخرج أبو داود أن الحكمة تهوى من السماء إلى الأرض، فى كل يوم مائة مرة، ولا تدخل أربعة قُلوب، قلب فيه حب الدنيا، وقلب فيه حب الشرف، وقلب فيه خديعةٌ لمسلم، وقلب ممتلئ بَطْنُهُ طعامًا[3].

وقالت عائشة[4] رضى الله عنها: أول بدعة ظهرتْ فى الإسلام بعد رسول الله ﷺ الشبْع، ولقد كان يأتى علينا الهلال ثم الهلال ثم الهلال وما أوقدتْ فى بيوت

---

(١) الطرطوشى: وهو محمد بن الوليد بن محمد القرشى الأندلسى أديب من فقهاء المالكية الحفاظ من أهل طرطوشة بشرق الأندلس ولد سنة ٤٥١ هـ ومات سنة ٥٢٠ هجرية.

(٢) حديث «إن الله يحب معالى الأمور ويبغض سفسافها» رواه الحاكم وأبو نعيم وابن ماجه بلفظ «إن الله كريم يحب الكرم، ويحب معالى الأخلاق» إلخ.

وأورده بلفظ الشيخ، صاحب كشف الخفاء تحت رقم (٧٤٣) انتهى.

(٣) لم أجد هذا الحديث بهذا اللفظ.

(٤) عائشة بنت أبى بكر الصديق أم المؤمنين رضى الله عنها وأمها أم رومان بنت عامر ولدت بعد البعثة بأربع سنين وتزوجها رسول الله ﷺ وهى بنت ست ودخل بها وهى بنت تسع سنين. وقبض بين سحرها ونحرها ماتت سنة ثمان وخمسين ودفنت بالبقيع رضى الله عنها. إصابة (٤/ ٢٥٠).

آل محمد نار، إنْ هو إلا التمر والماء، إلا أن لنَا جيرانًا من الأنصار ربما أتَونَا بمذق[١] من لبن، ولقد فارق رسول الله ﷺ الدنيا وما شبع آل محمد من خبز الشعير[٢] كيف وأصحاب الصُّفَّة يزيدون على خمسمائة رجل، وليس لهم أهل ولا مال، إنَّما خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء مرضاة الله، لم يصحبهم إلا سيوفهم، فكان رسول الله ﷺ ووجوه أصحابه يمونُونهم، قد حبسوا أنفسهم لله، ليست لهم حرفة إلا الجهاد، ومدارسة كتاب الله، وما أنزل على رسوله، قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣] وهو أثر السجود في جباههم، وصفرةُ الوجوه، ونُحول الأجسام، ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة:٢٧٣]: أي لا يسألون رأسًا حتى يلحفوا إلحافًا، لعلوِّ هممهم، ورسوخ اليقين في قُلوبهم.

منهم من لو أقسم على الله لأبرَّه، قال رسول الله ﷺ: «أكثر الناس شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا يوم القيامة»[٣].

الثالث: أن التَّعفُّف عن المطعم والمشرب، من شيم المؤمنين، قال الرسول ﷺ: «همةُ المؤمن في الصوم والصلاة، وهمة المنافق في البطن والفرج».

ومن فوائد الجوع أنه يكسر شهوة الفَرج، ويرقق القلب، ويعينُ على قيام الليل، قال رسول الله ﷺ: «الجوع نُور، والشبع ظلمة، وما أفسد القلب شيء ما أفسده دوام الشبع».

ولذلك جعل الله الصوم من قواعد الإسلام، وقال ﷺ: «الجوع من أخلاق الأنبياء، والشبع من أخلاق المشركين».

---

(١) المذق: اللبن ممزوج بالماء.

(٢) حديث عائشة أول بدعة ظهرت في الإسلام... إلخ. حديث صحيح رواه أحمد وابن ماجه بألفاظ تختلف قليلا عن لفظ الشيخ وأوله عند ابن ماجه « إن كنا آل محمد لنمكث شهرًا ما توقد فيه بنار، قال في الزوائد إسناد صحيح وقد روى مسلم طرفًا منه (٢/ ١٣٨٨) وابن ماجه، والله أعلم.

(٣) حديث «أكثر الناس شبعًا في الدنيا»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، إلا أن الطبراني وأبا نعيم رويا: «إن أهل الجوع في الدنيا هم أهل الشبع في الآخرة» إلى آخره. قال العراقي في تخريج الإحياء إسناده ضعيف (٣/ ٨٠) والله أعلم.

قال الله فى نَعْت آل فرعون: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩] لقلة ما يصعد إليها منهم من الأعمال، بل لا يصعد لهم عمل لكفرهم بالله، ولا تَشهد لهم الأرض بعمل صالح، بخلاف المؤمنين، فإنه تبكى عليهم من الأرض مواضع سجودهم، ومن السماء أبواب أعمالهم، وأبواب أرزاقهم، قال الرسول ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله بابان في السماء، باب يصعد منه عمله، وباب ينزل عليه منه رزقه، فإذا مات بكى عليه باباه من السماء، ومواضع سجوده من الأرض أربعين صباحًا»(١).

واختلف فى معنى بكائها، فقيل: هو البكاء، وذلك أن يخلق الله فيها إدراكًا وشوقًا، فيبكيان حقيقة كما حَنَّ الجذع حين فقد سماع الذِّكر والموعظة من رسول الله ﷺ، وهو أولى لخلوِّه من التكلُّف والتأويلات، لموافقته لظاهر القرآن. وقيل: بكاء السماء حمرة أطرافها.

ولما استسقى فرعون، وجاءت أنهار النيل معه. قال: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] إلى أن قال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ﴾ [الزخرف: ٥٢] معناه لا يجد من المال والقُوت ما يقع منه موقعًا، ولم يعلم أن ذلك فخر فى حق الرسل.

قال الشاعر:

لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً ... وقد شبعت فيها بطون البهائم

وقد أجمع الأولياء أن صلاح الدين بصلاح اللقمة، وفساده بفسادها، مستدلين بقوله ﷺ: «من أكل الحلال، أطاع الله أحب أم كره، ومن أكل الحرام عصى الله أحب أم كره»(٢). وقول الله: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١] وقد أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين.

---

(١) حديث «ما من مؤمن إلا وله بابان»... إلخ. حديث ضعيف رواه الترمذى وأورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن إلا أن الترمذى قال فيه غريب لا يعرف إلا من طريق موسى بن عبيدة عن يزيد الرقاشي وهما ضعيفان وقد انتهى لفظ السيوطى عند قوله «فإذا مات بكيا عليه».

(٢) حديث «من أكل الحلال أطاع الله»... إلخ. لم أجده هكذا، إلا أن أبا نعيم فى «الحلية» روى =

يروى «أنه من أكل لقمة من الحرام، أفسد الله عليه أربعين صلاة، ومن لبس ثوبًا فيه دانق من حرام، لم يقبل الله منه صلاة ما دام لابسه»[(١)].

ولذلك قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًا من بطنه، فإن كان لابد، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنَّفَس».

وفى رواية «بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لابد، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس»[(٢)].

قال ابن الخطيب[(٣)] فى المواهب: لو سمع بقراط بهذه القسمة لعجب من هذه الحكمة، وهذا من جوامع الكلام التى لم يسبق إليها ولم يأتِ أحد قبله ولا بعده بمثلها.

ومن فوائد الاقتصاد فى طلب الرزق، وجود الغنى، قال رسول الله ﷺ: «ما عال[(٤)] من اقتصد»[(٥)].

= «من أكل الحلال أربعين يومًا نور الله قلبه»... إلخ. وعنه الغزالى فى الإحياء قال العراقى منكر (٢/ ٩٠).

(١) حديث «من لبس ثوبًا فيه دانق من حرام»... إلخ. حديث ضعيف رواه أحمد وعنه الهيثمى وفيه زيادة ثم أدخل أصبعيه فى أذنيه ثم قال صمتا إن لم يكن النبى ﷺ سمعته يقوله: قال الهيثمى وهاشم لم أعرفه وبقية رجاله وثقوا وبقية مدلس (١٠/ ٢٩٢) مجمع، ولفظ أحمد «من اشترى ثوبًا بعشرة دراهم، وفيه درهم من حرام»... إلخ.

(٢) حديث «ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه»... إلخ. حديث حسن رواه الترمذى والنسائى وأورده الغزالى بلفظ «ما ملأ آدمى وعاء شرا من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه فإن لم يفعل فثلث طعام وثلث شراب وثلث للتنفس». قال العراقى حسن (٢/ ٤) إحياء وهو حديث واحد.

(٣) ابن الخطيب: هو محمد بن عبد الله بن سعيد الشهير بلسان الدين وزير ومؤرخ أديب ولد ونشأ بغرناطة خرج من الأندلس وعاش فى فاس ثم سجن بها ويقال إنه قتل خنقًا فى السجن هناك ولد عام ٧١٣ ومات ٧٧٦ هـ له نحو من ستين مؤلفا. ويقصد تقسيم المعدة الوارد فى الحديث المتقدم.

(٤) عال: افتقر.

(٥) حديث ما عال من اقتصد. جزء من حديث موضوع أخرجه الطبرانى ولفظه: ما خاب من استخار ولا ندم من استشار ولا عال من اقتصد (١/ ٢٠٤) ورمز له السيوطى بالحسن إلا أن شارحه المناوى قال: قال الطبرانى لم يروه عن الحسن إلا عبد القدوس بن حبيب تفرد به ولده =

وقال الله فى مدح المقتصدين: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، وقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، وكفى بعدم حبه زاجرًا عن الإسراف. وما فى معناه، لأن الله يقول فى مدح المؤمنين: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] فلا حياة ولا عيشة للعبد إلا بحب الله إياه، إذ لا حياة للإنسان البتة إلا بعمارة أوقاته بطاعات الله، ولا فائدة للطاعات بدون المحبة، إذ هى الروح. قال ابن[1] عطاء الله، برد الله ضريحه: الأعمال أشخاص قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها، ومنها استدعاء السلامة[2].

يروى أن بعض مريدى الثورى[3] قال له يومًا: هَلاَّ أخذت بُلغة من الحلال، فقال له الثورى: إن فى الخبز والماء بلغة، ثم قال لمريده: هلم فلنذهب إلى بيوت السجن، فلما أتياها إذا هما بقوم يصلبُون، وبآخرين تضرب أعناقهم، وإذا هما بآخرين يعذَّبون بأنواع من العذاب، فقال الثورى لصاحبه: أيهما أحب إليك؟ ما أنا فيه، أو ما ترى؟ فقال: الموت فى عافية أحب إلى مما أرى، فَضْلاً عما أنت فيه من ضيق العيش، فقال له: أما إنهم لو رضوا بالخبز والماء القراح، لما أصابهم ما رأيتَ من العذاب الأليم، ثم أنشد فقال:

= قال ابن حجر فى التاريخ وعبد القدوس ضعيف جدا وقال فى الفتح أخرجه الطبرانى بسند واهٍ جدا وقال الهيثمى رواه الطبرانى فى الأوسط والصغير عن طريق عبد السلام بن عبد القدوس وكلاهما ضعيف جدا. اهـ (٥/٤٤٣) مناوى، كما أورده صاحب الكشف وقال بعد أن ساق له شواهد فهذه الشواهد تقتضى حسن الحديث (١/ ١٨٠) وأورده الألبانى فى الموضوعات تحت رقم (٦١١) وقال موضوع. اهـ. والذى يظهر لى أن الحديث موضوع لتفرد ولد عبد القدوس عنه به وعبد القدوس الجد كذاب وولده متهم بالوضع كما ذكر ابن حبان والله أعلم.

(١) ابن عطاء الله: هو أحمد بن محمد بن عبد الكريم السكندرى متصوف شاذلى عالم من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية له عدة مؤلفات فى التصوف توفى عام ٧٠٩ هجرية بالقاهرة (١/ ٢١٣) أعلام.

(٢) هكذا ورد فى الأصل: استدعاء.

(٣) الثورى: هو سفيان بن سعيد الثورى أمير المؤمنين فى الحديث سيد أهل زمانه فى العلم والتقوى ولد ونشأ بالكوفة ثم ذهب إلى المدينة ولما طلبه المهدى توارى فى البصرة وبها مات مستخفيًا عام ١٦١ هجرية رحمه الله.

خُبزٌ وماءٌ وظِلٌّ ذاك النَّعيم الأجلُّ
كفرتُ نعمة ربى إن قُلتُ إنى مُقِلٌّ

وفى التوراة: يا ابن آدم لا تأنس بغيرى، فأنا لك ما طلبتنى، وإن أنست بغيرى مقتك وفَاتك خيرى، يا ابن آدم خلقتك لعبادتى، وضمنت رزقك، فلا تتعب، وفى أكثر منه فلا تطمع، ومن أقَل منه فلا تجزع، فإن رضيتَ بما قسمتُ لك، أرحت قَلبك وبدنك، وكنت عندى محموداً، وإن أنت لم ترض بما قسمته لك، لأسلطنَّ عليك الدنيا تركض فيها كما يركضُ الوحشُ فى البر، ولا ينالك منها إلا ما قسمته لك وأنت عندى مذموم، يا ابن آدم إنك محب فبحقى عليك، كن لى محبًا، يا ابن آدم لا تطالبنى برزق غد، فلا أطالبك بعمل غد.

ولا يستقيم شىء مما تقدم إلا بالقناعة إذ هى الكنز الذى لا ينفد، والعز الذى لا يحد كما فى تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] أن المراد بها القناعةُ.

يروى أن داود[١] الطائى أصابته فاقة، فجاءه حماد بن أبى حنيفة بأربعمائة درهم من تركة أبيه، قال: هى من مال رجل لا أقدِّم عليه أحدًا فى زهده وورعه وطيب كسبه، فقال: لو كنت أقبل من أحد شيئًا لقبلتها تعظيمًا للميت، وإكرامًا للحى، ولكنى أحب أن أعيش فى عز القناعة.

كان عبد الله بن مرزوق نديم المهدى[٢] فكسل يومًا، ففاتته الصلاة، فجاءت جارية له بجمرة، فوضعتها على رجله فتنبَّه مذْعوراً، فقالت له: كيف لا تصبر على جمرة من نار الدنيا وتتعرَّض لنار الآخرة بترك الصلاة؟ فقام فصلى الصلاة وتصدَّق بجميع ما يملكه، فذهب وجعل يبيع البقل ليتقَوَّت بخالص الحلال. لإفطاره وصلواته، فأتاه ابن عيينة والفضل، فقالا له: ما عوَّضك الله مما تركت له. قال: الرضى بما أنا فيه، وقد أتياه وهو متوسد حجرًا، وليس بينه وبين

(١) داود الطائى: هو داود بن نصر الطائى من أئمة المتصوفين مولده بالكوفة اعتزل الناس للعبادة بها له أخبار مع أمراء عصره مات عام ١٦٥ هجرية.

(٢) المهدى: هو محمد بن عبد الله المنصور. ثالث خلفاء بنى العباس فى العراق لبث فى الخلافة عشر سنين وكان محببا للرعية جوادا حسن الخلق مات عام ١٦٩ صريعًا عن دابته.

الأرض حائل.

وإذا أراد الله بعبد خيرًا، ألهمه الطاعة، وألزمه القناعة، وفقّهه في الدين، وعضده باليقين، فاكتفى بالكفاف، واكتسى بالعفاف، وإذا أراد الله بعبد شرًا، حبّب إليه المال، وبسط منه الآمال، وشغله بدنياه، ووكله إلى هواه، فخبط في الأمور خبط عشواء، وغاب عن الحقائق غيبة نشوى.

واعلم أن الناس في الخير أربعة لا خامس لهم، منْ يفعله ابتداءً، ومن يفعله اقتداءً ومن يتركه حرمانًا، ومن يتركه استحسانًا، فمن فعله ابتداءً، فهو كريم، ومنْ يفعله اقتداءً، فهو حليم، ومن تركه حرمانًا، فهو شقي، ومن تركه استحسانًا فهو دنيء.

ومن أعظم فوائد القناعة، والاكتفاء بالبلغة، أنها تقي وجه الكريم من قبول مِنة اللئيم. قال علي كرم الله وجهه:

اللهم لا تجعل للئيم عليَّ يدًا. وفي ذلك يقول الشاعر: (المجتث)

الموتُ أسهل عندي ... بين القنا والأسنّهْ

والخيل تجري سِراعًا ... مُقطعات الأعنَّهْ

من أن يكون لِنَذْلٍ ... عليَّ فَضْلٌ ومِنَّهْ

وقال غيره:

تسربلتُ سِربال القَناعة والرِّضَى ... صبيًا وكانا في الكهولة ديدني

وأعظم منْ قطع اليدين على الفتى ... صنيعةُ برٍّ نالها منْ يَدَيْ دني

وقالت سفانة[1] بنت حاتم لرسول الله ﷺ لما منَّ عليها، فأخدمها، وكساها وحملها: لا جعل الله للئيم عليك يدًا، ولا سلب من كريم قوم نعمة إلا جعلك سببًا لردِّها إليه. قال الشاعر:

كسوتُ جميل الصبر وجهي فصانه ... بثوبه عن غِشيان باب بخيل

---

(١) سفانة بنت حاتم الطائي: الجواد المشهور، أصابتها خيل رسول الله ﷺ فطلبت منه أن يمن عليها ففعل ولما ذهبت أسلمت وحسن إسلامها.



فما عشتُ لم آت البخيل ولم أقم على بابه يومًا مقـــام ذليـــل[1]

وإن قليـلاً يستر الوجـــه أن يُرى إلى النـــاس مبـذُولاً لَغَيْـرُ قليـل

وبالله التوفيق.

* * *

• **قال الناظم برَّد الله ضريحه:**

١٥ - رزِقْتَ الحَيَا كُنْ لِلحيـاء مُلازِمًا فَبعدَ الْجَلا يُخشَى عَلَيْكَ جَلاءُ

قَوله: رزقت، مبنى للمفعول، وهو للدعاء، والحيا بالقصر والفتح: الغيث، وسمى بذلك لأنَّ به حياة الأرض، قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [النحل:٦٥]، ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال تعالى لما أهلك قوم نُوح بالطوفان: «أنا الملك الأكبر، خلقت الخلق من الماء، ورزقْتُهم بالماء، وأهلكتهم بالماء».

فالماء واحد. والتخصيصات مختلفة ليُعلم خلقَه عدم تأثير العوائد، وأن تصريف ذلك كله بأمره، فَيخْلُقُ ما يشاء.

وللحيا حالات مختلفة، فأول مطرة تُسمى الوسْميَّ، والثانية الولى، والثالثة الأتى.

وله أسماء، منها الجون، وهو الأسود الكثيف الدقيق القطر، والوابل وهو الشديد القطر المنسكب بقُوة، وربما جاء صحبته رعدٌ قَاصف، والوكف وربما قيل له: الواكف، وهو الذى يأتى عوارض[2]، والودق، وهو الذى يصاحبه البَرَدُ، ويرقه يُغْشِى البصر، قال الله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصَارِ﴾ [النور:٤٣] والجود وهو الذى يأتى من كل ناحية، ولا يكون معه ريح ولا صواعق، والغوادى، وهو الذى يأتى ضحى، ولا يكثر مجيئه إلا فى سنة الخصب.

قال الشاعر:

---

(١) هذا البيت غير موجود فى النسخة (أ)، وأثبتناه من النسخة (ب).

(٢) عوارض: السحب المعترضة فى الأفق.

لا يَبْعُدَنْك ربيعة بن مُكرم وسقَى الغوادى قَبرَه بذَنوب[1]

والهطلاء وهى التى تروى الأرض منْ غَير أذى، والسمَّاء، وهى الكثيفة التى لا رعد فيها ولا برق، والديمة، وهى التى تقيم أسبوعًا من غير إقلاع، وربما أنْبَتَتْ الأرضَ فى أثنائها، والساريةُ، وهى التى تأتى آخر الليل، والرش، ويكون بعد الوبل وقَبله، وربما جاء بدونه، والطَّشُّ، دون الرش، والرذاذ، دونهما، وأعظمه بركةَ ما كثر مزاجه، وأقله بركة ما قل مزاجه، وما لم يُمزَج لا بَركة فيه، وهو الذى ييبس النبات، قال ﷺ: «إن الله يحيى القُلوب الميتة بنور الحكمة، كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر».

وسماها الله رحمةَ، لأنه الجزء الذى أرسل إلى الدنيا، من تَجزئة مائة جزْء، فأمسك عنْده تسعًا وتسعين، وأرسل منْها جزءًا واحدًا إلى الدنيا، فبه يتراحمون، وبه يتواصلونَ، فإذا كان يوم القيامة ضم الواحد إلى التسع والتسعين، فأكملها مائة لعباده المؤمنين، قال الله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

أخْرج البغوى بإسناده إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «من أصابتْه علة أعجز الأطباء شفاؤها، فليطلب منْ زوجته أن تُعطيه شيئًا من صداقها عنْ طيب نفس، وليشتر به عسلاً، وليكتُب به آية من كتاب الله، وليمحها بماء المطر» فيجمع بين الهناءة والمراءة بقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا﴾ [النساء: ٤].

والشِّفاء بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

والرحمةُ بقوله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

والبركة بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا﴾ [ق: ٩]، ولْيَشْرَبْهُ أو ليدهن به، فَإنَّ الله تعالى معافيه منها كائنة ما كانت.

وكان ﷺ يبرزُ لأول المطر حتى يبتلَّ، فقيل له فى ذلك، فقال: «أحبه لأنه

(١) الذنوب: الدلو الكبيرة التى لها ذنب.

قريب عهد بالله».

وكان يدعو في الغيث، ومن دعائه: «اللهم سقيا رحمة لا سقيا عذاب، ولا سحق، ولا محق، ولا خسف، ولا قذف، اللهم صيبًا نافعًا، اللهم اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء». وإذا اشتد وقعه قال: «اللهم لا تُسحقنا بعذابك، ولا تهلكنا بغضبك، وعافنا بعد ذلك» وفي رواية «قَبل ذلك». ويقول عندَ جلجلة الرعد «سبحان من يسبح الرَّعد بحمده والملائكة من خيفته». وإذا لمع البرق قال: «الله أكرم من كل كريم» وإذا هبت الريح قال «اللهم اجعلها علينا رياحا، ولا تَجعلها ريحًا اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلتْ به، وأعوذ بك من شرِّها، وشرِّ ما فيها، وشر ما أرسلت به.

وإذا رأى مخيلة[1] في السماء، جعل يَدْخل ويخرج ويتغير حتى يعرف ذلك في وجهه، فقيل له في ذلك، فقال: وما يُدريكم لعله كما قال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤][2].

وكان يأمر أصحابه بالدعاء عند نزول المطر، ويخْبرهم أن الدعاء حينئذ مستجاب انتهى. وذلك لأنها ساعةٌ يفتح فيها الكريم خزائن رحمته، والكريم إذا جاد عَمَّ بنواله، قال الرسول ﷺ: «إن لله نفحات فتعرَّضوا لنفحاته، فإن ساعة منه تغنى الجميع».

يروى أن قاطعًا وعابدًا من بنى إسرائيل، عبد العابد سبعين سنة، وقطع القاطع سبعين سنة، فخرج عيسى يومًا فرآه العابد، فنزل إليه من صومعته، فرآهما القاطع فقال: عابد ونبي اجتمعا، فلعل الله أن ينظر إليهما بعين رحمته فيصيبني نصيب منها، فأقبل حتى جلس إليهما، فلما رآه العابد اشمأزَّتْ نفسه، فقال: يا عيسى

---

(١) المخيلة: السحابة التي يخال فيها المطر.

(٢) حديث «كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج»... إلخ. حديث صحيح أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق كما رواه مسلم والترمذي والنسائي، ولفظ البخاري: كان ﷺ إذا رأى مخيلة في السماء أقبل وأدبر ودخل وخرج وتغير وجه، فإذا أمطرت السماء سري عنه، فعرفته عائشة ذلك فقال وما أدري لعله كما قال قوم: ﴿فلما رأوه عارضًا مستقبل أوديتهم﴾ الآيه. اهـ.

والمراد بالقوم: عاد، قوم هود.

أتدرى من الجالس معنا؟ قال: نعم، هو قَاطع بنى إسرائيل، قال: أفطابت نفسك أن يكون جليسنا؟ قال: دعه، فلعل الله يصيبه بواسع فضله ورحمته، فبينما هما يتقاولان فى أمره، إذ نزل جبريل فأمر عيسى أن يبشِّر القاطع أنه جارهما فى الجنة، ففرح عيسى، وأخبرهما، فقال العابد: لا حاجة لى بجنة هو فيها، فقال جبريل: إن الله قد أعطى القاطع عملك سبعين سنة، وحطَّ عليك سيئاته، فعانده إن استطعت معاندته[1].

ومن أسمائه[2] أيضًا السماء، قال الله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] واستدل من فسرها بذلك بقول الشاعر:

إذا نزل السماء بأرض قَوم رَعَيْنَاه وإن كانوا غِضابًا

وفى الأثر: أصبح النبى ﷺ على إثر سماء، فقال: أصبح النَّاس اليوم مؤمنًا وكافرًا، أما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فهو مؤمن بالله كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب[3].

قال ابن حجر[4]: اختلف فى هذا الكفر، فقال أهل الظاهر: هو الكفر بالله صريحًا لنسبة التأثير لغير الله، ولتكذيبه كتاب الله فى موضعين هما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَوَاتِ﴾ [سبأ:٢٤] بالمطر، ومن الأرض بالنبات ﴿قُلِ اللَّهُ﴾،

---

(١) ما أجدر هذه القصة بالوضع، وعلى كل حال فهى من الإسرائيليات التى تسربت إلينا من مصادر لا نعلم عنها شيئا.

(٢) الضمير عائد على المطر.

(٣) حديث أصبح الناس اليوم... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخارى فى صفة الصلاة ومسلم فى الإيمان ولفظ مسلم: صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية فى إثر سماء كانت فى الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب.

(٤) ابن حجر: هو أحمد بن على بن محمد العسقلانى الكنانى من الأئمة الحفاظ المتقنين وله كثير من المؤلفات النافعة من أهمها «فتح البارى شرح البخارى» و «الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة» و «تقريب التهذيب» وغير ذلك ولد ونشأ بالقاهرة وبها توفى رحمه الله عام ٨٥٢ هجرية.

وقوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨، ٦٩].

وقال المحققون: إنَّما هو كفران الشكر لتشبهه بالمشركين فى الاستسقاء بالأنواء، مستدلين بقوله ﷺ: «ثلاثة من أمر الجاهلية، لا تتركها أمتى، الاستسقاء بالأنواء، والطعن فى الأنساب، والنياحة»(١). فنسبهم إليه، وسمَّاهم أمته مع ذلك، ولو كان كافرين لما سماهم باسم أمته.

وذهبتْ طائفة إلى التفصيل، فمن نسب التأثير إلى الكوكب حقيقة، فهو كافر مجوسى من غير خلاف كسائر المشركين القائلين فى حق آلهتهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر:٣]، وتوحيد النصارى مع قولهم: عيسى ابن الله قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

وأما من نسب التأثير إلى الله حقيقة وجعله مؤثرًا تأثير الأسباب فى مسبباتها يقوى طمعه منه ويضعف فى غير ذلك من الأمان وحقَّق عجز الكوكب وأنه حجر كسائر الأحجار لا ينفع ولا يضر، وأنه مسخر بأمر الله تعالى كما قال: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ الآية [الأعراف:٥٤] إلا أنه يقُول: إن الله ربما أرسل المطر زمن طلوع الثريا، وزمن النثرة فى بعض الأقاليم كالحجاز، لا يرى له تأثيرًا لا يزيد طلوعه قُوةً فى رجائه، ولا ينقص بعدمه، يرى ذلك كفيضان النيل وغيره، كعادة المدِّ والجزر، فهو مؤمن من غير شك ولا ارتياب، ولعله المعنى بقوله ﷺ: «ثلاثة لا تتركها أمتى...» إلخ(٢).

وأما من لا التفات له إلى شىء من العادات، فهو مؤمن حقًا. قال الغزالى(٣)

---

(١) حديث «ثلاثة من أمر الجاهلية»... إلخ. رواه الطبرانى فى «الكبير» من حديث عمرو بن عوف المزنى، والطبرانى فى الكبير من حديث سلمان الفارسى رضى الله عنه. وهو حديث صحيح، يشهد له حديث مسلم الذى رواه أبو مالك الأشعرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن، الفخر فى الأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث فى ص (٩٠).

(٣) الغزالى: هو حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى العالم الصوفى الجليل له مؤلفات=

في «الإحياء» من كان رجاؤه يقْوى بتراكم المزن وهبوب الجنوب وسماع الرعد، فليس بمؤمن، بل مشرك قائم مع العوائد، ضعيف اليقين، لأن من رأى المال ورأى الرزق منه، فهو كافر، ومن رأى المال ورأى أن الرزق منه ومن الله، فهو مشرك(١) ومن رأى المال ورأى أن الرزق من الله لا منْه، بل عاريَّةٌ بيده، ووديعة استخلفه الله عليها لينظر كيفَ يخلفه فيها، فهو مؤمنٌ حقًا، قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧].

ومن أسمائه أيضًا الغيث، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا﴾ [الشورى:٢٨]، ومما كان ﷺ يقول بعد صحو المطر: «أيما قوم مطروا فقد رحموا، مطرنا والحمد لله رب العالمين» ويظهر الاستبشار والفرح ثم يقول: «اللهم ما خولتنا به منه فاجعله لنا عونًا على طاعتك، الحمد لله الذي بنعمته وجلاله تتم الصالحات» وإذا خيف ضرره قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام، والظراب(٢)، ومنابت الشجر»(٣).

فإن قلت: هل تكلم النبي ﷺ بشيء من العوائد؟

قُلتُ: نَعم منْها حديثه المشهور: «إذا تيامنتْ بحرية، ثم تشاءمت فتلك عينٌ غُدَيقَةٌ»(٤).

= أهمها «إحياء علوم الدين» ولد في مدينة طوس بخراسان عام ٤٥٠ وتوفي بها عام ٥٠٥ هجرية، رحمه الله.

(١) هذا كلام غير مسلم ويحتاج إلى توضيح، لأن إطلاق الكفر على غير الكافر أمر خطير للغاية، والله أعلم.

(٢) الظراب: جمع ظرب الرابية الصغيرة.

(٣) حديث: اللهم حوالينا ولا علينا... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته أوله أن رجلا دخل المسجد يوم الجمعة... إلخ. رواه البخاري في الاستسقاء في باب الدعاء في الاستسقاء، كما رواه غيره، والله أعلم.

(٤) حديث: إذا تيامنت بحرية ثم تشاءمت... إلخ. رواه مالك رحمه الله في موطئه بلاغًا بلفظ «إذا أنشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة (٢/ ١٥٤) قال ابن عبد البر لا أعرف هذا الحديث بوجه في غير الموطأ إلا ما ذكره الشافعي في الأم عن محمد بن إبراهيم بن أبي يحيى عن إسحاق عن عبد الله أن النبي ﷺ قال: إذا نشأت بحرية ثم استحالت شامية فهو أمطر لها قال وابن يحيى وإسحاق ضعيفان لا يحتج بهما (٢/ ١٥٤) زرقاني وعلى كل حال فهذا من =

وقوله: «ما هبت الجنود قط إلا وسال واد».

وقال: «هاجت الريح لموت منافق».

وقوله: «كُفُّوا صبيانكم عنْد فحمة العشاء، فإن للجن فى تلك الساعة انتشارًا»[١].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾[٢] [النبأ:١٤] فالإيمان يخرجه الله من بين فَرث الشرك ودم الشك خالصًا من شيوب العادات، مخلصا من تَشْويش المعاداة، قال الله تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦] وفيه من الاشتراك، الحياء: النبات، والحياء: الفرج.

قوله: «كن» فعل أمر من كان الناقصة وللحياء بالمد متعلق بكن. «ملازمًا» خبرها، واسمها مستتر وجوبًا، والحياء بالمد ضد الفحش لقوله ﷺ: «لو كان الحياء رجلاً لكان رجل خير، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»[٣] وقيل: هو ضد الوقاحة.

قال الشاعر:

= البلاغات الأربعة التى قال فيها ابن عبد البر إنها لا تعرف: قال إن جميع ما فى الموطأ من قوله بلغنى مما لم يسنده وجدت مسنده من غير طريق مالك إلا أربعة لا تعرف هى:

١ ـ حديث إنى لا أنسى.

٢ ـ حديث أن النبى ﷺ رأى أعمار الناس... إلخ.

٣ ـ قول معاذ: آخر ما أوصانى به رسول الله ﷺ. وقد وضعت رجلى فى الغرز.

٤ ـ حديث إذ نشأت بحرية... إلخ. ٢/ ١٣ زرقانى. أما قول الشيخ رحمه الله الحديث المشهور، فالحديث ليس مشهوراً إلا بعدم السند، والله أعلم.

(١) حديث: «كفوا صبيانكم»... إلخ. رواه أبو داود والعسكرى وعنهما السيوطى تحت رقم ٦٢٦٧ ورمز له بالصحة ولفظ العسكرى: مواشيكم حتى تذهب فحمة عتمة العشاء، والله أعلم.

(٢) الثجاج: السيال شديد الانصباب.

(٣) حديث لو كان الحياء رجلا... إلخ. حديث مؤلف من حديثين الأول: «لو كان الحياء رجلا لكان صالحًا»، والثانى: «لو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»، وكلاهما ضعيف.

الأول رواه الطبرانى والخطيب ورمز له السيوطى بالضعف وقال المناوى فيه ابن لهيعة وهو لين (٥/ ٣٢٢) أما الثانى فرواه الطيالسى وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٢١١٢ وقال فيه: وهو ضعيف. اهـ.

إذا رزق الفتى وجهًا وقُوحًا تصرَّف في الأمور كما يشاء

وهو مقتبس من قوله ﷺ «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئتَ»[١]. ومنه قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ [فصلت: ٤٠] والكل بمعنى التهديد، والتهديد وعيد شديد في طي مسامحة وتمهيد. والحياء سُلَّم النجاة، ومنْبع الخَيرات، وهو انكسار يلازم النفوس الشريفة، يصونها عن الميل إلى سفساف الأمور، ويمنَعها من طلب الحظِّ والأجور، قد خشعت تحت أنوار الجلال وتلذَّذت بنفحات الجمال، فهي بالله ولله في جميع الأحوال، يعزُّ عليها أن يراها فيما عنه نهاها، أو يفقدها من حيث ما أمرها، يزعها[٢] اللُّؤْم والعار لا مخافة النار.

يروى أن حاتمًا الأصم[٣] كان متواصل الأحزان، فقيل له: أيسرك أن لو جاءتْك منْ ربِّك براءةٌ من النار؟ قال: ما باليتُ بالنار قط، وإنما يحزنني خوف الفضيحة على رءوس الأشهاد، أو يخجلني بأنه رآني حيث نهاني، وإذا لم يرني حيث نهاني، فإني لا أبالي أفي جنته أسكنني أم في نَاره، إذ إنما أنا عبده.

ويبلغُ الحياء من الرجل حتى إنه ليستحي من نفسه أن يراها في غير لائق، كما يستحي من غيره أن يراه على ذلك. وقال ﷺ: «الحياء شعبة من الإيمان»[٤].

وقال: «لا مُرُوءَةَ لمن لا دين له، ولا مروءة لمن لا حياء له، ولا دينَ لمنْ لا

---

(١) حديث إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى... إلخ. صحيح رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه وأحمد، أما البخاري فهو عنده في كتاب الأدب باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت وقد ذكر المناوي على الجامع أن كلمة الأولى ليست في البخاري (٢/ ٥٤٠) وهو وهم منه رحمه الله. والله أعلم.

(٢) يزعها: يمنعها.

(٣) حاتم الأصم: هو حاتم بن عنوان أبو عبد الرحمن المعروف بالأصم زاهد اشتهر بالورع له كلام مدون في الزهد والحكم، من أهل بلخ جاء إلى بغداد واجتمع بالإمام أحمد، وشهد بعض معارك الفتوح وكان يقال له: لقمان هذه الأمة مات عام ٢٣٧ هجرية رحمه الله.

(٤) حديث «الحياء شعبة من الإيمان»... إلخ. هذا جزء من حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم، وأوله الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة. رواه البخاري في كتاب الإيمان ومسلم في الإيمان. كما رواه باقي الجماعة باختلاف في العدد. والله أعلم.

مروءة له».

قال الشاعر:

فلا والله ما فى العيش خير ... ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وقال ﷺ: «الحياء حسن، وهو فى النساء أحسن، والفحش قبيح، وهو فى النساء أقبح».

وقال: «الحياء لا يأتى إلا بخير»(١).

نعم ذلك فى الحياء من حيث هو حياء حقيقى، غير أن تحته نَوعًا يغْتَر به الجاهل يحسبه حياءً لشبهه به، وإنما هو الوهن، وهو الذى يمنع الإنسان من اقتناء ما لابد له منه، مما يحسب الجاهل أن تركه من باب الحياء، كتركه الغسل من الجنابة فى الملإ حتى يفضى به ذلك إلى الصلاة بالجنابة، والأكل عليها وكذلك ترك ما لا يعلمه مما يستحى من الكشف عنه، كالمذى، والحيض، والاستمنَاء، وغير ذلك.

ومنْ ذلك تَحرجه من أن يصلى فى آخر الوقت، والناس ينظُرون إليه مخافة أن ينسبوه إلى التهاون بالصلاة، حيث منعه مانع من صلاتها فى أول الوقت، وكذلك تقصيره عن أخذ حقه حيث خاصم أو خوصم، لأن الله ذَمَّ النساء بعدم البيان فى الخصام فقال: ﴿أَوَ مَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ [الزخرف:١٨] فذمَّ الرجال بذلك من باب أحرى، قال الله تعالى تَعليمًا لعباده: ﴿وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣] وهو أن يعبِّر عن الزنا واللواط والوطء فى حالتى الحيض والإحرام، إلى غير ذلك.

وقال ﷺ لما أراد أن يعبِّر عن أشياء تَتَعلق بالسوأتين: «[إن الله لا يستحى من الحق] وإنَّما أنا أبُوكم أعلِّمكم كما يعلِّم أحدكم ولده، وإن الشيطان ليأتى أحدكم فَيلوى شعرة من دبره ليفسد عليه صلاته فمن وجد ذلك فلا ينصرف حتى يسمع صوتا أو يجد ريحًا»(٢).

---

(١) حديث: الحياء لا يأتى إلا بخير. متفق على صحته رواه البخارى فى كتاب الأدب كما رواه مسلم.

(٢) حديث: «إنما أنا أبوكم». رواه أحمد بلفظ إن الشيطان ليأتى أحدكم وهو فى صلاته فيأخذ =

وقال ﷺ: «من تعزَّى عليكم بعزاء الجاهلية فَأَعِضُّوه بِهَنِ أبيه ولا تكنوا»(١). انتهى وهو أن تقولوا له كما قال بلفظ الأير.

وأما الأمور التى تُنَافى الحياء، فذكر الفروج بالأسماء المستقْبحة عند العرب من غير ضرورة، والتعبير عن الوطء بما يستقبح سماعه، والإكثار من السب واللعن، والكشف عن مساوئ الجيران والرفقاء، وترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر عندما تعاين موجباته، وحرمان الجار والتهاون بأمر الضعيف، واحتقَار المملوك وإضاعة الطعام، وعدم إكرام النعمة والتَّهاون بالكرام وصحبة اللئام، وعدم الاحتشام، والانهماك فى الشهوات، وارتكاب ما يخلُّ بالمروءات من عدم نقاء الثوب وخَفَارة المستجير والنزيل، وقطيعة ذوى القرابات، والتساهل بالأيمان والنذور والتبعات، وكشف الرأس والساقَين، ورفع الصوت فى الجماعات، وكثرة الطيش والالتفات، إلى غير ذلك.

والحياء أعزَّك الله له درجات متفَاوتَاتٌ، منه أعلى، ومتوسط، وأدنى. فأعلاه: حياء الأنبياء والأولياء، ومتوسط وهو حياء خواص المؤمنين، ودون ذلك وهو حياء عامة المسلمين، وفى كل الحياء خير.

وأما ما يكون فى المشركين من مخايله، فإنما ذلك أخْلاق سياسيةٌ جعلها الله سببًا لبقَاء هذا العالم إلى أمة(٢) هم بالغُوها. قالت عائشة رضى الله عنها: مكارم الأخلاق عشرة: صدق الحديث، ونصح الناس، وأداء الأمانة، وصلةُ الرحم، والمكافأة بالصنيع، وبذل المعروف، وحفظ الجوار، ورعايةُ الذمم، وقرى الضيف، ورأسهن وأساسهن الحياء.

وعن على رضى الله عنه: منْ جعل الحياء ثَوْبَهُ لم تَر الناس عيبه.

وعن زيد(٣) بن على عن آبائه: من لم يستح فهو كافر.

= بشعرة من دبره فيمدها فيرى أنه أحدث فلا ينصرف حتى يسمع صوتًا، قال ابن حجر فى التلخيص فيه أحمد بن زيد بن جدعان (١/١٢٨).

(١) حديث: من تعزى عليكم. رواه أحمد والنسائى وابن حبان وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ٢٤٣٧. بدون ذكر عليكم. والله أعلم.

(٢) أمة: مدة.

(٣) زيد: هو زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب الإمام العلوى الهاشمى القرشى ويقال =

وعن أبى موسى[1] الأشعرى أنه قال: إنى لأدخل البيت المظلم لأغتسل، فأحنى ظهرى حياءً من ربى.

وقال بعضهم: الوجه المصونُ بالحياء. كالجوهر المكنون فى الوعاء.

قال أبو على الخواص[2]: إن الناس عملوا على أربع منازل: الخوف، والرجاء، والتعظيم، والحياء. فأرفعهم منزلة من عمل على الحياء، لأنهم لما علموا أن الله مطلع فى جميع الحالات، أجلوه أن يراهم على حالة تُسقطهم منْ عينه، فاجتنبوا لذلك كل نقص.

ويقال: القناعة دليل الأمانة، والأمانةُ دليل الشكر، والشكر دليل الزيادة، والزيادة دليل بقاء النعمة، والحياء دليل الخير كله.

قوله: فبعد الجلا: بالقصر والفتح، وهو ذَهاب شعر اليافُوخ[3] يُخْشى أى يُخاف عليك جلاء بالمد، وهو الذهاب عن الوطن ومسقط الرأس، ومراد المؤلف: الموتُ، لأن انجلاء مقَدَّم الرأس دليل السن، والسن جالبُ الشيب، والشيب نذير الموت.

يروى أن رجلاً من ولد عثمان[4] رضى الله عنه، وكان ذا نعمة وافرة، وأموال

= له الشهيد، عد من خطباء بنى هاشم وفقهائهم اقتبس علم الاعتزال من واصل بن عطاء خرج على الأمويين وقاتلهم حتى قتلوه ونصب رأسه فى دمشق والمدينة ولد عام ٧٩ ومات سنة ١٢٢ هجرية.

(١) أبو موسى الأشعرى: هو عبد الله بن قيس بن زائدة الأشعرى أسلم قديمًا وهاجر إلى الحبشة على قول، استعمله عمر على البصرة واستعمله عثمان على الكوفة ثم كان أحد الحكمين بصفين ثم اعتزل الفريقين مات سنة ٤٢ هجرية رضى الله عنه.

(٢) الخواص: هو إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل أبو إسحاق صوفى كان أحد المشايخ فى زمنه من أقران الجنيد، والخواص بائع الخوص مات عام ٢٩١ هجرية رحمه الله (١/ ٢٢) أعلام.

(٣) اليافوخ: مقدم الرأس.

(٤) عثمان: هو عثمان بن عفان بن أبى العاص القرشى الأموى أمير المؤمنين ولد بعد الفيل بست سنين. أسلم قديمًا على يد أبى بكر رضى الله عنه يلقب بذى النورين لأنه تزوج رقية وأم كلثوم، وهو الذى جمع القرآن فى مصحف واحد وكان من أغنياء الصحابة وجهز جيش العسرة واشترى بئر رومة إلى غير ذلك من المآثر، ولى الخلافة عام ٢٤ وقتل رضى الله عنه شهيدًا فى سنة ٣٥ هجرية.

جمة، وعبيد، وحفدة[١]، فبينما هو في بيته إذ أخذ المرآة فرأى شيبة، فطاش لُبُّه، وعلم أنه رسول الموت، فانخلع من جميع ذلك، ولزم مسجد رسول الله ﷺ يَقُمُّه[٢]، ويقم القبر الشريف، لا يردُّ جوابًا، ولا يقْبل خطابًا، فظنوه بإصابة الجن، وكلما جاءه بنوه ليذهبوا به إلى بيته كرهًا، استعاذ بالقبر الشريف[٣] فيتركوه حتى قدم بعضُ صلحاء الشام، فرآه، فسأل عنه، فقيل له: ذاك رجل منْ ولد عثمان نظر في المرآة يومًا فَجُنَّ، قال: فجعلت أتوسَّمه، فلم أر بعقْله خللاً، وإذا عليه سِمة الصلاح، فجعلتُه همي، فلما صلى المغرب، خرج للبقيع، فاتبعته، وجعلت أحبو تارةً، وأحدودب أخْرى، حتى تمكنتُ من النظر إليه، وسماع كلامه من حيثُ لا يراني، فإذا بظبية أو دابة تُشبهها، فمكَّنته من ضرعها، فالتَقمه حتى روى، فشكر الله شكرًا كثيرًا، ثم قَام يصلي، فما سمعت مثل تلاوته وتخشُّعه، حتى كان الثلث الأخير من الليل، جعل يتملَّق[٤]، ويدعو، وكنت أصلي بصلاته، وأُؤَمِّنُ لدعائه، وكان من جملة ما يقُول: إلهي أسألك بحرمة رسولك محمد[٥] إلا ما وفقتني للعمل بمقْتضى ما جاءتني به رسلك الذين أرسلت إليَّ، فما زال ذلك دأبه ودأبي معه، إلى آخر الليلة الثالثة، فأمهلتُه حتى دخل المسجد ضَحوة اليوم الثالث، أتَيْتُه فجعلت أقبِّل يده، فَانتهرني، فقُلتُ سيدي أسألك بحق صحبتي إياك بالبقيع منذ ثلاث إلا متَّعتني بدعوة صالحة منك، فإني كنت أصلي بصلاتك، وأُؤَمِّن على دعائك، فقال: هل اطلعت على ذلك؟ قُلتُ: نعم، فقال لست هناك، ولكن هلم فلنتوسل برسول الله ﷺ[٥] قُلتُ: سيدي فما رسل الله التي أتتك؟ قال: نظرت في المرآة فرأيت شعرات بيضًا، فعلمت أنها رسل ربي إليَّ، ينذرونني بقرب الموت، فكان من أمري ما رأيت، فلما فرغ قال: سل حاجتك وأنا أُؤَمِّن، ورسول الله ﷺ يشفع، فلما فرغتُ، مال إلى الحائط، فحرَّك شفَتَيْه ثم سقط، فإذا هو قد مات، فَدعوتُ أهل المدينة إلى حضُور جنازته،

---

(١) حفدة: جمع حافد: الخدم.

(٢) يقمه: ينظفه.

(٣) الأولى أن يقال: استعاذ بالله عز وجل.

(٤) تملَّق: تودد وتذلل.

(٥) الأولى أن يسأل الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

وأخبرتُهم بشأنه، فجعلوا يبكون، ويتأسفُون على ما فَاتَهم منْ معرفة قدره.

والجلاء بالمد: مصدر جلوت القَوم أو الرجل، أجلوه جلاءً، وأجليته: إذا نفيتَه، قَال الله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ﴾ الآية [الحشر:٣]، ولما ظهر أبو بكر على العرب المرتَدين، جعلوا يضربون إليه أكباد الإبل، فلما اجتمعت عندهت أشرافهم، قال لهم: إنى أخيِّركم بين خلتين، فاختاروا أيهما شئتم، فقالوا: أجل يا خليفة رسول الله ﷺ قال: إنى أخيركم بين الحرب المجلية، والسلم المخزية، قَالوا: أما الحرب المجليةُ، فقد عرفْناها، فما السلم المخزيةُ؟ قْال: هى أن أوكل عليكم وكلاء، فتبعثون إلى جميع ما معكم من الحلقة والسلاح، والبيضاء والصفراء، وتَشهدون أن قتلانا فى الجنة، وأن قتلاكم فى النار، وأنا على الحق، وأنكم على الباطل، وأنكم رجعتُم إلى الحق بعد خُروجكم عنه، وأنكم تَبنُون المساجد، وتعلِّمون أبناءكم كتاب الله، حتى تَظْهر تَوبتُكم لخليفة رسول الله ﷺ، فَيرى فى أموالكم وأنفسكم وأسلحتكم رأيه، فقبلوا.

فإن قُلت: ما وجه المناسبة بينِ الموت والجلاء؟

قُلتُ: وجه المناسبة أن كلاً منهما، يُخْلى المواطن، ويعطل المعاطف، ويحرق الألباب، ويفرِّق الأحباب، ويجلب للعمارة الخراب، فلذلك كنى بالجلاء عن الموت لاشتراكهما فى الإدهاش، والاستيحاش، وسرعة الذل والتلاشى والانكماش بعد الأثاث والرياش[1].

قال الشاعر:

يا فُرقةَ الأحبــاب لابُدَّ لى منـكِ ... ويا دار دنيـــا إننى راحــل عنـكِ

ويا سكراتِ الموت مــا له وللمنا ... ويا ظلماتِ القبر ما لى وللضحكِ

وقوله يخشى: مقحم، إذ المحل محل خوف، لا محل خشية، لأنه إنما تُستَعمل الخشية فيما ترجى النجاة منه، بخلاف الموت.

فحقيقة الخشية: خوف تُصاحبه معرفة وسكون.

مثاله: قوم سمعوا بعدوٍّ عظيم، فمنهم من تحصَّن وخندق على حصنه وأعد من

(١) الرياش: فاخر الثياب.

الذخائر ما لا يخاف معه طول حصار العدو، ومن العدد والعُدَد ما عسى أن يقاوِمه به مذبًا[1]، وربما طمع فى الظهور عليه، فهو ساكن مطمئن لثبوت جأشه وقوته، فهذا مثال الخشية.

الثانى: أمعن فى الهرب على وجه يرتجى به النجاة، ولم يترك وجهًا من الوجوه يرجو به نجاة إلا ارتكبه، فهذا خائف.

الثالث: انخلع قلبه من الفزع، لا يعلم حيلة، ولا يهتدى إلى سبيل من شدة الفزع، فلما رأى نفسه كذلك، ترك الحيل والاستعداد، والتجأ إلى الملك القاهر، فمنعه، فهذا راهب لُبُّه ذاهب، فالخشية للعلماء، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، والخوف للملائكة وخواص المؤمنين، قال الله تعالى فى حق الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]، وفى حق المؤمنين ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦]، وقال: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٤]، والرهبة لعامة المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الآية [الحديد:٢٧].

* * *

• قال رضى الله عنه:

١٦ ـ أيَا بْنَ الْبَرِيَ اسْتَحْضِرْ بَراءً منْ الدُّنَا
فَشِبْهُ الْعَصَى الْمُلْقَى عَلَيْــهِ عُفَــاءُ

قوله: «أيا»: حرف نداء للبعيد، وما فى معناه، كالأصم والنائم، ابن: منادى مضاف منصوب، ومعنى الابن معروف، واشتقاقه من البناء، لأن أباه تسبَّب فى بناء جثمانه. تقول إذا صُغت منه فعلاً تبنيته، فتردُّه إلى أصل مصدره بناءً، فاستثقلت العرب الإتيان بالهمزة إثر ضم، فأبدلوا منها واوًا فقالوا: بنوةً، والبر بالفتح: الأرض، لأن أبا البشر آدم عليه السلام خلق منها، فلما كان أصله منها، صار كأنه ابنها، قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

---

(١) كذا فى الأصل. ولعله يريد مدافعًا. والمذب: المدافع.

أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، قال ﷺ: «أنتم من آدم، وآدم من تُراب» فأنَّى لكم الفخر والكِبْر والخيلاء، وأنتم من الحضيض الأسفل الذى لا يأنف أن يداس بالقدم والخف والحافر، ولا يمتنع من أن تلقى عليه الجيف والأقذار، ومع ذلك لا يخرج منه إلا المليح المشتهى.

قيل: المؤمن مثل التراب، يلقى عليه كل قبيح، ولا يخرج منه إلا المليح.

قيل: إن لكل إنسان تربة من القبضة التى خُلق منها آدم، فهى مودعةٌ فى الأصلاب، ولا يدفن أحد إلا فى موضع تربته التى خلق منها[1]. فاستحالت التربة سلالة، ثم السلالة نطفة، ثم استحالت النطفة علقة، ثم استحالت العلقة مضغة، ثم استحالت المضغة عظامًا، ثم خلق الله من ماء المرأة اللحمَ والدم والجلد، ثم كساه اللون، ونفخ فيه الروح ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

قوله: استحضر، أى فى نفسك، براء بالمد، مفعول لاستحضر، والبراء بالمد من التبرئة من الشىء، وهو دفعه والتخلى عنه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ [الممتحنة:٤] جمع برىء من الدنيا، وحقيقة الدنيا ما أظلتْ الخضراء وما أقلّتْ الغبراء فشبَّة العفى[2]. وله اشتراكات منها الرمل الذى عفا من الساكن، ومنها الربع إذا خلا من أهله، ومنها الشىء التَّافه.

والعفَاء بالمد: الميتة ـ قيل: إذا كان عندى قُوتُ يومى، فعلى الدنيا العفاء، وقد يشتَرِكُ العفى والعفاء، ويقال للرمل: العفاء بالمد، قَالتْ أم رسول الله ﷺ:

عفَا جانب البطحاء من آل هاشم وجاور لَحْدًا دارسًا فى الغماغم

فشبه خبر لمبتدأ محذوف، العفى مضاف إليه، الملقَى نعت للعفى، عليه، جار ومجرور خبر للعفاء، وهذا غَايةٌ فى عيب الدنيا وتحقيرها، إذ جعلها ميتة على تَل، أو ميتة عليها ما تذروه الرياح من الرمل والهشيم، وهو مضمن قَوله ﷺ

(١) قوله: «إن لكل إنسان تربة. . .» إلخ، يظهر أنه مأخوذ من حديث: إن الميت يدفن فى التربة التى خلق منها. . . إلخ. وهو حديث موضوع قال ابن حزم فى كتابه المحلى بعد أن ساق الخبر وهذا خبر موضوع لأن فى أحد طريقيه محمد بن الحسن بن زبالة، وهو ساقط والطريق الأخرى من رواية أبى خالد وهو مجهول عن يحيى البكاء وهو ضعيف. اهـ (٧/ ٤٥١) محلى، والله أعلم.

(٢) كذا فى الأصل. والعبارة مبتورة.

«الدنيا جيفة، وطالبها كلب»[١].

وحديث السخلة التي وقف عليها رسول الله ﷺ ميتة في ربع قوم، فقال: «أترون هذه قد هانت على أربابها؟» قالوا: لو لم تهن عليهم لما تركوها فقال: «والله إن الدنيا لأهون على الله من هذه السخلة على أربابها»[٢].

قال ﷺ: «إن من هوان الدنيا أن يحيى بن زكريا قتلته بغى من بغايا بنى إسرائيل»[٣].

يروى أن أبا بكر استدعى ماء ليشربه وهو خليفة فأتوه بعسل فلما رآه جعل يبكى فقالوا ما يبكيك؟ فقال: إنى دخلت على رسول الله ﷺ فى مسجدكم هذا، فوجدته يدفع بيديه ويقول إليك عنى ما أنا بصاحب لك فقلتُ له بأبى أنت وأمى يا رسول الله من ذا الذى تُخاطبه؟ قال: الدنيا تعرضتْ لى بزخرفها وزرجُونها[٤] فَدعتنى إلى نفسها، فقلت لها ما سمعتَ، فقالتْ: لئن نجوتَ منى، فلن ينجو منى أقوام يأتُون من بعدك، يمرحون فى رياضى، ويكرعون فى حياضى، قلوبهم بحبى عامرة، ومن حب مولاهم غَامرة، فخفتُ أن أكون منهم، والله لا فارقت ما كان عليه صاحبى من خشونة العيش، والاكتفاء بالبلغة حتى ألحق به، فإنى أخَاف

---

(١) حديث الدنيا جيفة... إلخ. موضوع أخرجه صاحب الكشف تحت رقم ١٣١٣ بلفظ «الدنيا جيفة وطلابها كلاب». قال الصغانى موضوع وقال النجم: ليس بهذا اللفظ فى المرفوع والله أعلم.

(٢) حديث «أترون هذه قد هانت على أربابها»... إلخ. صحيح الإسناد رواه الترمذى وقال حسن صحيح كما رواه ابن ماجه والحاكم قال العراقى فى تخريج الإحياء رواه الحاكم وصححه وابن ماجه، ولمسلم نحوه (١٩٦/٣). قلت: ورد فى أكثر روايات هذا الحديث «شاة» بدل «سخلة» كما أورد صاحب الإحياء فى آخره ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء ورواه الحاكم وصححه، إلا أن الذهبى لم يوافقه وقال فيه زكرياء ضعفوه (٣٠٦/٤).

(٣) حديث إن من هوان الدنيا... إلخ. ضعيف جدا رواه البيهقى فى شعب الايمان، وأخرجه السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن وفيه «امرأة» بدل «بغى».
قال المناوى تعقبا على السيوطى وقضية كلام المصنف أن البيهقى خرجه وأقره والأمر بخلافه بل تعقبه بما نصه هذا إسناد ضعيف (٥٤٣/٣).

(٤) الزرجون: الخمر، والمراد ملذاتها، أو زينتها.

أن أخَالفَ ما كَانَ عليه، فيخَالف بى إلى النار، فإنى سمعته يقول: أصابتكم فتنة الضراء، فَصبرتُم عليها، وستصيبكم فتنة السراء، فلا أراكم صابرين عليها، أو تُهلككم كما أهلكت من كان قبلكم.

فقال حذيفة: أيأتى الخير بالشر، قال: لا، ولكنى أخاف أن تُبسط عليكم الدنيا فتنافَسُوا فيها فتَرجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض»[١].

«والله ما فتَح الله على قَوم الدنيا إلا فتح عليهم بها باب فتنة، فَمن صبر وشكر نجا، ومن فخر وبطر هلك، فوالله إنها لأسحر من هاروت وماروت، فمن صحبها بالعلم والتقوى، ملكها فأهلكها، ومن ملكها بالجهل والهوى ملكته ثم أهلكته».

قال رسول ﷺ فى حديث قدسى يرويه عن ربه: «يا دنيا من أطاعنى فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه»[٢]. ولقد شوهد ذلك عيانًا.

يروى أن سبب تَوبة شاه الكرمانى، أنه خرج يومًا فى بعض متنزهاته ومعه أرباب دولته يتَصيد، فتفرّد عن أصحابه، فأصابه عطش شديد، فبينما هو يسير فى البيداء وقَد تَاه، إذ هو بولى من أولياء الله راكب على أسد، فَلما رآه هابه، فقال إلى يا شاه، فأتاه فسلَّم عليه، فقال له: ألم يأن لك أن تفيق من غشيتك، وتنتبه من غفلتك؟ فقال: سل الله لى، فسأل الله له، فقال: أعطشان وجائع أنت يا شاه؟ فقال: نعم، فحرَّك شفتيه فإذا امرأة قد جاءت بسويق[٣] وسُكَّر وخُبز سُخْن سميد[٤]، فقالتْ: تناول حاجتك يا شاه، فشربتُ سويقًا، والله ما ذقتُ مثله أحلى

(١) حديث: قال: الدنيا تعرضت لى... إلى قوله: لم يفلت منى بعدك أحد. رواه ابن أبى الدنيا والبزار بسند ضعيف والحاكم وصحح إسناده إلا أن الذهبى لم يوافقه وقال فيه عبد الصمد تركه البخارى وغيره. اهـ (٤/٣٠٩) مستدرك وضعفه العراقى كذلك فعلى هذا فالحديث ضعيف واللفظ الذى أورد الشيخ لم أجده وباقى القصة مؤلف من عدة أحاديث بعضها صحيح، أما قوله قال حذيفة: أيأتى الخير بالشر فهو مقحم فى القصة. وهو جزء من حديث آخر صحيح رواه البخارى ومسلم والله أعلم.

(٢) حديث: يا دنيا من أطاعنى... إلخ. رواه الخطيب بلفظ أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمى من خدمنى وأتعبى من خدمك وهو بهذا اللفظ موضوع، أورده ابن الجوزى فى موضوعاته (٣/ ١٣٦) والشوكانى فى فوائده تحت رقم (٧١١ ـ ٦٤) والله أعلم.

(٣) السويق: الناعم من دقيق الحنطة والشعير.

(٤) السميد: القمح المجروش.

طعمًا، ولا أذكى رائحه، ولا أبرد، ثم تناولت من الخُبز بالسُّكَّر حتى اكتفيتُ ثم قلت[١] معه فى ظل دوحة[٢] حتى إذا تفيأت الظلال، أتته بماء فتوضأ وصليتُ معه الظهر، قُلتُ له: من هذه المرأة التى تخدمك؟ قال: أوما تعرفها؟ قُلتُ: لا، قَال: تلك الدنيا، أو ليس قد سمعت قول الله: (يا دنيا اخدمى من أطاعنى، واستخدمى من خدمك)[٣] فدلنى على الطريق، وانصرف إلى البيداء.

يروى أن من قَال: لعن الله الدنيا قالت: لعن الله أعصانا لربه[٤] يقال: إلزم بابًا واحدًا لا لتفتح لك الأبواب، تفتح لك الأبواب، واخضع لملك واحد لا لتخضع لك الرقَاب، تخضع لك الرقَاب.

ويروى أن الدنيا دار عمل، ولا ثواب فيها، والآخرة دار ثواب،ولا عمل فيها.

ويروى أن وليًا من الأحياء،رأى وليًا من الأموات،فجعل الحى يسأل الميت، وهو يخبره، ثم قال له الميت: طوبى لكم معاشر الأحياء تقدرون على الأعمال ولا نقدر، ولو علمتم من ثواب الأعمال ما علمنا، لزهدتُم فيما سواها منْ جميع الحطام والراحة والبطالة، فإنا معشر الأموات نعلم ولا نعمل، وأنتم تعملون ولا تعلمون، وأما استقذارها، فليس كل أحد يشاهده، ولكن يُشاهد البصير زوالها، والزوال عنها.

قال الشاعر:

هى الدنيا تجهِّر[٥] بانطلاق ... مشمِّرة على قَدم وسَاقِ

كأن الموت والحدثان فيها ... إلى عمر الفتى فَرسا سِباقِ

فما الدنيا بباقية لحىٍّ ... ولا حىٌّ على الدنيا بباقِ

---

(١) من القيلولة.

(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة المتسعة.

(٣) تقدم قريبًا تخرج حديث الدنيا. أما القصة فلا أراها إلا منسوجة على هذا الحديث الموضوع وهى لغرابتها لا تقل عنه وضعًا حسبما أرى، والله أعلم.

(٤) تقدم تخريج هذا الحديث.

(٥) تجهر: تعلن. وفى الأصل تجهز، ولم أجد لها معنى.

وقال غيره:

وعيشك فيها ألف عام وينْقضى		كعيشك فيها بعض يوم وليلةِ

ومن شأن العاقل اللبيب، أن يوطن نفسه ما دام فيها على معالجة الشدائد، وتجرع ألم المصائب، لأن الله يقول: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (١) [البلد: ٤] إذ قال لآدم لما أهبطه إلى الدنيا: لنْ تنال العيش فيها إلا كدًا، وهو صفيه، خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وحمله على أعناق المقَرَّبين، فما طمع غيره بصفوها؟ والتمتع بها بعده، قال ابن عطاء الله: ما ترك من الجهل شيئا منْ أراد أن يحدث في الوقت ما ليس فيه.

قال الشاعر:

طالب الراحة في دار العنَا		وخاب من يطلب ما ليس يكون

وقال غيره:

يمثِّل ذو اللب في لُبِّه		شدائده قبل أن تنزلا

فإن نَزلتْ بغتةً لم يُرع		لما كان في نفسه مُثَّلا

رأى الأمر يفضى إلى آخر		فيصير آخِرُهُ أوَّلا

وذو الجهل يأمن أيامه		وينْسى مصارعَ منْ قد خلا

فإنْ دهمتْه صروفُ الليالى		ببعض مصائبه أعولا

ولو قدم الحزم في نفسه		لعلَّمه الصبر عند البلا

فليسأل العبد ربه العافية، فإن ابتلى فليصبر، فإن الجزع زيادة في المصيبة، وأشد من ذلك شماتة الأعداء.

يروى أن جبريل عليه السلام سأل أيوبَ بعد ما عوفى، فقال: ما أشد ما لقيت في بلائك؟ قال: شماتة الأعداء.

قال على رضى الله عنه لبعض أصحابه. إذا نزلتْ بك عظيمةٌ، فَحاول دفعها بالأسباب، فإن رأيتها تنجع، فَلا تعجزْ، وإن رأيتها لا تنجع، فلا تجزع، واسكن لها حتى تنقضى مدتُها، فإن الحركةَ قبل انتهاء مدتها زيادة في شدتها.

---

(١) كبد: مشقة ومكابدة.

وأما حقيقة خبثها واستقذارها، فَلا يشاهده على حقيقته إلا الأنبياء والأولياء، قال ﷺ: «إن الله لم يجعل للدنيا مثلا هو أقرب إليها من طعامكم الذى تأكلونه، أطيب ما يكون عندكم، ثم تقذفونه من بطونكم أخبث ما يكون، تتحامون أنْ تَمسُّوه بأقدامكم بعد ما كنتُم تأخُذونه بأشرف جوارحكم، وتَجعلونه فى أشرف منافذكم، وهو أفواهكم، ثم تجذبُه طبائعكم بشره حتى يمتزج بأوصالكم، فتمد منه الطبائع الأربع:

البلغم، والصفراء، والدم، والسوداء، فتنشأ عنها جميع العلل.

فينشأ عن غلبة البلغم: السل[1]، والقولنج، والنقرس، والبرسام، والكسل، وكثرة النوم، والغفلة.

وعن الصفراء: ذات الجنب، واللقوة: والفالج، ويُبْس الطبيعة، والالتهاب، وكثرة الحكم.

وعن الحمراء: الكزز والتشنج، ووجع الكلى، والمثانة، والصُّداع، والشقيقة، والخرانق، والحمراء.

ومن السوداء: الجذام، والبرص، والصرع، والميد، وغشاوة البصر.

وهذه حقيقة خبثها ظاهرًا وباطنًا، ما ينشأ عن حبها من البخل، والجبن، لأن من أحب شيئًا اقتضى حبه إياه البخل به، أحب أم كره، والبخل يؤدى إلى منع الواجب، كحق الله، والضيف، والأقرباء، والغرباء، وصيانة العرض فضلاً عن بذله تقربًا، ومن أحب شيئا واطمأن إليه، عزَّ عليه فراقه والنقلة عنه، فيستدعى ذلك الجبن، فيجمع ذلك علتين، هما أصل اللؤم، قال ﷺ: «أى داء أدوى من البخل» وكان كثيرًا ما يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل»[2]. والجبن يستدعى خوف الخلق، وهو يستدعى الرياء والسمعة، والمداهنة والتَصنُّع، وذلك يستَدعى عدم الإخلاص، ومن فَاتَه الإخلاص فقَد فاته خَير الدنيا والآخرة.

---

(١) كان الشيخ رحمه الله كأهل عصره يعتقد وجود طبائع اليونان هذه، أما السل فهو داء يصيب الرئة غالبًا، والعظام أحيانًا، سببه ميكروب سيئ، ولا علاقة له بالطبائع التى لا وجود لها، كذلك وباقى الأمراض المذكورة كل واحد له سبب خاص غير الطابع، والله أعلم.

(١) حديث «وأى داء أدوى من البخل»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان.

وكان ﷺ كثيرًا ما يقول: «اللهم أعوذ بك من خوف الخلق، وهَمِّ الرزق، والرضى عن النفس» وإنما كان ﷺ يتعوَّذ منهن، لأنَّهن أمهات الخبائث.

أخرج البيهقى من طريق أبى أمامة يرفعه إلى أبى ذر أنه قال: بينما هو جالس مع رسول الله ﷺ، إذ التفت إليه فقال: إن شئت أريتك الدنيا بحذافيرها، فقال أجل بأبى أنت وأمى، قال: فَاتْبعنى إذًا أريكها، فتَبعتُه حتى إذا قام على مزبلة عليها عظام الناس والبهائم والفضلات والخرق، فقال: يا أبا ذر أرأيت هذه الجماجم النخرة، فإنها هام رجال كانوا يأملون كما تأملون، ويحرصون على جمع المال كما تَحرصون، فصاروا إلى ما تَرى، وهذه عظام دوابهم التى كانوا يجوبون البلاد على متُونها، وهذه الخِرَق الباليةُ كانت أنواع ثيابهم التى يتَجمَّلون بها، وهذه العذرات ألوان أطعمتهم التى كانوا فيها يتنافسون فقذفوها من بطونهم أخبث ما كانت، فهم عنها راغبون، وإنما هى أطعمتهم التى كانوا إليها يهشون[1]، فمن كانَ باكيًا على الدنيا فليبك على هذا[2] وأشد من هذا ما روى أنه لا يموتُ أحد إلا تمثَّل له ماله عند النزع، فَإنْ كان ممنْ سلط على هلكته فى الحق، أتاه على أكمل صورة، فَيقول له: أنا مالك الذى بذلتَ فى الله، فَأبشر فأنا عونك وشاهدك، فنعم ما صنعتَ إذ صبرتنى باقيًا بعد ما كنتُ فانِيًا، فنعم ما أسلفت فى الأيام الخالية، وإن كان ممن أضاعه فى غير حق، واختزنه لورثته، أتاه على أقبح صورة وأفظعها، فيقول له: من أنت؟ فإني لم أر أقْبح منْك صورةً، فَيقُول أنا مالك الذى كنت تمنع حق الله فى، وكنت تدَّخرنى، ولا تنفقنى فى سبيل الله، فأبشر بشر وعرٍّ[3] أنا الشاهد عليك، كنتُ لك عونًا لو صيرتنى عونًا، ولكنك ضيعتنى، فَلأضيعنك كما ضيعتنى، فبئس ما صنعت، فجعلت حظك منى خرقًا باليةً، وجيفا فَانيةً، ومزابل قَذرة، ملأت منها الكنيف، ولقيك ربُّك صفر الكفين، مسلوب الحيلة، مدحوض الحجة، فَالويل لك، فحينئذ تتقلص شفتاه، ويربدُّ

(١) يهشون: يرتاحون، ويخفون.

(٢) حديث أبى ذر بينما هو جالس مع النبى ﷺ إلى آخره، أورده فى الإحياء عن أبى هريرة وفيه اختلاف ألفاظ عما أورد الشيخ وفى آخره فما برحنا حتى اشتد بكاؤنا. اهـ. هذا الحديث قال فيه العراقى: لا أصل له (٣/ ١٩٩).

(٣) عر: الشر المكروه، وهو من باب المتابعة.

وجهه، ويعربد[١] فتحتوشه[٢] الناشطات[٣].

ولما كانت الدنيا مركبة من الخبث، صار مآلها إليه، إذ كل شيء يرجع إلى أصله، فيرجع طعامها إلى الخبث، وحيوانها إلى النتن، وحرامها إلى العقاب، وحلالها إلى الحساب، بخلاف الآخرة، فإن مطعومها يخرج رشحًا وتجشؤًا أطيب من المسك، لا بلغم فيها يمتخط، ولا ثوب يبلى، ولا جسم يفنى، ولا حال يتغيَّر، فكل يرجع إلى أصل بنيته.

يروى أن مالك[٤] بن دينار رأى العباس بن المهلب بن أبى صفرة وقد لبس حلة من الوشى، وعلى رأسه تاج ملمع بالجواهر، وهو يمشى المطيطاء[٥]، فقال: يا فتى إن مشيتك هذه يبغضها الله ورسوله، وإنك لن تخرق الأرض ولن تَبلغ الجبال طولا. فقال له: أو ما تعرفنى؟ قال: بلى والله أعرفك، أوَّلك نطفة مذرة[٦]، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة. فذهب إلى أبيه وكان خليفة[٧] على العراقين، فأخْبره بما قال له مالك بن دينار، وما جابهه به، فأرسل إليه المهلب فقال: ما حملك على ما قُلت للعباس ابنى؟ قال: حملنى على ذلك نُصحه، وبغض المنكر، وعلمى أنه لا قُدرة لأحد إلا الله، فقال له المهلب: اذهب فأمر بالمعروف، وانه عن المنكر، وأنا من ورائك، فلما كانت أول منزل ينزله الإنسان، وقَد جبل الله القُلوب على حب أول المنازل.

قال الشاعر:

---

(١) يعربد: يسوء خلقه.

(٢) تحتوشه: تحدق به.

(٣) الناشطات: الملائكة تسل أرواح المؤمنين برفق، وهذا الوصف غير مناسب لحالة الشقى.

(٤) مالك بن دينار هو مالك بن دينار البصرى من رواة الحديث كان ورعًا يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجر، مات بالبصرة عام ١٣١ هجرية.

(٥) المطيطاء: التبختر، ومد اليدين فى المشى.

(٦) المذرة: الفاسدة الخبيثة، وأصله من البيضة الفاسدة.

(٧) أبوه هو المهلب بن أبى صفرة الأزدى العتكى أمير بطاش، جواد، ولاه ابن الزبير إمارة البصرة حارب الأزارقة وولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان وبها مات عام ٨٣ هجرية. ولم يكن فى يوم من الأيام خليفة كما ذكر الشيخ رحمه الله.

نقِّل فؤادكَ حيث شئت من الهوى ... مـــا الحُـــبُّ إلا للحبيـــب الأوَّلِ
كم منـزلٍ فى الأرض يَألفـه الفتى ... وحنينـــــــه أبـدًا لأوَّل مَنْـــزِلِ

وقد جعل الله لهم بذوى العقول دلائل يستدلون بها على خستِّها، منها أن ألذ مطعوم فيها العسل، وهو قيء ذُباب تستقذره النفوس، وأنفس ملبوس فيها الحرير وهو خرء[1] دودة، وأشرف منكوح فيها النساء، وإنما غايته مبال فى مبال، وأشرف مركوب فيها الخيل، أكبر فائدتها حمل الكرام إلى المصارع.

ويروى: لولا أنَّ الله خلق الإنسان ملازمًا للحاجة مقهوراً بالموت، لادعى الربوبية، لما ركَّب الله فيه من الكمال، ولذلك رد على النصارى لما ادَّعوا الألوهية لعيسى بقوله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥] كناية عن الغائط، لأن من اضطرَّ إلى أكل الطعام لا بد له من الغائط ومن كان لا بد له من الغائط فلا ينبغى أن يكون إلهًا، وأما قَول بعض شروحه: إن المراد بالعفى ولد الحمار فى لغة طيئ، فلم أطالعه، وهو بخلاف الاشتقاق.

وقال أيضًا: العفاء بالمد: التَّافه من المأكول، وقَد يقَال للعذرة اليابسة، فعلى هذا التأويل معنَاه أن المشتغل بالدنيا المُتهَاتِرَ بحبها، همته كهمة الحمار، إذ ليستْ له بشيء همة سوى القضم والخضم[2].

قال الشاعر:

كالعير ليس له بشيء همــة ... إلا اقتضام الزاد حول المزود

لا جعل الله لهمنا تعلقًا إلا به، وأما العفاء بالمد، فقد يكون اسمًا للرياح.

قال ابن تميمة فى الأغانى:

دَرَجَ العفاءُ على منازل جيرتى ... فغدت مناخًا للدَّبى[3] والجدجد[4]
واستعجمت من بعد قَاطنها فلا ... طيرٌ يجيب بها خلاف الهدهد

(١) الخرء: ما يخرج من الحيوان من فضلات الأكل.
(٢) الخضم: القطع.
(٣) الدبى: صغير الجراد قبل أن يتمكن من الطيران.
(٤) الجدجد: دويبة على خلقة صغير الجراد.

• قال رحمة الله عليه:

١٧ ـ وبَعْدَ العَرَى سُكْنَى العَزاءِ فَكُلُّ ذى
نَسًى هَـالِكٌ لا يَغْـرُرَنْكَ نَسَـاءُ

قوله: وبعد العرى بالقَصر والفتح، وهو عبارة عن أفنية الدور المتخذة للسمر، تُنقل على رغم أنفك إلى سكنى العراء بالمد والفتح، وهى الأرض التى لا نَبات فيها، وهو مشتق من العرى، وهو ضد الاكتساء، قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٥] وكنى بسكنى العراء عن القبر ووحشته وظلماته ـ إلا من عصم الله ـ بدينه ـ يروى أن القَبر ينَادى كل يوم، فيقُول: أنَا بيتُ الوحشة، أنا بيتُ الغُربة، أنا بيتُ الظلمة، أنا بيتُ الديدان، فما أعددت لى؟ فمن أراد النجاة من وحشة القبر، فَعليه بتلاوة كتاب الله، لقوله ﷺ: «ما تقرب المتقرِّبون إلى الله بمثل كتابه، فإنَّه المؤنس فى الوحشة، والصاحب فى الخلوة، والشفيع عند الحاجة، والدليل عند الحيرة، من طلب الهدى من غيره ضل، ومن طلب العزَّ من سواه ذلَّ». الحديث المشهور.

ومن أراد أن لا يكون غريبًا فى قبره، فلتأته المنيةُ وهو فى طلب العلم، قال ﷺ: من ماتَ وهو فى طلب العلم، قيَّض الله له فى قبره منْ يُعلِّمه ويُزيل عنه الوحشة، حتى يبعثه الله يوم القيامة عالمًا فقيهًا، ومن أراد النجاة من ظلمة القبر فليقُل بعد كل صلاة مائة مرة: لا إله إلا الله، قال ﷺ: لا إله إلا الله الملك الحق المبين، بعد كل صلاةِ مائةَ مرة، هى منجاةٌ من الفقر، وضياء فى القبر.

يروى أن المؤمن إذا وضع فى قَبره ماد به، فتأتيه كلمة الإخْلاص، فتُثبُته، وتُلقنه حجته، ثم تَقول للقَبر: اثبُتْ أى قَبرُ، فإنه كان مؤمنًا موقنًا، ثابت القَدم على التَّوحيد، فَيثْبُتُ القبر، وذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلخ [إبراهيم:٢٧] فتدلهم[1] عليه ظلمات القبر، فبينما هو كذلك إذا هو بنور قَد سطع فى جانب القبر، وبرائحة ذكية، فلم يكن إلا كلمح البصر، إذا هو برجل لم يرَ الراؤون مثله حسنًا وجمالاً، ونورًا وبهجةً، فيقول: من أنت، فوالله

(١) تدلهم: تشتد الظلمة.

إنك لميمون طلعة، إذ قد أذهب الله عنى بك ظلمات القبر؟ فيقول: أنا عملك الصالح، فأبشر بروح وريحان، ورب غير غضبان، وجنة رضوان، وإنَّك مختبر ومبتلى ليظهر الله عنى خيراً، وستُكْفَى مئونتهم إنْ شَاء الله.

وإن أراد النجاة من هوامِّ القبر، فعليه بكثرة الصدقة، قال الرسول ﷺ: «صنائع المعروف تقى مصارع السوء»[١].

وقال: «صدقَة الرجل مهاد له فى قبره، وعمامة تقيه وهج الشمس فى المحشر، ونُور له على الصراط».

قال الله تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[٢] [الروم: ٤٤].

وشطر البيت هذا مقتبس من حديث أخرجه النسائى أن النبى ﷺ خَطب يومًا، وكان من جملة ما قال: اعملوا لما بعد الموت، واحذروا حسرة الفوت، فَإنكم عما قريب تُنقلون من بهجة القصور إلى ظلمة القبور، ومن التنعم بالألوان إلى أكل الديدان، ومن لبس فَاخر الثياب إلى البلى والتُّراب[٣].

قال الشاعر:

أنعـم جسمى باللبــــاس ولينــه　　　وليس لجسمى من لباس البِلى بُدُّ

قوله: سكنى العراء، مبتدأ مؤخر، العراء مضاف إليه، ما قَبله بعد العرى جملة اسمية فى محل الرفع لسدها مسد الخبر، التقدير: سكنى كائنٌ بعد العرى، والفَاء سببيةٌ فى قوله «فكل ذى نسى» و «كل» مبتدأ خبره «هالك» «لا» ناهية «يَغْرُرْنَك» فعل مضارع مجزوم بلا النَّاهية، ونُون[٤] التوكيد، والضَّمير مفعول، و «نساء» فاعل، فالنَّسى بالقصر: كثرة المال ونماؤه، معناه: أن كل ذى مال وثروة وعزٍّ فان. أجل الله آت، فلا يخدعنَّك عن التأهُّب والتزوُّد، نساء بالمد أى تأخير نزولٍ الموت، والنسىٍ بالقصر: المال، وبالمد التأخير.

(١) حديث صنائع المعروف تقى مصارع السوء، أخرجه القضاعى بهذا اللفظ ولفظ الصدقة تمنع ميتة السوء والأخير أورده السيوطى ورمز له بالصحة.

(٢) يمهدون: يعملون ويكسبون.

(٣) كذا فى الأصل.

(٤) لعل العبارة والنون للتوكيد.

يروى أن الرشيد لما احتضر بـ «سر من رأى»[١] اجتمعت إليه أجناده وقد أمرها أن تستلئم، فلما نظر إلى كثرتها وما قد استلأمت[٢] فيه من العدة[٣] الفاضلة، والخيل المسومة، والثياب الفاخرة، استعبر ثم قال: الله أكبر، أُختطفُ وحدى بين هذه الجنود المجندة فى خرقتين، وقد كانت الدنيا طوع يدى، فمن أصبح بعدى بملكه مسرورًا، فقد أصبح مغرورًا، ثم تأوَّه وقال: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة:٢٨، ٢٩] ثم قال لخدَّامه أتونى برماد ففرشه، وجعل يتقلَّب عليه ويقول: يا من لا يزال ملكه ارحم من قد زال ملكه، ثم عهد إلى ابنه الأمين[٤] ومضى رحمه الله.

ويطلق النسى بالقَصر، ويراد به عِرْق فى الفخذ يمتد من الورك وينتهى إلى الخنصر. ودواء النسى أليةُ شَاة عربية، وهو داء يصيب من يبس الطبيعة، وربما كان من تَبَيُّغِ الدم، قال الرسول ﷺ: «احتجموا لئلا يتبيغ بكم الدم»[٥] والتَّبيغ مجاوزة

---

(٤) سر من رأى: مدينة عراقية تسمى الآن سامراء بناها المعتصم بعد الرشيد، والرشيد لم يرها أبدًا، ولم يمت بها والعبارة خطأ بلا شك. والرشيد هو هارون الرشيد بن محمد المهدى بن المنصور العباسى خامس خلفاء الدولة العباسية بويع بالخلافة بعد أخيه الهادى سنة ١٧٠ هجرية وازدهرت الدولة فى زمنه واتصل بملوك أوربا وتبادل الهاديا مع شرلمان ملك فرنسا.

يلقب بجبار بنى العباس كان حازما متواضعا كريما واجتمع فى بلاطه العلماء والشعراء والكتاب والندماء، كان يتعرف على أحوال الرعية بالسير متنكرا ليلا توفى فى قرية من قرى طوس عام ١٩٣ هجرية.

(٢) استلأمت: لبست الدروع.

(٣) العبارة غير واضحة، إذ وصف العدة بالفضل وهذا استعمال غير شائع إلا إذا أراد عظمها وجمالها. والله اعلم.

(٤) الأمين: هو محمد بن هارون الرشيد سادس خلفاء بنى العباس بويع بالخلافة بعد أبيه عام ١٩٣ حصلت بينه وبين أخيه المأمون حرب قتل فى آخرها الأمين عام ١٩٨ هجرية.

(٥) حديث احتجموا... إلخ. رواه البزار وأبو نعيم والطبرانى والديلمى وعنهم السيوطى فى جامعه بلفظ (احتجموا لخمس عشرة أو لسبع عشرة أو لتسع عشرة أو إحدى وعشرين لا يتبيغ بكم الدم فيقتلكم).

قال المناوى: قال الهيثمى: فيه ليث بن أبى سليم وهو ثقة ولكنه مدلس وقال العراقى سنده حسن موقوفًا.

ورفعه الترمذى بدون لفظ التبيغ، وقال حسن غريب (١/ ١٨٠).

الحد، حتى يؤدى إلى الضرر، وربما أدى إلى التلف، وسمى النسى بذلك، لأنه يُنْسى بألمه كل ألم، وكان ﷺ يقول لأصحابه: «من خَافَ منكم النسى فليضع أصبعه عليه، ثم ليقُل اللهم إنى أعوذ بك من كل عرق نعّار[١] وغير نعار، اللهم لا تُسلطه علىَّ بألم، ولا تسلطنى عليه بقطع، أعوذ بعزتك وجلالك من شر ما أجد وأحاذر ـ ثلاثًا». وقد يمد.

قال فروة[٢] بن مسيك، لما وفد على رسول الله ﷺ:

لما رأيتُ ملوكَ كندة أعرضت ... كالرجل خان الرجلَ عرق نسائها

قدَّمتُ راحلتى أؤم محمدًا ... أرجو فَواضلها وحسن ثرائها

وكان من ملوك كندة سيدًا شريفًا شاعرًا مفوهًا. ولما قَدم المدينة نزل على سعد[٣] بن عبادة، ثم أتى رسول الله ﷺ بالمسجد، فرحَّب به وقال: من أنزلك يا فروةُ؟ قال: سعد بنُ عبادة، قال: اللهم بارك على سعد، وكان يحضر مجلس رسول الله ﷺ، كلما جلس يتعلم القرآن، والفرائض، وشرائع الإسلام. وكان بين مراد وهمدان قُبيل الإسلام وقعةٌ، أصابتْ فيها همدان من مراد ما أرادوا، حتى أثخنوهم فى يوم يقال له: يوم الرزم، فقال له رسول الله ﷺ: يا فَروةُ هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟ فقال من ذا يصيب قَومه مثلُ ما أصاب قومى يوم الرزْم ولا يسوءه؟ فقال رسول الله ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرًا»[٤]. وفى ذلك اليوم يقول فروة:

مررنا على لُفَاةَ وهن زور ... ينازعن الأعنة ينتحينا

فإن نَغلب فغلاَّبون قدمًا ... وإن نُغْلب فغير مغلَّبينَا

(١) نعار: عاص أو متمرد.

(٢) فروة: هو فروة بن مسيك بن الحارث المرادى، استعمله النبى ﷺ على مراد لما وفد عليه، مات سنة تسع من الهجرة رضى الله عنه.

(٣) سعد: هو سعد بن عبادة بن دليم الأنصارى سيد الخزرج شهد العقبة وكان أحد النقباء مشهورا بالجود له كثير من المناقب مات بالشام سنة ١٥ هجرية.

(٤) حديث أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيرًا، أورده ابن حجر فى الإصابة وسكت عليه (٣/ ٢٠٠).

وما إن طبّنا جبن ولكن … منايانا ودولةُ آخرينا[1]
كذاك الدهر دولتُه سجال … تكرُّ صروفُه حينًا فحينا
فبينا ما نُسرُّ به ونَرضى … ولو لبست غَضارته سنينا
إذا نزلتْ به كَرَّاتُ دهر … فألفيتَ الألى غبطوا طحينًا[2]
فمن يغْبط بريب الدهر منهم … يجد ريب الزمان له خئونا
إذا ما الدهر جرَّ على أناس … كلاكله أنَاخ بآخرينا
فَلو خَلَد الملوك إذًا خَلدنَا … ولو بقى الكرام إذًا بقينَا
فأفنى ذلكم سروات قَومى … كما أفنى القرون الأولينا

والنساء مصدر نسئ ينْسأ نساء فَهو نَاسئ.ومنسئ، واسم المفعول منْه منسأ، قال الرسول ﷺ: «من أراد أن يمد الله له فى رزقه، وينسأ فى أثره فليصل رحمه»[3].

يروى أن ملك الموت أتى سليمان عليه السلام يزوره، فبينما هو عنده، إذ جاءه فتى من بنى إسرائيل ليعقد له على فتاة من قومه، ففعل سليمان عليه السلام، فانقلب الفتى مسرورًا، فتبسَّم عزرائيل عليه السلام، فقال له سليمان: مم ضحكك؟ قال: من هذا الفتى الذي عقدت له آنفًا، فانقلب مسرورًا ولم يعلم أنه لم يبق من عمره إلا ثلاثة أيام، فجعل سليمان ينتظر وفاتَه عند الثلاثة الأيام، فلم يمت، فرأى عزرائيل بعد ذلك، فقال له: ألست أخبرتنى أن الفتى يموتُ بعد ثلاثة أيام، وله سنة من يومئذ؟ قال له عزرائيل: أما إنى لم أكذب عليك، إنما

---

(١) هذه الأبيات الثلاثة الأول نقلتها كما هى من الأصل وفيها أخطاء وصححتها: كما عند ابن هشام:
مررنا على لفاة وهنَّ خوصٌ … ينازعن الأعنة ينتحينا
فإن نغلب فغلابون قدمـا … وإن نغلب فغير مغلَّبينا
وما إن طبنا جبن ولكن … منايانا وطعمة آخرينا

(٢) فى الإصابة، إذ انقلبت به، بدل، إذا نزلت به.

(٣) حديث من أراد أن يمد الله له فى عمره... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخارى ومسلم وأبو داود ولفظه «من أحب أن يبسط له فى رزقه وينسأ له فى أثره فليصل رحمه» ومعنى ينسأ له فى أثره: يؤخر له فى أجله. البخارى (١٠/٣٤٨)، مسلم (٢٥٥٧)، أبو داود (١٦٩٣).

أخبرتُك بما كان عندى فى النسخة التى كانت بيدى، فَلما ذهب من عندك وصل رحمه، فصيَّر الله الثلاثة الأيام ثلاثين سنة، وذلك أن الله كتب عنده فى أم الكتاب أن الفتى أجله كذا إن لم يصل رحمه، فإنْ وصل رحمه فأجله كذا، فقضى الله أن وصل رحمه، فزاده تلك الثلاثين، فمحا ما بيدى، وأثبت مكانه ما كان عنده فى أم الكتاب.

قال الله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وهما[1] على كلا الوجهين فمعناهما المتبادر بديهة الزيادة والتأخير، قَال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ٣٧] وذلك أن العرب كانت إذا انصرفت من الموسم فأرادت حربًا أو غزوًا أتت النسيئة فأحلَّت لها شهرًا من الأشهر الحرم، وجعلت محله شهرًا من أشهر الحل، ليكملوا بذلك الشهر الحلال الذى حرَّموه بزعمهم عدة الأشهر الحرم الثلاث المتواليات، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرَّم، ويحرِّمون أحد الصَّفَرين. فقد زادوا أحد الصفرين، وأخَّروا حرمة المحرم إلى العام القَابل، وأول من نسأ على العرب بنو فقيم بن عدى بن عامر بن ثعلبة بن الحارث بن مالك بن كنانة، فهم الذين كانوا ينسئون الشهور على العرب فى الجاهلية، وكان القَلمَّسُ أول من سن ذلك، فدانتْ له العرب، وهو حذيفةُ بنُ عدى بن فقيم بن عدى، وتوارثتْ ذلك بنوه من بعده حتى كان آخرهم الذى قَام عليه الإسلام أبو ثُمامةَ جُنَادة بنُ عوف بن أمية بن قلع بن عباد بن حذيفة وهو القَلمَّس، فإذا أرادوا الصدر قَام فيهم، فقال: اللهم إنى قَد أحللتُ أحد الصَّفَرين، وأنسأتُ الآخر للعام المقبل.

وفى ذلك يقُول عمرو بن قَيس يفْتَخر:

لقــد علمتْ معــدٌّ أن قـومى	كرام النـاس إن لهـــا كرامــا
فأى النــــــاس فَاتُونـا بـوتْر	وأىُّ الناس لم تُؤْلِك[2] لجاما؟
ألسنا الناسئين على معـــدٍّ	شهـور الحِلِّ نجعلهـا حرامــا

❊ ❊ ❊

(١) الضمير عائد على النسى بالقصر، والنساء بالمد.

(٢) تؤلك: من ولك اللجام إذا مضغه.

● **قال رحمه الله:**

١٨ ـ فَجُدْ بالفَضى واغْشَ الفَضَاءَ ولا تكُنْ
دَوًى فاتقَاءُ الموبِقَاتِ دَواءُ

قوله: جد، فعل أمر من جاد ـ بالفضى. قيل: هو العطاء الواسع. وقيل: طعام الدعوة الواسع الذى يعم الشريف والمشروف، والمجهول والمعروف، قال ﷺ: «بئس الطعام طعام الوليمة يأكله الأغنياء ويمنع منه الفقراء»(١).

واغش الفضاء، وهى الأرض الواسعة، وسميت بذلك، لأن كل حيوان يفضى إليها بجنْبه، وذلك تلميح لقوله: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦] وسميت الأرض بالفضاء، من باب تسمية الشىء باسم ملازمه، وهو الإفضاء المهنأ(٢) الذى هو بمعنى المباشرة، قال الله تعالى فى وصفها بذلك: ﴿وَالأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ: ٦] لا تغرق كالماء، ولا تزلق كالهواء، ولا تمنع الوطأة كالحرار.

قوله: ولا تكن، جازم ومجزوم، دوى خبر كان، أى ذا جهل وحمق، وهو المهذار من غير فائدة، وهو مأخوذ من دوى النحل، فإنه يسمع له دوى ودندنة، ولا فائدة تحته، فاتقاء أى اجتناب الموبقَات، أى المهلكات من الأعمال والاعتقادات دواء بالمد وحقيقة الدواء عقار يؤلف من منافع النباتات والمعادن يستعمل لدفع الداء، وإنما عنى المؤلف الاحتماء من ارتكاب الأخلاط المضرة، لأنه الدواء الذى لا داء معه، ولا دواءً يشاكله، قال ﷺ: «ليس التقى من بكى ومسح الدموع، ولكن التقى من اتقى ما نهى الله عنه».

والمصنفُ أشار فى بيته هذا إلى أربعة فصول كل منها مهم:

الأول: السخاء بقوله: فجد بالفضى.

الثانى: العزلة، بقوله: واغش الفضاء.

---

(١) حديث بئس الطعام طعام الوليمة... إلخ. رواه الدارقطنى ورمز له السيوطى بالحسن وسكت عليه المناوى (٣/ ٢١٣) وقال فيه العرس، بدل الوليمة والمساكين بدل الفقراء.

(٢) المهنأ: المهيأ المريح.

الثالث: التوقي من التهور وعدم الكيس، بقوله: ولا تكن دوى.

الرابع: الاحتماء من مباشرة ما يجلب الداء المؤدى إلى طلب معالجته بالأدوية.

أما السخاء، فناهيك من فضله قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ ـ ٧] وذلك أنَّ الإنسان إذا همَّ بالصدقة أتاه شيطان الصدقة فيحسِّنُ في عينه المبذول، فإن كفَّ وإلا حذَّره الفقر، فإن كفَّ فذلك، وإلا أمره بالرياء والسمعة، ليفسد عليه عمله الذي غَلَبه أن يكفه عنه، فإن أخلص نيته لربه وأعجزه، أتاه من وجه آخر وهو أن يلقى في نفسه أن الله لا يُخْلف له ما تَصدَّق به في الدنيا، ولا يثيبه عليه في العقبى، ويوسوس له بعيوب المتصدق عليه، وهل هو ممن يتَقبل الله الصدقَة عليه، فإنْ غَلبه على هذه بأن أعطاها مخلصًا موقنًا بالخلف منْه في الدنيا، والثواب في الآخرة، فسنيسره لليسرى، وهو تيسير الطاعات عليه في الدنيا المقتضي لتيسير الحساب في الآخرة الدال على دخول الجنة، لقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٨، ٩] بالرضوان ودخول الجنة، يقال: إن من علامة سعادة المرء تيسير أسباب الطاعات عليه، ولو لم يكن له بها كبير همة، وتعسير أسباب المعاصي عليه وإن جد في تَحصيلها، والعكس للعكس.

وقال ﷺ: «ما جبل ولي الله إلا على السخاء»(١).

وقال: «إن بدلاء أمتي لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام، ولكن بصفاء القلب، وبسخاء النفس، والنصيحة لجميع المسلمين»(٢).

---

(١) حديث «ما جُبِل ولي الله إلا على السخاء»... إلخ. موضوع أخرجه ابن الجوزي في موضوعاته بزيادة وحسن الخلق وقال: هذا حديث لا يصح، قال أبو زرعة والنسائي: يوسف راوية متروك الحديث، وقال أبو نعيم: ليس بشيء، وقال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج به، وقال الدارقطني: متروك يكذب، والحديث لا يثبت. اهـ (٢/ ١٧٨) ابن الجوزي، وأورده صاحب الإحياء بلفظ «ما جبل الله تعالى وليًا له إلا على حسن الخلق والسخاء» قال العراقي: رواه الدارقطني بسند ضعيف جدًا (٣/ ٢٣٨) إحياء.

كما أورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٢٢٠٢ بزيادة وحسن الخلق وقال: رواه الديلمي بسند ضعيف ورواه الدارقطني وأبو الشيخ.

(٢) حديث «إن بدلاء أمتي لم ينالوا ما نالوا»... إلخ. ضعيف جدًا رواه الدارقطني والخلال =

وقال ﷺ: «طلبت خمسة فوجدتها في خمسة، طلبت صفاء القلب فوجدته في صيام الصيف، وطلبتُ رضوان الله فوجدته في إكرام الضيف، وطلبت الغنى فوجدتُه في القناعة، وطلبتُ العِزَّ فوجدتُه في الورع، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدتُه في قيام الليل»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، قال على كرم الله وجهه: ليس الشح في الإنسان بعجب، لأن الله جبل عليه نفس الإنسان، وإنما العجب فيه وجود السخاء، قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠].

يروى أن السخاء اسم شجرة في الجنة مكتوب عليها اسم كل سخى، فإذا وقع في يده وَفْرٌ، ورأى محتاجًا إليه بذله، فإذا رأى الشحيح وقد أمسك وفره عليه وهو يتفسح ويتوسع فيه، قال في نفسه لئن وجدتُ مالاً لأمسكنه على نفسي كما فعل فلان الشحيح، فإذا وقع في يده شيء أسدلتْ عليه شجرتُه أغصانها، فيقذف الله في قلبه من اليقين والرحمة ما لا يقدر على الإمساك معه، وأما الشحيح فإنه إذا رأى الكريم وما منحه الله من الخلف وحسن الثناء، قال في نفسه: لئن استفدتُ فائدةً غير ما قابلتُ به الحقوق لأنفقنَّ منه كما أنفق فلان الكريم، فوجد الخلف وإحراز الثناء، فإذا استفاد مالاً أسدلت عليه شجرة الشح المغروسة له في أصل جهنم أفنانها، فيقذف في قلبه منْ خوف الفَاقة وقلة الشفقة ما لا يقدر معه على البذل، فلا يزالان كذلك حتى يموتا، فيأوى كل واحد منهما إلى شجرته، فهما صاحبا الدرعين الذين ضرب لهما رسول الله ﷺ مثلاً في الصحيحين[2]

= وعنهما الغزالي في الإحياء بلفظ «إن بدلاء أمتي لم يدخلوا الجنة بصلاة ولا صيام، ولكن دخلوها بسلامة الأنفس، وسخاوة الصدور» قال العراقي فيه محمد بن عبد العزيز، أورد ابن عدي له مناكير، وفي «الميزان»: إنه ضعيف منكر الحديث (٣/ ٢٤٠) إحياء.

كما أورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٨٨٩ وحاول في موضع آخر تحسينه بكثرة طرقه إلا أنه اعترف أخيرًا بضعفه، والله أعلم.

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ مخرجا.

(٢) يشير بذلك إلى الحديث المتفق عليه ولفظه عند البخاري «مثل البخيل والمنفق كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثدييهما إلى تراقيهما، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده =

فالشحيح هو صاحب الدرع المقَلص، يريد أن يوسِّعها فَلا تتسع، بل تلزق كل حلقة مكانها من جسده لشح نفسه وخبثها وسوء حظها عند الله وصاحبه، كلما أعطى عطية اتَّسعت وسبغت حتى تعفى أثره.

فإن قيل: أى النَّاس أكرم؟ فالواجب عليك أن تقول رسول الله ﷺ، ولو كان المثل سائرًا بحاتم[١] الطائى وكعب[٢] بن مامة الإيادى، إذ قد أثبت ذلك رسول الله ﷺ لنفْسه بحضرة عدى[٣] بن حاتم.

يروى أن عديًا لما وفد على رسول الله ﷺ فقال له بعد ما أسلم: ألسنا يا رسول الله خير الناس شاعرنا سيد الشعراء، وهو امرؤ القيس[٤]، وفارسنا أفْرس الفُرسان، وهو أبو ثور عمرو بن معدى كرب، وكريمنا أكرم الكرماء، وهو أبى حاتم بن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: لا بل أشعر الشعراء خنساء بنت عمرو ابن الشريد السلمية، وأفرس الفُرسان على بن أبى طالب، وأكرم الكرماء محمد ابن عبد الله، فقال: صدقت[٥].

واختلف فى الكرم والجود والسخاء، فقيل: ألفاظ مترادفة، وقيل: بينها خُصوص وعموم، وذلك أولى، لما فيه من زيادة العلم، فالكريم هو الذى جمع

= حتى تخفى بنانه وتعفو أثره، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع. البخارى كتاب الزكاة.

(١) حاتم: هو حاتم بن عبد الله بن سعد الطائى فارس جواد جاهلى يضرب المثل بجوده مات سنة ٤٦ قبل الهجرة.

(٢) كعب: هو كعب بن مامة بن عمرو الإيادى يضرب به المثل فى حسن الجوار والجود، وهو جاهلى لا يعرف تاريخ موته.

(٣) عدى: هو عدى بن حاتم الطائى، أسلم سنة تسع من الهجرة وكان نصرانيًا قبل ذلك، شهد فتح العراق ثم سكن الكوفة وشهد صفين مع على، مات بعد سنة ستين وقد أسن رضى الله عنه.

(٤) امرؤ القيس: هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندى، أشهر شعراء العرب يمانى الأصل، ومولده بنجد، قيل: كان اسمه عديًا، وكان أبوه ملك أسد، اشتهر باللهو والمجون إلى أن قتل أباه بنو أسد، فقال قولته المشهورة، اليوم خمر وغدًا أمر، ثم ذهب يطلب ثأر أبيه، ولم يزل كذلك إلى أن اتصل بقيصر الروم، فأعطاه العون، إلا أنه أرسل له حلة مسمومة أصابته بقروح ومات عام ٨٠ تقريبا قبل الهجرة، والله أعلم.

(٥) هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله ﷺ لم أجده مرفوعًا.

أنواع الكرم حتى بلغ النهاية التى لا يتأتّى المزيد عليها من كرم النفس المنْبجس[١] منها كرم الأخلاق والشيم، ولا يتم حتى يضاف إليه كرم الأصل، والإكرام بالتقوى فيكون كنبى الله يوسف بن نبى الله يعقُوب بن نبى الله إسحاق بن خليل الله إبراهيم. فيكون مركبًا من مطبوع ومكسوب، فالمطبوع ما جبل عليه الإنسان فى أصل غريزته التى طبعه الله عليها، والمكسوب ما منحه الله له فى ظاهر الكسب كالتقى، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

فأكَّدَهُ بأمرين:

أحدهما: إتيانه به تعالى على أتم وزن من أوزان المبالغة وأتم وصف من أوصاف أفعل التفضيل.

الثانى: إضافته له ليقع الحصر والانتهاء.

وأما دليل افتقاره إلى كرم الأصل، فقَوله ﷺ لما سئل: أى النَّاس أكرم؟ فقال «أكرم الناس يوسف نبى الله بن يعقوب نبى الله بن إسحاق نبى الله بن إبراهيم خليل الله» قالوا: لسنا نسألك عن هذا قَال: «أعن معادن الغرب تسألونى؟» قالوا نعم، قال: «خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا»[٢].

وقال أيضًا: «الناس معادن كمعادن الذهب».

وقال ﷺ: «أنَا أكرم الناس حسبًا، وأعرقها نسبًا، ما تشعبت شعبتان إلا كنتُ فى خيرهما من لدن آدم حتى خرجتُ من بين أبوى، فأنا النبى العربى القرشى الهاشمى المكى الأبطحى الزمزمى»[٣]. فالكرم لا ينبع إلا من النفوس الشريفة

---

(١) المنبجس: المتفجر، وقيل الانبجاس أول الانفجار.

(٢) حديث «لما سئل أى الناس أكرم. . .» حديث صحيح متفق عليه رواه البخارى فى كتاب الأنبياء بلفظ قيل: يارسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك قال: فيوسف نبى الله ابن نبى الله ابن نبى الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا.

(٣) حديث: أنا أكرم الناس حسبًا وأعرقها نسبًا. . . إلخ. أورده الشوكانى فى فوائده، وإن كان اللفظ غاير لفظ الشيخ فى كثير من الألفاظ وقال: هو موضوع وضعه بعض القصاص.
ولفظه: أين كنت وآدم فى الجنة؟ قال فى صلبه وأهبط إلى الأرض وأنا فى صلبه إلى أن يقول: لا تنشعب شعبتان إلا كنت فى خيرهما (١/ ٣٢٠) فوائد والله أعلم.

الزكية إذ لا غاية تلحقه، ولا رتبة توازيه.

يروى أن الله إنما خاطب الإنسان بقوله: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار:٦] إلا ليلقنَّه حجته بأن يقول: غرني كرمك، فلا يقول ذلك إنسان إلا غفر له وعفا عنه بالغَةً ذنوبه ما بلغتْ ولا يبالي.

يروى أن أبا بكر رضي الله عنه قرأ هذه الآية، فاستعبر، ثم قال: من لؤمنا وكرم الله أن خلقنا ورزقنا ودبَّر أمرنا، وكرَّمنا. ثم عصيناه، فلما أنشرنا بقُدرته وكان يوم غضبه وانتقامه خاطبنا خطابنا الكريم المشفق الرحيم ليلقننا حجتنا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦ ـ ٨].

يروى أن الله تعالى يأمر مُنَاديًا يوم القيامة فينادي: ألا من كان معروفًا بالكرم فليعتزل عن أهل المحشر لأخلو بهم وأريهم كرمي لتخلقهم بخلقي وتسميتهم باسمي، فإني أجلهم أن أؤاخذ خلقي بذنوبهم وهم شاهدون، فيأمر بهم فيكسون من حلل الكرامة ويتوجون من تيجان القرب والسلامة ثم يؤتون بمطايا لها أجنحة من نور فلا تأوى[1] حتى تدخلهم ظل عرشه فيحيِّيهم ويقول لهم: أنتم الذين كنتم تؤثرون على أنفسكم الفقراء وأرباب الفاقة والغرباء والأيتام، وكنتم تأنفون أن أراكم على لؤم أو نقص أو رذيلة، فيقولون: بفضلك وفَّقتنا وبكرمك شرَّفتنا، وبجودك عرَّفتنا، وبإرادتك صرَّفتنا فلك الحمد، فَالكل منك وإليك تباركت وتعاليت فيقول أرضيتم عبادي إذا صيرتكم إلى كنفي، والناس يعالجون شدائد المحشر، فيقُولون نَحن عنك راضون إلا أنك خلقْتنا وجبلتنا على الغيرة والأثرة، ولنا أحباء وأقرباء وعشائر ومعارف، يشق علينا أن تؤثر أنفسنا عليهم في دار الدنيا دار الفقر والفَاقة، وكيف وقد رأينا من جودك وكرمك وواسع فضلك في دار كرامتك وجوارك ما أريتنا فيقول: ليس لهم من الأعمال مثل ما لكم، ولا لهم عندي من المنزلة ما لكم، فيقُولونَ: قد علمنا لكنْ فضلك يسعهم، وأنفسنا تطيب بأن تعطيهم ثواب أعمالنا فتدخهم الجنة وتدخلنا النار، فيضحك الكريم ثم يقول

(١) تأوى: كذا في الأصل ولعل المقصود: فلا تستقر. وفي النسخة (ب): فلا تأوى بهم، والمراد: فلا تمكث.

لملائكته: انظروا يا ملائكتي إلى كرم عبادي هؤلاء، إذ رضوا بدخول النار في مثل هذا الموقف وقد عاينوا من كرامتي إياهم ما عاينوا في جنب إيثارهم وكرمهم الذي قد جبلتُهم عليه في دار الدنيا، جبلتُهم على كرم النفس والأثرة في دار الدنيا، وبعثتُهم على ذلك، فهل منكم معشر الملائكة من يقدر على مثل هذا؟ فيقولون: لا، فقال ذلك لتعلموا أني أعلم في آدم وذُريته من الكرم ما لا تعلمون، فأقروا بشرف بني آدم، فقال: أشهدكم وأشهد ملائكتي أني قد ألحقتُ بكم ذريتكم وشفعتكم في كل من شفعتم فيه من أحبابكم وعشائركم ومعارفكم، من غير أن أنقص من أعمالكم مثقال ذرة، أفتروني كرمكم اليوم وأنا أكرم الأكرمين.

يروى أنه بينما رسول الله ﷺ جالس بين أصحابه، إذ تَبسم، فقيل له: مم ضحكك أضحك الله سنَّك؟ قال: رجل من أمتي حوسب، فاستَوتْ حسناته وسيئاته، فبقي متَحيرًا دهشًا، فلما رأى الله ذلك من أمْرِه، قال له: اذهب إلى أهل المحشر فانظر هل يُرْفِدُكَ أحد من أهل المحشر بحسنة فأدخلك الجنة مع رحمتي، فيطوف في أهل المحشر، فكلما جاء أحدًا عجب منه وابتعد أن يعطي أحد حسنةً من حسناته في مثل هذا اليوم، حتى إذا أتى رجلاً من أمتي وبيده سِجِلٌّ من الخطايا وليست له إلا حسنةٌ واحدة، فيقول له: هلم أعطيك حسنتي هذه ليدخلك الله بها الجنة فإني لا أراها تغني عني شيئًا في هذا السجل المملوء خطايا، فلئن فاتني دخول الجنة فلأكونن سببًا لدخول مسلمٍ الجنة، فيرجع إلى الله مسرورًا بحسنته، فيسأله الله وهو أعلم، فيقول له: هل منحك أحد من أهل المحشر حسنة؟ فيقول: لا، إلا أن رجلاً لم أجد عنده إلا حسنة واحدة، وعنده سجل من السيئات، فلما علم أنها لا تغني عنه شيئًا منحنيها، فيقول الله: أتعرفهُ؟ فيقول: لا يارب، فيقول الله: أنا أعرفه، ذلك فلان، فيرسل إليه بعض ملائكته فيأتون به، فيقول له: ما حملك على أن أعطيته حسنتك في مثل هذا اليوم؟ فيقول: يارب رأيتُ ذنوبي كثيرةً، فَعلمت أنها أخلقتْ وجهي عندك، وما رأيتُ أن تلك الحسنة تُغني عني شيئًا فحيثُ فاتني دخول الجنة، لأكونن ممن تسبب لأخيه المسلم حتى أدخله الجنة، فيقول الله له: إنك لكريم، وإني آليتُ على نفسي أن لا أعذِّب كريمًا، أفتريني كرمك في مثل هذا اليوم؟ اذهب فقد غفرت لك جميع ما

اقترفتَ، وجعلتُ مكان كل سيئة حسنة، وأضعفتُ لك فى العطاء، وألحقت بك صاحبك الذى كنتَ سببًا فى إدخاله الجنة، وشفَّعتُك فى أهل بيتك، وأعطيتهم مثل ما أعطيتُك؛ ولذلك ضحكتُ إذ رأيت الكرم ينفع فى الآخرة كما ينفع فى الدنيا. وأما الجود، فإنه فى مقابلة الشح، فكل كريم جواد، وليس كل جواد كريمًا، فبذلك يدخل الجود فى الكرم، ولا يدخل الكرم فى الجود، فصار الجود جزءًا من أجزاء الكرم، وقصاراه ما أخرج صاحبه عن وصف الشح من غير زيادة، إلا أن ذلك يقَع منه وينْبعثُ من غير تكلف، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، وقال الرسول ﷺ: «من أكرم ضيفه، وأدى زكاته، وأعطى فى النائبة، فقد وقى شُح نفسه».

وأما السخاء فحقيقته: البذل عند الوجد مع تكلف وتعسف، يوجد تَارة ويفقَد أخرى.

كما قال الشاعر:

ليس العطاء من الفضول سماحةً حتى تجود وما لديك قليل

وأما العزلة، فإنها أصل من أصول التَّصرف، وسبب من أسباب التَّعرف، درج عليها المرسلون، وتنافَس فيها الأولياء والصالحون؛ لأنها مضمار الفكرة وسلم العبرة. قَال ابن عطاء: ما نفع القلبَ شيءٌ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة.

وفى الحكم يقول الخطاف: البعد من الناس أنس.

وقال أبو طالب[1] المكى:

يا من يريد منازل الأبدال من غير قصد منه للأعمال

لا تطمعنْ فيها فَلست من أهلها إن لم تزاحمهم على الأحوال

بيت الولاية قُسِّمتْ أركانه ساداتنا فيه من الأبدال

ما بين جوع واعتزال دائم والصمت والسهر النزيه الغال

---

(١) أبو طالب المكى: هو محمد بن على بن عطية الحارثى، واعظ مشهور، زاهد فقيه، من أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ بمكة ورحل إلى البصرة، واتهم بالاعتزال ثم ارتحل إلى بغداد وهجره الناس لأقوال قالها، وبها توفى عام ٣٨٦ هجرية.

والعزلة ربما أورثت الخمول الذى لا سبيل إلى السلامة بدونه، ولا كمال للأعمال والعيش بغيره.

قال ابن عطاء:

ادفن وجودك فى أرض الخمول، فما نبتَ مما لم يدفن لا يتم نتاجه.

وفى التنوير:

عشْ خامل الذِّكر بين الناس وَارْضَ به ... فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر النَّاس لم تَسلم ديانته ... ولم يزل بين تحريك وتسكين

يروى أن الشعرانى[1] لما فرَّ من القضاء والخلطة، وهام على وجهه، طلبه خليل له حتى إذا رآه امتنع من أن يمكنه من الاجتماع به، وكانت تطوى له الأرض، فناشدهُ بالله والعشرة أن يمنحه جناح حكمته إذ فاته لذيذ وصله فالتفتَ إليه وقال له:

يا لائمى فى قربهم جاهلاً ... عذرى منقوش على خاتم
ما فى اجتماع الناس خير ولا ... ذو الجهل بالأشْياء كالعالم

فلم يَتَمكَّنْ من الخاتم حتى مات القَاضى عبد الوهاب، فإذا هو قد نقش على فص خاتمه قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٠٢] فالباقى بعد الأكثرين أقل قَليل.

يروى أن عمر دخَل على رسول الله ﷺ فى بعض حجراته، فإذا هو مضطجع على حصير مرمل[2] بشريط من العرم[3] وقد أثَّر فى جنبه، وإذا الحجرة كأنها قَفَص طائر منْ ضيقها وغمها، فلما رأى عمر ذلك بكى، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا عمر؟» قال: إن كسرى وقيصر مع ما هما عليه من الكفر

---

(١) الشعرانى: هو عبد الوهاب بن أحمد بن على الحنفى، نسبة إلى ابن الحنفية من علماء المتصوفين له كثير من المؤلفات النافعة توفى بالقاهرة عام ٩٧٣ هجرية.

(٢) مرمل منسوج: تقول رملت الحصير وأرملته إذا نسجته. والمراد أن جنبه الشريف لم يكن بينه وبين نسج السرير أى فراش.

(٣) العرم: سواد مختلط ببياض، والمراد ـ والله أعلم ـ: إن نسيج السرير من لونين.

يتنعَّمان بالحرير والديباج، وأنتَ خيرتُه من خَلقه لم تَجد فراشًا يحول بينَك وبين التراب[(١)]، فقال له رسول الله ﷺ: أما ترضى يا عمر أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» قال: بلى، قال: ما لى وللدنيا، ما مثلى ومثلها إلا كمسافر اضطره حر الهجير إلى ظل شجرة فقال تحتها، فلما تفيأت الظلال سار عنها وتركها[(٢)] يا عمر أوحى ربك إلى الدنيا أن تكدرى وتشددى[(٣)] وتمذرى على أوليائى حتى يحبوا لقائى وتزينى وتوسعى وتطيبى لأعدائى حتى يكرهوا لقائى، فإنى جعلتك سجنًا لأوليائى، وجنة لأعدائى يا عمر إذا زهد العبد فى الدنيا رزقه الله أربعة أشياء، علمًا من غير تعلم، وهدى من غير هاد، وعزًا من غير عشيرة، وغنىً من غير مال، يا عمر أحبُّ عباد الله إلى الله الأتقياء الأنقياء، الشعث رءوسًا، الدنس ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعِّمات، ولا تفتح لهم الأبواب، إن يقولوا لم يسمع قولهم، وإن يقدموا لم يفرح بهم، وإن يمرضوا لم يعادوا، وإن يموتوا لم تشهد جنائزهم، فقال عمر: من لى برجل منهم قال له رسول الله ﷺ: «منهم أويس[(٤)] القرنى، إنك ستلقاه فى آخر عمرك، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام، قال: صفه لى يارسول الله، قال: إنه رجل أسمر طويل واسع الصدر، تجده يرعى إبل قومه بعرفات وهو يصلى، واضعًا ذقنه على صدره، ودموعه تجرى على خده، تحت إبطه الأيمن شامة بيضاء من بقية برص كان به، فدعا الله فأزاله إلا تلك الشامة، أحب أن تبقى ليذكر بها نعمة الله عليه، وإنه ليوقف يوم القيامة فيشفع فى مثل

---

(١) هذا اللفظ لم أجده فى الحديث.

(٢) حديث: دخل عمر على رسول الله ﷺ... إلخ. حديث صحيح، رواه أحمد والترمذى والحاكم بلفظ قريب من رواية الشيخ، وصححه الحاكم ووافقه الذهبى (٤/ ٣١٠) مستدرك. وليس فيه (سرير مرمل بشريط من العرم وإذا الحجرة كأنها قفص طائر). وفى آخره زيادة: سار فى يوم صائف وأول الحديث فى الصحيحين بلفظ أطول وأشمل من رواية الشيخ.

(٣) أما حديث: أوحى ربك إلى الدنيا... إلخ. فهو موضوع أورده ابن الجوزى فى موضوعاته بلفظ «أوحى الله إلى الدنيا أن اخدمى من خدمنى واتعبى من خدمك»، وقال: قال الخطيب: مدار رواية هذا الحديث على الحسين بن داود عن الفضيل بن عياض، وهو وضَّاع، ورجاله كلهم ثقات غيره (٣/ ١٣٦).

(٤) أويس القرنى: هو أويس بن عامر، ويقال: ابن عمرو القرنى التميمى العابد، نزل الكوفة يمانى مرادى، من أشهر التابعين قيل مات بالحيرة وقيل بصفين.

ربيعة ومضر، فإذا ذهبت إليه فاستصحب عليًا واسألاه أن يدعو لكما بالمغفرة»[(١)].

فلما مضت من خلافته تسع سنين حج وحج معه على رضى الله عنهما، فما هو إلا أن جاء وسأل عن أهل اليمن، فدل عليهم، فلما أتاهم سألهم أيُّكم أوَيس القرنى؟ فقالوا: مثلك يا أمير المؤمنين لا يسأل عن مثله؟ قال: ولم؟ قالوا: إنه رجل مسلوب العقل والمروءة يلبس الحصير ويلتقط من المزابل والطرقات مما تلقيه الناس من عفن أطعمتهم، وربما التقط النوى فاكتفى به، يتكلم وحده، ولا يألف أحدًا، ولا يأوى إلى معمور، فصاح عمر حتى غشى عليه، فقال: ويلكم دُلُّونى عليه، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه يشفع فى مثل ربيعة ومضر[(٢)]، فقالوا: هلاَّ أمرت أحدنا يأتيك به فإنه أهونُ رجل عندنا. قال: بل آتيه بنفسى فى مكانه الذى هو به، فبذلك أمرنى رسول الله ﷺ فأرسل إلى على رضى الله عنه

(١) حديث أحب عباد الله إلى الله... إلخ. لم أجد له سندًا صحيحا بهذا اللفظ نعم روى مسلم أحاديث فى أويس منها أنه يأتى مع أمداد اليمن، وأنه كان مصابًا بالبرص فبرئ منه إلا موضع درهم، وله والدة بها بر لو أقسم على الله لأبره.. وقال لعمر: إن استطعت أن يستغفر لك فافعل، وأن عمر قابله واستغفر له... إلخ.

هذا مع أن مالكًا رحمه الله كان ينكر أويسًا، ويقول: لم يكن. ذكر ذلك الذهبى فى «ميزان الاعتدال» له: (١/ ٢٧٩).

قلت: ذكر ابن الجوزى فى موضوعاته خبرًا عن أويس وقال: وضعوا خبرًا طويلا فى قصة أويس، وإنما يصح فى الحديث عن أويس كلمات يسيرة جرت له مع عمر - إلى أن قال - فأطال القصاص وأعرضوا فى حديث أويس بما لا فائدة فى الإطالة بذكره (٢/ ٤٤) موضوعاته.

وعلى كل حال فهذا الحديث ليس متصلا بحديث عمر: دخلت على رسول الله ﷺ وليس الذى قبله متصلا به ولا الذى قبل ذلك، وإنما الكلام مجموعة من الأحاديث بعضها صحيح، وبعضها حسن، وبعضها موضوع كما سبق والله أعلم.

(٢) حديث: إنه يشفع فى مثل ربيعة ومضر: منكر، أورده الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» بلفظ: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من مضر وتميم، قيل: من هو يا رسول الله قال: أويس القرنى وقال: هذا حديث منكر انفرد به الأعين وهو ثقة (٤/ ٣٢) سير قلت: علته ليست من الأعين وهو محمد بن أبى عتاب البغدادى، ومع أنه ليس من أصحاب الحديث، إلا أن العلة من شيخه عبد الله بن صالح وهو ضعيف.

وأخرج الترمذى (٢٤٤٠) وابن ماجه (٤٣١٦) وأحمد (٣/ ٤٦٩) بسند قوى: يدخل الجنة بشفاعة رجل من أمتى أكثر من بنى تميم. ولم يعين هذا الرجل. والله أعلم.

فذهبا إليه فوجداه على الصفة التى وصف لهما رسول الله ﷺ فسلما عليه فأوجز فى صلاته ثم رد عليهما السلام فقال عمر: من أنت أيها الرجل؟ قال: راعى إبل وأجير قوم قال: إنما أسألك عن اسمك قال: أنا عبد الله قال: ما الاسم الذى سمتك به أمك؟ قال: وما أربك إلى ذلك؟ قال: ألست أويسًا القرنى؟ فأسألك بالله إلا ما رفعت جناحك الأيمن فعلم أنهما يريدان أن يستثبتا نعتًا بلغهما عن رسول الله ﷺ، فرفع جناحه، فإذا الشامة، فقال عمر: هو والله، فقال لهما: من أنتما إذ أطلعكما الله على شأنى، قال له: أنا عمر بن الخطاب، وهذا على بن أبى طالب، وإن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، ويأمرك أن تستغفر الله لنا، فقال لهما: إنى لا أخص باستغفارى نفسى ولا غيرى، بل أستغفر لجميع المسلمين والمسلمات، فقال له عمر: هلم إلى الصحبة، فإنك إن صحبتنى كنت فى أحسن مما أنت فيه من البلغة، فقال: هيهات إن بين يدى ويديكما عقبة كئودًا لا يجاوزها إلا كل ضامر مهزول من الجوع والسهر، فلما سمع عمر قوله قال: الويل لعمر ليته كان حيضة، وليت أمه لم تلده، ثم أغمى عليه، فوضع جبهته على قربوس سرجه حتى أفاق، فقال له: يا أويس ما منعك أن تصاحب رسول الله ﷺ، وقد أدركت زمنه؟ فقال: إنى قد رأيته وصحبته، فقال: وكيف ذلك؟ فقال: رأيته بعينى قلبى، وصحبته باتباع سنته، وكل تابع صاحب، فهل نفعت أبا جهل رؤيته بعينى رأسه؟ إذ لم يره بعينى قلبه، ثم قال لهما: اذهبا من هذه الثنية، فإنى ذاهب من هذه الأخرى فقالا: إنا نريد صحبتك على أن تزيدنا موعظة، قال: لا سبيل إلى ذلك، وإن من لم يجعل الله له واعظًا من نفسه، فلا واعظ له، فبكى عمر، ووادعه[١]، فخرج من الثنية حتى إذا رد الإبل إلى أهلها انخزل[٢]، وكان عمر رضى الله عنه قد جعله من همه، فتركه حتى إذا انفصل من العمران أدركه فقال: أنشدك الله ووصية رسول الله ﷺ إلا ما أخبرتنى بالمكان الذى تتوجه إليه، قال: أقصد الكوفة، فقال عمر: أخبرنى بالمكان الذى تريد لعلى أبعث إلى عاملى عليها فيأتيك خفية بما تحتاج إليه من الكسوة والنفقة، وتتفرغ لعبادة ربك؟ فقال:

(١) كذا فى الأصل: ووادعه.

(٢) انخزل: سار متثاقلاً.

هيهات لغبراء فى قفراء أعبد ربى بها وأخلو بها أحب إلى مما طلعت عليه الشمس من بيضاء وصفراء، فلا تتعب نفسك فى شأنى، فإن من ذاق طعم نفسه لم يفْلح أبدًا، فبكى عمر، وودعه، ثم قال: رحمك الله ما أزهدك وأجهدك فى ذات الله! فاشتهر أمره بمكة والمدينة واليمن، فاشتاقت إليه القلوب وحنَّت إليه الأرواح. فآلى فتى من الأنصار أن لا يسأم التطلاب أو يلاقيه، وقد بلغ الناس أنه توجه إلى الكوفة، فتوجَّه إليها حتى قدمها، وكان من أولياء الله، فسأل فى جميع نواحى الكوفة فلم يقع له على خبر، فسأل الله أن يدله عليه إن كان يعلم من نيته أنه إنما خرج فى طلبه حبًا له، فنودى فى سره أن اطلبه فى البيداء، فذهب إلى البيداء، فإذا هو به قائم يصلى فى مراغ أغبر، فلما دنا منه حياه بالسلام، قال له أويس: وعليك السلام يا فلان ابن فلان ورحمة الله تعالى وبركاته، قال: من أنبأك باسمى واسم أبى؟ ولم تتقدم لك بى معرفة ولا بأبى قال: هيهات يا زيد إنه لما قربت منى جالت روحك وروحى فى ملكوت ربى، فتعارفا، أليس قد سمعت قول رسول الله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[(١)].

فقال الأنصارى: عظنى يرحمك الله، فقال: مات آدم صفىُّ الله، ونوح رسول الله، وإبراهيمُ خليل الله وموسى كليمُ الله، وعيسى روح الله، ومحمد رسول الله خيرته من خلقه، ومات أبو بكر صديق الله، ومات عمر الفاروق، فقال الأنصارى: إنه لم يمت، فقال: إنه مات البارحة، وأموت أنا وأنت غدًا، فكان الأمر كذلك، فغزا هو، وغزا معه الفتى، فأما الفتى فمات فى المعركة، وأما هو فرجع مع العسكر فمات رضى الله عنه بالبيداء، فدفنوه من غير أن يعلموا قبره، فلما فصلوا عنه ندموا على أن لا يكونوا علَّموا عليه، فرجعوا فلم يجدوا لقبره، أثرًا رضى الله عنه، طلب الخفية والخمول من الله، فأعطاه ذلك فى الدنيا والبرزخ[(٢)].

---

(١) حديث «الأرواح جنود مجندة»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء كما رواه مسلم وغيره.

(٢) الذى يظهر من سياق هذه القصة أنها مما أشار إليه ابن الجوزى فى موضوعاته وأنها من وضع القصاصين وذلك لأسباب ثلاثة:

الأول: أنها لم ترد بهذا السياق بسند يعتمد عليه. =

وقد قدمت من أمر العزلة فى صدر الكتاب ما يكفى ويشفى[(١)].

وأما الحمق، فهو ضد العقل، فكل خصلة فى العقل، فإن فى الحمق ضدها!

يروى: أن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له: أدبر، فأدبر، فأكحله من نوره، فأبصر جميع الأمور، ورتبها على حقائقها، فقال الله له: أنت أحب خلقى إلى، بك آخذ، وبك أعطى، وعزتى وجلالى لأجعلنك فى أحب خلقى إلى[(٢)].

قال ﷺ: الناس يعملون، وإنما يثابون على قدر عقولهم[(٣)]. انتهى وهو مأخوذ

= الثانى: أن فيها عبارات لا تليق بمقام عمر ولمخالفتها ما هو ثابت فى مسلم وغيره
الثالث: أن قصة شبيهة بها رواها أبو نعيم فى الحلية له وعنه الذهبى فى «سير أعلام النبلاء» وقال فيها: ولم تصح، وفيها ما ينكر (٤/ ٢٩). وقال فى قصة شبيهة بها: وهذا سياق منكر ولعله موضوع.
قلت: وهذه القصة التى أشار إليها الذهبى بالوضع لا تختلف كثيرًا عن قصة الشيخ، والله أعلم.

(١) انظر ص١.

(٢) حديث أول ما خلق الله العقل موضوع رواه ابن عدى، وفيه الفضل بن عيسى قال فيه يحيى رجل سوء وحفص بن عمر قاضى حلب:
قال ابن حبان: لا يحل الاحتجاج به بالإجماع، ورواه الدارقطنى من وجه آخر. وفيه سيف بن محمد وهو كذاب، ورواه العقيلى عن أبى أمامة مرفوعًا وفى إسناده مجهولان ذكر ذلك الشوكانى فى كتاب الفوائد له (١/ ٤٧٨).
وقال الذهبى فى «الميزان» بعد أن أورد الحديث قال أحمد بن زهير سألت يحيى بن معين عن الفضل بن عيسى فقال : كان قاصًا رجل سوء، قال فحديثه قال: لا تسأل عن القدرى الخبيث (٣/ ٣٥٦) ميزان وقال صاحب الكشف بعد أن أورد الحديث تحت رقم ٨٢٣ قال الصغانى: موضوع باتفاق، والله أعلم.
(قلت: لم أجد عبارة فأكحله من نوره... إلى: على حقائقها).

(٣) حديث «الناس يعملون وإنما يثابون على قدر عقولهم» منكر رواه الديلمى بلفظ «الناس يعملون على قدر عقولهم». وعند أبى الشيخ «الناس يعملون الخير وإنما يجازون على قدر عقولهم». ورواه ابن عدى بزيادة، وأورده الشوكانى فى موضوعاته تحت رقم ١٣٤٨ ـ ٤٩. وفيه أحمد بن بشير متروك.
قلت: الذى يظهر أن الحديث ضعيف جدًا أو موضوع لأنه لا يروى إلا من طريق أحمد بن بشير الذى قال فيه يحيى متروك، وقال الدارقطنى: ضعيف، وقال النسائى: ليس بذاك القوى، وقال فيه عثمان الدارمى: متروك، مع أن البخارى، خرج له قاله الذهبى (١/ ٨٥) ميزان

من العقال؛ لأنه يعقل صاحبه عن ارتكاب ما لا يليق فى العاجل والآجل.

قال رسول الله ﷺ: «كاد العقل أن يكون وحيًا».

وهو مطبوع ومسموع، فالمطبوع مثاله كضوء البصر، والمسموع كضوء الشمس، فلا ينفع مسموع إذا لم يكن مطبوعًا، كما لا ينفع ضوء الشمس ونور البصر ممنوع.

قال ﷺ: «الكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»[١].

روى عن كعب[٢] الأحبار أنه رأى فى التوراة أن الله لم يعط جميع خلقه من العقل بالنسبة إلى عقل النبى ﷺ إلا كحصاة من جميع رمال الأرض، ومن حقق سيرته رأى ذلك بديهة، ولذلك بعثه الله إلى سائر خلقه، فإذا جاءه أهل البدو خاطبهم بخطاب أرسن[٣] من الهضب وأقطع من العضب[٤]، وإذا جاءه أهل الحاضرة خاطبهم بخطاب ألين من الزبد، وأذكى من الورد والند، وما أتاه وفد من وفود العجم، ولا من وفود العرب، إلا رجع عنه وهو راضٍ مفصح أنه لا يأمر بمرغوب عنه، ولا ينهى عن مرغوب فيه، وأنه إذا أمر كان أول ممتثل، وإذا نهى كان أول مجتنب، ولم ينقلوا عنه كبوة فى قول ولا فعل، مع عداوتهم إياه، وفحصهم عن معايبه، حتى قال النضر بن الحارث للملأ من قريش وقد أفاضوا فى

---

(١) حديث الكيس من دان نفسه... إلخ. أخرجه أحمد والترمذى وابن ماجه فى الزهد وأخرجه الحاكم فى كتاب الايمان ـ بدون (الأمانى) ـ قال الحاكم: صحيح الإسناد إلا أن الذهبى تعقبه قائلاً لا والله أبو بكر واه (١/ ٥٧) مستدرك وأورده السيوطى ورمز له بالصحة (٥/ ٦٧) مناوى قلت: ومن الغريب أن الذهبى رحمه الله تعقب تصحيح الحاكم كما تقدم إلا أن الحاكم أورده مرة أخرى بنفس السند واللفظ فى كتاب «التوبة» وقال حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبى هنا (٤/ ٢٥١) وكأنه نسى تضعيفه السابق وعلى كل حال فالترمذى حسن الحديث.

(٢) كعب الأحبار، وهو كعب بن ماتع الحميرى من أوبعة العلم، ومن كبار علماء أهل الكتاب، أسلم فى زمن أبى بكر، وقدم من اليمن فى خلافة عمر، أخذ عن الصحابة وأخذوا عنه جـ (١/ ٥٢) تذكرة.

(٣) كذا فى الأصل أرسن، والمعنى أثبت.

(٤) العضب السيف القاطع.

أمر رسول الله ﷺ: يا معشر قريش إنه نزل بكم أمر عظيم، لم ينزل بحى من أحياء العرب، إن محمدًا نشأ بين أظهركم أتمكم عقلا، وأعظمكم مروءة، وأنقاكم ثوبًا، وأصدقكم لسانًا، وأكملكم أمانة حتى سميتموه الأمين، لم يجد أحد فيه مغمزًا من لدن طفولته حتى صار كهلا، قال: أنا رسول الله إليكم، فلا والله ما هو بالمتهم بالكذب، فنقول: هذا من كذبه، ولا هو بالخفيف العقل فنقول: هذا طيش من عقْله، ولا هو بالقليل المروءة، فنقول: هذا القول لغرض يطلبه فلا يبالى بعده ما أصاب عرضه، فانظروا فى أمركم، فإنه والله لشىء يراد بكم، ولما بعث كتابه إلى كسرى ومزقه، بعث إلى عامله[1] على اليمن «باهان» فقال له: إن فتى من قُريش يزعم أن الله بعثه رسولا، فأرسل إليه رجلين جَلدين لينظرا أمره، وليستتيباه، فإن تاب وإلا فابعث إلىَّ برأسه، فلما بلغه الكتاب بعث إليه رجلين عاقلين جلدين، فقال: إن رأيتماه طاش لبه وارتعدت فرائصه وعبس، فاعلموا أنه متقول، وإن قرأ كتابكما ونظر إليكما فى تؤدة وبشر وتبسم وهو غير مكترث فهو نبى، فافهما قوله، وأتيانى به، فلما أتياه بالكتاب وبرسالة «باهان» تبسم فقال لهما: لو كان أمرًا فعلته من تلقاء نفسى لرجعت، ولكن شىء أمرنى الله به وبعثنى للناس، فإن قبلوا فذلك حظهم فى الدنيا والآخرة، وإن يردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينهم، وهو خير الحاكمين، ثم أمر بهما إلى دار الأضياف، فلما كان من الغد، بعث إليهما فقال: أخبرا «باهان» أن ربى قَتَل ربه البارحة، فقالا: أو نحمل ذلك عنك، قال: احملاه عنى، فلما أتيا «باهان» سألهما عن شأنه، فقالا: والله إن رأينا أحدًا أهيب فى قلوبنا منه، قال: معه الشُرَطُ وأدوات الملك؟ قالا: لا، وإنه لأعقل الناس، وأجمل الناس، وأسيس الناس، وأعدل الناس، وإنه يقرئك السلام، ويقول لك: إن ربى قتل ربك فى ليلة كذا سلط الله عليه ولده، فقال لهما: قد أتيتما بأمر فصل، فلننتظر كتاب ابنه، فإنه يأتى فى يوم كذا، فأتاه كتاب ولده إزدشير بقتله أباه لما كان ينْتَهِكُ من حرمات فارس، ويأمره أن لا يهيج محمدًا وليْتله[2] عنه، فأسلم وأسلمت الأبناء بإسلامه، فقال: ملك

(١) الذى بعث إلى عامله على اليمن: هو كسرى.
(٢) وليتله عنه: أى يتركه.

مقبل، وملك مدبر، وما حادت مملكة نبوة إلا غلبتها النبوة. اهـ. ولذلك ألف بين أهواء متباينة، وآراء مختلفة، وأمم متنافرة، فتألفت القلوب المتعادية حتى تحابت، واتفقت الآراء المختلفة حتى تلابت(١)، واختلطت الأمم المتنافرة حتى تشابهت، فلم يكن ذلك عن مال يفيضه عليهم، بل كان معدمًا من المال، ربما أكل عند أهل الوفر من أصحابه، بل لو أنفق على ذلك أموال العالمين لم يزدهم إلا تنافرًا، قال الله تعالى ممتنًا عليه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

ثم العقل عقلان: عقل الحجة، وهو الذى يوجب التكليف، وتترتب عليه الأحكام من غير فائدة، وهو الدنيوى.

قال الشاعر:

أبُنَيَّ إن من الرجال بهيمة ... فى صورة الرجل الفطين(٢) المبصر
فطِنٌ بكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب فى دينه لم يشعر

الثانى هو العقل التام النافع، وهو عقل الخواص، فمنه ما لا يزيد ولا ينقص، وهو الغريزى، ومنه ما يزيد وينقص، وهو المكتسب من السير وكثرة التجارب.

قال الشاعر:

إذا عُمِّرَ الإنسان فى غير آفة ... أفادت له الأيام فى كرهها عقلا

فالغريزى أفضل؛ لأنه موهبة الله التى لا يشوبها شىء، يستوى فيه الكبير والصغير، وكثيرًا ما يكون الصغير أوفر حظًا ونصيبًا فيه من الكبير، قال ﷺ: «للشَّبَاب بركةٌ، فاستوصوا بالشباب خيرًا، فإن الله لما بعثنى بالهدى ودين الحق آمن بى الشبان وكفرت المشايخ».

قال الشاعر:

إذا المرء أعيته المروءة ناشئًا ... فمطلبها كهلا عليه صعيب

ويدل على ذلك قضية يحيى بن زكرياء عليهما السلام، فيما أخبر الله به عنه

---

(١) تلابت: التحمت.

(٢) فى (ب) السميع.

فى محكم كتابه، إذ قال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢] فمن أدركته عناية أزلية، أشرقت على باطنه أنوار ملكوته، فاستغنى بذلك عن كثرة التجارب، فأسفر عن وجه الصواب، وحصل له من ذكاء العقل ما لا يدخل تحت حصر.

وفى قضية سليمان أيضًا ما يدل على ذلك، وذلك[١] أن صاحب غنم، وصاحب حرث، دخلا على داود عليه السلام، فقال صاحب الحرث: إن غنم هذا أكلت حرثى البارحة، فحكم داود عليه السلام لصاحب الحرث بالغنم، فلما خرجا من عنده مرا على سليمان، فقال لهما: إنى أرى لكما حكما هو أرفق بكما، فرجعا إلى داود فأخبراه بما قال لهما سليمان، فأرسل إليه، فلما مثل بين يديه قال له: ما الحكم الذى هو أرفق بهما من حكمى؟ قال: أن تجعل الغنم بيد صاحب الكرم، يعيش فى لبنها، ويأكل من نسلها من غير أن تملكه رقابها، وتجعل الكرم بيد صاحب الغنم حتى يصلح منه ما أفسدته غنمه، فإذا رجع الكرم إلى هيئته، أسلمه إلى ربه بعناقيده، وأسلم رب الكرم الغنم إلى ربها بوفرها، فقال داود: صدقت وأصبت، هذا أرفق بهما، ففى ذلك نزلَ قوله تعالى: ﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٨ ـ ٧٩] وكان سليمان يومئذ ابن اثنتى عشرة سنة فلم تحصل لسليمان عليه السلام بكثرة تجربة وطول مدة، بل بعناية ربانية، وألطاف إلهية.

يُروى أن عقل الرجل يعرف بأربعة أشياء: بجوابه، وكتابه، وهديته، وعتابه، إذ العقل لا ينظر إليه، وإنما ينظر إلى تصرفاته على صفحات الجسم، وتراجم الرسم.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: «الجنة مائة درجة، تسعة وتسعون منها لأهل العقل، وواحدة لسائر الخلق»[٢].

ومن أوضح دلالاته مداراة الناس، قال الرسول ﷺ: «بعثت مداريًا، فداروا»[٣].

---

(١) كذا فى النسختين والأولى وهى خشية تكرار كلمة ذلك.

(٢) أغلب الأحاديث الواردة فى فضل العقل من كتاب وضعه الكذاب سليمان بن عيسى بن نجيح فى جزءين ولا يصح فيه شىء والله أعلم.

(٣) «بعثت مداريا فداروا» موضوع رواه البيهقى بلفظ «بعثت بمداراة الناس» وأورده صاحب الكشف=

قال الشاعر:

من يدر داري ومن لم يدر سوف يرى عمـــا قريب نديمًا للنـدامـــات

مـا دمت حيًا فـدار النـاس كلهم فإنمـــا أنـت فى دار المــــداراة

قال بعض الحكماء: العقل ملك، والخصال رعيته، فإذا ضعف العقل عن القيام بها داخلها الخَلل.

ويروى أن لكل شيء حدًا وغاية، إلا العقل، فإنه لا حدَّ له ولا غاية، لكن الناس يتفاوتون فيه على قدر حظوظهم، وسعادة جدهم، ومن أعظم نتائجه الرأى والمعرفة، وبهما عمارة الدارين، فالعقل نهار الملكوت، والهوى ليله. قال الرسول ﷺ: أعمى العمى الضلال بعد الهدى، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

قال الشاعر:

إنارة العقل مكسوف بطوع هوى عقل عاصى الهوى يزداد تنويرًا

وقال غيره:

وقد أشمت الأعداء جهلا بنفسه وقد وجـدت فيه مقـالا عواذله

إذا مـا رأيت المرء يقتاده الهـوى فقـــد ثكلتـه عنـد ذاك ثواكله[1]

قال الله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣، الحديد: ٩].

من ظلمات ليل الجهل والهوى، إلى نهار الإيمان والعقل المؤديان إلى التقوى.

وأما الاحتماء من ربكات الموبقات، فلا سبيل إليه إلا بعصمة الله، وهى سابقة الخير والعناية الأزلية.

= تحت رقم ٩١٨ كما رواه أبو سعيد الماليني، وأورده عنه الألباني فى موضوعاته تحت رقم ٦٩٥ ورقم ٨١١ وأورده السيوطي فى «جامعه» عن البيهقى فى الشعب، بدون لفظ «فداروا»، ورمز له بالضعف (٣/٢٠٣) مناوى.

قلت: ولعل واضعه هو عبد الله بن لؤلؤة أو شيخه كما جزم بذلك الألباني، والله أعلم.

(١) فى نسخه (ب) تقديم: إذا ما رأيت المرء البيت على البيت الذى قبله.

يروى أن الله لما خلق آدم عليه السلام، سأله العصمة، فقال له: سبقتْك بها الملائكة، فسأله الخفية، فقال له: سبقتْكَ بها الجنُّ، فسأله الحرفة، فقال له إنى ألهمك وذريتك الحِرَف كُلَّها، إلا نفخ الروح فى الجسد، وما ينجيك من الموت،

وبالجملة فالذنوب أمراض متى استحكمت قتلت ولا بد، وكما أن البدن لا يكون صحيحا إلا بغذاء يحفظ قوته، واستفراغ المواد الفاسدة، والأخلاط الرديئة التى متى غلبت عليه أفسدته وحمية يمتنع بها من تناول ما يؤذيه ويخْشى ضرره، فكذلك القلب لا تتم حياته إلا بغذاء من الإيمان والأعمال الصالحات يحفظ قوته، واستفراغ التوبة النصوح يستفرغ المواد الفاسدة والأخلاط الرديئة، وحمية توجب له حفظ الصحة وتُجَنِّبه ما يضادها، وهى عبارة عن ترك استعمال ما يضاد الصحة.

والتقوى اسم مشارك لهذه الأمور الثلاثة، فَما فات منها، فات من التقوى بقدره، فإذا تبين هذا فاعلم أن المعصية مضادة لهذه الأمور الثلاثة، وتستجلب المواد الرديئة، وتوجب التخليط المضاد للحمية، وتمنع الاستفراغ بالتوبة النصوح، فانظر إلى بدن عليل قد تراكمت عليه الأخلاط ومواد المرض، وهو لا يستفرغها، ولا يحتمى كيف تكون صحته وبقاؤه؟

ولقد أحسن القائل:

جسمك بالحمية حصنته مخافةً من ألم طَارى
وكان أولى بك أن تحتمى من المعاصى خشية النَّار

فمن حفظ[1] القوة بامتثال الأوامر، واستعمل الحمية باجتناب النواهى، واستفرغ التخليط بالتوبة النصوح، لم يدع للخير مطلبًا، ولا من الشر مهربًا، وفى حديث أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أدلكم على دائكم ودوائكم؟ ألا وإن داءكم الذنوب، ودواؤكم الاستغفار».

فقد ظهر لك أن طب القلوب ومعالجتها لا سبيل إلى معرفته إلا من جهة الرسول ﷺ، وكتابُ الله محشو بذكر أمراض القلوب وأدويتها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الأحزاب: ١٢].

---

(١) فى (ب) النفس، وهو الصواب.

وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

وقوله: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الانشراح: ١].

وقوله: ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

وقوله: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧].

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١].

فإذا عملت هذا، فاعلم أنه كما تتولد من الأعمال الصالحات آثار حسنة، كذلك تتولد من المعاصى علل رديئة كالهم، والغم، والحرص، وعدم الفهم عن الله، والغلظة، والرغبة، والجزع، والجبن، والبخل، والطمع، والهلع، والولع، والأشر[١]، والبطر، والعجب، ورؤية الفضل على الغير، والحقد، والحسد، والبغض، وهجران المسلم لغير حق شرعى، والركون إلى الظلمة، والنظر إليهم بعين الإجلال، والتواضع للغنى لأجل غناه، ومد البصر إلى ما أُتْرِف فيه، واحتقار الفقير، والرغبة عن مجالسته، وضيق النفس لأجل مسألته، ونِسْبَتُكَ المال إلى نفسك، والاهتمام بالرزق، واتهام الله فى شأنه، والانهماك فى تحصيله، والحزن لأمر الله، والفرح لزيد دنيوى[٢]، والتهاتر بحب الجاه فى غير جنب الله، والرغبة فى الرئاسة لغير إقامة الدين، والمهادنة، والتصنع للخلق، والخشية لغير الله، والكسل، والفشل، والرعونة، والمكر، والخديعة، إلى غير ذلك من الآفات التى لا تنتهى كثرة.

فللأمراض وآفاتها أدوية، منها ما يخص، ومنها ما يعم، وأعمها الفرار إلى الله تعالى، قال الرسول ﷺ: «كل شىء إذ خفته فررت منه، إلا الله إذا خفت منه، فررتَ إليه، إذ لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه». قال الدينورى[٣]: الفرار إلى الله خمسة أقسام، فرار من الخلق إلى الله، وفرار من الدنيا إلى المولى، وفرار من الشيطان إلى الرحمن، وفرار من النفس والهوى إلى عالم السر والنجوى، وفرارًا

---

(١) الأشر: البطر والمرح.

(٢) زيد: يريد زيادة فى الدنيا. وفى ب «لأمر» بدل «زيد».

(٣) الدينورى: اسم لخمسة أشخاص هم: ١ ـ أحمد بن داود، ٢ ـ أحمد بن جعفر، ٣ ـ أحمد بن مروان، ٤ ـ عبد الله بن عبد الرحمن، ٥ ـ نصر بن يعقوب، وكل واحد منهم له مؤلفات.



منه إليه، بحيث لا أحصى ثناء عليه.

يروى أن العبد إذا غير نعمة البصر بالنظر إلا ما لا يحل له، غير الله عليه مسقط موعظة العلم من قلبه، قال ﷺ «من ضيق على نفسه فى البصر، وسع الله عليه فى البصيرة، ومن وسع على نفسه فى البصر، ضيق الله عليه فى البصيرة».

ومتى غير نعمة السمع باستماع ما لا يحل له، غير الله عليه مسقط الموعظة من آذان قلبه، لا ينتفع منها بشيء، وإذا غير منطق اللسان بما لا يباح له، أظهر الله عليه قبائح عمله، وجعل قلوب الناس تستخف به فتزل موعظته عن القلوب، كما يزل القطر عن الصفا، وإذا غير قلبه بحب الدنيا، سهل الله عليه مصائب الآخرة، وعظم فى قلبه مصائب الدنيا، فصارت مخاوف الآخرة عنده أمنًا، فتلك علامة موت القلب والعياذ بالله.

ثم اعلم أن الله لم ينزل شفاء قط أعمر ولا أنفع ولا أعظم ولا أنجع فى إزالة الداء من القرآن، فهو للداء شفاء، ولصدإ القلوب جلاء، كما قال الله: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ولفظة «من» ليست للتبعيض بل للجنس، والمعنى: وننزل من الجنس الذى هو القرآن شفاء للأمراض الروحانية، وذلك أن الأمراض الروحانية نوعان، الاعتقادات الباطلة، وأشدها فسادًا الاعتقادات فى الألوهية، والنبوة، والمعاد، والقضاء، والقدر، والقرآن مشتمل على دلائل الرشد فى هذه المطالب، وإبطال المذاهب الباطلة.

ولما كان أدوى الأمراض الروحانية، هو الخطأ فى هذه المطالب، والقرآن مشتمل على الدلائل الكاشفة عما فى هذه المذاهب الباطلة من العيوب، لا جرم[1] كان القرآن شفاءً من هذا النوع من المرض الروحانى.

وأما الأخلاق المذمومة، فالقرآن مشتمل على تفصيلها وتعريفها، وما فيها من المفاسد والإرشاد إلى الأخلاق الفاضلة، والأعمال المرجوة، فكان أيضًا شفاء لهذا النوع من المرضى، فثبت أن القرآن شفاء من جميع الأمراض الروحانية معنوية كانت كالاعتقادات، أو لفظية، كالزنى، وشرب الخمر وأنواع المخالفات.

---

(١) لا جرم: حقًا، ولا بد.

وأما كونه شفاءً من الأمراض الجسمانية، فقد شاع، وذاع، وانتشر انتفاع الناس به لأمراضهم، كقضية السليم[١] الذى رقاه رجلان من أصحاب رسول الله ﷺ بفاتحة الكتاب، فقام وكأنما نشط من عقال، فأعطاهما قطيعًا من الغنم، فأتيا رسول الله ﷺ، فأخبراه على وجه الاستفتاء فيما أخذا على رقيتهما، فقال: لئن كان أحد أكل برقية باطل لقد أكلتما برقية حق، فاقتسما واجعلا لى سهما وكان يقول: «من لم يستشف بالقرآن فلا شفاه الله» وقد استرقى بالمعوذتين فى قضية سحر بنات لبيد له، فشفى من ساعته، وقال: «ما تعوذ المتعوذون بمثلهما» وقد اقتصر سحنون[٢] رحمه الله على الفاتحة لجميع الأمراض، فما كتبها لمن لم يكن فى مرضه موت إلا شفى.

وفى هذا الباب مجال رحب لو تتبعته لأتيت فيه بدفاتر، والله المستعان والممد من فضله وفيضه، لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

وأما الموبقات، فسبعة على المشهور، وهى: الإشراك بالله، وحقوق الوالدين، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، وشهادة الزور، والزنى بحليلة الجار.

وإنما قال المصنف: فاتقاء الموبقات دواء، لأن باجتناب الكبائر تغفر الصغائر، نَعَمْ الاجتناب لا تُغفر الصغائر به مجانًا، إذ لم يرد بذلك أثر، إلا إذا اجتنب الكبائر، وواظب على الصالحات من الأعمال، صارت تلك الأعمال مكفرات لخطاياه، قال رسول الله ﷺ: «رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهما من الخطايا ما اجتنبت الكبائر»[٣].

وقال ﷺ: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر[٤] عند باب أحدكم ينغمس

---

(١) السليم: الملدوغ. وقضية السليم ثابتة عنه ﷺ.

(٢) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى قاضٍ فقيه انتهت إليه رئاسة العلم فى المغرب كان زاهدا عفيفًا لا يخاف فى الحق لومة لائم، ولد بالقيروان ومات عام ٢٤٠هـ.

(٣) حديث رمضان إلى رمضان. حديث صحيح رواه مسلم فى باب الصلوات الخمس ولفظه «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينها إذا اجتنب الكبائر».

(٤) غمر: ماء كثير.

فيه كل يوم خمس مرات، أفتروه يبْقى من درنه شيئًا، قالوا: لا، قال كذلك الصلوات الخمس»[1].

غَسَل الله عنا وعن المسلمين درن كل عيب، إنه الواسع المفضال.

* * *

• قال رضى الله عنه:

١٩ ـ كأنَّ الورى والموتُ نسِيى وراءهم
ذواتُ الأبا قد حازَهُن أباءُ

قوله: كأن الورى، كأن واسمها وهى حرف تشبيه ونسخ، وذوات الأبا خبرها، و«الموت نسى» جملة حالية لا محل لها من الإعراب، لكونها اعتراضية بين اسم كأن وخبرها، و «الأبا» مضاف إليه ما قبله، و «قد» حرف تحقيق، «حازهن» فعل ماض، وضمير الإناث مفعوله به، والأباء فاعله، وتركيب معنى البيت:

كأن الورى بالقصر: اسم جنس مختص ببنى آدم، فى غفلتهم عن الموت، وسرعة أخذه لهم، وجعلهم إياه وراء ظهورهم نسيًا منسيًا غفلة منهم، وذهولا، أغنام قد أصابها الأباء بالمد والفتح وهو داء يصيب المعز فى رءوسها، كما يصيب الأولق[2] الإبل، وأكثر ما يكون من شمها أبوال الوعول، فقلما أصاب شاة فبرئت، ومع ذلك لا تزال متعلقة بالأبا وهى الأقصاب بعد ما أنشب الموت بها مخالبه وأراها مثالبه، فكذلك الإنسان يغفل عن الموت مع ما ركب الله فيه من العقل والذكاء والفطنة، وقد اجتثت أصله واستأصلت أحباءه، وهو ينظر، ومع ذلك يروع بالمصيبة هنية ثم يرتع فى مزابل الدنيا كأتفه بهيمة، وقد جعل الموت ظهريًا، وتركه نسيًا منسيًا.

---

(١) حديث: «مثل الصلوات الخمس، كمثل نهر غمر»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخارى ومسلم وأحمد وباقى الأربعة باستثناء أبى داود، وله ألفاظ كثيرة. وهو عند مسلم بلفظ: «أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات هل كان يبقى من درنه شيء» اهـ. وعلى هذا اللفظ اقتصر عبد الحق والحميدى فى الجمع بين الصحيحين، والله أعلم.

(٢) الأولق: الجنون أو مس منه.

ولا مثال للإنسان والموت أصوب ولا أصيب من مثال ضربه رسول الله ﷺ إذ قال: كأن الناس غنم راتعة فى مرج، وكأن الموت ذئب يرصد غرتها، فكلما غفلت أغار فافترس شاة فتنفر، فإذا توارى عنها، رتعت ونسيت الذئب حتى يأتى على آخرها(١).

يروى أن الله لما أخذ من ظهر آدم ذرياته ليشهدهم على أنفسهم، فرأت الملائكة كثرتهم، قالوا: ربنا إن الأرض لا تسعهم، فقال: إنى جاعل موتًا، قالوا: إذًا لا ينتفعون بمعايشهم، ولا يعمرون الدنيا(٢).

يروى أن الناس إذا انصرفوا من دفن ميت لهم، وقد هموا أن لا يشتغلوا بعده بأمر من أمور الدنيا، أخذ عزرائيل كفًا من تراب، فحثا به فى أدبارهم، وقال لهم: ارجعوا إلى دنياكم، وانسوا أمواتكم.

يروى أن النبى ﷺ وعظ أصحابه موعظة ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب حتى هموا أن لا يضاجعوا النساء على الفراش، ـ أو من هَمَّ منهم ـ فلما انصرفوا عنه عالجوا النساء، وقبّلوا الصبيان، واشتغلوا بمعايشهم، فأتوه ﷺ فقالوا له: ما لنا يا رسول الله إذا جالسناك رقت قلوبنا، وزهدنا فى الدنيا، ورغبنا فى الآخرة، وإذا انقلبنا إلى منازلنا عافسنا النساء، ولاعبنا الصبيان، وانشغلنا بمعايشنا، فقال ﷺ «لو بقيتم على الحالة التى تفارقوننى عليها لصافحتكم الملائكة فى السكك(٣)» ولكنها رحمة مِن الله منٌّ بها عليكم لينتفع بعضكم ببعض، ولتعمروا هذه الدار التى أراد الله عمارتها، ولولا ذلك لما ربت والدة ولدها. وأخرجه البيهقى، من طريق أبى أمامة.

يروى أن الله لما خلق الموت، خلقه على صورة فظيعة لم ير الراؤون مثلها، له ثلاثمائة جناح، كل جناح على هيئة من الفظاعة والقبح، ليس عليها صاحبه، ثم أمر ملائكته بالنظر إليه، فنظروا إلى ما أفزعهم، فخروا لله سجدًا، ما من أحد

---

(١) لم أجد الحديث بهذا اللفظ مخرجًا.

(٢) فى النسخة (أ) هنا خرجه. علق الكاتب عليها بالهامش عبارة خرجه فإن عثرت عليها فأكملها، وقد عثرت عليها فى النسخة (ب) وهى (قال إنى جاعل غفلة).

(٣) السكك: الطرق.

منهم إلا وسال منه نهر من الدموع والعرق، وقد صار كل منهم كالحلس[(١)] البالى، فقال لهم البارى جل وعلا: مالكم ياملائكتى أصابكم ما أرى؟ قالوا: إنا منذ خلقنا ننظر إلى الأشياء التى أبدعت، فلم نر خلقًا أهول، ولا أوحش، ولا أهيب فى قلوبنا، ولا أفظع منظرًا من خلقك هذا، فقال: هل تدرون ما هو؟ قالوا: لا، قال: هو الموت الذى ما منه فوت، هادم اللذات، ومفرق الجماعات، وميتم البنين والبنات، ومؤيم الزوجات، هو قاصم الجبابرة، وقاهر المردة، ومخلى القصور، ومعمر القبور.

قال الرسول ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات، فإنكم إن كنتم فى ضيق وسعه عليكم، وإن كنتم فى واسع ضيقه عليكم»[(٢)].

وقال: «اقطعوا عنكم طول الأمل، باستشعار حضور الأجل».

قال الشاعر:

وما المرء إلا ميت وابن ميت ... وذو نسب فى الهالكين عريق

وأحسن ما قيل فى اجتثاثها أصول بنى آدم وهم يطمعون فى طول المدة قول بعض الحكماء عند القبض وأهله محدقون به يبكون.

لكل اجتماع بعد نُزهَتـه فَصْـلُ ... ومـا كـان بيْنٌ بعـد جيئته وصل
وقد ذهب الأصل الذى أنا فرعـه ... فكيف بقاء الفرع إذ ذهب الأصلُ
فتحـتُ جُفُـونى بين أم ووالد ... همـا بلغـا سِنَّيهمـا وأنا طفلُ
أقـام قليـلا هكـذا فترحَّلا ... مـا كان[(٣)] مما يشتهى ذاكم الرحْل
وقـد صـار يدعـونى بُنى أبًا له ... كمـا كنت أدعـو والدًا لى أبًا قبلُ

---

(١) الحلس: ج أحلاس وحلوس: ما يوضع على ظهر الدابة تحت السرج أو الرحل.

(٢) حديث «أكثروا من ذكر هاذم اللذات» حسن رواه الترمذى وحسنه والنسائى وابن ماجه والحاكم، هذا مع أن الدارقطنى أعله بالإرسال وصححه الحاكم وابن حبان وابن السكن، وأورده السخاوى تحت رقم ١٤٨ وله ألفاظ كثيرة، ولفظ الترمذى وابن ماجه والحاكم «أكثروا من ذكر هاذم اللذات» يعنى الموت:

أما زيادة الشيخ، فقد قال السخاوى: إنها من رواية العسكرى فى الأمثال له، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب) ولم يك مما يشتهى.

وقال ﷺ: «عجبت لمنتظر دين، والموت يطلبه».

يروى أنه لما بلغه ﷺ أن زيد[١] بن حارثة أخذ رجل من عنده دينًا إلى شهر، قال: «إن زيدا لطويل أمله، ومن أخبره أنه يعيش إلى شهر»[٢].

يروى أنه جلس ذات يوم بين أصحابه، فذكروا الموت وسكراته، والأجل ودهماته، فقال أحدهم: ما أمسيت فظننت أني أصبح، وأما أصبحت فحدثت نفسي أني أمسي.

وقال آخر: ما مضت علي ساعة زمنية إلا حسبت أن منيتي فيها.

وقال آخر: ما لبستُ ثوبًا إلا أعددتُه للورثة، وما حدثتني نفسي أن أُبْليه.

وقال آخر: ما رفعت قدمًا فظننت أني أعيده إليَّ قبل أن تختلسني المنية.

وقال آخر: ما حملت لقمة إلى فمي فظننت أني أسيغها قبل الموت، ورسول الله ﷺ ساكت. فقال: «ما تنفست نفسًا إلا وظننت أني لا أعيدها» فانظروا إلى استعدادهم للموت، وقصر آمالهم، ولذلك زكت أعمالهم، وطابت أحوالهم، وطاب لهم الموت إذ طابوا لها.

وكان ﷺ كثيرًا ما يأمر أصحابه بقول «اللهم طيبنا للموت وطيب الموت لنا، واجعل فيه راحتنا».

وكان ﷺ يقول: «الناس في الموت رجلان، مستريح ومستراح منه».

وقال ﷺ: «ما من نفس برة أو فاجرة إلا والموت خير لها»، إن كانت مؤمنة فإن الله يقول: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٨] وإن كانت فاجرة، فإن الله

---

(١) هو زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي أسره بنو القين وهو يافع ثم باعوه في سوق عكاظ، فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة، فوهبته للنبي ﷺ، وكان يدعى زيد بن محمد قبل نزول قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ [الأحزاب: ٥] وقد جاء أبوه وعمه يطلبانه من النبي ﷺ، فخيَّره، فاختار المقام معه، وهو حب رسول الله ﷺ وأمره سبع مرات، استشهد رضي الله عنه في غزوة مؤتة المشهورة.

(٢) حديث «إن زيداً لطويل أمله»، ضعيف رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي وأبو نعيم، القصة أن أسامة ـ لا زيدًا ـ اشترى من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر، فقال رسول الله ﷺ: إن أسامة لطويل الأمل. وفيه زيادة قال العراقي في الإحياء إسناده ضعيف (٤/ ٤٣٧).

يقول: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ولما وقع الطاعون بالشام زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وكانت عساكر المسلمين بالشام، وقوادهم أصحاب رسول الله ﷺ، فلما اشتد وكثر، قال عمرو(١) بن العاص: إنه الرجز(٢) الذى نزل على بنى إسرائيل، فبلغ قوله معاذ(٣) ابن جبل، فجمع الناس، فلما اجتمعوا قام خطيبًا فقال: ما بال رجال يَتَقولون على رسول الله ﷺ من غير علم، أما إنى سمعتُ رسول الله ﷺ يقول وليس بينى وبينه ترجمان: إن الطاعون أرسله الله عذابًا على من قبلنا، وإن الله جاعله لهذه الأمة رحمة وشهادة، اللهم اجعل لمعاذ وآل معاذ منه نصيبًا، فطعن ولده من يومه، فمات من الغد، فأدخله فى قبره، ثم طعن، فلما أحس بالموت، جعل يقول: مرحبا بالموت، حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من نَدم، ثم يقول: واطرباه، ثم واطرباه، غدًا ألقى الأحبة محمدًا وأصحابه، فمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء.

وقال ﷺ: «الموت تحفة المؤمن»(٤).

---

(١) عمرو بن العاص: هو عمرو بن العاص بن وائل السهمى القرشى أمير مصر، أسلم قبل الفتح سنة ثمان فى صفر على الأشهر وكان ﷺ يقربه ويدنيه لمعرفته وشجاعته، ولاه غزاة ذات السلاسل، وأمده بأبى بكر وعمر وأبى عبيدة، ثم استعمله على عمان، وكان من أمراء الأجناد فى الشام، مات رضى الله عنه سنة ٤٣ على الصحيح.

(٢) الرجز: الأوثان، وهو هنا: العذاب.

(٣) معاذ بن جبل: هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام، شهد بدرًا وهو ابن إحدى وعشرين سنة وأمره النبى ﷺ على اليمن، توفى بالشام سنة ١٧ هجرية (٣/ ٤٠٥) إصابة

(٤) حديث: «الموت تحفة كل مسلم». رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى والحاكم بلفظ (تحفة المؤمن الموت) وهو مرسل، قال العراقى فى تخريج الإحياء: مرسل إسناده حسن (٤/ ٤٣٤).
وروى أبو نعيم والبيهقى فى الشعب وعنهما السيوطى فى جامعه «الموت كفارة لكل مسلم» وصححه: قال المناوى وقال ابن العربى: إنه صحيح وقال العراقى: إنه بلغ درجة الحسن. وقال ابن حجر: والذى يصح فى ذلك خبر البخارى «الطاعون كفارة لكل مسلم» (٦/ ٢٧٩) فيض
قلت: وقد أورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وقال بعد أن أورد طرقه: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (٣/ ٢١٩) موضوعات كما أورده الشوكانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٣٩ وقال لم يصب ابن الجوزى بذكره فى الموضوعات وقد تابعه الصغانى فقال موضوع.

وقال: «الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا»[١].

يروى أن بعض التابعين قال لأبى هريرة[٢]: مالى أرى الناس اليوم ينفرون من الموت، ويحبون البقاء فى الدنيا، وكان أصحاب محمد ﷺ يحبون الموت ويتمنون الشهادة، قال له: يا بن أخى إن الناس اليوم عمروا دورهم، وخربوا قبورهم، فهل رأيت من يحب الانتقال من دار قد عمرها إلى دار قد خربها؟ وأما أصحاب محمد ﷺ، فإنهم عمروا قبورهم، وخربوا دورهم، ولذلك أحبوا الموت، وتمنوا الشهادة ليقدموا على ما قدموا.

يروى أن بعض أصحاب علىّ وقف على قبره يومًا فدعا له وترحم عليه، ثم قال: أما إنك كنت تعظنا أيام حياتك، وتغذينا بالحكم، فهل من حكمة أو موعظة تتحفنا بها اليوم؟ فهتف هاتف من قبره:

كنتَ ميتًا فصرتَ حيًا فعن قريب تَصيرُ مَيْتَا

فابن لدار البقــاء بيتًا واهـدم لدار الفنَاء بيتَا

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، لما حج حجته التى لم يحج بعدها، رأى انتشار رعيته فى أقطار البلاد، واتساع دائرة الإسلام، وكثرة الواردين من الآفاق يحيونه بالإمارة، ويثنون عليه بحسن سيرة عماله، وما انتشر عنه من العدل وإتقان السياسة وأمانة أجناده فيما فتح الله عليهم من خزائن الملوك، فما نقموا على أحد غلولا ولا خيانة، مع كثرة عددهم، فعجب عمر من ذلك، فقال له بعض الواردين: لا تعجب يا أمير المؤمنين، فإنك لو خُنْتَ لَخُنَّا، ولو جفت لجفنا، فلما كنت أمينًا صرنا كلنا أمناء، ولما كنت عادلا[٣] عدلت عمالك

(١) حديث «الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا» (لا أصل له) أورده الغزالى (٤/ ٢٠) قال العراقى: لم أجده مرفوعًا وإنما يعزى لعلى بن أبى طالب، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم (١٠٢) وقال لا أصل له.

(٢) أبو هريرة: هو عبد الرحمن بن صخر الدوسى اليمانى على اختلاف كبير فى اسمه، أسلم أيام فتح خيبر. من أكثر أصحاب رسول الله ﷺ رواية للحديث وأخذ عنه خلائق من التابعين، وكان من كبار أئمة الفتوى مع العبادة والتواضع، ولى إمارة المدينة فترة، توفى فى المدينة سنة ٥٨ هجرية رضى الله عنه (١/ ٣٢) تذكرة.

(٣) فى الأصل عدلاً، والأولى عندى عادلا كما فى (ب).

ورعيتك، فإن الرعية إنما تعمل بعمل أميرها فبكى عمر رضى الله عنه ورفع يديه إلى السماء، فقال: اللهم إنه قد كبرت سنى، ودق عظمى، ورق جلدى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير وانٍ[1] ولا مفرط، وألحقنى بصاحبى فلم يكن بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى طعن رضى الله عنه.

ولما أجمع الله على يوسف شمله، ومكن له فى البلاد، تاقت نفسه إلى ما هو أشرف من ذلك، وهو لقاء ربه بالموت فقال: ﴿**رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ إلى أن قال: ﴿**تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ**﴾ [يوسف: ١٠١] فمات بعد ذلك بسبعة أيام، ولذلك ذم الله الحرص على الحياة، لأنه من علامات الإفلاس، قال الله تعالى ذامًا لليهود ﴿**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ**﴾ [البقرة: ٩٦] وقال لهم على وجه الامتحان: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: ٩٤] فى قولكم إنكم أولى الناس بالله، فحكم عليهم بنفى تمنيه أبدًا بسبب ما قدمت أيديهم من الكفر والعصيان، وقتل الأنبياء.

قال ﷺ: «والذى نفس محمد بيده، لا يتمنى يهودى الموت من يومى هذا إلى يوم القيامة، إلا غص بريقه، فمات مكانه». ولذلك لم يبلغنا أن أحدًا منهم تمنى الموت كذبًا ولا استهزاء فضلا عن أن يتمناه مجدًا مع تقادم العصور، وحرصهم على تكذيب القرآن، لعلمهم بما يلحقهم من ذلك.

والحاصل أن تمنى السلف الموت، وطلبهم إياه، أمر لا يدخل تحت حصر.

فإن قلت: ما وجه قوله ﷺ: «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به، ولكن ليقل اللهم أحينى ما كانت الحياة خيرًا لى، وأمتنى ما كان الموت خيرًا لى»[2].

قلت: لا منافاة بين ذلك، فإن حديث رسول الله ﷺ فيمن نزلت به شدة، أو أصابته محنة فتمنى لأجلها الموت، فيكون فى ذلك عدم الرضا والسكون تحت

---

(١) وان: ضعيف.

(٢) حديث «لا يتمنى أحدكم الموت لضر نزل به»... إلخ. حديث صحيح، رواه البخارى ومسلم والنسائى والترمذى بألفاظ مختلفة، والبخارى أورده فى كتاب التمنى وكتاب المرض.

مجارى الأقدار، وأما من تمناه شوقًا إلى لقاء الله أو فرارًا من الفتنة عن الدين، أو مخافة أن يقوم بأمر الله، فذلك المطلوب من تمنى الموت، وحب لقاء الله، قال ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه»[(١)].

يروى أن بعض الصحابة قال لرسول الله ﷺ: إن النفس تنفر من الموت، وإنى سمعتك تقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: ليس كما تظنون، إن العبد إذا احتضر جاءته ملائكة الرحمة وحفظة أعماله، فبشروه بالرحمة والرضوان، فأحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وذلك حين يصفر وجهه، ويعرق جبينه، وإذا كان من أهل الشر، جاءته ملائكة العذاب، وحفظة أعماله، فوبخوه، وأنذروه بغضب الجبار والخزى والنار، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه، فذلك حين يربد وجهه[(٢)] وتغلظ شفتاه، وربما أدلع لسانه[(٣)].

وفى البيت من البديع الجناس والاقتباس:

فالجناس بين قوله الورى والوراء والأبا والإباء.

وأما الاقتباس فإن البيت مقتبس من ثلاث آيات، ومن حديث واحد.

أما الآيات، فقوله تعالى حكاية عن مريم ابنة عمران: ﴿يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣] والنسى هو الذى إذا غاب لا يفتقد، وإذا حضر لا يعبأ به.

والثانية قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود: ٩٢] والظهرى هو الذى لا يلتفت إليه لحقارته.

والثالثة مقتبس من معناها دون لفظها، وهى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢].

---

(١) حديث «من أحب لقاء الله»... إلخ. حديث صحيح أخرجه أحمد فى كتاب الدعوات، والترمذى فى الزهد، والنسائى فى الجنائز، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم (٨٣٠٩) ورمز له بالصحة.

(٢) أربد وجهه: تغير لونه وداخله ما يشبه الغبرة، أو تعبس.

(٣) دلع لسانه: خرج من فمه، ويقال: دلع وأدلع واندلع.

وأما الحديث فقد تقدم ذكره آنفًا[١].

وللبيت وجه فى إعرابه غير ما تقدم، وهو أن قوله: والموت منصوب على أنه مفعول معه، ونسى له وجهان، النصب على أنه مفعول جعل محذوفًا، وهو الأصوب، والرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف.

وأما «والموت» فقياسًا على قول عبد الرحمن بن أمية بن أبى معيط لمعاوية[٢] فى شأن علىّ.

ألا بلغ معـــاويـة بن صخر ... بأنـك من أخى ثقـــة مليم

كأنـك والكتـــاب إلى علىّ ... كدابغـة وقـد حلم[٣] الأديم

قطعت الدهر كالجمل المعنى ... ليهـــدر فى دمشـق ولا يريم[٤]

فعلى هذا يكون معنى البيت: كأن الورى مع الموت ولزومه لهم، وفظاعة أمره، وجعلهم إياه نسيًا وراء ظهورهم وهم عقلاء أذكياء الطبع، لأجل ما خامر بواطنهم من داء الغفلة والذهول الناشئين عن علة طول الأمل الناشئ عن أمانى النفس والهوى والشيطان ذوات الأباء التى لا عقول لهن طبعًا بأن يشتغلن بأكل الأبا لجهلهن له طبعًا ولا يبالين بمعالجة ما علق برءوسهن من داء الأباء المفضى بهن إلى الموت، فيفوتهن به مناولة الأباء وأكله فى أيام كثيرة لقلة تمييزهن، فالإنسان أشد حسرة وأعظم رزية وأسوأ حالاً حيث باع آجله النفيس الذى يبقى معه بلذة ساعة فانية، فلو اشتغل بعلاج باطنه الذى أصابه من داء الغفلة لما أنساه الاستعداد للموت قبل نزوله، ولا سبيل إلى ذلك إلا بقصر الأمل، وحقارة الفانى، فيكون داخلا فى الفريق المعنى بقوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) فى ص.

(٢) معاوية: هو معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب القرشى الأموى أمير المؤمنين، أسلم بعد الحديبية أو يوم الفتح كان من الكتبة الحسبة الفصحاء حليمًا وقورًا، صحب النبى ﷺ وكتب له وولاه عمر الشام، ثم حارب عليًا واستقر بالشام، ثم أضاف إليه مصر ثم تسمى بالخلافة بعد الصلح مع الحسن رضى الله عنه وسمى ذلك عام الجماعة. مات فى رجب سنة ٦٠ من الهجرة.

(٣) حلم الأديم: أى فسد الجلد بسبب الديدان.

(٤) لا يريم: لا يزول أو لا يتحرك.

قال ﷺ: «لو رأيت ما بقى من أجلك لزهدت فى طول أملك، ولرغبت فى تكثير عملك»[١].

* * *

• ثم انتقل إلى نوع آخر من الأمثال فقال:

٢٠ ـ شهى خلال الأرض الخلاء لو أنه أتيحَ لمسلوبٍ نجــاهُ نجــاءُ

«شهى» خبر مقدم «خلال الأرض» مبتدأ مؤخر، ومضاف إليه، وسوَّغ الابتداء به تخصيصه بالإضافة والنعت، «الخلاء» نعت للأرض، «ولو» هنا حرف وجود كلولا و «أن» مفتوحة الهمزة وجوبًا لاتصالها بـ «لو»، والضمير عائد على الأمر، والشأن وهو اسمها، و «أتيح» خبرها «لمسلوبٍ» جار ومجرور متعلق بأتيح «نجاه» مفعول اسم المفعول، هو النائب عن فاعل أتيح، والمعنى أن خلال الأرض الخلاء شهى إلى النفس، فالخلا بالقصر النبات الرطب النضر، وهو الزخرف، بخلاف الكلأ، فإنه يطلق على الرطب واليابس، والخلاء بالمد هى الأرض التى لا عمارة فيها تعذرها[٢] ولا دمن تقذرها لو أتيح أى هيئ لمسلوب أى مسلوخ نجاه بالقصر أى جلده، نجاء بالمد أى سلامة من العطب، لكن لا نجاة له أصلاً، كما لا نجاة ولا لذة لمن سلخ جلده، كيف وهو بين عدمين، عدم سابق، وعدم لاحق. قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقال تعالى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] تغتروا بما زينا به الأرض، فإنما خلقناه عبرةً وخبرةً لا متعة وغرة[٣].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ۝ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٧، ٨] أى نصيره إلى العدم كما أخرجناه منه، فاعبروه ولا تعمروه، وتزودوا منه ولا تخسروه.

يروى أن الفضيل بن عياض كان ينهى أصحابه عن النظر إلى البساتين عندما

(١) فى (أ): تكثير علمك.

(٢) تعذرها: تلطخها بالعذرة والأوساخ.

(٣) الغرة: الغفلة أو الخدعة. والمراد هنا ما يغتر به أى إن زينة الدنيا لم تخلق ليغتر بها الناس.

يتنزهون ويقول لهم: إنه مما ينبت الشهوة في القلوب، ويشوش البصائر، ويفتن القلب، ثم تلا قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣١، ١٣٢].

ومنه قول الشاعر في الجناس التام:

إذا مـــا نازعتك النفس يومًا ... فأمسكها عن الشهوات أمسكْ

ولا تحزن ليـــوم أنت فيـــه ... وعـد رزق يومك رزق أمسكْ

يروى أن النبي ﷺ قال: «لا يصفو لأحد يوم من الدنيا إلا وهو مَشُوب بكدر» فبلغ ذلك اليزيد[1] بن عبد الملك بن مروان، فقال: والله لأكذبن هذا الحديث، وكان ملك الدنيا يومئذ، فأمر بإحضار الشعراء، وآلات الطرب، وأنواع الأشربة، وأمر ببساط له فيه جميع الصور، فبسط، وبعث إلى زوجته فدخلت عليه فقال لها: إني أريد أن أكذب حديثًا بلغني عن رسول الله ﷺ أنه لا يصفو لأحد يوم من الدنيا ولو بلغ من الملك ما بلغ، وكانت عندها جارية يقال لها جلالة لم ير الراءون مثلها جمالاً ولا كمالاً ولا قدًا ولا اعتدالاً ولا أدبًا ولا ظرفًا، فقالت زوجته: وما تفقد من شهواتك؟ قال لها: لم يبق لي لذة إلا الاجتماع بجلالة، إن طابت نفسك بذلك، فأرسلت إليها فأدخلتها عليه ووهبتها له، فبينما هي بين يديه وقد نثر على البساط أنواع اليواقيت، إذ رمت بياقوتة إلى فيها فسبقتها إلى حلقها فاختنقت بها فماتت مكانها، فانكب عليها يبكي ويقبلها حتى أنتنت، فأخرجوها عنه كرهًا وهو يلتزمها ويصيح كما تصيح الجارية، وما عاش بعدها إلا ثلاثة أيام[2].

---

(١) اليزيد: هو اليزيد بن عبد الملك بن مروان من ملوك الدولة الأموية ولي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز سنة ١٠١ وكانت في عهده غزوات وكانت له مروءة مع ميل إلى اللهو مات بعد موت قينة له كان يحبها تدعى حبابة سنة ١٠٥ هجرية.

(٢) هذه القصة أوردها الذهبي في كتابه سير أعلام النبلاء بدون ذكر تكذيب الحديث، وإنما قال: إن يزيد بن عبد الملك أناب صاحب الشرطة ليصلي بالناس، واختلى بجارية له يحبها فرمى لها عنبة، فوقعت في فيها فشرقت فماتت، وبقيت عنده حتى أروحت ولم يعش بعدها كثيرًا (١٥١/٥) سير أعلام النبلاء، وما أورد يبعد كثيرًا عن التصديق وقصة الذهبي جائزة الوقوع جدًا ولعلها الصحيحة والله أعلم.

وممن زهد فى الدنيا من الملوك فخلع نفسه أبو غفال، فقيل له: تركت الملك واخترت الفقر عن الملك والغنى، فقال: هو نعيم لولا أنه ذميم، وسرور لولا أنه غرور، ومتاع لولا أنه ضياع، وشراب لولا أنه سراب، وملك لولا أنه هلك، وإنه لأكلة لولا أنه يمنع أكلات، وإنه لشرف لولا أنه تلف، وإنه لأنس لولا أنه تعس، فانكب على العبادة حتى مات ساجدًا بين الركن والمقام رحمة الله عليه.

يروى أن كسرى أنوشروان لما دوَّخ المماليك، صغرت الدنيا فى عينيه، فجمع مرازبته وأساورته وقال لهم: يا قوم هل من دار غير هذه الدار، فإنى قد سئمتها، قالوا: لم سئمت ملكك وقد طاب لك؟ قال: إنى مثلتها أيكة[1] كثيرة العشب، كلما اخضر منها جانب، جف جانب، وكلما تسهل منها جانب توعر جانب، وبقدر ما تحلو تَمر وبقدر ما تدنو تبعد، ولو دامت للسابق لم تخلص إلى اللاحق، وبما فَارقت السابق تفارق اللاحق، فقالوا: هلم فلنعبد إلهك وهو النار، فتجرد ولزم بيوت النار حتى مات ولم يجد مرشدًا ـ والعياذ بالله!

وفيه من البديع التلميح، وهو الإشارة الدقيقة التى لا يدركها إلا الأذكياء، وذلك أن المصنف أشار بالبيت إلى قوله ﷺ: «الدنيا حلوة خضرة، فمن أخذها بحق بورك له فيها، ومن أخذها بشره وإشراف نفس كان كشارب ماء البحر، كلما ازداد شربًا ازداد ظمأً»[2].

وفى رواية: «كان كالذى يأكل ولا يشبع» فالأثر والبيت يشتركان فى تحسين الدنيا من حيث أُخذت بحق، وصرفت فى حق من غير إسراف ولا إقتار، فلا يذمها ظاهر الشريعة لعيب ظاهر، كالقذرة[3] الظاهرة، ويعافها باطن الحقيقة لنقص باطن[4]، فتكون كخضراء الدمن، أنيقة المنظر، خبيثة المخبر، تغرى الناظر

---

(١) الأيك: الشجر الكثير الملتف الواحدة أيكة.

(٢) الدنيا حلوة خضرة. . . إلخ. حديث أصله صحيح إلا أن الرواية التى أوردها الشيخ لم أجدها، والحديث رواه مسلم بلفظ «الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بنى إسرائيل كانت فى النساء» اهـ.

وله ألفاظ كثيرة عند غير مسلم والله أعلم.

(٣) فى (أ): كالغدران، ولا معنى لها.

(٤) كذا فى الأصلين ولعل الصواب: باطنى، أو باطنها.

العاشق، وتنفر المشتم والذائق، بل هى روضة غناء، زكية الثرى، حسناء، غرستها أيدى التوفيق، وسقتها جداول التصديق، وحمتها حراس التحقيق، ولقمتها رياح البشور، وعقدت ثمارها وزروعها نفحات النشور، فجاءت وقد أنبتت كل حبة منها سبع سنابل، إذ لم تنبت على دمنة ولا مزابل، فأحرزت العاجل، وأدركت الآجل، يعجب الزراع قنواتها، ويغبط الكفار صنواتها[1]، بقعتها زكية، ورائحتها ذكية، وعيشتها راضية، وأوقاتها هنية، جنة أزلفت لرجال اختصهم الله بنعمته، وصرفهم عن نقمته، خلقهم له، وخلق الخلق لهم، آلى على نفسه ألا يعذبهم بناره، فمن حاد عن هذا المهيع فقد عرض نفسه للضياع، فيكون كمن كشط جلده فهو هامة[2] اليوم أو غد، ومع ذلك يعانق الشهوات، ويألف الهفوات، أو كشارب ماء البحر يريد ذهاب التلف بالتلف حتى يتوغل فكلما شب حرصه طلب الزيادة من المال، فبقدر ما زاد من الجمع ازداد من المنع، حتى يهلك وسط ما ملك، كدود القز.

قال الشاعر:

كـــدود من القز ينســج دائمـــا ويهلك يومًا وسط ما هو جامع

فبان من هذا أن الدنيا تطيب وتخبث على قدر صاحبها، وتعدو على قدر همة راكبها، فهى حرباء الأسنان[3]، ربانية المكان، واسعة الأكناف، كثيرة الأرياف، ملتفة الحدائق، محروسة بعين الخالق، تمد من مدد الرزاق، فهى لأنبيائه وأصفيائه أخذوها بعين التمكين، فقاموا فيها قيام الخازن الأمين، لم يقرءوا فيها من مكنون مسطورهم حرفًا ولا أعاروها من الميل إليها طرفًا، فنظروا إلى باطنها حيث نظر الناس إلى ظاهرها، يأخذون منها ولا تأخذ منهم، فلما ارتضى فعلهم واستعدادهم خاطب جملتهم وأفرادهم خطاب الحبيب معشر الأحباب ﴿**هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [ص: ٣٩] فلذلك لم يجعل الله زكاة على الأنبياء فى أموالهم بالغة ما بلغت، لأنهم خزان الله، ينفقون بأمره، ويمسكون بإذنه، وكذلك بعض

---

(١) الصنو: الشقيق، والمراد: مثيلاتها.

(٢) هذه العبارة غير واضحة فى النسخة (أ)، وأثبتناها من النسخة (ب).

(٣) فى النسخة (أ): حرباء الإنسان. وفى (ب): الأسنان.

المتصوفة لا يرون عليهم زكاة فى أموالهم، إذ لا يرون لأنفسهم مع الله كسبًا، وكانوا رضى الله عنهم شركاء فى أموالهم، لا يحجز بعضهم على بعض شيئا يحتاج إليه، ولا يستأذنه فيأخذ ماله حملا على أنهم عبيد ملك واحد، فلا حجر لأحد منهم على ما جعله مستخلفًا فيه، لاستوائهم فى العبودية، وتبرئهم من الكسب الخاص، فمن المستحيل عندهم أن يقول أحدهم: لى، ومالى، أو عندى[١].

يروى أن شيبان الراعى رضى الله عنه مر على الشافعى[٢] وأحمد[٣] بن حنبل فقال أحمد بن حنبل للشافعى: هلم فلنسأله عن الدين، وكان رضى الله عنه، أميًا، فقال الشافعى لا تسأله، فإن القوم يأخذون عن الله، فقال أحمد: لأسألنه حتى أعلم مكانه، فقال: يا شيبان ما على من نسى أربع سجدات من أربع ركعات؟ فقال أفى مذهبنا، أم مذهبكم؟ فقال له أحمد: أهما مذهبان؟ قال: نعم، أما فى مذهبكم فقد بطلت صلاته، إلا الركعة التى هو فيها، وأما مذهبنا، فهذا قلب قد غفل عن ربه فيجب عليه الحد على قدر منزلته من الله.

فقال له: ما تقول فى الزكاة؟ قال: على مذهبنا، أم مذهبكم؟ قال: على مذهبكم، فقال: أما على مذهبنا، فالعبد وماله لسيده، فلا زكاة عليه، إذ لا مال

(١) أمر الله نبيه ﷺ بأخذ الزكاة من أموال المسلمين عامة بدون تمييز بشروط، فمن توفرت فيه هذه الشروط، فالزكاة واجبة عليه وليًا كان أم غيره، والله أعلم.

(٢) الشافعى: هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان المطلبى الشافعى القرشى، نسيب رسول الله ﷺ وناصر سنته، ولد عام ١٥٠ بغزة، حفظ الموطأ وعرضه على مالك وأذن له مسلم بن خالد بالفتوى، وكان مع علمه بالشعر وأيام العرب والفقه والحديث أحذق قريش بالرمى، قال فيه أحمد بن حنبل ما أحد مس محبرة ولا قلمًا. إلا وللشافعى فى عنقه منة، توفى رضى الله عنه بمصر فى شعبان عام ٢٠٤ هجرية (١/ ٣٦١) تذكرة.

(٣) أحمد بن حنبل: هو شيخ الإسلام وسيد المسلمين فى عصره الحافظ الحجة، أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الذهلى الشيبانى المروزى، ثم البغدادى، ولد عام ١٦٤ قال ابنه عبد الله: سمعت أبا زرعة يقول: كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث، ذاكرته الأبواب. وقال إبراهيم الحربى رأيت أحمد كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين، قال على بن المدينى: إن الله أيد هذا الدين بأبى بكر الصديق يوم الردة، وبأحمد يوم المحنة، توفى رضوان الله عليه يوم الجمعة ١٢/ ٣/ ٢٤١ هجرية والله أعلم.

له أصلا، فينفق بأمره، ويمسك بإذنه، وإنما جعلت الزكاة طهرة للأموال، ومال الله طيب طاهر من أصله، وأما أموالكم أنتم، فإنها لما كان لها أصل في الخبث، أوجب عليكم الزكاة، فنوعها على قدر المنفعة، فلما كان أشرف أموالكم الإبل، أوجب في كل خمس منها زكاة، ولما كان البقر دونها في الشرف والمنفعة، لم يجعل الله فيه زكاة واجبة، حتى يبلغ الثلاثين، فيكون فيه عجل ذكر، ولما كانت الغنم دونهما شرفًا ومنفعة، وهي تداني البقر بألبانها وأصوافها، لم يجعل الله فيها زكاة واجبة حتى تبلغ الأربعين، فتكون فيها شاة واحدة إلى المائة وفي الذهب والورق[1] ربع العشر لنفاستهما والعشر فيما سقي[2] بمطر، ونصف العشر فيهما سقي النضح، ولا زكاة عليكم في البغال والحمير، إذ لا منفعة فيها إلا الاستعمال، ولا في الخيل والسلاح واللباس، لأنها عدة في نحور أعدائه من المشركين، لأنه لما علم قبح طوياتكم، وحبكم للمال، وقلة معرفتكم له، تفضل عليكم بأن أخذ منكم النزر التافه، وطهر به الكثير، ورباه لكم، وجعله ذخركم عنده، فأكلتموه، وأثابكم عليه، فجعل مواساتكم إخوانكم من الفقراء والمساكين فرضًا مضاعفًا عنده لئلا تهلكوا عليه فقال: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧] من فضله ولولا قلة معرفتكم واحتشامكم، لما قال أحدكم: مالي، فيشارك الله في ملكه بعد ما قال له: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]، وقال: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٧] فلولا أنه جاملكم أي عاملكم بالجميل، لأهلككم، ثم إن أحدكم يقوم بين يديه ويجعل قلبه يجول في مزابل الفاني، ووساوس الشيطان حتى لا يأتي بفريضة ربه على وجهها، ويجعل السجود جبرًا لما ضاع عليه، هيهات، وكيف تصلح أعمال فسدت أصولها؟

فصاح أحمد وسقط مغشيًا عليه.

فقال له الشافعي: ألم أنهك عنه، وأخبرتك أن القوم يأخذون عن الله.

فقال: لا جرم لا أسأل أحدًا منهم بعدها إلا تعلمًا.

---

(١) الورِق: الفضة.

(٢) في النسخة (ب) فيما سقي بسيح أو مطر، والسيح الماء الجاري على وجه الأرض.

فالقوم فقهاء علماء نجباء بررة أخيار علمهم الله من لدنه، فهم يغترفون من بحاره، ويمدون من أنواره، فالدنيا الربانية وراثة أيوب وسليمان وعبد الرحمن بن عوف(١) وعثمان بن عفان، والشيطانة وراثة نمرود وساسان وقارون وهامان، فهى هموم وغموم وآلام، إذ يعالجون ما لا يكون وهو بقاؤها وهى مهيأة للزوال، فيغالبون القدر، والقدر غالب، ويكابدون الدهر، والدهر سالب، فكلما اطمأنوا إلى لذة نغصها عليهم مشوش من عدو مناهد(٢) وحاسد معاند، أو مرض مدنف، أو هرم مضعف، أو موت معنف، أو فراق حبيب مواصل، أو مصيبة بمال طائل، مع غم الزوال، وخوف الذهاب والاضمحلال، فهم بين زمان مضى بما فيه ولا لذة لما مضى، وبين زمان هو آت لا يدرون ما الله قاضٍ فيه، فليس لهم إلا الساعة التى هم فيها، وقد تنغصت عليهم بما تقدَّم من الشوائب، وقد ضيعوها بعدم التزوُّد منها للدار الباقية ولا أحسن من قول الشاعر:

ما مضى فات والمؤمَّل غيب ولك الساعة التى أنت فيها(٣)

قال الله تعالى لغيرهم: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] فلا لذَّة لهم أصلاً، كما لا لذة لمسلوب نجاه، لأن الله خلقهم لعبادته، ومنحهم الدنيا ليستعينوا بها على طلب مرضاته، واشترى منهم الشهوات العاجلة الفانية بالشهوات الآجلة الباقية، فلما خالفوا ذلك، وأخلدوا إلى الدنيا، واطمأنوا إلى الشهوات العاجلة، وتركوا طلب مرضاته بما خولهم به من دنياهم، صاروا وكأنهم فى طلب النجاة كمن سلخ جلده وهو يطلب النجاة ويحاول الشهوات، وسلخ جلده هو تركه مراد ربه وهو تقربه إليه بما خوَّله به من نعمة وتقديم عبادته إياه على حظوظه، فسلبه لذة العاجل بما سلط عليه من الآفات المنغصة لعدم شكره،

(١) عبد الرحمن بن عوف بن الحارث الزهرى القرشى من أكابر الصحابة، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين جعل عمر الخلافة فيهم، وأحد السابقين إلى الإسلام ومن الأجاويد الشجعان، كان اسمه فى الجاهلية عبد الكعبة، وسماه النبى ﷺ عبد الرحمن، وكان تاجرًا، قيل: إنه تصدق فى يوم واحد بقافلة فيها تسعمائة راحلة تحمل الحنطة والدقيق، . توفى رضى الله عنه بالمدينة عام ٣٢ هجرية.

(٢) ناهد: ناهضه فى الحرب.

(٣) البيت من بحر الخفيف.

ولم يجعل له حظًا في الآخرة جزاءً وفاقًا، إذ حقيقة الشكر استعمال الأشياء فيما خلقت له، فهو مسلوب الحياة، معدوم النجاة، لتضييعه ساعات عمره في غير طاعة الله، لانشغاله بالحقير عن الشريف الخطير، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥ ـ ٢٠٧].

وفي البيت من البديع الاقتباس، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] ومعنى ذلك أن القلوب الطيبة التي لم يسبق الشر إليها، تخرج علومها زكية سالمة من الزيغ والابتداع، ومن الغلو والاتساع، وأحوالها ذكية سالمة من السمعة والرياء، وأعمالها خالصة لرب الأرض والسماء، قال ابن عطاء الله: ما قل عمل برز من قلب زاهد، وما كثر عمل برز من قلب راغب، وذلك المراد بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] قليل النفع وإن كثر، قليل الري وإن غزر ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩، ٢٠] بحر الري وبحر الغي: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفيه تلويح بحديث رسول الله ﷺ المشهور، وهو قوله ﷺ: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله، لا يختلى[1] خلاها، ولا يعضد[2] شوكها، ولا ينفر صيدها، ولا يهاج ساكنها»[3].

والخلى بالقصر يائي اللام، تقول: خليت الخلاء: إذا قطعته من أصله، وهو من باب تسمية الشيء باسم ملازمه، وهو الاختلاء، وله اشتراكات، منها الغائط، والزمان الماضي، تقول: ما سمعت بهذا فيما خلا من الزمان، وفيه: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤، ١٤١] والأيام الخالية، وفيه الفراغ، تقول: خلا لي وجه فلان

---

(١) يختلى: يقطع أو يجز، والجز في النبت كالحصد في الزرع والخلا الرطب من النبات.
(٢) لا يعضد: لا يقطع.
(٣) الحديث الذي أشار إليه الشيخ وهو أن الله حرم مكة... إلخ. حديث متفق على صحته رواه البخاري ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة، أما زيادة «ولا يهاج ساكنها» فلم أجدها.

فهو خلى: إذا تمكنت منه من غير مشوش، قال الله تعالى حكايةً عن إخوة يوسف: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف:٩] ويطلق ويراد به الجماع احتشامًا من ذكره، وفيه خلوةُ الاهتداء[1] ويطلق ويراد به الجوع، يقال: أكلت على خلى، وهو خلو المعدة من الطعام، كما تقول: أكلت على خوى، ومنه خَلا الحرفية إن جرت.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

٢١ - ومَصُّ الظَّما لَوْلا الظَّمَاءُ غَدى مُنى
فَشَمِّرْ ولا يُوهِنْ بَدَاكَ بَدَاءُ

ومص الظما وهو اللعس، ومعناه سمرةٌ تكون فى شفتَى المرأة مع دقة، وهى أحسن ما تكون إذا كانت مع بياض ناصع وصباحة فى الجبين والخدين، قال النبى ﷺ: «رأيت ليلة أسرى بى جارية لعساء، فأعجبتنى، فقلت لها: لمن أنت يا جارية؟ قالت: لعمر بن الخطاب، فجاوزتُها لما أعلم من غيرتك، فقال عمر: أعليك أغار يا رسول الله»[2].

والمص ضد العب، قال الرسول ﷺ: «إذا شربتم الماء فمصوه مصًا، فإن العب يورث الكباد»[3] قال لسان الدولة ابن الخطيب: هذا الحديث من روائع الحكمة التى

(١) فى النسخة (ب): خلوة الإهداء، ولعلها أصح والعبارة غير واضحة المعنى.

(٢) حديث «رأيت ليلة أسرى بى جارية لعساء...» إلخ. لم أره بهذه اللفظ وقد رأى رسول الله ﷺ الجنة، ورأى قصر عمر، ورأى جارية.
إحدى روايات البخارى: بينما أنا نائم إذ رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر فقلت لمن هذا القصر قالوا: لعمر بن الخطاب، فذكرت غيرتك فوليت مدبرا، قال فبكى عمر وقال: أعليك أغار يا رسول الله (كتاب بدء الخلق باب ما جاء فى صفة الجنة).

(٣) حديث «إذا شربتم الماء»... إلخ. ضعيف رواه الديلمى فى مسنده وعنه السيوطى تحت رقم ٧١٠ وقال فيه: «فاشربوه» بدل «فمصوه»، وزاد: ولا تشربوه عبًا، وباقيه سواء بسواء، ورمز له بالضعف، قال المناوى، وفيه محمد بن خلف، وفيه لين، عن موسى المرزوى، قال الذهبى عن الدارقطنى: متروك: لكن يتقوى برواية أخرى رواها أبو نعيم والبيهقى. وعنهما السيوطى ورمز لها بالضعف مع الإرسال أيضا (١/ ٣٨٧) فيض، والله أعلم.

لم يسبق إليها رسول الله ﷺ، لأن الماء إذا هجم على المعدة دفعة ربما برد الحرارة الغريزية فأهاج داءً لا دواء له، وهو الاسترخاء والنقرس، وربما أحدثَ الكباد وهو انصداع الكبد لمصادمة الضدين، وهما برودة الماء وحرارة الكبد، فتحدث عند ذلك بغتة الموت، وإذا مصه سهل وقعه على المعدة، فأخذت بحظها منه من غير إفراط ولا تفريط، وأخذ كل عرق قسطه من الرى من غير زيادة مضرة ولا هضمية مخلة. وبرد من الحرارة الغريزية الملتهبة قدر ما يقَع به الاعتدال.

قوله «منًى» خبر لاسم المصدر الذى هو مص الظما، والمنى: كل مستطاب تتمناه النفوس إذا فقدته، ولا تمله إذا وجدته، وإنما صدَّر بذكر النساء لأنهن رأس الشهوات وليقتدى بكتاب الله فى قوله: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ [آل عمران:١٤] الآية، قَالتْ عائشة رضى الله عنها: من شقوتنا أن الله لما ذكر الشهوات جعلنا أولاً، ولما ذكر الثواب والدرجات جعلنا آخرًا، فقال: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ﴾ [النساء:٣٢] فهذا البيت مفرغ فى قَالب المثال، لأنه من جنس البيت قبله، إلا أن الأول يزهد فى تناول شهواتها لكونها لا تصفو ولا تتم، ثم ثنى بالبيت الثانى فى أن شهواتها مع عدم تمامها طبعت النفوس على الميل إليها، فهى تَصبو إليها وتألفها، لولا ما ينال متناولها مما ينفر منها فى العقبى من الظماء بالمد، وهو ضد الرى، قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٩].

وقال الرسول ﷺ «أكثركم ريًا فى الدنيا، أكثركم عطشًا يوم القيامة» وقال «أكثركم شبعًا فى الدنيا، أكثركم جوعًا يوم القيامة»[(١)].

وسئل رسول الله ﷺ أيُّ الناس أسرع حسابًا يوم القيامة؟ قال: «الذى إذا قال لأهله اسقونى لم يسألوه من أى شراب نسقيك، وإذا استطعمهم لم يسألوه من أى طعام نطعمك، وإذا استكساهم لم يقولوا أىَّ ثيابك نبعث إليك».

قال الشاعر:

---

(١) حديث «أكثركم ريًا فى الدنيا أكثركم عطشًا»... إلخ. لم أجد هذا اللفظ إلا أن الطبرانى وأبا نعيم رويا: إن أصل الجوع فى الدنيا هم أصل الشبع فى الآخرة... إلخ. قال العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء: إسناده ضعيف (٣/ ٨١).

حلوهـا مرٌ ومرّهـا حلو صديقُها يوم القيامة عدو

يروى أن الإنسان لا ينال من شهوات الدنيا وطيباتها شيئًا إلا كان ذلك نقْصًا من حسناته وهضمًا من درجاته.

أخرج الشيخان من طريق أبى أمامة(١) أن أبا ذر(٢) رضى الله عنه قال: إنا معشر المهاجرين قد وقع أجرنا على الله، فمنا من أينعت له ثمرتُه، فهو يقضم منها، ومنا من لحق بالله ولم يأكل من أجره شيئًا. كان مصعب(٣) بن عمير أفضلنا مات يوم أحد، فلم نجد ما نكفنه به إلا نمرة(٤) كنا إذا غطينا بها رأسه بدتْ قدماه، وإذا غطينا بها قدميه بدا رأسه، فغطينا بها رأسه وسترنا قدميه بالإذخر(٥).

روى أن عابدًا من بنى إسرائيل، كان يقوم الليل، ويصوم النّهار وكان يصنع الأطباق من الخوص، يبيعها بما يفطر به، ويقيم صلبه لقيام الليل، وكانت تحته ابنة عم له صالحة، فبينما هو ذات يوم بعد العصر وبيده أطباقه، يطوف فى المدينة على عادته ليجد من يشترى منه، إذ رأته زوجة الملك، فهويته، لما رأت عليه من بهجة

---

(١) أبو أمامة: هو صدى بن عجلان بن الحارث الباهلى، أرسله النبى ﷺ إلى قومه باهلة، وكان مع على بصفين مات رضى الله عنه سنة ٨٦ هجرية.

(٢) أبو ذر: هو جندب بن جنادة بن سكن الغفارى، كان من السابقين إلى الإسلام، زاهدًا صادق اللهجة اختلف مع معاوية بالشام فاستقدمه عثمان إلى المدينة، ولما قدمها اختلف مع الصحابة فى شأن المال وإنفاقه، فطلب منه عثمان أن يتنحى إلى الربذة، وامتثالا لأمره خرج إليها، وبها مات وحيدًا، إلا من زوجه وخادم، فوافاه ابن مسعود بعد موته بقليل وصلى عليه وكان ذلك عام ٣١ هجرية.

(٣) مصعب: هو مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف أحد السابقين إلى الإسلام، وكتم إسلامه خوفًا من أمه، ولما علم أهله أوثقوه فلم يزل محبوسًا إلى أن هرب مع من هاجر إلى الحبشة، ثم رجع إلى مكة ومنها هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا وأحدًا ومعه اللواء، فاستشهد بأحد، كان أنعم غلام فى مكة وأجوده حلة، ولما رآه رسول الله ﷺ بكى للذى كان فيه من النعمة، ولما صار إليه، فلم يجد ما يكفن به يوم أحد إلا ثوبًا لا يستره (٣/ ٢٠٤) إصابة.

(٤) النمرة: شملة أو بردة فيها خطوط.

(٥) حديث إنا معشر المهاجرين... إلخ. متفق عليه كما قال الشيخ وأوله عند البخارى: عدنا خبابًا فقال هاجرنا مع رسول الله ﷺ... إلخ. وهو فى كتاب مناقب الأنصار باب هجرة النبى ﷺ وأصحابه.

العبادة، فقالت لبعض جواريها: اذهبى إلى ذلك الرجل الخواص وقولى له: إن سيدتى تقول لك: هلم إليها لتشترى منك أطباقك، فذهب مع الجارية فوجدها تنظره بالباب، فلما دخل أغلقت الباب من ورائه، فلما استقر دعته إلى نفسها، فاستعظم وجعل يعظها فى الزنا، فقالت له: إما أن تواقعنى، وإما أن أصيح عليك فى المدينة فتفتضح، ويمثل الملك بك، فلما لم يجد بدًا قال لها ناولينى ماء ودلينى على موضع من البيت أتوضأ به، فإذا فعلت قضيت حاجتك، وليكن بأعلى البيت لئلا يرى الملك محل الوضوء، فيتهمك، فقالت ارق إلى أعلى الدار، وكانت عالية، فتوضأ بأعلى الدار، فلما أتم وضوءه قال يا أرحم الراحمين اجعل لى مما أمسيت فيه فرجًا ومخرجًا وإلا فصبرنى على الموت، فإن الموت أحب إلى من معصيتك بعد ما عرفتك وعبدتُك زمانًا طويلا، وتركت الدنيا وزينتها ابتغاء مرضاتك، فضجت الملائكة لما رأوا من حاله، وسمعوا من مقاله، فقال لهم الله: بعينى جميع ما صنع، وإنه يلقى بنفسه الآن إلى الأرض فتلقه يا جبريل وافرش له جناحك حتى تضعه على الحضيض، فألقى بنفسه فمدَّ جبريل عليه السلام جناحه فحمله عليه حتى وضعه بالأرض، فذهب إلى بيته بغير قُوت، وقد ترك الأطباق عند زوجة الملك ولم يأت بيته حتى مضت ساعة من الليل، فقالت له زوجته: ما خطبك إذ تأخرت عن الوقت الذى كنت ترجع فيه، وجئت بغير قوت ولا خوص، فقال لها: لقد وقعت فى أمر جليل، فقص عليها ما لقى من زوجة الملك وإلقائه بنفسه، ونجاته، فقالت له: هلم فادع الله ليجعل رزقك فى بيتك ويغنيك عن التعرض للفتن، فقام يصلى ونامت زوجته، فسأل الله الغنى عما كان فيه، فأنزل الله عليه ياقوتة من ياقوت الجنة فأضاء منها البيت، فجعل يشكر الله ويحمده إذ هبت زوجته من نومها مذعورة باكية، فقال لها: ما بالك، قالت: إنى رأيت فيما يرى النائم أنى دخلت الجنة فإذا أنا بأسرة من ياقوت يكاد سنا نورها يذهب بالأبصار، وإذا هى مستوية إلا سريرًا واحدًا فيه ثلمة وقد اعوج، فقلت: ما لهذا السرير له ثلمة وفيه اعوجاج من بين هذه السرر، فقيل لى إنه سرير زوجك، وإنه استعجل بعض ثواب عمله فقدمناه له الليلة، فادع ربك فليرد الياقوتة إلى السرير، ولنصبر على ما كنا عليه حتى نرجع إلى دار القرار، فأخذ

يدعو وهى تعينه حتى ارتفعت الياقوتة[١].

وقال ﷺ: «المكثرون فى الدنيا هم المقلون يوم القيامة»[٢].

وقال: «إن فقراء المهاجرين يسبقون الناس إلى الجنة بقدر نصف يوم وهو خمسمائة عام»[٣].

وقال: «إن أغنياء أمتى لن يدخلوا الجنة إلا حبوًا» فهلم يابن عوف فأطلق إسارك[٤] ببعض مالك فتصدق بثلث ماله، ثم تصدق بعير أتته من خيبر تحمل ما لا كثيرًا، فبشره رسول الله ﷺ أن الله قد أطلق أسره وأن الملأ الأعلى يسمونه تَاجر الله وتاجر رسوله، ولما مات مكث أصحاب رسول الله ﷺ يحتفرون من رحاب بيوته الذهب والورق بالفئوس أيامًا، وصولحت امرأة من زوجاته طلقها قبل موته، فاختلفوا فى توريثها بثمانين ألفًا، وكانت له مزارع وضياع تثمر فى العام مرتين، وكانت إذا احتاجت إلى السقى يستسقى الله لها، فيأتى الله بمطر يخصها فى غير إبان المطر، ومات عن ألف مملوك، وعن ثلاثة آلاف من الموالى أعتقهم فى حياته رضى الله عنه وعن سبعين فرسًا كان يحمل عليها فى سبيل الله. وأما الإبل والغنم والبقر والبغال والحمير والأثاث، فمما لا يدخل تحت حصر، ومع هذا كله لم تمل نفسه إلى رئاسة ولا خلافة، وكانوا ربما عرضوا عليه الخلافة فيجدون ذلك أبعد عنده من الثريا، وكان فى مطعمه وملبسه ومشربه كسائر الصحابة، لم يتميز

---

(١) هذه القصة من الإسرائيليات وهى جديرة بأن تكون مختلقة.

(٢) حديث «المكثرون فى الدنيا»... إلخ. جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه البخارى فى كتاب الاستقراض والرقاق ولفظ هذا الجزء منه «إن المكثرين هم المقلون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وقليل ما هم»، وفى بعض رواياته «إن الأكثرين هم الأقلون»، كما أخرجه مسلم والترمذى والنسائى.

(٣) حديث: «إن فقراء أمتى يسبقون الناس»... إلخ. حديث صحيح أخرجه مسلم وابن ماجه، بلفظ أربعين خريفا ولفظ خمسمائة سنة، أورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالصحة. قال المناوى وأخرج العسكرى أن أبا حنيفة سئل عن حديث «يدخل فقراء أمتى الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم» فقال المراد الأغنياء من غير هذه الأمة فذكر ذلك لعبد الواحد بن زيد فقال لا يسأل أبو حنيفة عن هذا إنما يسأل عن المدبر والمكاتب (٢/ ٤٦٢) فيض.

(٤) الإسار بالكسر الرباط: وهو مصدر.

عنهم بشيء، وكانوا كثيرًا ما يعيرونه بكثرة أمواله، فيقول لهم: إن الله أعطانيها من غير مسألة له ولا ميل إليها، فقبلت من الله عطيته وأسأله أن يعينني على أداء حقه، وشكر نعمته فقالوا له: إن كنت صادقًا فابعث إلى خيبر عيرًا تحمل تمرًا، فإن بيعت علمنا صدقك وإلا حكمنا عليك بأنك مكاثر، فبعث عيرًا تحمل تمرًا إلى خيبر، فلما قدمت عليها جعلوا يضحكون ويعجبون من عير تحمل التمر إلى خيبر، فأقاموا يومًا وقد عزموا على الانصراف، وكان العير قد وافى خيبر، وقد اشتد بها الوباء، فجاء رجل مصاب، فأخذ تمرة فأكلها، فما هو إلا أن ازدردها برئ من علته، فقام وكأنما نشط من عقال، فأتى المدينة وجعل يصيح يا قوم هلم إلى العير، فإن تمرها شفاء مما بكم من البلاء، فإني قد أشفيت على الهلاك، فما هو إلا ان ابتلعت تمرة من تمرهم[1] برئت فقمت وكأنما نشطت من عقال، فأقبل الناس إليهم وانعقد البيع بينهم على أن كل تمرة بدرهم فأنفذوا من يومهم، وارتحلوا من الغد، فلما رأى أهل المدينة العير تحمل الورق وقد أدلجت وأقعست من ثقل ما تحمل، أقبلوا إلى عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه فقالوا له: إن عيرك قد رجعت بتمرها، فقال لهم أمهلوا فلعلها تحمل غير التمر، فوجدوها تحمل الورق، فتصدق بالعير وبما تحمل رضي الله عنه[2] فشمر برياضة النفس حتى تكفها عن الميل إلى الشهوات فإنه أمر صعب، إذ ليس من طبعها، وإن شمَّرتَ قَرَضتها انقادتْ ولانتْ لك، ولا يوهن أي لا يضعف بداك، أي سلاماك، وهي المفاصل الصغار والعظام التي تتركب عليها قوى البدن، قال الرسول ﷺ: «يصبح على كل سلامى من بني آدم صدقة»[3].

بداء بالمد، وهو الرأي الفطير، قال الرسول ﷺ «خمير الرأي خير من فطيره»

---

(١) في نسخة ب من تمرها.

(٢) لم أجد لقصة العير هذه سندًا صحيحًا، ولا أظنه يوجد.

(٣) حديث: يصبح على كل سلامى من بني آدم صدقة... إلخ. حديث صحيح، رواه الشيخان والطبراني بألفاظ غير لفظ الشيخ، ولفظ مسلم: «يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة»... إلخ. كما أورده السيوطي في جامعه بلفظ: «على كل سلامى من بني آدم في كل يوم صدقة»... إلخ. ورمز له بالصحة وفي رمزه ما يشير إلى أنه لم يخرجه إلا الطبراني في الأوسط وليس الأمر كذلك، والله أعلم.

وقال الله حاكيا قول قوم نوح: ﴿وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧] أى الذى لا حظ له فى سياسة الأمور ولا ممارسة الدهور، ولا له النظر فى العواقب ولا يستدل بالمشاهد على الغائب، لأن النفس لها أصل فى النكث والإباية[١] والخبث، فإذا فطمتها عن ثديى شهواتها، فلا تغفل، ولا تأمنها على مودتها، فإنها لا أمان لها بحال، ولا لها فى سبيل الحق من مثال، فبقدر ما تضيق عليها تنفسح لك، وبقدر ما توسع عليها تسوء أخلاقها وتركض بك، ولا غاية لها دون أن ترميك فى مهامه الضلالة، وترجع إلى عالمها من الشياطين فتمكنهم من ناصيتك مسلوب القوة ذاهب الحول والحيلة، إلا أن يتداركك الله بلطفه، فإن جهادها هو الجهاد الأكبر، قال الرسول ﷺ: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[٢] وذلك فى مرجعه من غزوة تبوك، فقالوا وما الجهاد الأكبر يا رسول الله قال: «جهاد النفس» والله إنها لأخبث من سبعين شيطانًا. فاقهرها بقيد الهمة، وافطمها بكم العزلة، وزمها بزمام الحكمة، واضربها بسوط الكتاب والسنة، وقُدْهَا بحبل التوبيخ والحساب، وضمرها بمضمار الزجر والعتاب، وشد عليها رحل العزم ببطان الحزم، واركبها بحرفة الشريعة، وسيرها فى ميدان الحقيقة، وقل إذا استويت على ظهرها: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣، ١٤] واجعل العقل سائسها، والروح ممارسها، والتقوى حارسها، والذكر شرابها، والحلم ترابها، بعد افتراش القتاد، ومنح المهج، وقطع الأكباد، فحينئذ تطمئن فتنادى من بساط القرب بعد زوال الحجب: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧ ـ ٣٠] فذلك أول قدم تضعه فى العبودية المحضة، وأول شراب تذوقه من

---

(١) الإباية: من الامتناع.

(٢) حديث رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد... إلخ. لا أصل له من كلام النبى ﷺ أخرجه الخطيب فى تاريخه بلفظ قدم ﷺ من غزاة فقال «قدمتم من خير مقدم، وقدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، قالوا وما الجهاد الأكبر قال: مجاهدة العبد هواه. اهـ. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٣٦٢ إلا أنه قال فيه: جهاد القلب. قال ابن حجر فى «تسديد القوس» هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن علية. اهـ. ثم قال: قال العراقى: رواه البيهقى بسند ضعيف عن جابر. اهـ (١/ ٥١١) كشف، والله أعلم.

خمرة الدنو والوصلة، فتنعكس أحوالها، وتزكو أعمالها، فتصير داعية إلى الخير، حائدة عن الغير، لا تخطر الشهوة لها ببال، ولا يحوم الهوى حولها فى حس ولا خيال، فيخف الدفاع، ويقل النزاع، وتفر عن الساحة القطاع، فيؤذن مؤذن التشريف على منار التعريف تبكيتًا لإبليس ذى الكيد الضعيف: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢، الإسراء:٦٥] فيقطع الأمن والسكون، ويحسن الرجاء والظنون، ويضمحل الشح والشجون، فيحدو بها حادى الشوق، ويقودها خريت[1] الذوق إلى حضرة القدس وشراب الأنس وقُرة العين بذهاب البين. وقد تم ما تحل إذاعته، وتنبغى إشاعته. طمح بنا إليه عنان القلم، ولو كان فى غاية الحسن والإمتاع فى المقام الأعظم[2].

قوله غدًا، اسم من أسماء يوم القيامة لتسمية الله له بذلك فى قوله: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر:١٨] والغد فى اللغة ضد الأمس، وإنما سمى غدًا لأنه غب[3] الدنيا، ولا ينقلب أمس.

قال الرسول ﷺ: «اليوم الرهان، وغدًا السباق، والغاية الجنة، والهالك من دخل النار».

قال الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥].

وفى البيت من البديع الاقتباس، إذ البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ إلى: ﴿تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠] وإن كانت إنما نزلت فى المشركين، فإن رسول الله ﷺ وأصحابه آثروا على أنفسهم وعملوا بمقتضاها رغبة فيما عند الله.

روى عن جابر[4] أنه اشترى من السوق لحمًا، فهو يحمله بين يديه إذ رآه عمر

---

(١) الخريت: الدليل الماهر.

(٢) فى المقام الأعظم زيادة فى النسخة (ب).

(٣) غب بالغين والباء. كذا فى النسختين والمعنى: أنه بعد الدنيا

(٤) جابر: هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى السلمى، أحد المكثرين عن النبى ﷺ كان مع من شهد العقبة، وقد غزا مع رسول الله ﷺ تسع عشرة غزوة ولم يشهد بدرا ولا أحدا

ابن الخطاب، فقال: ما هذا الذى تحمله يا جابر؟ قال: لحمًا اشتريته، اشتهيته فاشتريته، فقال: أو كلما اشتهيت يا جابر اشتريت، أما تخاف قوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وأخرج البخارى فى «تاريخه» عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف أنه أتى بطعام وكان صائمًا، فلما أتى به، بكى ولم يأكل منه شيئًا، فقيل له: ما منعك أن تفطر من هذا الطعام؟ فإنه طيب حسن الصنعة، فقال: أعلم ذلك، ولكن أخاف[1] أن تكون قدمت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا، ثم قال: قتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد ما يكفن فيه إلا بردة، ثم بسط لنا فى الدنيا ما بسط، وقد خشيت أن تكون قد عجلت لنا طيباتنا فى حياتنا الدنيا، ثم جعل يبكى حتى ترك الطعام.

وفيه من البديع أيضا التلويح فى قوله: ولا يوهن بداك بداء، فإنه يحذر مما يتولد من طواعية البدا من الوهن والفشل المؤديين إلى التوانى والكسل المؤديين إلى العجز والفقر.

قال الشاعر: (طويل)

فإن التوانى أنكح العجز بنته وساق إليها حين زوجها مهرا

فراشا وطيبا ثم قال لها انكحى سيولد بعد اليوم بينكما فقرا

ومنزلة البداء من الرأى كمنزلة الحماقة من العقل، فالبداء لسان الحماقة، كما أن الرأى لسان العقل.

قال الرسول ﷺ: «إذا أراد الله هلاك قوم فأول ما يفسد عليهم آراءهم، وعلامة فساده النزاع».

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦] فقيل المراد بالريح القوة، وقيل: الرأى، وقيل: الرعب الذى أمد الله به هذه الأمة، والصواب أنه الجميع.

= مات رضى الله عنه سنة ٧٨ هجرية ويقال غير ذلك وقد أوصى أن لا يصلى عليه الحجاج (١/ ٢١٤) إصابة.

(١) فى (ب) أخشى.

فأما الفشل، فمعروف، وهو الذى فُسر به قوله ﷺ فى قوله: «كأننى لهذه الأمة وقد احتوشها[١] عدوها يأكلها من كل جانب، كما يأكل القوم المائدة، فقيل أقليلون هم؟ قال: لا، بل كثيرون، قالوا: فما بالهم؟ قال: الفشل، قالوا: وما الفشل يا رسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت» وحقيقة الرأى: الفحص عن دقائق الأمور وحقائقها على وجه يستخرج به عواقب الأمور، وكمائن الدهور وقراءته المشورة، ومادته الذكاء والتثبت، قال الشاعر فى مدح من له رأى وبصيرة (طويل)

بصير بأعقاب الأمور كأنه ... يخاطبه من كل أمرٍ عواقبه

ولذلك قيل: الرأى السديد أحمى من البطل الشديد.

قال الشاعر: (كامل)

الرأى قبل تطاعن الفرسان ... هو أول وهى المحل الثانى[٢]

فلربما صرع الفتى أقرانه ... بالرأى قبل تطاعن الفرسان

وقال غيره: (بسيط)

وللتدابير فرسان إذا ركضوا ... فيها أبروا كما للحرب فرسان

وقال ﷺ: «ما استنبط الرأى الصحيح بمثل المشورة» ولذلك قال الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩] ليستجلب بذلك جدهم فيها، ويستخرج حدهم، وليؤلفهم ويبقى ودهم، ولأن فيهم البطل الشجاع، والسيد المطاع.

قيل: ما ازدحمت العقول على أمر إلا استنبطت منه الصواب. وليقتدى به من

---

(١) احتوشها: أحدق بها.

(٢) البيتان من قصيدة للمتنبى يمدح بهما سيف الدولة سنة ٣٤٥ هجرية، وصحة الأبيات كما فى الدواوين اليوم:

الرأى قبل شجاعة الشجعان ... هو أول وهى المحل الثانى

فإذا هما اجتمعا لنفس مرة ... بلغت من العلياء كل مكان

ولربما طعن الفتى أقرانه ... بالرأى قبل تطاعن الأقران

بعده من الأمراء من أمته، إذ ليس لهم من التأييد ما له، لينتظم بذلك أمرهم، ويجتمع شملهم، وتتحد كلمتهم، وتعظم شوكتهم، وتشتد على المشركين وطأتهم، ولذلك شرعت الجماعة فى كل يوم خمس مرات، ثم شرع جمع أعظم من ذلك فى كل أسبوع لصلاة الجمعة، ليعرف بعضهم بعضا، ولتخولهم الإمام بالموعظة، وليسمعوا الدعاء لغزاة المسلمين بالنصر، وليتأهبوا للجهاد ومعاداة الكافرين بالله، والدعاء لأئمة الإسلام القائمين بمصالح الأمة، ثم فى الأعياد على وجه الزيادة لله عز وجل، وإظهار قوة الإسلام لمن عسى أن يكون جمعه الوقت من جواسيس أعداء الدين، ومع هذا كله فليس كل أحد يشاور، وإنما يشاور أهل المشورات.

قال أبو الأسود الدؤلى(١): (طويل)

فما كل نصح بمؤتيك نصحه ... وما كل مؤت نصحه بلبيب

ولكن إذا ما استجمعا عند واحد ... فحق له من طاعة بنصيب

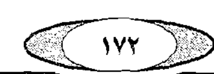
وقالت الحكماء: لا تشاور معلمًا، ولا راعى غنم، ولا كثير القعود مع النساء، ولا صاحب حاجة، ولا خائفا.

وقيل: إذا استخار ربه، وشاور صحبه، واجتهد رأيه، فقد قضى ما عليه، ويقضى الله فى أمره ما يحب.

وقيل سبعة لا ينبغى لذى لب أن يشاورهم: جاهل، وعدو، وحسود، ومراء، وجبان، وبخيل، وذو هوى، فإن الجاهل يضل، والعدو يريد الهلاك، والحسود يتمنى زوال النعمة عنه، والمرائى واقف مع رضا الناس، والجبان رأيه الهرب، والبخيل حريص على الجمع والمنع، ولا رأى له فى غير ذلك، وذو الهوى أسير هواه، فهو لا يقدر على مخالفته، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

---

(١) أبو الأسود الدؤلى: هو ظالم بن عمرو بن سفيان الدؤلى، واضع علم النحو، كان معدودًا من الفقهاء والأعيان والأمراء والشعراء والفرسان، من التابعين، رسم له على بن أبى طالب شيئًا من أصول النحو، فكتب فيه أبو الأسود. سكن البصرة فى خلافة عمر، وولى إمارتها أيام على، شهد صفين مع على، ولما تم الأمر لمعاوية قصده، وبالغ معاوية فى إكرامه، مات بالبصرة عام ٦٩ هجرية. أعلام (٣٤٠) جـ ٣.



● قال رحمه الله:

٢٢ ـ وَهَلْ لِفَتى مِنْ قَبْلُ دَامَ فَتاؤُه فَيُلْهِيكَ صِيرانُ النَّقَى ونَقَاءُ

الفتى بالقصر السرى[١]: الذكى المقدام الأمَّرة[٢]، والفَتاء بالمد شرخ الشباب وحداثة السن، والسلامة من الزمانة[٣]. فيلهيك أى يشغلك عن فكاك مهجتك بما ينجيها من العذاب غدا. صيران النقى بالقصر وهو اسم رمال ممرعة بين نجد وتهامة، وكانت أعراب مضر تتنافس الحلول برياضها ومن مياهه صداء الذى تضرب العرب الأمثال به لطيب مائه[٤] وهى ركية[٥] بأرض رواض[٦] فيحاء معشبة تبارى أرض اليمامة طيبًا وذكاء، وحسن منظر، وصحة هواء ينبت بها السعدان واليعضيد[٧] والأقحوان والجرجار[٨] وأنواع الحمض والبقول، وكانت تحتلها[٩] قبائل من مضر وقضاعة، فتأتيها قبائل بنى الحسحاس وبنى عذراء فى زى الشام والحجاز وعبس وذُبيان، وبنو الحارث فى زى نجد واليمن وأسد وغطفان، وبنو طىء فى زى السواد وتميم وضبة، والرباب فى زى البحرين والهند، كأنه موسم يجتمعون فيه يتفاخرون ويتباهون، وكانت تقصدهم حينئذ الشعراء من أقطار الأرض وأرباب الحاجات، فتعطى سادات العرب العطايا الجمة حتى يغنون المعدم وإنه لتأتى العصبة[١٠] ولا حاجة لهم إلا النظر إلى العرب وزيها وجياد خيولها ونجبها وحسن صورها وبراعة أشعارها وفصاحة خطبها، وتخرج نساؤهم متبرجات بزينتهن،

---

(١) السرى: السيد

(٢) الأمرة: الذى يستأمر كل أحد فى أمره أى يشاوره وهو بتشديد الميم.

(٣) الزمن: المريض والهرم.

(٤) فى النسخة (ب) بعد مائه. قال الشاعر:

مــا كل مــاء كصــداء لوارده كلا ولا كل مرعى فهو سعدان

(٥) ركية زائدة فى النسخة (أ)، ومعناها: البئر.

(٦) رواض: مكسوة بالنبات.

(٧) اليعضيد: الصف من النخل جمع عضدان، واليعضيض بقلة زهرها أشد صفرة من الورس، أو هى الشجر (٣ ـ ص٢٩٥) لسان.

(٨) الجرجار: الفول، والجرجير بقلة صحراوية لها أزهار صغيرة بيضاء.

(٩) كذا فى النسختين، ولعل الصواب تحل بها بدل تحتلها مع أن تحتلها صحيحة.

(١٠) العصبة: الجماعة.

وفتيانهم يتفاخرون وينشدون الأشعار، وتعزف عليهم القيان، حتى هدم الله ذلك بالإسلام وبقى ذكره فى التشبيب والغزل جريًا على عادة الشعراء إلى يومنا هذا.

والنقاء بالمد: النظافة والظرف والبهجة وحسن الرونق، ويطلق فيراد به نقاء الثوب من الأوساخ، ويطلق ويراد به سلامة العرض مما يدنسه، ويطلق ويراد به العفة.

قال الشاعر:

فقمنا من عفاف ولم ندنس بفاحشـــة ولا رثـة ثيـابنـا

وهذا البيت أيضا من جنس البيتين قبله فى التزهيد فى الدنيا، فالبيت الأول فى قوة النفي لتمام النعمة فيها لتنغيصها، والثانى فى قوة أن فيها نعيما جسيما لولا أن أعيانه تنقلب مضارا فى العقبى، وهذا فى قوة أنها لو تمت ولم تنقلب أعيان شهواتها مضارا، فإنها لا تدوم، وكل ما لا يدوم فالاشتغال به عبث، ولذلك قال: وهل لفتىً من قبلك دام دوام الفتوة فتطمع أنت فى البقاء، إذ كل ما جاز على المثل يجوز على مماثله، وحيث لا بقاء فلا نعمة، فأنت بين أمرين موت فى الشباب فلم تدرك من شهواتها شيئًا، أو بقاء إلى الهرم فتموت موتات.

كما قال الشاعر:

ولو أنها نفس تموت جميعها ولكنهـــا نفس تسـاقط أنفسا

يروى أن رجلا من ثقيف كان ذا نعمة وافرة، وقد أدرك السن، فسأله بعض التابعين عن النعمة، فقال: النعمة العافية، ومن لا عافية له لا نعمة عنده، قال: فزدني، قال: النعمة الصحة، ومن لا صحة له لا نعمة له، قال: زدنى، قال: النعمة الغنى، ومن لا غنى له لا نعمة له، قال: زدنى، قال: النعمة الشباب، ومن لا شباب له لا نعمة له، قال: زدنى: قال: لا أزيدك، وأقول أنا: النعمة اليقين، ومن لا يقين له لا نعمة له، والنعمة القناعة، ومن لا قناعة له لا نعمة له، والنعمة الورع، ومن لا ورع له لا نعمة له، والنعمة التقوى، ومن لا تقوى له لا نعمة له، والنعمة العلم بعد حصوله ومن لا علم له لا نعمة له، والنعمة حسن الخاتمة، ومن لم تحسن خاتمته لا نعمة له، والنعمة دخول الجنة، ومن لم يدخل

الجنة لا نعمة له، والنعمة النظر إلى وجه الله، ومن لم ينظر إلى وجه الله فلا نعمة له.

قال الشاعر: (كامل)

تبًا لدار لا يدوم نعيمها ومشيدها عما قريب يخرب

وحكى صاحب «المستطرف» أن الفضل بن يزيد قال: نزلت علينا بنو تغلب، وكنت مشغوفًا بأخبار العرب أن أسمعها فأجمعها، فبينما أنا أدور بين أخبيتها وفساطيطها، إذ أنا بامرأة واقفة بفناء خبائها، وهى آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله فى حسنه وجماله، له ذؤابتان كالسحم[1] المنظوم وهى تخاطبه بلسان رطب وكلام عذب، تحن إليه الأسماع، وترتاح له القلوب والطباع، وهو يبتسم فى وجهها، قد غلب عليه الحياء والخجل، لا يرد جوابا، فاستحسنت ما رأيت، واستحليت ما سمعت، فَسَلَمْتُ عليهما، فردا على السلام، فوقفت أنظر إليهما، فقالت: يا حضرى ما حاجتك؟ وهل استحسنت ما رأيت من هذا الغلام؟ فقلت نعم، فقالت يا حضرى، إن شئت سقت إليك من خبرى ما هو أحسن من منظرى، قلت: قد شئت، قالت: حملته والرزق عسير والعيش نكد حملا خفيفا، حتى إذا وضعته وشاء الله أن أضعه ـ وضعته خلقا سويا، فوربك ما هو إلا أن صار ثالث أبويه، تفضل الله عز وجل، وأتى من الرزق ما كفى وأغنى، فلما أتم رضاعه نقلته من جوف المهد إلى فراش أبيه، فَربَا وكأنه شبل، حتى إذا مضت له خمس سنين أرسلته إلى المؤدب، فحفظه القرآن، فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورغب فى مفاخر قومه وآبائه، فلما أن بلغ الحلم، واشتد عظمه، وكمل خلقه، حملته على عتاق الخيل، فتفرس وتمرس، ولبس السلاح، إذ نزلنا منزلا من منازل نجد، فوعك وقد نزلنا منزلا خصبا رحبا ذا مرافق ونزه، فلم يقم بالحى من الرجال غيره، منهم من يصطاد، ومنهم من يرتاد، ومنهم من خرج لمجرد النزهة، وكنا آمنين فما هو إلا أن أدبر الليل، وأسفر النهار، إذ طلعت علينا طلائع العدو، فما هى إلا هنيهة حتى أخذوا الأموال دون أهلها، وهو يسألنى عن الصوت، وأنا أكتمه الخبر إشفاقا

---

(١) كالسحم المنظوم، كذا فى النسختين والمعنى غير واضح.

عليه، وصيانة له، حتى إذا علت الأصوات، وخرجت المخدرات، رمى دثاره[١]، وثار كما يثور الأسد، وأمر بإسراج فرسه، ولبس لأمته، وأخذ رمحه، فحمل على جماعة القوم، فطعن أدناهم فقتله، ولحق بأقصاهم فقتله، فصد وحده الفرسان عن الحى، فجاءته الأمداد، فحملوا عليه فأقبل يؤم البيوت ونحن ندعو الله له بالسلامة، فلما اشتدوا فى أثره، عطف عليهم، ففرق شملهم، وبدد جمعهم، فقتل أكثرهم، ونادى أن خلوا عن المال، فوالله لا رجعتُ إلا به أو لأهلكن دونه، ثم انصرفت إليه الأقران، وتمايلت نحوه الفرسان، فوثب عليهم وهو يهدر كما يهدر الفحل، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمها، ولا كتيبة إلا هزمها، حتى لم يبق من القوم إلا من نجاه فرسه، فاستنقذ المال، وأتى به يسوقه، فكبر القوم عند رؤيته، وسمعته يقول فى وجوه القوم: (طويل)

تأملن هل تلقين فى الناس مثله
إذا حشرجت نفس الجبان من الكرب[٢]

وضاقت عليه الأرض حتى كأنه
من الخوف مسلوب العزيمة والقلب

ألم أعط كلا حظه ونصيبه
من السمهرىِّ اللدن والمرهف العضب

أنا ابن أبى هند بن قيس بن مالك
سليل المعالى والمكارم والحسب

أبى لىَ أن أعطى الظلامة مرهف
وطرف قوى الظهر والجوف والجنب

وعزم صحيح لو ضربت بحده الـ
ـجبال الرواسى لانحططن إلى الترب

(١) الدثار: الثوب يشتمل به، أو هو مما يلى الجسد.
(٢) هذا البيت فيه خطأ من حيث الوزن فى الشطر الأول منه.

وعــرض نقيٌّ أتقي أن أعيبــــــه

وبيت شريف في ذرى تغلب الغلـب

فإن لم أقــاتل دونكــن وأحتـمي

لكــن وأحميكنَّ بالطعن والضــرب

فمــــا قصـــد اللاتي ذهبن إلى أبي

يهنينـه بالفــــارس البطـل النــدب

ومثل هذا من مآثر العرب ومفاخرها يخرج عن قصد الاختصار، فرجعت إلى تحقيق معني البيت، وبيان ما اشتمل عليه من الاقتباس الذي هو أشرف فصول البديع، لأنه مقتبس من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [التين: ٤ ـ ٦] الآية، فالجهلة يحسبون الفتوة حداثة السن، وهيهات لم يسمعوا لها خبرًا، ولم يقفوا منها على أثر، بل هي إيثار الصاحب، وحسن الجوار، وصيانة الجار، وحسن العهد، والذب عن العشير، والكر خلف الفارين، والقيام عند منام القارين[١]، والصيام إن تنعم المتنعمون، وإنظار المعسر، وجبر حال المنكسر، والغيرة على الإسلام بالذب عنه والاحترام، وإكرام الضيف، وصلة الرحم، ولم شعث الأرامل، والحنو على القريب بالرأفة والترحيب، والإحسان إلى المملوك، والشفقة على العيال، وتولي الأمور الشاقة التي يتحاماها الناس.

قال الشاعر: (طويل)

* إذا عظم المطلوب قل المساعد[٢] *

فمن جمع هذه الخصال، فقد أتم الفتوة، وبقدر ما نقص منها ينقص من فتوته.

قال الشاعر: (بسيط)

---

(١) القار: المصاب بالبرد جمعه قارون.

(٢) هذا عجز بيت من قصيدة للمتنبي يمدح بها سيف الدولة، والشطر:

* وحيد من الخلان في كل بلدة *

إن الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبى

ومن الفتوة ما رثت به فاطمة بنت طريف الشيبانية أخاها الوليد بن طريف[1] فقالت: (طويل)

تبل هناك[2] رسم قبر كأنه على جبل فوق الجبال منيف
لقد حاز مجدًا عديما[3] وسؤددا وهمة مقدام ورأى حصيف
أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنًا وسيوف
ولا الذخر إلا كل جردام صلدم[4] وكل رقيق الشفرتين حليف
كأنك لم تشهد هناك ولم تقم مقاما على الأعداء غير خفيف
ولم تستلم يوما لورد كريسة من السرد فى خضراء ذات رفيف
فقدناك فقدان الربيع وليتنا فديناك من ساداتنا بألوف
وما زال حتى أزهق الموت نفسه شجى لعدو أو نجّى لضعيف
ألا يا لقومى للنوائب والبلى وللأرض همت بعده برجوف
ألا يا لقومى للحمام وللردى ودهر ملحٍّ بالكرام عنيف
وللبدر من بين الكواكب قد هوى وللشمس لما أزمعت بكسوف
ولليث كل الليث إذ يحملونه إلى حضرة ملحودة وسقيف
ألا قاتل الله الحثاحث[5] أضمرت فتى كان للمعروف غير عيوف

---

(١) الوليد: هو الوليد بن طريف بن الصلت التغلبى الشيبانى ثائر من الأبطال، خرج بالجزيرة الفراتية سنة ١٧٧ هجرية فى خلافة هارون الرشيد، وأخذ أرمينية، وسار إلى أذربيجان وأرض السواد، فسير إليه الرشيد جيشا بقيادة يزيد بن مزيد فقتله سنة ١٧٩ هجرية.

(٢) فى النسختين العبارة غير واضحة والذى يظهر لنا (تبل هناك).

(٣) الكلمة غير واضحة فى النسختين وأقرب شىء لها: عديما، لذا أثبتناها ومع ذلك فالوزن يختل وقد تكون: فى الأنام، أو كلمة أخرى غيرها والله أعلم.

(٤) الصلدم: الصلب الشديد الحافر.

(٥) الحثحثة: الاضطراب، والحثحاث: السير الذى لا وتيرة فيه والحثحاث السريع (ص ١٣٠ جـ ٢) لسان، ومع كل هذا فالعبارة غير واضحة.

فإن يك أرداه يزيد بن مـزيد ... فرب زحـوف لفهـا بزحوف

عليـك سلام الله وقفًا فإننى ... أرى المـوت وقّاعـا بكل شريـف

وقد عقد القشيرى فى رسالته للفتوة بابًا أتى فيه بالعجب العجاب، فالاسم من الفتوة الفتى، ومن الفتاء الفتى، قال الرسول ﷺ «أفضل اللحم لحم فتى الغنم» كما أن القلوص الفتية من النوق وقد يطلق على كرائم الإبل إناثًا كُنّ أم ذكرانا.

ويقال: شابة فتية، وغلام فتى: إذا وصفا بشرخ الشباب، ولا يقال: فتىً ولا فتاة، إلا لمن فيه خصال تُعجز أقرانه، قالت الصحابة يوم فتح خيبر: لا فتى إلا على، ولا سيف إلا ذو الفقار.

وقال صخر حين أتته الخنساء[1] تطلب منه أن يعطيها مائة ناقة كوماء، وقد أعطاها قبل مائة ناقة فأتلفها عليها زوجها الأخرم، فقالت له زوجته سليمى: أما هذه فلا تكاد تدع لنا ثاغية[2] ولا راغية، فقال: إنه ليس بكثير فى مثل الخنساء، ثم أنشد فقال: (رجز)

وكيـف لا أمنحهـا خيـارها ... وهى فتاة قد كفتنى[3] عارها

إذا أموت مزقت[4] خمـارها ... وجعلت من شعرها شعارها

ثم قال: اذهبى يا خنساء فخذى من إبلى ما اشتهيت، واتركى ما كرهت، فقالت: إنها مائة ناقة كوماء، قال: وإن ـ فلا تخافى نكثًا ما بقى بيدى نشب، ثم غزا بنى خزيمة فاكتسح إبلهم، فأدركه الطلب، وانهزمت بنو سليم فحماهم، فطعن فأضنى منها وطال سقمه حتى ملته زوجته سليمى، فخرجت عنه ذات يوم

---

(١) الخنساء هى تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد السلمية أشهر شواعر العرب وأشعرهن على الإطلاق، عاشت أكثر حياتها فى الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت، وكان لها أربع بنين حرضتهم على الثبات فى القادسية حتى قتلوا جميعا، فقالت: الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم. ولما وفدت على النبى ﷺ مع قومها كان يستنشدها ويعجبه شعرها. أجود شعرها رثاؤها لأخيها صخر هذا، توفيت سنة ٢٤ هجرية.

(٢) الناغية: الشاة. والثغاء: صوت الشاة

(٣) فى (ب) قد كفتها.

(٤) فى (ب) فرقت بدل مزقت.

تظنه نائمًا، فلقيها رجل من قومه، فقال لها: ما صنع صخر، فقالت له: لا حى فيرجى، ولا ميت فينعى، ثم قال لها: متى يباع هذا الكفل؟ قالت: عن قريب، وذلك كله بإذنه، فهم بقتلها، وقال فى نفسه: والله لأقدمنك أمامى، فلما دخلت عليه، قال لها: ناولينى سيفى لأجرب نفسى هل أستطيع هزه؟ فناولته إياه، فلم تقله يده فقال: (الطويل)

أهم بأمر الحزم لو أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

لعمرى لقد أيقظتُ من كان نائما وأسمعت من كانت له أذنان

فأى امرئ ساوى بأم حليلة فلا عاش إلا فى شقًا وهوان

أرى أم صخر لا تَمل عيادتى وملت سليمى مضجعى ومكانى

وما كنت أرجو[1] أن أكون جنازة عليلا ومن ذا الذى يغتر بالحدثان

فلم ينشب أن مات فحزنت عليه أخته الخنساء بنت الشريد حزنًا صار مثلا، ورثته بمراثى كثيرة، من جملتها قصيدتها المشهورة التى مطلعها: (بسيط)

يا صخر وراد ماء قد تناذره أهل المياه وما فى ورده عار

إلى أن قالت:

وإن صخرًا لوالينا وسيدنا وإن صخرًا إذا نشتو لَنَحَّار

جوَّاب قاصية جزَّاز ناصية عقَّاد ألوية للجيش جَرَّار

وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم فى رأسه نار

سهل الخليقة محمود الطبيعة ميمون النقيبة نفَّاع وضرار

لم تره جارة يمْشى[2] بساحتها لريبة حين يخلى بيته الجار

ثم عاشت بعده حتى أدركتها الرسالة، فأسلمت وحسن إسلامها، وقد غنت[3] لفتوتها. وكان رسول الله ﷺ يدنيها ويكرمها، وكذلك أصحابه من بعده، وقالت

---

(١) فى النسخة (ب) وما كنت أخشى.

(٢) فى (ب) يسعى.

(٣) كذا فى الأصلين وفى الكلام حذف.

لها عائشة رضى الله عنها: ما هذا الحزن يا خنساء فى الإسلام؟ فقالت: كنت أحزن عليه فى الجاهلية حيث لا علم لى بجنة ولا نار، فكيف لا أحزن عليه الآن وقد علمت أنه صار جمرة من جمر جهنم.

وكيفية تضمنه أن الله لما خلق نوع الإنسان كافره ومؤمنه فى أحسن تقويم لشرف صورته وحسن تركيبه واشتركا فى الفتاء المتضمن الاقتدار على الفتوة، فجمع المؤمن الفتوتين، فدامت له فتوته شبابا وشيبا، ودنيا وآخرة، وذلك حقيقة الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:٦] لأن ثواب أعمالهم لا ينقص بهرم ولا مرض، كما أنه لا ينقطع بموت، قال رسول الله ﷺ: «من كان على عمل صالح فمنعه منه مرض أو هرم، كتب الله له الأجر تاما». وقال ﷺ «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[(١)].

وأما الكافر والفاجر، فبذهاب فتائه تنقطع فتوته فيخرف عقله، وينتكس قوامه، وتوهن قوته، وتنعدم بشاشته، ويمله أبناؤه، ويبغضه أحباؤه، وتنكره زوجته، وتتمنى موته إخوته فيندم حين لا ينفع الندم، ويكون خيراً من وجوده العدم، إذ فاتته الدنيا ولم يقدم زادا، وييئس أن يجد إلى الدنيا التى أفنى فيها فتاءه واستفرغ فيها قوته معاداً، فيبقى ذلك الألم كامنًا فى نفسه حتى إذا عاين ما أعد له من العذاب قال: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩، ١٠٠] فيقال له: كلا لا سبيل إلى الرجوع، إنها كلمة هو قائلها، لا فائدة تحتها، لأنه لو رجع إلى الدنيا لم يعمل إلى ما كان يعمل قبل، لتحتم الشقاء عليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨] وذلك معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين:٥] لأنه رأى وبال أمره فى الدنيا بالعجز والهرم، وفى العقبى بالعذاب والندم.

---

(١) حديث إذا مات ابن آدم وفى رواية الإنسان. حديث صحيح رواه مسلم فى باب ما يلحق الإنسان بعد موته، كما رواه أبو داود والنسائى والترمذى والبخارى فى «الأدب» وأورده صاحب «الكشف» تحت رقم ١٢٧٧، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم (٨٥٠) ورمز له بالضعف وهو وهم منه والله أعلم.

وأما تركيب البيت، فإن الاستفهام فيه بمعنى النفى، فيكون معناه: لم تدم الفتوة ولا الفتاء لأحد قبلك فتطمع أن تدوم لك حتى تشتغل بزخارف الدنيا وتزهو باستحسان النقاء عن مهمات الأمور وفكاك المهج، قال ﷺ: «كل الناس يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها»[1].

والبيت أيضا مركب على الكناية المعنوية، وهى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء:٣٤] وهو أحسن ما يكون من أسلوب البديع، وأعز ما يجاء به فى جودة المعانى، والله الموفق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

* * *

• قال الناظم:

٢٣ ـ خسًا وزَكى تُفْنى المنُونُ زَكاءَ ذِى   زكــاءٍ وَيحدُوهَـا عَسًا وعَسَاءُ

قوله: خسًا وزكى، حالان من زكاء ذى زكاء، والمعنى: تُفنى المنون زكاء صاحب زكاء فى حال كونه مفردا وزوجا، بمعنى أنها تستأصله وتقطع شأفته، فإذا كان ذلك كذلك فإنه ينبغى للعاقل اللبيب رفع همته عن كل ما كانت إلى الفناء عواقبه، ولو كانت تستمر حالته الحسنى، فكيف وهى مهيأة للعسى والعساء الحاديين به حثيثا إلى الموت والفناء، فالخسا الفرد فى لغة ربيعة، ولذلك سميت قرية الحسا لانفرادها عن القرى بين البحرين، والسواد فى بادية تميم، وزكى ضد الفرد، والزكاء النماء، ويطلق ويراد به الفوز والفلاح، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١] ويطلق ويراد به الصدق والمروءة، ومنه تزكية الشاهد، ويطلق ويراد به الطهر، ومنه طهرةُ المال بالزكاة.

والعسى بالقصر: الغلظ والاستواء وبلوغ الغاية، يقال: عسا النبت والحسر يعسو عساء فهو عسى على وزن غَنى، والعساء بالمد: غاية الهرم، يقال: عسى الشيخ يعسى عسى: إذا هرم، وفى البيت من البديع الاستعارة، لأنه استعار

(١) حديث «كل الناس يغدو فبائع نفسه». جزء من حديث صحيح رواه مسلم فى أول كتاب الطهارة، وأوله «الطهور شطر الإيمان» كما رواه ابن ماجه وأحمد والدارمى.

للإنسان مثلاً من الزرع والنبات اللذين هما أخواه حالاً ومآلاً، فكما أن الزرع إذا تم واستوى وأفرك فقد دنا حصاده، كذلك الإنسان إذا أدبر شبابه وبدا شيبه وانتهت قوته فقد دنت منيته، فليتأهب لها أهبتها بالزاد والاستعداد، إذ قد دنا إبان الحصاد.

فالبيت مركب على معنى البيت السابق.

قال الشاعر: (متقارب)

إذا تم شيء بدا نقصه   توقع زوالاً إذا قيل تم

يروى أنه لما نزل على رسول الله ﷺ ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة:٣]، سُرَّ بذلك سائر الصحابة، إلا أبا بكر رضى الله عنه، فإنه حزن حتى بكى، فقالوا: مالك يا أبا بكر يبكيك ما يسر الناس؟ فقال لهم: ما تم شيء قط إلا نقص، فإنه فهم من ذلك نعى رسول الله ﷺ، فما عاش بعدها رسول الله ﷺ إلا أربعة أشهر[١].

ويروى عن عمر رضى الله عنه أنه بينما هو ذات يوم فى المسجد، إذ جاءه حبر من أحبار يهود، فقال له: يا عمر إنى سمعت رجلاً من المسلمين يتلو آية من كتابكم لو علينا نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له: أى آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة:٣] فقال: إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه، والساعة التى أنزلت فيها، أنزلت يوم الجمعة عند الزوال من يوم عرفة والنبى ﷺ يخطب.

والاقتباس فى هذا البيت إنما فيه التلميح إلى معنى هذه الآية الشريفة التى هى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية [المائدة:٣].

---

(١) أقل من أربعة أشهر حيث نزلت يوم عرفة وتوفى ﷺ فى الثانى عشر من ربيع الأول فتكون المدة ثلاثة أشهر على التحقيق، ورويت قصة شبيهة بقصة أبى بكر هذه، وهى أنه لما نزلت سورة ﴿إذا جاء نصر الله﴾، قرأها النبى ﷺ على أصحابه، ومنهم أبو بكر وعمر وسعد بن أبى وقاص: ففرحوا واستبشروا، وبكى العباس، فقال له النبى ﷺ: «ما يبكيك يا عم؟» قال: نعيت إليك نفسك، قال: «إنه لكما تقول» فعاش بعدها ستين يوماً، ما رؤى فيها ضاحكاً مستبشراً، أورد هذه القصة أبو عبد الله القرطبى فى تفسيره (جـ ٢٠ ص ٢٣٢).

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ الآية [النور:٢١] فإنما جلبها الاشتراك. وهى من مشكلات كتاب الله عز وجل[١].

* * *

● قوله:

٢٤ ـ أَصَابَ الضَّنَى ذَاتَ الضَّنَاءِ وبَعلَها
فَمَاتَا وَلَمْ يَنفَعْ حمى وَحَمَاءُ

قوله: أصاب، بمعنى قصد ولم يطش. الضنى بالقصر المرض المزمن الذى كلما ظن برء صاحبه نكس، وقيل: المرض المخوف، وقيل: هو المرض الذى لا يمهل، وربما كان من حرارة انعكاس المصيب[٢] كقصة أنيس رضى الله عنه لما بلغه وفاة رسول الله ﷺ أضنى فمات مكانه كما فى «المواهب»، والضنى: فاعل أصاب ذات صاحبة الضناء بالمد، وهى المرأة العزيزة ذات النسل الكثير، كأم قرفة زوجة حذيفة ابن بدر الفزارى، وكانت العرب تضرب المثل السائر فى عزتها حتى قالوا: أعز من أم قرفة، ومن عزها أنه يعلق فى بيتها سبعون سيفًا كل لها محرم فلم يغن ذلك عنها شيئا، وقد قتلت فى بعض غزوات أصحاب رسول الله ﷺ، أصابها سهم غرب[٣] فقتلها، فما انتطح فيها عنزان، وأما بعلها حذيفة، فقتلته بنو عبس يوم الهباءة فى عصبة من أهل بيته، ومثل به لحنقهم عليه، وكان يقال له رب معد لشرفه ومنعته فى قومه، وكان يكفل أيتام غطفان كلها مع كثرة عددهم، فمات ولم ينفع فى دفع المنية عنه ولا عنها.

حمى بالقصر وهو أخو زوج المرأة، وأخو الزوجة، أو كل حميم، أو هو عامة الأقارب من الطرفين.

وحماء بالمد، وهو الفداء، والبيت لا يختص بهما، بل هو شامل لكل ذى قوة ومنعة، وفى هذا اليوم يقول قيس بن زهير لما قتلهم: (وافر)

---

(١) لا إشكال ولله الحمد فى الآية، والعبارة قبلها غير واضحة.

(٢) [illegible]

(٣) [illegible]

تعلم أن خير الناس ميتا على جفر الهباءة لا يريم
ولولا ظلمه مازلت أبكى عليه الدهر ما طلع النجوم
ولكن الفتى حمل بن بدر بغى فالبغى مرتعه وخيم
رأيت[١] الحلم دل عليَّ قومى وقد يُستَجهل الرجل الحليم
ومارستُ الرجال ومارسونى فمعوج عليَّ ومستقيم

وفيه من البديع الاقتباس، لأنه مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨] تداركنا الله بلطفه آمين.

وله من الأحاديث قوله ﷺ لما سئل عن أخى الزوج: هَل يدخل بيته كعادة العرب، فقال: «إنما الحمو الموت» فكررها حتى ظهر فى وجهه الغضب[٢].

وفيه أيضًا قوله ﷺ: «إن الله يحمى عبده الصالح من الأعمال كما يحمى أحدكم مريضه من الماء» قالوا: ولم يا رسول الله؟ قال: «يخاف عليه ما هو أشد، وهو العجب العجب العجب»[٣].

* * *

● **قال الناظم:**

٢٥ ـ وَلَم يُنْجِ جَلْوَى رَبَّ جَلواءَ جُودُهُ يُبارِي الجَـدَى فالنَّيْلُ منـهُ جَـدَادُ

جلوى بالقصر: فرس من كرام الخيل كالعصا وذى العقل، وجلواء بالمد: الجلح، وهو اتساع الجبهة من غير أن يكون أغم، وهو أحسن ما يكون.

---

(١) فى أيام العرب: «أظن الحلم» بدل «رأيت» وهو الصحيح.

(٢) حديث «إنما الحمو الموت» جزء من حديث متفق على صحته أخرجه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى، ولفظ الشيخين: «إياكم والدخول على النساء، فقال رجل من الأنصار يا رسول الله أفرأيت الحمو قال الحمو الموت».

(٣) حديث «إن الله يحمى عبده»... إلخ. رواه الترمذى وحسنه، والحاكم وصححه، لكن بلفظ: «إن الله يحمى عبده من الدنيا وهو يحميه كما يحمى أحدكم مريضه من الطعام والشراب». أما لفظ الشيخ فلم أجده، وأورده صاحب الجامع بلفظ «إن الله يحمى عبده المؤمن كما يحمى الراعى الشفيق غنمه من مراتع الهلكة» ورمز له بالضعف وقال شارحه المناوى: فيه الحسين الجعفى قال الذهبى: مجهول متهم، والله أعلم (٢٩٨ جـ ٢) فيض.

قال الشاعر: (بسيط)

* صلع الوجوه وسيما السادة الصلع[1] *

وقال غيره: (طويل)

فلا تنكحى إن فرق الله[2] بيننا أغم القفا والوجه ليس بأنزعا

والجدى بالقصر: المطر، وقد تقدم ما فيه، والجداء بالمد: كثرة الجود، لأن الجداء ضرب عدد فى مثله، فلا يكون إلا كثيراً. والمعنى: لم ينج الفرس المسمى بجلوى ربه ربَّ الجبهة الواسعة الذى كان يبارى بجوده وكرمه المطر العام.

والنيل بفتح النون وسكون الياء: العطاء الواسع، والمقصود أن المنية لا تبقى على أحد بسبب ما عنده من نفيس المتاع وكريم الأوصاف، فلا تعتد بشىء من ذلك، فإنه لا ينجيك منه كما لا ينجى جلوى ربها، وهو كما هو فى الحسن الذاتى، والكرم الطبيعى.

لم ينج جازم ومجزوم، وجلوى فاعله، ربه مفعول به. فالنيل مبتدأ، وفاؤه استئنافية، منه جار ومجرور متعلق بالنيل، وجداء خبره، والمباراة المجاراة على وجه المبالغة.

قال الشاعر: (كامل)

باتت تبارينى البكاء [illegible] ورقَاءُ تصدح من فراق هديل

فكأنها تدرى الذى بجوانحى وكأننى ألجو لها بدليل

وفيه من البديع التلويح وهو أعلى فى الدلالة من التلميح وذلك بقوله: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩].

قال الشاعر: (بسيط)

لا شىء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله ويفنى المال والولد

لم تُغن عن هرمز يوما خزائنه والخُلد قَد حاولت عاد فما خلدوا

(١) ورد هكذا فى النسختين أ و ب.

(٢) فى ب الدهر.

ولا سليمان إذ تجرى الرياح له ... والطير والجن فيما بينها برد

أمست منازلهم منهم معطلةً ... كأنهم ما بنوا يوما وما حشدوا

حوض هنالك مورود بلا كذب ... لابد من ورده يوما كما وردوا

أين الملوك التى كانت لعزتها ... من كل أوب إليها وافد يفد

وفيه من صريح البديع الاستطراد، وهو أن يتقل المتكلم من الفن الذى أخذ فيه إلى ما يتصل به لمناسبة بينهما ثم يرجع إلى ما كان فيه على وجه يحسن إيراده، وذلك أن المصنف قصد أولا التزهيد فى الدنيا، ثم استطرد لذلك بذكر جلوى وراكبها، فمدحه بكرم الطبع وجمال الصورة وجودة الزى[1] ثم رجع إلى ما قصده أولا من التزهيد في الدنيا ببيان أن ما ذكره لا فائدة له فى دفع الموت وتأخيره، ولا فائدة له فى تنفيس كربته وسكراته. فصار لذلك قد أتى بنوع من الوعظ والتزهيد أقرب إلى الأخذ بمجامع القلوب مما كان شرع فيه أولا، وفيه قول السموأل[2] بن عادياء: (طويل)

ونحن أناس لا نرى القتل سبة ... إذا ما رأته عامر وسلول

يقرِّب حب الموت آجالنا لنا ... وتكرهه آجالهم فتطول

وذلك أن السموأل مدح قومه بأنهم لا يرون القتل عارا، ولا يعدونه عيبا لشجاعتهم وجلدهم عند ملاقاة أقرانهم، ثم خرج عنه إلى هجو قبيلتى عامر وسلول ابنى صعصعة بضد ذلك، ثم رجع إلى ما كان آخذا فيه من مدح قومه بالشجاعة فقال: يقرب حب الموت. . . إلخ. وفائدته إظهار فضل قومه على هاتين القبيلتين، ونظيره قوله الآخر: (طويل)

إذا ما اتقى الله امرؤ وأطاعه ... فليس به بأس وإن كان من جرم

ألا ترى أنه أخذ فى فن المواعظ والزهد، ثم خرج منه إلى قبيلة جرم، ثم

---

(١) الزى: اللباس.

(٢) السموأل: هو السموأل بن غريض بن عادياء، شاعر جاهلى حكيم من سكان خيبر شمال المدينة، وكان إلى حصن يسمى الأبلق، وإليه تنسب قصة الوفاء مع امرئ القيس مات نحو سنة ٦٥ قبل الهجرة (٢٠٤ ص٤ جـ) أعلام، والله أعلم.

الاستطراد على ثلاثة أضرب، ضرب غير مقصود ابتداء، وليس فيه تقوية لما قبله كما فى البيتين المتقدمين، وضرب غير مقصود ابتداء، ولكنه أتى به تقوية لما قبله وتأكيدا له، وذلك كقول جرير[١] يهجو أم الفرزدق[٢]:

بها برص بأسفل أستيها[٣] كعنفقة الفرزدق حين شابا

لأنه هجا أولا أمه، ثم استطرد هجوه، وفيه زيادة لهجوها وتأكيد له، وضرب مقصود ابتداء، وإنما يؤتى بما قبله ليتوصل به إليه، كقول أبى إسحاق الصابى: يمدح سيف الدولة: (كامل)

إن كنتُ خنتك فى المودة ساعة فذممت سيف الدولة المحمودا

وزعمت أن له شريكا فى العلى وجحدته فى فضله التوحيدا

ألا ترى أن المقصود إنما هو مدح سيف الدولة، وإنما آتى بما قبله ليتوصل به إليه والأقرب أن يكون المستطرد به وصفا[٤] لعلى رضى الله عنه وتفجعا عليه، كما فى «الدر المنثور» لأبى تميمة[٥] الطائى لما أتاه نعى على بن أبى طالب رضى الله عنه

---

(١) جرير: هو جرير بن عطية بن حذيفة اليربوعى، أشعر أهل عصره، ولد ومات باليمامة، عاش يناضل شعراء زمنه، وكان هجاء فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل، له ديوان شعر مطبوع مات عام ١١٠ هجرية.

(٢) الفرزدق: هو همام بن غالب بن صعصعة التميمى الشهير بالفرزدق، شاعر من النبلاء من أهل البصرة، عظيم الأثر فى اللغة، يقال: لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث اللغة العربية، وهو صاحب الأخبار مع الأخطل وجرير، ومهاجاته لهما أشهر من أن تذكر، كان شريفا فى قومه عزيز الجانب لا ينشد الشعر إلا جالسا، له شعر مطبوع فى ديوان، وله كذلك نقائض جرير مع الفرزدق فى ثلاث مجلدات مات عام ١١٠ هجرية.

(٣) فى ب اسكتيها وهو تصحيف.

(٤) كذا فى الأصلين والكلام ناقص.

(٥) ليست هذه القصيدة لأبى تميمة هذا وإنما هى لأبى محمد عبد الله بن أيوب التميمى يرثى بها يزيد بن مزيد الشيبانى، وقد استبدل الشيخ رحمه الله كل اسم ليزيد فى القصيدة بعلى كما استبدل كلمة ربيعة بقريش فى قوله:

لقد عزى ربيعة إن يوما .... إلخ

والقصيدة طويلة أوردها بتمامها صاحب الأغانى فى ترجمة يزيد (١٨/ ١١٥) كما أوردها صاحب العقد الفريد (٣, ٢٩٣) والله أعلم.

تفجع عليه بقصيدته التى لم يسمع السامعون مثلها حلاوة ولا طلاوة ولا جودة ولا غزارة معنى، جمعت دررًا من البديع، وغررًا من البيان، أولها قوله: (وافر)

أحقًا أنه أودى علـى ... تأمل أيها الناعى المشيد
أتدرى من نعيت وكيف فاهتْ ... به شفتاك كان لها الصعيد
أحامى المجد والإسلام أودى ... فما للأرض ويحك لا تميد
تأمل هل ترى الإسلام مالت ... دعائمه وهل شاب الوليد
وهل شيمت سيوف بنى نزار ... وهل حطت عن الخيل اللبود
وهل تُسقى البلاد عشار مزن ... بدرتها وهل يخضر عود
لقد هزت بمصرعه نزار ... بلى وتقوَّض المجد المشيد
وحل ضريحه إذ حل فيه ... طريفُ المجد والحسب التليد
أما والله لا تنفكُّ عينى ... عليك بدمعها أبدًا تجود
فإن تجمد دموع لئيم قوم ... فليس لدمع ذى حب جمود
أبعد على تختزن البواكى ... دموعًا أو تصان لها خدود
لتبكيك قبةُ الإسلام لما ... وهت أطنابها ووهى العود(١)
ليبكيك معتر لم يبق دهر ... له نشبًا وقد ضنَّ المعيد(٢)
فمن يدع الخميس إذا تعَايا(٣) ... بميلة نفسه البطل النجيد
ومن يدع الأنام لكل خطب ... يعم وكل معضلة تئود(٤)

(١) هذا البيت هكذا هو فى النسختين.
(٢) فى (ب): ويبكيك معتر. والبيت مختل وزنه.
(٣) تعايا عليه الأسر: أعجزه. ويروى البيت: ومن يحمى الخميس ـ بدل: فمن يدع الخميس.
(٤) تئود: تثقل أو تشق.
والبيت حسب رواية العقد الفريد:
ومن يدعو الإمام لكل خطب ... يخاف وكل معضلة تئود
وكذلك البيت الذى بعده:
ألم تعلم أخى أن المنايا ... غدرن به وهن له جنود

ألم تعجـــب له أن المنايا فتكن له وهـن له جنُود
لقـد عزّى قريشا أن يومـا عليهـا مثل يومـك لا يعود

انتهى.

* * *

• ثم قال رضى الله عنه:

٢٦ ـ وَكَمْ ذي دَوى عَافَ الدَّوَاءَ وذِي سَرى بِقَوسِ سَراءٍ حُبَّ فَهُوَ مُبَاء

قوله: وكم من لوازم الإضافة بمعنى التكثير، ذى بمعنى صاحب، دوى أى مرض، وهو اسم استخرجته العرب من وصف، لأنهم يقولون: داء دوى، بمعنى عضال ولم يعرف له فعل، إلا أن يكون عن وزن من أوزان المبالغة، قال الرسول ﷺ لما سأل قومًا من الأنصار عن سيدهم، فقالوا: سيدنا فلان لولا بخل فيه، فقال لهم: أى داء أدوى من البخل[1]. والدواء بالمد لغة فى اللبن، لأنه أسرع فى شفاء المرضين معا أعنى الجوع والعطش، ولما ذكره الله مدحه بخصلتين فقال: ﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦].

ولما سمع بعض الحكماء هذا قال: لا يخاف منه الغصص.

وكان ﷺ كلما طعم طعامًا، قال: «اللهم بارك لنا فيه، وارزقنا خيرًا منه». وإذا شرب اللبن قال: «اللهم بارك لنا فيه، وزدنا منه»[2].

ولما أتى ليلة الإسراء بإناء من ماء، وإناء من عسل، وإناء من خمر، وإناء من لبن، اختار اللبن لسلامته من الآفات، فقال له جبريل: أصبت الفطرة، أصاب الله بك، أما إنك لو أخذت إناء الخمر لغَوتْ أمتك، ولو أخذت إناء العسل لاختارت

(١) حديث: «أى داء أدوى من البخل»، جزء من حديث رواه الحاكم فى مستدركه كما رواه الطبرانى فى الصغير له ولفظه عند الحاكم: من سيدكم يا بنى سلمة» قالوا الجد بن قيس، إلا أن فيه بخلا قال: وأى داء أدوى من البخل، بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور. قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، ،أقره الذهبى سكوتًا (جـ ٣ ص ٢١٩) مستدرك. أما رواية الطبرانى والتى فيها «بل سيدكم عمرو بن الجموح» فقد حسنها العراقى فى تخريج الإحياء «جـ ٣ ص ٢٤٩» والله أعلم.

(٢) «حديث أن النبى ﷺ كان إذا أكل طعامًا»... إلخ. رواه أبو داود والترمذى وحسنه، وسكت عليه العراقى فى «تخريج الإحياء» (٢/ ٧) والله أعلم.

أمتك الدنيا على الآخرة، ولو أخذت إناء الماء لغرقتْ أمتك، وأما إذ وفقت فأخذت إناء اللبن فإنك قد رشدت ورشدت أمتك.

ومن رأى في المنام أنه يشرب لبنًا، فإنه ينال علما إن كان بصدد ذلك، وإلا فشفاء إن كان به مرض أو دين، لأنه يوافق الفطرة، والمتغير بحموضة أو نحوها مال، وإن كان في سقاء فإنه فقه أو نحو أو لغة من المعقولات، وإن جهل اللبن فعلمٌ، ولبن الإبل والغنم علم، ولبن البقر خصب، وأموال وشفاء، ولبن الخيل غنيمة، ولبن الحمير والبغال أموال لا تحل، ولبان السباع أموال تنال من أيدي الظلمة والملوك، وألبان الوحوش ضلال، ومن رأى أنه يستخرج لبنا مما لا لبن فيه، كالطير، فإنه يبتدع، ولبن بنات آدم أفضل الألبان في الرؤيا، ومن رأى لبنه استحال ماءً أو طعاما، فإنه يأخذ الرشا، ومن رأى نفسه أو غيره يتجرعه ولا يكاد يسيغه، فإنه لا يجد فائدته وحلاوته، وربما حرمه، ومن رأى عين لبن تفجرت له من الأرض حتى صارت أنهارًا، فإن الله يؤتيه علوما لدنيات ينتفع به العالم، ومن رأى أنه يرد اللبن في الضرع، فإنه يحاول ما لا يمكن، ومن رأى نفسه يشربه ويتقيؤه، فإن كان في إناء، فإنه ينتفع بعلمه ويؤخذ عنه، وإن كان إنما يتقيأ بالأرض، فإن علمه يضيع، وإن رأى كلابا تلغ فيه، فإنه يتعلمه عليه من لا يستحقه ممن لا خلاق له[1].

قوله: وذي سرى، أي وكم صاحب سرى بالقصر وهو السرى، والسرى من حاز قصب السبق في جميع المكارم، كعيسى ابن مريم، قال الله تعالى مبشرًا لأمه مريم، ومعنى مريم في العبرانية العابدة: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]. والسرى في أصل اللغة: النهر الجاري. واختلف في السرى والفتى، فقيل لفظان مترادفان، وعليه الأكثر من محققي اللغويين وأرباب الاشتقاقات، وقيل: السرى يزيد على الفتى، لأن الله لم ينعت في كتابه بالسراوة غير عيسى، فقد مدح كل نبي بما فيه، فصارت السراوة من جنس معجزاته الخارقة للعادة، كإحياء الميت، وإبراء الأكمه والأبرص، ووجوده من غير ذكر، وكلامه في المهد، وإتيانه الحكمة صبيا.

(١) لا أدري من أين هذه العلوم المفصلة.

قوله: بقوس سراء. القوس معروف، وعبر به عن السهم، إذ لا يُشك إلا به، والسراء بالمد: شجر النبع، وهو من أصلب الأشجار وأنضرها، ولا ينبت إلا على قنن[١] الجبال.

قوله: حب، أى أصيبت حبة قلبه، فهو مباء، أى محمول متهيئ لأن يغسل ويكفن ويدفن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦].

وقوله: عاف الدواء، استعارة عن عيافة أهل الأهواء لدين الله، ورغبتهم عنه مع ما فيه من قُرة العين ومكافحة[٢] الأنوار، والأنس بالعزيز الجبار، وما ذلك إلا لما جعل الله فى قلوبهم من مرض النفاق، وضعف المعاصى، والشقاق، كما يعاف ذو المرض الصفراوى ألذ الأشياء وأشهاها إلى النفوس، كالماء واللبن، وفى ذلك يقول البوصيرى بَرَّد الله ضريحه: (بسيط)

قد تنكر العين ضـوء الشمس من رمـد

وينكر الفم طعم المـــاء مـن سقم

وقال غيره[٣]: (وافر)

ومن يك ذا فم مر مريض   يجـــد مراً به المـاء الزلالا

وربما كان اللبن كناية عن العلم، لأن نفوس الجهلة تمجه وتزدريه، وتستبعد تحصيله، مع ما فيه من لذة العاجل والآجل، قال الرسول ﷺ «منهومان لا يشبعان، طالب دنيا، وطالب علم، ولا سواء، فطالب العلم لا يزداد من الله إلا قربا، وطالب الدنيا لا يزداد من الله إلا بعدا»[٤].

قال الشاعر:

وقـــد يرى الجاهل فى جهله   مـا يرى العالم فى علمه
هذا يرى الإحسان فى رشده   وذا يرى التوفيق فى جرمـه

(١) القنن: جمع قنة: رأس الجبل.
(٢) مكافحة الأنوار، كذا فى الأصلين، والكلمة لا تناسب المقام.
(٣) غيره هو أبو الطيب المتنبى.
(٤) حديث منهومان لا يشبعان: تقدم تخريجه.

وفى المثل السائر: من جهل شيئًا عاداه.

قال الشاعر: (الوافر)

فمنزلة السفيه من الحليم كمنزلة الحليم من السفيه

فهذا زاهد فى مثل هـذا وهـذا فيه أزهـد منه فيه

وفى شطر البيت الثانى نوع من الاستطراد وهو الاستطراد غير المقصود، لأنه وصف الرجل بكونه سريا، فلما بلغ بسراوته كل مبلغ وامتطى كل مجد وشرف. فلما قيل: قد تمت نخوته، وعلمت رتبته، إذا سهم المنية قد شك حبة قلبه، فإذا هو مباء مسلوب ما كان فيه من السراوة، مهيأ للموت، وحسرة الفوت، كأن لم يغن بالأمس، إذ صار رهين القبر والرمس.

قال الشاعر:

يا من بدنيـاه اشتغـل وغرَّه طـول الأمل

ولـم يـزل بغفلـة حتى دنا منـه الأجل

المـوت يأتى بغتـة والقبر صندوق العمل

وكأنه المعنى بقول أبىَ مدين الغوث:

تمر الليـالى بعقلى ومـالى فيا قوم مـالى عن الموت سالى

شبـابى يفر وشيبى يكر ومـا إن تمر المنون ببـالى

أفى المـوت ريب أيجمل عيب لمن لاح شيب له فى العـذالى

نهارى جـدال وليلى انجـدال[1] وحولى رجال على مثل حالى

يبيعـون رشـدا صحيحـا بغى فبؤسا وسحقا لهم من رجـال[2]

أرى عظم ذنبى فيشتـد كـربى ولكن ربى عظيـم النـوال

فسيـرى طـويل وزادى قليـل وحملى ثقيل فكيف احتيـالى

(١) الانجدال: الارتماء على الأرض، والمراد هنا النوم.

(٢) هذا البيت هكذا هو فى النسختين.

فيـاذا الجـلال ويا ذا الجمـــال ويـاذا الكمـال عليـك اتكـالى

فكن عنـــد ظنى ولا تسلمنى ولا تهلكنى بسوء فعـالى

اللهم يا ذا المنة والإفضال، يا عميم النوال، حسن أحوالنا، وزك أعمالنا، واجعل في طاعتك رسوبنا وانتقالنا، برحمتك يا أرحم الراحمين.

* * *

● **قال الناظم:**

٢٧ ـ وَذِي بَيْتٍ اعتَاضَ البَها من بَهائِهِ وَرُبَّ عَفًا مُثْرٍ عَـــلاَهُ عَفَــاءُ

قوله: «وذى بيت» أى ورب ذى بيت شرف، اعتاض من المعاوضة، وهى المبادلة، إلا أن المعاوضة إبدال الشىء بما هو دونه، والمبادلة إبدال الشىء بمثله.

قال الشاعر: (بسيط)

لكل شىء إذا فارقتــه بدل وليس لله إن فارقت من عوض

والبها بالقصر وهو البيت المخرق، كناية عن القبر، لأنه كثيرا ما يتخرق من تقادم الأزمان، والبهاء بالمد: الجمال الرائع، والبها والبهو: نور الشمس، فلما تخرم سمى باسم ملازمه، وهو بهو الشمس، ورب عفا مثير بضم الميم: كثير المال والولد والخول[1]، والحشد علاه عفاء أى الرمل وذهاب الأثر، قال الرسول لأبى هريرة رضى الله عنه: «إذا كان عندك قوت يومك، فعلى الدنيا العفاء».

وقال زهير: (وافر)

تحمل أهلها عنهـا فبانوا على آثار من ذهب العفاء

والبيت فيه من البديع والاقتباس، فهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩] إذ هو أول يوم من أيام الآخرة، وأول منزل من منازل القيامة، يستوى فيه الغنى والفقير، والعظيم والحقير، وإنما كان القبر عوضا من بيته البهى الدنيوى فيما يرى الراءون، وإن لم يكن إلا ذلك لكان فيه أعظم زاجر عن الدنيا.

---

(١) الخول: العبيد والإماء وغيرهم.

وأما إذا كان روضة من رياض الجنة، فهو خير مما اعتيض منه، لقوله ﷺ: «القبر إما روضة من رياض الجنة، وإما حفرة من حفر النار»(١).

وأما إن كان حفرة من حفر النار، فظاهر القبر المخرق جنة بالنسبة إليه لو وجد سبيلا إلى الفناء المحض، أمدنا الله برضاه آمين.

* * *

● قال الناظم رحمه الله:

٢٨ ـ وما ربَّ هَطْلَى أمَّ هَطْلاءَ فَارْتَوَى كَهَلْكَى اقْتَضَى هلْكاءَ هُنَّ ظماءُ

قوله: «وما رب هطلى» ناقة تمشي رويدًا لعظم طبيها(٢) وأخلافها حتى صارت هطلاء لغزارة لبنها، حتى يهطل دائما أم أى قصد سحابة هطلاء بالمد أى دائمة التوكاف، واسعة الأكناف، وطفاء(٣) ليست بخلب ولا جهام ولا جهمة جائلة(٤) ولا كهام(٥) تروى الظراب والآكام، وتزيل اللغوب(٦) والهيام(٧)، فارتوى منها فتى ارتدى عزمه واحتذى حزمه، فليس هو فى حزمه وعزمه كهلكى جمع هالك، اقتضى أى أوجب قصدهم مفازة هلكاء، على وزن حمراء، أى كثيرة المهالك، إذ أهلكهم بها الظماء لتفريطهم وإفراطهم، قال ﷺ المؤمن بين قصد واقتصاد، وحزم وعزم، والأحمق بين إفراط وتفريط». وقال ﷺ لعلى رضى الله عنه «أنت كعيسى، يهلك فيك رجلان، محب مفرط، ومبغض مفرط»(٨).

---

(١) حديث: «القبر إما روضة»... إلخ. رواه الترمذى وقال فيه: غريب ولفظه «القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة»، وعنه الغزالى فى «الإحياء»، وسكت عليه العراقى (جـ ٤ ص ١٧١).

(٢) الطبى: حلمات الضرع من ذوات الأربع.

(٣) الوطفاء: وصف للسحابة إذا تدلت ذيولها.

(٤) الجائلة: السحابة التى لا تستقر.

(٥) الكهام والكهيم: الرجل المسن الذى لا مال أو لا خير عنده، وربما استعير للسحاب التى لا ماء فيها.

(٦) اللغوب: التعب.

(٧) الهيام: أشد العطش.

(٨) تقدم تخريج هذا الحديث.

والبيت مفرغ فى قالب التمثيل، فمن لا خبرة له بأمثال العرب، وفحوى خطابها، ولحن قولها، لا يشق غباره، ولا يبلو أخباره، ولا يحتسى رشفة من أنهاره، ولا يسبح عباب تياره[١]. والشطر الأول مثّل فى طى كناية، لأنه كنى بالناقة الهطلى عن الدنيا التى هى أم الآخرة، فهو يسيرها بهمته العلية بعدما شد عليها رحل العزم ببطان الحزم، وقد تزود بدرها الهاطل، واستغنى بكونه خريتًا[٢] حاذقا عن اتباع[٣] سراب الباطل، فقد جمع بين در الحمراء وشيم السحابة الوطفاء، فأصبح فى نعم الله يتقلب، وإليه بأنواع طاعته يتحبب، صحب الزاد حتى تروى برى المعاد، فهو دنيوى، أخروى، سماوى، أرضى، فصار المعنى بقوله ﷺ «الدنيا نعم المطية للرجل الصالح، عليها يبلغ الخير، وبها ينجو من الشر[٤] أى يبلغ على متن النجيبة الهطلى، ويراد لبن علمها وعملها الهاطل غدرانها[٥]، والجنة الهطلاء ذات الخمر والماء والعسل والنعماء، وينجو من أن يكون من جملة الهلكى، وهم الذين طلبوا الدنيا للدنيا، وأخذ بمجامع قلوبهم سحرها، وأصم أسماعهم وأعمى أبصارهم دفرها[٦] فاقتادهم الهوى إلى مهامه التوى[٧] فوقعوا فى المهامه الهلكى والمفاوز الفيفاء، من غير دليل مرشد، ولا حميم مؤيد، فلمع لهم فى البيداء سراب، فظنوه شرابا، فلما أتوه لم يجدوه شيئا، فوجدوا الله عنده، فوفاهم حسابهم بتعجيل تبابهم[٨] وفجاءة عذابهم، إذ ورطهم عطش الحرص والاتهام[٩] بسموم الشح والاتطام، فأصبحوا نكالا لما بين يديها وما خلفها،

---

(١) التيار موج البحر الهائج.

(٢) الخريت: الدليل الماهر، وتقدم مرارا.

(٣) فى (ب): «وانتجاع» بدل «واتباع».

(٤) الدنيا نعم المطية .... إلخ لم أجده هكذا غير أن الطبرانى روى من يتزود من الدنيا ينفعه فى الآخرة وعنها الهيثمى وسكت عليها (٨٠/ ٣١١).

(٥) كذا فى الأصلين وفى العبارة بتر.

(٦) الدفر، والذفر: النتن.

(٧) التوى: الهلاك.

(٨) التباب: الهلاك.

(٩) الاتهام: لعله من أتهم إذا سار فى الأرض المنخفضة كتهامة. تقول العرب: أتهم: إذا سار فى مكان منخفض كتهامة كما تقول: أنجد: إذا سار فى مكان مرتفع كنجد.

وموعظة لمن يبغى خلقها وخلقها، فيتفسح فى الساحات، ويجمع بين الماضى والآت، أينعت ثمراته فتولدت، وذهبت غمراته فتجلت، فبعد الصباح يحمد القوم السرى، وعلى قدر الارتقاء يبلغ القوم الكرام الذرى. فهذا مثل للعامة، وأما مثل الخاص، فرجل امتطى ظهر كلمة الإخلاص وتملى برى لبن الإخلاص، فجد لما توجهت إليه مراكب الحب تحمل على ظهورها خلع القرب فمنت قلوصه الوجناء[1] إذ رأت أترابها يبشرنها باقترابها من معاهدها وأسرابها، فأنشدت بفصيح لسانها المنبئ عن سرها وحالها فقالت:

لهـا أحاديث من ذكراك تشغلهـا عـن الشـراب وتلهيهـا عـن الزاد

إذا اشتكت من كلال السير أوعدها قرب المزار فتحيـا عند ميعـاد

فلما سمعها حادى الشوق خاطبها بلسان الذوق، فقال لها:

من لى بمثل سيرك المدلل تمشى الهوينا وتجى فى الأول

فاعترضتها حور القصور بالتحف والحبور، فأنفت عن خطابهن وما قرأت حرفا من كتابهن، ثم أنشدت فى جوابهن: فقالت:

تَنَحى يا حُورَ الجنـان عنا مـالك قَاتَـلْنَا ولا قُتـلْنَا[2]

ولكنْ إلى مليككن اشتقْنَا فهـو يعلم السر ومَـا أعلنَّا

فلما سمعن ذلك قُلن: بخ بخ نفس واردة غير شاردة لما سمعتْ قَولهن، أنشدتْ مجيبةً لهن: (فى بحر الوافر)

لى حبيب خَياله نُصب عينى سِره فى ضمـائرى مــدفون

إن تذكـرتُه فكلى قلــوب أو تأملتُــه فكلى عيــون

فإذا جاوزَ هذا المركز خاطبتْه رجال الغَيب، وأخْرجت له ما فى الجيب فيجدونه وقد أذهله القلق، وخَامره الدهش والأرق، فَيقُول لهم: لا تكدروا على خلوتى، ولا تشوشوا على نجعتى، إنما إلى المحبوب قَصدتُ، ومما لديه طلبتُ، وإلى

---

(١) وجناء: شديدة، قوية.

(٢) فى النسخة (ب) يا حوراء الجنان.

حضرته هربت، ثم أنشدتْ فقالت:

أسيرُ الهـوى عينُـه تَدمع   وفى لَيْلِه العين ما تهجع
تُساعـــده عند تذكـاره   بدمـــع غزير ومـا تقلعُ
سل الليل عن حال أهل الهوى   إذا لاحـت الأنجم الطلع
يخْبـرك لو أنـه مخْبِـر   بأنَّهـمُ سُجـــدٌ رُكَّعُ[١]
فَطَوْرًا يناجُـونَ مولاهم   وهم فى عبـادته خُضَّعُ
يقُولون يا منْ يرى حـالَنَا   ويعلم فى الليل ما نصنع
أعنَّا بصبر علـى شـوقنا   إليـك فَقَـد شفَّنَا المطمعُ
سأبكى لأهل الهوى رحمـةً   لعِلمىَ أن الهـوى يَجمـعُ
هم الأوليـاء لمحبُـوبهم   وهم فى جنـان العلى رتَّعُ

فإذا جاوز هذا المركز، اشتاقَتْ إليه الأرواح الروحانية، لما اشتموا من رائحة أريج[٢] حبه، فيستأذنُون الله فى زيارته وقربه، فإذا رأوه ورأوا ما به من الذبول والتَّحرق والذهول، رقُّوا له، فقالوا: ألك حاجة؟ فيقول: أما إليكم فلا، وأما إلى الله فبلى، فيقولون: ألا تَسأله؟ فيقول لهم: إنه ليس بجاهل فأنبئه، ولا بغافل فأنبهه، فيقبل الله عليه حينئذ فيزيل عنه رواق دهش الجلال بفسحة لذة الجمال، فسكن لذلك روعه، وجعل الأكوان طوعه، فوقَع على قُرة العين بزوال حجاب البين، فَطاب وغاب، وحير الألباب، بسروره بعد قلقه، ونومه بعد أرقه، فتكثر القالة[٣]، وتضمحل الدلالة، فلا يعرفه إلا شكله، ولا يوصل إليه إلا حبله. فهذا ورد القوم، ليس هو فى اليقظة، ولا فى النوم، فيشربون خمرة الكلف[٤] على بساط الدنف[٥]، فى كأس الشغف، فسكروا فَما صحوا إلا وقد زالت الحجب،

---

(١) هذا البيت ورد هكذا فى النسختين.

(٢) الأريج: الرائحة الطيبة.

(٣) القالة ـ بالقاف ـ: الراحة أو الدعة.

(٤) خمرة الكلف: هى الخمرة التى تشتد حمرتها حتى تضرب إلى السواد.

(٥) الدنف: المرض الشديد والقرب.

وكافحهم المحبوب[1] فقال لهم: أين السبيل إلىَّ إذ لا زَمن، ولا أوان، ولا جهة، ولا مكان، فيجيبه: لا كنت إن كنت أدرى كيف السبيل إليك؟ أفردتَنى عن جميعى، فكنتُ سلمًا لديك، فيقول له: ادن أيها العبد، فقد خيرتك ولذلك حيرتُك، فيدركه الدهش هنيئة، حتى إذا أمده الله بعلوم من لدنه نطق بجوامع الكلم فقال:

حيرتمونى فى جلال جمالكم ... فاحترتُ بين صفاتكم والذات

فبقيت من دهشى بكم حينًا بلا ... جمع ولا فرق ولا لذات

حتى أَفَضْتُمْ من بحار كمالكم ... سحب العناية وَالبقاء لذاتى

فينتعش بعد الفناء، ويستريح بعد العناء، إذ لم تبق معه بقية من حسه، إذ صارت قُرة عينه بنفسه، فيقول حينئذ أنا الكل[2]، وعلى قَدل وتلك رتبة المشاهدة المعبر عنها بالوصول، فهى سبعون رتبة تَحْرم فى شأنها العبارة، وتستقل الإشارة.

وقد عبر المصنف رحمه الله عن كنايته بالإبل للمناسبة التى بين الإبل وبين الأسفار الشاقة، والمهامه الواسعة، إذ ليس من الأموال ما يشاكلها، ولا من الحيوان ما يواكلها، وقد رصع منظومته بروائع الآيات، وغُرر الأحاديث المسندات، ليأتى من فن البديع بالتلويح، بعد الكناية والتلميح، وليعلم من جاراه ما قَصد من التَّضمن والتفنن.

أما الآيات فمنها قوله تعالى: ﴿**وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ**﴾ [النحل:٥]، ﴿**وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ**﴾ [المؤمنون:٢٢] فبين بهذه الآيات أن الحيوانات ليس فيها ما يشاكل الفُلك، إلا هى لأنها سفنُ البر.

وقوله: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ**﴾ [النحل:٧] قيل: هى مكة، وقيل: مواطن الغزو، وقيل: سائر البلدان. وقوله تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا**﴾ إلى ﴿**أَفَلا يَشْكُرُونَ**﴾ [يس:٧١ ـ ٧٣] فإن الله لم يجمع فى شىء من الحيوانات ما جمع فيها من المنافع، ولولا أنَّه ذللها لنا ما

(١) فى النسخة (ب) وكافأهم المحبوب.

(٢) الكل بالتعريف يعتبرها بعض اللغويين لحنا فلا تعرف كلمة كل إلا منكرة، وقد تقدم ذلك.

انتفعنا بها.

قال ﷺ: «أكرموا الإبل، فإنها من نفس الرحمن»[١].

وقال ﷺ: «عليكم بالكريمتين النَّاقَة والنخلة، المطعمات فى المحل، والراسخات فى الوحل»[٢].

وقال ﷺ: «أكرموا الإبل، فإنها مهر الكريمة، وفكاك النفس، وثمن الجنة»[٣].

وقال أيضًا: «الإبل أشرف أموال العرب وحصونها التى تأوى إليها».

وسميتْ إبلاً لأنها تأتى بالبلاء، وتذهب به. قال بعض العرب: سميت الإبل إبلا لأنها تبل ساقيها، وتبول على ساقيها. قال أكثم بن صيفى: الإبل فيها من أخلاق الكرام أوصاف، منها أنها تكون مثقلة بالأحمال، ضمرًا من الجوع والهزال، فإذا حداها الحادى، نسيتْ ما كانت فيه، فتراها تجد فى السير محاكاة للحادى، فتراها تمد الأعناق استعذابا للصوت، وتحرك الآذان، وربما سحت الدموع على الخدين، كما قال الشاعر: (بالطويل)

ترفق بنا يا حادى العيس والتفتْ ... فللنور بين الواديين وضُوح

إذا العيس باحت بالغرام ولم تطق ... جَفاء فَما للصب ليس يبوح

وقد مدت الأعناق شوقا إلى اللقا ... ومدمعها بالوجنتين سفوحُ

وآت مطايا الركب حتى كأنها ... حمام على غصن الأراك ينوح

وإلا فما للركب هاج اشتياقُه ... فكل من الشوق الشديد يصيح

فَما هذا إلا مواطن طيبة ... وهذا سناها يغتدى ويروح[٤]

يروى أن رجلا من التَّابعين استضاف حيا من أحياء بنى تَميم، يقَال لهم: بنُو حماد، فإذا عند رجل منهم عبد مغلل مثقل فى الحديد، فقال له: ما بال عبدك فى الحديد، فقال له: ذلك عبدٌ نقلنى إلى حالة الفقر بعد إذ أنا غنى، فقال له: وكيف ذلك؟ قال: سافرنا إلى السواد فبعنا وأفضلنا، وانقلبنا بأموال كثيرة، وسلع

(١، ٢، ٣) لم أجد لهذه الأحاديث الثلاثة سندًا.

(٤) الشطر الأول غير مستقيم.

جمة، فلما طال على الإبل السفر، وأدركها الكلال والضجر، أمره بعض من أمره بالحداء، فما هو إلا أن سمعت الإبل نغمته، خرجت من أصل طبعها، فقطعت الحبال، وألقت الأحمال، وكسرت الجوالق[1] فمنها ما توحش، ومنها ما هام، ومنها ما قُطع نياط قلبه فمات، فقال: إن شئت حبوتَنى بإطلاقه وأسمعتنى بعض نَغماته بما لى من حق الضيافة، قال: أفعل، فأطلقه من قيده وغله، وأقبل به إلى التَّابعى، فما هو إلا أن جاءه قال: أسمعنى بعض ألحانك، فحدا العبد، فما هو إلا أن سمع حسن نغماته، فأثار كامن الشوق فغشى عليه، فما أفَاق إلا بعد حين، فقالوا له: كنا نسمع حداه ونغماته، فلا تؤثر فينا شيئا، فقال: أما إنكم على طبع الحمير، فإن من لا تُهَيِّجُه الأوتار، ولا تحركه الأشعار، ولا تشوقه الألحان، ولا يخوفه القرآن، فذلك غليظ الطبع، قليل النفع، أليس الله تعالى يقول: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية [الزمر: ٢٣].

ومنها أنها تبلغ الغَاية فى العطش، فإذا أعطيت ماء كدرا مجته فعافته، ومنها أنها تأتى المكان الخصب النَّابت على الدمن، وبها من الجوع ما لا مزيد عليه، فإذا شمته أففتْ وجاوزته، انتهى.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٢٩ ـ وقَاكَ العَمَى مُزْجِى العَمَاء فَلذْ به[2]
فَرُبَّ عَشى أفْضى إلَيْـه عَشَـاءُ

قوله: وقاك، فعل ماض بمعنى الدعاء، معناه: جعل الله بينك وبين ما تكره وقايةً تقيك العمى، من عمى البصر، وعمى البصيرة، مزجٍ، أى سائق. العماء

(١) الجوالق، والجواليق: العدل من صوف أو شعر وأصلها فارسية.

(٢) فى النسختين (أ) و (ب): «فعذبه». والأصح «لذ».

بالمد الغيم الرقيق، أو هو اسم لمطلق المطر، لأنه يأتى من العماء، وهو الغيب، ففى الخبر: «كلم الله موسى فى عماء» أى فى غيم أبيض رقيق نورانى. ومزجى، فاعل وقَاك فَعُذْ به، أى لذ به والفاء سببية، والباء للإلصاق، والضمير عائد على الله، فرب للتكثير، والفاء للسببية أيضا، والمجرور محذوف، أى: رب صاحب عشى بالقصر، وهو من عَشِىَ بالكسر يعشى بالفتح عشى: إذا كان يبصر بالنهار دون الليل، أفضى إليه، أى أدى إليه عشاء بالمد، وهو طعام الليل، قال ﷺ: «إذا وضع العشاء وأقيمت صلاة العشاء، فقَدموا العَشاء على العِشاء»[1].

والبيت أيضًا تمثيل قُصد به التصور لإتْيان الشَّر من حيث يُحتَسبُ الخير، وصُدور الضرر من الجهة التى يُتَوقع منها النفع، وإذا كان ذلك كذلك، فالركون إلى شىء من الأشياء، والاعتماد على سبب من الأسباب، جهل، فعلى هذا يكون البيت مقتبسا من قوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٢٦]. أى والله يعلم ما فيه لكم من الخير وإن كرهتموه، وما فيه لكم من الشر وإن رغبتموه، فيصرفكم عما شاء لما شاء.

يروى أن الله يسوس أهل ولايته فيقلب لهم أعيان المحن منحا، وأعيان المنح محنا، لئلا يعتمدوا على غيره.

يروى أن يوسف عليه السلام نظر يوما فى المرآة فرأى حسنَهُ وجماله، فحدثته نفسه أن أحدا لا يقدر على ثمنه، لجمال وجهه، وكمال صورته، وكونه ابنًا ليعقوب نبى الله، فسلط الله عليه إخوته الذين يعلمون نسبه وشرفه، فشروه[2] بثمن بخس دراهمَ معدودة، فلما يئس من نسبه وحسبه، وذلت نفسه، ويئس من النصرة إلا من ربه، بيع بوزنه ذهبا، ووزنه ورقا، ووزنه جواهر، ووزنه مسكا،

---

(١) حديث «إذا وضع العشاء»... إلخ حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما بألفاظ مختلفة أكثرها: إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدأوا بالعشاء، ونقل المناوى عن العراقى أن لفظ إذا حضر العشاء والعشاء فابدأوا بالعشاء لا أصل له بهذا اللفظ (جـ ١ ص ٢٩٥) فيض.

(٢) العبارة مبتورة لأن إخوة يوسف لم يشتروه ولم يبيعوه، وإنما باعه الذين أخذوه من الجب. فالكلام لذلك لا يستقيم هكذا. والله أعلم.

ووزنه كافورا[١] فلما اتخذه العزيز ولدا، فكساه الحرير والذهب، وطوقه باليواقيت، فلما ركن إلى ذلك بعض الركون، سلط الله عليه زليخا، فدعته إلى الفاحشة، فاستعظم وعصم، فلما خاف الفتنة، قال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف:٣٣] فسلط الله عليه العزيز وزليخا اللذين كانا يكرمان مثواه، فجعلاه في السجن، فمكث اثنتى عشرة سنة حتى تمم الله نعمته عليه بالنبوة، وأرسل الله إليه خلع الكرامة بسبب رؤيا الملك الريان، فكان من أمره ما قص الله في كتابه فتمحض له ملك مصر من غير نزاع ولا منازع، فصار الملك من جملة عبيده، ورد الله إلى زليخا شبابها وحسنها وبصرها فتزوجها حلالا، وأظهر الله براءته وعفته من يومئذ إلى يوم القيامة، فما من كتاب سماوى، إلا وقد نزل ببراءته وقصته، كما نزلا فى القرآن العظيم. ثم ساق الله إليه إخوته أذلاء، حتى شفى غيظه منهم فى تؤدة، ثم جمع الله شمله بأبيه وأخيه وجميع عشيرته على أتم هيئة، وأحسن حال، فلما تم له الأمر تَاقتْ نفسه إلى ما هو أشرف من ذلك، وهو لقاء ربه، فقبضه بعد ذلك بسبعة أيام أو نحوها، فلما مات تنافس أهل مصر فى دفنه، فكل قوم يريدون دفنه فى محلهم رجاء بركته، حتى أشرفوا على القتال، فلما أشفوا على القتال تداعوا إلى الصلح على أن يجعلوه فى مجرى النيل، فجعلوه فى صندوق من مرمر، ثم جعلوا على صندوق المرمر صندوقًا من ذهب، ثم جعلوهما فى صندوق من ورق، وكان لما احتضر عليه السلام أخذ العهد على بنى إسرائيل إذا ذهبوا إلى الشام أن يحملوه معهم، فقالوا: أنذهب إلى الشام بعد ما اطمأننا بمصر، فقال: نعم إنه سيكون ملك جبار كافر يقال له الوليد يستعبدكم هو وقومه، ثم إن الله سيرسل نبيا كريما، يقال له: موسى يستنقذكم على يديه، ويكون ذلك سبب هلاكه وهلاك قومه، فلما أرسل الله موسى بعد ذلك، وكان من أمره مع فرعون وقومه ما كان، أمره الله تبارك وتعالى أن يسرى بقومه إلى بحر القلزم[٢]، فلما انفصلوا من مصر، غيمت عليهم السماء، ومنعوا السير، فسأل موسى ربه أن يخبره بسبب ذلك، فأوحى الله إليه أن يوسف عليه

(١) لا أدرى من أين للشيخ رحمه الله بهذه التفاصيل الخاصة بالأوزان التى بيع بها يوسف عليه السلام، والأرجح أنها لم تثبت، والله أعلم.

(٢) بحر القلزم: هو خليج السويس المتفرع من البحر الأحمر.

السلام أخذ العهد على بنى إسرائيل أن يحملوه معهم إذا ذهبوا إلى الشام، فجعل موسى ينادى فى بنى إسرائيل: ألا من له علم بمحل يوسف فليخبرنى، ومن لا علم له فأصم الله سمعه، فلم يجد من يخبره إلا عجوزا من بنى إسرائيل، قالتْ إلىَّ، فإن عندى نبأه، لكن على شرط أن تدعو الله أن يرد علىَّ شبابى، وأن يجعلنى رفيقك فى الجنة، ففعل، فذهبت معهم فدلتهم على قبره، فحملوه معهم إلى الشام، فلما حملوه بدت النجوم، فجدوا فى السير[1].

وقال ﷺ: «أبى الله أن يرزق المؤمن إلا من حيث لا يحتسب»[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

وفى ذلك يقول الشاعر:

يا طالب المجد والنهى بقوة	هيهات أنت بباطل مشغوف[3]
رعت الأسود مع قوة جيف الفلا	ورعى الذباب الشهد وهو ضعيف

ويروى أن فاطمة بنت زيد الخثعمية كانت قد قرأت الكتب القديمة، وقد ترقبت مولد رسول الله ﷺ، فأقبلت من اليمن بأموالها تؤم مكة، ترجو أن يكون النبى ﷺ ولدها، فوافقت اليوم الذى فدى فيه عبد الله بمائة من الإبل، فعارضته فرأت النور فى وجهه، فقالت له لك مثل الذى نحر عليك من الإبل، وقع على الآن، فقال لها: (من بحر الرجز)

---

(١) ما أجدر هذه القصة أن تكون مختلقة من الإسرائيليات التى لا سند لها، أعنى قصة العجوز.

(٢) حديث «أبى الله أن يرزق عبده إلا من حيث لا يحتسب»... إلخ. جزء من حديث طويل أخرجه الديلمى، وأوله اجتمع على بن أبى طالب وأبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم، فتماروا فى شىء فقال لهم على انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ إلى أن قال: «أبى الله أن يرزق عبده المؤمن إلا من حيث لا يعلم»، وهذا حديث موضوع. قال ابن الجوزى فى موضوعاته، قال ابن حبان: هذا حديث موضوع، وأحمد بن داود راويه كان يضع الحديث، وقال الدارقطنى: هو متروك كذاب (جـ ٢ ص ١٥٣) موضوعات.

وأورده صاحب «كشف الخفاء» تحت رقم (٥٨) وقال: رواه القضاعى والعسكرى بسند ضعيف بالمرة والله أعلم.

(٣) البيتان من بحر الكامل غير أن الشطرين فيهما خلل من حيث الوزن.

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ثم ذهب مع أبيه إلى شعب بنى هاشم، فزوجه آمنة بنت وهب، فوقع عليها لحينه، فعلقت برسول الله ﷺ، ثم رجع إلى الخثعمية، فقال لها: هل لك إلى ما طلبت منى، فنظرتْ إليه، فقالت له: هل أحدثتَ بعدى حدثًا؟ قال: نعم، تزوجت آمنة بنت وهب، فوقعتُ عليها، فقالت له: هيهات إنى لست ببغى، ولكنى رأيت نورا فأردت أن يجعله الله منى، فأبى الله أن يجعله إلا حيث شاء، ثم أنشدت فقالت: (بحر الطويل)

بنى هاشم ما غادرت من أخيكم آمِنَة إذ للباه يَعتركان

كما غادر المصباح عند خموده فتائل قد ميثَتْ له بدهان

وما كان ما يحوى الفتى من تلاده بحزم ولا ما فَاته لِتوانى

فأجمل إذا حاولتَ أمرًا فإنه سيكفيكه جَدَّان يَعْتلجان[1]

سيكفيكه إما يد مقفلحة[2] وإما يد مَبْسُوطَة ببنان

فلما رأيت النور قد زال بهوه نبا بصرى عنه وكلَّ لسانى

يروى أن دانْيال عليه السلام لما غضب عليه بختنصر فألقاه فى بئر وألقى عليه أسدًا قد جوعه ثم سد عليهما رأس البئر بصخرة عظيمة، فجعل الأسد يتمسح على دانيال، ويلحس ثيابه، فلما أراد الله تعالى إنقاذ بنى إسرائيل، وإخراج دانيال من الجب، رأى بختنصر رؤيا هالتْه، فأرسل إلى المنجمين والكهنة من أهل مملكته، فقال لهم: إنى قد رأيتُ رؤيا هالتنى، ولا أثق بتأويلها إلا ممن أخبرنى بها

---

(١) فى النسخة (أ) و (ب): إذ للمياه يعتلجان.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين، وأقرب شىء ما أثبتناه، والذى يظهر لى والله أعلم أن القصة والشعر مختلفان على الرغم من أن أصحاب السير أوردوهما وقد وجدت فى البداية والنهاية الأبيات وأثبت الكلمة «منقعلة»، ومعنى الاقتعال: التنحية (٢/ ٢٥١).

وعلى كل حال فالأبيات تكثر الأخطاء فيها فى النسختين (أ) و (ب) لذا قمنا بتصحيحها من البداية والنهاية لابن كثير ومع ذلك هذا البيت مختل الوزن.

قَبل أن أقصها عليه، وقد أجَّلتكم ثلاثا فإن أخبرتمونى، وإلا قطعت ما فيه أعينكم، فلما رأوا الجد منه، وعلموا أنه لا قدرة لهم على ذلك، قالوا له: إن يكن علم ذلك عند أحد، فعند فتى من بنى إسرائيل يقال له: عزير، يزعم أن له ربا فى السماء يعلم السر وما فى الضمائر، فبعث إليه، فلما مثُل بين يديه قال له: إنى رأيت رؤيا هالتنى، فإن لم تخْبرنى بها وبتأويلها، قطعتُ ما فيه عيناك، فقال له: إن ربى على كل شىء قدير، وإنه يعلم السر وأخفى، وإن الله قد أخبرنى برؤياك وبتأويلها قبل أن آتيك، لكن على شروط، وهى أن تعفو عن دانْيال، وترد بنى إسرائيل إلى أرضهم، وتجعل عليهم قَهرمانًا من قهرماناتك ليعمروا بلادهم، فإنها أرض المنشر والمحشر، وأرض الأنبياء، ويكون ذلك زيادة فى ملكك، فقال له: أفعل، فأخبرنى برؤياى، فقال: أجل أيها الملك، إنك رأيت فيما يرى النائم صنمًا رأسه من حديد، وعنقه من نحاس، وصدره من وَرِق، وبطنه من ذهب، وقائمتاه من فخار، فبينما أنت تنظر إليه وقد أعجبك حسنه وجماله، إذ وقعت على رأسه صخرة من السماء فدقتْه حتى اختلط حديده ونحاسه وورقُه وذهبه وفخاره، حتى صار على وجه الأرض رفُاتًا، ثم جعلت الصخرة تمتد حتى سدت ما بين المشرق والمغرب، فقال له: والنار إنها لهى، ما أخطأت منها حرفا فما تأويلها؟ فقال له: أما الصنم؛ فما عليه أهل الأرض من الكفر والشرك، فملكك أقواه وأشده، وهو رأسه، وملك الترك دون ذلك فى القُوة، وهو النحاس، وملك الروم دون ذلك فى القوة، وهو الورق، إلا أنه أنفس الملكين، وملك بنى إسرائيل دون الجميع فى الصلابة والقُوة إلا أنه أشرف لكونهم مسلمين، ودون ذلك فى الملك والقُوة والحسن، والفخَّار وهم أمتان من اليمن يقال لإحداهما حمير، والأخرى كهلان، وأما الصخرة التى رأيت نزلت من السماء، فإنه نبى من ولد إسماعيل يقال له: محمد ﷺ، فهو أفضل الأنبياء والرسل يبعث بين يدى الساعة يذل الله به أمم الضلال والشرك فلا يبقى أحد بين الخافقين إلا دخل فى طاعته، إما راغب فى الإسلام، وإما مقهور بالسيف، يهلك الله على يدى أصحابه بابل وأهله، حتى ينفقوا كنوزهم فى سبيل الله، وإنه ليتبعه عدد نجوم السماء، وأكثر جنوده الملائكة، يسيرون معه حيثما سار.

فقال له: أما دانيال، فقد عفوتُ عنه، وأما بنو إسرائيل فسأنظر فيمن أبعث إليهم، فذهب من عنده إلى دانيال، فلما دنا من البئر سمعه يقول: سبحان من لا ينسى مَنْ ذكره، ولا يخيِّب من دعاه، فوقف ليسمع مناجاته، فقال: ادن إليَّ يا عزير، فقال له: ومن أخبرك؟ فقال: الذى بعثك بالطعام، وأخبرك برؤيا الملك، فأزال الصخرة عن فم البئر، ثم أدلى إليه حبلا، فقال له: أخْرج الأسد قبلى، فإنه كان رفيقى فى الجب، فاستخرج الأسد، فلما استخرجه جعل الأسد يعينه فى استخراج دانيال، فلما خرج دانيال عليه السلام وضع بين يديه خبزًا ولحمًا وتينا وعصيرا، فجعل دانيال يناول الأسد من اللحم حتى شبع، فقال له عزير: لم لا أكلت قبلُ ثم أفضلت للأسد؟ فقال له: ليس ذلك من الفتوة، فقال له عزير: هل استوحشت من الأسد فى الجب؟ فقال: كيف أستوحش من كلب ربى؟ بل كنت أستأنس به، ثم تزود عزير، وذهب إلى الشام فأنقذهم الله تعالى من التلف بالتلف، أى من التلف الذى هو الرق والجلاء بالتلف الذى هو بختنصر من غير سبب منه ولا منهم، بل بأمر ربانى، وهو الرؤيا التى أرى الله بختنصر حتى دعته إلى العلم بفضل عزير وقومه، حتى ردهم الله إلى الشام، فبارك الله عليهم فنموا وكثروا فى أقْصر مدة، واجتمعت إليهم أشياعهم من جزائر البحر ومن مصر، فأخرجوا عامله، فغزاهم بختنصر[1]، وقومه، فنصرهم الله عليه، فهزموه وقتلوا عساكره قتلا ذريعا[2] وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ [الإسراء:٦].

وكذلك لما منع الله نبيه محمدا ﷺ بعمه وشد أزره بوزيرته وزوجته صديقة النساء خديجة بنت خويلد[3] فلما اطمأن إليهما، وركن بعض الركون توفاهما الله

---

(١) بختنصر: ملك بابل، عاش فى الفترة ما بين ٦٠٤ إلى ٥٦١ قبل الميلاد، أغار على مصر وفتح أورشليم القدس وأحرقها وأجلى اليهود إلى بابل.

(٢) قصة الرؤيا والجب والأسد من الإسرائيليات التى لا يعول عليها. ونحن المسلمين بحمد الله فى غنى عنها وعن مثيلاتها بما لدينا من التراث الصحيح الناصع.

(٣) هى خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى القرشية الأسدية زوج النبى ﷺ، وأول من صدقت ببعثته مطلقًا، وكانت تدعى قبل البعثة: الطاهرة، تزوجها ﷺ قبل البعثة بخمس عشرة سنة وكانت موسرة وثبت عنه ﷺ أنه قال: «خير نسائها خديجة بنت خويلد، وخير نسائها مريم=

فى عام واحد، وكان ﷺ يسمى ذلك العام عام الحزن، فنالت منه قريش ما لم تكن تطمع أن تنال منه حياة أبى طالب وخديجة، فذهب إلى أهل الطائف من ثقيف ليسندوا ظهره ويئووه حتى يبلغ رسالة ربه، فأغروا به سفهاءهم يرمونه بالحجارة حتى ضرجوا عراقيبه بالدماء، فانصرف عنهم وهو مغموم، فدعا ربه بدعاء الفرج المشهور فقال: «اللهم إنك ترى ضعف قوتى، وقلة حيلتى، وهوانى على الناس، أنت رب الطيبين، إلى من تكلنى، إلى عدو يتجهمنى[١] أو إلى صديق وليته أمرى، إن لم تكن ساخطا على، فلا أبالى، غير أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى ملأ أركان عرشك، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحل على غضبك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك» فضجت ملائكة السماوات السبع، فقال لهم الله: اذهبوا إليه، فإن استغاث بكم فأغيثوه، وإن طلب منكم أمرا فاقضوه، فبينما هو عند قرن الثعاليب، إذا بسحابة قد أقبلت عليه تؤمه، فلما دنت منه، إذا الملك يسلم عليه من السحابة، ويقول له: السلام عليك يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك وما ردوه عليك، وأنا ملَك الجبال، وإن الله أمرنى بطاعتك، فإن شئت أطبق عليهم الأخشبين، فعلت، فقال له ﷺ: «لا بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ويوحده» فرجع إلى مكة فى جوار المطعم بن عدى، فما هو إلا أن رجع ألقى الله فى قلب عمه حمزة[٢] الإسلام، فأسلم، وكان أعزَّ فتى فى قريش وأشده شكيمة، فكفت عنه قريش بعض الكف لعلمهم أن عمه غير مسلمه، إذ قد أسلم، ثم لمَّا اشتد البلاء بأصحابه أمرهم بالهجرة إلى النجاشى[٣] أصحمة ملك الحبشة، فنزلوا على

= بنت عمران» رواه مسلم وولدت له ﷺ: القاسم، وعبد الله، وبناته الأربع، وتوفيت رضى الله عنها قبل الهجرة بثلاث سنين، والله أعلم.

(١) تجهم: عبس فى وجهه، أى استقبله بوجه عابس.

(٢) حمزة: هو حمزة بن عبد المطلب بن هاشم القرشى الهاشمى، عم النبى ﷺ وأخوه من الرضاعة، ولد قبل النبى ﷺ بسنتين، وأسلم فى السنة الثانية من البعثة شهد بدرًا وأبلى فيه وعقد له رسول الله ﷺ أول لواء عقد فى الإسلام ولقبه أسد الله، وسماه سيد الشهداء، قتل ثلاثين شخصا قبل أن يقتل يوم أحد، وله من المآثر ما لا يحصى، استشهد رضى الله عنه فى السنة الثالثة من الهجرة يوم أحد وهو دون الستين.

(٣) النجاشى: هو أصحمة بن بحر النجاشى ملك الحبشة، والنجاشى لقب له، أسلم فى عهد النبى =

خير جار بأعز دار، فلما بلغ قريش عزهم عند النجاشي وكرامته لهم، غاظهم ذلك، فجمعت قريش هدايا وتحفا، وأرسلت بها إلى النجاشي وبطارقته ليسلموا إلى عمرو بن العاص[١] وعمارة بن الوليد أصحاب رسول الله ﷺ، وكان بين عمرو بن العاص والنجاشي صداقة، فلما أتيا النجاشي، أرسلا إلى كل بطريق هديته على حدة، ثم أرسلا إلى كل من زوجاته هدية، ثم قال لهم عمرو: إني متوجه إلى الملك فى أمر عظيم فأعينوني، ثم أمهل النجاشي حتى خرج إلى دسكرته[٢] حيث تجتمع عليه بطارقته، فأتاه وسجد بين يديه على عادته، فقال له: مرحبًا بحبيبى عمرو، وهل أتيتنى بهدية؟ قال: أتيتك بهدايا وتحف لم آتك بمثلها قط، لكن على أمر هو هين عليك عظيم موقعه منا، فبينما هو يخاطبه، إذ جاء أصحابه بالتحف والهدايا، فأعجبت النجاشى، وفرح بها، فلما رأى ذلك من النجاشي، طمع عمرو وكان أشد شيء عليه أن يسمع كلام أصحاب محمد ﷺ، فقال له: أيها الملك إن عصبة منا سفهاء خالفوا ديننا، ولم يدخلوا فى دين الملك، وقد بَعَثَنَا قَوْمُنَا وقومهم فى أمرهم، فإنهم أعلا[٣] بهم عينا وأعلم بتأديبهم، فقالت البطارقة: رد إليهم إخوانهم أيها الملك، فإنهم أعلا بهم عينا، فقال: دون أن أكلمهم؟! لا ها الله لا أفعل، قوم انضموا إلى، واختاروني عمن سواى، ثم بعث إليهم، فلما جاء الرسول جعفرًا[٤] وأصحابه، فزعوا إلا ما كان من جعفر، فإنه قال: والله لا نقول إلا الحق، كان فيه نجاتنا أو هلكتنا، لكن ذرونى والقوم،

= ﷺ ولم يهاجر إليه، وكان ردءًا للمسلمين، ولما مات صلى عليه النبى ﷺ صلاة الغائب. توفى رضى الله عنه فى السنة التاسعة، والله أعلم.

(١) تقدمت ترجمته.

(٢) الدسكرة: الصومعة، أو بيوت للملاهى ـ فارسية.

(٣) كذا فى الأصلين، ولعل المراد أعلم بحالهم أو أحق بهم.

(٤) جعفر: هو جعفر بن أبى طالب بن عبد المطلب الهاشمى القرشى ابن عم النبى ﷺ، وأحد السابقين إلى الإسلام، قال أبو هريرة فيه: ما احتذى النعال، ولا ركب المطايا ولا وطئ الأرض بعد رسول الله ﷺ أفضل من جعفر بن أبى طالب، وكان يكنى أبا المساكين، وقال فيه رسول الله ﷺ: «أشبهت خَلقى وخُلقى» هاجر إلى الحبشة، فأسلم النجاشى على يديه، ومنها هاجر إلى المدينة، توفى رضى الله عنه فى غزوة مؤتة، عام ثمان فى جمادى الأولى وعمره أربعون سنة، والله أعلم.

فسأكفيكم أمرهم، فذهبوا إلى النجاشى، فلما وقفوا بالباب، قالوا: السلام عليكم يستأذن أهل الله، فلما سمع النجاشى خطابهم، قال: مرحبًا بأهل الله، فأذن لهم فدخلوا، فلما دخلوا سلموا ولم يسجدوا، فقال لهم: ألا تسجدون كما يسجد كل من دخل على؟ فقالوا له: إنا قد جئناك بتحية الله وتحية الملائكة وتحية أهل الجنة، ثم ابتدأ جعفر الكلام، فقال: أيها الملك سل هؤلاء الذين أتوك فى أمرنا، هل كنا عبيداً لهم فأبقنا؟ فسأل النجاشى عمرا فقال: لا بل كانوا أحرارا كراما. ثم قال: أيها الملك، سلهم هل وتَرنَاهم؟ فقال: هل وتروكم؟ فقالا: لا ولا قدر محجم، ثم قال: سلهم أيها الملك، هل أخذنا لهم نهبا؟ قال: هل أصابوا لكم نهبا؟ قال: لا، ولا قدر أنف، ثم أقبل على الملك فقال: اسمع ما أقول لك، والحق أقول، كنا قوما أهل أوثان وشرك، يأخذ أحدنا حجرين يتخذ إحداهما صنما يعبده، والأخرى أثيفة لقدره، وكنا فى جاهلية جهلاء، لا نحل حلالا، ولا نحرم حراما، حتى بعث الله منا رجلا قد عرفنا صدقه، وأمانته، وعفته، قد أرسله الله إلينا رسولا، وأنزل إليه كتابا، وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا، فلما دعوناهم إلى الله وعبادته كذبوا الرسول الصادق، وآذونا فى الله، ففررنا إليك بديننا ودمائنا، لأنا رجوناك لما لم نرج له غيرك، وآمناك على ما لم نأمن عليه غيرك، فقال: أمسك، فإنك ذكرت أمرا عظيما، فالتفت إلى البطارقة فقال: هلم بالإنجيل، وكان النجاشى أعلم النصارى بالكتاب، فقال لهم: افتحوا عن موضع كذا، فإن فيه نعت أحمد الذى يأتى بين عيسى والساعة، ففتحوه ودرسوا نعت محمد ﷺ، ثم التفتوا إلى جعفر، فقالوا: هو يشبه هذا الرجل إن لم يكن هو، فقالوا: لا، إنما هو ابن عمه، ثم قال النجاشى: هل تقرءون شيئًا مما أنزل عليه؟ فقال جعفر: نعم، فأمره أن يقرأ عليهم بعضا مما أنزل عليه ﷺ، فقرأ سورة يس وسورا بعدها، فلما سمعوا القرآن أخبتوا وخشعوا حتى أخضلوا مصاحفهم بالدمع، فقالوا: والله إن هذا وما أتى به عيسى ليخرجان من مشكاة واحد، فقال له عمرو ابن العاص: إنهم ليقولون فى عيسى قولا عظيما، فالتفت إليهم فقال: ما تقولون فى عيسى؟ فقالوا نقول فى عيسى ما قال الله، فقال: ما يقول الله؟ فتلا عليه جعفر قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ الآية [آل عمران: ٥٩] ثم

قال له: ماذا يقول هو فى عيسى؟ قال: هو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فقال: والله إن عيسى لا يزيد على ما تقول شيئا، ثم قال: اذهبوا فأنتم سيوم(١) ومن ظلمكم فقد عرم(٢)، والله لو أعطيت عليكم دبر(٣) ذهب ما أسلمتكم، فإن الله لم يأخذ على رشوة حين ولانى أمر الحبشة، أفآخذ الرشوة على أهل طاعته، ردوا إلى عمرو وأصحابه هداياهم، فرجع عمرو بخيبة، ومات عمارة بأرض الحبشة مسحوراً قد جن وتوحش، ثم أسلم النجاشى، وأسلم بطارقته وأهل مملكته بإسلامه.

ثم لم ينشب رسول الله ﷺ أن جاءته الأوس والخزرج، فبايعوه بيعة العقبة، وفشا الإسلام فى قبائل العرب، ثم هاجر ﷺ إلى المدينة، فاجتمع عليه المهاجرون والأنصار، وصارت المدينة يعسوبا(٤) للإسلام، وقرارا للمسلمين، وذلك قوله ﷺ: «أمرت أن أهاجر إلى قرية تأكل القرى، يقال لها: طابة»(٥) فأراه الله أن نصرته له أتم وأدوم من نصرة أبى طالب وخديجة، وذلك قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم**﴾ إلى ﴿**قَرِيبٌ**﴾ [البقرة:٢١٤] فجاءته غيرة الحق بأمداد النصر حتى ظهر أمر الله وهم كارهون، وتلك عادة الله مع أنبيائه وأوليائه، كلما اطمأنوا إلى السبب زواه عنهم، حتى إذا يئسوا من نصرة غيره والتجئوا إليه، توجهت إليهم غيرته بأمداد المنح، ومما لا تبلغه أوهامهم من الفتوحات وأنواع السرور والفرح قال الله تعالى: ﴿**فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨].

وقال ﷺ فى حديث قدسى يرويه عن ربه: «لا يعتمد عبد من عبادى على أحد دونى أعلم ذلك من نيته فيكيده أهل السماوات والأرض، إلا جعلت كيدهم

---

(١) سيوم: كلمة حبشية ربما كان معناها: أحرار، أو ضيوفى.

(٢) عرم: كذا فى الأصلين والعرم: الشدة والخروج عن الحد، والأذى.

(٣) دبر ذهب: الدبر بالكسر المال الكثير.

(٤) اليعسوب: ذكر النحل، أو رئيس القوم، والمراد مقر يأوى إليه المسلمون.

(٥) أمرت أن أهاجر... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ إلا أن البخارى ومسلما والنسائى رووه بلفظ (أمرت بقرية تأكل القرى يقولون يثرب وهى المدينة تنفى الناس كما ينفى الكير خبث الحديد) فالحديث بهذا اللفظ متفق على صحته، والله أعلم.

في خسار»[١].

ثم اعلم أنه رصع بيته بالتلويح، كما في قوله مزجي العماء إلى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا﴾ الآية [النور: ٤٣].

فإن قلت: ما الموافقة بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] فالجواب أن الله تعالى يرسل الرياح فتثير السحاب من بين الخافقين، فإذا أثارته بعث إليه ملائكة، وكلهم يسوقه إلى حيث يشاء من بلاده وقيل: إن المزن تحمل، والرياح تلقح، والملائكة تسوق، والمعصرات تدر، كما تدر اللقحة باللبن.

قال أبو قيس: (من بحر المتقارب)

فأسلمتُ وجهي لمن أسلمت   له الأرض تحمل صخرا ثقالا
دحاهـا فلما رآها استوت   على الماء ألقى عليها الجبالا[٢]
وأسلمتُ وجهي لمن أسلمت   له المزن تحمل ماء زلالا
إذا مـا زجاهـا إلى بلدة   أطاعت فألقت عليها سجالا[٣]

---

(١) هذا الكلام الذي ذكر الشيخ لا يصح إطلاقًا، لاستحالة معناه، إذ من المعلوم المسلم به أن من اعتمد على غير الله لا يمكن أن يجعل كيد أعدائه في خسار وعلى كل حال، فربما كان يقصد الحديث القدسي الطويل الذي رواه أبو تمام وابن عساكر والديلمي ولفظه: «أوحى الله إلى داود: وعزتي ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات والأرض بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهوى من تحت قدميه...» إلى آخر الحديث.
والحديث فوق هذا فيه يوسف بن السفر متروك، وقال البيهقي: هو في عداد من يضع الحديث، والله أعلم.

(٢) البيت هكذا هو في النسختين إلا أن رواية البداية والنهاية له:
دحاها فلما استوت شدهـا   سواء وأرسى عليها الجبالا

(٣) والبيت الثاني في البداية هو:
إذا هـي سيقـــت إلى بلـدة   أطاعت فصبت عليها سجالا
والشعر كما هو معلوم لأمية بن أبي الصلت أو زيد بن عمرو بن نفيل على اختلاف في ذلك ـ لا لأبي قيس ـ.

ويصدق قَول أبى قيس هذا قوله تعالى: ﴿والسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

والحاصل أن الأسباب والمسببات لله تعالى ومن الله، لا يتوصل بها إلى غرض، ولا تُجدى فى تَحصيل غرض، ولذلك صار ترك الأسباب مع الله سوء أدب، والاعتماد عليها شرك، والطريق بينهما وهو استعمال الأسباب من غير اعتماد عليها.

* * *

• **قال الناظم رحمه الله:**

٣٠ - سَيَعْلُوكَ مَرْمُوسًا سَفىً فالسَّفَـاءَ دَعْ
وَحِـدْ عَنْ ذَكىً بِالْحزْمِ فَهُـوَ ذَكَـاءُ

أيها المجد فى جمع الدنيا ومنعها والمنافسة فيها أقصر، فإنه سيعلوك أى يظلك وإن بلغت الغاية القصوى فيها من العز والملك والثروة.

مرموسًا حال من الضمير، أى حال كونه مرموسًا ملوثًا بتراب القبر.

سفى بالقصر الريح التى تجرى على وجه الأرض، أو ما تجعله على القبر من الرمال الدقيقة فَاعل يعلوك.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ونوفلٌ كان دون القوم خالصتى ... تُسفى الريـاح عليــه بين غـزاة

قوله فالسفاء دع أى دع السفه وهو عدم التثبت فى الأمور، وهو ضد الرشد والحلم، وهمزة المد مبدلة من الهاء كما يقال فى هرق أرق، وحقيقة السفيه: الخفيف الطائش الذى لا يستفيد ولا يستفاد منه، ولا يكظم الغيظ، ولا يطلب الفضل، ولا ينظر إلى العواقب.

وفى وصفه يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وذى رحم قلمـت أظفـار ضِغْنه ... بحِلْمِى عنـه وهـو ليس له حلم
إذا سمتـه وصـل القرابة سامنى ... قطيعتهـا تلك السفاهــة والظلم

أشيد له مجداً ويهدم طائلى وليس الذى يبنى كمن شأنه الهدم
يحاول حتفى لا يحاول غيره وكالموت عندى أن يحل به غرم

قال عبد الملك[1] بن مروان يوماً لأرباب دولته وعشيرته: لينشدنى كل واحد منكم أحسن ما بلغه من الكف عن السفيه والحلم على ذوى القُربى، فأنشد كل رجل ما عنده حتى إذا أوعبُوا قال لهم: إن كل ما ذكرتُم لا يفى بالغرض، وإنما جماع ذلك وملاكه فى هذه الأبيات، فأنشدهم الأبيات المتقدمة آنفا، فاتفقوا أنها أحسن ما قيل فى الكف عن السفيه والحلم على العشير.

قوله: وحد أى مل، عن ذكى بالقصر، وهو لهب النار، إذا تم وقُودها. بالحزم، وهو إفراغ القوة فى التحرز من المعاصى من غير غفلة ولا توان، قال الرسول ﷺ: «الحزم أن تشرب الماء على الماء، وجماعه الصبر والمصابرةُ والمرابطة» قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] فجعل الفلاح من وراء هذه الشرائط الأربعة، فهو أى الحزم ذكاء، أى من علامة كمال العقل، يقال: رجل ذكى، إذا كان تام العقل، وبذلك سميت الذكاة ذكاة، لأن بها يتم إزهاق النفس من غير تعذيب، قال الرسول ﷺ: «من قتل منكم فليحسن القتلة، ومن ذبح منكم فليحسن الذبحة»[2] بأن يحد الشفرة ويجد فى القطع ولا يحدها وهى تنظر ولا يذبحها وصاحبتها تنظر إليها، ولا يعنفها عند الإضجاع، وليسقها قبل الذبح.

---

(١) عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الخليفة الفقيه، ولى الخلافة بعد أبيه مروان، شهد مقتل عثمان وهو ابن عشر، واستعمله معاوية على المدينة، وكان ناسكا قبل الخلافة، قال نافع: لقد رأيت المدينة وما بها شاب أشد تشميرا ولا أفقه ولا أنسك ولا أقرأ لكتاب الله من عبد الملك، جاءته الخلافة والمصحف فى يديه، فأطبقه وقال: هذا آخر العهد بك، كان من رجال الدهر ودهاة الرجال، وكان الحجاج من ذنوبه، توفى فى شوال سنة ٨٦ عن نيف وستين سنة.

(٢) حديث «من قتل منكم فليحسن القتلة»... إلخ. جزء من حديث صحيح رواه مسلم وأحمد ولفظه «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته».
وأورده السيوطى تحت رقم (١٧٦١) وكأن الشيخ نقله بالمعنى، والله أعلم.

وفى البيت من البديع الاقتباس، لأن البيت مقتبس من معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ﴾ [التحريم:٦] أى غلاظ القلوب قد نزع الله الرحمة من قلوبهم ﴿شِدَادٌ﴾ لو شاء أحدهم لرفع أهل الأرض جميعًا بمرزبة فى دفعة واحدة، ولو أنه وضعها على جبال الدنيا لذابت كلها.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣١ - وَهَوِّنْ حَفىً أَفْضَى إِلَيه حفاؤه ... ببر فَعُقْبَاهُ سَنىً وَسَنَاءُ

أى هوّن على نفسك ما تلاقيه من حفى مطاياك بالقصر، وهو مصدر حفى الحيوان بالكسر: إذا رق أسفل رجله من مباشرة خشونة الأرض وطول المشى حتى إنه لو وطئ لبل الأرض بدمه ولو أفضى ذلك إلى حفاء رجلك أيها الراكب والمسافر. والحفى مصدر حفى الرجل: إذا مشى حافى الرجل من حف[1] أو انتعل.

قال الشاعر:

ألا فاحفوا أو انتعلوا أحيا ... نا . . . .

ونعل لأجل بر تحاوله.

وفى المثل: من عرف ما طلب هان عليه ما بذل.

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله ... لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

وقال غيره: (من بحر البسيط)

الجد بالجد والحرمان بالكسل ... فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

وفى المثل: من جدَّ وجد.

---

(١) العبارة مبتورة فى (أ) و (ب) كما أن شطر البيت غير موجود فى النسخة (ب) والبيت ليس فى (ب) كما أنه غير واضح فى (أ) والعبارة فى النسختين فيها تقديم وتأخير وغموض.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

لولا المشقة ساد الناس كلهم ... الجـود يفقر والإقدام قَتَّال

ولذلك كان نيل المجد صعبا كئودًا. فعقباه، أى فإن عاقبة أمره سنى، بالقصر: أى ضوء، وسناء، بالمد: أى رفعة، لأن الأمور بعواقبها، فإن كانت العاقبة خيرًا كانت البداية باطلا، إذ خير العواقب ينسى الشر المتقدم.

كما قال الشاعر: (من بحر الطويل)

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ... ولم يك صعلوكا إذا مـا تمـولا

ولم يك فى بؤس إذا بـات ليـلـة ... يناغى غزالاً ساجى الطرف أكحلا

وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] من النصر والظفر والثواب وحسن العاقبة فليحملكم ذلك على استطابة الألم فضلاً عن الصبر عليه. وقد رئى ذلك منهم عيانا، لأنه ﷺ فى غزوة ذات الرقاع بعث رجلين من أصحابه رئية[1] وكانا يتناوبان النوم، فنام أحدهما، وقام الآخر يصلى، فرماه بعض العدو بسهم فأصابه فنزعه وثبت قائما فى صلاته، فرموه بسهم آخر، فنزعه وثبت كذلك فى صلاته حتى أصابه السهم الثالث، فحينئذ انفتل من صلاته وأيقظ صاحبه، فقال له: ما حملك على ما فعلت؟ ولِمَ لَمْ توقظنى عند أول سهم؟ فقال: لما أجد فى صلاتى من اللذة، ولولا أنى خفت على رسول الله ﷺ والمسلمين ما انفتلت من صلاتى، فذهبا إلى العسكر، فأخبراه بقرب العدو، فلما رأت غطفان ذلك، فرت. ومن هذا ما روى عن عروة بن الزبير[2] أنه أصابته أكلة فى ركبته، وكانت تؤذيه جدًا، فزعم الأطباء أنه إن لم تقطع الرجل كانت سببا لهلاكه فقالت لهم ابنته: إن أردتم ذلك فاتركوه حتى يأخذ فى حزبه من الليل فافعلوا به ما بدا لكم، فإنه لا يشعر،

---

(١) أى حراسا.

(٢) عروة: هو عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد الإمام، عالم المدينة، أبو عبد الله القرشى الأسدى، أحد الفقهاء السبعة، ولد سنة ٢٣ هجرية وكان من كبار العباد، يقرأ ربع القرآن كل يوم فى المصحف نظرًا ويقوم به بالليل، فما تركه إلا ليلة قطعت رجله، كان ثقة ثبتا مأمونا كثير الحديث فقيها عالما. توفى رضى الله عنه سنة ٩٤ هجرية.

ففعلوا، فقطعوها وحسموها وهو رضى الله عنه على حاله حين أتوه وحين ذهبوا عنه، فلما أتم ورده إذا رجله قد قطعت، فقال لهم: متى قطعت رجلى؟ فقالوا له: قطعناها وأنت تصلى، أما حسست بشىء من ذلك؟ قال: لا، إلا أنى شممت رائحة الزفت[1]. وكذلك فعل جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه يوم مؤتة، وذلك أنه لما قدموا على الشام سمعت بهم الروم والعرب، فاجتمعت لهم فى مائتى ألف، فلما بلغ أصحاب رسول الله ﷺ كثرة من تجمع لهم من الروم والعرب، أقاموا ليلتين على معان، فقال بعضهم: نبعث رسولا إلى رسول الله ﷺ نُخبره بكثرة ما تجمع لنا من العرب والروم، فإما أن يمدنا، وإما أن يأمرنا بأمره، فشجعهم ابن رواحة، وقال: يا قوم، إنما هى إحدى الحسنيين، إما الشهادة، وإما الظفر والغنيمة، فشجع ذلك المسلمين، ورغبهم فيما عند الله، فجعل ينشد وهم مصغون إليه، فقال: (من بحر الوافر)

جنبنا الخيل من أجأ وفرع ... يغرُّ من الحشيش لها العكوم

حذوناهـا من الصُّوان متنًا ... أزلّ كأن صفحتـه الأديم

أقامـت ليلتين على معـان ... فأعقب بعد خمرتها جمـوم

فرحنـا والجيـاد مسومات ... تنفَّس فى مناخرهـا السمـوم

فلا وأبى معـانَ لنا غنيمًا[2] ... ولو كانت بهـا عرب وروم

فعبَّأنا أعنَّتهـا فجـاءت ... عوابس والغبار لهـا يريم

بذى لُجُب كأنَّ البيض فيـه ... إذا برزت قواسمها النجـوم

فراضيـة المعيشة طَلَّقَتْهَا ... أسنتنـا فتَنكِـحُ أو تقيـم

فلما التحم القتال، ترجل جعفر رضى الله عنه عن فرس له أشقر، فعقره وانغمس فى العدو شاهرًا سيفه، وبيده الراية وهو يقول: (رجز)

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبـة وبارد شرابهـا

(١) الزفت: القار.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين.

والروم روم قد دنا عذابها ... عليَّ إن لاقَيْتُها ضرابها

فقطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله، ثم قطعت شماله، فاحتضن الراية بعضديه حتى أخذها منه زيد، ثم اقتحم زيد كذلك حتى استشاط على رماح القوم، ثم أخذها عبد الله بن رواحة[1] رضى الله عنه، ثم جعل يقول: (رجز)

يا نفس إلا تقتلى تموتى ... هذا حمام الموت قد صليت
ومـا تمنيت فقد أعطيت ... إن تفعلى فعلهما هُديت

ثم ترجل بعد تردد فى النزول، وعقر فرسه، وفعل ما فعل صاحباه، فلما مات حمل الراية رجل من بلى، فحابى بها، وجعل يقول: من يتولى رايتكم؟ فقالوا له: أنت، فقال: لست بفاعل، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فانحاز عن المشركين، وانحازوا عنه، وفى هذا اليوم وقع عَلَم من أعلام نبوته ﷺ وهو رفعهم له بالمدينة وهم بالشام، فبينما هو بين أصحابه، إذ شخص ببصره نحو الشام، فذرفت عيناه، فقالوا: ما أبكاك يا رسول الله؟ فقال «إنه رفع إلى جعفر وعسكره، فرأيته حين ترجل عن فرسه فعقره، وقاتل حتى قتل شهيدا وقد أبلى، ثم أخذها زيد فأبلى ومات شهيدا، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فسكت النبى ﷺ حتى رئى التغُّير فى وجوه الأنصار، مخافة أن يكون صاحبهم قد أحدث حدثا لا يرضاه الله ورسوله، ثم قال: تردد هنيهة ثم تقدم فقاتل حتى قتل شهيدًا، ثم أخذ الراية سيف الله وسيف رسوله خالد بن الوليد، فانحاز بالقوم، وانحيز عنه، والله إنى لأنظر إلى معركتهم ساعتى هذه، فلما قدم البريد قال له رسول الله ﷺ: «إن شئت أخبرتنى، وإن شئت أخبرتك» فقال: بل أخبرنى يا رسول الله، فجعل ﷺ يخبره كيف قتالهم مع المشركين، وعمن أغنى ومن لم يغْن، وعمن مات من المسلمين ومن مات من المشركين، وكيفية المعترك، وعمن أخذ خالد الراية، وكيف انحاز وانحيز عنه، فقال: والله إن الأمر لكما ذكرت، ما زدت ولا نقصت.

فهذه معجزة من معجزاته ﷺ، وهذا من فضائل أصحابه كرشفة عصفور من بحر زاخر، والحمد لله على ما أنعم وتمم.

---

(١) عبد الله: هو عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى الخزرجى الشاعر المشهور، كان أحد النقباء ليلة العقبة وشهد بدرًا وما بعدها حتى استشهد رضى الله عنه فى السنة الثامنة فى غزوة مؤتة.

● قال الناظم رضى الله عنه:

٣٢ ـ وَصِلْ بِوَحى الدَّاعِى الْوَحَاءَ إِغَاثَةً وَبَارِ الْوَلَى نَفْلاً يُحِطْكَ وَلاَءُ

قوله: صل، فعل أمر. بوحى بالقصر: الصوت على وجه الاستغاثة، الداعى، مضاف إليه ما قبله. الوحاء بالمد: السرعة والإقبال وهو منصوب بالداعى. وإغاثةً، مفعول صل، أى اجعل صوت الشخص الداعى الوحاء، أى القائل فى صوته: الوحاء؟، أى السرعةَ، موصولا بإغاثتك.

قوله: وبار الولى فعل أمر من بارى، من المباراة، والولى لغة فى الوَلى وهو المطر الذى يأتى إثر الوسمى، بأن تجاريه جودا وكرما، والنفل: العطاء لله وفى الله، يحطك: يحفظك ويحرسك، ولاء بالمد، أى عنَاية وتَوليةً من الله.

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

وقال: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤].

ويقال لفلان على بنى فلان ولاء بعتق أو ولادة، والولاء أيضا: الوراثة بغير النسب والصهر، والولاء: الحِلْف بين القبائل على المناصرة.

قال عنترة العبسى: (من بحر الطويل)

ونحن منعنا بالفروق نساءنا نطرد عنها مشغلات غواشيا

إلى أن قال:

فما وجدنا فى الحروب إشَابة وما وجدنا فى الحروب مواليا

وبيته متضمن الحث على إغاثة اللهفان.

وفى قوله: «وصل بوحى الداعى الوحاء إغاثة» إشارة إلى قوله ﷺ: «من كان فى حاجة أخيه المسلم، كان الله فى حاجته»[1].

---

(١) حديث: «من كان فى حاجة أخيه المسلم»... إلخ. رواه الخرائطى فى «مكارم الأخلاق» له، وأورده صاحب «الكشف» تحت رقم ٢٥٧٩ دون لفظ (المسلم).

وقال ﷺ: «من قضى لأخيه المؤمن حاجةً قضى الله له سبعين حاجة، ثلاثون فى الدنيا، وأربعون فى الآخرة، أدنى حوائج الدنيا الغنى، وأدنى حوائج الآخرة الغفران»[١].

وقال ﷺ: «من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا، فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة».

وفى رواية: «يؤتى بأهل الحوائج يوم القيامة وكأنهم ملائكة مقربون أو أنبياء مرسلون، يشفعون فيُشفَّعون»[٢].

يروى أن الله يوقف عبده يوم القيامة، فيقول له: يا عبدى استحملتك فلم تحملنى، أما إنك لو حملتنى لوجدت ذلك عندى، فيقول: أى رب، كيف أحملك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: استحملك عبدى فلان فى دار الدنيا، فلم تحمله، أما إنك لو حملته لوجدت ذلك عندى، ثم يقول له: استكسوتك فلم تكسنى، فيقول: أى رب كيف أكسوك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: إنه استكساك عبدى فلان، فَلم تكسه، أما إنك لو كسوته لوجدت ذلك عندى، ثم يقُول: استطعمتُك فَلم تُطعمنى، فَيقُول له: كيف أطعمك وأنتَ ربُّ العالمين؟ فيقُول له: استطعمك عبدى فلان فَلم تطعمه، أما إنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى، ثم يقُول له: استسقيتك فلم تُسقنى، فيقول: كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ فيقول له: قد استسقاك عبدى فُلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته لوجدتَ ذلك عندى،

---

(١) حديث «من قضى لأخيه المسلم»... إلخ. رواه الخطيب بلفظ «من قضى لأخيه حاجة من حوائج الدنيا قضى الله له اثنتين وسبعين حاجة أسهلها المغفرة» وأورده ابن الجوزى بلفظ «من أعان ملهوفًا غفر الله له ثلاثا وسبعين مغفرة، واحدة منها فى صلاح أمره كله، واثنتان وسبعون درجات له عند الله عز وجل» (ص ٣٧٦ جـ ٢) كشف. وقال ابن الجوزى فى هذه الرواية: هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ، فيه زياد وهو ابن أبى حسان، قال العقيلى: لا يعرف هذا الحديث إلا بزياد، ولم يتابع عليه، وقال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وقال الدارقطنى: هو متروك. اهـ (ص ١٧١ جـ ٢) موضوعات.
ولهذا الحديث ألفاظ كثيرة كلها ضعيفة، والله أعلم.

(٢) حديث « من فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا»... إلخ. جزء من حديث متفق عليه أوله «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يسلمه... إلخ. وآخره «ومن ستر مسلمًا ستره الله يوم القيامة». أما الرواية التى أولها «يؤتى بأهل الحوائج» فلم أجدها ، والله أعلم.

ثم يؤمر به إلى النَّار، ويقُول: إنما خلقْتُ رحمتى للرحماء من خلقى.

يروى أن رجلا من التابعين أتى أبا هريرة رضى الله عنه فقال له: ادع الله لابنى زيد، فإنه سافر فى البحر، وإنه وقع فى نفسى الخوفُ عليه، فقال أبو هريرة رضى الله عنه: ارجع إلى بيتك، وخذ شيئًا من خالص مالك، وتصدق به على الفقراء على وجه الفداء لزيد، فإنه أسرع فى إغاثة ابنك من دعاء أبى هريرة، فرجع إلى بيته مبادرًا، فأخذ شاة كانت عنده فذبحها، واشترى خبزًا كثيرًا، فأطعم المساكين وهو يقُول: اللهم هذا فداء ابنى زيد من البلاء، فوافى ذلك ابنه زيدًا ومن معه فى السفينة وقد أشرفُوا على الهلاك والغرق، فإذا رجال بيض الثياب، بيض الوجوه، كأنهم يحملون السفينة على وجه الماء، وإذا هاتف ينَادى: ألاَ إن الفداء مقْبول، وزيد مغَاث، حتى بلغوا قرية من قرى الساحل، فأرخوا ذلك اليوم وتلك الساعة، فإذا هو اليوم الذى تصدق فيه أبو زيد على وجه الفداء لابنه زيد.

وأصل ذلك قوله ﷺ: «عليكم بصنائع المعروف، فإنها تقى مصارع السوء»[(١)].

وقال ﷺ: «باكروا بالصدقة، فإن البلاء لا يتعداها»[(٢)].

وقال ﷺ: «داووا مرضاكم بالصدقة»[(٣)].

وقال ﷺ: «إن الله آخذ بيد الكريم، كلما عثر أقَامه».

وإلى ذلك أشار بقوله فى عجز بيته:

---

(١) «عليكم بصنائع المعروف»... إلخ. حديث ضعيف أخرجه القضاعى بلفظ «صنائع المعروف تقى مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر» قال صاحب الكشف: وفيه صدقة بن عبد الله وثقه دحيم، وضعفه الجمهور (ص ٢٩ جـ ٢) وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٦٦٥ بلفظ «الصدقة تمنع ميتة السوء» وقال: ضعيف، ثم عاد وحكم عليه بالوضع لوجود القاسم بن أحمد الملطى. والله أعلم.

(٢) حديث «باكروا بالصدقة فإن البلاء لا يتعداها» حديث ضعيف رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا بلفظ «فإن البلاء لا يتخطاها» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٦ وقال: قال ابن حجر: ليس الحديث بموضوع، وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته، والله أعلم.

(٣) حديث« داووا مرضاكم بالصدقة» ضعيف جدًا، رواه البيهقى فى الشعب، وأوله «حصنوا أموالكم بالزكاة» قال صاحب الكشف: فيه فضاله بن جبير صاحب مناكير، ورواه الديلمى بلفظ «داووا مرضاكم بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة»... إلخ. وقال البيهقى: إنه منكر بهذا الإسناد (ص ٤٣٣ جـ ١) كشف.

* وبار الولى نفلا يحطك ولاء *

وقال ﷺ: «احفظ الله فى الرخاء يحفظك فى الشدة، احفظ الله تجده أمامك»[١].

يروى أن العبد إذا كان يذكر الله فى الرخاء ويعبده، ويتَضَرعُ إليه ويناجيه، فإذا أصابته فاقة أو بلية فدعا الله، قالت الملائكة: إلهنا صوت معروف، فيقول: نعم أجيبوه واقضوا حوائجه، وإذا كان العبد غافلا عن ربه، فأصابته شدة أو بلية فدعا الله، قالت الملائكة: إلهنا، صوت مجهول، فيقول: ذروه، فإنه نسينا فى الرخاء، فننساه فى الشدة.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣٣ـ وَهَبْ ذا الْقَصِى سُكْنَى القَصَاء وَدَعْ نَهًى
وَبِالْعَسْجَدِ اجْبُر مَا أَفَاتَ نَهَاء

وهب: أمر من الهبة، وهى تمليك من غير أخذ عوض من المملَّك. ذا القصى: أى صاحب النسب البعيد، وهو مصدر قصى الشىء: إذا بعد، ولذلك سمى قُصَى قصيًا، لأنه تقصى عن قومه مع أخواله من قُضاعة.

قوله: سُكْنى القصاء، أى أَدْنِ منك ذا النسب البعيد تُسكنه قَصاء دارك بالمد، أى فناءها، وإذا فعلت هذا بقصى النسب، فمن باب أحرى قَريبه. وفى المثل «دانق تحبب وتقرب، خير من قنطار نسب مع تجنب».

قوله: ودع نهى بالقصر، أى اترك نَهى فى طلب نيل المال الخسيس بل اجبر ما أفاته[٢] واجبر ما أفسدته بالخلق النفيس وهو الودع وما شاكله من المال الخسيس، لأن النفيس لا ينال ولا يشترى بالخسيس بل اجبر ما أفاته نهاؤك، وهو كناية عن

---

(١) حديث «احفظ الله فى الرخاء»... إلخ. حسن رواه الطبرانى والقضاعى. وهو جزء من حديث طويل أوله «كنت رديف النبى ﷺ، فالتفت إلى فقال: يا غلام احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة» وفى بعض رواياته ضعف.

(٢) هذه العبارة التى هى (بل اجبر ما أفاته) موجودة فى النسخة (ب) دون (أ).

سوء صنيعك، عبر عنه بالنهى الذى هو عدم إنضاج اللحم بأنفس أموالك، وهو العسجد، أى الذهب النفيس الأحمر، إذ هو الخليق بأن يرفع من شرفك ما قدمَ، ويبنى من طائل عرشك ما هدم، ويقدم[1] للعدو إذ أعد، فارفع همتك واربأ بها عن سفساف الأمور، واجنح إلى معاليها، فإذا وقعت إساءة منك إلى أحد، فامحها بأحسن شىء عندك وأنفسه، قال الرسول ﷺ «التحبب إلى الناس نصف العقل، والاقتصاد نصف العيش، والطهارة نصف الإيمان»[2] فكأنه يقول: قرِّب بقصى أخلاقك الواسعة الأطراف كل من تقصّى عنك إلى الفِناء والأكناف لتكون من ذوى الهيئات الأشراف.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

لعمرك ما المصيبة هدم دار ... ولا شاة تموت ولا بعير

ولكن المصيبة موت حر ... يموت بموته بشر كثير

ودع دنى الأخلاق كالودع، فإنه لا يلم شعثاً ولا يبرم نكثا، بل ما أفاته عليك نهاء أخلاق غيرك هى الغاية فى الأخلاق الحميدة، والشيم الكريمة التى كنت توصف بها وتنسب إليك، أو كان فلتة من فلتات الكرام فأصلحه بعسجد أخلاقك الكريمة.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وداوِ بلينٍ ما جرحتَ بغِلظةٍ ... فَطِبُّ كلام المرءِ طيبُ كلامه

---

(١) فى (ب): ويقدر على العدو إذا أعد.

(٢) حديث «التحبب إلى الناس»... إلخ. ضعيف رواه البيهقى والعسكرى والديلمى والقضاعى بألفاظ مختلفة، كما أورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٧٦ بلفظ «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة، والتودد إلى الناس نصف العقل، وحسن السؤال نصف العلم» وقال فيه: ضعفه البيهقى وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٥٧ بلفظ صاحب الكشف وقال فيه: ضعيف. وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/ ٢٨٤) سألت أبى عن حديث رواه هشام بن عمار عن المخيس بن تميم فذكره وقال: قال أبى: هذا حديث باطل ومخيس وحفص مجهولان. اهـ.
وقال الذهبى فى ترجمة مخيس هذا: روى عنه هشام بن عمار حديثًا منكرًا، وساق الحديث (ميزان).

وكنا نَعاف اللحم لنتنه وخبثه، فلا تألفه طباعنا، ولا تشتهيه نفوسنا، لأن النفوس تمجه وتعافه ولا تألفه، كما أن الخلق السيئ تنفر منه الطباع، ويعجز عن ثقله الدفاع، وتستبشع مباشرته البقاع، فإنه ليبغض إلى الأولاد، كما أن الخلق الحسن يحبب إلى الأضداد. قال الشاعر: (من بحر الرجز)

الناس كالأرض ومنها هم   من لين المس ومن خشن
فجندل تدمى به إصبع   وإثمد يجعل فى الأعين

وفيه التلويح بقوله: «ودع نهى» إلى قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ [البقرة:٢٦٧] أى فلا تيمموا الخبيث من الأخلاق تنفقون أو تدفعون به، فإنه لا يرتضيه لكم، كما لا يرتضى الخبيث منكم فى الإنفاق، كذلك لا يرضى منكم سيئ الأخلاق، لأنه طيب، ولا يحب إلا الطيب صفةً كالخيار[١]، وحقيقة كالحلال، لأن الله لا يمحو الخبيث بالخبيث، وإنما يمحو الخبيث بالطيب.

أما ما فيه من الاقتباس، فإن البيت مقْتَبس من قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ﴾ إلى ﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥] وهذه الآية الكريمة من أمهات الأخلاق الكريمة والشيم، ومن جوامع الكلم والحكم، إذ لو تتبعنا تفنن أفانينها، وإيضاح أعلامها وبراهينها، لأتينا فى ذلك بمجلدات، وفى هذه الآى وأمثالها يقول رسول الله ﷺ «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»[٢]. وناهيك من خصلة تَجعل العدو وليًا حميمًا، وتنيل من تخلق بها عند الله حظًا عظيمًا، وتكسب يوم القيامة أجرًا جسيمًا، ويكون فى العالم العلوى والسفلى محببًا

(١) فى النسختين (الخيار) والمعنى غير واضح.
(٢) حديث «أدبنى ربى فأحسن تأديبى» لا سند له ثابت عن النبى ﷺ ومعناه صحيح رواه العسكرى بسند ضعيف جدا. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٤ وقال فيه: قال ابن حجر: إنه غريب ولكن معناه صحيح إلى أن قال: وأخرجه السرقسطى فى الدلائل له بسند واه. ثم قال: وبالجملة فالحديث كما قال ابن تيمية لا يعرف له إسناد ثابت عن النبى ﷺ. وقال فى اللآلئ: معناه صحيح لكن لم يأت على النبى ﷺ من طريق صحيح. وقال ابن الجوزى: لا يصح ففى إسناده ضعفاء. ويتضح من كل هذه النقول أن الحديث لا يصح من حيث السند وهو صحيح قطعا من حيث المعنى والله أعلم.

كريمًا، ويكون للألد الخصم خصيمًا.

يروى أن عيسى ابن مريم عليه السلام مر على ملأ من كبار بنى إسرائيل، فجعلوا يسبونه ويقولون له: يا فاعل ابن الفاعلة، يا ساحر يابن الساحرة وهو يثنى عليهم، فقال له الحواريون فى ذلك، فقال لهم: كل ينفق مما عنده، امتلأوا شرًا فأنفقوا منه، وامتلأتُ خيرًا فأنفقتُ منه.

وفى مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وكل إناء بالذى فيـــه راشـــح وأهل الخنا والشر رشح الشرار

ويروى أن النبى ﷺ لما فتح مكة اجتَمعتْ إليه قريش وهى تخاف أن يسترقها، قال لهم: يا معشر قريش ما تظنوننى فاعلاً بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال لهم «اذهبوا فأنتم الطلقاء». ولما فتح مكة أهدر دماء رجال منهم ابن الزبعرى السهمى، وكان لسان قُريش وشاعرها، وكان يبارى حسان بن ثابت[1] فى هجو النبى ﷺ والمسلمين، فلما فتح النبى ﷺ مكة فر إلى نجران، فأرسل إليه حسان بيتًا واحدًا، وهو قوله: (من بحر الكامل)

لا تَعدمن رجلا أحلك بغضه نجران فى عيـش أجبَّ[2] لئيم

فلما بلغه البيتُ دبتْ فى مفارق رأسه نخوةُ قُريش، فقال: والله لأذهبن إلى ابن عمى [وإن] كان فى ذلك حتفى أو حياتى، فقدم على النبى ﷺ منصرفه من حرب هوازن وأتى بقَصيدته التى أولها قوله: (من بحر الكامل)

منع الرقَاد بلابلٌ وهمـــــوم والليـل معتلج[3] الرواق بهيم
ممـا أتَانى أن أحمـد لامنى فيــه فبتُّ كأننى محمـــوم
يا خير من حملت على أوصالها عَيْرانَةٌ سرح اليدين[4] غشـوم

(١) حسان: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام وستأتى ترجمته.
(٢) أجب: مقطوع، والمراد أنه ناقص حقير.
(٣) معتلج: متلاطم.
(٤) سرح اليدين: سريعة الخطو أو المشى.

إنى لمعتذر إليك من الذى ... أسديت إِذْ أنَا فى الضلال أهيم
أيام تأمرنى بأغوى(١) خطة ... سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقُودنى ... أمر الغواة وأمرهم مشؤوم
فاليوم آمن بالنبى محمدٍ ... قلبى ومخطئ هذه محروم
مضتِ العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر بيننا وحلوم
فاغفر فدىً لك والدىَّ كلاهما ... زللى فإِنَّك راحم مرحوم
وعليك من علم المليك علامة ... نور أغر وخاتَم مختوم
أعطاك بعد محبةٍ برهانه ... شرفًا وبرهان الإله عظيم
ولقد شهدت بأن دينك صادق ... حق وأنك فى العباد جسيم
والله يشهد أن أحمد مصطفىً ... مستَقْبلٌ فى الصالحين كريم
فرعٌ علا بنيانُه من هاشم ... فرع تمكن فى الذُّرى وأروم

فعفا عنه رسول الله ﷺ، وأكرمه وأدناه، حتى كأنه لم يعمل ظلمًا، ولم يباشر جرمًا، وآلى على نفسه أن لا ينشد قصيدة فى هضم الإسلام إلا أنشد مثلها فى تعظيمه وذكر محاسنه.

ومن أحسن ما قيل فى هذا النمط قول الشاعر فى الجناس التَّام: (من المتقارب)

خذ العفو وأمر بعرف كما ... أمرت وأعرض عن الجاهلين
ولِنْ بالكلام لكل الأنَام ... فمستحسن لذوى الجاه لين

والبيت الأول من أتم أنواع الاقتباس.

* * *

(١) فى ب: أشقى.

• قال الناظم رحمه الله:

٣٤ـ وَكَمْ ذِى سَخىً أغْرَى السَّخَاءُ بِبَذْلِه
لأنْقَى بَرَتْ أنْقَاءَهُ بُرَحَاءُ

قوله: وكم، أى كثير من جمل. ذى، أى صاحب. سخىً، بالقصر: أى ظلع يصيبه من وثبة، وهو مصدر من سخا يسخو سخىً وسخاءً. قوله: أغرى السخاء بالمد، أى هيج الجود ربه وأغراه إلى بذله، أى إلى إعطائه لرجل أنقى بالقصر، أى دقيق العصب من صفة الأنقى المُعْطى أنه قد برت أنقاءه بالمد[1] جمع نقو بالكسر، وهو كل عظم فيه مخ برحاء، والبرحاء: الشدة، أى أنحلت البرجاء عظامه، ذاتَ النقى، أى المخ، فالسخاء الممدود مرفوع على أنه فاعل أغرى، ولام لأنقى متعلقة ببذله، والمقْصود التزهيد فيما تتنافس فيه النفوس من متاع الدنيا النفيس، فإنه معرَّض للآفات التى تقتضى الرغبة عنه وبذله.

وقوله: برتْ من البرى، وهو إزالة اللحم عن العظم، كما يبرى القلم بالسكين.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

* والشوق والوصل يبرينى[2] ويبرينى *

ومن أحسن ما قيل فى التزهيد فى الدنيا من أجل ما يعرض لها من الآفات، قول صاحب الرياض:

إخـوانى ألبسوا الدنيـا جبـة الهجر   واسمعـوا فيهـا من مواعظ الزجـر
واحسبوهـا يومًا صُمْتُموه للأجـر   وصابروا لياليها فما أسرع إتيان الفجر

ولا تبيعوا الظن باليقين فحرام بيع الحق[3] الذى هو من علامات السفه.

---

(١) العبارة مشوشة وهى موجودة هكذا فى النسختين.

(٢) كذا فى الأصلين ولعل المراد بيبرينى الأولى من البرى الذى هو الانتحال، والثانية من البرء الذى هو الشفاء فتكون الأولى راجعة للشوق والثانية راجعة للوصل.

(٣) كذا فى النسختين والكلام مبتور ولعل تمامه فحرام بيع الحق الذى هو اليقين بالباطل الذى هو الظن لأن ذلك من علامات السفه، والله أعلم.

ثم أنشد فقال: (من بحر البسيط)

يا أيها الذى قد غَره الأملُ ... ودون ما يأمل التنغيص والأجلُ

ألا تَرى أنما الدنيا وزينتها ... كمنزل الركب حلوا ثمتَ ارتحلوا

حتُوفها رصد وعيشها نكد ... وصفوها كدر وملكها دول

تظَل تُفْزِعُ بالرَّوعات طالبها ... فما يسوغ له لبس ولا جذل

كأنه للمنَايا والردى غرض ... به تظل بنَاتُ الدهر تَنْتضل[1]

والنفس هاربةٌ والموتُ يتْبعها ... وكل عثرة رجل عِندها جلل

والمرء يسعى بما يسعى لوارثه ... والقبر وارث ما يسعى له الرجل

وفى مثل هذا يقول: (من بحر الطويل)

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدوٍّ فى ثياب صديق

وما يعدم الدنيا الدنية أهلها ... شواظ لهيب أو دخان حريق

فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها ... قرارًا فما دنياك غير طريق

عليك بدار لا تزول ظلالها ... ولا يتأذى أهلها بمضيق

وقُل لغَريب الدار إنك راحل ... إلى منزل نَاء المحل سحيق

وقال غيره: (من بحر الطويل)

تَزود قَرينًا من فعالك إنما ... قرين الفَتَى فى القبر ما كان يفعل

ولن يصحب الإنسانَ من بعد موته ... إلى قَبره غير الذى كان يعمل

ألا إنما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلا عندهم ثم يرحل

وقال غيره:

إن لله عبادًا فُطنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا

فكَّروا فيها فلما أيقنوا ... أنها ليستْ لحَيٍّ وطنا

---

(١) انتضل السهم: أخرجه، والمراد تعبث به.

جعلوها لجةً واتخذوا صالح الأعمال فيها سفُنَا

نزلوا فيها رجال قَبلنا رحلوا عنها وخلوها لنا

وقال مطر القَارى: غلبنى النوم ليلةً فنمت عن حزبى، فرأيت فيما يرى النائم جاريةً كأنها القمر المستتم ومعها رَقٌّ، فقالت: أتقرأ أيها الشيخ؟ قلت: نعم، قالت: اقرأ هذا الكتاب، ففتحتُه، فإذا فيه مكتوب: (من بحر الوافر)

أألهتك اللذائذ والأماني عن الفردوس والظلل الدوانى

ولذة نومة عن خير عيش مع الخيرات فى غرف الجنان

تَعيش مخلدًا لا موت فيها وتبقى فى الجنان مع الحسان

تيقظ من منامك إن خيرًا من النوم التهجد بالقران

وقال مالك بن دينار: كان لى جار بطَّال، فبينما هو ذات ليلة فى بطالته ولهوه، إذ سمع هاتفا ينْشد: (من بحر البسيط)

يا أهل لذة دار لا دوام لها إن المنايا تُبيد اللهو واللعبا

كم قَد رأيناه مسرورًا بلذته أمسى فريدًا من الأهلين مغتربا

قال: فتاب وحسن رجوعه إلى الله، والحمد لله.

وقال مالك بن دينار[1]: ترك الرجل درهمًا من حرام إذا تركه من خشية الله خير له من أن يتصدق بمائة ألف دينار، ونحو هذا عن سحنون[2].

قال عياض فى «المدارك»: قال يحيى بن عمر: كان سحنون يقول: ترك الحرام أفضل من جميع عبادة الله تعالى، وترك الحلال لله أفضل من سبعين ألف حجة تتبعها سبعون ألف عمرةً مبرورة متقبلة، وأفضل من سبعين ألف فَرس فى سبيل

---

(١) مالك بن دينار البصرى أبو يحيى من رواة الحديث المعروفين والزهاد المشهورين كان ورعا يأكل من كسب يده ويكتب المصاحف بالأجر توفى رحمه الله بالبصرة عام (١٣١).

(٢) سحنون: هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخى قاض فقيه انتهت إليه رئاسة العلم فى المغرب كان زاهدًا لا يهاب سلطانًا فى حق يقوله أصله من الشام ومولده بالقيروان، ولى القضاء بها سنة ٢٣٤ إلى أن مات، كان رفيع القدر أبى النفس، توفى رحمه الله عام ٢٤٠ هجرية، والله أعلم.

الله بزادها وسلاحها ومن سبعين ألف بدنة يهديها إلى بيت الله العتيق، وأفضل من عتْق سبعين رقبة مؤمنة من ولد إسماعيل، فبلغ كلامه هذا عبد الجبار بن خالد، فقال: نعم، وأفضل من ملء الأرض إلى عنَان السماء ذهبًا وفضة كسبت من حلال، وأنفقت فى سبيل الله لا يراد بها إلا وجه الله تعالى. انتهى من «المدارك» من ترجمة سحنون.

وقال القشيرى فى «التحبير»: قيل: يؤخذ بالدانق من الفضة سبعمائة صلاة مقْبولة، فتعطى للخصم يوم القيامة. قَال أبو محمد بن عتَّاب فى «شفائه» قال مالك بن دينار: لو أن رجلا نادى بباب المسجد: أخْرجوا شركم رجلاً ما سبقنى أحد إلى الباب قال: فبلغ قوله عبد الله بن المبارك، فقال: بهذا صار مالك بن دينار مالكًا.

وعن خلف بن تَميم قال: التقى إبراهيم بن أدهم وشقيق البلخى بمكة، فقال إبراهيم لشقيق: ما كان بدء أمرك الذى بلغك هذا؟ فقال: سرتُ يومًا فى بعض الفلوات، فرأيت طائرًا مكسور الجناحين، فقلت: من أين يأتى رزق هذا؟ فقعدتُ بحذائه، فإذا أنا بطائر قد أقبل وفى منقاره جثة جرادة، فوضعها فى منقار الطائر المكسور الجناحين، فقلت لنفسى: يا نفس الذى قيض الطير الصحيح للطير المكسور فى هذه الفلاة، قادر على أن يرزقنى حيثما كنت، فتركت التكسب، واشتغلت بالعبادة. وذكر ابن عتَّاب فى ترجمة شقيق البلخى أنه أوصى حاتمًا الأصم أن لا يجلس فى الأسواق، فإن الجلوس فيها يبعد من رحمة الله، وهذا يوافق ما ذكره ابن العربى فى «أحكام القرآن» له ولفظه: ولما كثرَ الباطل بالأسواق، وظهرت فيها المناكر، كره علماؤنا دخولها لأرباب الفضل والمقتدى بهم فى الدين تنزيها لهم عن البقاع التى يعصى الله فيها، وإذا كره لهم دخولها، فالجلوس بها أشد، إذ لا يخلو الجالس بها من مشاهدة منكر.

وقال سهل[1] بن عبد الله: منْ خاف الله أمنه، ومن رجا منه أمرًا بلغه، ومن تقرب إليه قَبله، ومن توكل عليه لم يكله إلى نفسه.

---

(١) سهل بن عبد الله بن يونس التسترى أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين فى علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال، له كتاب فى التفسير وغير ذلك توفى عام (٣٨٣) هجرية.

وقال: أعمال الخير يعملها البر والفاجر، والمعاصى لا يتجنبها إلا الصِّدِّيقون، وقال: ومن أخلاق الصديقين وسيرهم أن لا يحلفوا بالله لا صادقين ولا كاذبين، وأن لا يغتابوا أحدًا من خلق الله، وأن لا يُشبعوا بطونهم، وإذا وعدوا لم يخلفوا.

وقال: ما من يوم إلا والله عز وجل يقول: يابن آدم ما تنصفنى، أذكرك وتَنْسانى، وأدعوك إلىَّ وتذهب إلى غيرى، وأدفع عنك البلايا وأنت معتكف على الخطايا، فماذا تقول إذا أتيتنى غدًا؟

وقال: علامة حب الله عز وجل حب القرآن، وعلامة حب القرآن حب النبى ﷺ، وعلامةُ حب النبى ﷺ، اتباع سنته.

ومن أولى ما ينبغى اجتنابه من زخارف الدنيا وشهواتها العاجلة: النساء، لأنَّهن حبائل الشيطان. قال الشميط بن عجلان: ما خلا رجل بامرأة ليست منه بمحرم إلا بسط الشيطان حبائله بينهما، ودعا كل عضو منها إلى كل عضو منه، وكانا فى سخط الله حتَّى يفترقا، وما من نظرة تنظر إليه أو ينظر إليها إلا هويا بها فى النار مائة عام.

وقال رضى الله عنه: من رضى بالفسق فهو من أهله، ومن رضى أن يعصى الله لم يرفع الله له عملا.

وقال: إن الله تعالى جعل قوة المؤمن فى قلبه، ولم يجعلها فى أعضائه، ألا ترى أن الشيخ يكون ضعيفًا يصوم الهواجر، ويقوم الدياجر[1]، والشاب يعجز عن ذلك.

قال عبد الله بن شميط: سمعت أبى يقول: إن المؤمن أبصر الدنيا فأنزلها حيث أنزلها الله، فإن هى أقبلت عليه قال: لا مرحبًا بك ولا أهلا، والله ما أظنك جئت بخير، وما فيك من خير، إلا أن أفتدى بك من النار، وأطلب بك الجنة، فإن أدبرت عنه قال: عليك العفى، وعلى من يتبعك نفسه السفى، الحمد لله الذى صرف عنى بليتك وشرك.

وقال محمد بن واسع: بينما أنا قائم أصلى وأنا يومئذ غلام، إذا أنا برجل على

---

(١) الدياجر: الظلم.

فرس فقال: يا غلام، عليك بالبر والتقوى، فإن البر والتقوى يهديان إلى الإيمان، وإياك والكذب والفجور، فإن الفجور والكذب يهديان إلى النار، ثم قال: يابن أخي اصحب أولياء الله، فقلت: بأي شيء أعرف أولياء الله؟ فقال: إن أولياء الله، العقلاء الحذرون المسارعون في رضوان الله، الراغبون له، فإذا رأيت أهل هذه الصفة فاقترب منهم، فإنهم أولياء الله، فقلت له: كيف أعرف أهل النفاق والكذب والفجور؟ فقال: أولئك قوم إذا رأيتهم يأباهم قلبك، ولا يقبلهم عقلك، وإذا سمعت كلامهم سمعت كلامًا لا منفعة له، وإياك أن تصحب أهل الخلاف، قلت: ومن أهل الخلاف؟ قال: المفرقون بين الكتاب والسنة، أولئك عبيد أهوائهم، تراهم مصطحبين وقلوبهم يلعن بعضهم بعضا، فاحذر هؤلاء، وعليك بالصلاة والتقرب إلى الله عز وجل بالنوافل، فإنك إذا كنت كذلك كنت شاكرًا عالمًا. قال: ثم التفتُّ فلم أر أحدًا.

ومن وصايا وهب بن منبه: أكثر من ذكر الموت، وقصر أملك، وخطة ثالثة إذا كنت أصبتها ظفرت بالغاية القصوى وألقيت بها عنك حملا ثقيلا وحملت أمرك على من هو أقوى عليه منك؛ قال: ما هي؟ قال: التوكل على الله سبحانه وتعالى.

قال أحمد بن حرب: بلغنا أن النبي ﷺ قال: «من أطاع الله فقد ذكره وإن قل صيامه وصلاته وتلاوته القرآن»(١).

وبلغنا عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يا أبا هريرة كن ورعًا تكن أعبد الناس»(٢).

---

(١) حديث «من أطاع الله»... إلخ. رواه الطبراني، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٤٦٣ وفيه زيادة: «ومن عصى الله لم يذكره وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته القرآن»، قال المناوي: قال الهيثمي: وفيه الهيثم بن جماز وهو متروك (٦/ ٧٠).
والغريب أن السيوطي رمز له بالحسن، إلا أن المناوي تعقبه.

(٢) حديث: «كن ورعًا تكن أعبد الناس»... إلخ. هذا أول حديث رواه البيهقي والقضاعي، وهو ضعيف جدًا.
وأورده السيوطي في جامعه تحت رقم ٦٤٢٢ ورمز له بالضعف، قال شارحه المناوي: قال العلائي وأبو رجاء: متكلم فيه، وأقول أيضًا: فيه، يزيد بن سنان أورده الذهبي في الضعفاء، قال: يرى القدر وبه يعرف ٥/ ٥٢ فيض.

وبلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»(١).

وعن وهب المكى أنه قال: إذا كانت العبادة الصلاة والصيام فما أيسرها وإنما العبادة الورع.

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ما تقبل منكم إلا بورع صادق».

وبلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «جلساء الله غدًا أهل الورع والزهد فى الدنيا»(٢).

وبلغنا عن كهمس أنه قال: قال الله سبحانه لموسى عليه السلام: إنه لم يتزين إلى المتزينون بشىء خير من الزهد فى الدنيا، ولم يتقرب إلى المتقربون بشىء خير من الورع عما حرمت. قال: يا رب، فبم أثبتهم؟ قال: أما الزاهدون فى الدنيا فإنى أثبتهم بالجنة يتبوؤون منها حيث شاءوا. وأما الورعون فإنه لم يخطر خاطر الحساب يوم القيامة إلا ناقشته ونصبته للحساب إلا أهل الورع فإنى أجلهم وأستحيى منهم أن أسألهم عن شىء، وأما أهل الدموع فإنهم سكان الرفيق الأعلى. جعلنا الله من جملتهم وأن يحشرنا فى زمرتهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣٥ـ وَعَجْلَى لَدَى الْعَجْلاءِ حَنَّتْ لِبَارِقٍ

بِغَمىً وَلِلْغَمَّـــاءِ مِنْه ضِيَـــاءُ(٣)

أى ورب امرأة عجلى بالقصر: أنثى العجلان، يقال: رجل عجلان وامرأة

---

(١) (فضل العلم: زيادته). وحديث «فضل العلم»... إلخ. أورده ابن عبد البر فى جامع بيان العلم (١/١٧).

(٢) حديث «جلساء الله غدا أهل الورع»... إلخ. ضعيف رواه الديلمى وابن لال وأورده السيوطى تحت رقم ٣٥٩٧ ورمز له بالضعف، وقال شارحه المناوى: إسناده ضعيف (٣/ ٣٥٠).

(٣) فى النسخة (أ): (بغمى ولا غماء ثم تناء) وعلى هذه الرواية شرح الشيخ رحمه الله.

عجلى كثكلى وثكلان. لدى: أى عند المكان المسمى بالعجلاء، بالمد. حنت: أى اشتاقت إلى إلفها لأجل رؤية بارق لمع من جهته بليلة غمى، بالقصر: أى غم فيها الهلال، وهو فعل من الأفعال التى لا تأتى إلا مبنية للمجهول وهى: غم وحم وسقط وجن وكفي وطل، فى حال كونها على فرس غماء، بالمد، أى: مستورة الجبهة بشعر الناصية، ولا يختص ذلك بالخيل؛ فهى لأجل ذلك غماء. ثم تناء أى: تنهض. مضارع أناءها أى: أنهضها، مبنى لما لم يسم فاعله.

والمقصود أن صفاء هذه الدار مشوب بالأكدار، وحلوها متعقب بالمرارة وقد تعذرت فيها الأوطار، فيحمل ذلك الأحرار على استعمال الأسفار، واقتحام الأخطار، واعتساف الأقفار، والإدلاج فى ظلمات الليل على متون العتاق من الخيل، حتى يتسبب عن ذلك الحنين لرؤية البارق، وطلوع الشارق، بقلب خافق، لأجل أسىً غير موافق؛ ولذلك قال ﷺ: «لأن أموت بين شعبتى رحلى فى طلب الحلال أحب إلى من أن أموت غازيًا فى سبيل الله».

ويروى أن رجلاً من الأنصار كان كثير الإقبال والإدبار فى طلب الحلال، وكان قويًا شديدًا، وكان كلما قدم من سفر أول ما يبدأ به أن يدخل على رسول الله ﷺ ويستصحب معه مقدوره من الهدية، فدخل عليه ذات يوم وعنده أبو بكر وعمر فقالا: ليت قوته يا رسول الله كانت فى سبيل الله، فقال ﷺ: «أتريدان بسبيل الله الجهاد؟ قالا: نعم، قال: ما الجهاد بأفضل مما هو فيه إن صحت نيته».

وقال ﷺ: «إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها صلاة ولا صيام ولا حج ولا جهاد إنما يكفرها الكدُّ فى طلب الحلال»[1].

وقال ﷺ: «من ضاعت دنياه فآخرته أضيع».

وقال ﷺ: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»[2]

---

(١) «إن من الذنوب ذنوبا»... إلخ. ضعيف رواه الطبرانى وأبو نعيم والخطيب، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٨٣ وأورده صاحب الإحياء ٢/ ٣٣ مختصرًا، قال العراقى: وسنده ضعيف.

(٢) حديث «اعمل لدنياك»... إلخ. لا أصل له مرفوعًا، رواه ابن قتيبة فى غريب الحديث له موقوفًا، وابن المبارك فى الزهد، والبيهقى مرفوعًا بسند ضعيف، وعنهم الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨ وقال: لا أصل له مرفوعًا، والله أعلم.

فهذا من الأحاديث التى جمعت من العلوم ما لا يدخل تحت حصر.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

فإنمـا رجلُ الدنيا وواحدُهـا   مَنْ لا يعوِّل فى الدنيا على رجلِ

وقال غيره: (من بحر الكامل)

احتـلْ لنفسك أيهـا المحتـالُ   ومنْ المروءة أن يُرى لك مالُ

وقال الله تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥] لأديانكم ومروءاتكم.

وقال ﷺ: «ناقش عند درهمك فإن المغبون لا مأجور ولا مشكور».

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣٦ ـ وأظْمَى لَدَى الأَظْمَاءِ يَنْفعُ مَوْرِدًا   وإنْ بَعُـدَتْ عَنْهُ رَحىً وَرَحَـاءُ

أى: رب رمح أظمى أى: سريع الورود عند الهيجاء لتعطش صاحبه إلى ملاقاته الأقران؛ فيورده من نجيع أجوافهم حتى يرويه، فلما كثر وقوع ذلك منهما صار بذلك الرمح وكأنه اكتسب الظمأ من سريان حال حامله إليه لم يكن جبانا ولا معردا[١].

قال حسان[٢] رضى الله عنه فى قصيدته المشهورة: (من بحر الوافر)

عـدمنَا خيلَنا إن لم تروها   تُثير النقع موعدهـا كـداءُ

---

(١) معردًا: هاربا.

(٢) حسان: هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام الأنصارى الخزرجى ثم النجارى شاعر رسول الله ﷺ، قال أبو عبيدة: فضل حسان على الشعراء بثلاثة: كان شاعر الأنصار فى الجاهلية، وشاعر النبى ﷺ فى أيام النبوة، وشاعر اليمن كلها فى الإسلام. ومع ذلك يوصف بالجبن، كان ﷺ يقول له: «أجب عنى، اللهم أيده بروح القدس».

وقال له: «اهجهم وجبريل معك». مات رضى الله عنه بعد سنة أربعين وعمره مائة وعشرون سنة. ويعد حسان من المخضرمين، عاش فى الإسلام ستين سنة وفى الجاهلية ستين سنة، والله أعلم.

ينَازعن الأعنـة مصعـدات	على أكتافها الأُسُل الظماءُ

وأظمى: نعت لمحذوف. ولدى: بمعنى عند. الأظماء: جمع ظِمءٍ، بالكسر، وهو ما بين الشربتين، فينفعه رمحه إذ قد تعود ذلك وإن بعدت عن ذلك المورد رحى، بالقصر: أى أعوانه فى الحرب المتكاثرن الذين يدورون فى الحروب كدوران الرحى عندما تطحن فلا تجاوز مركزها وإن دارت ولا تسعى فى غير توهين ما صادمته حتى تأتى على آخره. والرحاء، بالمد: لغة شاذة فى رحى: الطاحونة، وإنما أتى بها مراعاة للازدواج.

وفى البيت من البديع الكناية مع كونه مفرغا فى قالب التمثيل؛ فكنى عن الحزم بالرمح، وعن العزم بالإيراد، وعن الشدائد بالأظماء، فالنحرير السميدع المقدام الذى قد أعد للأمور أقرانها إذا ناب خطب مذهل أضمر فى نفسه أن ليس لرده غيره؛ فيمتطى جواد عزمه، ويعتقل رمح حزمه، وقد لبس درع صبره، وأفرغ على رأسه قوس خيره، وتقلد سيف اعتماده، وأخذ جُنَّةَ اعتقاده، فناهده ثم جاهده، فلا يفتح الخطب باب ريح حرب إلا فتح عليه إعصارها، حتى يحقق خيبتها وخسارها، فيصير ليلها نهارا وصرحها غبارا، فلا يبالى إن بعدت عنه رحى قومه لكفايته بعزمه وحزمه وجلده، فهو واحد نسجه وفريد عصره، كما قالت عائشة رضى الله عنها: عمر نسيج وحده.

وقال ابن دريد: (من بحر الرجز)

والنـاس ألفٌ منهم كواحـدٍ	وواحدٌ كالألف إن أمرٌ عنى

وقال ﷺ: «الناس اليوم كمائة من الإبل لا تكاد تجد فيها راحلة»، وفى المثل: «رب رجل كألف وألف كأف».

وفى مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغماء إلا ابن حرةٍ	يرى غمرات الموت ثم يزورها

يروى أن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص الأموى وكان سيدًا لبيبًا مقداما سريًا[1] متنسكًا، وكان قد أعطى التأييد على كافة المشركين وخصوصًا الروم،

(١) السرى: السيد، والسرى: النهر الصغير.

وكانوا لا يملئون صدره ولا يهولونه، وكان إذا رأى منهم جمعا تقدم فى نحورهم وهو يقول لأصحابه: «غمرات ثم تنجلى» وكانوا إذا رأوه أيقنوا بالغلبة، وكان كثيرًا ما يغزو فى البحر، ولقد انتهى فى غزوه إلى قرى وجزائر فى البحر لم يبلغها غازٍ قبله، وكان يذهب بنفسه طليعة ليتجسس أخبار العدو ويطلع على عوراتهم، فلما أراد الله كرامته بالشهادة ذهب طليعةً فى زورق صغير مظهرًا أنه تاجر، فلقيته عجوز من عجائز الروم فقالت له: أسألك بدينك ودين نبيك إلا ما نفعتنى؛ فحثا لها فى ثوبها من التبر حثياتٍ ولم ينظر إلى ما أعطى ولا إلى ما بقى؛ فرجعت إلى الروم فقالت: هل لكم فى سعيد بن عمرو بن سعيد؟ فقالوا لها: أنى لك سعيد وقد أباد الروم ودوخ صناديدها؟ فقالت: والله إنه لهو، فقالوا: تقدمت لك به معرفة؟ قالت: لا ولكنى رأيت رجلاً يحثو حثوَ الملوك ولا يقبض قَبض التجار، ورأيت وجهًا منيرًا كأنه البدر السافر، والله ما هو بوجه تاجر؛ فثارت عليه أعلاج الروم من كل جانب فقتلوه، فقدم الجيش أميرًا، فلما التحم الحرب جعل الأمير يدمر القوم ويقول: تقدموا لعنكم الله؛ فقالت له بنتُ سعيد: ما هكذا كان أبى يقول؛ فقال: ما كان يقول؟ قالت: كان يدفع فى نحور القوم ويقول: غمرات ثم تنجلى. فانهزم جيش المسلمين.

وفى سعيد هذا يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

ترى الغر الجحاجحَ من قريش ... إذا ما الأمر فى الحدثان غالا[1]

قيامًا ينظرون إلى سعيد ... كأنَّهُمُ يرون به هلالا

ويروى أن أبا ليلى العبسى انفرد عن حيه يومًا فى ظعنه وإبله، فبينما هو يسير إذ غشيته خيل العدو وكان قد اعتقل رمحه فنسيه من شدة الدهش؛ فقال له بعض القوم: يا أبا ليلى إن رميت إلينا برمحك تركنا لك ظعنك، فقال: لا أبا لك أو معى رمحى؟ فنظر فإذا معه رمحه، فأخذه وكر عليهم، فطعن رجلا فدق صلبه، ثم طعن رجلا آخر فدق صلبه، ثم طعن رجلا ثالثا فدق صلبه، ثم جعل يستنقذ منهم الإبل وهو يقول: (من بحر الرجز)

---

(١) البيتان قالهما الفرزدق فى سعيد بن العاص بن أمية لا فى سعيد بن عمرو كما قال الشيخ؛ انظر سير أعلام النبلاء (٣/ ٤٤٤).

ردوا على دانيها الأقاصيا　　　إنى لها بالمشرفىِّ حاميا
ذكرتنى الطعن وكنت ناسيا　　　أنا أبو ليلى ونعم الداعيا

وممن كان يستغنى بنفسه عن الجيوش مروان القرظ ابن ظالم العبسى؛ وذلك أنه لما قتل عمروٌ ملاعبُ الأسنة ابن جعفر بن كلاب العامرى ابنَ عمه علم أنه لا ينجو منه ففر إلى النعمان، فلما أتاه قال له: يا نعمان أجرنى فإنى عملت دمًا ثقيلا، قال: لا تخف فإنك قد نجوت ووقعت فى جوار لا يضام وكنف لا يرام. فلما سمع مروان موت ابن عمه قال لبنى عبس: يا بنى عبس، اشتغلوا بحربكم فإنى ذاهب إلى عمرو ملاعب الأسنة لأقتله. فقال له: ومن لك بقتله وقد دخل فى جوار النعمان؟ فقال: والله لأقتلنه ولو كان فى حجره.

ثم أخذ أهبته وسافر إلى العراق، فلما وصل العراق دخل على الملك وكان ملاعب الأسنة لا يأكل إلا معه فوجد الملك يؤاكل عمرًا وأخاه تمرًا، فحيّا الملك وأقبل عليه ودعاه إلى المؤاكلة، فأخذ بيده تمرًا؛ فقال له العامرى: يا مروان، قتلت ابن عمك وأفرغت لك رئاسة بنى عبس، فجعل يرتعد والتمر يتساقط من يده وهو يقول: أأنت قتلته؟ واحمرت عيناه وانزمع[1]؛ فأشار النعمان إلى عمرو بالانصراف؛ فخرج هو وأخوه، فقال الملك: يا مروان، هل لك فى المال؟ فقال: أبيت اللعن أيها الملك، إن دماء بنى دوارة أشرف من أن تباع بالأموال فقال: ذلك خير لك من الفوات فإنه دخل جوارى، فقال مروان: كفانى شرفًا أن لا يجير علىَّ غيرك، ولئن أجرته علىّ فلن تجير أكفاءه من أبناء عمه.

فلما خرج مروان من عند الملك دخل عليه عمرو فقال له: أيها الملك إنى خفت على نفسى من هذا الفاتك وإنه لم يأت إلا لشر، فقال: أتخافه وأنت تحت جوارى وفى مستقر ملكى؟! فقال: أبيت اللعن إن بنى رواحة نكد أباة؛ وكان النعمان قد بنى لعمرو وأخيه قبةً خارج القصر، فقال له: أعطيك سلسلة فطوق بها قبتك؛ فأخذ السلسلة وطوق بها قبته ونام بها هو وأخوه. فلما ذهب وهن من الليل ذهب مروان إلى القبة فإذا هو بها مطوقة بالسلسلة؛ فضربها بسيفه فقطعها

---

(١) انزمع: أصابته رعدة، وأصل الزمع رعدة تصيب الإنسان إذا هم بأمر عظيم.

وشق القبة ودخل عليهما فأيقظ عمرًا وقال له: تأهب يا قاتل فلان؛ فلبس أهبته، فقتله وأخذ درعه وسلاحه وانصرف، وترك أخاه، فأقبل أخوه يقول: واسوء جواراه؛ قال له: وما ذاك؟ قال: إن مروان قتل أخي عمرًا، قال له: كيف وجد السبيل إليه؟ قال: لو وجد دونه جبلاً لهدّه حتى يخلص إليه! فقال له: ما يرضيك؟ أنبعث معك الدوسر حتى تقتله وتبيد قومه؟ فقال: أجل أيها الملك يرضيني ذلك كل الرضى، فلحقوه، فجعل يطاردهم حتى قتل منهم رجالا واستنقذ منهم خيولا، ثم رجعوا بخيبة، وسار إلى أهله وقد أدرك وتره وشفى غيظه وأخفر الملك في مستقر سلطانه مع ما أتى به من الغنيمة والذكر والشرف ورفع الصيت، وحكايات مثل هذا عن صناديد العرب تخرج عن قصد الاختصار.

ومنهم البراض الكناني وفيه يقول الشاعر: (من بحر الخفيف)

والفتى من تُعَرِّفُهُ الليالي ... والقيان كالحية النضناضِ

وله بالزمان في كل يوم ... فتكةٌ مثلُ فتكة البرّاضِ

ومنهم ربيعة بن مكدم الكناني، وهو المعروف بحامي الظعن، وكان فتًى كما[1]، فبينما هو يسير مع ظعن فيه أمه إذ غشيتهم خيل كثيفة من سليم، فجعل يطاردهم عن الظعن ويطردهم حتى كفهم وهابوه بعد ما قتل منهم رجالا، فأصابه سهم غرب[2] فأتى أمه فقال: اسقني ماء واعصبي لي هذا الجرح فإني هالك لكن سأحميكن ميتًا كما حميتكن حيًا؛ فقالت له: لن يقوتك الماء؛ فاذهب فكف القوم، فإنك إذا شربت استرخيت، ثم قال: (رجز)

ضمي عليَّ العصبَ أمَّ سيّارِ ... فقد رُزِئْتِ فتًى كالدينارِ

فجعلت تعصب جرحه وتقول: (رجز)

إنّا بني ربيعةَ بن مالك ... مرزأً خيارنَا كذلك

ما بين مقتول وبين هالك ... .[3]

---

(١) بياض في النسختين.

(٢) غرب: طائش.

(٣) هكذا في النسختين.

ثم كر راجعًا إلى القوم، ووقف في نحورهم على الثنية، واعتمد على رمحه وقد فاضت نفسه، فوقف كذلك ساعة زمنية وهم يحجمون أن يقتحموا الثنية وهو واقف بها، فلما طال عليهم الوقوف قال بعضهم لبعض: ما بال الفتى لا يحمل علينا ولا يتبع الظعن؟! فلعله نزفه الدم فاعتمد على رمحه أو هو ينتظر أصحابا له؛ فهلم فلنرم الفرس بسهم، فإن قمص الفرس فألقاه فهو ميت، أو قد نزفه الدم، وإلا فهو ينتظر أصحابه، فالنجاء فإنه قد غلبكم وحده فكيف إذا كان له أصحاب من قومه؟! فرموا الفرس بسهم فقمص فألقاه؛ فطلبوا الظعن ففاتهم. فسمع ابن عمه بخبره، فأتاه فواراه، ونصب عليه حجارة ليعرف مكانه، فلما ركب قلوصه ليذهب نفرت من الحجارة المنصوبة عليه؛ فجعل يقول: (من بحر الكامل)

لا يبعدنَّ ربيعةُ بن مُكَدَّمٍ	وسقى الغوادي قَبره بذَنُوبِ
نفرتْ قلوصي من حجارة حَرَّةٍ	نصبت على طَلْقِ اليدينِ وَهوبِ
لا تنفري يا ناق منه فإنه	شريبُ خمر مسعرٌ لحروبِ
لولا السفَارُ وبعدُ قفرٍ مَهْمَه	لتركتُها تحبو على العرقُوبِ

ولم يبلغنا أن أحدًا في جاهلية ولا إسلام حمى ميتًا غيره؛ حمانا الله مصارع السوء بمنه وكرمه، آمين.

* * *

• **قال الناظم رحمه الله:**

٣٧ـ وأهلُ الْغَبَى مِثْلَ الْغَبَاءِ فَدَعْهُمُ ... وَحِدْ عَنْ ذَمِيً تُنْعَشْ وَيَحْيَا ذَمَاءُ

قوله: وأهل الغبى، بالقصر والفتح أي أرباب الجهل الذين صاروا أهلا له واتخذهم الجهل أهلا بأن استوطنهم. والجهل جهلان: منه ما هو ضد العلم وهو عبارةٌ عن ترك ما ينبغي لمثله علمه كعلم الكتاب والسنة والفرائض، قال الرسول ﷺ: «العلم آية محكمة، وسنة قائمة، وفريضة صادقة، وما سوى ذلك فضل»[1].

(١) حديث «العلم آية محكمة»... إلخ. ضعيف رواه أبو داود وابن ماجه في السنة والحاكم في الرقاق، وأورده السيوطي تحت رقم ٥٧٠٩ بلفظ: (العلم ثلاثة وما سوى ذلك فضل: آية =

وقال ﷺ: «عليكم بعلم الفرائض فإنه أول علم يرفع حتى يظل الرجل يطوف فلا يجد من يقسم له فريضةً»[١].

وقال ﷺ: «قَيدوا العلم بالكتاب»[٢].

وقال ﷺ: «كل علم ليس فى كتاب الله دليله فهو جهل».

قوله: مثل الغَبَاء، بالمد والفتح: الغبار لكونهم يضرون ولا ينفعون، وفى المثل (إياك وصحبة الجاهل فإنه يريد أن ينفعك فيضرك). ومن الجهل ما هو ضد الحلم، قال الشافعى رضى الله عنه: العلم فى الرجل الحليم كرامة، ومصيبة فى الأحمق الطياش، كل ذى علم غرثان[٣] إلى حلم. والفرق بين الحلم والصبر هو أن الحلم تحمل الأذى من الخلق، والصبر حبس النفس على امتثال ما يرد عليها من جانب الحق كالسكون تحت عساكر البلايا بالرضى والتسليم وعدم الشكوى والضجر، وتحت عساكر العطايا بالشكر، وتحت بوارق الأوامر بامتثال الأمر، وتحت رعود الزواجر باجتناب مواضع الشر. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

= محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة). ورمز له بالصحة، وقال شارحه المناوى: قال الذهبى فى (المهذب) وتبعه الزركشى: فيه عبد الرحمن بن الغم ضعيف، وقال فى (المنار): فيه أيضًا عبد الرحمن بن رافع التنوخى لم تثبت عدالته بل أحاديثه سناكير. اهـ. وأقول: فيه أيضًا عند ابن ماجه وغيره رشد بن سعد، ومن ثم قال ابن رجب: الحديث فيه ضعف مشهور (٤/ ٣٨٦) فيض، وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبى: ضعيف (٤/ ٣٣٢) مستدرك.

(١) حديث (عليكم بعلم الفرائض الخ) رواه ابن ماجه والدارقطنى والحاكم، ولفظ الحاكم: «تعلموا القرآن وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلموه الناس؛ فإنى امرؤ مقبوض، وإن العلم سيقبض، وتظهر الفتن حتى يختلف الاثنان فى الفريضة لا يجدان من يقضى بها». اهـ. وقال: صحيح الإسناد وله علة، وقال الذهبى: صحيح كذا رواه النضر (٤/ ٣٣٣) مستدرك.

(٢) حديث «قيدوا العلم بالكتاب» لا أساس له من كلام النبى ﷺ، وقد يكون من كلام أنس أورده صاحب الكشف تحت رقم (١٩٠٦) بلفظ «قيدوا العلم بالكتابة» وقال: رواه الطبرانى وأبو نعيم.. إلى أن قال: ما أحسبه من كلام النبى ﷺ بل من قول أنس (١/ ١٣٠).

وروى عبد الله بن المثنى عن ثمامة أنه قال: كان أنس يقول لبنيه: قيدوا العلم بالكتابة، والله أعلم.

(٣) غرثان: جائع، أو محتاج.

وفي الخبر: «الصبر على ثلاثة أقسام: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على المصيبة؛ فالصابر على الطاعة له في الجنة ثلاثمائة درجة، كل درجة كما بين السماء والأرض، والصابر عن المعصية له ستمائة درجة كما بين السماء السابعة إلى الأرض، والصابر على المصيبة له تسعمائة درجة، كل درجة كما بين العرش والثرى»(١).

قوله: فَدعهم: أي اترك صحبتهم والإعجاب بزيِّهم؛ فالغبى اسم من غَبِى الرجل، بالكسر، غباوةً فهو غبى إذا كان جاهلا، قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وكم لحية طالت على ذقن جاهل ... وما تحتها إلا الغباوةُ والجهلُ

وقوله: أهل؛ مرفوع بالابتداء، ولا وجه لنصبه على الاشتغال لدخول فاء الاستئناف على الفعل المفسر إذ لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. قوله: وحد أي: مل عن ذَمىً، بالقصر والفتح: كل رائحة منتنة تأنفها النفوس الشريفة. تنعش: أي تقوى بعد ضعف وتعلو منزلتك بعد سخف، قال ابن الخطيب: (من بحر المجتث)

من أنت مولاه حاشا ... عــلاه أن يتــلاشى

والله يــا روح قَلبــى ... لا خاب من بك عاشا

قوم لهم أنت ساقٍ ... لا يرجعــون عطاشا

بل النعيــم مقيــم ... لمن أوجبتَ انتعــاشا

لا قَصَّ دهرٌ جناحا ... له وفــاؤك راشــا

ومن بحــولك يقوى ... فكيفَ لا يُتَحــاشا

قوله: ويحيا: من موت الجهل أو الهوى. ذماء: بالمد: تقول: ذَمِىَ المذبوح يذمى: إذا تحرك وارتفع بعد الذبح، قال الله تعالى: ﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا**

(١) حديث «الصبر على ثلاثة أقسام»... إلخ. موضوع رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا، وأخرجه السيوطى فى جامعه تحت رقم ٥١٣٧ ورمز له بالضعف. قال شارحه المناوى: والحديث كما قال ابن الجوزى موضوع (٤/ ٢٣٥) هذا مع أن الألفاظ التى أورد بها الشيخ هذا الخبر لا تماثل لفظ السيوطى ولا ابن الدنيا، وفيها تقديم وتأخير، والله أعلم.

دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤] وهو العلم والعمل به ونور الحكمة.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

وعن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، ودراسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه عبادة، وتعليمه صدقة، وبذله لأهله قربة؛ لأنه معالم الحلال والحرام، وبيان سبيل الجنة، والمؤنس فى الوحشة، والمحدث فى الخلوة، والجليس فى الوحدة، والصاحب فى القربة، والدليل على السر، والمعين على الضر، والزينة عند الأخلاء، والسلاح على الأعداء، به يبلغ العبد منازل الأخيار فى الدرجات العلى، ومجالسة الملوك فى الدنيا، الفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام، به توصل الأرحام، وبه يعرف الله ويوحد، وبه يطاع ويعبد، ولغدوة فى طلب العلم أحب إلى الله من مائة غزوة»(١).

وقال علي: أقل الناس قيمةً أقلهم علما.

وقال بعض السلف: العلوم أربعة: الفقه للأديان والطب للأبدان، والتنجيم للأزمان، والنحو للسان.

وقال الهرواني: (من بحر الكامل)

النحو يصلح من لسان الألكنِ	والمرء تكرمه إذا لم يَلْحَنِ
لحنُ الشريف يُزيله عن قَدره	فتراه يسقط من لحاظ الأعينِ

(١) حديث «تعلموا العلم»... إلخ. كلام موضوع على رسول الله ﷺ، رواه المرهبى، وأورده صاحب «تنزيه الشريعة» وقال: فيه محمد بن تميم السعدى وهو آفته، وقال: أخرجه ابن عبد البر وقال: حديث حسن ولكن ليس له إسناد قوى، وقال: رويناه عن طريق أبى عصمة وهو أحد الكذابين.

وأما قول ابن عبد البر فى الحديث: حسن، فلعله أراد معناه لا الحسن المتعارف عليه عند المحدثين بدليل أنه قال: ليس له إسناد قوى.

قلت: وهذا الكلام عزاه صاحب (تنزيه الشريعة) إلى الحافظ العراقى فى تخريج «الإحياء» إلا أنى لم أجده فيه، إلى أن قال: فإن موسى بن محمد راوى الحديث نسب إلى الكذب والوضع، وعبد الرحيم متروك، ووالده مختلف فيه، والحسن لم يدرك معاذًا. اهـ (١/ ٢٨٢) تنزيه.

قال العراقى فى تخريج الإحياء: رواه أبو الشيخ وابن حبان وابن عبد البر، وقال: ليس له إسناد قوى (١/ ١٢) إحياء.

وترى الدنيَّ إذا تكلم معربا	حاز الفصاحةَ باللسان البيِّنِ
وإذا طلبت من العلوم أجلَّها	فأجلُّها منها مُقيمُ الألسنِ

وقال آخر: (من بحر الرمل)

إنما النحويُّ فى مجلسه	كهلال لاح من بين السدف[1]
يُخرج اللفظةَ من فيه كما	تخرجُ الدرةُ من بين الصدف
اخترِ النَّحو من العلمِ فقد	يدرك النحويُّ بالنحو الشرف

ودخل أعرابى السوق فوجدهم يلحنون فقال: سبحان الله يلحنون ويربحون!

وكلّم أبو موسى بعض قواده فرد عليه الجواب بلحن فقال له: لو نظَرتَ فى العربية! فقال: بلغنى أن من نظر فيها قلَّ كلامه، فقال له: ويحك لأن يقل كلامك بالصواب خير لك من أن يكثر بالخطأ.

وكان يقال: مجالسة الجاهل مرض العاقل.

وقال أبو الأسود الدؤلى: إذا أردت أن تُعذب عالما فاقرن به جاهلا.

وقال ﷺ: «الناس أربعة: رجل يدرى ويدرى أنه يدرى فهو عالم فاتبعوه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فهو غافل فنبهوه، ورجل لا يدرى ويدرى أنه لا يدرى فهو جاهل فعلموه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فهو هالك فارفضوه».

وسأل رجل رسول الله ﷺ أى الأعمال أفضل؟ فقال: «العلم بالله، والفقه فى دينه». وكررهما عليه فقال: يارسول الله، أسألك عن العمل فتخبرنى عن العلم؟! فقال: «إن العلم ينفعك معه قليل العمل، وإن الجهل لا ينفعك معه كثير العمل».

وقال ﷺ: «من علم وعمل وعلَّم عُدَّ فى الملكوت الأعظم عظيما».

وقال الخليل: للعلوم أقفال، ومفاتيحها السؤال[2]. وعنه: زلةُ العالم مضروب

---

(١) السدف: الحجب أو الظلمة.

(٢) حديث «للعلوم أقفال»... إلخ. ضعيف، رواه أبو نعيم بلفظ: «العلم خزائن مفاتيحها السؤال ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل والعالم والمستمع والمحب لهم» وبهذا اللفظ أورده كذلك الغزالى فى الإحياء، وقال العراقى، إسناده ضعيف (١/ ١٠) إحياء.

بها الطبل، وزلةُ الجاهل يخفيها الجهل.

وقال يزيد بن ميسرة: من أراد بعلمه وجه الله أقبل الله عليه بوجهه ووجه العباد إليه، ومن أراد بعلمه غير وجه الله صرف الله عنه وجوه العباد.

وقال الحسن: رأيتُ قومًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: من عمل بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وهو كالسائر على غير طريق، فاطلبوا العلم طلبًا لا يضر بالعبادة، واطلبوا العبادة طلبًا لا يضر بالعلم.

روى عن أنس رضى الله عنه أنه قال: «بينما نحن جلوس مع رسول الله ﷺ إذ أقبل علينا بوجهه الشريف فقال: ألا أخبركم بأجود الأجواد؟ قلنا: بلى يا رسول الله، قال: الله أجود الأجواد، وأنا أجود ولد آدم، وأجود الناس بعدى رجل عَلِمَ عِلْمًا فنشره يبعث يوم القيامة أمة وحده، ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل»[(١)].

وعن الفضيل بن عياض رضى الله عنه: لو أن أهل العلم أكرموا أنفسهم وأعزوا هذا العلم وصانوه وأنزلوه حيث أنزله الله لخضعت لهم رقاب الجبابرة وانقادت لهم الناس وكانوا لهم تبعا، ولكن أذلوا أنفسهم وبذلوا علمهم لأبناء الدنيا فهانوا وذلوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون، أعظم بها من مصيبة!

ولقد أحسن كل الإحسان على بن عبد العزيز الجرجانى حيث يقول: (من بحر الطويل)

يقولــون فيــك انقبــاض وإنمـا	رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أرى الناس من داناهمُ هـان عندهم	ومن أكرمتهُ عزةُ النفس أكرِمـا
وما زلت منحازًا بعرضىَّ جانبا	عن الذم أعْتَــدُّ الصيـانةَ مغنما

(١) حديث «ألا أخبركم بأجود الأجواد»... إلخ. موضوع، أورده الشوكانى فى فوائده تحت رقم ٨٥٣ ـ ٣ وقال: رواه ابن حبان وقال: منكر باطل (١/ ٢٧٣)، وأورده كذلك صاحب (تنزيه الشريعة) وقال: رواه ابن حبان وقال: منكر باطل، وفيه نوح بن ذكوان عن أخيه أيوب حديثهما منكر. قلت: وفيه أيضًا سويد بن عبد العزيز متروك (١/ ٢٥٦).
قلت: وليس فيه (ورجل جاد بنفسه فى سبيل الله حتى قتل)، والله أعلم.

إذا قيل هـذا مشرب قُلت قـد أرى ولكنَّ نفس الحـر تحتمل الظمـا
أنهنهها عن بعض مـا لا يزينها مَخافةَ أقوال العدى فيم أوْ لِمَا
فما كل برق لاح لى يستفزنى وما كل من فى الأرض أرضاه مَغْنما
ولم أقض حقَّ العلم إن كنت كلما بدا طمـع صَيَّـرتُه لىَ سُلَّمـا
ولم أبتذل فى خدمة العلم مهجتى لأخـدم مَنْ لاقيتُ لكن لأخـدَما
أأغرسـه غرسًا وأجنيـه ذلةً إذًا فاتباع الجهل قد كان أحزما
فإن قلت جَدُّ العلم كابٍ فإنما كبا حين لم يحرص حمـاه وأُسْلِما
ولو أن أهـل العلم صانُوه صـانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانـوهُ فهـان ودنَّسُـوا محياه بالأطمـاع حتى تخرمـا

وقال لقْمان: جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك فإن الله يحيى القلوب الميتة بنور الحكمة كما يحيى الأرض الميتة بوابل المطر.

وقيل: من عرف بالحكمة لاحظته الأعين بالوقار.

وكان ابن مسعود إذا رأى طلاب العلم قال: مرحبا بكم، ينابيع الحكمة، ومصابيح الظلام، خلقان الثياب، جداد القلوب، ريحان كل قبيلة.

قال على كرم الله وجهه: كفى بالعلم شرفًا أنه يدعيه من لا يحسنه ويفرح به إذا نسب إليه، وكفى بالجهل صلفا أن يتبرأ منه من هو فيه ويغضب إذا نسب إليه.

وعن النبى ﷺ قال: «ما آتى الله أحدًا العلم إلا أخذ عليه الميثاق أن لا يكتُمه أحدا»[1].

ودعا بعضهم لآخر فقال: جعلك الله ممن يطلب العلم رعاية لا رواية.

وعن عمر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «على باب الجنة شجرة تحمل ثمارًا كثدى النساء تخرج من تحتها عين ماء يشرب منها العلماء والمتعلمون مثل اللبن الحليب والناس عطاش».

(١) حديث: «ما آتى الله أحدًا العلم»... إلخ. رواه أبو نعيم وأخرجه فى الإحياء وسكت عليه العراقى (١/ ١٠).

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: «من تعلم بابًا من العلم ليعلمه الناس ابتغاء وجه الله أعطاه الله أجر سبعين نبيًا»[1].

وفى مثل ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

العلمُ أنفَس ذُخر أنت ذاخره   من يدرسِ العلمَ لم تدرس مفاخره

أقبل على العلم واستقبل مقاصده   فأول العلم إقبـــال وآخـره

يروى أنه دخل عبد الله بن مسلم الهذلى فى القراء فأخذ عشرة آلاف درهم، ثم دخل فى المغنين فأخذ عشرة آلاف درهم، ثُم دخَل فى القصاص فأخذ عشرة آلاف درهم؛ فقال المهدى: لم أر كاليوم أجمع مما جمع الله فى أحد منك.

وقيل: لما اجتمع موسى بالخضر عليهما السلام جاء عصفور فأخذ من البحر قطرة، ثم انحط على ورك الخضر، فرفرف وطار، فنظر الخضر إلى موسى وقال: يا نبى الله، إن هذا العصفور يقول: يا موسى أنت على علم من علم الله علمكه لا يعلمه الخضر، والخضر على علم من علم الله علمه إياه لا تعلمه أنت، وأنا على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه أنت ولا الخضر، وما علمى وعلمك وعلم الخضر فى علم الله إلا كقطرة من هذا البحر.

قال الله تعالى: ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقال ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

قال ابن عباس[2] رضى الله عنهما: خلق الله أربعين ألف عالَمٍ، والجن والإنس

---

(١) حديث: «من تعلم بابًا من العلم»... إلخ. موضوع أخرجه الحاكم وعنه الكنانى فى كتابه تنزيه الشريعة وقال: وفيه الجارود بن اليزيد (١/ ٢٧٥).

قلت: الجارود بن يزيد أبو على العامرى النيسابورى كذبه أبو أسامة وأبو حاتم وقال الحاكم: روى عن الثورى أحاديث موضوعة، والله أعلم.

(٢) ابن عباس: هو عبد الله بن العباس بن عبد المطلب القرشى الهاشمى، ولد وبنو هاشم بالشعب قبل الهجرة بثلاث سنين، قال له ﷺ يومًا بعد ما ضمه إليه: «اللهم علمه الحكمة» وكان يقال له: حبر العرب، وكان عند وفاة النبى ﷺ ابن ثلاث عشرة سنة، غزا إفريقية مع عبد الله بن سعد سنة (٢٧) وفيه قال النبى ﷺ: «اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل» وكان يكنى حبر الأمة، مات رضى الله عنه بالطائف بعد ما عمى سنة ثمان وستين.

عالمان، والباقي لا يعلمهم إلا الله»[١].

وقال موسى: يا رب، لو لم تطعك السماوات والأرض ماذا كنت فاعلا بهما؟ قال: يا موسى، كنت آمر دابة من دوابي تبتلعهما، قال موسى: يارب، أين تلك الدابة؟ قال في مرج من مروجي، قال: يارب، أين ذلك المرج؟ قال: لا يعلمه إلا أنا[٢].

وروى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن في فكرة قال: فيم تفكرون؟ قالوا: نفكر في ذات الله؛ قال: تفكروا في خلق الله؛ فإن الله خلق من جانب الغرب أرضًا يقال لها البيضاء مسيرتها تقطعها[٣]، الشمس أربعين يوما فيها خلق ما عصوا الله طرفة عين، فقال عمر: يا رسول الله أين إبليس منهم؟ قال: ما علموا أن أبليس خلق أو ما خلق، قال: أمن بني آدم هم؟ قال ما يعرفون آدم وما سمعوا به»[٤].

فهذه كلها مما أعد الله في غيبه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

والحاصل أن العلم لا يحصله إلا من استفرغ فيه جميع جهده وأفنى فيه سائر عمره.

وفي المثل «العلم إذا أعطيته كلك أعطاك بعضه، وإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئًا منه».

وفي ذلك يقول الشافعي رضي الله عنه: (من بحر الطويل)

---

(٢) هذا الكلام من الإسرائيليات، وإن صح عن ابن عباس فلا أشك أنه أخذه من بعض أحبار اليهود الذين أسلموا.

(٣) هذه المحاورة من الإسرائيليات ولم تصلنا بسند يوثق به.

(٤) في النسخة (أ): تقطعه الشمس.

(٥) حديث «فيم تفكرون»... إلخ. ضعيف رواه أبو نعيم وابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب بألفاظ مختلفة بعضها قريب من لفظ الشيخ كما أورد صاحب الكشف جزءًا منه تحت رقم (١٠٠٥) وأورد بعض طرقه، قال: وأسانيدها ضعيفة لكن اجتماعها يكسبها قوة ومعناه صحيح (١/ ٣٧٢).

قلت: هذا لا يخرج الحديث عن الضعف الشديد، والله أعلم.

أخى لن تنال العلم إلا بستَّةٍ سأنبيك عن تَفصيلها ببيانِ
ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ وهمة أستاذ وطول زَمانِ

وقال غيره: (من بحر الطويل)

مع العلم فاسلك حيثما سلك العلم
وعنه فباحث كلَّ من عنده فهمُ
فإنى رأيتُ الجهل يُزرى بأهله
وذو العلم فى الأقوام يرفعه العلمُ
وما أبصرتْ عيناك أقبحَ منظرًا
من أشيب لا علمٌ لديه ولا حلمُ
هى الخصلة السوداء فاحذر سماتها
فأولها خِزْىٌ وآخرها ذمٌّ
فخالط رواة العلم واصحب خيارهم
فخلطتهم زَيْنٌ وصحبتهم غُنْمُ
ولا تَعدُوَنْ عيناك عنهم فإنهم
نجوم إذا ما غاب نجم بدا نجم
فوالله لولا العلمُ ما اتضح الهدى
ولا بان من غير الأمور لنا رسم

وقال أبو الأسود الدؤلى: (من بحر البسيط)

العلم زينٌ وتشريف لصاحبه فاطلب هُديتَ فنونَ العلم والأدبا
لا خير فيمن له أصل بلا أدب حتى يكون على ما زانه خربا
كم من كريم أخى غنى وطمطمة فَدْم لدى القوم معروف إذا انتسبا[1]

(١) الطمطمة: العجمة أو اللكنة. والفدم: العيى عن الكلام، الأحمق.

فى بيت مكرمـة آباؤه نُجُبٌ — كانوا رءوسًا فأمسى بعـدهم ذنَبا
وساقط خاملِ الآباء ذى أدبٍ — نال المعـالىَ والآداب والرُّتَبا
أضحى عزيزًا عظيم الشأن مشتهرا — فى خَـدّه صَعَرٌ قـد ظل منحجبا
قد يجمع المالَ شخصٌ ثم يُحرَمُه — عما قريـب فيلقى الذلَّ والحَرَبا
وجـامع العلم مقبول به أبدا — ولا يحـاذر منه الفوتَ والسلبا
يا جامع العلم نعم الذخر تجمعه — لا تعـدلنَّ به دُرًا ولا ذهبا

ولما كان العلم أكثر من أن يحاط به كان ينبغى للإنسان أن ينتخب من كل فن أنفعه عاقبة وأجمعه غائبة.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

تَعلم كـل علـم تبلـغ الأمـلا — ولا يكن لك فن واحـد شغلا
فالنحل لما رَعَتْ من كل نابتة — أبدت لنا الجوهرين الشمع والعسلا
الشمـع بالليـل نور يستنـار به — والشهـد يُبرى بإذن الواحـد العللا

ويقال علم بلا أدب كنار بلا حطب.

وقال بعض الحكماء: العقل يحتاج إلى مادة من الأدب كما تحتاج الأبدان إلى قُوتها من الطعام.

وقال على كرم الله وجهه: الأدب كنز عند الحاجة، عون على المروءة، صاحب فى المجلس، أنيس فى الوحدة، تعمر به القلوب الواهية، وتحيا به الألباب الميتة، وينال به الطالبون ما طلبوا.

ويقال: علم بلا أدب كشجاع بلا سلاح.

ويحكى أن رجلا تكلم بين يدى المأمون فأحسن؛ فقال: ابن من أنت؟ فقال: أبى الأدب يا أمير المؤمنين؛ فقال: نعم النسب انتسبت إليه.

ولهذا قيل: المرء من حيث يثبت لا من حيث ينبت، ومن حيث يوجد لا من حيث يولد.

وفي ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

كن ابن من شئت واكتسب أدبا يغنيك مضمونه عن النسب

إن الفتى من يقــول هأنذا ليس الفتى من يقول كـان أبى

وقال بعض الحكماء: من كثر أدبه كثر شرفه وإن كان وضيعًا، وبعد صيته وإن كان خاملا، وكثرت حوائج الناس إليه وإن كان فقيرا.

وقال الشاعر: (من بحر المتقارب)

لكل شيء زينـةٌ في الورى وزينة المرء تمـــامُ الأدبْ

قـد يَشْرُفُ المرءُ بآدابه منّا وإن كان وضيعَ النسبْ

وفي المثل: (المرء بفضيلته لا بفصيلته، وبكماله لا بجماله وبآدابه لا بأنسابه). حقق الله نسبتَنا إليه آمين.

وفي البيت اقتباسان: فصدره مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

وعجزه مقتبس من قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

وفيه أيضًا تلميح إلى المثل السائر: (الجهل عار ولا يرضاه إلا حمار) لأنه لمح إليه بقوله: (وحد عن ذمى) أي: مل عن نتن الجهل؛ لأن نتن الجهل أنتن من كل منتن؛ إذ منه تنشأ جميع الأخلاق السيئة، فإذا رفعت همتك عنه واشتغلت باقتناء العلم النافع انتعشت موات أموالك بالعلم النافع، واهتزت وربت أجاديب أعمالك بأزهار الحكمة، فأنبتت من كل زوج بهيج، فيحيا ذماء قلبك المذبوح بمدية الهوى، ويتروى من بساتينه ما قد ذوى. أنعش الله هممنا بوابل عرفانه.

* * *

• قال الناظم:

٣٨ ـ وَصَيْدُ الْمَهَى عُدْمُ الْمَهَاءِ يَزِينُهُ كَمَـا زَانَ مَشْدُودًا نَجَـاهُ نَجَـاءُ

المهى بالقصر: بقر الوحش، سمي بذلك لبياضه، والمعروف المتداول أنه نوع من اليواقيت، قال حاتم بن عبد الله الطائي: (من بحر الخفيف)

رب بيضاءَ كالمهى تتهادى　　قد دعتنى لنفسها فأبيتُ

لم يكن شيمتى العفافُ ولكن　　كنت ندمان زَوجها فاستحيتُ

والمهاء، بالمد: اعوجاج فى السهم يمنعه من حسن الإقصاء. والنجا بالقصر: أعواد الهودج، وبالمد: سرعة السير، يقال: قلوص نجيبةٌ إذا كانت لا تجارى.

قال ﷺ: «إذا كنتم فى خصب فأعطوا الدواب حقها، وإذا كنتم فى جدب فأنجوا عليها»، أى: أسرعوا بها حتى تبلغوا الخصب.

وفى البيت من البديع الكناية، فإنه كنى بصيد المها عن السعى فى تحصيل الحسنات بالقصد المستقيم والحزم المستديم، كما يظفر بالصيد القانص إذا استعان عليه بالسهم المسدد والرمى بالحديد، فإن الله خص بنيل الدرجات واقتناء الكرامات وما أعد فى دار كرامته من الحور العين والولدان والرفق والخيرات الحسان ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠] فلم يمل بهم عن السبيل فسقٌ ولا ابتداع، ولا زيغ ولا ارتفاع، ثم لا يتم لهم ذلك إلا بالحزم المصمم والجد المتمم. وقول الناظم «كما زان مشدودًا نجاه نجاء» أى نجاه حزمه لسبب نجاء عزمه ومجده.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩].

وقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٥ ـ ١٨].

قال مالك بن دينار: لم أر كالجنة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها.

وقال حاتم الأصم لما قيل له: هلا استرحت هنيهة؟ فقال: كيف يستريح رجلٌ النارُ تسعر تحته والجنة تزخرف فوقه وهو سائر لا محالة إلى إحداهما وقد كتب اسمه فى الديوان ومع ذلك لا يدرى أفى ديوان السعداء كتب اسمه فيهنأ أم فى ديوان الأشقياء كتب اسمه؟! فواخجلاه فقد جلت مصيبته عن التعزية، وعظمت رزيته عن الشكل، فبأى حجة وبأى وجه يقابل الملك الجبار وقد عصى أمره واقتحم نهيه؟! ثم غشى عليه فما أفاق إلا بعد حين.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٣٩ ـ وَكَمْ فِى قَسىً مِنْ ذِى قَسَاء وَذِى رَجًا
بِدُنْيَاهُ دَامَتْ رَغْبَةٌ وَرَجَاءُ

أى: كثير من صاحب قساء، بالمد: أى قساوة فى القلب، حَالٌ. قسى، بالقصر: موضع من بلاد العرب. ومن ذى رجا: أى صاحب رجا أى: مرتج عليه فى كلامه. يروى أن عثمان رضى الله عنه قام يومًا ليخطب فأرتج عليه فى خطبته؛ فقام طويلا وهو ساكت، ثم نزل عن المنبر، ثم قال: السكوت عما لا يليق خير من النطق به. وهو مصدر رجى، بالكسر: إذا حصل له ذلك، من صفة ذى الرجاء أنه دامتْ رغبتُه فى دنياه ورجاؤه، أى خوفه من ذهابها مثلا. وبالخوف فُسر الرجاء فى قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح:١٣] أى لا تخافون. ومنه قول أبى ذؤيب الهذلى: (من بحر الطويل)

إذا لسعتْه النحل لم يرج لسعها وخالفها فى بيت نَوْبٍ عواسل

والنوب: النحل لأنهن سود كالنوبة، والنوبة جنس من السودان منهم أبو طالب المكى ولقمان الحكيم. قال ﷺ: «لا تسبوا النَّوبة فإن منهم رجلين من سادة أهل الجنة لقمان الحكيم وبلال بن حمامة»(١).

والمعنى أن الدنيا ملئت بقساة القلوب الذين لا يرغبون فى غيرها ولا يخافون سواها. والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء:١٨] وهم الكثيرون عددًا القليلون مددًا، بخلاف الشاكرين فإنهم القليلون عددا الكثيرون مددا. قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣].

---

(١) حديث «لا تسبوا النوبة»:.. إلخ. لم أره بهذا اللفظ إلا أن ابن حبان وعنه صاحب تنزيه الشريعة رواه بلفظ «اتخذوا السودان فإن فيه ثلاثة من سادات أهل الجنة: لقمان والنجاشى وبلال» (٢/ ٣٣).
قلت: وفيه أبين بن سفيان المقدسى ويقال له أبان، قال ابن حبان: روى أشياء موضوعة.
وقيل: أبان غير أبين، قال الذهبى فى المغنى: كلاهما له بلايا. وللحديث شاهد رواه الحاكم بلفظ: «خير السودان لقمان وبلال ومهجع مولى رسول الله ﷺ»، والله أعلم.

وقال ﷺ: «إذا كان يوم القيامة أمر الله تعالى آدم أن يخرج من ذريته بعث الجنة فقال: أى رب، وكم هم؟ فيقول: من كل ألف واحد إلى الجنة وتسعمائة وتسعة وتسعون إلى النار؛ فشق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ حتى كثر حنينهم بالبكاء، فقال لهم: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة؛ فكبروا، ثم قال: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة، فكبروا واستبشروا، ثم قال: أبشروا فإنى أرجو أن تكونوا ثلثى أهل الجنة، فقالوا: يا رسول الله ما معنى نجاة الواحد من الألف؟ وما يبلغ فى الجنة؟ فقال: ما مثلكم فى المشركين ويأجوج ومأجوج إلا كالثلمة السوداء فى الثور الأبيض أو كالشامة البيضاء فى الثور الأسود». والحديث مخرج فى الصحاح الستة بأسانيد متعددة[1] وألفاظ مختلفة حتى أنه بلغ حد التواتر.

* * *

• قال الناظم رحمه الله تعالى:

٤٠ ـ ومَـرْدى بِمـرْدَاءٍ لَدَى مُتَوَكِّلٍ وَأَرْضٌ سَوىً لِلْوَارِدِينَ سَوَاءُ

قوله: مَردى، بالفتح والقصر: المهلكُ مكانًا أو مصدرا، كالمهدى ومثوى. والمرداء: الأرض التى لا نبات فيها، يقال: رجل أمرد إذا لم تكن له لحية كما يقال: أرض مرداء إذا لم يكن فيها نبات.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

منا الذى هو ما إن طرّ شاربه والعانسون ومنا المردُ والشيبُ

وأرض سوى: وهى أرض بها ماء من مياه العرب يقال له: سَوى وسواء، بالمد: أرض مستويةٌ.

والمعنى: رب مهلك، أى مكان للهلاك، أو هو نفسه، كان فى أرض فقراء لا نبات فيها وقد حل به متوكل على الله، أى معتمد عليه، نابذ للدنيا وراء ظهره،

(١) الحديث كما قال الشيخ متفق على صحته: رواه البخارى ومسلم بألفاظ كثيرة كما رواه غيرهما، وأول الحديث عند البخارى: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير فى يديك، فيقول: أخرج بعث النار»... إلخ، كتاب أحاديث الأنبياء.

لا رغبة له في حصولها، ولا رهبة له من زوالها، وقليل ما هم، كأبى تراب النخشبى رضى الله عنه، فإنه مات فى البيداء ونهشته الحيات. هذا مقابل لقول الناظم: «وكم ذى قسى بذى قساء» البيت. فإنه إخبار بكثرة من فى الدنيا من قساة القلوب الذين لا رغبة لهم إلا فيها ولا رهبة لهم إلا منها، وهذا صادق مع قلة غيرهم ومع عدم وجودهم رأسًا، فأخبرت فى هذا البيت بوجودهم على سبيل القلة، فإن «رُبَّ» المقَدرة معناها التقليل بدليل السياق والمجرور بها مرفوع بالابتداء، و «بمرداء» صفه له، و«لدى متوكل» خبره. وأما قوله: «وأرض سواء إلى آخره» فمعناه أن أرض هذا الماء المسمى بسوى بالقصر مستوية فى حق الواردين لا تفاوت لهم فيها ولا يمنع منها إلا من أبى وتكاسل، وهذا كناية عن أرض الجنة فإن الله دعا إليها كل عباده حيث قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس:٢٥] أى كل عباده على ما قاله أئمة التفسير ودل عليه الحديث؛ قال ﷺ: «كلكم يدخل الجنة إلا من أبى»[1].

وقد فسر الحديث الشريف بما هو ظاهر فى عدم سلوك طرقها بامتثال الأوامر واجتناب النواهي؛ فإن الشيء إنما يتوصل إليه عن طريقه، فمن لم يسلك طريقه التى توصل إليه فقد أباه؛ قال الشاعر:

ترجو النجاة ولم تَسلك مسالكها ... إن السفينة لا تَجرى على اليبسِ

لأنه استعمل طاقتَه وصرف إرادته إلى غير طريق الجنة فيما يظهر من اختياره واستطاعته وإن كان مجبورًا على تلك الإباية بحسب الباطن لاقتضاء حكمة الحكيم سبحانه ذلك فهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وما ربك بظلام للعبيد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون، كلٌّ يعمل على شاكلته، ومسير لما خلق له؛ يسرنا الله لما يرضيه عنا، آمين.

---

(١) «كلكم يدخل الجنة»... إلخ. حديث صحيح رواه الطبرانى فى الأوسط، والحاكم، وأورده السيوطى تحت رقم ٦٣٦٩ بلفظ: «كلكم يدخل الجنة إلا من شرد على الله شراد البعير على أهله». اهـ. وصححه، قال المناوى شارحه: قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح غير على بن خالد وهو ثقة (٥/ ٣٨).

ورواه البخارى بلفظ: «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟! قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى» (كتاب الاعتصام)، والله أعلم.

• قال الناظم رحمه الله:

٤١ ـ وَإِنَّ سَـدى فَوْقَ السَّـدَاءِ لآيَةٌ
فَحَصِّلْ جَلى إِنْ غَابَ عَنْكَ جَلاءُ

السدى، بالقصر والفتح: الندوة أو الندى، وحقيقته ما يعلو الأشجار صباحًا إلا أنه لا يكثر جدًا إلا فى الأرض الوبية وربما كثر فى سنة الخصب إذا لم يكثر هبوب الرياح. والسداء، بالمد والفتح: البلح بلغة أهل المدينة، يقال من الأول: سديت ليلتنا، بالكسر: إذا كثر نداها، وقلما يقال: سدى اليوم. والجلى، بالقصر: ضرب من الكحل. والجلاء، بالمد: البياض، يقال: ما أقمت عندهم إلا جلاء يوم أى نهارًا واحدًا.

قال الشاعر: (بحر الرجز)

مـا لى إذا أقصيتنى من مقعـدِ إلا جلاء اليوم أو ضحى الغدِ

والمعنى: أن الندى فوق البلح آية أى عبرة ودلالة دالة على كمال قدرته تعالى وتمام إرادته يعتبر بها المعتبرون بآيات الله وعجائب قدرته فيزدادون بذلك يقينًا وبما عنده إيمانًا، فحصل كحلا لعينى بصيرتك بالنظر إلى عجائب مصنوعاته لتتوصل بذلك إلى معرفته إن فاتتك تلك المعرفة التى عبر عنها بالجلاء بالمد؛ فترقى من علم اليقين إلى عين اليقين بالجلى، بالقصر، الذى أريد به علم اليقين إلى الجلاء، بالمد، الذى أريد به عين اليقين.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ الآية [البقرة: ١٦٤] ولما نزلت هذه الآيةُ وكانت ليلة صعد فيها ﷺ على سقف بيته وقال: «يا ربات الحجال قُمْنَ فإنَّهُ نزلت عليَّ الليلة آيةٌ، ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر فيها» والآية فى السماء؛ سمكها بغير عمد ولا علاقة، وما فيها من الكواكب السيارة والأفلاك الدوارة، والمنازل والبروج المرتبة على تقديرات الدهور من ساعات الليل والنهار، وارتحال الشمس ومكثها فى كل برج من البروج، مع ولوج الليل فى النهار وولوج النهار فى الليل شتاء وصيفا، واعتدالهما فى ليلتين: ليلة فى الربيع، وليلة فى الخريف، وكل ذلك

بحسبان لا يتجاوزانه كحسبان الرحى بحكمة ربانية تبهر العقول، فالشمس تعوم الفلك لانتهاء العام وبذلك سمى العام عامًا. والآية فى الأرض ما يرى فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والثمار والأنهار. النوع الثانى اختلاف الليل والنهار فى المجىء والذهاب والتكوير والنور والظلمة وقدم الليل لأن الظلمة أقدم، وجعل أحدهما للتكسب والثانى للراحة والسكون. والآية فى الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء وهى موقرة[1] بالأثقال والرجال فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلةً ومُدبرةَ، وتسخير البحر بحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجانه فلا ينجى منه إلا الله تعالى.

وأصل الفكر إعمال الخاطر بالشىء وتردد القلب فى ذلك الشىء، وهو قُوة متطرفة للعلم الموصل إلى المعلوم، والتفكر جريان تلك القُوة بحسب نظر العقل، ولا يمكن التفكر إلا فيما له صورةٌ فى القلب؛ ولهذا قيل: تفكروا فى آيات الله ولا تتفكروا فى ذات الله؛ إذ هو منزه عن أن يوصف بصورة؛ فلذلك أخبر عن عباده الصالحين لأنهم يفكرون فى خلق السماوات والأرض وما أبدع فيهن من عجائب مصنوعاته وغرائب مبتدعاته. ليدلهم ذلك على كمال قُدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لها خالقا قادرًا مدبرًا حكيمًا؛ لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى، كما قيل: (من بحر المتقارب)

وفى كل شىء له آية ... تدل على أنه واحــد

وقيل: إن الفكر مقلوب عن الفرك لأن الفكر مستعمل فى المعانى وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها. وقيل: الفكرة تذهب الغفلة وتحدث للقلب الخشيةَ كما يحدث الماء للزرع النماء، وما حليتْ القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، ولذلك قال الرسول ﷺ: «تفكر ساعة خير من عبادة سنة»[2]

(١) موقرة: مثقلة؛ محملة.

(٢) حديث «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» لا أصل له من حديث النبى ﷺ.

ذكره الفاكهى وقال: إنه من كلام سرى السقطى، وأورده صاحب كشف الخفاء تحت رقم ١٠٠٤ كما أورده في الجامع تحت رقم ٥٨٩٧ بلفظ «فكرة ساعة خير من عبادة ستين سنة» ورمز له =

وقال: «كل كلام فى غير حكمة فهو لغو، وكل سكوت بغير فكرة فهو سهو، وكل نظر بغير اعتبار فهو لهو».

وقال على كرم الله وجهه: لا خير فى عبادة لا يصحبها تفكر، ولا خير فى قراءة لا يصحبها تَدبر.

وقال ابن عباس: الذى يقرأ القرآن ولا يتدبره كمثل الحمار يحمل أسفارا.

يروى أن الشافعى رضى الله عنه استضاف أحمد بن حنبل برسم الزيارة، وكانت لأحمد ابنة متعبدة تتمنى رؤية الشافعى لتعلم كيفية عبادته فقالت لأبيها: اجعلنى فى البيت الذى يليه لأنظر إليه من الطاقة، وكان أحمد أعدّ له منزلاً[1] وطعامًا كثيرًا، فأكل الشافعى رضى الله عنه حتى شبع، ثم شرب حتى روى، ثم استلقى على قفاه، فلم يزل كذلك حتى أصبح فصلى بغير وضوء ولا تيمم، وكان ذلك كله بمرأى منها فأصبحت وقد سقط من عينها، فأتاها أبوها رضى الله عنه فقال لها: ما رأيت البارحة من أمر الشيخ؟ فقالت له: لم أر طائلا؛ أكل كثيراً وشرب كثيراً ونام طويلا وصلى بغير وضوء ولا تيمم؛ فذهب فى الحين إلى الشافعى رضى الله عنه فقال له: ما شىء بلغنى عنك؟ وذلك أن ابنتى كانت مشتاقة إلى رؤيتك لما بلغها من عبادتك، فلما كان البارحة طلبت منى أن أجعلها فى البيت الذى يليك لتنظر إليك وإلى عبادتك من الطاقة، فلما أصبحت أتيتُها لأسألها عما رأت من عبادتك فقالت: لم أر طائلا؛ أكل كثيرًا، وشرب كثيرًا، ونام طويلا، وصلى بغير وضوء ولا تيمم، فقال له الشافعى: أما إنَّ ابنتك قد

= بالضعف، وقال شارحه المناوى بعد أن أورد كلام ابن الجوزى فيه: اقتصر العراقى على تضعيفه فى الإحياء وقال: له شاهد (٤/ ٤٤٢) كما أورده ابن الجوزى بهذا اللفظ وقال: هذا حديث لا يصح وفى الإسناد كذابان فما أفلت وضعه من أحدهما: إسحاق بن نجيح قال أحمد: هو أكذب الناس.

وقال يحيى: هو معروف بالكذب ووضع الحديث، وقال الفلاس: كان يضع الحديث على رسول الله ﷺ صراحًا. والثانى عثمان قال ابن حبان: يضع الحديث على الثقات (٣/ ١٤٤).

كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٧٣ وقال: موضوع، وأورد الكلام المتقدم، والله أعلم.

(١) فى ب: ونزلا.

صدقت: أما قولها: أكل كثيرًا، فإنه بلغنى عن رسول الله ﷺ «أن طعام الأحبة شفاء» فأحببتُ أن أستكثر من الشفاء، والطعام يستدعى الشراب فشربت كثيرًا. وأما قولها: نمت طويلا، فإني لما فرغت حضرنى قوله ﷺ: «ما فعل النغير يا أبا عمير» فعلمت أنه لا ينطق عن الهوى، ففكرت فى هذا[1] الحديث، ففتح الله على، فاستخرجتُ منه ثمانين مسألة: أربعين فى الحلال، وأربعين فى الحرام فأصبحتُ ولم أنم ولم أحدث فصليتُ بغير وضوء ولا تيمم، فإنه بلغنى عن رسول الله ﷺ «أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة» فكيف بتفكير ليلة؟! وقد استخرجت فيها كنوزًا من الحلال والحرام[2].

---

(١) فى النسخة (ب): ففكرت فيها، وهو خطأ.

(٢) لا أعتقد أن قصة الشافعى هذه تصح عنه للأسباب الآتية:

أولا: لأن الشافعى رحمه الله خرج من بغداد إلى مصر عام ١٩٩ ومات بها عام ٢٠٤ ولم يعد إلى بغداد هذه الفترة، وعمر الإمام أحمد رحمه الله آنذاك فوق الثلاثين بقليل؛ ومن المستبعد أن تكون له بنت قد وصلت هذا المستوى من الإدراك لصغر سنها إن كانت له بنت فى هذا التاريخ أصلاً.

ثانيًا: إن فى القصة نوعًا من التجسس لا يقره الإمام أحمد قطعًا لما عرف عنه من التمسك بالشريعة والابتعاد عن الشبه.

ثالثًا: علامات التأليف واضحة فى القصة لضعف الأسلوب وكثرة المبالغات التى هى أقرب إلى الكذب.

رابعًا: الحديث الثالث فى القصة الذى هو «تفكر ساعة خير من عبادة سنة» موضوع، ومن المستبعد أن يستدل الشافعى بحديث موضوع ويقره الإمام أحمد وهو سيد النقاد فى ذلك العصر وربما فى العصور التى بعده إلى اليوم.

خامسًا: وعلى كل حال فالحديث الأول المذكور فى القصة والذى هو «طعام الأحبة» لم أجده بهذا اللفظ، وقد روى الدارقطنى فى غرائب مالك: «طعام البخيل داء وطعام الجواد شفاء» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٥٣ وقال قال الذهبى: كذب، وقال ابن حجر: منكر، وأورد له ألفاظا كثيرة. والثانى الذى هو «ما فعل النغير» صحيح، والثالث موضوع وسبق أن خرج.

سادسًا: والأهم من هذا كله أن الذهبى فى كتابه سير أعلام النبلاء فى ترجمة الإمام أحمد قال: قال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: تزوجت وأنا ابن أربعين سنة... إلى أن قال: قال أبو بكر الخلال فى كتاب أخلاق أحمد: أملى على زهير بن صالح بن أحمد قال: تزوج جدى عباسة بنت الفضل فلم يولد له منها غير أبى، وتوفيت، وتزوج بعدها ريحانة فولدت عبد الله =

● ثم قال الناظم رحمه الله:

٤٢ ـ وَربَّ خَوىً عِنْدَ الْخَوَاءِ اسْتَطَابَهُ ... مُوَالِى ضَحىً لَمْ يَزْوَ عَنْهُ ضَحَاءُ

قوله: رب حرف جر بمعنى التكثير، هنا، خوى، بالفتح والقصر: أى جوع استطابه عند الخواء، بالمد والفتح، أى الخلاء لأنه يحتوى على ساكنه كما تحتوى الأمعاء على الجوع والشبع، وهو من باب تسمية الظرف باسم المظروف، لأن الأمعاء تُسمى بالأخواء فمفردها حينئذ خَوىً، وتسمى بالحوايا، قال تعالى: ﴿إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا﴾ [الأنعام:١٤٦] ومفرده كذلك حوى، وهذا كنايةٌ عن استطابة المتنسك الأعمال الشاقة لما يجد فيها من قرة العين تارة ومن رجاء الثواب أخرى، وإنما خص الصوم هنا بالذكر والإشارة لأنه أقرب أعمال البر إلى الإخلاص لقول الله تعالى: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به»(١).

يروى أن الثورى رضى الله عنه لما احتضر بكى فقيل له: ما بكاؤك؟ فقال: والله ما بكائى جزعًا من الموت ولا حرصًا على البقاء فى الدنيا ولا على غرس الأشجار وإجراء الأنهار وإنما بكائى على ما فاتنى من ظمأ الهواجر وقيام الدواجر(٢) ومزاحمة العلماء بالركب.

ويروى أن الشافعى رضى الله عنه قال: لو يجد هؤلاء المنهمكون فى الشهوات ما يجده المتملقُون بالأسحار لخرجوا عما هم فيه وللزموا الفلوات.

ويروى أن طيفور بن عيسى البسطامى كان يواصل خمسة عشر يومًا ولا يفطر إلا على تافه، فقيل له فى ذلك فقال: أما بلغكم قول رسول الله ﷺ «إنى أبيت

= عمى، ثم توفيت فاشترى حسن فولدت له أم على زينب والحسن والحسين توءمان وماتا بقرب ولادتها، ثم ولدت الحسن ومحمدا (١١/ ١٨٥).

قلت: وبهذا يتضح أنه لم تولد له بنت أصلاً إلا بعد موت الشافعى بزمن طويل، بل لم يتزوج إلا بعده، والله أعلم.

(١) حديث «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته، رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى والترمذى.

(٢) الدواجر: الليالى ذوات الظلم. وفى النسخة (ب): ما يبكيك.

عند ربى يطعمنى ويسقينى»[١]. هيهاتَ هيهات لو تجدون ما يجد الصائمون فى صومهم من النعيم وقرة العين لزهدتم فى النعيم الخسيس.

وقامت رابعة العدوية حتى أقعدت، وبكت حتى أظلمت عيناها، وصامتْ حتى تغير لونها، فاجتمعت إليها عشيرتها وقالوا لها ألا ترحمى هذا الجسم المسكين؟! أليس لعينيك عليك حق ولنفسك عليك حق؟! فقالت: الرفق أردتُ به، فإن كان له عند الله خير فإنما هى أيام قلائل ثم يستريح الراحة السرمدية، وإن لم يكن له عند الله خير فهذا أهون ما يلاقى، فجعلت تبكى حتى انصرفوا عنها وتركوها.

وكان ﷺ لا تشاء أن تراه صائمًا إلا رأيته صائمًا، ولا تشاء أن تراه مفطرًا إلا رأيته مفطرًا[٢].

وكان ﷺ يقول: «أفضل الصيام صيام داود عليه السلام؛ كان يفطر يومًا ويصوم يومًا»[٣].

وكان ﷺ يقول: «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله»[٤].

وكان ﷺ يقول: «عليكم من الدين بما تطيقون فإنه ما شادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، وأحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة وإن قل»[٥].

---

(١) حديث «إنى أبيت عند ربى»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه البخارى ومسلم وغيرهما فى باب الوصال بألفاظ كثيرة منها: «إنى يطعمنى ربى ويسقينى» «وإنى أطعم وأسقى» وغير ذلك.

(٢) هذه زيادة فى النسخة (أ) أى قوله: وكان ﷺ لا تشاء أن تراه صائما إلا رأيته ولا تشاء أن تراه مفطرًا إلا رأيته مفطرًا.

(٣) حديث «أفضل الصيام»... إلخ. جزء من حديث متفق عليه رواه البخارى فى باب صوم داود، ومسلم فى باب صوم الدهر بألفاظ كثيرة. وأول الحديث عند البخارى «إنك لتصوم الدهر» والقول موجه لعبد الله بن عمرو بن العاص.

(٤) حديث «من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر»... إلخ. جزء من حديث صحيح، متفق عليه، وهو من الحديث الأول، ولفظه عند البخارى: «صوم ثلاثة أيام صوم الدهر كله».

(٥) حديث «عليكم من الدين بما تطيقون»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى ومسلم وغيرهما، ورواية البخارى: «خذوا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وأحب الصلاة إلى النبى ﷺ ما دووم عليه وإن قلت» (البخارى باب صوم شعبان) بزيادة: «وكان إذا صلى صلاة داوم عليها» والله أعلم.

وقال ﷺ: «دين الله يسر فأوغلوا فيه برفق».

وقال ﷺ: «إياكم والمُنْبَتّ فإنه لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى».

وفى الخبر: «إن بالجنة نهرًا يقال له الريان لا يشرب منه إلا الصائمون»(١).

وأفطر ابن عمر رضى الله عنهما من بثرة فى إصبعه. وكان ﷺ يأمر الشيخ الفانى والمرضع والحامل بالإفطار والإطعام، ويأمر الزَّمِن(٢) والضعيف والمريض بالإفطار من غير إطعام. وكان أصحاب رسول الله ﷺ يُكرهون مماليكهم على الصوم من غير قتل إذا أقروا بالإسلام.

وكان ﷺ يثبت دخول شهر رمضان برؤية عدلين أو عدل واحد أو خبر عن حى أو مدينة.

وكان ﷺ يقُوم ليالى رمضان ويأمر بقيامها من غير أن يكون ذلك حتمًا منه.

وكان يأمر بصيام عاشوراء وتاسوعاء ورجب وشعبان(٣).

وكان ﷺ يقول: «ما من أيامٍ الصومُ فيها أفضل بعد رمضان من عشر ذى الحجة».

وكان لا يخص بصومه يومًا معينًا بل يصوم متى شاء ويفطر متى شاء. وكان السلف رضى الله عنهم يقولون: الصوم على أربعة أقسام: صوم خاصة الخاصة، وصوم الخاصة، وصوم الصالحين، وصوم عامة المؤمنين؛ فصوم خاصة الخاصة هو الصوم عما سوى الله، وصوم الخاصة هو أنهم يصومون عن الدنيا ويفطرون على الآخرة، وصوم الصالحين هو الصوم عن الكلام إلا أن يكون ذكرًا أو تلاوة أو ما فى معناهما من العلم النافع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وصوم عامة المؤمنين هو كف اللسان والجوارح عن المفسدات شرعًا وحقيقة.

---

(١) «إن فى الجنة نهرًا يقال له الريان»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، غير أن البخارى ومسلمًا والنسائى والترمذى رووا: «إن فى الجنة بابًا يقال له الريان يدخل منه الصائمون»... إلخ. والحديث أطول من هذا، وألفاظه كثيرة، والله أعلم.

(٢) الزمن: الضعيف من كبر أو مرض.

(٣) لم يثبت عنه ﷺ أنه أمر بصيام رجب وشعبان، فقد ثبت عنه أنه كان يصوم أكثر شعبان، أما الأمر بذلك فيه أو فى رجب فلم يثبت، والله أعلم.

قوله: استطابه: أى استحلاه واستلذه. موالى: أى مباشر. ضحى، بالقصر: مصدرٌ ضَحِى، بالكسر: إذا برز للشمس، قال الله تعالى: ﴿لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٩]، أى لا يصيبك وهج الشمس. وفيه المد لغةً، والضُّحاء بالمد لا غير وهو الوقت الذى يقرب من الزوال. وقوله: يزو: مبنى للمجهول مضارع زوى الشئ بالزاى فانزوى أى انقبض، مجزوم بلم.

ومعناه: إنما يرجو حسن الثواب من زويت له مسافة الدنيا حتى شاهد بعين بصيرته ما يأتى؛ ولذلك هانت عليه موالاة وهج الشمس فى الضحى والضحاء؛ فصبر فى حال كونه سالكًا، واشتاق والْتذَّ وذاق فى حال كونه مشاهدًا واصلا مواصلا؛ إذ الدين مبدؤه سلوك ومجاهدة ومنتهاه ذوق ومشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. وفى ذلك يقال: (من بحر الطويل)

تطهر بمـــاء الغيـب إن كنت ذا سرٍّ ... وإلا تيمم بالصعيد أو الصخر

وقدم إمـامًا كنت أنت إمامـــهُ ... وصل صلاة الظهر[1] فى أول العصر

* * *

• ثم قال الناظم رحمه الله:

٤٣ ـ حَوَى جَلَدًا فَاقَ الْعُلَى لِعَلائِه ... فَلَوْ بِوَرىً يُبْلَى وَقَـاهُ وَرَاءُ

قوله: حوى: أى حاز موالى ضحى، جلدًا: أى قُوة على موالاة ما ذكر ففاق بذلك الجلد. العلى، بالقصر: جمع علاة، وهى منسأة[2] الحداد لأجل علائه أى شرف نفسه وعلو همته، فلو قد رأيته يبلى أى يمتحن بورى بالقصر: داء فى الجوف، وقاه أى حماه وراء بالمد: ما يستتر به أى فدى لعزته وعظيم موقعه فى النفس مما يفدى به من رفيع الأشياء وأحبها إلى النفوس من كل بؤس ومن الورى المقصور الممثل به. وهذا البيتُ إنما جىء به تتميمًا لمعنى البيت السابق لأنه متضمن معناه وليس تحته طائل معنى.

---

(١) فى (ب): الصبح.

(٢) المنسأة: العصا، وهى آلة يشحذ عليها الحداد آلاته.

• ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

٤٤ ـ فَمَا بالصِّبَا يُهْدَى الصَّبَاءُ لِقَلْبِهِ وَكَيْفَ الكَرَى والمُسْتَقَر كَـرَاءُ

الصبا: الريح الشرقية. والصباء، بالمد: مصدر صبا بالفتح إذا مال إلى الهوى، أو هو مطلق الميل، وقيل فى الميل عن المرغوب فيه إلى المرغوب عنه، ولذلك كان مشركو مكة يسمون من أسلم منهم الصابى لأنهم مالوا بزعمهم عن دين مرغوب فيه إلى دين مرغُوب عنه، وكانوا إذ قالوا لأحد منْهم: صبوتَ قال: ما صبوت ولكنى أسلمت لرب العالمين؛ ولذلك سمى إبراهيم حنيفًا لأنه مال وحده عن جميع أديان الكفر إلى الحنيفية السمحة، قال الله تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [البقرة:١٣٥] والحنيف والحنيفية مأخوذان من حنف إبهام الرجل إلى جانب عن جميع الأصابع، وبذلك سمى الأحنف بن قيس أحنف، وكانت أمه تَرى فيه مخاييل الحلم والكرم وهو صبى، وكانت إذا اجتمع عليها نساء بنى تميم ترقصه وتقول: (الرجز)

والله لولا حنف برجله ودقَّة أبصرها فى ساقه

ما كان من صبيانكم كمثله

وقد أسلم صبيًا وحسن إسلامه، فأدرك العلم والحكمة، وكان إليه المنتهى فيهما، وكان يكنى أبا بحر. يروى أنه دخل على معاوية فى ملأ من بنى تميم، وكان دميمًا، فاقتحمته عين معاوية فقال: يا بنى تميم لِمَ سادكم الأحنف ولم يكن أحسنكم وجهًا ولا أشرفكم بيتًا ولا أكثركم جمعا؟ قالوا: كان يحلم إذا جهلنا، ويجود إذا بخلنا، ويثبتنا إذا جبُنّا، ويحوطنا إذا غفلنا. فقال: والله لو كانت هذه الخصال فى ضَبٍّ لساد، انتهى.

وصَبِى بالكسر لعب مع الصبيان. وكيف استفهام إنكارى بمعنى النفى. الكرى: النوم مصدر كرِى،بالكسر: إذا نام. وكراء[1] بالمد: ثنية، وهو محل معروف بالخوف تغزوه العرب من اليمن وبلاد غطفان ونجد والسواد، فلذلك لا ينبغى لكل ذى عقْل سليم الكرى والغفلة فى دار الدنيا مع ما فيها من مخاوف النفس

(١) كراء بالمد: جبل بين الطائف ومكة وليس ببيشة.

والشيطان والهوى؛ فيستعين على تلك الأعداء والمخاوف بالتوكل على الله والالتجاء بامتثال أوامره واجتناب نواهيه لينصره على أعدائه، فإن الله تعالى يقول: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧] إذ ربما أصبح الرجل منقطعًا فلا يمسى إلا هو واصل[١]، وربما أصبح مطيعًا فلا يأتى عليه المساء إلا وهو فى ظلمات المخالفات.

حكى أنه كان فى بغداد رجل يعرف بأبى عبد الله الأندلسى، وكان شيخًا لكل[٢] من فى العراق، وكان يحفظ ثلاثين ألف حديث عن رسول الله ﷺ، وكان يقرأ القرآن بجميع الروايات. فخرج فى بعض السنين إلى السياحة ومعه جماعة من أصحابه مثل الجنيد والشبلى وغيرهما، وقال الشبلى: فلم نزل فى خدمته ونحن مكرمون بعناية الله إلى أن وصلنا إلى قرية من قرى الكفار، فطلبنا ماء نتوضأ به فلم نجد، فجعلنا ندور بتلك القرية وإذا نحن بكنائس وفيها شماميس[٣]، وقساوسة ورهبان وهم يعبدون الأصنام والصلبان، فتعجبنا من قلة عقولهم، ثم انصرفنا إلى بيت[٤] فى آخر القرية فإذا نحن بجوارٍ يستقين الماء على البئر وبينهن جارية حسنة الوجه ما فيهن أحسن منها ولا أجمل وفى عنقها قلائد الذهب، فلما رآها الشيخ تغير وجهه وقال: هذه بنت من؟ فقيل له: يا سيدى بنت ملك هذه القرية، قال: فلم لا يدللها[٥] أبوها ويدعها تستقى الماء؟ قلن: يا سيدى أبوها يفعل ذلك بها لئلا تعجب بنفسها فإذا زوجها برجل من قومه أكرمته وخدمته، فجلس الشيخ ونكس رأسه، ثم أقام ثلاثة أيام لم يأكل ولم يشرب ولم يكلم أحدًا غير أنه يؤدى الفريضة والمشايخ واقفون بين يديه لا يدرون ما يصنعون.

قال الشبلى: فتقدمت وقلت: يا سيدى إن أصحابك يعجبون من سكوتك ثلاثة أيام ولم تكلم أحدًا؛ قال: فأقبل علينا بوجهه[٦] وقال: يا قوم اعلموا أن الجارية التى رأيتها بالأمس شغفت بها حبًا فلا أقدر على فراق هذه الأرض، قال الشبلى:

---

(١) فى (ب) إذ ربما أمسى الرجل واصلا فلا يمسى إلا وهو منقطع.
(٢) فى (ب) لمن بالعراق.
(٣) الشماميس: جمع شماس: رتبة لرجال الدين النصارى.
(٤) فى (ب) إلى آخر القرية.
(٥) فى (ب) ويكرمها.
(٦) بوجهه زائدة فى (أ).

فتقدمت وقلت: يا سيدى أنت شيخ العراق ومعروف بالزهد والورع ومريدوك اثنا عشر ألفًا فلا تفضحنا وإياهم بحرمة كتاب الله. فقال: يا قوم جرى القلم بما هو[١] كائن، ووقعت فى بحار العدم، وقد انخلعتْ عنى عقدة الولاية، وطويت أعلام الهداية، ثم بكى بكاء شديدًا، وقال: يا قوم انصرفوا فقد نفذ القضاء والقدر، فتعجبنا من أمره، وسألنا الله أن يُنجينا من مكره، ثم بكينا بكاء أروينا التراب منه.

ثم انصرفنا عنه جميعًا إلى بغداد، فخرج الناس إلى لقائه، وخرج مريدوه من جملة الناس فلم يروه؛ فعرفناهم بما جرى، فمات من مريديه جماعة كثيرة حزنًا عليه وأسفًا، وجعل الناس يتضرعون ويسألون الله أن يرد عليهم الشيخ، وأغلقت الرباطات والزوايا والحوانيت، ولحق الناس حزن عظيم.

فأقمنا سنة كاملة، ثم خرجت مع أصحابى لنكشف خبره، فأتينا القرية، فسألنا عن الشيخ فقيل: إنه فى البرية يرعى الخنازير! قلنا: وما السبب فى ذلك؟ قالوا: إنه خطب الجارية من أبيها، فأبى أن يزوجها إلا من هو على دينه يلبس العباءة ويشد الزنار ويخدم الكنائس ويرعى الخنازير؛ ففعل ذلك كله فهو فى هذه البرية يرعى الخنازير؛ قال: فانصدعت قلوبنا، وانهملت بالدموع عيوننا، وسرنا إليه وإذا به قائم قدام الخنازير[٢]، فلما رآنا نكس رأسه فإذا عليه قلنسوة النصارى وفى وسطه زنارهم وهو متوكئ على العصا التى كان يتوكأ عليها إذا قام على المحراب، فسلمنا عليه فرد علينا السلام فقلنا: يا شيخ ما هذا وما ذاك وما هذه الكروب والهموم بعد تلك الأحاديث والعلوم؟! قال: يا إخوانى وأحبائى ليس لى من الأمر شىء، سيدى تصرف فىّ كيف شاء وحيث أراد بعدى عن بابه بعد أن كنت من جملة أحبائه؛ فالحذر يا أهل وداده من صده وإبعاده، والحذر الحذر يا أهل المودة والصفا من القطيعة والجفا. ثم رفع طرفه إلى السماء وقال: يا مولاى لم يكن ظنى بك هذا، ثم جعل يستغيث ويبكى وينادى: يا شبلى اتعظ بغيرك؛ فنادى الشبلى بأعلى صوته: بك المستعان، وأنت المستغاث، وعليك المتوكل، اكشف عنا هذه الغمة بحلمك فقد دهمنا أمر لا كاشف له غيرك، فلما سمعت الخنازير

(١) فى (ب) جرى القلم بما حكم.

(٢) قدام الخنازير: ليست فى النسخة (ب).

بكاءهم وضجيجهم أقبلت إليهم وجعلت تمرغ وجوهها بين أيديهم، وزعقوا زعقات عظيمة دوت منها الجبال.

قال الشبلي: فظننت أن القيامة قد قامت، ثم إن الشيخ بكى بكاء شديدًا.

قال الشبلي: فقلنا له: هل لك أن ترجع معنا إلى بغداد؟ فقال: كيف لي بذلك وقد استُرعيتُ الخنازير بعدما كنت أرعى القلوب؟! قلنا: يا شيخ كنت تحفظ القرآن بالسبع فهل بقي معك منه شيء؟ قال: نسيته كله إلا آيتين، قلت: وما هما؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ الآية [الحج:١٨]، والثانية قوله: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:١٠٨]، قلت: يا شيخ كنت تحفظ عن رسول الله ﷺ ثلاثين ألف حديث فهل بقي معك منها شيء؟ قال: حديث واحد، وهو قوله ﷺ: «من بَدلَ دينه فاقتلوه»[1] قال الشبلي: فتركناه وانصرفنا عنه ونحن متعجبون من أمره.

فسرنا ثلاثة أيام فإذا نحن به أمامنا قد تطهر من نهر ثم طلع وهو يتشهد شهادة الحق، ويجدد إسلامه، فلما رأيناه لم نملك أنفسنا من الفرح والسرور، فنظر إلينا وقال: يا قوم أعطوني ثوبًا طاهرًا؛ فأعطيناه إياه، ثم صلى وجلس، فقُلنا: يا شيخ الحمد لله الذي ردك إلينا وجمع شملنا بك، ثم قلنا له: صف لنا ما جرى بك؛ قال: لما وليتم من عندي سألتُ الله فقلت: يا مولاي أنا المذنب الجاني فاعف عني بجودك وغطني بفضلك وإحسانك، فقلنا له: بالله هل كان لمحو محبتك من سبب؟ قال: نعم؛ لما وردنا القرية وجعلتم تدورون حولها قلت في نفسي: ما قدر هؤلاء عند الله أنا مؤمن موحد وهم مشركون؟! فنوديت في سري: ليس هذا منك ولو شئنا عرفناك ثم أحسست بطائر خرج من صدري فكان ذلك الطائر الإيمان، قال الشبلي: ففرحنا به فرحًا شديدًا، وكان يوم دخولنا يومًا عظيمًا مشهورًا، فتحت فيه الرباطات والزوايا والحوانيت، وركب الخليفة للقاء الشيخ، وأرسل إليه الهدايا، وصار يجتمع عنده لسماع علمه أربعون ألفًا، أقام على ذلك زمانًا طويلا،

---

(١) حديث «من بدل دينه فاقتلوه»... إلخ. حديث صحيح أخرجه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الجهاد، كما أخرجه الأربعة، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٥٥٩ قال شارحه المناوي: قال ابن حجر: استدركه الحاكم فوهم (٦/ ٩٥).

ورد الله عليه ما كان نسيه من القرآن والحديث، وزاده على ذلك.

فبينما نحن جلوس عنده فى بعض الأيام بعد صلاة الصبح إذا بطارق يطرق باب الزاوية، فنظرت من الباب فإذا شخص ملتحف بكساء أسود، فقلت: ما تريد؟ فقال: قُل لشيخك إن الجارية الرومية التى تركت بالقرية قد جاءت لخدمتكم، قال: فدخلت وعرّفت الشيخ، قال: فاصفر لونه وارتعد، ثم أمر بإدخالها، فلما دخلت عليه بكت بكاء شديداً؛ فقال لها الشيخ: كيف جئت؟ ومن أوصلك إلى هنا؟ قالت: يا سيدى لما وليت من قريتنا كان من أخبرنى بك، فبت ولم يأتنى قرار، فرأيت فى منامى شخصًا وهو يقول لى: إن أحببت أن تكونى من المؤمنات فاتركى ما أنت عليه من عبادة الأصنام واتبعى ذلك الشيخ وادخلى فى دينه؛ فقلت: وما دينه؟ قال: دين الإسلام، قلت: وما هو؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، فقلت: كيف لى بالوصول إليه؟ قال: أغمضى عينيك وأعطنى يدك، ومَشى قليلا ثم قال: افتحى عينيك ففتحتها فإذا أنا بشاطئ دجلة، قال: امضى إلى تلك الزاوية وأقرئى الشيخ منى السلام وقولى له: إن أخاك الخضر يسلم عليك. قال: فأدخلها الشيخ على جواريه وقال: تعبدى هاهنا. فكانت أعبد أهل زمانها؛ تصوم النهار، وتقوم الليل حتى نحل جسمها وتغير رسمها؛ فمرضت مرض الموت، وأشرفت على الفوات، ومع ذلك لم يرها الشيخ، فقالت: قولوا للشيخ يدخل على قبل الموت، فلما سمع ذلك الشيخ دخل عليها، فلما رأته بكت فقال: لا تبكى فإن اجتماعنا غداً يوم القيامة فى دار الكرامة، ثم انتقلت إلى رحمة الله، فلم يلبث الشيخ بعدها إلا أياما قلائل حتى مات رحمه الله.

قال الشبلى: فرأيته فى المنام وقد تزوج سبعين حوراء، وأول ما تزوج بالجارية، وهما من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٤٥ - يُرَى وَهُوَ أَحْنَى مِلْءَ أَحْنَائِه ضَحًى
وَلاَ يَشْتَكِي إنْ عِيقَ عَنْهُ ضَحَاءُ

الأحنى، بالفتح والقصر: المنحنى الظهر من شدة الجد والتشمير وعدم الونى والفتور. والأحناء: جمع حِنْو وهو كل ضلع معوج. والضحى، بالقصر والفتح: مصدر ضحى، بكسر الحاء، أى عرق. الضحاء، بالمد والفتح: الغداء. وملء الشيء: المقدار الذى يملؤه.

والمعنى: يبصر موالى ضحى وهو منحنى الظهر من شدة الجد والتشمير المقدار الذى يملأ أضلاعه كافيًا له من الغذاء ولا يتعداه لطلب ما سواه مكاثرًا مفاخرًا ولو لم ينله إلا بعد عرق وكد، بل ولو منع منه ذلك المقدار الذى يملأ أحناءه فلا يظهر لأجل ذلك شكوى إلى مخلوق وإن منع منه ما لابد منه من ضرورياته كغذائه مثلا[1] فأحرى ما لم تدعه إليه ضرورة. فجملة «وهو أحنى» فى موضع نصب على الحال من مرفوع يرى، وأما ملء أحنائه ضحى فيصح نصبها حالا منه أو من فاعل أحنى. والبيت فيه من البديع التضمين وهو متضمن معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه:١١٩] أى فى الجنة. وفيه الحث على الاكتفاء باليسير لأنه مقتبس من قوله ﷺ: «خيركم رجل خفيف الحاذ قل تراثه وقلت بواكيه وقل حسابه»[2].

---

(١) فى النسخة (ب) بعد قوله: (مثلا) هذا البيت:

إن الكريم إذا نالته مخمصـــة ... أبدى إلى الناس ريا وهو ظمآن

وبعده:

يطوى الضلوع على مثل الغضا حرقا ... والوجـــه غمر بمـــاء البشر ريان

فأحرى ما لم تدعه ضرورة إليه.

(٢) «خيركم رجل خفيف الحاذ»... إلخ. ضعيف روى بطرق كثيرة حكم على بعضها الصغانى بالوضع، ورواه الحاكم فى مستدركه بلفظ «إن أغبط الناس عندى لمؤمن خفيف الحاذ ذو حظ من الصلاة أحسن عبادة الله وأطاعه فى السر غامضا فى الناس لا يشار إليه بالأصابع وكان رزقه كفافا فصبر على ذلك، ثم نفض رسول الله ﷺ بأصبعه وقال: عجلت منيته وقلت بواكيه وقل تراثه» اهـ.
=

قال على كرم الله وجهه: رجال هذه الأمة أربعة، وخيرهم رجل ارتحل من جنة إلى جنة، ويليه رجل ارتحل من نار إلى جنة، وخير الرجلين الأخيرين رجل ارتحل من جنة إلى نار، وشر منه رجل ارتحل من نار إلى نار.

وهو الذى قال فيه ﷺ: «أشقى الأشقياء رجل جمع الله عليه فقر الدنيا وعذاب الآخرة»(١).

وهو يشير أيضًا إلى التعفف عن المسألة بما يناله من عرق جبينه وكد يمينه لأنه من أحل الحلال وهو مراد الشارع.

يروى أن الله تعالى لما أهبط آدم من الجنة قال له: اهبط إلى دار الدنيا فإنك لا تنال العيش فيها إلا كدًا، فصابر جنود الهوى والشيطان بالجد والاجتهاد وكأنك بالعيش بالماضى وقد رجع إلى أحسن من المعتاد؛ فقال: أى رب، وكيف أجاهده وأكابده وقد شغلتنى عنه بالكد فى طلب المعاش وقد سلطته علىَّ وأفرغته لى؟ قال: إنى سأعينك عليه فإنى أغفر لك ولبنيك ما اقترفتم ما لم تغرغروا، إنى جعلت الحسنة بعشرة أمثالها والسيئة بمثلها وأعفو عن الكثير، وإنى رفعت القلم عن الصبى حتى يبلغ وعن المجنون حتى يفيق وعن النائم حتى يستيقظ، وإنى عفوت عنك وعن ذريتك الخطأ والنسيان وما استكرهتم عليه وما حدثتكم به أنفسكم، وإنى جعلت مهلكاتك ثلاثًا وكلٌّ قد أعنتك عليه بطبقتين فأطبق عينيك ولسانك وفرجك، وإنى جعلت الهم بالحسنة حسنة وغفرت الهم بالسيئة، وإنى

= وقال: هذا إسناد للشاميين صحيح عندهم ولم يخرجاه، وعقب عليه الذهبى قائلاً: لا بل إلى الضعف هو، والله أعلم (١٢٣/٤) مستدرك. وسبق تخريج الحديث.

(١) حديث «أشقى الأشقياء»... إلخ. موضوع أخرجه الحاكم والطبرانى والقضاعى، كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٣٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٧٥ وأورده السيوطى فى جامعه وقال المناوى شارحه: من العجب العجاب أنه رمز لصحته، وأورده الهيثمى وقال: رواه الطبرانى فى الأوسط بإسنادين فى أحدهما خالد بن يزيد وقد وثقه أبو زرعة وضعفه الجمهور، وفى الأخرى أحمد بن طاهر وهو كذاب (٢٦٧/١٠).
وحكم عليه الألبانى بالوضع بعدما ناقش جميع طرقه (١٧١/١).
قلت: ومن الغريب أن الحاكم قال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى (٣٢٢/٤)، والله أعلم.

جعلت صاحب اليمين مقدمًا على صاحب الشمال فلا يدعه يكتب السيئة إلا بعد تسع ساعات ليبصر مبصر وليستغفر مستغفر ولا يهلك على إلا هالك[١].

ويروى أن داود عليه السلام لما آتاه الله الملك والنبوة جعل يخفى نفسه ثم يطوف فى رعيته ليسأل الناس عن سيرته حتى لقيه ذات ليلة جبريل عليه السلام يظنه إنسانًا قال له: ما بلغك عن هذا الرجل الذى يقال له داود فى سيرته وعدله؟ فقال له: لم يبلغنى عنه إلا خير إلا أن فيه عيبًا واحدًا؛ قال له: وما هو؟ قال: إنه يعيش من بيوت الأموال ولا يعيش من كد يمينه؛ فسقط داود عليه السلام على وجهه، وجعل يمرغ وجهه فى التراب، ويسأل الله تبارك وتعالى أن يجعل له حرفة يتكسب منها ويعيش فيها، فألان الله له الحديد فلا يأخذ حديدًا إلا لان فى يده فصار كالزبد، وهو أول من صنع الدروع. وكان عليه السلام يصوم يومًا ويفطر يومًا على بلغة من قيمة الدروع.

وكان ﷺ يقول: «خيركم المحترف». وكان ﷺ تاجرًا قبل النبوة، فلما أرسل وأمر بالجهاد جعل الله رزقه تحت ظل سيفه، فأحل له الغنائم، وخصه بالخمس طعمة، وأحل له الهدايا، وحرم عليه الصدقة والمن ليستكثر، ومع ذلك كان لا يبيت على موجود، ويؤثر على نفسه حتى لبس الحصير، وحتى لا يجد ما يقع منه موقعًا؛ فعاتبه ربه فى ذلك فقال: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩].

ولقد فتحت على أصحابه ﷺ كنوز كسرى وقيصر وأجيبت إليهم الأموال من الأقاليم فما غيرتهم وما أخذت منهم حتى لحقوا بصاحبهم على الحالة التى فارقوه عليها.

يروى أن عمر رضى الله عنه لما ذهب إلى الشام ذهب إليه على حمار وعليه مرقعة ومعه عبدان له يتناوبانه، فلما قدم الشام تلقته أمراء الأجناد، فأول من لقيه منهم أبو الأعور[٢] السلمى وعمرو بن العاص السهمى على زى أهل الشام وعليهم

(١) هذا الكلام مؤلف من عدة أحاديث بعضها صحيح وبعضها حسن وبعضها صحيح المعنى والله أعلم.

(٢) أبو الأعور السلمى: هو عمرو بن سفيان بن عبد شمس أبو الأعور السلمى، كان من أصحاب =

ثياب بيض، فجعل عمر رضى الله عنه يحثو التراب فى وجهيهما ويقول لهما: ما أسرع ما أخذتْ منكم الدنيا وأخذتم منها وغَيرتكم! ما على هذا فارقتم محمداً وأصحابه. ثم لقى أبا عبيدة رضى الله عنه وعليه مرقعة، وبيده رمح ملعب، وتحته سرج خلق؛ فعانقه والتزمه وجعلا يبكيان، فقال له عمر: أنت أخى والله، ما نلت من الدنيا ولا نالت منك، ولا أراك إلا ملاقيا صاحبك على الهيئة التى تركك عليها. ثم لقيه معاوية فى موكب عظيم وقد أتاه بفرس من فره خيل الشام فقال له: اركب عليه فقال: إن فى حمارى الكفاية عما أرى، فقال: اركب عليه فإن بالشام جواسيس الروم وبقايا من أجنادهم، وركوبك على الفرس أهيب لك فى صدورهم، فقال: هيهات! إنكم ترون الأمر من هاهنا، وأشار إلى الأرض، وأنا أراه من ها هنا، وأشار إلى السماء، فإن الله إنما أعزنا بالإسلام، فلا تزالون أعزة ماتمسكتم بهذا الدين، فإذا ضيعتموه وتنافستم الدنيا سلط الله عليكم عدوكم؛ فأذلكم بعد العزة، ومزقكم بعد الجماعة. فلما علا عمر رضى الله عنه على جبل القدس لقيه أسقف إيلياء وهو على حالته وقد أخذ من مخلاته فتات خبز شعير يابس يأكله من غير إدام؛ فرجع إلى أهل إيلياء وقال: ويلكم أعطوه ما سأل؛ فإنى لقيت رجلا لو حاول إزالة جبل لأزاله، وإنه لعلى زى نبى لا زى ملك، لا كبرياء معه ولا تجبر ولا حرس ولا شرط، وإنه لصاحبكم الذى تجدونه فى كتبكم؛ ففتحوا له إيلياء، وأعطوه ما سأل. ودخل المسجد الأقصى، فلما دخله أمر بلالا[1] أن يؤذن، فأذن، فلما سمع أصحاب رسول الله ﷺ أذان بلال تذكروا رسول الله ﷺ؛ فارتج المسجد بالبكاء، فسأل النصارى عن ذلك، فقيل لهم: إنه لما أذن

= معاوية بالشام، وغزا بأمر منه قبرس، وليست له صحبة على الصحيح، روى عن النبى ﷺ مرسلا (٢/ ٥٣٣) الإصابة، والله أعلم.

(١) بلال: هو بلال بن رباح مؤذن رسول الله ﷺ، يكنى أبا عبد الله، مولى أبى بكر الصديق، اشتراه بخمس أواق ثم أعتقه، وكان خازن رسول الله ﷺ مع الأذان. شهد بدرا وأحداً وسائر المشاهد، وهو سابع شخص دخل الإسلام قلبه، وأسلم علنًا، وعذب لذلك عذابًا شديدًا، كان صادق الإسلام طاهر القلب، أصله مولى لبنى جمح، ومولده فى مكة أو فى السراة، واسم أبيه رباح، واسم أمة حمامة، توفى رضى الله عنه عام ٢٠ بدمشق، أذّن حياة النبى ﷺ وحياة أبى بكر، ثم ترك المدينة وسافر إلى الجهاد فى سبيل الله، ولم يؤذن خلافة عمر إلا مرة واحدة، والله أعلم.

مؤذن رسولهم ذكروه فبكوا لفقده، فقالت النصارى: أما هؤلاء فلا يناوئهم أحد إلا ظهروا عليه ما داموا على هذه الحالة من الرقة والوفاء والعدل واليقين، لكنهم سيغيرون ويتغيرون كما فعلت الأمم قبلهم، ولن ينصروا بعد ذلك إلا بالعدد، ولن يكونوا أكثر الأمم، ثبتنا الله على دينه ولا جعلنا ممن يغير فيغير عليه.

* * *

● **قال الناظم رضى الله عنه:**

٤٦ ـ كَفاهُ الْمَشَا هَمَّ الْمَشاءِ فلا شَرًى   لَدَيْهِ لأقْـواءٍ(١) حَـــواهُ شَرَاءُ

«المشى» بالقصر والفتح: نبت معروف يقال له الفصة، والفصيص تأكله العرب عند المخمصة وربما أكلته تفكها. و«المشاء» بالمد والفتح: كثرة النسل، ومنه سميت الماشية ماشية. والشرى: شدة الغضب، يقال: أشر الرجل، بالكسر: إذا استشاط غضبًا، وربما سمى به كل شىء بلغ فيه الغاية مما لا ينبغى قال الله تعالى: ﴿كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر:٢٥]، ويطلق الأشر فيراد به النهامة، يقال: أشر أكول. و«الشراء» بالمد والفتح: موضع معروف تعتزل فيه المتصوفة.

والمعنى: كفى من ذكر وهو موالى ضحى إذ الضمير عائد عليه أى أغناه ما فيه كفافه وما تقوم به بنيته من الحلال كالمشى مثلا وما فى معناه من نبات الأرض الذى لا يفتقر فى تحصيله إلى كبير مؤونة ولا يخشى معه تبعة لمخلوق. «همّ»: مفعول كفى، و«المشى»: فاعله. و«المشاء» بالمد: مضاف إليه، أى كفاه هم غيره ككثرة النسل أى الاهتمام به، وهو ميل النفس إلى تحصيله، أو الهم الكائن لأجله بعد حصوله الذى يوجبه فقدان ما يحتاج إليه من مأكله ومشربه وملبسه؛ ومنشأ الكفاية أن الاقتصار على ما فيه الكفاف من الحلال ينور البصيرة، فتطيب السريرة، فتصرف النفس عن الدنيا الحقيرة، وتطمح إلى المراتب الخطيرة، فتعد من أجل ذلك كل كبيرة صغيرة، ومن كان كذلك فلا غضب لديه لأجل ما فاته من دنياه، إذ لا يغضب كبير خطير لفوات صغير حقير؛ لأنه صار لسيده الكبير الذى هو أكبر كل شىء عبدًا فلا يرى ما دونه كبيرًا. [قوله: لأقواء: جمع قوى، وهو

---

(١) فى النسخة (أ): لأفوات بدل (لأقواء)، والأول عليه الشرح.

المكان القفر][١].

وقوله: «حواه»: أى ضمّه مكان قفر ينفرد فيه بربه حرصًا على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه. وقوله: «لأفوات» جمع فائت، وهذا كله منه حث على العزلة والخلوة بالله عز وجل والتبرؤ من الخلق بالفرار إلى الخالق. قال الرسول ﷺ: «الخمول نعمة وكل الناس يأباه، والظهور نقمة وكل الناس يتمناه»[٢].

وقال بعضهم: تخلق بالخمول تعش سليمًا وجالس كل ذى خلق كريم.

وقال غيره: كم وحدة أنفع من جليس، ووحشة أنفع من أنيس.

وكان أبو معاوية الضرير يقول: فىّ خصلتان ما يسرنى بهما رد بصرى: قلة الإعجاب بنفسى، وخلو قلبى من حب اجتماع الناس إلىّ.

وقال عمر رضى الله عنه: خذوا حظكم من العزلة.

وصعد حسان على أطم[٣] من آطام المدينة فنادى: واصباحاه؛ فاجتمعت إليه الخزرج فقالوا: ما عندك؟ فقال: قُلت بيت شعر أحببت أن تسمعوه، قالوا: هات قال: (من بحر الطويل)

وإن امرأ أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيد

ولما بنى سعد بن أبى وقاص منزله بالعقيق قيل له: تركت منازل إخوانك وأسواق الناس ونزلت العقيق؟! فقال: رأيتُ أسواقهم لاغية، ومجالسهم لاهية؛ فوجدت الاعتزال فيما بينهما عافية.

---

(١) ما بين القوسين زيادة من نسخة (ب).

(٢) «الخمول نعمة وكل الناس يأباه... إلخ». ليس بحديث وإنما هو من كلام بعض السلف، أورده صاحب الكشف تحت رقم ١٢٢٦ والسخاوى فى القاصد تحت رقم ٤٤٦ وقالا: ليس من كلام النبى ﷺ، إلا أن صاحب الكشف قال: ثبت معناه عند مسلم مرفوعا: «إن الله يحب العبد التقى الغنى الخفى».

إلى أن قال: قال ابن الغرس: وقد رأيت فى بعض التعاليق زيادة: (والشهرة نقمة وكل يتوخاها). اهـ، وقال: وقد جاء فى السنة وفى كلام السلف ما يدل لهذه الزيادة، والله أعلم (١/ ٤٦٠).

(٣) الأطم: الحصن.

وقيل لعروة أخى مرداس: لم لا تحدثنا ببعض ما عندك من العلم؟ فقال: أكره أن يميل قلبى باجتماعكم إلى حب الرئاسة فأخسر الدارين.

وقال سفيان بن عيينة: دخلنا على الفضيل نعوده فقال: ما جاء بكم؟ والله لو لم تجيئونى لكان أحب إلى، ثم قال: نعم الشيء المرض لولا العيادة.

وقيل للفضيل: إن ابنك يقول: وددت أنى بالمكان الذى أرى الناس فيه ولا يروننى، فقال: ويح على لم لا أتمها فقال: لا أراهم ولا يروننى؟

وقال عليه الصلاة والسلام: «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس، طوبى لمن لزم بيته، وأكل قُوته، واشتغل بطاعة ربه، وبكى على خطيئته، وكان من نفسه فى شغل والناس منه فى راحة»[1].

وقال سفيان الثورى: الزهد فى الدنيا الزهد فى النَّاس.

وقيل لراهب فى صومعته: ألا تنزل؟ فقال: من مشى على الأرض عثر.

ثبت الله أقدامنا على طاعته ولا جعل لنا سبيلا إلى معصيته، آمين.

* * *

● **قال الناظم رحمه الله:**

٤٧ ـ وَتَأْلَفُه الْخَيْطَا وَخَيْطَاءُ إلْفُـهُ ... وَلَوْلاَ الْمُنَى لَمْ يَرْضَ مِنْهُ مَنَاءُ

و«تألفه»: أى تسكن إليه وتستأنس به، والضمير راجع على المنفرد بالشراء للخلوة بربه. و«الخيطا»: لغة فى الخيطة وهو القطيع من النعام. و«الخيطاء» بالمد والفتح: النعامة الطويلة العنق والقائمتين، وقيل: التى يخالط سوادها بياض.

---

(١) «طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس»، هذا القدر من الحديث رواه الديلمى وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٦٧٣، وقال: قال فى التمييز: أخرجه البزار بإسناد حسن (١/ ٦٠)، وأورده كذلك السخاوى فى المقاصد تحت رقم ٦٦٣ وقال: رواه الديلمى عن أنس، وأورد السيوطى الجزء الأول منه فى جامعه تحت رقم ٥٣٠٦ والجزء الثانى تحت رقم ٥٣٠٨.
قال المناوى شارحه: وقال العراقى بعد ذكر طرقه: وكلها ضعيفة (٤/ ٢٨١) أما الجزء الثانى من الحديث الذى هو «طوبى لمن ملك لسانه»... إلخ. فقد قال فيه الهيثمى: حسن، ورمز له السيوطى بالحسن تبعًا لذلك، والله أعلم.

و«المنى» بالفتح والقصر: لغة شاذة فى القدر ولذلك اشتق للمنية اسم منه فيقال: المنيةُ يأتى بها المنى.

قال الشاعر:

إن الْمَنَى تأبى الْمُنَى ... فاختر رِضًى وسلم

و«المناء» بالفتح والمد: محل النهوض أو النهوض نفسه، و«النوء والمناء»: النهوض عن ثقل وتؤدة حتى لا يكاد يفعل؛ قال الله تعالى فى صفة أموال قارون: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ [القصص: ٧٦].

والمعنى: وتألف من ذكر فى شراء أى تصحبه فيه جماعة من النعام، وإلفه أى مؤالفه نعامة موصوفة بطول العنق والرجلين أو باختلاط البياض والسواد فيها، أى من شدة فراره عن الناس وطول ملازمته للفلوات ألفته وجاورته وأنست به، ولولا القدر لم يرض أحد نهوضا فى حال كونه منه، بمعنى أن كل من تجرد لربه بقلبه وجسمه فهو ملحوظ بعين السخط والاحتقار عند العامة لنبو العين عنه وازدراء النفوس له فلا يعبأ به لقلته[1] وذلته، ولعله ممن لو أقسم على الله لأَبَرَّه، وإنما يرضى نهوضه مع ما يجد من الاحتقار والأمور الشاقة على النفس باعتبار أن الله أقدره على ذلك وتعلقت بتخصيصه إرادته القديمة لا بالنظر لصدوره منه.

وليس بعجب لزوم الوحوش للصالحين المتجردين، ولقد كثر ذلك حتى صار أمرًا ضروريًا، كما روى صاحب الرياض أن أبا مدين رضى الله عنه قال: أول ما فتح به علىَّ فى خلوتى أنى كنت كلما أتيت متعبدى وموضع خلوتى انحدرت إلىَّ من الجبل غزالة، فتلحسنى من قدمى إلى مفرق رأسى، ثم تبرك بإزائى، وتجعل تجتر وتنظر إلىَّ، حتى ذهبت يومًا إلى بعض القرى، ففتح على بخمسين دينارًا، فصررتها فى مرقعتى، وأتيت بها متعبدى، فما هو إلا أن وقع بصرها على، أقبلت إلى تعدو، فجعلت تنطحنى حتى كادت تمزق على مرقعتى، فعلمت أنه لم يصبنى ما أصابنى إلا من تلك الخمسين؛ فألقيتها فى الماء، فلما ألقيتها رجعت إلى عادتها معى وجعلت تلحسنى.

---

(١) القلة: الحقارة.

ويروى أن قُس[١] بن ساعدة كان يَرِدُ الغدران والمياه، فإذا طرد القوى من الوحش الضعيف أخذ بقرونه وقال: والله لا تشرب حتى يشرب الضعيف، وكان يذودها كما يذود الرجل غنمه.

ويروى أن رجلا ضلت له إبل، فطلبها شهرًا، ولم يترك أرضًا من بلاد الله إلا طلبها فيها إلا وادى بيشة فإنه تحاماه لكثرة سباعه وقطاعه، فلما أشفى على الوادى إذا هو بإبله ترعى، وإذا هو بولى من أولياء الله فى غيضة[٢] من تلك الغياض، فتلطف حتى دنا منه، فلما دنا منه إذا بأسد يحمل غزالا على رقبته حتى وضعه بين يديه فقال له: هذا فطورك أتيتك به، وإذا بأسد آخر قد أقبل وليس معه شيء فقال له: يا ولي الله طردت هذا الغزال حتى أتعبني طرده، فلما أخذتُه لأذهب به إليك جاء هذا الأسد فغلبنى عليه وذهب به إليك، فجعل يأخذ بأذن الأسد ويصفعه ويوبخه وهو يبصبص بذنبه، ثم قال: اذهبا بغزالكما فلا حاجة لى به، فبينما هو كذلك إذا بطائرين كل منهما يقول: أفطر بى يا ولى الله، فقال لهما: نعم، أحدكما لى والثانى لضيفى صاحب الإبل الذى يظن أنى لم أعلم به، فأتاه وجعل يقبل يديه ورجليه، ثم أقبل عليه وقال له: إن إبلك عندى منذ شهر، خلصتها من السباع والطوارق، فذبح الطائران من غير ذابح، ونتفا من غير ناتف، ونضجا من غير منضج، فناوله أحدهما ثم قال له: إياك أن تكسر له عظمًا، فلما فرغنا من الأكل جمع عظامهما وجعل عليهما كمه ثم قال: ارجعا إلى هيئتكما بإذن الله، فما استتم كلامه حتى طارا بإذن الله، فجعلت ألتزمه وأبكى وأطلب منه الدعاء، فالتفت وهو يبكى ويقول: اسأل الله أنت لى فإنى لا أدرى أينا الفائز أنا

---

(١) قس بن ساعدة بن جذامة الإيادى خطيب العرب، عده بعضهم من الصحابة، والصحيح إن شاء الله خلاف ذلك، وهو أحد المعمرين، وهو أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأول من توكأ على عصا فى الخطبة، وأول من قال: أما بعد، وأول من كتب: من فلان إلى فلان، وقد رآه النبى ﷺ فى سوق عكاظ على جمل أحمر، وفى رواية: أورق.

أما قضيته مع السباع أو الوحوش التى أورد الشيخ فقد ذكرها ابن شاهين عن رجل من قوم قس عن قس، وأوردها عنه ابن حجر فى الإصابة وسكت عليها، إلا أنه قال: السباع بدل الوحوش (٣/ ٢٦٥) والله أعلم.

(٢) الغيضة: مجتمع الشجر فى مغيض الماء (الأجمة).

أم أنت؟ فإنك مؤمن لم يعجل لك من حسناتك شيء وأنا قد عجل لى ما ترى، فإن الكرامات بلايا فى أشخاص، عطايا، فالمغتر بها هالك، والمعتمد عليها منقطع، والمنكمش عنها على خطر عظيم. ثم أخذ فى البكاء والنحيب، فاستقت إبلى وتركته يبكى[١].

ويروى أن أخوين من أهل تونس كانا وليين لله تعالى، أحدهما متجرد، والآخر متكسب، وكان المتجرد كثيراً ما يطعن فى المتكسب، وقد بلغ من تجرده أنه كان يركب أسدًا ويلجمه بأسود سالخ[٢]، وكان لكل منهما مريدون، فأرسل المتجرد رجلا من تلاميذه فقال له: اذهب إلى أخى المفتون عن الله فسلم عليه منى وقل له: إلى متى هذا الشغل عن الله؟! فذهب المريد، وجعل لا يمر على بستان من بساتين قرية المتكسب إلا قيل له: هذا لفلان المتوجه إليه حتى دخل القرية فإذا الأموال تجبى إليه من كل ناحية، فرأى من ذلك أمرًا عظيمًا، فبينما هو كذلك إذ أقبل الشيخ فى غاشيته[٣] والمظلة عليه قد لبس الوشى ومريدوه حافدون[٤] فى خدمته، فلما رأى ذلك اشمأزت نفسه حتى هم بأن لا يراه ولا يبلغ له رسالة أخيه المتجرد، ثم قال: لأؤدين رسالة الشيخ إليه ولا أبالى بحال هذا الهالك، فبلغه الرسالة والسلام، فلما قال له المريد ما قال تبسم الشيخ المتسبب ثم قال له فى تؤدة: سلم على أخى المتجرد بزعمه وقل له: أخوك يسلم عليك ويقول لك: إلى متى وأنت فى سكر حب الدنيا؟! ولو أتيتنى لرأيت ما لم يكن لك فى حساب. فانصرف المريد غير مكترث برسالة الشيخ لسخطه عليه، فلما قدم على الشيخ أقبل عليه يسأله عن أمر أخيه وما قال له، فقال المريد لشيخه: إنك ما أرسلتنى إلى أحد! فقال له: ومع ذلك فأخبرنى بما قال، قال: إنه يقول: سلم على أخى المتجرد بزعمه وقل له: أخوك يسلم عليك ويقول لك: إلى متى وأنت فى سكر حب الدنيا؟ ولو أتيتنى لرأيت ما لم يكن لك فى حسبان. فلما سمع مقالة أخيه

---

(١) ما أشبه هذه الحكاية بحكايات الخرافات!!

(٢) الأسود: الثعبان، السالخ صفة له، ومعناها الحية التى تنسلخ من جلدها كل سنة.

(٣) الغاشية: الخدم، والزوار.

(٤) حافدون: مسرعون.

خر مغشيًا عليه، فقال: لقد صدقنى أخى والله ونصحنى، ولو كنت مكانه لافتتنت. ثم تأهب وسار إليه فى تلاميذه، فلما قدم إليه بنى له فسطاطا[1] وبسط له ما ينبغي، وقد أمر زوجاته بتزين الجوارى، وقد قيد أسده بأسوده، وقال فى نفسه: والله إنهن لجميلات لولا أن فيهن مشغلا عن الله، فأقبل على أسده لما أراد الذهاب على عادته، فهر له الأسد وفغر الأسود فاه وهما به، فلما بلغ الشيخ المتسبب ذلك أقبل إليه وأخذ بأذن الأسد يقوده ذليلا، ثم حل الأسود من رجليه خاضعًا فقال لهما: على زلة من أخى تسيئان معه الأدب؟! أقبل يا أخى واركب على كلبك واذهب إلى الصحراء فإنما كان يسترك وأصحابك الفرار والحيل، فها أنت قد فتنت بجوار يحملن الطعام !فما ظنك لو وقع بصرك على سيداتهن فى الجمال وقد لبسن الحلى والحلل وتضمخن بالطيب كأنهن البدور المسفرات، وقد رفعت الرجال عنهن الهمم، وهن في قبضة الملك، وعلى بساط الإباحة، شغلاً بالله، وما ينظرون إليهن إلا كما ينظرون إلى الحجارة اكتفاء بالمحسِن[2]. وليس الشأن فى قتل الحية، إنما الشأن فى أخذها وهى حية، وشتان ما بين من منع نفسه بالميدان ونهنه عن ساحته فى ممارسة الأقران وبين الفار الجبان المرتعش الولهان[3] الذى لا يبالى إن سلم بذل ولا هوان.

وحكاياتهم رضى الله عنهم فى مثل هذا لا تنحصر. حصر الله رجاءنا عليه، وفيما لديه.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٤٨ ـ وَلَيْسَ كَذِى جَرْبَا بِجَرْبَاء ماكِثٍ ... قَرِيبِ الْكَـدَا فَالْوَصْلُ مِنْهُ كَـدَاءُ

أى وليس المتجرد بشراء على وجه الخلوة بربه حرصًا على صفاء قلبه وجلاء مرآة لبه مثل صاحب إبل ذات جرب، واحدها جربى بمعنى أجرب ماكث فى أرض جرباء، بالمد: أى مقحوطة. قريب الكدا، بالقصر: أى الغضب، فالوصل

(١) الفسطاط: خيمة كبيرة من شعر، ج فساطيط.

(٢) كذا فى الأصلين ولعل المعنى اكتفاء بالمحسن باسم الفاعل عن المحسن باسم المفعول والله أعلم.

(٣) الولهان: الخائف.

معه لأجل ذلك كداء، بالمد: أي مقطوع، بل هو على خلاف صاحب شراء البعيد الغضب القريب الرضى الواسع الصدر لزهده فى الدنيا ورغبته فى الآخرة واتساع صدره للصاحب والخليل لمعرفته بالله واعتماده عليه وحسن إخائه فيه، فحبله لمن وصله موصول، وفضله مبذول، وقربه معسول، كما قال الشاعر: (من بحر البسيط)

تكاملت فيك أوصاف خُصصت بها ... فكلنا بك مسرور ومغتبط

السن ضاحكة والكف مانحة ... والنفس واسعة والوجه منبسط

وفى البيت من البديع التلميح إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ [النجم:٣٤] وفى أكدى اشتراكات: منها أكدى بمعنى بخل، وأكدى بمعنى قطع وأمسك، وأكدى البئر إذا ظهرت فيه كدية دون الماء، وأكدى الفرس إذا لقيت حافره كدية منعته من تمام اعتماده عليها. لا أكدى الله علينا فى الإحسان، ولا ضيق علينا فى ميدان المن والامتنان.

* * *

● **قال الناظم رحمه الله:**

٤٩ ـ يَقِي ذا الْعَظَا دَاءَ الْعَظَاءِ بِكَرِّ ذِي ... وَقًى مَالَهُ دُونَ الْقَضَاءِ وَقَاءُ

العظا، بالقصر والظاء المشالة: مصدر عظِي البعير، بالكسر، إذا اشتكى من أكل العنظوان، وهو ضرب من الحمض. والعظاء، بالمد: جمع عظاية، وهى دويبة تؤلم الإبل وتضنيها، وأصل ياء العظاية الهمزة، ووضع الياء محل الهمزة فى هذا وما أشبهه من كل مفرد يزيد على جمعه بالتاء جائز. والوقى: مصدر الواقى من الخيل، وهو المتوقع الأرض لعرج به. والوقاء، بفتح الواو وكسرها: ما يتوقى به الشىء.

والمعنى: يقى ذو الإبل الجرباء اللابث فى جرباء الجمل الذى اشتكى من أكل العنظوان داء العظاء، أى يستره منه وحاول حمايته يجرى فرس صاحب عرج يتألم من مس حافره الأرض لأجل ظلع أصابه فيجتهد ولا يجدى، ويزيد بذلك غمه،

ويتضاعف همه، ويكثر غضبه، ولا يزول غضبه[1]؛ فالمثال لذى نفس شريرة خبيثة دنيئة اكتسبت مالا من سحت وحرام، كلما حاولت فلاحًا ونجاحًا ازدادت عطبًا لتعذر أسباب الفلاح لخبثها وخبث مكتسبها. فالإبل الجرباء كناية عن الكسب الخبيث الذى أفرده عن أبناء جنسه، لأن الخبيث الطبع القليل النفع لا يألف ولا يؤلف؛ فيتجنبه الناس لخبثه، ويتجنبه الناس لسوء أخلاقه وبخله وإملاقه، فبقدر ما يتوغل فى أخلاقه يزيد من الله بعدًا، ويزداد الناس فيه زهدًا؛ فلا خير عنده يعهد، ولا خصب بأرضه يقصد. والجرباء، بالمد، كناية عن أحواله المجدبة، فمنها ما هو سباخ لا ينبت ولو كثرت عليه الهتون، ومنها ما هو حزن[2] خبيث قليل الخير فينبت ما لا نفع فيه كالعشر[3] الخمط[4] والعنظوان والشبرق والزقوم واليرزيز[5]، وإن نبت معه حشيش نبت قليلا متفرقا. قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:٥٨] فينبت عشر: الرياء والسمعة والبطر والغفلة وعنظوان الإسراف والقتر وشبرق الشح والأشر وزقوم المخالفات ويرزيز المعاندات، فإن طرقه طارق خير أو داعى رشد لم يجد فى الساحات قابلية وإن قصد إليها طيف وابله جَرْيًا حَيَّال[6]، وله من جنسه عيال، أدلقهم جوع وهزال، وأقلقهم شح وانتحال، فجمل حزمه منعوظ، وجواد عزمه موقى منحوظ[7]، فلا هو للقضاء يدفع، ولا هو للبلاء يرفع، ولا له عند الله جاه فيشفع، ولا له من الله عناية فيضرع، ولا له فى سابق القدر سهم فيخشع، ولا له آلة النهوض فيفزع، فحزنه طويل، وجاره ذليل، وقربه ثقيل، لا يغنى فتيلا، ولا يريش نزيلا، ولا يمنع دخيلا، عقده محلول، والمنتصر به مخذول، وعرشه مثلول، فَجَرَبُ أخلاقه لا يداويه الهنا، وشؤم أحواله لا يزيله العنا، وعنظ[8] عزمه لا يداوى، وعرج حزمه لا يناوى،

(١) كذا كرر غضبه مرتين، وهذا فى النسختين (أ) و (ب) ولعله غير ذلك.
(٢) حزن: صلب.
(٣) العشر: شجر له أوراق كثيرة لا يؤكل.
(٤) الخمط: المتغير الرائحة، والمراد هنا الشجر الذى لا شوك له.
(٥) العنظوان والشبرق والأرزيز: نباتات لا خير فيها.
(٦) العبارة غير واضحة فى النسختين ولعلها (جريًا سيال) أى كثير السيل.
(٧) منحوظ: نحظ الفرس إذا أطلق صوتًا مكتومًا من الإعياء.
(٨) العنظ: الفحش.

وعظاء مصائبه لا يرد، ووباء نوائبه لا يسد، إذ على قدر تقوى الله تأتى المواهب، كما أنه على قدر الذنوب تأتى المصائب، وفى ذلك يقول القائل: (من بحر الطويل)

على قدر تقوى الله تأتى المواهب   وتأتى على قدر الذنوب المصائب

وفى البيت وما قبله نوعان من البديع: وهما الكناية كما ذكر آنفًا، والاستطراد لأنه مدح موالٍ ضحى بالأبيات الثلاثة، ثم استطرد يذم الجرباء بثلاثة أبيات.

* * *

● قال رحمه الله:

٥٠ ـ يَظَلُّ بِمَثْنَى جِيدِ مَثْنَاءَ مُغْرَمًا   وَيَهْوَى وَرًى مـا يَنْتَقِيهِ وَرَاءُ

قوله: يظل: من أخوات كان، مغرمًا: خبره، بمثنى: جار ومجرور متعلق بيظل، وهو المنعطف من الجيد والخصر ونحوهما. ومثناء، بالمد، فعلاء: وصف لامرأة تشتكى مثناتها من السمن. والورى: مصدر ورى المخ، بالكسر: إذ كثر. والوراء، بالمد، ولد الولد.

والمعنى: يظل صاحب الجرباء لدناءة همته مغرما أى مولعا بعطف جيد امرأة مشتكية مثناتها، ويهوى أى يحب اكتناز المخ من السمن لما تعوده من لؤم الطبع وخبث الأخلاق؛ فقصاراه فى الدنيا ماشية كإبل تعب فى تحصيلها ورعايتها ويفنى أيامه فى معالجة ما بها من الآفات، وامرأة حسناء تشغله بمحاسنها عن المقصود بالذات والاستعداد لما هو آت مما بعد الممات، فهى تسايره فى لؤم الأخلاق، وتباريه فى الفسق والنفاق، وإيقاع يهوى على ورًى لأجل أنه السبب فى هوى صاحبته، فهو فى الحقيقة إنما يهوى الورى وما ينتقيه أى يخرج نقيه[1]، وليس ذلك من هم الرجال العقلاء الأذكياء، وإنما هو مما يولع به صغار البنين كالولد وولد الولد مثلا لذمامته؛ فتجد النفوس تعافه وتَذُم فاعله، يقال: انتقيت العظم: إذا استخرجتَ نقيه، وانتقيت المخ: استخرجته من العظم.

---

(١) نقيه: مخه.



قال الشاعر: (من بحر الطويل)

* ولا نتَّقِ المخ الذى فى الجماجم *

* * *

* ثم بالغ أيضًا فى ذمه ووصفه بالضلال وعدم الهداية بحال، فقال رحمه الله:

٥١ ـ كَأَنَّ بِغَطْشَى مِنْهُ غَطْشَاءَ أُعْشِيَتْ
بِعَوًّى فَلاَ عَـــوَّاءَ ثَم تُنَــاءُ

يعنى كأنه فى ضلاله بأرض غطشاء: وهى التى لا يُهتَدى فيها بمَنَار ولا يكاد الخريت يجد فيها سبيلاً إلى النجاة لاتساعها وقلة مائها وبعدها عن العمران وخلوها مِن القَاطن؛ فهى لا تسلك ولا تملك، وكأنه فى جهالته وعدم علمه ناقة غطشاء، بالمد، وهى العمشاء التى لا تكاد تبصر نهارا، وفى حمقه وقلة ذكائه وعدم استبصاره ناقة عشواء: وهى التى لا تبصر ليلا؛ فهو مسرمد الضلال، دائم الخبال، ظاهر الوبال، فإذا وقَع عليه ضوء النهار منعه العمش، وإذا أجنّه الليل حبسه العشا والرمص، وإذا سار فى باديته منعه الغطش[1] وأحاط به العطش، ومع ذلك فزمنه زمن العوى: وهى منزلة من منازل القمر كثيرة الرياح والغيوم شديدة الحر والسموم؛ فلا عواء، بالمد، تَحمله، وهى الهرمة من النوق التى لا تكاد تَنأى، أى تَنهَض، لهرمها وهزالها مع أنها لم تُوجد أصلا؛ فهذه حالة صاحب الشهوات، المطرح لما هو آت، الذى لا همة له ترفعه، ولا سابقة عناية له من الله تنفعه، ولا حب يقوده، ولا تقوى تذوده؛ فعلى ذلك يكون البيتُ مقتبسًا من قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾ [النور: ٤٠] نور الله بصائرنا، وجعل تنويرها من لدنه.

* * *

(١) الغطش: الظلمة.

* ثم ذمه أيضًا رحمةُ الله عليه بنوع آخر من الدنَاءة ليس هو من جنس ما قبله، فقال:

٥٢ ـ يُضَاهِي الْغَرَى مَنْ لا غَرَاءَ ولا ضَرى
لَهُ بالتُّقَى لا أُمَّ منْــــهُ ضَــراءُ

قوله: يضاهي الغرى: أى يشابه ويماثل الغرى، وهو ولد البقرة أول ما يولد حتى يشتد لحمه، فهو لبلهه وعدم فطنته يظن كل ما رأى أمه فيطلب منه إرضاعا وانتفاعا وربما كان ذلك سبب حتفه بأن يرمحه رامح فيتلفه أو يضربه ضارب فيؤلمه، فكذلك من لا غراء له، بالمد مصدر غَرِى بالشيء بالكسر، أى ولع به لما يبصر فيه من حسن عاقبته لذكاء عقله ونفوذ نور بصيرته، بخلاف من لا غراء له فإنه يرى كل بيضاء شحمة وكل مدور كعكا. وقَصر الغراء أشهر من مده كما نقله العينى وغيره. والضرى، بالقصر: مصدر ضَرِىَ بالشيء، بالكسر: إذا اعتاده وَتَدَرَّبَ به، وفى المثل: «قطع الضراوة عداوة» وفى الخبر: لذئب ضار أبقَى على الغنم من عالم السوء على الأمة. وفى رواية: بأفسد للغنم من عالم السوء للأمة والضراء، بالمد: أرض مستوية ذات شجر وتلال، وهو مأخوذ من الضرى وهو الدف. وأُمَّ: فعل ماض بمعنى الدعاء مبنى لما لم يسم فاعله، أى لا قصد منه ضراء، والضراء: المنعة والالتجاء ووجود الرفق، وضراء: نائب فاعل أم.

والمعنى: يشابه الحيوانات العجم من لا ولوع له بالتُّقَى ولا ضراوة له عليها؛ لأن فضيلتَه عليها إنما هو انتفاعه بعقله فما يعود عليه نفعه فى عاجله وآجله كالولوع بتقوى الله، فإذا سلب من ذلك سلب من حال مزيته عليها وساواها فى مجرد التناول على مقتضى الشهوة وما تَدعو إليه النفس من ارتكاب هواها فى تحصيل مناها على أن فيه رداها، أما بالنظر إلى المآل فهى أفضل منه حيث كانتْ لا تحاسب ولا تعاقب؛ فالبيت حينئذ مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤] لأن الله تَبارك وتعالى جعل العالم الحساس على ثلاثة أقسام: قسم ركب فيه العقل دون الشهوة وهم الملائكة، وقسم ركب فيه الشهوة دون العقل وهم البهائم، وقسم ركب فيه عقل الملائكة وشهوة البهائم وهم الثقلان، فمن غلب عقْله على شهوته فهو كالملائكة بل هو أفضل، ومن غلبت

شهوته على عقله فهو كالبهائم بل هو أضل؛ إذ أعطى آلة الشرف فضيعها، إذ هى الأمانة التى عرضها الله على السماوات والأرض والجبال ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً﴾ [الأحزاب:٧٢] بتضييعها بعد أخذ العهد عليه من الله بصيانتها وترفيعها، ﴿جَهُولاً﴾ بقدرها وغلاء قيمتها، إذ بسببها سجدت له الملائكة الكرام، ووجب عليهم بسببها التبجيل والإعظام؛ فهم يحرسونه من طغاة الجان، ويحفظون عليه أعماله إلى منتهى الأزمان، ويستغفرون له فى كل حين وأوان، وبلغ من عظمته أن حملة العرش الذين يحملون العرش ومن حوله يستغفرون له ويدعون له بالهداية ويسألون الغيث فى كل سنة لعياله وعالته، قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧].

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٥٣ـ وآلَى بآلاءٍ كآبَى إذا طَغَى ... فآبَاؤُه مِنْـــهُ إذًا بُرآءُ

ألِىَ الرجل: إذا عظمت أليَتاه، يقال له: رجل آلوى وأليى إذا عظمت أليتاه. والآلاء: النعم واحدها ألية[1]، قال الله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [الرحمن:١٣ وما بعدها]، وآبى، بالفتح والقصر، وزنه أفعل، وهو ذو همزتين قلبت ثانيتُهما وهى التى فى محل الفاء، وهو وصف للعنز التى أَبِيَتْ، بالكسر، أى أصابها الأَبَى، بالفتح، وقد تقدم تفسيره فى قوله:

كأن الورى والموت نسى وراءهم ... ذوات الأبى قـــد حـــازهن أباء

والمؤنث: عنز أبواء.

وآباء، بالمد: جمع أب. فآلى يصح فيه أن يكون مجرورًا بواو رب أو برب المحذوفة بعهدها، وهو مرفوع بمعنى الابتداء، وخبره كآبى، ويصح فيه أن يكون مرفوعًا عطفًا على «من» فى قوله «من لا غراء له ولا ضرى له» وقوله: «إذا طغى» راجع لآبى، وهو المنظور إليه بتشبيه الآلى بالآبى.

(١) فى القاموس المحيط: «والآلاء: النعم، واحدها: إلى وألو وألى وإلى» وليس فيه (ألية).

ومعنى تركيب البيت يضاهي الغرى الذى لا غراء له بالتقى، وألِى أى صار عظيم الأليتين لفراغ قلبه بالتنعم بالآلاء فى حال كونه مثل عنز أصابها مرض الأبى عند طغيانه، أو فى زمن طغيان ذلك الأبى بسبب نعم الله، فالمشبه بالشيء فى حالة طغيانه أى طغيان المشبه به يلزم منه أن يكون هو طاغيًا وإلا لما حضر ذلك القَيد فى المشبه به حال التشبيه، وحاصل الأمر أن الآلاء أى النعم أطغت الآلى بالقصر وأبطرته؛ فشبه بسبب طغيانه بالنعم وبطره بها بعنز الأبى عند طغيانه، وحالة المشبه به إذ ذاك الوقوف والصياح، وذلك يكسبه ضررًا؛ وهكذا الطاغى بنعم الله تعالى يعود وبال ذلك عليه عاجلا وآجلاً: أما عاجلاً فَإن النعم التى طغى بها تزول عنه كائنة ما كانت؛ لأن من لم يشكر النعم فقد تعرض لزوالها، ولو لم يحصل له في الآجل إلا تَحسره على ما فَوته عليه الطغيان بالنعم من عدم الشكر عليها لكان ذلك كافيا. وأما براءة آبائه منه فلانتفاء الشبه بينهم وبينه؛ فتتحقق غيريته[1] لهم، والغير براء من غيره، ويعنى بآبائه آباءه الأقدمين من النبيين والمرسلين ومن تبعهم من الأئمة الهادين المهتدين لتَبَرُّؤ السلف الصالح من الخلف الطالح الذين قال الله فى مثلهم: ﴿**فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم:٥٩] بخلاف الخَلف، بالفتح، فإنهم الذين خلفوا الأسلاف باقتداء آثارهم واتباع سننهم بالشكر على النعم الشكر التام الذى يستوجب المزيد؛ وهو استعمال الجوارح فيما خلقت له، واستغراق النعمة فى عين المنة مع رؤية التقصير.

والنعم على قسمين: ظاهرة وباطنة، وكل منهما لا يتأدى شكرها إلا من جنسها، فشكر النعمة الظاهرة لا يتأدى إلا بالشكر الظاهر، فالظاهرة نعمة الإسلام، فلا تتأدى إلا بامتثال الواجبات وما يتعلق بها من السنن والمندوبات، مع لهج اللسان بالذكر والشكر على التوفيق. والنعم الباطنة الإيمان، ولا يتأدى شكرها إلا باستحضار القلب لتحقيق متعلقاته من البراهين والدلائل العقلية والنقلية إن كان من أرباب السلوك، وأما إن كان من أرباب المشاهدات فالغيبة والغفلةُ فى حقهم محال، إذ قد استغرقوا فى معارف الله ومشاهداته، فيستبَدلون به

(١) فى (ب): مغايرته لهم، والغيرية والمغايرة واحد.

على الأكوان ولا يستدلون بالأكوان عليه لتلاشى الكائنات في قلوبهم.

يروى أن المدمن على ثلاثة لا يموت إلا على الإيمان: مدمنُ الشكر على الإيمان، ومدمن الخوف على سلب الإيمان، ومدمن النفع لأهل الإيمان.

وقيل: الظاهرة: نعمة الغنى والباطنة نعمة الإنسانية، إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، فإذا شكر نعمة الغنى بالبذل والرفق بالمسكين وعدم احتقار الفقير والضَّرير، وأن لا يشغله جمعه عن نوافل الدين، وأن يشكر الله من غير أن يرى نفسه غنيًا أو يرى نفسه خيرًا من أحد بسبب غناه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق: ٦، ٧].

وأما شكر الصحة فاستعمال البدن في طاعة الله تعالى ومنافع المسلمين: بأن تحمل لأخيك المسلم على دابته، وتأخذ بركابه، وتُميط الأذى عن الطريق، وتهدى الضال، وترشد الأعمى، وتَمنع المستضعف.. إلى غير ذلك.

قال الرسول ﷺ: «اغتنم أربعًا قبل أربع: شبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[(١)]. وهذا الحديث من جوامع كلمه ﷺ التى لو شاء العلماء لأتوا فيها بدفاتر من العلوم.

قال الشاعر فى ذم من لم يستعملها فيما يجب: (رجز)

إن الشبابَ والفراغَ والجِدَهْ مفسدةٌ للمرء أيُّ مَفْسَدَه

واختلف فى الحمد والشكر أيهما أشرف؛ فقيل: الحمد أشرف لأنه حظ الله من عبده، والشكر حظ العبد من ربه، وشتان ما بين ما هو للرب وما هو للعبد؛ ولأن الحمد هو الذى أثنى به على نفسه أزلاً فثبت له أبدًا، بخلاف الشكر، وأن

---

(١) حديث «اغتنم أربعًا قبل أربع»... إلخ. حديث حسن أخرجه الحاكم بلفظ: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك»... إلخ. وقال: صحيح على شرط الشيخين، وسكت عليه الذهبى (٤/ ٣٠٦) كما أورده السيوطى تحت رقم ١٢١٠ وقال المناوى: قال العراقى: إسناده حسن، وقد أخرجه النسائى فى المواعظ، وروى مرسلا (٢/ ١٦) وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٣٦ بلفظ: «اغتنم خمسًا قبل خمس»... إلخ. وقال: رواه الحاكم والبيهقى وأحمد فى الزهد مرسلاً، والله أعلم.

الحمد لا يستدعي العلة والشكر يستدعيها، ولأنه يلازم الاسم الأعظم لمشاكلته إياه فتقول: الحمد لله كما تقول: باسم الله، لأن الله اشتق لنفسه منه اسمًا وهو الحميد، وكذلك اشتق لأحب عبيده إليه وأخصهم به خاتم النبيين وسيد الأولين والآخرين اسمًا فسماه أحمد ومحمدا وحامدا، فأحمد على أشرف وزن من أوزان المبالغة وهو بمعنى حمده لربه دنيا وبرزخا وأزلا وما لا يزال، والثاني اشتقه من حمد الكائنات له، وهو دون الأول وصفًا ورتْبةً، إذ الأحمدية له والمحمدية لغيره، فكلٌّ من الاسمين ناسبَ أصله وعنصره، وأما اسمه حامد فهو دون الأحمدية وفوق المحمدية، وفي ذلك يقول حسان بن ثابت رضي الله عنه: (من بحر الطويل)

أغر عليـــه للنبـوة خـاتم ... من الله من نور يلوح ويشهد

وضَمَّ الإلهُ اسم النبيِّ إلى اسمـه ... إذا قَال في الخمس المؤذن أشْهَدُ

فشق له من اسمــــه ليجلّـه ... فذو العرش محمود وهذا محمد

ولأنه تعالى ختم الكون بالحمد كما بدأه به فقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠].

وقَال حكاية عن أهل الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ﴾ [فاطر: ٣٤، ٣٥]، ولأنه أول كلمة انفتق عنها لسان آدم عليه السلام فاغتنمتها حملةُ العرش فأضافوها إلى التسبيح فأصبحوا وقد خف عنهم حمل العرش، ولأنه يقع على السراء والضراء بخلاف الشكر، ولأنه يطلق على ما يطلق عليه الشكر من العهد والجنس والاستغراق والحقيقة.

وقيل: الشكر أفضل لأنه في مقابلة الكفر، قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

ولأنه يقتضي المزيد ويدفع العذاب، قال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، ولأنه اشتق لنفسه منه اسمًا فسمى نفسه الشكور.

ولأنه يستوعب الأعمال كلها فتدخل فيه بخلاف الحمد، قال الله تعالى:

﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].

ولما قام النبى ﷺ حتى تورمت قدماه قيل له: أتشق على نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»(١).

وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، والقليل هم الأنبياء والأولياء، إذ هم القليلون عددًا، الكثيرون مددًا، ولأنهم القليلون فى الوجود، الكثيرون فى العهود، ولأنهم القَليلون تَرفًا، الكثيرون شرفًا، فنسبتهم فى القياس كنسبة الشمس إلى الكواكب، فالكواكب كثير عددها قليل مددها، والشمس قليل عددها كثير مددها، إذ لا نور للكواكب أصلا، وإنما يستَمدون نورهم من نور الشمس لمرورها عليهم نهارًا، فإذا غابت ليلا ظهر عليهم من نورها ما اكتسبوه من نُوره حين الأخذ والطواف فظهروا بتلك الأنوار قبل مظهره ﷺ، وكلٌّ بشَّرَ به، وأخذ على أمته لئن أدركوه ليؤمنن به ولينصرنه، وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] فبان من هذا أنه ﷺ رسول الرسل، إذ لو أدركوا زمنه لوجبت عليهم طاعتهُ والإيمان به، فيكون رسولا إليهم، ويكونون رسلا إلى أممهم بواسطته ﷺ، وظهر مصداق ذلك ليلة الإسراء لصلاته بجميعهم، وفى المحشر لاختصاصه بلواء الحمد، وكونهم تحت ظل لوائه، وتدافعهم الشفاعة الكبرى التى خلصت إليه، ونسخ شريعته الشريفة شرائعهم، وفى ذلك يقُول البوصيرى برد الله ضريحه: (من بحر البسيط)

فإنه فضل شمس(٢) هم كواكبها	يُظهرن أنوارها للناس فى الظلم
حتى إذا طلعت فى الأفق عَمَّ هدى	للعالمين وأحيت سائر الأمم

فيتحصل من جميع ما ذكر أن الحمد أشرف رتبةً وأعظم مزية، والشكر أقرب

(١) حديث «أفلا أكون عبدًا شكورًا»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه البخارى فى باب قيام النبى ﷺ، ومسلم والترمذى والنسائى وابن ماجه، وأوله عند البخارى: «كان ﷺ يقوم ليصلى حتى ترم قدماه»... إلخ.

(٢) فى (ب): فإنه شمس فضل هم كواكبها.

عائدة وأكثر فائدة، إذ الشكر في مقدور الخلق، والحمد منه ما هو فى مقدورهم ومنه ما ليس فى مقدورهم لمحله من العظمة والجلال.

قال ﷺ: «من ظفر منكم بنعمة أو لقى حبيبًا فليقل: الحمد لله الذى بنعمته وجلاله تتم الصالحات؛ فإنه يغفر له ما تقدم من ذنبه وقد أدى شكر تلك النعمة بالغة ما بلغت، ومن أصابه ما يكره فليقل: الحمد لله على كل حال ما كان؛ فإن الله يفرج كربته ويغفر ذنبه ويخلفُ عليه ما ضاع له، وإذا لبس أحدكم ثوبًا فليقرأ الفاتحة وليقل: الحمد لله الذى كسانى هذا الثوب وستر به عورتى وأعطانى ما أتجمل به فى صلاتى؛ فإنه لا يكتب عليه ذنب ما دام لابسه، وإذا طعم فليقل: الحمد لله الذى أطعمنى هذا الطعام ورزقنيه من غير حول منى ولا قوة؛ فإنه لا يحاسب عليه يوم القيامة ولا يسيغ لقمة منه أو جرعة إلا كتب له بها عمل صالح، وإذا شرب ماء فليقل: الحمد لله الذى سقانيه عذبًا فراتًا برحمته ولم يسقنيه ملحًا أجاجًا بذنوبى[١] وإذا استفاد عبدًا أو أمة أو دابة فليأخذ بناصيتها وليقرأ آية الكرسى وهو ينظر إليها حتى يتمها وليقل: اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما جبلت عليه، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما جبلت عليه. وإذا تزوج امرأة فليأخذ بناصيتها وليقرأ الفاتحة والمعوذتين وليقل: اللهم اكفنى مؤونتها وامنحنى معونتها، واجعلها على نعمة، ولا تجعلها لى فتنة، وارزقنى منها رزقًا طيبًا كثيرًا مباركًا، اللهم اهد إلى طاعتك وطاعتى قلبها، وارزقنى حبها، وجنبنى شؤمها وخبها[٢]، إنك على كل شىء قدير، وإذا أتيتها فقل: بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إذا قضى بينكما ولد لم يضره الشيطان. وإذا زاد عند أحدكم ولد فليلبه[٣] بسورة الإخلاص يقرؤها، ثم يؤذن فى أذنه اليمنى، وليقم فى أذنه اليسرى، وليجعل يده على يافوخه وليقل: البرُّ سبعًا، وليرقه برقية إبراهيم ابنه إسحاق وإسماعيل وهى: باسم الله أرقيك من كل داء يؤذيك ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد

---

(١) حديث «الحمد لله الذى سقانيه عذبا .... إلخ» رواه الطبرانى مرسلا بلفظ: «الحمد لله الذى جعل الماء عذبا فراتا برحمته»... إلخ. وسكت عليه العراقى (٢/ ٦).

(٢) خبها: خداعها أو فسادها، أو خبلها.

(٣) فليلبه: أى يلتزمه ويدنيه.

ثم يقول: أنبتَك الله نباتًا حسنًا، سبعًا، اللهم اجعله برًا تقيًا ولا تجعله فاجرًا شقيًا. وإذا مرض فليقل: الحمد لله على ما دفعت مما هو أعظم مما به أصبت، اللهم اجعل مرضتي هذه مثوبة وطهرة، ولا تجعلها عقوبة وحسرة، اللهم أرضني بقضائك، وفرحني بلقائك، ثم ليكثر من قراءة سورة الإخلاص؛ فإنه إن ماتَ ماتَ شهيدًا، وإن شفي شفي مغفورًا له، وأبدله الله دمًا خيرًا من دمه، ولحمًا خيرًا من لحمه. وكان النبي ﷺ إذا برئ أحد من أصحابه من مرض قال له: أوف بنذرك فإنه ما مرض مؤمن إلا ونذر لله على نفسه تَوبة. وأما المنافق والكافر فإنه كالجمل عقله أهله ثم أطلقوه فلا يدرى فيم عقلوه ولا فيم أطلقُوه. وإذا عوفي فليقل: «اللهم أنت الذي أمرضت فأبليت، وأنت الذي عافيت فأوليت، فلك الحمد على ما أسديت تباركت وتعاليت، اللهم عرفني نعمك بدوامها، ولا تعرفنيها بزوالها عني، اللهم قُدني إليك بسلاسل الامتنان، ولا تقدني إليك بسلاسل الامتحان، اللهم كما مننت علي بإطلاقي من أسر البلايا فوفقني للعمل بأسباب العطايا، اللهم يسرني للصالحات، ويسر علي أسبابها، وافتح لي بابها، لا معطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا رادَّ لما قضيت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت على كل شيء قدير، اللهم لك الحمد كله، ولك الشكر كله، وإليك يرجع الأمر كله علانيته وسره، لك الحمد إنك على كل شيء قدير» فإنه مجرب الإجابة مؤد لشكر النعمة.

* * *

● **قال الناظم رحمه الله:**

٥٤ ـ كَأَعْيَا إِذَا الأَعْيَاءُ يَوْمًا لَهُ اعْتَزَوا ... بِأَهْوَى وَفِي أَهْوَائِهِم غُلَوَاءُ

يعني وهذا البائس اللئيم الذي لا غراء له بالتقوى فإنه في انتسابه إلى آبائه الأقدمين وافتخاره بهم دون أن يهتدي بهديهم ويقتدي بكريم أفعالهم فهو في ذاك كاعتزاء الأعياء، وهو جمع عيي، والعيي من لا قدرة له على الإفصاح عما في ضميره فيستعين على ذلك بالإشارة بيده ومع ذلك لا يأتي بلفظ سليم ولا بمعنى مستقيم، بخلاف الأعيا بالقصر وبنيه فإنهم قوم فتق الله ألسنتهم على الفصاحة والبلاغة والبيان، وإنما سموه بأعيا نفيا للعين عنه كما سموا امرأة رائعة الجمال

بقبيحة، والأعيا رجل من قضاعة، وأبو أعيا بطن منهم، فيكذبهم الحال والمقال وهو أن أرض بنى أعيا بالقصر أهوى كما قال شاعرهم:

عقاب عقبات[1] ترى من حذارها ثعالب أهوى أو أشافر تصرح

والأهواء، بالمد: جمع هوى. والغُلَواء، بضم الغين المعجمة وفتح اللام: العلو والارتفاع. فقوله: كأعيا فى محل نصب على الحال من ضمير يرى فى البيت قَبله.

والمعنى: فآباء من ذكر بسبب كونه كما ذكر برآء منه فى حال كونهم مماثلين للأعيا زمن انتساب الأعيا له بالمكان المسمى بأهوى فى حالة غلوائهم وطموح مناهم، وحالة أعيا إذ ذاك البراءة منهم كل البراءة، ولسان الحال منه يصيح: ليسوا منى ولستُ منهم فى شىء؛ إذ هما متغايران بواضح البرهان. وتشتد البراءة فى خصوص المكان كأهوى مثلا، فإنه أدخل فى البراءة منهم، وأشد عونا على نفيهم عن أعيا، وتكذيبهم فى دعواهم أنهم من بنيه وذويه، ويزيد ذلك إذا كان فى الأهواء غلواء فى الاعتزاء؛ ولذلك قال: وفى أهوائهم غلواء، أى لهم لجاج فى الاعتزاء.

وهذا البيت متضمن لمعنى البيت قبله، وإنما جىء به لتتميم معناه؛ فقوله: كأعياء: خبر لمبتدأ محذوف. وإذا: ظرف لما يستقبل. والأعياء: فاعل فعل محذوف تقديره: إذا اعتزى الأعياء يوما له اعتزوا؛ لأن إذا لا تَدخل على الجملة الاسمية إلا بدخولها على فعل محذوف يفسره ما بعده كقوله تعالى: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ**﴾ [الانشقاق:١].

ويومًا: ظرف زمان. واعتزوا: فعل ماض مفسر مؤكد للفعل المحذوف بعد إذا. بأهوى: جملة فى موضع نصب على الحالية. وفى أهوائهم: خبر مقدم. وغلواء: مبتدأ مؤخر.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:١٥٩] وهذه الآية الشريفة من إعلام نبوته ﷺ لأنها إخبار عن أهل

---

(١) عقبات: جمع عقبة: المرقى الصعب من الجبال. والعبارة السابقة للبيت لا تخلو من غموض.

الأهواء الآتين من أمته بعده، وهم: القَدرية(١) والجبرية(٢) والحرورية(٣) والشيعة والإباضية والصفرية والنصيبية والخوارج والمعتزلة والزيدية وغير ذلك(٤) من الفرق الضَّالة أهل الأهواء الباطلة والآراء الفاسدة؛ ثبتنا الله على الطريق المرضى والنهج المستقيم السوى.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٥٥ ـ فَأَقْنى وَأَقْنَاءَ وَشَرْوَاهُما اطَّرِحْ وهَوِّنْ كَدى حَتَّى يَلُوحَ كَـدَاءُ

قوله: فأقنى: المحدودب الأنف الذى فى قصبته علو وارتفاع وفى عرنينته سهولة وحسن حدب، وهو من علامات جودة الفرس وكونه عتيقًا، وقد يقال أيضًا للإنسان: أقنى الأنف. والأقناء، بالمد: جمع قنو، وهو شماريخ النخل، وقيل: هو مجرد الكباسة ويقال لها: العرجون. وقوله: شروى: وهو من شَرَى الشيء، بالفتح والقصر: تعب فى تحصيله أو لم يكن إلا بمشقة فادحة لنفاسته وعلو منصبه، ومثله قوله: وهون كدى، بالقصر والفتح: مصدر كديت الأصابع: إذا أصابها كلل وخشونة من الكد. وكدى الفصيل: فسد جوفه من شرب اللبن. وكداء: ثنية معروفة بأعلى مكة، وهى بحسب المعنى مستعارة للمعنى المطلوب والغرض المقصود.

والمعنى: اطرح، أى انبذ، فرسًا أقنى وأقناء من النخل ومثلهما فلا تشغل بهما قلبك فإنهما من الأعراض التى تفنى، وهون ما تلقاه فى هذه الدار من أعراضها التى تأتى من حيث لا تحتسب ولا تقدر على دفعها والتحفظ منها، وعدّ ذلك هينًا

(١) القدرية: بالفتح، فرقة إسلامية تقول: إن كل عبد من عباد الله خالق لفعله، متمكن من عمله أو تركه بإرادته.
(٢) الجبرية: فرقة إسلامية تقول: إن العبد لا قدرة له مكتسبة، وهو مسير فى عمله خيره وشره (عكس القدرية).
(٣) الحرورية: فرقة من الخوارج، وهم الذين قاتلهم على رضى الله عنه.
(٤) وكل ما ذكر بعد ذلك فرق إسلامية لها عقائد تخالف ما عليه سلف هذه الأمة، يضيق المجال عن تعريف كل فرقة على حدة.

كما تتحمل ما كلفته من مشاق التكليف والدأب على ما التزمته مما أمرت به ونهيت عنه، حتى تظفر بمطلوبك، وتحصل على الطائل من مرغوبك مما لم يخطر على قلبك ولا على قلب بشر، فكأن قد فجأك ذلك، ونسيت كل ما لقيته قبل ذلك، حتى كأن لم تكن مصيبة فادحة.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إن ابتغيت المعالى فازددن[1] تعبا	أو ارض بالذل واختر راحة البدن

فالبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

واعلم أن خيرى الدنيا والآخرة لا ينالان إلا باستصحاب ثلاثة أمور: التقى بأنواعه، والصبر بأنواعه، ولا يوجدان إلا باستصحاب الإحسان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

وفى مثل هذا يقال: (من بحر الطويل)

وليس بِنَوم الجفن تغتنم العلى	ولكن بإسهار الجفون وبالجدِّ
وبالغض من دار الغرُور وزهوها	وبالصبر يجنى الرطب من فننِ المجد
ومن بعد وخز النحل شور[2] شهاده	ومن بعد قطع البيد يظفر بالمجد
ومن بعد غوص البحر فى لجج الدجى	يُنال الغنى من لؤلؤ وزبرجد
وبعد اغتراب واقتراب من النوى	تَجهبذ ذو جهل ففاز بمقصد
ومن بعد حبس النفس عن شهواتها	يفز بالمنى والسعد فى جنة الخلد
وحور وولدان ورَوْحٌ ورحمة	وملك مقيم فى ذرى الملك الفرد
كأنك لم تتعب إذا فزت بالمنى	ولم تفتقر يوما إذا فزت بالمجد

فأقنى، بالقصر: مفعول مقدم لاطرح. وأقناء، بالمد النصب: عطفا عليه. وشرواهما: معطوف أيضا ومضاف إليه. وهوِّنْ: فعل أمر بمعنى سَهِّلْ. وكدى:

(١) فى النسختين: فازدد تعبا، والبيت مكسور الوزن، فإذا قال: فازددن استقام الوزن.
(٢) هذه الكلمة فى النسختين غير واضحة، والشور أخذ العسل من محله.

مفعول لهون. وحتى لوح: ناصب ومنصوب. وكداء: فاعل يلوح؛ فكدى، بالقصر: كناية عن الكد.

ومعناه: اصبر على كد الكروب والشعُوب[١] والشجون حتى تظفر بفرح[٢] مرح كداء المرغوب، إذ المعلوم المتعاطى جاهليةً وإسلامًا تحمل المشاق وجَوبُ الآفاق وسير العتاق إلى البيت العتيق. قال الله تبارك وتعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام لما بنى البيت العتيق: اعْلُ على جبل أبى قبيس، وقيل: على جبل حراء، فأذن فى الناس بالحج يأتُوك رجالاً وعلى كل ضامر. فقال: أى رب، وما عسى أن يبلغ صوتى؟! فقال له تبارك وتعالى: عليك الدعاء وعلىَّ البلاغ. فنادى إبراهيم عليه السلام وجعل إصبعه فى أذنه فقال: إن الله يأمركم بالحج إلى البيت العتيق فحجوا، فلم يبق أحد من يومئذ إلى يوم القيامة إلا أجابه بلبيك، فأجابوه من أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فلم يبق نبى من الأنبياء إلا حجه، حتى مر عليه سليمان عليه السلام تحمله الريح حين غزا سبأ، فلما مر عليها ولم ينزل ولم يطف بكتْ الكعبة فقال الله تبارك وتعالى لها: مَهْ يا كعبة، فقالت: يارب، هذا نبى من أنبيائك ورسول من أصفيائك ومعه المؤمنون مر علىَّ ولم يطف بى ولم يحل بساحتى؛ فقال: لا تبكى فإنى باعث منك وشيكًا نبيًا كريمًا، أصطفيه على جميع الأنبياء والرسل، هو خيرتى من خلقى، وأمتُه خير الأمم، أجعلك قبلته وقبلة أمته، يحجونك من الآفاق شُعْثًا غبرًا، فيأتونك من كل فج عميق، يحنون إليك حنين النَّاقة إلى حوارها، ويزفون إليك زفوف الطير إلى أوكارها، فلا يبقون حولك صنمًا إلا كسروه يطهرونك من الأوثان وعبادة الشيطان، فلا تزالين مطهرة مصونة إلى آخر الأزمان.

فهى وإن كانت بواد غير ذى زرع أخصب من جميع المدن والقرى، وذلك من زمنه ﷺ إلى يوم القيامة، وذلك لما يجبى إليها من الثمرات من جدة وزبيدة وصنعاء والبحرين والبصرة والكوفة والطائف واليمامة وحضرموت والهند.

واختلف فى وجوب الحج: هل هو على الفور أو التراخى؟ فذهب مالك

(١) المراد بالشعوب: مفارقة الأحباب، ومجاهدة النفس، وأصله لجام الفرس.
(٢) كذا فى النسخة (ب) أمام (أ) ففيها: حتى تفرج بمرح كداء.

وأصحابه إلى أنه على التراخي، وذهب الشافعي ومن وافقه من المالكية إلى أنه على الفور. ولا خلاف أنه على الفور إذا خيف الفوات. ولما أنزل الله قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ [آل عمران:٩٧] سأله بعض أصحابه: هل هو واجب في كل سنة؟ فسكت ﷺ حتى ظنوا أنه يوحى إليه، ثم التفت إليهم فقال: «لا تسألوا عن مثل هذا ؛ لو قلت: نعم، لوجب عليكم كل سنة ولعجزتم فهلكتم، فإذا أمر الله بأمر فامتثلوه وإذا سكت فاسكتوا» فأنزل الله قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية [المائدة:١٠١] «وإذا أمركم في غير عزيمة فافعلوا من ذلك ما تستطيعون»[١].

وأركانه خمسة اتفاقًا وعلى المشهور: الإحرام، وطواف الإفاضة، والوقوف بعرفة، ورمي الجمار، والسعي بين الصفا والمروة[٢].

واختلف في تاركه عمدًا، فقيل: يُكْرَهُ، وقيل[٣]: لا يكرهُ قال سحنون: إن ادعى عذر دين وإلا ضيق عليه حتى يحج. وقال ابن وهب: إنما الإكراه على الصلاة والزكاة فقط، وأما الحج والصوم فإنهما موكولان إلى المؤمن؛ لأن الله قَيدهما بالاستطاعة؛ فحيث كان الحج على التراخي لم يكن للإكراه وجه، إلا أن النبي ﷺ يقول: «من استطاع أن يحج هذا البيت فلم يحجه فليمت إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا»[٤].

---

(١) الحديث الذي أورده الشيخ رحمه الله دليلا على وجوب الحج مرة واحدة صحيح، رواه مسلم وغيره وبألفاظ كثيرة، وأوله عند مسلم: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا، فقال رجل: أكل عام... إلخ».

(٢) قول الشيخ رحمه الله: (وأركانه خمسة اتفاقا) خطأ؛ فالأركان المتفق عليها ثلاثة فقط هي:
١ ـ الإحرام. ٢ ـ طواف الإفاضة. ٣ ـ الوقوف بعرفة.
والسعي ركن عند الجمهور وواجب عند أبي حنيفة رحمه الله ومن وافقه.
وهناك ركن خامس: وهو المبيت بالمزدلفة عند بعض التابعين والظاهرية وبعض الشافعية.
أما رمي الجمار فلم يقل أحد من أهل العلم بأنه ركن إلا ما ذكر عن عبد الملك بن الماجشون من أصحاب مالك من أن رمي جمرة العقبة ركن، والله أعلم.

(٣) يكره على الحج، وقيل: لا يكره عليه، أي يجبر على فعله، وقيل: لا يجبر.

(٤) حديث: «من استطاع أن يحج هذا البيت»... إلخ. ضعيف جدًا، رواه الترمذي وابن عدي، وأورده صاحب (تنزيه الشريعة) بلفظ: «من ملك زادًا وراحلة تبلغه إلى بيت الله الحرام ولم =

وقال ﷺ: «من ماتَ ولم ينو الحج ولم يحدث نفسه به مات على شعبة من النفاق»[١].

ويروى أنه لما خلق الله الأرض ودحاها على الماء بسطها من تحت البيت وهو ياقوتة حمراء يُنيرُ أساسه من الأرض السابعة إلى أن اتصل بالبيت المعمور فقال: أنا الله ذو بكةَ لأغنين الحاج ولو بعد حين، ولأفقرن الزانى ولو بعد حين، وإنى جعلتك بيت أضيافى يفدون إلىَّ من جميع الآفاق، وأنا أحق من أكرم ضيفه، ولا أرضى لهم بكرامة دون كرامة الجنة.

يروى أن الله يبعث يوم القيامة ملائكة إلى مكة فيزفونها كما تزف العروس وقد كسيت نورًا وبهاء، فإذا أرادوا أن يزفوها قالت: إلى أين؟ قالوا: إلى الجنة، فتقول: لا أرضى بدون أن يذهب معى زوارى وعمارى؛ فتعطى ذلك، فيحفون بها وقد أسدلتْ عليهم أستار الأنوار حتى تستقر بهم فى بحبوحة الجنة. جعل الله قرارنا إليه آمين.

* * *

• قال الناظم:

٥٦ ـ كَالأعْمَى الَّذِى الأعْماءَ يَغْرُو فلا تَدَعْ
سَبِيلَ الْهُدَى مَا عَنْ عَـدَاهُ عَـدَاءُ

قوله: كالأعمى: التشبيه فيمن ترك طريق الهدى عمدًا أو جهلاً، بل الأعمى خير منه لقوله ﷺ: «أعمى العمى الضلال بعد الهدى». وكذلك كل من يأتى شيئًا من غير علم ولا برهان من ربه فهو كالأعمى؛ ولذلك لا ينْبغى للإنسان أن

= يحج فلا عليه أن يموت يهوديًا أو نصرانيًا». اهـ (١٦٧/٢). وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته وقال فيه: عن على وأبى هريرة وأبى أمامة رضى الله عنهم. وحديث على هو الذى أوردنا نصه، قال فيه: قال الترمذى: هلال بن عبد الله مجهول، والحارث كذبه الشعبى وغيره (٢١١/٢)، والله أعلم.

قلت: وأما حديث أبى هريرة وأبى أمامة فهما موضوعان، وصح عن عمر رضى الله عنه من قوله: من أمكنه الحج فلم يحج فليمت إن شاء يهوديًا أو نصرانيًا، والله أعلم.

(١) حديث: «من مات ولم ينو الحج»... إلخ. لم أقف عليه.

يفعل فعلاً حتى يعلم حكم الله فيه، وهذه الرتبة يقال لها: المرضية، ولذلك قال موسى عليه السلام لأخيه هارون لما استخلفه على بنى إسرائيل فعبدوا العجل زمن غيبة موسى ليأتى بالتوراة فقال له هارون: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤]. وأن قوم صالح لما ضلوا بعد الاستبصار وصفهم الله بالعمى فقال: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت:١٧].

وقال لرسوله استبعادًا لذلك: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ﴾ [الزخرف: ٤٠].

وقال: ارتكب العماء والعمياء: إذا ذهب فى غير مذهب.

ومنه قول الحجاج عند موته لما أرجف به المرجفون وشمت به الشامتون وسمع بعض الأقوام يحلفون إنه لمن أهل النار فقال منشدًا: (من بحر البسيط)

يا رب قَد حلف الأعداء واجتَهدوا ... أَيْمـانهم أننى من ساكنى النارِ

أيحلفـــون على عميـاء ويلهمُ ... مـا ظنهم بعظيم العفـو غفـار

والأعماء، بالفَتح والمد: ما لا يهتدى فيه من الأرضين. ويغرُو: أى يتبع كيشعر، ومنه استغراء الكلب على الصيد وهو الإشلاء. عدى، بالفتح والقصر: جهة الشيء ووجهته وطريقته، ومنه العدوتَان. والعداء، بالفَتح والمد: ما لا بد منه أو ما لا متجاوز عنه، تقول: عَدَتْك حالى، أى جاوزتك ولم يصبك شؤمها.

والمعنى: إن الذى ينتجعُ الأرضِ التى لا يهتدى فيها مماثل للشخص الأعمى فى عدم الهداية؛ فلا تترك طريق الهدى فما عن نَاحيته بد لسالك، وإلا فقد تورط فى المهالك.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. علمنا الله من العلوم ما يحصل به الانتفاع والارتداع آمين.

الإعراب: كالأعمى: جار ومجرور فى محل رفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: الضال كالأعمى أو الذى يتتبع ما لا يهتدى إليه كالأعمى، والذى يترك طريق الهدى عمدًا كالأعمى، فعلى كل الوجوه هو خبر إما لمبتدأ محذوف أو للذى فيكون خبرًا مقدمًا. والذى يغرو: مبتدأ مؤخر. والأعماء، بالمد: مفعول ليغرو. وفاء فلا تدع: سببية. ولا تدع: جازم ومجزوم. وما: نافية. وعداه: جار

ومجرور ومضاف إليه، وعداه: اسم ما على لغة تميم لأنهم لا يبطلون عملها بتقديم خبرها على اسمها، بخلاف سليم وأهل الحجاز، فعلى مذهبهم عداه مبتدأ مؤخر، وعن عداه: خبر مقدم؛ ولذلك سوغ الابتداء بالنكرة لتخصيصها بالنفى وحرف الجر.

* * *

● **قال الناظم رضى الله عنه:**

٥٧ ـ وَرُمْ رَاحَةَ الأَنْسَى والأنْسَاءَ راعِهَا　　　لِنَسْيًا ونَسْيَاءَ فَـذَاكَ وَفَـاءُ

قوله: ورم: أى حاول تسكين وجع المريض الذى يشتكى عرق النساء. وراع الأنساء: أى التافه الحقير المعرض لأن ينسى فى حال كونه لذى ضرورة كنسيا ونسياء مثلا، فذلك أى رومك راحة المبتلى وكونك فيما قل من حاجته مشمراً فضلا عما جل. والأنسى: وصف لرجل مصاب بداء عرق النسا فتقول فى ذلك: رجل نَسيً وامرأة نسياء. وقوله: لنسيا، بالقصر: أى فقير معدم، وكذلك إذا كان لنسياء، بالمد، وهو جمع نسى، وهو الضعيف المحتقر الذى لا حيلة له، فقيامك واجتهادك فى الحقير من أمورهم فضلاً عن الخطير وفاء بحق الصحبة وقيام بواجب الفتوة؛ فإنك إذا كنت رحيمًا بذى العاهة والضعيف ومن لا اعتناء به وكنت فى عونهم واهتممت بالحقير من شأنهم فضلا عن الخطير كنتَ من الذين خلقهم الله لمنافع عباده وأمدهم بأمداده، فإليهم يلجأ الضعيف والشريف.

يروى أن النبى ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن كان مما قال له فى وصيته إياه: «يا معاذ كن للضعيف كالأخ الشفيق، والمسكين كالأب الشفيق، وللأرملة كالزوج العطوف، ولليتيم كالأب الرؤوف، وإياك أن تشبع وجارك جائع»[١].

وقال ﷺ: «إنما ترحمون وترزقون وتنصرون بضعفائكم»[٢].

ويروى أن النبى ﷺ شكا إليه بعض أصحابه قساوة قلبه فقال له: «إن شئت أن يلين قلبك ويغفر ذنبك وتُدرك حاجتَك فواكل المسكين وجالس الفقير وامسح رأس

(١) لم أعثر على هذا الكلام.

(٢) حديث: «إنما ترحمون.... إلخ» سبق تخريجه.

اليتيم وبلغ حاجة من لا يقدر على بلاغها ونفس كربة المكروب، وأنا زعيم لك بما طلبتَ»[١].

وقال ﷺ: «إن الله لا يزكى قومًا لا يأخذ فيهم الضعيف حقه إلا بالتقية».

ويروى «أن النبى ﷺ كانت تأخذ بيده العجوز الفانية فتذهب به فى حوائجها حتى تطوف به المدينة فما ينْتزع يده منها حتى تكون هى التى تركته».

ولما أتاه عدى بن حاتم ليُسْلِمَ وجَدَه فى المسجد، فاستصحبه إلى بيته، فبينما هو يمشى معه إذ أتت النبى ﷺ عجوز فأوقفته فى الشمس تخاطبه حتى فرغت من حاجتها؛ قال عدى: فقلت فى نفسى: والله ما هذا بشأن ملك ولا صنيعهُ، فلما أتينا بيته إذا هو ليس فيه إلا وسادة من أدم[٢] حشوها لف، فألقَاها إلى لأجلس عليها، فاستعظمت أن أجلس على الوساد وهو جالس على الأرض ليس بينه وبينها بساط ولا حائل، فألقَاها إلى وقَال: لا يجلس عليها غيرك، فجلست على الوساد وجلس ﷺ على التراب، فقلت فى نفسى: وهذا أيضا ليس بزى ملك ولا جبروته، فَأقبل على ﷺ وأخذ يخبرنى بالمغيبات، فأسلمت، ورجعت إلى قومى فَدعوتُهم إلى الإسلام، فرزقهم الله الإسلام فأسلموا.

وقال ﷺ: «الخلق عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله»[٣].

وقال ﷺ: «أهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة»[٤].

وقال ﷺ: «من لا يرحم لا يرحم»[٥].

وقال ﷺ: «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»[٦].

---

(١) لم أعثر على هذا الحديث مخرجًا.

(٢) الأدم: الجلد.

(٣) و (٤) حديث «الخلق عيال الله .... إلخ» وحديث «أهل المعروف»... إلخ. تقدم تخريجهما.

(٥) حديث: «من لا يرحم لا يرحم» صحيح، أخرجه البخارى فى قصة الأقرع ابن حابس وتقبيله ﷺ للحسن.

(٦) حديث: «ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» رواه أبو داود والبخارى فى الأدب، وأحمد والترمذى، وقال: حديث صحيح، صححه الحاكم كذلك لما له من الشواهد.
وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢١٤، والله أعلم.

وكان ﷺ يقول لأصحابه: «اشفعوا تؤجروا، ويقض الله علىٰ لسان رسوله ما يشاء»[(١)].

ولما احتضر ﷺ كان من آخر ما قال: «الصلاة، وما ملكت أيمانكم» حتى جعلت تتجلجل فى صدره ولا ينبس بها لسانه.

ومما مدح الله به أصحاب رسول الله ﷺ أن وصفهم بالرحمة فيما بينهم والشدة على المشركين فقال: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩] وليس شدتهم على الكفار تنافى رحمتَهم بهم؛ لأن شدتهم عليهم هى نفس الرحمة بهم، ولأن شدتهم عليهم إنما كانت ليخرجوهم من ظلمات الشرك إلى نور التَّوحيد، أو ليريحوهم من زيادة الآثام، وليكون قتلهم داعيًا إلى إسلام من هو على رأيهم ودينهم من أبنائهم وأشياعهم وإخوانهم، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٣].

الإعراب: رم: فعل أمر من رام كقام. راحة: مفعول به. الأنسى: مضاف إليه ما قبله. والأنساء، بالمد: منصوب بالاشتغال تقديره: راع الأنساء. وراعها: فعل أمر، والضمير مفعول به. ولنسيا: مجرور متعلق براعها. ونسياء، بالمد: معطوف على نسيا. فذاك: اسم إشارة فى محل رفع على الابتداء. ووفاء: خبره.

* * *

ولما انتهى كلامه على المفتوح قصرًا ومدًا، مع تقديم المقصور وتأخير الممدود، ووضع أبياته على الجناس والاقتباس وغير ذلك من أنواع البديع كالاستطراد والتَّلميح والكناية والتصريح، التى تشهد على غزارة علم نَاظمها ووسع باعه فى العلوم، فليس يماشيه فيها إلا القليل فضلاً عن أن يجاريه، مع ما تضمنته منظومته من الأحاديث النبوية والقدسية. ولقد هم رجال بشرحها، فوجدوا ذلك كالثريا من يد المتناول، أو السحابة من هامة المتطاول؛ فاقتصروا على فتح لغاتها مع عدم الإجادة وقلة الإفادة. فلما رأيت ذلك حملتنى الغيرة أن أتحفها بشرح يكون بين

---

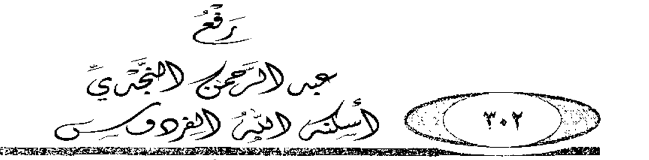
(١) حديث: «اشفعوا تؤجروا»... إلخ. حديث صحيح رواه الشيخان وأبو داود والنسائى وأورده السخاوى تحت رقم ١١٧ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٦٨ وفيهما: «ويقض الله على لسان نبيه» بدل «رسوله»، والله أعلم.

الاختصار والإطناب، والتقصير والإسهاب، فيأتى بعون الله وتوفيقه على وفق أمنية جميع الطلاب.

شرع يبين ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى[١]، فلا مَدَّ مع فتح، ولا قَصر مع كسر، فقال رضى الله عنه:

* * *

(١) فى النسخة (ب): فقال: باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى.



باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد مع اختلاف المعنى

٥٨ ـ طَلاً وَطِلاءً دَعْ وَلا تَصْحَبَنَّ لَعًى   فَإِنَّ نفُوسَ الأَشْرهِينَ لِعَاءُ

فالطلا، بالفتح والقصر: الصغير من كل شيء، وقيل: ولد الغزال خاصة، وقد وضعت العرب لكل صغير من أنواع الحيوانات اسمًا يختص به: فولد الإنسان صبى، وولد الأسد شبل، وولد النمر ردع، وولد الطير فَرخ، إلا النعامة فولدها رَأْل، وولد الفيل نَوص، وولد الخنزير خنَّوْص، وولد الظبى خشف، وولد الكلب والذئب والسبع والضبع والدب جرو، وولد الأرنب خِرْنِق، وولد البقرة عجل إنسية كانت أم وحشية، وولد الناقة سَقْب، وولد العنز جدى، وولد الضأن خروف، وولد الفرس فلو، وولد الحمار جحش، ومع الفرس بغل.

والطِلاء، بالكسر والمد: الذى يربط به الطلاء، بالقصر. واللعى، بالقصر والفتح: الرجل الشرهُ، واللعاء، بالكسر والمد: جمع لعوة، وهى الكلبة الحريصة على الأكل.

فكأنه يقول: اترك الطلا لتستغنى عما يحتاج إليه من الطلا، ولا تصحب صاحب شره فإن نفوسهم كلاب حريصة، ويخشى عليك من خلطتهم أن تَرجع نفسك إلى أصلها، فإن من شأنها أن تحن إلى سربها، وتضيق ذرعًا بنقلها عن حزبها، فإنك إن أعطيتها فى الانفساح شبرًا طلبت منك ذراعًا، وإن أعطيتها ذراعًا طلبت منك باعًا، وبقدر ما تتعبها تريحك، وبقدر ما تريحها تتعبك، وبقدر ما تضيق عليها تُوسع عليك، وبقدر ما توسع عليها تضيق عليك، وإن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل؛ فتفرغ لجهادها، وحبسها عن مألوف طبعها، بزمها بحبل الصيام، وضربها بسوط القيام، وترك ما يشغلك ويشوش عليك قلبك، كالولد الذى تهتم بما يحتَاج إليه، فتجد النفس إليك سبيلا فى تحصيل أغراضها العاجلة فتقول لك: اتق الله فى عيالك فَإن نفقتهم تجب عليك، فإن وجدت منك ذلك قالت لك: وسع على عيالك فإن ذلك من واجب حق المروءة، فلا تزال بك حتى تطلب المكاثرة والمفاخرة؛ فتورد نفسك حينئذ موارد الهلاك، فيكون ذلك آخر

العهد بك، وينقطع الرجاء منك.

قال بعض القوم: (من بحر الطويل)

لعمرك ما أبكى على ساكنى الثرى ولكننى أبكى على المتزوج

وقيل: لا دين قبل التزويج ولا علم بعده. وقيل لبعضهم: تزوج، فقال: إنما يتزوج النساءَ الرجال ولست برجل، وقلما تزوج مريد قبل التمكين فأفلح.

وإنما قَصد المؤلف رحمه الله ببيته الحديث المستحسن المخرج فى صحيح أبى داود، وهو قوله ﷺ: «إذا مضى من الزمان خمسمائة عامٍ فتكون أمتى حينئذ شوكا بلا ورق، إن فررت منهم طلبوك، وإن أقبلت إليهم فتنوك، فتكون حينئذ فتنة الرجل فى أبويه، فإن لم يكونا له ففى زَوجته؛ فإن لم تكن له زَوجةٌ ففى عشيرته. فقالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: يعيِّرونه بالفقر فيورد نفسه موارد الهلاك، وهى الوقوع فى الحرام والشبهة طلبًا للمكاثرة، فيكون المؤمن فى ذلك الزمان كشاة بين ذئب وأسد ودب وضبع»[1].

فقيل: الأسد هو السلطان لجوره، والدب هو القاضى لحيفه ومكره، والذئب هو الخليطة[2] فى الدنيا لخيانته وغدره، والضبع هو اللص والمحارب.

فإن قُلت: ما الجمع بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ: «إذا تزوج الرجل فى حداثة سنه صاح الشيطان وقال: يا ويلاه، قد عصم منى دينه»؟ فالجواب أن هذا كان فى صدر الإسلام حيث كانت الفتنَة مأمونة، والأمة مستقيمة، والإخوان فى الله كثيرون، والأعوان على الدين موجودون. وأما حيث لم يبق من الدين إلا اسمه ولا من القرآن إلا رسمه فتركه أولى، بل ربما وجب، إذ من الواجب على المؤمن الفرار وهجرة البقعة التى ظهرت بها الفواحش والآثام، فإن النكاح فيها والإقَامة بها علامة الرضا بالمنكر والفواحش، فيعمه من الغضب والعذاب ما يعمهم. وفى ذلك يقول القائل: (من بحر الطويل)

إذا شاع فى أرض فساد ومنكر وليس بها ناهٍ مطاع وزاجرُ

(١) حديث: «إذا مضى من الزمان خمسمائة عام»... إلخ. لم أجده فى أبى داود ولا فى غيره.

(٢) فى (ب): الخليط، ولعل المراد الشخص الذى يخالط الإنسان.

ففر ولا تقم بساحــة بلدة يموت بها عرف وتَحيا المناكر
فإن عقاب الذنب حين خفائه يخص وإن يظهر يعم المجاور

وفى مثل ذلك يقول الشاعر أيضًا: (من بحر الطويل)

يلومونني أن بعت بالرخص منزلى ولم يعلموا جارا هناك ينغص
فقلت لهم كفــوا الملام فَإنَّمــا بجيرانهــا تغلو الديار وتَرخص

واتفقت الأمة على أن المنكر إذا شاع وظهر وجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ما لم يعلم عدم الفائدة، فَإذا علم عدم الفائدة وجب الفرار حينئذ. وفى ذلك أنزل الله قوله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال ٢٥] وذلك أن المنكر إذا ظهر ببلدة ولم ينكر عم العقَاب فاعله وغير فاعله، قال ﷺ: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليعمنكم الله بعقاب من عنده».

وفى رواية: «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم ظلمة لا يرحمون صغيركم ولا يوقرون كبيركم، يدعو عليهم خياركم ولا يستجاب لهم فيهم»[١].

وقال ﷺ: «إذا رأيتم من ولاة أموركم جوراً فى الأحكام وظلما فى الأموال فلا يحملنكم ذلك على الركون إليهم ولكن اركنوا إلى الله بالتوبة فإن قلوب الملوك ونواصيهم[٢] بيده فإما أن يعطفهم عليكم وإما أن يريحكم منهم».

وهذا البيت مشتمل على النهى على اتخاذ الولد ليجتنب بذلك النكاح الذى هو سبب الولد، وهما سبب ثقل المؤونة والشغل عن الله إلا من عصم الله، إذ البيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥]، فإنما للحصر

(١) حديث «لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر»... إلخ. رواه الترمذى بلفظ: «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم» وقال: حديث حسن. ت (٢١٧٠).
أما الرواية الأخرى فقد رواها الطبرانى فى الأوسط والبزار، قال الهيثمى: وفيه حيان بن على وهو متروك، وقد وثقه ابن معين (٧/ ٢٦٦)، والله أعلم.
(٢) ونواصيهم: زيادة من (ب).

والإثبات، فيكون الأنسى بحسب معنى الناس والآية[١] إما مشغول عن الله بهما فهو هالك دنيا وأخرى، ومختبر فإن أعطى كل ذى حق حقه فأدى حق الله بالعبادة، وحق المال بالصيانة والإنفاق فى وجوه البر، وحق العيال بالتأديب والتعليم والحياطة من غير إسراف ولا إقتار، ويرى نفسه فى جميع ذلك واسطة، فهو ناج، فإذا لم يكن كذلك وقع فى الخطر، فيكون كما قال ﷺ: «الولد مَجْبَنَةٌ مبخلة»[٢].

ومعنى ذلك أنه إذا التَحم الحرب فى جهاد المشركين أداه حبهم والشفقة عليهم إلى الجبن مخافة أن يموت فيهلكوا جوعًا؛ لأنه يرى نفسه رازقًا لهم؛ فيقوده ذلك إلى كبيرتين:

إحداهما فى عقيدته، وهى تخيله رازقًا غير الله: فيكون سببًا لضعف يقينه أو ذهابه بالكلية.

قال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين، قالوا: يا رسول الله، وما ضعف اليقين؟ قال: الشك فى المقدور، وكثرة الاهتمام بالرزق»[٣]. ولذلك كان كثيرًا ما يقول فى دعائه: «اللهم إنى أعوذ بك من خوف الخلق، وهم الرزق، والرضا عن النفس؛ لأنهن أمهات الخبائث».

الثانية: التولى يوم الزحف، والتعريد[٤] من خوف الحتف، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ١٦].

ومعنى كونه مبخلة أن الرجل لا تزال نفسه سخية ببذل المال وإنفاقه ما لم يولد

---

(١) هذه العبارة هكذا هى فى النسخة (ب)، وفى النسخة (أ): فيكون الناس بحسب معنى الآية إما مشغول... إلخ. وفيها عدم تناسق فى النسختين كما ترى.

(٢) حديث: «الولد مجبنة مبخلة»: رواه ابن ماجه والحاكم، وأوله: «أن النبى ﷺ أخذ حسنًا فقبله، ثم أقبل عليهم وقال: إن الولد مجبنة مبخلة، وأحسبه، قال: مجهلة».
وأورده صاحب (الكشف) تحت رقم ٢٩١٦ والسخاوى تحت رقم ١٢٦٩ فى المقاصد الحسنة.

(٣) حديث «أخوف ما أخاف على أمتى» لم أجده مخرجا بهذا اللفظ.

(٤) كذا فى النسختين: التعريد، ومعناه الهروب.

له، فإذا ولد له، وكان ممن يرى الرزق من المال، بخل بإنفاقه؛ مخافة أن يتركهم عالة، أو يكون ذلك سببًا للإقتار عليهم. فهذا معنى كون الولد مبخلة.

الثاني: النهي عن صحبة الحريص وخلطته لخبر: «المرء على دين خليله فاختر من تخالل». وفي رواية: من صحب الأبرار حشر معهم ولو لم يعمل بعملهم، ومن صحب الفجار حشر معهم ولو عمل بعمل الأبرار؛ لقوله ﷺ: «من أحب قومًا حشر معهم»[1].

والمصاحبة تستدعي المودة غالبًا، وإلا بأن لم تحصل مودة فلا تزر وازرة وزر أخرى.

وقال ﷺ: «إياك وجليس السوء، فإن الطبع يسرق من الطبع بحيث لا يعلم السارق ولا المسروق منه»[2].

وقال ﷺ: «الجليس الصالح كحامل المسك: إما أن تشترى منه، وإما أن يعطيكه، وإما أن تجد من ريحه. وجليس السوء كصاحب الكير: إما أن يحرق ثيابك بناره، وإما أن يصيبك بدخانه وقتره»[3].

قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

* * *

(١) حديث «من أحب قومًا حشر معهم» رواه الحاكم فى مستدركه جازمًا بلا سند، وأورده السخاوى تحت رقم ١٠٥١ وصاحب (الكشف) تحت رقم ٢٣٥٣ وله شاهد متفق عليه بلفظ: «المرء مع من أحب» والله أعلم.

(٢) حديث «إياك وجليس السوء»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، إلا أن ابن عساكر روى فى تاريخه: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف» ٤/٣٢٣، وهذا اللفظ موضوع، وآفته إما محمد بن مسلمة الواسطى، وإما شيخه موسى الطويل، هذا مع أن السيوطى أورده تحت رقم ٢٨٩٠ ورمز له بالضعف، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٤٧ وحكم بوضعه، والله أعلم.

(٣) حديث «الجليس الصالح كحامل المسك»... إلخ. متفق عليه، وأوله: «مثل جليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير».

• قال الناظم رضي الله عنه[١]:

٦١ـ وإنَّ صَدَى مَنْ لاَ صِداَءَ لَهُ أذًى وإنَّ الغَرَا باللَّهْـوِ فيـهِ غِرَاءُ

الصدى، بالفتح والقصر: ما يرجع إلى المتكلم من صوته عند الجبل، ويطلق ويراد به السواد، قال كعب بن مالك:

* إنَّ أخا الحرب أصدى اللون مهزول *

والصدى أيضًا: صدأ الحديد والنحاس، والصدى أيضًا: شيء كانت تقوله العرب؛ وهو أن الميت إذا مات انتقلت روحه إلى طائر أو حية بفناء القبر، فإذا رأى ما يحب صاح، وفي ذلك يقول شاعرهم: (من بحر الطويل)

ولو أن ليلى الأخيليـة سلَّمت علىَّ ودونى جنـدل وصفـائحُ

لسَلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدى من جانب القبر صائح

ويطلق ويراد به الظمأ، ويطلق ويراد به الحب. والصداء، بالكسر والمد: المماراة[٢] كالمصاداة. والغرى، بالقصر والفتح: الولوع بالشيء. والغراء، بالكسر والمد: مصدر من غريت بالشيء لاححت به أو عليه، قال كثير: (من بحر الطويل)

إذا قلت مهلا غارت العين بالبكا غراءً ومَدَّتْهـا مـدامـعُ حُفَّلُ

والغراء أيضا: الموالاة بين الشيئين. والغراء أيضا: اللصاق، ويطلق ويراد به الملازمة. فكأنه يقول: إن حكاية صوت الشخص الذى لا يوالى الناس ولا يؤالفهم أذًى له ولهم: أما له فإنه لا أمان له منهم لسوء صنيعه بهم؛ فيرتاع لكل صوت سمعه، وإن كان حكايةَ صوته عند الجبل. وأما لهم فإنهم لم يتعودوا منه إلا قبح المعامل، فإذا سمعوا صداه تأذوا منه؛ لأن رؤية المؤذى كسماع صوته، فإنهما يذكران إذايته، وفى ذلك يقول المتنبى: (من بحر الخفيف)

---

(١) سقط من النسختين (أ) و (ب) بيتان وجدتهما فى نسخة خطية هما:

٥٩ ـ وتأبى طلى الأسد الطلاء فلن ترى حـدى الدهر طلوا يقتفيه جـداء

٦٠ ـ مطيع الطـلا مثل الطـلاء فلا مرى جدًا بل كمثل الضـأن هن جـداء

(٢) فى (أ): المرآة، أما فى (ب) فأقرب شيء إلى الكلمة: المماراة.

واحتمالُ الأذى ورؤيةُ جانيه　　　غـذاء تضوى به الأجسامُ

قوله: وإن غرا باللهو: أى الولوع باللهو فيه ملامة؛ إذ الولوع باللهو يستدعى الانكباب عليه وعدم الانفكاك عنه؛ إذ النفس الأمارة بالسوء لشدة شرها وحرصها إذا نالت شيئا من مطلوبها قوى شرها واشتدت نهامتها؛ فتلح فى الحرص والطلب، فكلما نالت بعد ذلك شيئًا ازداد شرهها على حسب ما نالت من شهواتها؛ فلا تنفك من أسرها، ولا تحيط بها بأسرها، وفى ولوعها بالشىء غاية خسرها، نسأل الله السلامة من شرها، هذا إذا ظفرت به، وأما إذا لم تنل منه شيئًا فإنها لا تزال تتحسر عليه، وتحن ولو بعد حين إليه، ولا تزال بصاحبها حتى يعض على ما فاتته منه يديه، ويصير أسوأ حالا من الفاعل الذى لا يريد العودة الى الفعل، فأحرى الفاعل النادم؛ لأن الندم على الفعل توبة، والندم على الترك إصرار. قال الشاعر: (من بحر البسيط)

إذا غـــدا ملك باللهو مشتغلا　　　فاحكم على ملكه بالويل والخرب

وقال ﷺ: «إذا رأيت وهنًا فى بدنك، أو حرمانًا فى رزقك، وقساوة فى قلبك، فاعلم أنك اشتغلت بما لا يعنيك».

وقال ﷺ: «أشد النّاس عذابًا يوم القيامة أكثرهم خَوضًا فى الباطل»(١).

ونَاهيك من سوء حاله أن ساوى الله بينه وبين المكذبين بيوم الدين فقال: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٦].

وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦].

وقال ﷺ: «أشد الناس ندامةً يوم القيامة أكثرهم كلامًا فيما لا يعنى».

وقال ﷺ: «إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلساءه يبلغ بها من عذاب

---

(١) حديث «أشد الناس عذابًا يوم القيامة»... إلخ. رواه ابن أبى الدنيا مرسلاً والطبرانى موقوفًا، وسند الطبرانى صحيح، ورجال ابن أبى الدنيا ثقات، قاله العراقى (٣/ ١١٢) إحياء، وهو بلفظ (أعظم) بدل (أشد).

الله ما لم يكن له في الحساب»(١).

يروى أن حاتمًا الأصم رضى الله عنه بينما هو جالس ذات يوم إذ نظر إلى باب دار فقال: لمن هذه الدار؟ ثم ازدجر فاستغفر واستعبر ثم قال: لقد تكلمت فيما لا يعنيني، وأى حاجة لى فى البيت وبابه؟ فنذر لله عليه صوم سنة كفارة لتلك الكلمة.

وقال ﷺ: «كل لهو يلهوه الإنسان فهو باطل إلا رمى الرجل بسهمه، أو ملاعبته زوجته، أو تأديبه فرسه ليعلمها ويتعلم» ولهذا حرم الله المياسر كلها.

ومن الحكم الداودية: ينبغى للرجل أن يقسم أوقاته بين عمل لآخرته، ومرة لدنياه فيما لا بد له منه من ضروريات طبعه ومؤونة عياله، وساعة يشتغل فيها بمنافع الخلق، ووقتًا يخلو فيه بنسائه، وساعةً يحاسب فيها نفسه يخلو فيها بربه، ولا يترك نفسه سدى كالبهيمة الراتعة.

وقال ﷺ: « من كان غَده خيرًا من يومه فهو فائز، ومن استوى غده ويومه فهو خاسر، ومن كان يومه خيرًا من غده فالموت خير له من الحياة».

وقال ﷺ: «إن الله يبغض الفرحين المرحين»(٢).

وقال ﷺ فى حديث يرويه عن ربه «إنى خلقت خوفين وأمنين فلا أجمعهما على عبد: من خافنى فى الدنيا أمنته فى الآخرة، ومن أمننى فى الدنيا خوفته فى الآخرة».

قال الله تعالى: ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩] لأن من جعل أهوال القيامة نصب عينيه، وكشف قناع الغفلة عن قلبه، وزالت كثائف(٣) الطبع

---

(١) حديث «إن الرجل ليقول الكلمة ليضحك بها جلساءه»... إلخ. رواه ابن أبى الدنيا وفيه: «يهوى بها أبعد من الثريا» وسنده حسن، وأصله عند الشيخين والنسائى بلفظ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يرى بها بأسا يهوى بها سبعين خريفًا فى النار» والله أعلم.

(٢) حديث: «إن الله يبغض الفرحين المرحين» موضوع رواه الديلمى بلفظ: «إن الله يبغض البذخين الفرحين، ويحب كل قلب حزين» وأورده السيوطى تحت رقم ١٨٥٠ قال المناوى شارحه: فيه إسماعيل بن أبى زيادة الشامى قال فى الميزان: قال الدارقطنى: متروك يضع الحديث (٢/ ٢٨٤) هذا مع أن السيوطى رمز له بالضعف فقط. قلت: وعلته من إسماعيل هذا، والله أعلم.

(٣) فى نسخة (ب): كثافة.

عن بصيرته، لم تسمح له نفسه أن يلهو مع اللاهين، ولا أن يغفل مع الغافلين.

وقال ﷺ: «لا ينبغى لحامل القرآن أن يلهو مع اللاهين، ولا أن يجهل مع الجاهلين، فإذا فعل قال له القرآن: ويلك ألا تستحى منى وأنا بين جنبيك فإنى شاهد لا يرد، وشفيع لا يصد، أما لك فىَّ عبرة؟ أما لك فيما نزلت به موعظة؟ فلو أنزلت على جبل لتخشع وتصدع».

فعلى هذا يكون البيت مقتبسًا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ إلى ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون: ٤]، لأن البيت إنما جيء به فى نعت المنافقين.

قال الرسول ﷺ: «فى قلب كل مؤمن صوت نائحة، وفى قلب كل منافق صوت مزمار»، ولذلك صار النبى ﷺ الذى هو أتم الخلق إيمانًا أكثرهم حزنًا.

قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «كان ﷺ ظاهر البشر، متواصل الأحزان ليست له راحة، وكان إذا كان فى الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء»(١).

وكان يقول ﷺ لأصحابه: «لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا»(٢).

وروى أنه ﷺ كان يقول فى بعض خطبه: «عجبت لمن أيقن بالنار كيف ينام، ولمن يعلم أن الله مطلع عليه كيف يعصيه، ولمن أيقن بالجنة كيف لا يجد فى طلبها، ولمن علم خداع النفس كيف يطيعها، ولمن علم زوال الدنيا كيف يركن إليها ويطمئن فيها، ولمن علم أن المال عارية بيده كيف يبخل به عما يعود عليه نفعه فى الآخرة»(٣). تقبل الله أعمالنا، وأصلح أحوالنا، وأخذ بنواصينا إليه آمين.

---

(١) حديث: «وكان إذا كان فى الصلاة يسمع لصدره أزيز»... إلخ. رواه الترمذى فى الشمائل وأحمد ٤/ ٢٥ وأبو داود فى الصلاة والنسائى ٣/ ١٣ فى السهو وإسناده قوى، وصححه ابن خزيمة وابن حبان وأخرجه البغوى فى شرح السنة ٣/ ٢٤٥ بلفظ: «أتيت النبى ﷺ وهو يصلى ولجوفه أزيز كأزيز المرجل، يبكى»، وفى رواية: «من البكاء»، وفى رواية: «كأزير الرحى» والأزير: الصوت المكتوم، والله أعلم.

(٢) حديث: «لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلا»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى والنسائى.

وأوله عند البخارى « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا»، والله أعلم.

(٣) حديث: «كان ﷺ يقول فى بعض خطبه»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ.

● قال الناظم:

٦٢ـ أخَا الدِّين أوْلَى بالإخَاءِ فَذا نَدًى أجِبْهُ إذَا مَا كَانَ مِنْهُ نِدَاءُ

قوله: أخا الدين: مفعول ثان لاتخذ، تقديره: اتخذ أخا الدين أخًا، فهو أولى: خبر لمبتدأ محذوف، وبالإخاء متعلق بأولى. والإخاء، بالمد: المصافاة فى الله، والأثرة على النفس، وهى سنة متبعة وقاعدة من قواعد الإسلام معتبرة، سنها رسول الله ﷺ لما قدم مهاجرًا ومعه من أسلم من قومه، فآخى بين كل رجلين رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، وكانوا يتوارثون بتلك المؤاخاة صدرًا من الإسلام حتى نسخ ذلك بقوله: تعالى: ﴿وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] فنسخ التوارث وبقيت المصافاة، وكان الأنصارى إذا كانت له زوجتان نزل عن إحداهن لأخيه من المهاجرين، وربما شاطره إن احتاج إلى ذلك ورضيه، إلا ما كان من عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه فإن أخاه من الأنصار كان أبا أيوب فقال له اختر أىَّ زوجاتى أحببت أنزل لك عنها وأشاطرك مالى، ورباعى[1]. فقال له: بارك الله عليك فإنك قد أديت حق الإخاء، وإنى رجل تاجر، فأعرنى منزلا، وأسلفنى، ففعل، فلم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى رد عليه ما أسلفه، واتخذ منزلا، وتزوج امرأة من فضل تجارته، فأتى النبى ﷺ وعليه أثر صفرة[2] فقال: مه يا عبد الرحمن؟! قال: تزوجت جارية من الأنصار، واشتريت منزلا من فضل تجارتى، وقد طلب منى أخى الأنصارى أن ينزل لى عن أى نسائه أحببت، وأن يشاطرنى ماله، فأبيت إذ لا أحب أن أكون كَلاًّ على أخى فى الله؛ لأنى كنت رجلا تاجرا، فقال له رسول الله ﷺ: بارك الله لك فى صفقة يمينك. فنال بركة دعاء رسول الله ﷺ فكان من أمره ما تقدم فى صدر الكتاب.

وأما على رضى الله عنه فإنه لما وقعت المؤاخاة ولم ير النبى ﷺ آخى بينه وبين أحد من الأنصار، قال: وأين أخى يا رسول الله؟ فأخذ بيده فقال: أنا أخوك. فصار ذلك من مفاخر على رضى الله عنه؛ إذ كأنه لم ير له كفئًا غير نفسه، وفى ذلك يقول: (من بحر الوافر)

(١) الرباع: البيوت.

(٢) أثر صفرة: أثر طيب.

محمد النبى أخى وصهرى وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يغدو ويُمسي يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى منوطٌ لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ابناى منها فأيكم له سهمٌ كسهمى
ويشهد بالولاية لى عليكم رسول الله يوم غَدير خُمِّ
سبقتكم إلى الإسلام طرًا صبيًا ما بلغتُ أوانَ حُلمى

ومثل هذا من المحاسن والفضائل والمناقب، وما كان اختص به من زوائد الفضل. مدحه بعض ملوك اليمن فقال: (من بحر البسيط)

سائل قريشا به إن كنت ذا عَمَه من كان أثبتها فى الدين أوتَادا
من كان أقدمها سلمًا وأكثرها علما وأطهرها زوجًا وأولادا
من وحد الله إذ كانت مكذبة تدعو مع الله أوثَانا وأندادا
من كان يقدم فى الهيجا إذا نكلوا عنها وإن بخلوا فى أزمة جادا
من كان أعدلها حكمًا وأبسطها علمًا وأصدقها وعدًا وإبعادا
إن يصدقوك فلن يعدوا أبا حسن إن أنت لم تلق للأبرار حسادا
إن أنت لم تلق أقوامًا ذوى صلف وذا عناد لحق الله جحادا

يقال: آخاه وواخاه، وآخوته وآخيته أخوة وإخاء ومؤاخاةً فهو مؤاخ. وإنما آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه ليشد بذلك من عضدهم، ويذهب به عنهم وحشة الغربة ومفارقة الأهل والوطن، وليحرك به من نشاطهم إلى الجهاد، وليهز به أعطاف توادهم، وتأكيد ألفتهم المشار إليها بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ الآية [الأنفال: ٦٣] فكانوا كذلك حتى إن الرجل منهم إذا مات ورثه أخوه فى الدين دون أخيه في النسب، فلما أكثر الله المسلمين وجاء الفتح زالت الوحشة لدخول الناس فى الدين أفواجًا، فنسخ الله التوارث بالأخوة الإسلامية، ورجع إلى الأخوة النسبية، وبقى التوادد والمصافاة والموالاة الموجبة للنصرة والمعاضدة والمؤازرة، فأكد الله تعالى بقاءها فيما بينهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

ومثله قوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على من سواهم».

وكان رسول الله ﷺ لما آخى بين المهاجرين والأنصار بالمدينة آخَى بين معاوية ابن أبى سفيان والحُتَات[١] بن زيد بن علقمة المجاشعى، فلما ولى الشام رحل إليه ولازمه لتلك الأخوة؛ فأحسن إليه معاوية، وبقى معه إلى أن أفضت إليه الخلافة، فمرض الحتات ومات، فحاز معاوية جميع مخلفاته، وادعى أنه أولى بإرثه لتلك الأخوة، وإلى هذا يشير الفرزدق ويشنع عليه تلك الخصلة إذ يقول: (من بحر الطويل)

أبوك وعمي يا معــاوى أورثا | تُراثًا ليحتــاز التـراث أقاربه
فمـا بال ميراث الحُتـات أكلته | وميراث صخر جامد لك ذائبه

وفى تأكيد نسب الدين وإبطال نسب الطين قال الرسول ﷺ: «لا توارث بين ملتين شتى»[٢]؛ ولذلك من لا رحم له فى الإسلام ترثه جماعة المسلمين، وكذلك السائبة، ومن علم إسلامه قومه ثم جهلت أعيانهم.

واختص بالأخوة التامة من هذه الأمة أهل التصوف رضى الله عنهم؛ فبقوا على ما كان عليه سلفهم الصالح من أصحاب رسول الله ﷺ لم يزد لديهم إلا تأكيدًا؛ فأوجبوا تقديم حق الأخ من الشيخ على الأخ للأب والأم[٣]، بل صيروا أخا النسب أجنبيًا، فلا يستحلون فى طريقتهم أن يمنع أحدهم من أخيه ما يحتاج إليه

---

(١) الحتات ـ بضم الحاء وتخفيف التاء ـ: ابن زيد بن علقمة، وفد على النبى ﷺ فى وفد بنى تميم وأسلم، وقصة الأخوة مع معاوية ذكرها ابن إسحاق والكلبى. وفيها أنه مات عند معاوية فى خلافته فورثه (١/ ٣١٠) إصابة.

قلت: ومن المستبعد عندى أن تكون هذه الأخوة صحيحة، لأن الأخوة إنما تمت بين المهاجرين والأنصار فى الصدر الأول من الإسلام.

ومعاوية لم يهاجر قطعًا إلا بعد الفتح، ولم يسلم على الصحيح إلا بعده، والله أعلم.

(٢) حديث: «لا توارث بين ملتين»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم» (٥/ ٥٩).

(٣) الأخوة الإسلامية شاملة لجميع المسلمين، أما اختصاصها بأخوة الشيخ فلا أظن الأدلة تساعد على ذلك، والله أعلم.

من ماله، ويتحرجون من قول: مالى، وهذا لى، إلى ما لا يدخل تحت حصر من مآثرهم رضى الله عنهم، إذ تتبعه يخرجنا عن قصد الاختصار. وفى ذلك يقولون: (من بحر الرجز)

إن أخاك الحق من يسعى معك ... ومن يضر نفسه لينفعك

ومن إذا ريب الزمان صدعك ... شتت فيك شمله ليجمعك

وبقى نوع آخر من الآخوة وهو أخُوة العامة وهى المناصرة ظاهرًا دون المصافاة باطنًا، وذلك ما تُساس به دول الملوك وألفة القبائل فيما بينها.

يروى أن عبد الملك بن مروان جلس يومًا بدير سمعان، واجتمع إليه وجوه الناس فقال: أنبئونى بأحسن ما قيل فى الأخوة؛ فأخذ كل منهم يقول ما عنده، فلما فرغوا قال لهم: أحسن ما قيل في الأخوة قول الشاعر: (من بحر الخفيف)

إنَّما خِلُّك المصاحب فى المُرْ ... ر وأين المصاحب فى المرِّ أَيْنَا

الذى إن حضرت زانك فى الحى ... وإن غبت صار أذنا وعينا

فاتفقوا على أنه أحسن ما قيل فى المؤاخاة.

ومن هذا القبيل قول بعض الفضلاء: (من بحر الطويل)

أحب من الإخوان كل موات ... عفيفًا غضيض الطرف عن عثرات

يوافقنى فيما أروم وأشتهى ... ويسعدنى حيًا وبعد ممات

فمن لى بهذا ليتنى قد وجدته ... أقاسمه مالى ومن حسنات

قوله: فذا ندًى: منصوب على الاشتغال أى أجب ذا ندى، أى صاحب كرم أجبه. وإذا: ظرف لما يستقبل، وما: زائدة توكيدية. وكان: فعل ماض ناقص. ونداء، بالكسر والمد: اسم كان، وخبرها المجرور قبله.

والمعنى: إذا ناداك الكريم، أى دعاك، فأجبه ولا تخيب نداءه؛ فإنه إنما يدعوك إلى فضل أو فضيلة، ومن لا يدعو إلا فضل أو فضيلة فهو خليق بأن يجاب داؤه؛ لأن «السخى قريب من الجنة، قريب من الناس، بعيد من النار»، كما روى عن

رسول الله ﷺ[١]. فمن هذه أوصافه خليق أن يُواخى. وفى مثل ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

إذا دعاه كريم يوم مسغبة　　　يقول لا غائب مالى ولا حرمُ

وقال غيره: (من بحر الطويل)

وليس بدُحرورٍ[٢] إذا سيل حاجة　　　ولا بمنكب فى ثرى الأرض ينكت

وقال غيره: (من بحر الطويل)

فما خُذَّلٌ قومى فأخضع للعدا　　　ولكن إذا أدعوهم فهم هم

ومن مآثر الكرام أنهم يكسبون مجالسهم والمتسير بسيرتهم أخلاقًا حميدة وشيمًا كريمة لما يسرى إليه من غرائب نفوسهم المهذبة؛ فتكتسب منه الأخلاق الحميدة فضلاً عن صحبتهم؛ فمن ذلك ما أنشده حاتم الطائى لما ألح عليه قومه بالعذل على الكرم؛ إذ كان كلما نفد ماله استلف واستدان مخافة أن يسرى فى عرضه خلل أو فى مكارمه فشل؛ فقال[٣]: (من بحر الطويل)

يلومونني فى الدَّين قومى وإنما　　　ديونى فى أشياء تكسبهم حمدا

لهم جلُّ مالى إنْ تتابع لى غنًى　　　وإن قَل مالى لا أكلفهم رفدا

فإن شتموا عرضى وفرت عروضهم　　　وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا

ولا أحمل الحقد القديم عليهمُ　　　فليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا　　　ولا شيمة لى غيرها تشبه العبدا

وله أبيات فى الموضوع غير هذه.

---

(١) حديث: «السخى قريب من الله قريب من الجنة»... إلخ. ضعيف جدًا، أخرجه الترمذى (٣/١٤٣) والعقيلى فى الضعفاء (١٥٤) وابن عدى (٢/١٨٣) قال الترمذى: غريب، وقال العقيلى: ليس لهذا الحديث أصل من حديث يحيى ولا غيره. وقال ابن حبان: غريب غريب. وأورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وتعقبه السيوطى فى اللآلئ (٢/٩٢)، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٥٤ وقال: ضعيف جدًا، والله أعلم.

(٢) الدحرور والدحور: الذى يدفع الناس عنه أو يطردهم.

(٣) المعروف أن هذه الأبيات للمقنع الكندى، وليست لحاتم الطائى كما ذكر.

وقال ﷺ: «ولتجبْ إذا دعيت إلى وليمة العرس وأنتَ في الأكل بالخيار».

ومن واجب الأخوة العامة ما قاله الصادق المصدوق ﷺ حيث يقول: حقّ المسلم على أخيه المسلم أن يرد عليه السلام إذا سلم، وأن يطعمه إذا استطعم، وأن يشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويجيبه إذا دعاه، وإذا افتقر إلى مواساته واساه، وينصحه إذا حضر، ويحفظه إذا غاب، وإن استأذنه في الدخول أذن إن لم يكن شغل أو مانع، ولا يدخل عليه بغير إذن، ولا يزيد في الاستئذان على الثلاث بل ينصرف عند الاستئذان الثالث، ولا ينقر الباب وإن نقر خفف، وليذكر اسمه إذا سئل، ويحرم النظر إلى داخل البيت عند الاستئذان، ومن ذلك القيام بحق الجار والأجير والمستجير.

قال ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[1].

وقال ﷺ: «أربعون داراً جار»[2].

وقال ﷺ: «جار له أربعة حقوق، وجار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد؛ فالذي له أربعة حقوق: جار ورحم مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له ثلاثة حقوق: جار مسلم قريب المنزل له حق الجوار وحق الإسلام وحق قرب المنزل. والذي له حقان: جار مسلم له حق الجوار وحق الإسلام. والذي له حق واحد جار مشرك له حق الجوار فقط»[3].

---

(١) حديث: «ما زال جبريل يوصيني بالجار»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي وابن ماجه.

(٢) حديث: «أربعون دارًا جار»... إلخ. ضعيف، أخرجه الطبراني بلفظ: «ألا إن أربعين دارًا جوار، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه»... إلخ.

وأورده الهيثمي (٨/ ١٦٩) مجمع، وفيه: يوسف بن السفر وهو متروك، وأورده الألباني في موضوعاته تحت رقم ٢٧٥ وقال: ضعيف، وقال: روى هذا الحديث بسند رجاله ثقات ولولا أنه مرسل لحكمت بصحته، أما الموصول فهو ضعيف، قال العراقي في تخريج أحاديث (الإحياء) بعد أن ساق الحديث من الوجهين: المرسل والموصول كلاهما ضعيف (٢/ ٢١٢).

قلت: أول الحديث ضعيف، وآخره «ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه» فصحيح لأن مسلما رواه في صحيحه، والله أعلم.

(٣) حديث: «جار له أربعة حقوق»... إلخ. ضعيف جدًا، رواه أبو الشيخ والبزار وأبو نعيم، وأوله عندهم: «الجيران ثلاثة»... إلخ. قال الحافظ العراقي بعد أن أورد الحديث: رواه البزار =

وهذه الرواية غريبة جدًا، وإنما المشهور الموجود في جميع الصحاح ما نصه: «جار له ثلاثة حقوق، وجار له حقان، وجار له حق واحد».

قال الله تعالى: ﴿وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [النساء:٣٦] وإنما أتى الله بهم على هذا النسق لتأكيد حقهم دون سائر المسلمين.

وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»(١).

وقال ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقالوا: أما نصره مظلومًا فقد عرفناه فما نصره ظالمًا؟ قال: أن تأخذوا على يديه»(٢).

وقال ﷺ: «المسلمون كالبنيان الواحد يشد بعضه بعضًا»(٣).

وقال ﷺ: «المسلمون كالجسد الواحد إذا تألم منه عضو تداعى كله بالألم والسهر»(٤).

وقال ﷺ: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم رجل استأجر أجيرًا فأدى ما عليه ثم أكل أجرته، ورجل اقتطع نصيبًا من مال مسلم بيمين فاجرة بعد العصر، ورجل باع حرًا فأكل ثمنه»(٥).

= وأبو نعيم وأبو الشيخ بسندين وكلاهما ضعيف (٢/ ٢١٢).

وأورده الهيثمي وقال: رواه البزار عن شيخه عبد الله بن محمد وهو وضاع (٨/ ١٦٤). كما أورده صاحب (الكشف) تحت رقم ١٠٥٥ وقال: ضعيف، والله أعلم.

(١) حديث: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذي، وهو عند البخاري في كتاب (المظالم).

(٢) حديث: «انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذي وهو عند البخاري في باب (المظالم).

(٣) حديث: «المسلم للمسلم كالبنيان»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، ثم شبك بين أصابعه».

أما لفظ: «المسلم للمسلم» فلا أعرفه. والحديث عند البخاري في كتاب (الأدب)، والله أعلم.

(٤) حديث: «المسلمون كالجسد الواحد»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد، وأوله عند مسلم وأحمد: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم»... إلخ. أما أوله عند البخاري فهو: «ترى المؤمنين في توادهم» (كتاب الأدب).

(٥) حديث: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة»... إلخ. أخرجه الجماعة بلفظ غير لفظ الشيخ؛ فهو عند البخاري بلفظ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: رجل =

وقال ﷺ: «أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»[١].

وقال ﷺ: «أنا خصيم من أكل حق أجير».

وفي رواية: «من أكل حق أجير كان الله خصمه، ومن كان الله خصمه أنا خصمه».

ومن واجب الأخوة أيضًا حفظ حرمة المستجير، قال ﷺ: «من استغاث بك فأغثه، ومن استجار بك فأجره».

وفي ذلك يقول الشاعر:

إن الكريم يحلم ما لم يرَ يَنْ   من أجـــاره قـد أُهينا[٢]

وفيه أيضًا يقول السموأل في قصيدته المشهورة: (من بحر الطويل)

فما ضرنا أنا قليل وجارُنا   عزيز وجار الأكثرينَ ذَليلُ

وهذه الخصلة مما يستوى فيه المسلم والمشرك صيانة لذمم الإسلام. قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة:٦]. ولقد بالغوا في ذلك حتى صار أحدهم يحمى الجراد إذا نزل بساحته من أن يستباح حتى يرتحل.

ومن تمام حق الأخُوة الإحسان إلى المملوك، قال ﷺ: «سوء المملكة شؤم».

وقال ﷺ: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك يساء إليه»[٣].

= كان له فضل ماء بالطريق فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها رضى وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذى لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا فصدقه رجل، ثم قرأ: (إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلاً) البخارى كتاب (المساقاة).

(١) حديث: «أعط الأجير حقه»... إلخ. ضعيف رواه أبو يعلى فى مسنده بلفظ: «أعطوا الأجير أجره» وأورده السيوطى تحت رقم ١١٦٤ بهذا اللفظ ورمز له بالضعف، قال المناوى: وبالجملة فطرقه كلها لا تخلو من ضعيف أو متروك لكن لمجموعها يصير حسنا (١/٥٦٣)، والله أعلم.

(٢) البيت مكسور الوزن.

(٣) حديث: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك»... إلخ. ضعيف رواه الطبرانى فى الأوسط بلفظ: «أفضل الصدقة ما تصدق به على مملوك عند ملك سوء».

وقال ﷺ: «إخوانكم خولكم[١] جعلهم الله تحت أيديكم ولو شاء لجعلكم تحت أيديهم فأطعموهم مما تطعمون وألبسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون وإذا كلفتموهم فأعينوهم»[٢].

وكان ﷺ يأمر أصحابه أن يريحوهم في أحد الملوين[٣].

وما ضرب ﷺ مملوكًا بيده إلا أن يكون في حد من حدود الله.

ومن واجب حقوق الأخوة دفع زحوف المشركين عن مدائن المسلمين وثغورهم على قدر الاستطاعة والطاقة، فيكون الدفع حينئذ فرضًا على كل قَرية من قرى الأمة حيث كانت المدينة لا تقوم بدفع الزحف. وقيل: إنما يجب ذلك على الأمراء لوجوب طاعتهم؛ فيجب حينئذ الجهاد والدفع على من دعوه إليه، كما فعل المعتصم بالله في القرن الخامس[٤]؛ وذلك أن نُوفلس ملك الروم أغار على ثغر من ثغور المسلمين فأباد رجاله وسبى نساءه، فسبى علج من أعلاج الروم بنت كبير من كبراء المسلمين، فعنفها؛ فقالت: وامعتصماه، فلطمها وقال: ما يغني عنك المعتصم؟ فلما بلغت كلمتها المعتصم خرج من فوره وهو يقول: لبيك لبيك. فلما أجمع الغزو جاء المنجمون فَقالوا له: لا تغزُ أيها الأمير فإننا نرى عندنا من كتب التنجيم أنك إن غزوتَهم الآن استصعبوا عليك ولم تقدر لهم على شيء! فقال:

= وأورده السيوطي تحت رقم ١٢٦٤ وقال فيه: مالك بدل ملك، وهو الأولى، ورمز له بالضعف.

قال المناوي نقلا عن الهيثمي: فيه بشر بن ميمون وهو ضعيف (٢/ ٣٨)، والله أعلم.

(١) الخول: الخدم والعبيد الذين يتعهدون الأمور.

(٢) حديث: «إخوانكم خولكم» متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والنسائي بألفاظ يزيد بعضها على بعض غير أنها متقاربة، وهو عند البخاري قريب من هذا اللفظ في كتاب (الإيمان)، والله أعلم.

(٣) الملوين: الليل والنهار، ولم أعثر على هذا الأمر الذي هو قول الشيخ: «وكان يأمر أصحابه أن يريحوهم أحد الملوين».

(٤) المعتصم بالله: هو محمد بن الرشيد هارون بن محمد الخليفة العباسي، ولي الخلافة بعد أخيه المأمون عام ٢١٨ وتوفي عام ٢٢٧، والقصة التي ذكر الشيخ وقعت له في مدينة عمورية، وليس هو ولا هي في القرن الخامس الهجري وإنما في أول القرن الثالث. واسم ملك الروم نوفل بن ميخائيل حسب رواية ابن خلدون (٣/ ٢٦٢) والله أعلم.

آمنت بالله وبرسوله وما جاء به مِنْ عند الله وكفرت بالنجوم، فنزل على عمورية، فبذلوا له الأموال على أن ينصرف عنهم، فقال: والله لا رجعت عنها أو أقلع أساسها. فأتاه المنجمون من الروم فقالوا له: انصرف أيها الملك فَإِنَّه ما حاصرها قوم فأدركهم نضج التين والعنب إلا استؤصلوا فأفناهم الطاعون، فقال: آمنت بالله وتوكلت عليه، والله لا أنثنى حتى أستأصلها أو أموتَ دونها. فنزلها حتى خربها وقتل تسعين ألفًا من صناديدها، فَفر وفلس. وسبى المعتصم من الروم ما لا يحصيه العدد بعدما استنقذ ما بأيديهم من سبايا المسلمين وفيهم المرأة التى استغاثت به؛ فأنشأ أبو تمام القصيدة التى مطلعها قوله معرضًا بالمنجمين الذين قالوا له: إنها لا تفتح فى هذا الوقت: (من بحر البسيط)

السيفُ أصدق أَنباءً من الكتب	فى حده الحدُّ بين الجدِّ واللعبِ
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى	متونهن جلاءُ الشك والريب
وَالْعِلْمُ فى شُهبِ الأرماحِ لامعةً	بَيْن الخميسَينِ لا فى السبعة الشهب
أين الروايَةُ بل أيْن النجومُ وما	صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تَخرُّصًا وأحاديثًا ملفقةً	ليست بنبع إذا عدت ولا غَرَب[(١)]
عجائبًا زعموا الأيام مجفلةً	عنهن فى صفَر الأصفار أو رجب
وخوفوا الناس من دهياءً مظلمةً[(٢)]	إذا بدا الكوكب الدرى ذو الذنب
وصيروا الأبرج العُليَا مرتَّبةً	ما كان منقلبًا أو غيرَ منقلبِ
يقضون بالأمْر عنها وهى غافلةٌ	ما دار فى فلك منها وفى قُطبِ
لو بَيَّنَتْ قط أمرًا قَبل موقعه	لم يَخْفَ ما حل بالأوثان والصُّلُبِ
فتح الفتوح تَعالى أن يحيط به	نظمٌ من الشعر أو نَثْرٌ من الخُطَبِ

(١) النبع: شجر ينبت فى أعالى الجبال مشهور بالصلابة. والغرب بالتحريك: نبت ينبت على الأنهار ليس له قوة. والمعنى أن هذه الأحاديث الملفقة ليست قوية كالنبع بل ولا ضعيفة كالغرب بل هى لا شىء، وهذا النوع معروف فى وصف الشىء بالعدم، والله أعلم.

(٢) فى (ب): دهياء داهية بدل مظلمة، وكذلك الكوكب الدرى بدل الغربى الموجودة فى الدواوين المطبوعة.

فتح تَفَتَّحَ أبوابُ السمــاء له ... وتَبرزُ الأرضُ فى أثوابهـا القُشُبِ[١]

يا يوم وقعة عمورية انصرفتْ ... عنك المنى حفلاً معسولةَ الحلب

أبْقَيْتِ جدَّ بنى الإسلام فى صعُـد ... والمشركين وجـدَّ الشرك فى صبَبِ[٢]

لما رأى الحربَ رأى العينِ نُوفَلَسٌ ... والحربُ مشتقة المعنى من الْحَربِ

غـدا يصرف بالأموال خُزْيَتها ... فَغَرَّه البحر ذو التيـار والعبَبِ

هيهاتَ زُعزعت الأرضُ الوقُورُ به ... من غزو محتسب لا غزو مكتسب

لم ينفق الذهب الْمُربى بكثرته ... على الحصى وبه فقر إلى الذهــب

إن الأسودَ أسودَ الغاب همتُها ... يوم الكريهة فى المسلوب لا السلَبِ

ولّى وقَد ألجم الخَطِّيُّ منطقَـهُ ... بسكتة تحتها الأحشاء فى صخب

أحْسى قرابينه صرف الردى ومضى ... يحث أنجى مطاياه من الرعب[٣]

موكلاً بيفَـاع الأرض يذْرعها ... من خيفة الموت لا من خفة الطرب[٤]

إن يَعدُ منْ حرها عَدْوَ الظليم فَقَدْ ... أوسعتْ جَاحِمَهَا من كثرة الحطب[٥]

تسعون ألفا كآساد الشرى نضجتْ ... جلودهم قبل نضج التين والعنب

«ومن الأخوة ما هو على دخل، وهى أخوة اللئام والمنافقين، وفى المثل: كن بذوى القرابة شديد الاسترابة، فالمدخر الشفيق لا الشقيق، والمعتبر الوداد لا الولاد» معناه: كن كثير ظن السوء فى جميع أقاربك، ولا تطمئن إلى أحد من أبنائك فضلاً عن إخوانك. وهذا مثل قول الطغرائى رحمه الله تعالى[٦]: (من بحر البسيط)

(١) القشب: جمع قشيب: الجديد النظيف الأبيض.

(٢) فى النسخ المطبوعة من الديوان: (ودار الشرك) بدل (وجد الشرك).

(٣) فى (أ): (أحفى) بدل (أحسى)، و (يحثحث) بدل (يحث)، ومن الهرب بدل الرعب.

(٤) اليفاع: المرتفع من الأرض. والبيت فى ديوان أبى تمام هو:

موكلاً بيفـاع الأرض يشرفـه ... من خفة الخوف لا من خفة الطرب

(٥) الجاحم: الذى يوقد النار.

(٦) الطغرائى: هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن على الملقب بمؤيد الدين المشهور بالطغرائى المتوفى=

أعـدى عـدوك أدنى من وثقت به فحاذر الناس واصحبهم على دخل

ومثله قول الآخر: (من بحر البسيط)

العجز ضر وما بالحزم من ضرر وأحزم الحزم سوء الظن بالناس

وفى ذلك يقول ذلك النبى ﷺ: «اللهم إنى أعوذ بك من إخوان العلانية أعداء السر».

وقال على كرم الله وجه: الحزم سوء الظن بالناس؛ لأن أكثر الناس المنافقون واللئام وأقلهم الأصفياء الكرام لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤].

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

صحبت الناس جيلا بعد جيل فلم أر غير مختـال وقـالِ

وقالت الخنساء بنت عمرو بن الشريد: (من بحر البسيط)

تَرى الأمور سواءً وهى مقبلة وفى عواقبها تبيان ما التبَسا

ترى الجليس يقول القول تحسبه نصحًا وهيهات ما نصحا به التمَسا

فَجالسنْـهُ ولا تأمَنْ غوائلَه والبس له ثوب غل مثلما لبسا

فاسمع مقالته واحذر عداوته، فغايةُ ما يجتنى من صحبة اللئام والمنافقين السلامةُ من شرهم وغوائلهم كما أنه لا يجتنى من القتاد إلا الشوك كذلك صحبتهم.

وأخُوتُهم ليست لها عاقبة تحمد كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ فى التحذير من خلطتهم وأخوتهم وأمره بتجنبهم وعدم مصافاتهم: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون:٤].

وفى مثلهم يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

تَخذْتُهمُ سهامًا للأعـادى فكانوها ولكن فى فؤادى

وقَالوا قَد صفَتْ منا قُلوبٌ نعم صدقُوا ولكن من ودادى

= سنة ٥١٣ من قصيدة له تعرف بلامية الطغرائى، وأولها:

أصالة الرأى صانتنى عن الخطل وحلية الفضل زانتنى لدى العطل

وهى طويلة ومليئة بالحكم، وتسمى لامية العجم.

فلما خفت شرهمْ رَمْينا صحيح القرب منهم بالبعاد

وحقيقة الأخوة على دخل هو أن تكون أخوتهم منعقدة على الأغراض، ومموهة على الأمراض، إن وجد من أخيه ما أحب وما هوى شكر، وإن رأى غير ذلك يومًا ما أنكر ثم كفر؛ وفى مثلهم يقول الله تعالى: ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨].

وقال رسول الله ﷺ: «شر الناس عند الله منزلة من صحب إمامًا على دخل إن أعطاه من الدنيا رضى وإن لم يعطه سخط».

وفى مثلهم يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

إن يَسمعوا سُبَّةً طاروا بها فرحًا مِنِّى وما سمعوا من صالح دفنوا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

أرى كل إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الذى هو فيه

فلا خير فيمن لا يرى عيب نفسه ويَنْسِبُ عيبًا باطلاً لأخيه

ومثالب إخوان السوء لا تحصى، لا جعلنا الله منهم، ولا جعلهم إلينا.

* * *

• قال الناظم رضى الله عنه، آمين:

٦٣ ـ وَأَهْلَ اللَّخَا اهْجُرْ واللِّخَاء اتَّبِعْ بِهِ وَخَا السَّلَفِ المَرْضى مِنْهُ وِخَاءُ

قوله: أهل اللخا، بالقصر والفتح: كثرة الكلام بالباطل. والزم اللخاء، بالكسر والمد: أى العطاء فى ذات الله وما يصون العرض والمروءة، ويقال: والموافقة والمحالفة بالحاء المهملة. قوله: اتبع بها سبيل السلف الصالح، وهو وخا، بالقصر والفتح: أى ما يرضى منه. وخاء، بالمد والكسر: أى مؤاخاة ومصافاة

وهذا البيت تتميم للبيت قبله، وهو من باب التضمين المجازى؛ لأنه حض على الكرم بقوله: الزم اللخاء، بالمد: تلميحًا لقوله ﷺ: «شر الناس ثلاثة: غنى بخيل، وشيخ فاسق، وفقير متكبر».

وقال على كرم الله وجهه: الملك البخيل شر من الغنى البخيل؛ لقوله ﷺ:

«أبخل الناس من بخل بمال غيره»، وهو الملك، كما قال الشاعر فى الجناس: (من المتقارب)

إذا ملك لم يكن ذا هبه فدعــه فدولتـه ذاهبـه

وقال غيره: (من بحر الطويل)

فلا تجمع الأمـوال إلا لبذلهـا كما لا يساق الهدىُ إلا إلى النحر

وقال ﷺ: «خلق الله أربعا لأربع: خلق المال للإنفاق لا للإمساك، والولد للموت لا للبقاء، والبناء للخراب لا للدوام، وخلق العلم للعمل لا للتعلم».

يروى أن عزرائيل عليه السلام يصيح كل يوم بأهل الدنيا: لدوا للموت وابنوا للخراب.

والبذل منه محمود ومذْموم؛ فالممدوح منه ما أفاد أجرًا، أو أكسب ذكرا، أو صان عرضا، وأصلح فرضا. والمذموم منه ما كان سرفًا، وأدى إلى تلف؛ فلا هو مأجور ولا عند الله مشكور. قال الله تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

وليس التبذير بكثرة البذل، وإنما التبذير ما كان لغير الله وإن قَل، أو وضعه فيغير موضعه. وأما ما كان لله وفى موضعه فليس بتبذير وإن أتى على جميع المال.

كان أبو بكر رضى الله عنه يتجرد من ماله مرارًا فلم ينكر ذلك عليه رسول الله ﷺ، بل باهى الله به ملائكته من فوق سبع رقَاع[1]، وقد تخللت الملائكة يومئذ لتخلله غبطة بما صنع، لكن من لم يكن فى اليقين كأبى بكر ينبغى له أن يبقى لورثته كما قال النبى ﷺ لأبى لبابة لما تيب عليه فقال: إن من توبتى يا رسول الله أن أنخلع من جميع ما أصبحت فيه فقال ﷺ: «لا تفعل بل تصدق بالثلث والثلث كثير؛ فلأن تترك ورثتك أغنياء خير من أن تتركهم عالة يتكففون النَّاس»[2].

---

(١) الرقاع: السماوات.

(٢) حديث «الثلث والثلث كثير»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأحمد وابن ماجه إلا أنهم رووه فى قصة سعد بن أبى وقاص لا فى أبى لبابة، والله أعلم.

ومن أحسن ما قيل فى الكرم ومكارم الأخلاق والإقدام ما رثى به أبو تمام حبيب بن أوس الطائى ابن حميد بن مخطبة الأزدى عشيرته فقال: (من بحر البسيط)

عهدى بهم تستنير الأرض إن نزلوا ... بها وتَجتَمع الدنيا إذا اجتمعوا

ويضحك الدهر منهم عن غطارفة ... كأن أيامهم من حسنها جمع[1]

يوم النُّبَاجِ لقد أبقيتَ بَائجةً ... أحشاؤنا أبدًا من ذكرها قِطَعُ[2]

من لم يعاين أبا نصرٍ وقاتله ... فما رأى ضَبُعًا فى شدقها سَبُعُ

فيم الشماتةُ إعلانًا بأسد وغى ... أفناهم الصبرُ إذ أبقاكم الجزع

لا غَرْوَ إن قتلوا صبرًا ولا عجبٌ ... فالقتل للحر فى حكم العلا تَبَعُ

ومن ذلك النمط قول أبى تمام أيضًا فى مرثية محمد بن حميد إذ يقول: (من بحر الطويل)

وقد كان فَوْتُ الموت سهلاً فَرَدَّهُ ... إليه الحفاظُ المرُّ والخُلُق الوعْرُ

ونفسٌ تعافُ العارُ حتى كأنَّما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر

فأثبتَ فى مستنقع الموت رجلَه ... وقال لها من تحت أخْمَصِكِ الحشرُ[3]

ومن ذلك قول الحارثى: (من بحر الطويل)

ولا يكشف الغَمَّاء إلا ابنُ حرةٍ ... يرى غمراتِ الموت ثم يزورها

نقاسمهم أسيافَنا شرَّ قسمةٍ ... ففينا غواشيها وفيهم صدورها

ومن ذلك قول مسلم بن الوليد يمدح ابن مزيد الشيبانى: (من بحر البسيط)

يفتر عند افترار الحرب مبتسمًا ... إذا تغير وجه الفارس البطلِ

وقول الآخر: (من بحر الوافر)

---

(١) الغطارفة: جمع غطريف، وهو السيد الشريف.

(٢) البائجة: الداهية.

(٣) الأخمص: ما لا يصيب الأرض من باطن القدم.

تراه وأوجه الأبطال سود ... يضيء كأنه قمر منيرُ

ومن هذا النمط قول أبى الطيب المتنبى يمدح سيف الدولة: (من بحر الطويل)

وقفتَ وما فى الموت شك لواقف ... كأنك فى جفن الردى وهو نائمُ

تَمُرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً ... ووجهك وضاح وثغرك باسم

وقال حاتم بن عبد الله الطائى: (من بحر الطويل)

أضاحك ضيفى ثم أحمل رحله ... فيخصب عندى والمكان جديب

وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى ... ولكنما وجه الكريم خصيب[1]

ويذمون بضد هذا، قال الأشتر النخعى: (من بحر الطويل)

فأبقيتُ وفرى وانحرفت عن العلا ... ولاقيت أضيافى بوجه عبوس

ونظيره قول الفرزدق: (من بحر الطويل)

لقد خنتَ قومًا لو لجأت إليهم ... طريدَ دمٍ أو حاملا ثقل مَغْرَمِ

لألفيتَ فيهم معطيا أو مطاعنًا ... وراءك شزرًا بالوشيج المقوم

وفى البيت اللف والنشر المعكوس. ومن هذا النمط قول أبى الطيب يمدح شجاع بن محمد الطائى: (من بحر الكامل)

وصن الحسام ولا تذله فإنه ... يشكو يمينك والجماجم تشهد

يبس النجيع عليه وهو مجرد ... من غمده فكأنما هو مغمد

ومنه أيضًا قول أبى الطيب يمدح الأمير محمد بن إسحاق التنوخى فقال: (من بحر الطويل)

---

(١) فى النسخة (أ):

* ولكنما وجه الكريم للأضياف خصيب *

والبيت معه لا يستقيم.

والبيت الأول فى العقد الفريد هو:

أضاحك ضيفى قبل إنزال رحله ... ويخصب عندى والمحل جديب

(١/ ٢٣٦).

يزور الأعادى فى سماء عجاجةٍ   أَسِنَّتها فى جانبيها الكواكبُ
فتسفرَ عنه والسيوف كأنما   مضاربُها مما انفللن ضرائب
طلعن شموسًا والغمود مشارق   لهن وهاماتُ الرجال مغارب

وقد سبقه إلى ذلك على بن محمد الحمانى حيث قال: (من بحر المتقارب)

وإنّا لتصبحَ أسيافنا إذا ما   انتضين ليوم سُفُوكْ
مطالعهن بطون الأكف   وأغمادهن رؤوس الملوكْ

ومن أحسن ما قيل فى الهمة واستصغار الأمور العظام وإن كانت عظيمة فى أنفسها، وذلك غاية المدح، وإنما يمدح به الرؤساء، كقول دريد بن الصمة يذكر قتل ربيعة بن مكدم الكنانى لأصحابه بوادى الخزامى: (من بحر الكامل)

أردى فوارسَ لم يكونوا نهزة   ثم استمر كأنه لم يفعل[1]
متَهللا تبدو أسرة وجهه   مثل الحسام جلته كفُّ الصيقل

ومن أحسن ما قيل فى علو الهمة أيضًا والإقدام على الأمور العظام قول الصابئ بن الحارث البرجمى: (من بحر الطويل)

سأغسل عنى العار بالسيف جالبا   علىَّ قضاءُ الله ما كان جالبا
وأذهل عن دارى وأجعلُ هدمَها   لعرضى من باقى المذلة حاجبا
ويصغر فى عينى تِلادى إذا انثنت   يمينى بإدراك الذى كنت طالبا
عليكم بدارى فاهدموها فإنها   تراث كريم لا يخاف العواقبا
أخى عَزَماتٍ لا يريد على الذى   يهم به من مفظع الأمر صاحبا
إذا همَّ الفتى بين عينيه عزمه   ونكّب عن ذكر العواقب جانبا[2]
إذا هم لم تردع عزيمة همه   ولم يأت ما يأتى من الأمر هائبا
ولم يستشر فى أمره غير نفسه   ولم يرضَ إلا قائم السيف صاحبا

---

(١) النهزة: الشيء الذى لك معرض كالغنيمة.
(٢) هذا البيت لا يستقيم وزنه.

ومن ذلك أيضًا ما مدح به الفرزدق يزيد بن المهلب بن أبى صفرة العتكى ثم الأزدى فقال: (من بحر الكامل)

وإذا الرجـال رأوا يزيد رأيتهم خضعَ الرقاب نواكسَ الأبصارِ
إنى رأيت يزيد عنـد شبابه لَبِسَ التقى ومهـابة الجبار
مَلِكٌ عليـه مهـابة الملك التقى قمر التَّمـام به وشمس نهـار
مَهَدَت جيـاد يزيد كل مدينـة بيـن الردوم وبيـن نخـل وبار
شعث موسومـة على أكتافهـا أسـد هـواصر بالكرام ضوار[1]
يدنى خوافق من خوافق تلتقى فى ظل معترك العجـاج مثار

* * *

• **ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:**

٦٤ ـ وَكُنْ ذَا رَدًى لا فى رِدَاءٍ وَلاَ أذًى وَحِدْ عَنْ دنًا لاَ يَدْنُ مِنْكَ دِنَاءُ

قوله: كن ذا ردى: صاحب ردى، بالقصر والفتح: أى زيادة. لا فى رداء، بالكسر والمد: أى دَيْن، وبه فسر قول على رضى الله عنه: من أراد النساء ولا نساء فليباكر بالعذراء وليخفف الرداء، وليقلل غشيان النساء. أى: كن صاحب زيادة فى غير الدين والأذى لا فيهما؛ لأن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من المغرم والمهرم. قيل: يا رسول الله، ما لنا نسمعك كثيراً ما تتعوذ من المغرم؟ قال ﷺ: إذا غرم الرجل كذب فخان، ووعد فأخلف»

وكان يقول: «الدين هم ولو كان درهمًا»[2].

وقال أيضا: «الدين رق فاختر من يرقك».

---

(١) سقط من النسخة (أ) بيت بعد هذا البيت وهو فى النسخة (ب):

ما زال مذ عقدت يداه إزاره فسما فأدرك عشرة الأشبار

(٢) حديث «الدين هم ولو كان درهما»: رواه الديلمى والطبرانى بلفظ (الدين ولو درهم، والعائلة ولو بنت، والسؤال ولو كيف الطريق).

وأورده السخاوى فى المقاصد له تحت رقم ٥٠١ وقال: لا أستحضره فى المرفوع ومعناه صحيح، والله أعلم.

وقال ﷺ: «من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله»[١].

وفى اصطلاح القوم: الدَّين شين الدين. ويقولون: الدين سبب البين، وجالب المين، وعادية الرين[٢].

نعم حمل الدين لا يذم على الإطلاق؛ لأنه قَل من ماتَ من السلف إلا وذمته عامرة من الديون؛ فإن عمر رضى الله عنه ماتَ وعليه أربعون ألفًا، فلما احتضر أرسل إلى ابنه عبد الله فقال له: أى بنى إنه على من الديون أربعون ألفًا لم أتحملها سرفًا ولا تشهيًا، وإنما كنت أعطيها للوفود، وأجعلها فى مصالح المسلمين، فإذا أنا متُّ فاقضها من أموال آل الخطاب، فإن لم يكن فى أموالهم وفاء بالدين فسل فى بنى عدى ولا تسأل غيرهم؛ فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المرء مرتَهن بدينه» إلا أنى سمعته يقول: «من مات وهو يحسن النية فى أدائه ولم يترك وفاء أدى الله عنه يوم القيامة».

وكان ﷺ يسأل عن الميت: هل عليه دين؟ قيل: نعم، انصرف، وقال: صلوا على صاحبكم. وإن قيل له: لا، صلى عليه. وذلك فى صدر الإسلام، فلما فتح خيبر واليمن صار يقول: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كان عليه دين فعلى قضاؤه، ومن ترك مالاً فهو لورثته» فيصلى على صاحبْ الدين وغيره[٣].

وكانت عائشة رضى الله عنها لا تقضى دينا إلا حملت مثله؛ فقيل لها فى ذلك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استدان دينًا فى غير إسراف لم يزل فى ذمة الله حتى يقضيه، وأحب أن أكون فى ذمة الله»[٤].

---

(١) حديث «من أخذ أموال الناس يريد أداءها»... إلخ. صحيح أخرجه البخارى فى كتاب الاستقراض، وابن ماجه بهذا اللفظ، والله أعلم.

(٢) الرين: الوسخ.

(٣) حديث «كان ﷺ يسأل عن الميت»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى، وهو عند البخارى فى كتاب الحوالات.

(٤) حديث «من استدان دينا»... إلخ. رواه أحمد والطبرانى فى الأوسط، وأوله عندهما: «من أدان» بدل «استدان»، وسكت عليه العراقى فى تخريج الإحياء ٢/ ٨٣».

يروى أن رجلا من الأنصار جاء إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله، إنه قد ركبنى من الدين ما أثقل ظهرى فهل من حيلة؟ فقال له ﷺ: هلم أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن قضى الله عنك دينك ولو كان مثل أحد ذهبا: قُل إذا أمسيت وإذا أصبحت: اللهم فارج الهم كاشف الغم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمنى فارحمنى رحمة تغنينى بها عمن سولك[1].

ولم يمكث إلا قليلاً حتى أتى النبى ﷺ فقال له: إن الله قد قضى دينى ووسع على.

وكان ﷺ كثيرًا ما يقول: «اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال»[2].

قوله: وجد: ' ى مل عن دَنِيّ، بالفتح والقصر: أى عن قلة وإقتار.

قال ﷺ: «جهد من مقل كثير».

وفى مثل ذلك أنزل الله قوله فى مدح أبى طلحة وزَوجته وجميع الأنصار: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] فذلك أدل دليل على سماحة النفس والكرم الغريزى.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ليس العطاء مِن الفضول سماحةً حتى تجــود ومـا لديك قليلُ

قوله: لا يدن منك دناء، بالكسر والمد: جمع دنا، وهذا دعاء للمخاطب أو هو نفسه؛ لأنه جرد من نفسه شخصًا بأن لا يقرب من دنا؛ لأن قرب الدنا فضلا عن الدناء يورث الدناءة، فحينئذ يخلع جلباب الحياء عن وجهه فلا يبالى بما ارتكب ولا ما اكتسب، فيمتطى برذوناً لا أبالى فما هو فى المعالى المتوسط ولا التالى، فيخسر مع الخاسرين، ويرتبط بربقة المارقين.

---

(١) حديث «اللهم فارج الهم»... إلخ. روى الترمذى آخره وقال: حسن غريب، وأوله عنده: «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك».

(٢) حديث «اللهم إنى أعوذ بك من الجبن والبخل»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان مع اختلاف كبير فى الألفاظ.

قوله: ولا أذى: عبارة عن الغمز واللمز والهمز، وهى أخلاق الخبثة الضعفة من المنافقين واليهود ومن لا خلاق له من فسقة المسلمين.

قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي﴾ الآية [الصف: ٥].

وكان ﷺ إذا أوذى فى الله قال تأسيًا وتسليمًا: «رحم الله أخى موسى لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر»(١).

وبالجملة فلما كان الدَّين ركنًا من أركان العمارة ولم يكن للناس بد منه اعتنى الله تعالى بأمره فى كتابه فقال: ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم قال: ﴿وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ثم قال: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وذلك كله حسمًا للنزاع، وقطعًا للدفاع؛ رحمة من الله وعناية لهذه الأمة الشريفة، ثم لما خيف الحرج وسع فقال: ﴿إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا﴾ [البقرة: ٢٨٢] ولا تشهدوا عليها. ثم حض عبادهُ على الصدق والوفاء وأداء الأمانة والنصح وعدم الكتمان بقوله: ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٣]، ﴿وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٢٨٢]. ثم قسم الغرماء فجعلهم ثلاثة أصناف: صنف لا غرم عليه ولا أداء، وصنف أمر بإنظاره، وصنف أمره بالأداء من غير تأخير ولا إنظار:

فالأول: الفقير المعدم، قال الرسول ﷺ: «لا غرم على معدم».

الثاني: المعسر، فإن الله ورسوله أمرا بإنظاره والتوسعة عليه، قال الله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال ﷺ: «من أنظر ذا عسرة خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، وصلت عليه ملائكه الرحمن، وكان فى ذمة الله ما بقى بذمة غريمه درهم من دينه»(٢).

---

(١) حديث «رحم الله موسى لقد أوذى»... إلخ. متفق عليه، وهو عند البخارى فى كتاب الأدب.

(٢) حديث «من أنظر ذا عسرة»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، نعم، روى أحمد ومسلم: «من أنظر معسرًا أو وضع عنه أظله الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله» وهو جزء من حديث طويل.

الثالث: الغنى، قال ﷺ: «مطل الغنى ظلم»[١] والظالم أحق أن يحمل عليه حملنا الله على أقوم سبيل بفضله، آمين.

* * *

● **قال الناظم:**

٦٥ - وَكُنْ كَأَبًا فى الله نَاء إِبَاؤُهُ ذَرَاهُ نَجا جَادَتْ عَلَيْه نِجَاءُ

قوله: كأبًا: أى مثل أبا، بالفتح والقصر، وهذه لغة شاذة؛ لأن الأسماء الخمسة أوجه الإعراب فيها بالحروف لا بالقصر إلا بشرط الإضافة، وإنما سمع قول من قال بقصرها على لغة هذيل لاستدلاله بالبيت وهو قوله:

إن أباها وأبا أباها قد بلغا فى المجد غايتاها

أى كن على عباد الله فى الله موصوفًا بالشفقة والرحمة، كما أن الأب كذلك على بنيه. قوله: ناء: أى بعيد، ونأى: أى بعد إباؤه، بالمد والكسر: أى بعد امتناعه، أو نأت داره أو مكانه الذى يستقر فيه لأجل شفقته عليهم وكف أذاه عنهم. قال ﷺ: «تزاوروا ولا تجاوروا»[٢].

وفى المثل: المجاورة تورث المحاورة وما جمعت عمد إلا تقعقعت[٣] قوله: ذراه: أى كنفه ومأواه. نجا، بالفتح والقصر: أى شجرة دحداحة[٤] لاكتفائه باليسير ولتعففه عن المطاولة والبنيان.

قال ﷺ: «لن تقوم الساعة حتى ترى الحفاة العراة العالة[٥] من أهل البادية يتطاولون فى البنيان»[٦].

(١) حديث «مطل الغنى ظلم» متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى والنسائى، وفى لفظ البخارى: «وإذا أتبع أحدكم على ملىء فليتبع». (كتاب الحوالات).

(٢) «تزاوروا ولا تجاوروا» لم أجده من كلام النبى ﷺ.

(٣) تقعقعت: تفرقت وارتحلت أو اصطدم بعضها ببعض.

(٤) الدحداحة: القصيرة.

(٥) العالة: الفقراء.

(٦) حديث «لن تقوم الساعة. . . .إلخ» حديث متفق على صحته رواه الشيخان وباقى الجماعة بألفاظ مختلفة ومتقاربة أحيانًا. وهو حديث طويل، وهذا جزء منه عند بعضهم، وهو عند البخارى فى كتاب الإيمان، وأوله: «كان ﷺ يومًا بارزا للناس فأتاه رجل فقال: ما الإيمان». . . إلخ.

ويطلق النجا أيضًا ويراد به جمع نَجاة وهى الغصون الناعمة. قوله: جادت عليه، أى على ذلك النجا الذى هو ذرى الأبا. نجاء، بالكسر والمد: أى صبت عليها سحابة، وواحد النجاء نجوا، وهو الذى نماؤه من السحاب.

أى: لتكن شفيقًا على خلق فى الله بمثابة الأب من ولده، واعتزلهم من الشفقة عليهم، واقتصر على ما لا بد منه مما يواريك من الحر والبرد كأغصان الأشجار التى أصابتها الأمطار. قال الشاعر:

والفتى ظاعن ويكفيه ظل السِّدْ ... رعن ضربَ أطنــاب وأوتَادِ

وقال غيره: (من بحر الطويل)

أما كان فى ظل الأراك كفاية ... لمن كل يوم يقتضيه رحيل

وقال أبو العتاهية للمنصور لما استنْشده حين أتم بناء قصره المشهور الذى لم يبنَ مثله فى المعمور وقد جمع عليه ندماءه، فقال له بديهة: (من مجزوء الكامل)

عش ما بدا لك آمنًا ... فى ظل شامخة القصور

يُجْبَى إليــك نَعيمُهـا ... بعد العشى وفى البكورْ

قال له: قد أحسنت، ثم قال له:

فَإذا النفــوس تحشرجت ... يومًا وضاق بها الصــدور

أيقنـــت أنــك لم تَـزل ... من طول عمرك فى غرور

وقال عدى بن زيد بن عمر فى التزهيد فى الدنيا وتحقير شأنها والكفاية باليسير منها فقال: (من بحر الخفيف)

أيهــا الشامــتُ المُعيِّـر بالدهـ ... ـر أأنت المُبَرَّأُ الموفُـــورُ

أم لديك العهد الوثيق من الأيـ ... ـامِ بل أنت جاهــل مغرور

من رأيــت المنــون خَلَّيْنَ أم ... مَن ذا عليه من أن يُضامَ خفيرُ

أين كسرى كسرى الملوك أنوشِرْ ... وان أم أيـن قبله سابـور؟

وبنو الأصفر الكـرام ملـوكُ الر ... وم لم يبق منهـمُ مذكــور

وأخو الحضر[١] إذا بناه وإذ دجـ	ـلةُ تُجْبَى إليـه والخـابور
شـاده مرمـرًا وجلَّلَـهُ كلـ	ـسًا فللطير في ذَرَاهُ وُكـور
لم يهبـه ريب المنـون فبان الْـ	ـملك عنـه فبابه مهجـور
وتذكرْ ربَّ الخورْنق إذ أشـ	ـرف يومًا وللهـوى تذكير[٢]
سره مـالُه وكثرةُ مـا يمـ	ـلكُ والبحرُ معرضًا والسـديرُ
فارعوى قلبُه وقال فما غِبْـ	ـطةُ حيٍّ إلى الممات يصير؟
ثم بعـد الفـلاح والملك والنعـ	ـمة وارتْهُمُ هنـاكَ القبـور
ثم أضحـوا كأنهم ورقٌ جَـ	ـف فألوتْ به الصَّبا والدَّبـور

وقد ذكر أبو الفرج الأصبهاني وغيره من أهل الأخبار حكاية عجيبةً وقعت للنعمان بن امرئ القيس مع رجل من الراضمة، وهم قوم زُهاد لا يخلي الله الأرض منهم، وهم القائمون له بالحجة، وهي التي أشار إليها زيد بن عمرو بن نفيل بقوله:

وتأمل رب الخورنق .... البيت

وذلك أنه لما بنى الخورنق، وهو قصر له على دجلة، وبين يديه السدير، وهو نهر آخر عن يمينه، والبساتين تخترقها جداول المياه كأنها أراقم[٣] مسيرة ستة أميال من كل ناحية، وكان الذي بناه له هو سنمار الرومي، فلما أكمل بناءه بعد عدة سنين، جاءه النعمان فتأمله فأعجب به غاية الإعجاب فلما رأى سنمار إعجابه به قال له: أيها الملك، والله لو شئت لبنيت أحسن منه، وإن في طوقي أن أبني قصرًا يدور مع الشمس كيفما دارت؛ فأمر به فقذف من فوق القصر، فمات، فضربت العرب مثلا فيمن أحسن إلى غيره وأساء إليه. قال سليط بن سعد التميمي: (من بحر البسيط)

---

(١) في (أ): الخضر، وفي (ب): القصر. وفي الأخبار والعقد: الحضر، بالحاء والضاد: وهو حصن عظيم كان على شاطئ الفرات بناه ساطرون من أجداد النعمان بن المنذر.

(٢) أورد ابن عبد ربه هذا البيت فقال: (وتبين) بدل (وتذكر)، و(للهدى) بدل و(للهوى).

(٣) الأراقم: جمع أرقم: الثعبان.

جزى بنوهُ أبا الغيلان عن كبر　　　وفعل خير كما يجزى سنمَّارُ

وقال غيره يذكر رجلاً أحسن إليه فأساء إليه الرجل: (من بحر الطويل)

جزاني جزاه الله شر جزائه　　　جزاء سنمار وَمَا كان ذا ذنب

سوى رصد البناء عشرين حجة　　　يعالى عليه بالقراميد والسكب

ثم لبث بعد ذلك ما شاء الله أن يلبث، فصعد يومًا إلى أعلى الخورنق ومعه قوم من خاصته ومعهم رجل من الراضة، فأشرف نحو المشرق، فرأى ما يعجبه من كثرة الأشجار وجداول تخترقها من تلك الأنهار، ثم نظر إلى الشمال فرأى مثل ذلك، ثم نظر إلى المغرب فرأى مثل ذلك، ثم نظر إلى الجنوب فرأى مثل ذلك، فسره حسن ذلك وترتيبه وكثرته وما أمد به من بحر دجلة ونهر السدير كما أشار إلية عدى بقوله:

سره ماله وكثرةُ ما يمـ　　　ـلك والبحر معرضًا والسدير

فقال لخواصه: لمن هذا كله؟ قالوا: إنه للملك أدام الله سروره ووالى عليه حبوره، فقال لهم: هل رأيتم من ملك مثله؟ قالوا: لا أيها الملك، قال: وهل سمعتم أن أحدًا أعطى مثل ما أعطيتُ؟ قالوا: لا أيها الملك، فقام إليه الرجل فقال له: أيها الملك قد سألت عن أمر أفتأذن لى فى الجواب عنه؟ فقال له: نعم، قال: أرأيت ما أنت فيه أشيء لم تزل فيه؟ أم هو شيء صار إليك ميراثًا من غيرك؟ وهو زائل عنك وصائر إلى غيرك كما صار إليك منه؟ فقال: فكذلك هو، قال له: كيف عجبتَ بشيء يسير تقيم فيه قليلا وتغيب عنه طويلا وتكون غدًا بحسابه مرتهنًا؟ قال: ويحك فأين المهرب؟ وإلى أين المطلب؟ قال له: إما أن تقيم فى ملكك وتعمل بطاعة ربك على ما ساءك وسرك ومضك وأرمضك[1] وإما أن تضع تاجك وتضع على ظهرك أطمارك[2] وتلبس أمساحك[3] وتعبد ربك فى هذه الجبال حتى يأتيك أجلك. قال فإذا كان السحر فاقرع على بابى فإنى أختار أحد الأمرين،

(١) أرمضك: أوقعك فى الرمضاء: التراب الحار.

(٢) الأطمار: الثياب البالية.

(٣) المسوح: نسيج من الشعر يلبس على البدن تقشفًا.

فإن اخترت ما أنا فيه كنت وزيرًا لا تعصى، وإن اخترت السياحة كنت رفيقًا لا يخالف. فلما كان وقت السحر قرع عليه بابه فإذا هو قد وضع تاجه ولبس أمساحه وتهيأ للسياحة، فلزما الخلوات ورفض الشهوات حتى ماتا، كما أشار إليه عدى بقوله:

فارعوى قلبه وقال فما غبطةُ حى إلى الممات يصير

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧].

يروى أن النبى ﷺ وعظ أصحابه يومًا فقال لهم: «الدنيا قليل، ولم يبق منها إلا قليل ذهب صفوه وبقى كدره؛ فلا يفتننكم قليل ذهب صفوه عن كثير دائم كله صفو». ويكفى من عظمة نعيم الآخرة أن سماه الله كبيرًا فقال: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الدهر: ٢٠] وأنت وشيك الارتحال إليه، سريع الانقلاب إليه.

يروى أن النبى ﷺ قال: «إن المؤمن ليؤاجر على كل نفقة ينفقها فى غير رياء ولا سمعة إلا ما أنفقه فى الماء والطين»(١) يعنى البنيان.

وقال ﷺ: «إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ملك من السماء فقال له: إلى أين تريد يا طاغى»(٢).

فإن قلت: الماء والطين منهما المساجد والرباطات، وقد وردت آثار صحاح فى الثواب عليها، فهل بين الخبرين معارضة؟

قلت: لا؛ لأن المساجد والرباطات من العمل لله والدار الآخرة بخلاف ما

---

(١) حديث «إن المؤمن ليؤاجر»... إلخ. حسن رواه ابن ماجه بلفظ: «كل نفقة العبد يؤجر عليها إلا ما أنفقه فى الماء والطين». وفيه: «إلا فى التراب».
قال العراقى فى تخريج الإحياء: إسناده جيد (٤/ ٢٣١).

(٢) حديث «إذا بنى الإنسان فوق سبعة أذرع ناداه ما لك»... إلخ. موضوع أو ضعيف جدًا.
أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٣/ ٧٥) بلفظ: «إذا بنى الرجل المسلم سبعة أو تسعة أذرع ناداه مناد من السماء: أين تذهب يا أفسق الفاسقين».
وآفته تفرد الوليد بن موسى القرشى به وهو ضعيف، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٧٤ وقال: موضوع والله أعلم.

سواهما من بناء الدور والقصور المؤدين للمفاخرة، والإخلاد إلى العاجلة وإتلاف مال الله فى غير فائدة ولا عائدة.

واختلف فيما كان للتحصن من العدو، فقال قوم: يثاب عليه؛ لأنه من باب الرباط لعموم المنفعة. وقال آخرون: إنما قصاراه أن لا يكون فيه محذور، كما لو كان فى قصر من بلاد السيبة يكثر فيه النقب والتسور والفساد؛ فإنه ينبغى أن يبنى ويحكم ويرص بنيانه حتى يأمن ساكنه على نفسه وماله، إذ يكون ذلك حينئذ من باب حفظ النفس والمال الواجب حفظهما، فيجازى عليه إن عرى من قَصد المفاخرة، وإلا فمكروه.

وأما البناء على القبور وزخرفتها فحرام إن كان من أجل المفاخرة وإلا فمكروه.

وأما بُناء الفنادق للفقراء وابن السبيل فما وقفت على نص فى ذلك صحيح أو صريح إلا أنه ينبغى أن تكون من أعمال البر إن صحت نية بانيها.

وأما المساجد فقد وردت فيها آثار جمة بأسانيد مختلفة؛ منها ما أخرجه البيهقى من طريق أبى أمامة أن النبى ﷺ قَال: «من بنى لله قَدر مفحص قطاة يصلى فيه بنى الله له بيتًا فى الجنة»[1].

وقال ﷺ: «شرفوا بيوتكم، واجعلوا مساجدكم جماء»[2].

وكان ﷺ أول ما يشترط على من أسلم من العرب أن يبنوا المساجد بساحتهم، وأن ينوهوا بالأذان فيها، وأن يعلموا صبيانهم كتاب الله، ولا يقبل منهم عذرًا.

قال ﷺ: «وسعوا مساجدكم تملأوها».

وفى حديث قدسى قال الله تعالى: «أيما قوم شيدوا دورهم وقصورهم وخربوا بيوتى ووضعوها إلا خربت دورهم وقصُورهم ولم أجعل لهم نصيبًا فيما عندى

---

(١) حديث «من بنى لله قدر مفحص»... إلخ. حديث صحيح رواه البزار والطبرانى وابن ماجه بهذا اللفظ، ورواه الترمذى بلفظ قريب من هذا، وفيه: «مسجدًا صغيرًا كان أو كبيرًا» بدل «مفحص قطاة». ورواه الشيخان بلفظ: «من بنى مسجدا يبغى به وجه الله بنى الله له بيتًا فى الجنة».

وأورده بلفظ الشيخ صاحب الكشف تحت رقم ٥٧٧٥ والله أعلم.

(٢) حديث «شرفوا بيوتكم»... إلخ. لم أجده.

ولأصيبنهم بالهوان».

قال الله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [النور:٣٦] بأن يعلى بنيانها وصوامعها على البيوت لشرفها، وليكون ذلك أبلغ فى رفع صوت المؤذن، وأطول لمد صوته، والتطهير من الأقذار بالقم[1] والصيانة، ولا تدخلها حائض ولا جنب ولا مشرك، ولا يتحدث فيها بحديث الدنيا، ولا تُرفع فيها الأصوات.

وقال ﷺ: «جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم وبيعكم وشراءكم ودوابكم وسل سيوفكم وخصوماتكم»[2] انتهى.

ولا ينام فيها إلا غريب، ولا تتخذ ممرًا، وتقطع فيها البعوث، وينشد فيها من الأشعار ما فيه توهين أمر الشرك ورفع أمر الإسلام، وكذلك ما كان منه فى المواعظ والحكم.

يروى أن عمر رضى الله عنه وجد حسانًا رضى الله عنه ينشد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ فانتهره وقال له: أتُنْشد الشعر فى مسجد رسول الله ﷺ؟! فقال حسان: أنشدته فى موضعى هذا بين يدى من هو خير منك، يعنى رسول الله ﷺ؛ فالتفت عمر على من هو فى المسجد من أصحاب رسول الله ﷺ كأنه يستشهدهم فقالت طائفة منهم: صدقَك حسان؛ فأمسك عمر رضى الله عنه.

وبالجملة فالشعر ينقسم على أقسام الشريعة الخمسة: فالواجب منه ما يرد به على المشركين إذا هجوا الإسلام وأهله وغضوا منهما؛ يروى أن النبى ﷺ لما هاجر إلى المدينة فَوجد بها أنصارًا ومأوى وقرارًا خافت قريش دهماء العرب فأذلقتْه بألسنتها هجوًا وتزهيدًا فى الإسلام، فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك قال: ما بال رجال

---

(١) القم: التنظيف.

(٢) حديث «جنبوا مساجدكم مجانينكم وصبيانكم»... إلخ. ضعيف رواه ابن ماجه، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٧٧ بلفظ: «جنبوا مساجدكم صبيانكم» وقال: قال البزار: لا أصل له (١/ ٤٠٠)، وأورده السخاوى تحت رقم ٣٧٢ فى مقاصده وقال: ضعيف، ولكن له شاهد عند الطبرانى والعقيلى وابن عدى بسند فيه العلاء بن كثير وهو ضعيف، إلى أن قال: وفى الباب مما يستأنس به لتقوية عدة أحاديث كحديث: «من رأيتموه يبيع أو يبتاع فى المسجد أو ينشد ضالة» (١/ ١٧٦) والله أعلم.

نصرونا بسيوفهم لا ينصروننا بألسنتهم؟! فبلغ قوله ﷺ حسانًا وكعبًا وعبد الله بن رواحة وكانوا شعراء بني قيلة؛ فأتاه حسان أولاً فقال له: إن قريشًا قد آذتك في الله فهلا أثرت عليها هذا الأسد الرابض؟! وأخرج لسانه حتى جعله على عرنينه[١]. وكان لا يقدر على ذلك غيره؛ فقال له رسول الله ﷺ: كيف تخرجني منهم وهم العشيرة والأصل؟ فقال: والله لأسلنك منهم سل الشعرة من العجين. وكان أشد شعراء قريش له أذى ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، فقال له: إن كنت فاعلا فاذهب إلى أبي بكر فإنه أنسب قريش لقريش، فما حذرك منه فاتركه، وما أمرك به فافعله. فكان يمضي إلى أبي بكر فيقول له: كفَّ عن فلان وفلانة، واهج فلانًا وفلانة.

فلما هجا أبا سفيان بن الحارث بقوله: (من بحر الطويل)

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وما ولدت أفْنَاء زَهرة منكمُ كريمًا ولم يقرب عجائزَكَ المجد

ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن لئيم لا يقوم له زَند[٢]

وإن امرءًا كانت سمية أمه وسمراء مغلوب إذا بُلغَ الجهد

فلما سمعه أبو سفيان قال: هذا كلام لم يغب عنه ابن أبي قحافة. وهو ممن حكم له شعره بالجنة، وذلك أنه قال مجيبًا لأبي سفيان: (من بحر الوافر)

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

فقال له رسول الله ﷺ: جزاؤك على الله الجنة. ولما قال:

فإن أبي ووالده وعرضي لعرض محمدٍ منكم وقاءُ

قال له ﷺ: وقاك الله حر النار.

واتفق العلماء أن أشعر أهل المدر[٣] أهل يثرب، ثم عبد القيس، ثم ثقيف.

---

(١) العرنين: الأنف كله، أو ما صلب منه.

(٢) البيت في ديوان حسان هو:

ولست كعباس ولا كابن أمه ولكن هجين ليس يورى له زند

(٣) أهل المدر: أهل المدن، والمدر: التراب.

وعلى أن أشعر أهل المدر على الإطلاق حسان بن ثابت. وزعم بعضهم أنه ممن خاض فى الإفك فبرأته عائشة رضى الله عنها فقالت: لم يقل شيئًا من ذلك[(١)] ولكنه قال: (من بحر الطويل)

حصان رزان ما تُزَنُّ بريبةٍ وتصبح غرثى من لحوم الغوافل[(٢)]

عقيلة حي من لؤى بن غالبٍ كرام المساعى مجدهم غير آفل[(٣)]

وأما ما حكى عنه من الجبن فإنه كذب وباطل، ولقد هاجى فحول الشعراء فلم يسمع عنهم أنهم هجوه به، ولو كان كذلك لذكروه.. وكان قبل إسلامه من فحول الشعراء المطبوعين ومن مكثريهم المجيدين، وكان ينتجع آل جفنة من ملوك غسان بالشام وفيهم يقول: (من بحر الكامل)

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

يَسقُونَ من ورد البريص عليهم بردًا يصفق بالرحيق السلسل[(٤)]

يُغْشَوْنَ حتى ما تهرُّ كلابهم لا يَسألون عن السواد المقبل

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شمُّ الأنوف من الطراز الأول

قال عبد الملك بن مروان: هذا أمدح شعر قالته العرب.

وتوفى حسان رضى الله عنه بالمدينة سنة خمسين، وقيل: سنة أربع وخمسين،

(١) ما قاله الشيخ هنا من أن عائشة رضى الله عنها قالت: لم يقل شيئًا من ذلك خلاف التحقيق، والصحيح ما روى الشيخان عن مسروق قال: دخلنا على عائشة رضى الله عنها وعندها حسان ابن ثابت ينشدها شعرًا يشبب بأبيات له وقال:

حصان رزان ما تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت له عائشة: لكنك لست كذلك. قال مسروق: فقلت لها: لم تأذنين له أن يدخل عليك وقد قال الله تعالى: (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم)؟! فقالت: وأى عذاب أشد من العمى. قالت له: إنه كان ينافح أو يهاجى عن رسول الله ﷺ. (البخارى كتاب المغازى ٦٤ باب حديث الإفك ٣٤)، والله أعلم.

(٢) غرثى: جائعة، كناية عن أنها لا تخوض فى أعراض الناس.

(٣) آفل: زائل.

(٤) البريص: نهر بدمشق، وبردى كذلك، والرحيق: الخمر، والسلسل: السهل.

وهو ابن مائة وعشرين سنة: ستون منها فى الجاهلية وستون فى الإسلام، وهو أحد المخضرمين، مع ما حصل له من عظيم الصحبة والغناء. وكان يأتى قريشًا وسائر العرب فى الهجو من قبل أنسابهم وأنصابهم[1]. وكعب بن مالك يخوفهم الحرب، وابن رواحة يعيرهم بالكفر. وبلغنى أن إسلام دوس كان سببه قول كعب: (من بحر الوافر)

قضينا من تهامة كل ريب وخَيْبَرَ ثُم أجْمعنا السيوفا

نسائلها ولو نطقت لقالت قواطعهن دوسا أو ثقيفا[2]

فلما سمعوا هذا من الشعر وبلغتهم وقعة رسول الله ﷺ بثقيف قال بعضهم لبعض: انطلقُوا بنا إلى رسول الله ﷺ نأخذ منه الأمان لأنفسنا قبل أن ينزل بنا ما نزل بثقيف.

ويروى أن كعبًا قال: يا رسول الله، هل لى من أجر فى هذا الشعر الذى أنافح به عنك وعن الإسلام؟ فقال: «من أعاننى بسيفه ولسانه كان له أجر رجلين ممن جاهد فى سبيل الله» فأنزل الله مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [الشعراء: ٢٢٤ ـ ٢٢٧]، فقوله: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ﴾ نزل فى شعراء المشركين كابن الزبعرى وأبى سفيان بن الحارث وكعب بن زهير وابن هبيرة وضرار ابن الخطاب الفهرى وغيرهم من شعراء مضر والمستثنون شعراء رسول الله ﷺ ككعب وحسان وعبد الله بن رواحة ومن سلك سبيلهم من شعراء المسلمين إلى يوم القيامة؛ لأن رسول الله ﷺ قال لحسان: «قل ومعك روح القدس»، وفى رواية: «أيدك الله بروح القدس»[3].

---

(١) الأنصاب: جمع نصب: الأصل.

(٢) رواية الاستيعاب: (نخيرها) بدل (نسائلها)

(٣) حديث «قل ومعك روح القدس»: متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما، ورواية البخارى: «اهجهم أو هاجهم وجبريل معك» وفى رواية أخرى: «اللهم أيده بروح القدس». (كتاب بدء الخلق ٥٩ ـ باب ذكر الملائكة ٦).

وقال لكعب لما قال في غزوة الأحزاب: (بحر الكامل)

جاءت سخينة كي تغالب ربها ... فَلَيُغْلَبَنَّ مُغَالِبُ الغَلاَّب

وهي طويلة، فقال له رسول الله ﷺ: «لقد شكر الله قولك يا كعب: جاءت سخينة» إلى آخر البيت. ومطلعها قوله:

أبقى لنا حدثُ الحروب بقيةً ... من خير نِحْلَة ربِّنا الوهابِ[1]

بيضاء مشرفة الذرىَ ومطاعنا ... حم الجذوع غزيرة الأحلاب

كالثوب يبذل جمها وجفيلها ... للجار وابن العم والمنتَاب

ونزائعًا مثل السراح نمى بها ... عَلْف الشعير وجِزَّةُ المقضاب[2]

عَرِى الشوى منها وأردَنَ نحضُها ... جرد المتُون وسائر الآراب[3]

قُودًا تراح إلى الصياح إذا غدتْ ... فعل الضِّراء تُراح للكُلاَّب[4]

وتحوط سائمة الديار وتارة ... تُردى العدى وتؤوب بالأسلاب[5]

يغدون بالزَّغْفِ المضاعف شكه ... وبمترصات في الثقاف صياب[6]

وصوارم نزع الصياقل غُلبَها ... وبكل أروعَ ماجد الأنساب[7]

(١) النحلة: العطية عن طيب نفس.

(٢) النزائع: الخيل التي حملت من أرضها. والسراح، بالحاء: جمع سرحة: الشجرة الطويلة. والجزة، بكسر الجيم: ما يجز لها من النبات. والمقضاب: آلة القضب.

(٣) الشوى: الأطراف. وعريت: تجردت من الشعر. والنحض: اللحم. وأردف: كثر في الأرداف. جرد المتون: لا شعر بها. والمتون: الظهور. والآراب: المفاصل.

(٤) القود: جمع أقود: الطويل. تراح: يذهب بها. والصياح: جلبة الحرب. والضراء: الكلاب، والكلاب، بضم الكاف وتشديد اللام: الذي يصيد بالكلاب، ويجوز الفتح، فيكون صاحب الكلاب.

(٥) يعني أنها تحمي الماشية وأحيانًا ترجع بالأسلاب والغنيمة بعد أن تهلك الأعداء.

(٦) الزغف: الدروع الواسعة الطويلة والشك: النسج. والمترصات: الرماح المثقفة. والصياب: جمع صائب: الذي لا يخطئ في مرماه.

(٧) الصوارم: السيوف. والغلب: الخشونة.

يصل اليمين بمارنٍ متقارب ... وكلت وقيعتُه إلى خَبَّاب[١]

وكتيبة ينفى القِرانَ قَتيرُها ... وتردّ حد قواحز النَّشاب[٢]

أعيتْ أبا كَرِبٍ وأعيتْ تُبعًا ... وأبتْ بسالتُها على الأعراب

ومواعظٌ من ربنا نُهْدىَ بهَا ... بلسان أروع طيب الأثواب

عرضَت علينا فاشتهينا ذكرها ... من بعد ما عُرضت على الأحزاب

وقال أيضًا: (من بحر الطويل)

لقد علم الأحزاب حين تألَّبوا ... علينا وراموا ديننا ما نوادعُ[٣]

أضاميم من قَيس بن عيلان أصفقت ... وخِنْدِف لم يدروا بما هو واقع

يذُودوننا عن ديننا ونَذودهم ... عن الكفر والرحمنُ راءٍ وسامع

إذا غايظونا فى مقامٍ أعاننا ... على غيظهم نصر من الله واسع

وذلك حفظ الله فينا وفضله ... علينا ومن لم يحفظ اللهُ ضائع

وقال أيضًا: (من بحر الوافر)

ألا بلغ قريشًا أن سَلْعًا ... وما بين العُريض إلى الصِّمَاد[٤]

نواضح فى الحروب مدرباتٌ ... وخوص ثُقِّبَتْ من عهد عاد[٥]

رواكد يزخر المُرَّار فيها ... فليست بالجمام ولا الثِّماد[٦]

---

(١) المارن: الرمح اللين. الوقيعة: الصنيعة. وخباب: هو خِباب بن الأرت الصحابى المعروف، وكان حدادًا فى الجاهلية.

(٢) القران: النبال. والقتير: رءوس المسامير فى الدروع. والنشاب، بضم النون: السهام، وبفتحها: الرامى بالنشاب.

(٣) ما نوادع: ما نسالم، وهو من الموادعة.

(٤) سلع: جبل بالمدينة. والعريض: واد. والصماد، بالصاد المكسورة: جبل كذلك.

(٥) الخوص: الآبار الصغيرة. وثقبت: حفرت.

(٦) الرواكد: السواكن. يزخر: يعلو. المرار: الكثير المرور، ويروى: المداد. والجمام، بفتح الميم: البئر الكثيرة الماء. والثمار: جمع ثمد وهو الماء القليل.

بلاد لم تُثَر إلا لكيما ... نجالد إن نَشِطْتُم للجلاد[1]
أثرنا سكة الأنباط فيها ... فلم نر مثلها جلهات واد[2]
أجيبونا إلى ما نجتديكم ... من القول المبيّن والسداد[3]
وإلا فاصبروا لجِلادِ يوم ... لكم منا إلى شطر المذاد[4]
نصبحكم بكل أخى حروب ... وكل مطهمٍ سَلِسِ القياد
وكل طمرة خَفَقٌ حشاها ... تدفُّ دفيفَ صفراءِ الجراد[5]
خيولٌ لا تضاع إذا أضيعت ... خيولُ الناس فى السنة الجماد
ينازعْنَ الأعنةَ مُصْغياتٍ ... إذا نادى إلى الفزع المنادى
إذا قَالتْ لنا النُّذُرُ استعدوا ... توكلنا على رب العباد
وقلنا لن يفرّج ما لقينا ... سوى ضرب القوانس والجهاد[6]
أشد بسالة منا إذا ما ... أردناها وألين فى الوداد
ولن ترى عصبة ممن لقينا ... من الأقوام من قَار وباد
إذا ما نحن أسْرجنا عليها ... جِيَادَ الجُدْلِ فى الأرَب الشداد[7]
قذفنا فى السوابغ كل صعر ... كريم غير معتلث الزناد[8]

وقال حسان يجيب ابن الزبعرى عن كلمة قالها فى مدح الأحزاب والغض من المسلمين: (من بحر الكامل)

هل رسمُ دارسة المقام يَبَابِ ... متكلم لمحاور بجواب

---

(١) تثر: تحرث. نجالد: نحارب.

(٢) السكة: الطريق المستوى. والأنباط: قوم من العجم. والجلهات: جمع جلهة: حافة الوادى.

(٣) نجتديكم: نطلبه منكم.

(٤) المذاد: موضع، والمعنى: إلى جهة المذاد.

(٥) الطمرة: الفرس، الجواد الطويل القوائم. خفق: مضطرب. والدفيف: المشى الخفيف.

(٦) القوانس: جمع قونس، وهى أعلى بيضة الحديد.

(٧) الجدل: الدروع المحكمة النسج. والأرب، بضم ففتح: جمع أربة، وهى العقدة.

(٨) السوابغ: الدروع الوافرة. والزناد المعتلث: هو الذى إذا قدح لم يور نارًا

قفر عفىَ رهْمُ السحاب رسومه ... وهبوبُ كل مطلة مرباب[1]

ولقد رأيت بها الحلول يَزينهم ... بيض الوجوه ثواقب الأحساب

فدع الديار وذكر كل خريدة ... بيضاء آنسة الحديث كعاب

واشك الهموم إلى الإله وما ترى ... من معشر ظلموا الرسول غضاب

ساروا بأجمعهم إليه وألبوا ... أهل القُرى وبوادىَ الأعراب

جيشٌ عُيينَةُ وابنُ حرب فيهم ... متخمطون بحلية الأحزاب[2]

حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا ... قتل الرسول ومغنم الأسلاب

وغدوا علينا قادرين بأيْدِهمْ ... ردوا بغيظهم على الأعقاب[3]

بهبُوب معصفة تفرق شملهم ... وجنودِ ربك سيد الأرباب

فكفى الإلهُ المؤمنين قتالَهم ... وأثابهم فى الأجر خير ثواب

من بعد ما قنطوا ففرق جمعهم ... تنزيل نصر مليكنا الوهاب

وأقر عين محمدٍ وصِحابه ... وأذل كل مكذب وتَاب

عاتى الفؤاد موقع ذى ريبة ... فى الكفر ليس بطاهر الأثواب

ولما قال هبيرة بن وهب المخزومى قصيدته التى يفتخر فيها بغزوه المدينة التى كانت سبب غزوة أحد وهى قوله: (من بحر البسيط)

ما بال هم عميد بات يطرقنى ... بالود من هند إذ تعدو عواديها

باتت تعاتبنى هند وتعذلنى ... والحرب قد شغلت عنى مواليها

مهلا فلا تعذلينى إن من خلقى ... ما قد علمت وما إن لست أخفيها

مُسَاعفُ لبنى كعب بما كلفوا ... حمالُ عبءٍ وأثقال أعانيها

---

(١) الرهم: جمع رهمة، بكسر فسكون: وهى السحابة الدائمة المطر. والمرباب: الدائمة.

(٢) متخمطون: مختلطون، أو غضاب متكبرون. والحلبة: مضمار السباق، أو الخيل التى تعد للرهان.

(٣) أيدهم: قوتهم.

وقد حملت سلاحي فوق مُشْتَرِفٍ ساط سبُوح إذا تجري تُبَاريها[1]

كأنه إذ جرى عير بفدْفَدِه مكدمٌ لاحقٌ بالعُون يحميها

من آل أعوج يرتاح الندىُّ لَه كجذع شعراء مستعلٍ مراقيها

أعددته ورقاقَ الحد منتخلا ومارنًا لخطوب قد ألاقيها[2]

هذا وبيضاءَ مثل النِّهْي محكمة نيطتْ عليّ فما تبدو مساويها[3]

شقنا كنانة من أطرف ذي يمن عُرْضَ البلاد على ما كان يزجيها

فأجابه حسان رضي الله عنه بقوله: (من بحر البسيط)

سقتم كنانة جهلاً من سفاهتكم إلى الرسول فَجُنْدُ الله مخزيها

أوردتموها حياض الموت ضاحيةً فالنار موعدها والقتل لاقيها

جمعتموها أحابيشًا بلا حسب أئمة الكفر غرتكم طواغيها

ألا اعتبرتم بخيل الله إذ قتلت أهل القليب ومن ألقيته فيها

كم من أسير فككناه بلا ثمن وجزّ ناصية كنا مواليها

وأما المندوب منه فما كان في الحكم كلامية العجم، أو ما كان في مدح الرسول ﷺ كبُردة المديح.

وأما المباح منه فما كان في التفجع، وذكر فراق الأحبة، وذكر الوطن ومدحه والبكاء عليه.

وأما المكروه فمدح الغني لأجل غناه. واختلف في مدح الظالم فقيل: يدخل في هذا الباب، وقيل: حرام؛ لقوله ﷺ: «إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب»[4].

---

(١) المشترف: المنتصب. والساطي: الفرس البعيد الخطو. والسبوح: السريع.

(٢) رقاق الحد: السيوف. المنتخل: المتخير. والمارن: الرمح.

(٣) النهي، بكسر فسكون: الغدير، وقد تفتح النون. والبيضاء: الدرع.

(٤) حديث «إذا مدح الظالم اشتد غضب الرب»... إلخ. منكر رواه أبو يعلى والبيهقي وابن عدي وأبو الشيخ والخطيب بلفظ «إذا مدح الفاسق غضب الرب واهتز لذلك العرش» وأورده بهذا اللفظ السيوطي تحت رقم ٨٥٦ قال المناوي: رواه ابن أبي الدنيا من حديث أبي خلف، وأبو خلف =

وفى الحكم: من أحب بقاء ظالم فقد أحب أن يعصى الله فى أرضه.

وأما الحرام فذكر القُدود والخدود فى التشبب والمجون، وكذلك الهجو، قال الرسول ﷺ: «أشد الناس فريةً من هجا قبيلة».

وفى مثل الأخير وردت الآثار والأخبار فى الزجر عن الشعر كقول أبى هريرة رضى الله عنه: «لأن يمتلئ صدر أحدكم قيحًا يريه خير له من أن يمتلئ شعرًا فيقوله»[١].

وقال ﷺ: «أحب الأصوات إلى الله صوت رجل مؤمن يتغنى بالقرآن، وصوت رجل يثوب بالأذان. وأبغض الأصوات إلى الله صوت المغنى وصوت النائحة».

يروى أن الله لما أهبط إبليس من الجنة مذمومًا مدحورًا قال: يا رب إنك جعلت لآدم كتابًا ولم تجعل لى كتابًا، فقال له: كتابك الشعر، فقال: وجعلت له أذانا، فقال: أذانك المزمار، وجعلت له حبالة ولم تجعل لى حبالة، فقال: حبائلك النساء، فقال: وجعلت له طعامًا ولم تجعل لى طعامًا قال: طعامك وشرابك ما لم يذكر اسم الله عليه، قال: وجعلت له بيتًا ولم تجعل لى بيتًا، فقال له: بيتك الحمام»[٢] انتهى.

وبالجملة فإن أشعار العرب صارت فى زماننا هذا علومًا من أشرف العلوم؛ إذ كيفما كانت فإنها لا تخلو من فائدة: إما لغة تقتنى، وإما إعراب يجتنى، أو مثل يضرب، أو آداب تكتسب. قال رسول الله ﷺ لما سمع الشنفرية قال: «علموا أبناءكم أشعار العرب فإن فيها الشجاعة ومكارم الأخلاق»، علمنا الله من العلوم ما ينفعنا دينًا وعقبى، آمين.

= هذا قال الذهبى فيه: قال يحيى: كذاب، وقال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن حجر فى الفتح: سنده ضعيف، وقال العراقى: سنده ضعيف، وفى الميزان: خبر منكر (١/ ٤٤) كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٥٩٥ وقال: منكر (٢/ ٦٠) والله أعلم.

(١) «لأن يمتلئ صدر أحدكم قيحًا»... إلخ. حديث متفق على صحته. وليس من كلام أبى هريرة كما ذكر الشيخ، بل هو حديث رواه الشيخان وابن ماجه، ولفظ البخارى فى كتاب الأدب: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا خير له من أن يمتلئ شعرًا». والله أعلم.

(٢) هذا الكلام المنسوب إلى إبليس يبدو أنه من الإسرائيليات إذ لم يصلنا إلا عن طريقهم، والله أعلم.

● قال الناظم رحمه الله:

٦٦ ـ وشُدَّ المَطَا وارعَ المِطَاءَ ولاَ يَخِبْ
لمُعْلِى وَعًى يَرجُـو نَدَاكَ وِعَاءُ

قوله: وشد المطا: أى قوِّ ظهرك برعاية أهل الود القديم، أو شد ظهورهم برعاية ودهم وعهدهم القديم، قال الرسول ﷺ: «إن من أبر البر أن يصل الرجل أهل ودِّ أبيه بعد أن يولى»(1) أى: يموت. فالمطا، بالفتح والقصر: الظهر؛ ولذلك سميت المطية مطية لأن راكبها يمتطى ظهرها، وهو من باب تسمية الشىء باسم ملازمه، وإنما يقوى الرجل ويعز إذا كان كلما التفت إلى ظهره رأى أعوانه وإخوانه وراء ظهره يتبعونه أينما سلك، قال الله تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥].

وقال موسى عليه السلام، كما أخبر الله: ﴿أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه: ٣٠ ـ ٣٢].

ولذلك سميت المظاهرة مظاهرة لأن كلاً منهم يحمى ظهر صاحبه عند الهيجاء أو عند غيبته، قال الله تعالى: ﴿وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

يروى أن الصحابة لما فتحوا اليمامة وقتلوا مسيلمة كان رأى أبى بكر رضى الله عنه أن لا يُتْرَكَ أحد منهم مر عليهم الموسى(2) إلا قتل؛ ليستأصل شأفة الردة لأنهم لا يزالون من فتنة كذابهم فى شر، فألفى ذلك خالد قد أوقع الصلح بينه وبينهم بعدما أفنى أكثرهم على أن يعطوه شطر السبى وعلى البيضاء والصفراء والحلقة والسلاح والخف والحافر. وكان رأى الأنصار فيهم يوافق رأى الخليفة أبى بكر رضى الله عنه، فلما جاء كتاب أبى بكر حملته الأنصار إلى خالد فقال: صلح قَد مضى وعقد قَد استحكم لم يكن لى أن أنقضه والله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

---

(1) حديث «إن من أبر البر»... إلخ. صحيح رواه مسلم بهذا اللفظ وأبو داود وابن ماجه بلفظ: «جاء رجل من بنى سلمة إلى النبى ﷺ فقال: هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد موتهما؟» وفى آخر الحديث «وإكرام صديقهما».
وسند هذا الحديث صحيح باستثناء على بن عبيد الساعدى لم يوثقه غير ابن حبان، والله أعلم.
(2) مر عليه الموسى: كناية عن البلوغ.

آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة:١] فقالت له الأنصار: طاعة أبى بكر مقدمة على طاعتك، فقال: إن كانت طاعة أبى بكر فوق طاعتى فطاعة الله فوق طاعته قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء:٣٤] فلما فرغ من أمرهم ذهب بوفدهم إلى الخليفة، فأمر أبو بكر أن لا يؤويهم أحد ولا يكلمهم؛ فبقوا حيارى لا يقدرون على الرجوع إلى أهليهم ولا على المقَام؛ فأمرهم بعض أصدقائهم من أهل المدينة أن يذهبوا إلى عمر رضى الله عنه وقد قَتَلوا أخاه زيدًا وهو حامل لواء المهاجرين وقد وجد[1] عليه أخوه عمر لما مات وجدا عظيمًا، فدخلوا على عمر رضى الله عنه وفيهم قاتل أخيه، فوجدوه قد اعتقل عنزًا له يحلبها على رغائف وابن أخيه زيد آخذ بعاتقه الأيمن وابنته آخذة بعاتقه الأيسر، فلما رآهم اشتد حلبه حتى جعل الخبز يتطاير من الإناء، فسلموا وأظهروا الضراعة والإسلام فقال: أنشدكم الله هل ما تقولونه بألسنتكم ثَابتٌ فى أفئدتكم؟ فقالوا: إى والله إن ما نقوله بألسنتنا ثابت فى قلوبنا فلا تردوا علينا ما قبلتموه من غيرنا، وهو الإسلام، فتمهل عمر، ثم أقبل عليهم وهو يقول: الحمد لله الذى جعل لنا من المسلمين ما يشد به ظهورنا، فذهب بهم إلى أبى بكر، فقبلهم، وجعل عليهم رجلاً منهم.

ويحتمل قوله: وشد المطا: معنى آخر غير ما تقدم ذكره، وهو أن يشد ظهر بعيره، ويستعمل الرحلة لنيل الأوطار، واقتفاء الأخطار. قال الرسول ﷺ: «سافروا تصحوا وتغنموا»[2]. فالغنيمة تحتمل الدنيوية والأخروية، كما أن الصحة تقتضى البدنية والقلبية، إذ ربما لقيت فى رحلتك وليًا من الأولياء؛ فتحصل بسببه سعادة الدارين؛ لأن لحظة واحدة منهم ربما أغنت الغناء السرمدى.

قال ابن عطاء الله: سبحان من لم يجعل الدليل عليهم إلا من حيث الدليل

---

(١) وجد: حزن.

(٢) حديث «سافروا تصحوا وتغنموا» منكر، رواه ابن عدى والطبرانى فى الأوسط (١/١١٢) وابن بشران فى الأمالى (٣/٦٦) والخطيب فى تاريخه (١٠/٣٨٧) عن محمد بن عبد الرحمن بن رداد، قال ابن عدى: لا أعلم يرويه غير الرداد هذا، وعامة ما يرويه غير محفوظ، وقال ابن أبى حاتم: ذاهب الحديث. وأورد الحديث الذهبى فى الميزان وقال: منكر. وقال ابن أبى حاتم فى العلل (٢/٣٠٦): قال أبى: هذا حديث منكر. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٢٥٥ وقال: منكر، والله أعلم.

عليه، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه.

قال ابن عباد: معرفة الولي أبعد من معرفة الله وأصعب؛ لأن الله ظاهر لتجليه لقلوب المؤمنين بجماله وجلاله، واستدلال العامة عليه بما يرون من آثار قُدرته، بخلاف الولي فإن الله حجبه عن أفئدة المطرودين بالصورة البشرية، فطوى عنهم الحقيقة الربانية، وأشهدهم الصورة البشرية، فإذا رأوه قالوا كما قال أشياعهم: ﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣] فيطرد بنور المنع وظلمة الطبع فينقطع عن النفع، ومن أراد الله انتفاعه طوى عنه الصورة البشرية، وأشهده اللطيفة الربانية، فأدرك إدراكا قطعيًا لا ظنيًا ولا حسبانيًا، فوصل بسببه إلى الله في لحظة؛ إذا لا مكان ثَمَّ ولا زمان يفتقر إلى الرحلة والنجعة؛ إذ الأولياء عرائس مخدرات، فحرام على الأجانب رؤيتهم؛ إذ لا يعرفهم إلا أشكالهم أو من أراد الله أن يغيثه ببركاتهم.

قال بعضهم: (من بحر الطويل)

إذا خفت ضيقًا أو ذهـاب مروءة ... فسافر ففي الأسفار خمس فوائد[1]

تفريج همٍّ واكتسـاب معيشـة ... وعلم وآداب وصحبة ماجـد

وقال صاحب لامية العجم: (من بحر البسيط)

لو كان[2] في شرف المأوى بلوغ من ... لم تبرح الشمـس يومًا دارة الحمَلِ

وقال غيره: (من بحر البسيط)

والتبرُ كالتـربِ ملقًى في أماكنـهِ ... والعودُ في أرضه نوعٌ من الحطب

وقال غيره: (من بحر الكامل)

والماء يكسى بالركود كدورة ... ويروق رونقه إذا لم يركـد

قوله: وارع: فعل أمر من رعى. والمطاء، بالمد والكسر: مفعول به، وهو

---

(١) البيت كما في الخزانة هو:

تغرب عن الأوطان في طلب العلا ... وسافر ففي الأسفـار خمس فوائد

(٢) في (ب): لو أن، وهو موافق لما في اللامية المطبوعة.

معدول من المواطأة؛ لأن الأصدقاء تتواطأ أهواؤهم وآراؤهم كما تتواطأ وتتعاضد قواهم. قال الرسول ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في العشر الأواخر من رمضان»[1]. وفي رواية: «مرائيكم»: جمع رؤيا.

وقال ابن الخطيب: تواطأ قلب رسول الله ﷺ وقالبه عند المشاهدة، وسمعه وبصره فما زاغ بصره وما طغى قلبه.

تقول: تواطأ مواطأة وتواطؤا، وقوم مطاء: إذا وصفتهم بالتواطؤ والمواطأة كما تقول: رجل مهداء، وقوم مهداء، ورجل معطاء، ورجال معطاء، ورجل مسقام إذا كثر سقامه.

والمعنى: وارع الأصدقاء في سرك وجهرك، وفي حضورك وغيبتك ولا يخب: من الخيبة، وهي خلف الرجاء والأمل، أي لا يخب لشخص معلٍ صوته في حال كونه يرجو فضلك وعاءً. فوعاء: فاعل، وهو أحد الظروف. والوعى، بالفتح والقصر: رفع الصوت، وهو مقلوب عوى، فأعطِ من رفع صوته لك بالسؤال بأن أعلن حاجته لك وأظهر فاقته ملء وعائه، لا ترده خائبًا، فيبقى وعاؤه خاويًا، وكفه صفراء من مكارم مواهبك، فإن ذلك مما يخل بالمروءة ويبطل الفتوة ويذهبها رأسًا.

يروى أن بعض الأعراب أتى ملكًا من الملوك العباسيين يحمل على رأسه قلة، فلما وقف ببابه سخر منه الحجاب، فذهب بعضهم إليه وقال له: إن بالباب رجلاً يحمل قلةً على رأسه، فأمرهم بإدخاله، فلما دخل والقلة على رأسه ومثُل بين يديه ضحك منه الخليفة فقال: ما هذه القلة على رأسك؟ فأجابه بديهة فقال: (من بحر الطويل)

فلما رأيت الناس أدلوا دلاءَهم	إلى بحرك الطامي أتيت بقلتي
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت	ولا البخل يبقيها إذا هي ولت
إذا جادت الدنيا عليك فجدْ بها	على الناس طرًا قبل أن تتفلت

(١) حديث «أرى رؤياكم قد تواطأت»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان، وهو عند البخاري في كتاب التراويح.

فأمر له بملء قلته سبع مرات من الذهب، وخلع عليه خلعة سنية.

وكان الشافعي رحمه الله مع ما آتاه الله من العلم والورع جوادًا بالمال ذا فتوة ومروءة، ومما يدل على فتوته ورفع منصبه قوله: (من بحر البسيط)

يا لهف نفسي على مال أجود به ... على المقلين من ذوي المروءاتِ

إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ... ما ليس عندي لمِنْ إحدى المصيبات

وكان رضي الله عنه يقول: (من بحر الوافر)

أرى نفسي تتوق إلى أمور ... ويقصر دون مبلغهن مالُ

فلا نفسي تطاوعني ببخل ... ولا مالي يبلغني فعال

ويروى أن رجلاً من سادات حمير جاء حاجًا فماتت مطاياه، وكان شريف النفس عظيم الشأن، فاستشار بعض أصدقائه فقال له: إني قد انقطعت بي الأسباب وإني رجل شريف، وإنه لا بد أن أسأل أحد سادات قريش، فدلني على رجل إن أرقت إليه ماء وجهي لا يخيبني؛ فإني رجل شريف، ولئن اجتمع لي إراقة ماء وجهي مع خيبة المسعى فإنه الموت. فقال: أدلك على عبد الله بن جعفر؛ فإنه سيد فاضل، ومن بيت النبوة، وإني ضامن لك عدم الخيبة والإسعاف ببغيتك. فلما أتاه جعل جبينه يرشح عرقًا، فأقبل إليه ابن جعفر فقال له: مرحبًا بك وأهلا، تكلم أخا العرب، فإني أرى وجهًا خليقًا بأن يسعف بحاجته، ولعله لم يتعود المسألة؛ لأني أرى عليه علامة الخجل، فقال: يا بن عم رسول الله ﷺ، إني رجل من حمير أتيت حاجًا فماتت دوابي وظهري، وجئت أستحملك، ولم أر من هو أهل أن يريق الكريم عليه ماء محياه غيرك، فإن تسعف فمشكور، وإن حال من دون ذلك حائل فمعذور. فلما سمع عبد الله قوله هزه ما سمع؛ فالتفت إلى وكيله فقال له: كم أصبح عندنا؟ فقال له: مائة بعير، وخمسمائة بغلة، وألف دينار، وأسفاط[1] من فاخر الثياب. فقال له: ائتني بجميع ذلك الساعة؛ فأتاه به فقال للحميري: خذ جميع ما ترى، ولولا أنك جئتني على نفاد لأجزلت لك في العطاء، فقال له: أيها السيد إني أكتفي منك بأقل من هذا، وإنما جئت

---

(١) أسفاط: جمع سفط: وعاء كالقفة أو الجوالق.

أستحملك، وإنى رجل غنى بأرضى. فقال له: خذ أيها الرجل جميع ذلك فإنه قليل من كثير، فإن العطايا تتعاظم عليها ولا تتعاظم علينا، والله ما أديت من واجب حقك على قدر دانق، وإن منتك لفى عنقى ما بقيت، وكيف لا يكون ذلك وقد بت تتلوى على فراشك وحاجتك تتردد فى صدرك، ولم تر لها من سادات قريش غيرى! فذهب الحميرى بجميع ذلك، ووصل منه من دله على عبد الله بن جعفر رضى الله عنه.

وحكاياتهم فى مثل هذا لا تنْحصر، والحمد لله على فضله وتفضله على هذه الأمة الشريفة.

* * *

• قال الناظم رحمه الله:

٦٧ ـ وَغَيْرَ الشَّوَى هَيِّئْ شِوَاءً لِطَارِقٍ يَرُومُ ذَرى فِيهِ سَلاً وسِلاَءُ

وغير: مفعول مقدم لهيئ. والشوى، بالفتح والقصر: هنا أرذل المال كالمريض والشارف والعجفاء والزَّمِن وما لا منفعة فيه.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

أكلنا الشوى حتى إذا لم ندع شوى أشرنا إلى خيراتها بالأصابع

أى أكلنا الأشرار أولاً حتى أفنيَنَاها فتعدينا إلى الأخيار صونًا لأعراضنا ومروءاتنا. والشواء. بالكسر والمد: هو اللحم ينضج بالفوار دون اللهب والملة[1] فإنه يقال لذلك الصِّلى، وأما السميط فهو أن يزال الشعر أو الصوف بماء مسخن ثم يجعل فى الفرن حتى ينضج، فهو أطيبه وألذه، إلا أنه من أطعمة الرفاهية لما فيه من السرف؛ وهو إتلاف الجلد لاحتياج الناس إليه فى اللباس والبُسط.

روى أن رسول الله ﷺ مات ولم يأكل سميطًا ولا سميدًا، وهو الخبز المرقق المغربل، وما كان ذلك لإقتار ولا قلة، وإنما كان تنزهًا عن التغالى فى التنعم. خلافًا للباجى الطليطلى فإنه قال فى أثناء مناظرته لعلماء الأندلس: إن زُهد

(١) الملة: الجمر أو الرماد الحار. وعادة يكون فى حفرة الفرن.

رسول الله ﷺ لم يكن اختيارًا منه، ولو وجد التنعم لتنعم؛ فحكموا بزندقته لاستخفافه بحق رسول الله ﷺ لتسميته إياه يتيم أبى طالب أثناء المُناظرة المتقدمة آنفًا.

والذرى: تقدم. والسلا، بالقصر والفتح: مصدر سلا كدعا، والسلاء، بالكسر والمد: السمن فكأنه يقول: هيىء ويسر وأعد لمن طرقك من شخص قَاصد محلا فيه سلو لنَفْسه وشواء أى لحمًا مشويًا من خيرات مالك لا من شراره كالشوى؛ فإن الله لا يقبل إلا طيبًا، فجد بأنفس ما عندك على من قَصدك لا برده؛ فإنَّ ذلك من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم؛ لأن الفتوة تقتضى إنزال الطارق والأضياف على قدر أقدارهم، وبحسب تفاوتهم فى معائشهم، ولذلك وصف النَّاظم الطارق الذى له الشواء غير الشوى بكونه يروم فيه سلا وسلاء.

قال الرسول ﷺ: «أمرت أن أنزل الناس منازلهم»(١).

ويروى أنه قدم على النبى ﷺ وفدان: أحد الوفدين أشراف، والآخر دونهم فى الشرف ففضل النبى ﷺ الأشراف. فقال له عمر رضى الله عنه: " مالى أراك يا رسول الله تفضل هؤلاء على هؤلاء؟! ولا أرى ذلك إلا أنك اعتبرت عليهم فى الجاهلية وقد هدم الله ذلك بالإسلام، وكل من الفريقين إنّما جاء ليسلم؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إن ربى أمرنى أن أنزل الناس منازلهم، وأن خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا».

وهو يشير بقوله:

* وغير الشوى هيئ شواء لطارق *

---

(١) حديث «أمرت أن أنزل الناس منازلهم» حديث حسن رواه أبو داود وابن خزيمة والبزار والبيهقى فى الأدب، وأخرجه مسلم تعليقًا بلفظ: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم» (١/ ٤) مسلم المقدمة، وأورده السخاوى تحت رقم ١٧٩ وقال بعد أن أورد طرق الحديث: صححه الحاكم وغيره، وتعقب بالانقطاع وبالاختلاف على راويه فى وقفه ورفعه.. إلى أن قال: وبالجملة فحديث عائشة حسن (١/ ٩٢)، والله أعلم.

وأما الجزء الأخير منه والذى هو «وأن خياركم فى الجاهلية خياركم فى الإسلام إذا فقهوا» فهو جزء من حديث صحيح تقدم تخريجه وليس من الحديث الأول، والله أعلم.

إلى وجوب الضيافة، وليس من أداء واجبها إشباعه فقط بل لابد من إكرامه وكرامته، فالكرامة خدمته بالنفس؛ كإنزال رحله، ورعى دوابه، والمبادرة إليه قبل النزول، والترحيب به، وبسط الوجه، كما قال حاتم بن عبد الله: (من بحر الطويل)

أباسط ضيفى قبل إنزال رحله   فيخصب عندى والمكان جديب[1]

وقال: (من بحر الطويل)

وإنى لعبد الضيف ما دام نازلا   ولا شيمة لى غيرها تشبه العبدا

قال الشافعى: أربعة أنواع من الخدمة لا يتولاها إلا كريم ولا يأنف عنها إلا لئيم: خدمة الشيخ، وخدمة الوالد، وخدمة الضيف، وخدمة الفرس.

ومن كرامته أن يبدأ بالسلام، ثم بالطعام، ثم بالكلام، وقد أرشد الله تعالى إلى ذلك بصنيع أول من سن القرى وهو إبراهيم الخليل عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ﴾ [الذاريات: ٢٦، ٢٧] فإنه بعدما سلم عليهم ورحب بهم راغ بأن أخفى عنهم ذهابه إلى بيته لئلا يخجلهم فجاءهم بعجل سمين محنوذ.

ومن سنَنه مجيئه إلى الأضياف مع الطعام، وتلقيمهم، وحضهم كل الأكل، وتطييبهم بمثل المسك والغالية والعود، وإلانَة فرشهم، وأن يتخير لهم من الأطعمة ما يعلم أنه يعجبهم كالثريد واللحم والفاكهة، وإذا كان زمن الشتاء فليأتهم بالنار والحطب، وليتول وقودها غيرهم وإلا أشعل المصباح.

والحاصل أن الأضياف أنواع: منهم الكريم واللئيم، فإن كان كريمًا فضيافته ما تقدم ذكره، وإن كان لئيمًا فأشبعه من أرذل الطعام كالفول والجلبان والعدس، وإن كان أعلى من ذلك ولم يكن من الكرام فهيىء له شبعه من مثل الدخن والذرة، ولا تبجله فإن التبجيل ليس من طبعه، فإنه ربما دعاه إلى المقَام عندك حتى يحرجك.

---

(١) فى (ب): أضاحك.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومن كرامة الضيف علف فرسه، وقد نظم ذلك بعض الأدباء فقال: (من بحر البسيط)

للضيف عشر خصال من أحاط بها   وَفَى وإلا فإن الضيف قد بُخِسَا

إلى أن قال:

* لن تكرم الضيف حتى تعلف الفرسا *

إلى أن قال: (من البسيط)

وإن يكن من لئام الناس فابعث له   من جودك الفول والجلبان والعدسا

ثم الضيف على خمسة أقسام: ضيف الله، وضيف رسوله، وضيف الدنْيا، وضيف نفسه، وضيف الشيطان. فضيف الله الفقير المسلم، وضيف رسوله العالم، وضيف الدنيا ذو المال الذى يرجى نائله، وضيف نفسه السلطان، وضيف الشيطان الظالم.

قال ابن عباد: لا تأكل إلا طعام تقى، ولا يأكل طعامك إلا تقى. وهذا على مذهب القوم لكن بعضه حديث لا بأس بإسنَاده، وهو قوله ﷺ: «إذا أحب الله مالاً جعله فى أهل الحفاظ وإذا أبغضه جعله فى غيرهم»[١].

والبيت مقتبس من قوله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[٢].

وقال ﷺ: «الضيافة ثلاثة أيام، وجائزته يوم وليلة، ولا ينبغى لضيف أن يقيم فوق ثلاث»[٣] انتهى. فإن أقام فهو كالسائل المتطفل إن شاء أطعمه وإن شاء منعه

(١) حديث «إذا أحب الله مالاً». . . إلخ. لا أعرفه.

(٢) حديث «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر». . . إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الأدب، وأوله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره» والله أعلم.

(٣) حديث «الضيافة ثلاثة أيام». . . إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان، وأوله: =

ولا حرج.

واختلف في إقامته بعد ثلاثة أيام، فقيل: هى حرام لتحريجه المضيف، وأكله الحرام، واقتحامه النهى، بل ينبغى له أن لا يزيد على ليلة إلا أن يكون رجلا قد انقطعت به الأسباب، فَلا ينبغى له أن يزيد على ثلاث ليال.

وفى المثل: الضيف أول ليلة يكون ذهبًا فإذا أصبح مقيمًا صار نحاسًا، فإذا أقام بعده صار حديدًا، وبعدها يكون جندلا[1] لا يباع ولا يقتنى ولا يعبأ به.

وكان على رضى الله عنه ينهى عن التكلف للضيف ويقول: إنه يبغِّض إليك الضيف، وربما جلب الرياء والسمعة. وكان يقول: لا تَبخل بموجود، ولا تتكلف بمفقود.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

ما كلف الله نفسًا فوق طاقتها ولن يجود امرؤ إلا بما وجـدا

ولأن الله مدح أبا طلحة بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] على رأس شاة لم يكن له لَيْلَتَئذٍ غيره، فنوَّم صبيانه، وباتوا طاوين، وأعطاه لضيفه.

وأما قول من يقول: الضيافة على أهل الوبر لا على أهل المدر، ويزعمون أنه مروى عن رسول الله ﷺ، فكذب وافتراء كما نص على ذلك ابن حجر فى شرحه للأربعين حديثًا للنووى.

يروى أن رسول الله ﷺ قال: «طلبت خمسة فوجدتها فى خمسة: طلبت رضوان الله فوجدته فى إكرام الضيف، وطلبت صفاء القلب فوجدته فى صيام الصيف، وطلبت السلامة فوجدتها فى الصمت، وطلبت الغنى فوجدته فى

= «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وآخره: «والضيافة ثلاثة أيام فما كان وراء ذلك فهو صدقة» البخارى (١٠/ ٤٤١)، مسلم (٣/ ١٣٥٢)، ولمسلم: «لا يحل لمسلم أن يقيم عند أخيه حتى يؤثمه. قالوا: يا رسول الله، وكيف يؤثمه؟ قال: يقيم عنده ولا شىء يقريه به»، والله أعلم.

(١) الجندل: الحجر.

القناعة، وطلبت خير الدنيا والآخرة فوجدته فى قيام الليل»(١).

وربما كان الرجل جوادًا بالمال بخيلاً بالطعام، فلا ينقله ذلك من خسة اللؤم؛ لتركه الواجب المتكرر للمندوب النزر الذى ربما لا يقع إلا مرة فى الدهر.

يروى أن إبراهيم عليه السلام لما بنى المسجد الحرام صلى عند كل سارية ألف ركعة، فأوحى الله إليه أن تقرب إلىّ بما هو أفضل من الصلاة، فقال: وأى عبادة أفضل من الصلاة؟ فقال له: إطعام الطعام؛ فارتحل إلى الشام، فاتخذ زاوية بجبل حلب، فجعل يطعم منها الطعام حتى توفى عليه السلام.

وكان بعض الفضلاء يكثر الطعام للضيف حتى يفضل؛ فقيل له فى ذلك، فقال: إنى لم أكثره إسرافًا ولا رياء، ولكن بلغنى عن رسول الله ﷺ: «أن سؤر الأضياف من النعيم الذى لا يسأل عنه»(٢). فأحببت أن آكل وأطعم عيالى من سؤر الأضياف رجاءَ أن لا أسأل عنه.

وقال رسول الله ﷺ: «إذا نزل الضيف نزل برزقه، وإذا ارتحل ارتحل بذنوب أهل البيت»(٣).

يروى أن إبراهيم عليه السلام استضافه مشرك فَحَرَمَه، فلما أصبح انصرف وقد يئس من القرى، فنزل عليه جبريل عليه السلام فقال له: إن ربك يقرئك السلام

---

(١) حديث «طلبت خمسا»... إلخ. تقدم.

(٢) حديث «سؤر الأضياف من النعيم»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، نعم روى الدارقطنى فى الأفراد: «من التواضع أن يشرب الرجل من سؤر أخيه» كما ورد: «سؤر المؤمن شفاء»، ولفظ ثالث: «الشرب من فضل وضوء المؤمن شفاء من كل داء أدناها الهم».
أما بالنسبة للأول فقد رواه الدارقطنى، وأورده عنه ابن الجوزى فى موضوعاته وقال: موضوع؛ لأنه من رواية نوح بن أبى مريم. وأورده كذلك الألبانى تحت رقم ٧٩ وقال: موضوع.
وأما الثانى فلا أصل له، وأورده الألبانى تحت رقم ٧٨ وقال: لا أصل له، وأورده كذلك العجلونى تحت رقم ١٥٠٠ وقال: قال النجم: ليس بحديث.
وأما الثالث فقد قال الألبانى: إنه موضوع كذلك (١/ ١٠٥)، والله أعلم.

(٣) حديث «إذا نزل الضيف»... إلخ. ضعيف رواه الديلمى وابن أبى شيبة بألفاظ كثيرة، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٤٣ بلفظ: «الضيف يأتى برزقه ويرتحل بذنوب القوم يمحص عنهم ذنوبهم»، ورقم ٢٢٧ بلفظ: «إذا دخل الضيف»، وقال: ضعيف. كما أورده السخاوى تحت رقم ٦٢ إلا أنه قال: «وإذا خرج خرج بمغفرة ذنوبهم»، وقال: ضعيف، والله أعلم.

ويقول لك: لِمَ حرمت عبدى؟ فقال له: إنه مشرك، فقال له جبريل: إن الله يقول لك: أأنت خلقته أم أنا؟ فقال: بل أنت. ثم قال له: إنه يقول لك: أكان كفره بك أم بى؟ فقال: بل كان كفره بك . قال: إنه يقول لك: أأنت كنتَ ترزقُه فيم مضى من عمره أم أنا؟ قال: بل أنتَ رازقني ورازقه. قال: إنه يقول لك: أهو خلق الكفر فى قلبه أم أنت خلقته وجبلته عليه؟ قال إبراهيم: بل أنت. قال جبريل: إنه يقول لك: أكان كفره يضره أو يضرك؟ قال: بل يضره، قال له: إنه يقول لك: إن كان ذلك كذلك فلم حرمتَه وهو عبدى وأخوك؟ فإنه لا يخلو من حالتين: إما أن أشقيه فأجعله غذاء لنارى ومحلاً لجريان واجب غضبى واقتدارى، وإما أن أتُوب عليه فأجعله من جملة أحبائى وأسكنه دار رحمتى وعطائى؛ فلحقه إبراهيم عليه السلام، ولقيه وجيفًا[1]، فتلطف به، وراوده على الرجوع ليطعمه، فقال له: إن لك نبأ: حرمتنى أولاً، ثم تلطفت آخرًا وكأنك أنت الذى تطلب الحاجةَ إلى! فقال: إن ربى عاتَبنى فيك، فقال له: نعم الرب ربك إذ يعاتب حبيبه فى عدوه، فأسلم ولازم العبادة مع إبراهيم عليه السلام حتى مات رحمة الله عليه[2].

واختلف فى الضيف الذى تجب ضيافته وجائزته؛ فقال الثورى فى مسنده: قال: هو المسافر المتَزود الذى يطول سفره حتى يفنى زاده ولا سوق ثَمَّ يشترى منه زادًا، وأما إذا كان مليًا وفى بلاد الأسواق فلا ضيافة له، ولا يحل له أن يستحمل الناس مؤونته، فيكون ذلك من أكل أموال الناس بالباطل، بخلاف من لا زاد له أصلاً أو فنى زاده ولا مال معه فأما هذان فتسوغ لهما الضيافة، ويجب على من نَزلا عليه أن يضيفهما ويحسن جائزتهما. وكذلك الغزاة وطلاب العلوم والسعاة والبريد والمحتسب، وأما غير هؤلاء فلا ضيافة لهم تجب، إلا أنه من شاء أن يعطيهم صونًا لعرضه أو طلبًا للمثوبة إن رأى ذلك، جعل الله أعمالنا ونياتنا له آمين.

* * *

---

(١) وجيفا: مضطربًا، أو ساقطا من الخوف، أو مسرعًا على دابة.

(٢) ما أشبه أن تكون هذه القصة مختلقة من الإسرائيليات.

• **ثم قال رحمه الله:**

٦٨ ـ فَكَمْ ذِي غَشًى أَضْحَى غِشَاءَ مُهَنَّد
صَلاَهُ لِكَيْ يُخْتَــارَ مِنْـهُ صِـلاَءُ

قوله: فكم ذى غشى، كم: اسم عدد ملازم للإضافة. ذى بمعنى صاحب غشى، بالفتح والقصر: أى فَرس سابل الغرة، وذلك من علامة يمنه وجودته وعتاقته.

قال ابن دريد فى مقصورته: (من بحر الرجز)

كأنما الجوزاء فى أرساغـه والنجم فى جبهته إذا بدا[١]

والفرق بين الغرة والغشوة والدينار والرثمة هو أن الغرة مال بلغ الأنف من بياض الوجه أو كان، ومنه قوله ﷺ لما قيل له: كيف تعرف أمتك من بين الأمم؟ قال: «إنهم يبعثون من قبورهم غراً محجلين من آثار الوضوء»[٢].

فالغرة فى حقهم شعاع نورانى يغشى وجوههم. وقيل: هو نور أبيض كالغرة يتميزون به كبياض يد موسى.

والغشوة: ما غشى وجه الفرس أو البعير حتى يعم الوجه كله والمشفرين، والرثمة: بياض يخص المشفرين أو أحد المشفرين فقط. والدينار: بياض مدور يكون قدر الكف أو دون ذلك، وهو أحسن الأصناف عند العرب، وكان من أثر مسحة جبريل عليه السلام، وذلك أنه لما أدخل آدم الجنة يحمله على عاتقه أتحفه الله بأن بعث إليه الفرس والبراق، وصحبه رضوان خازن الجنة فقال له: إن الله أرسلنى إليك بهاتين الدابتين لتختار أيهما شئت لركوبك، فالتفت إلى جبريل كالمستشير، فقال له: اختَر أحسنهما وجهًا؛ فاختار الفرس، وكان أحسن وجهًا من البراق، فقال له جبريل: اخترتَ عزك وعز بنيك إلى يوم القيامة، فمسح جبريل

---

(١) الجوزاء: نجم معروف، والنجم: هو الثريا، يصف غرة فرس وتحجيله.

(٢) حديث «إنهم يبعثون يوم القيامة»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان وأحمد بلفظ: «إن أمتى يدعون يوم القيامه غراً محجلين من آثار الوضوء»، زاد مسلم: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». (البخارى ـ كتاب الوضوء ـ باب فضل الوضوء والغر المحجلين).

ناصيته وبارك فيه، فلما رفع كفه إذا موضع كفه غرة بيضاء تلوح، فالتفت إلى آدم فقال: هذه علامة يمن الخيل يوم القيامة[١].

قال ﷺ: «كل شؤم من الفرس يذهبه الدينار والدرهم».

وكان ﷺ يكره الشكال؛ وهو أن تكون اليد اليسرى بيضاء والرجل اليمنى كذلك، بل يكره ذلك ولو كان من جانب واحد ما لم يكن الفرس أغر. أخرجها السيوطى فى جامعه[٢].

قوله: أضحى: من أخوات كان، اسمها صلاهُ، وخبرها غشاء، بالكسر والمد، أى: صار صلاه غشاء، أى غمدًا لسيف مهند، فمهند نعت لسيف المحذوف، كقوله تعالى: ﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ [سبأ:١١] أى دروعا سابغات. المهند: الذى سقى مرة بعد مرة مع انتخاب حديده المصاغ منه حتى يترطب ويلين بحيث إذا أثبته ثم أطلقته يرجع إلى حاله قبل العطف، وإن بقى معوجا فردىء، وإن بقى فيه حنو فعيبه بقدر ذلك، وأفضلها وأشرفها الهندوانية التى تصنع بالهند لكونها تقطع الحديد، إلا أنها إذا ضرب بها فى يوم بارد تحطمت متُونها.

ولما كان يوم اليمامة برزت حنيفة إلى عسكر خالد وقد جردتْ سيوفها، فقال خالد للمسلمين: أبشروا فإن القوم قد فشلوا؛ أما ترون إلى سلهم سيوفهم يرهبوننا بها؟! وكان فجاعة أسيرًا عند خالد فقال: إنهم لم يجبنوا وليس الجبن لهم بخلق، ولكنها الهندوانية، وقد خافوا عليها أن تتحطم متونها، فأبرزوها للشمس لتتصلب. فلما دنوا مُن معسكر المسلمين قالوا: إنا نعتذر إليكم من سل سيوفنا فإنَّا لم نسلها جبنًا ولا لنرهبكم بها وإنما هى الهندوانية، وكانت غُدوة باردة فأبرزناها للشمس لتتصلب متُونها حتى نتلقاكم، وسترون ذلك إذا لقيناكم.

والصلى: واحد الصلوين، وهما ما عن يمين الذَّنَبِ ويساره. والصلاء، بالمد والكسر: المشوى بالملة.

---

(١) لا أظن هذه القصة تصح بأى حال، والله أعلم.

(٢) حديث «كان ﷺ يكره الشكال من الخيل»... إلخ. حديث صحيح رواه مسلم فى كتاب الإمارة (٧/ ٣٣) وأحمد.

فالمعنى: كأنه يقول: كثير من فرس فاره[1] كالأغشى صار صلاه غشاء لسيف مهند عرقبه به فغشاه وغطاه صلاه لأجل أن يختار من لحم ذلك الفرس صلاء. فعل ذلك جودًا وكرمًا.

يحكى أن بعض أصحاب رسول الله ﷺ سأل زوجة حاتم بعد ما أسلمت، فقال لها: حدثيني ببعض غرائب حاتم في الكرم؛ فقالت: أصابت طيئًا مجاعة أفنت الخف والظلف، وقد أفنى حاتم ماله في تلك المجاعة بذلا وعقرًا وبيعًا في الزرع والثمر ليطعم الجائع والطارق حتى إنه لم يبق في ملكه غير فرسه، وبتنا طاويين وسَفَّانَةُ وعدي صبيان وقد أجهدهما الجوع، فجعل يعلل سَفَّانَة لتنام، وجعلت أعلل عديًا. فلما ناما أقبل علي يحدثني ليشغلني بذلك عن ألم الجوع لعلي أنام؛ فَنَومت نفسي شفقة عليه، فقال لي: نمت؟ فلم أجبه، فظن أني قد نمت، فجلس، فبينما هو كذلك إذا بسواد قد أقبل فقال: من هذا؟ فقالت: جاريتك فلانة، وقد تركت صبياني يتضوَّرون جوعًا، فقال لها: والله لأشبعنهم وإياك، فارجعي إلى بنيك وائتي بهم، فرفعت رأسي وقلت له: وبم تشبعهم وما نوّمنا صبياننا إلا بالتعليل؟! فأخذ سيفه فعقر فرسه ثم ذبحه وأجج نارًا، ثم أمر المرأة أن تأكل وتشبع صبيانها، وأيقظ سفانة وعديًا وناولني المدية فقال: كلي وأطعمي صبيانك وعبيدك، ثم نهض فقال: والله إنه للؤم أن أشبع وأهل الحي جياع، فذهب إلى الحي يوقظ أهل كل بيت فيقول لهم: هلموا إلى النار فإن آل حاتم قد نحروا؛ فاجتمع أهل الحي على النار حتى لم يتركوا إلا حوافره وهو متقنع بردائه، فوالله ما طعم منه مضغة وقد كان أحوجنا إليه وأشدنا جوعا!!

يروى أن الله يجعل له في النار بيتًا من برد فلا يجد ألم النار لجوده وكرمه، ولا يدخل الجنة لأن الله حرمها على المشركين[2].

ومراد الناظم الحث على الجود بأنفس الموجود، والتَّرغيب في إفراغ الجهد في ذلك على الوجه المحمود؛ عملا بما عليه أرباب الإرادة الذين قصروا المقصود على رضا الرب المعبود ومالك الموجود والمعدوم، لنكون من أهل السعود، الموفين

---

(١) في (أ): فرس فاره، وفي (ب): فرس فارس، ولعل الأول أصوب.

(٢) القول بأن حاتمًا يبني له بيت من برد في النار لجوده غير صحيح، والله أعلم.

بالعهود، القائمين على الحدود، الذين أحلهم تواجدهم[1] جنة الوجود، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

● ثم قال رحمه الله:

٦٩ - وَذَاتَ الحَذَا اصْنَعْ مِنْ نَجَاهَا حِذَاءَ ذِي
وَجًى واغْتَنِمْ صَوْمًا فَفِيهِ وِجَاءُ

قوله: وذات الحذا: أي اعمد إلى بقرة ذات حذا، بالفتح والقصر، وهو مصدر حذيت البقرة أو الناقة: إذا انقطع سلاها في بطنها، فاصنع من نجاها أي جلدها حذاء شخص صاحب وجًى، بالقصر: مصدر وجي الرجل، بالكسر: اشتكى باطن قدمه، فإن زاد فهو حفًى، والحذاء، بالمد: النعل. واغتنم صومًا؛ فذلك الفعل والصوم وجاء، بالكسر والمد: أي رَضُّ الأنثيين من غير نزع لهما من محلهما، فقطعهما خصاء.

قال مالك بن المرجل في نص الفصيح له: (من بحر الرجز)

وقد خصيت الفحل والخصاء أن ... تنزع الخصيين والوجاء أن
يتركا هناك بعد رض ... ينوب عن نزعهما وغض

وقد وقع في الحديث الصحيح: قال ﷺ: «من لم يستطع منكم الباءة[2] فعليه بالصوم فإنه له وجاء»[3]؛ لما فيه من قطع مادة الشهوة بالاستقلال عن الأكل والشرب.

---

(١) لم يتضح المقصود من كلمة (تواجدهم) إلا إذا كان يريد حبهم لله أو فرحهم للقائه. فأصل التواجد أن يرى الإنسان من نفسه الوجد أي الفرح أو المحبة أو الحزن، والله أعلم.

(٢) الباءة: النكاح لغة، والمراد هنا الأهبة له، أي من استطاع منكم مؤونة النكاح فليتزوج.

(٣) حديث «من لم يستطع منكم الباءة فعليه بالصوم»... إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان في كتاب الصوم، ولفظه عند البخاري: «من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء».
والوجاء: أصله رض الأنثيين، وأطلق على الصوم مجازًا؛ لأن كلا منهما مذهب للشهوة، والله أعلم.

قال البوصيرى رضى الله عنه: (من بحر البسيط)

* إن الطعام يقوى شهوة النَّهِمِ *

وقال ﷺ: «لا رهبانية فى الإسلام، ورهبانية أمتى الصوم والجهاد».

وإنَّما يكسر الصوم سَوْرة الشهوة بالطول والإدمان عليه، وأما أول مرة فلا تزداد الشهوة به إلا إيقادًا لما فى ذلكٍ من تجفيف الرطوبات التى من شأنها أن تُرخى العصب وتكسر سورة الحرارة الغريزية، كما فى كتاب المدخل.

قوله: وذات الحذا: عبارة عن الدنْيا؛ لأن قطع السلى من المرض المخوف إذْ قلما أنتن فى جوف البهيمة فسلمت.

قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

ولا أقولُ إن عرتنى أزمـــة[1] قول القنوط انقد فى البطن السلى

وإذا كانت الدنيا كذلك فَاتخذ من نَجاتها حذاء للعمل ومنْ لحمها زَادًا لبلوغ الأمل، واقطع شهواتها التى هى كأحلام النوم بالزهد فيها والرغبة عنها، فذلك المقْصود بالصوم، تكن من المفلحين، وتلحق بالقَوم، وإلا فأعد جلبابًا للتوبيخ واللوم، واستحضر فجاءة الشقاء والشؤم؛ فإنه ليس بعد الدنيا دار إلا الجنةُ أو النار، وذلك معنى قوله ﷺ: «من ضَاعت دنْياه فآخرته أضيع». وضياعها عدم التزود منها، إذ هى فانية زائلة لا محالة، فمن فاتته ولم يتزود منها فقد ضاعت عليه دنياه فى غير فائدة، وآخرتُه أضيع؛ إذ لا آخرة إلا بزاد من التقى والعمل الصالح يقدمه لآخرته من دار دنياه، فإن فاته هذا فلا دنيا له ولا آخرة، ومن لا دنيا له ولا آخرة فالنار مثواه، والخزى والوبال مأواه؛ إذ الآخرة بنت الدنيا ونتيجتها.

قال على كرم الله وجهه: من قدم دنياه أمامه أحب اللحوق بها، ومن أفنى دنياه فى شهواته وهواه كره القدوم على دار قد خربها، ولا بد له من ذلك؛ فيندم حيث لا ينفع الندم؛ لا جعلنا الله ممن قدم الأمل وأخر العمل حتى فجاءة الأجل، آمين.

---

(١) النسخ المطبوعة من قصيدة ابن دريد: (نكبة) بدل (أزمة).

• ثم قال رحمه الله:

٧٠ ـ وَكُنْ لِوَزًى هَابَ الوِزَاءَ مُؤَمِّنًا فَشَرُّ الْبَرى مِنْهُ الْكِرَامُ بِرَاءُ

كن: فعل أمر من الكون، وخبره مؤمنًا، واسمه مستتر وجوبًا. لوزى: جار ومجرور متعلق بكن، وهو القصير الهلب من الدواب، والضعيف من الرجال، ومن لا قرن له، وهو بالزاى المعجمة مع فتح وقصر، هاب: فعل ماض، وضمير فاعله المستتر عائد على وزى. الوزاء، بالكسر والمد: الأقْوياء، وهو مفعول هاب.

قوله: فشر البرى: فشر: مبتدأ، والبرى، بالفتح والقصر: مضاف إليه ما قبله. والكرام: مبتدأ ثان، وبراء: خبره. والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول. ومنه: متعلق ببراء، فالبرى الخَلْق، ومعناه: فشر الخلق منه الكرام بِرَاء، جمع برىء وبراء.

وقد وقع فى الحديث الصحيح أن «من شر الناس من تركه الناس اتقاء فحشه»[1] أى داراه الناس وغمضوا عنه عيونهم اتقاء ما يصدر منه، ونزاهة عن فحشه؛ لما يستخرجه النصح والزجر منه مما هو شر منه من كان عليه، وهو من الذين إذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم؛ فحسبه مؤدبًا وزاجرًا ومستعتبًا جهنم وبئس المصير؛ إذ لا دواء له غيرها؛ فهو كالزبوق[2] لا يَصلح إلا للنار، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث؛ معناه: إنْ تعظه لا يتعظ، بل لا تزيده الموعظة إلا خبثًا؛ لأنها تثير ما فى بطنه من خبث الطوية، أو تتركه فَلا تعظهُ لا يزال على ما جبل عليه من الضلال والشر والفحش والطيش؛

(١) حديث: «إن من شر الناس . . . . إلخ» جزء من حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وأبو داود والترمذى؛ وسببه أن رجلا استأذن على النبى ﷺ، فلما رآه قال: بئس أخو العشيرة، فلما جلس تطلق فى وجهه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة يا رسول الله،حين رأيت الرجل قلت له: كذا وكذا، ثم تطلقت فى وجهه وانبسطت إليه! فقال: يا عائشة، متى عهدتنى فحاشا؟ ثم قال ـ حسب رواية البخارى ـ: «إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره» (كتاب الأدب).

والرجل المشار إليه هو الأحمق المطاع عيينة بن حصن الفزارى.

(٢) كالزبوق: كذا فى الأصلين ولعل الكلمة خطأ، إلا إذا كانت كالزيوف، الذى هو المزيف من الدراهم، فهذا فعلا لا يصلح إلا للنار، والله أعلم.

لأن الله لم يجعل له فى الخير حظًا ولا نصيبًا.

قال ﷺ: «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل»(١).

وقال ﷺ: «إن الرجل ليبلغ بحسن خلقه درجة الصائم القائم». وفى رواية: «درجة الصائم الذى لا يفطر والقائم الذى لا يفتر».

وقال: «لو كان الحياء رجلاً لكان رجل خير، ولو كان الفحش رجلاً لكان رجل سوء»(٢).

وقال: «البذاءة من النفاق».

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٧١ ـ وَحَاذِرْ كَهًى مِنْ ذِى كِهَاءٍ عَلَى قِرًى
وَمَـــا هَمُّـــهُ إلاَّ لُهًى وقِرَاءُ

قوله: وحاذرْ: فعل أمر من حاذر. كهًى، بالفتح والقصر: مفعول حاذرْ، أو منصوب بنزع الخافض، أى: حاذر أن تكون كذى كهى(٣)، والكهى: مصدر كهى الرجل، بالكسر، إذا كان جبانًا مخلعًا.

قال ﷺ: «إن الله يحب الشجاعة ولو على قتل حية، ويبغض الجبن ولو من أسد حرد»(٤).

والكهاء، بكسر الكاف والمد: المفاخرة بعظم الجسم، وذلك من شأن من لا خلاق له.

---

(١) حديث «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن». رواه الطبرانى وأبو الشيخ، وعنهما صاحب الكشف دون الزيادة التى هى: «وإن الخلق السيئ»... إلخ. وهو عنده تحت رقم ٨٢٩، والله أعلم.

(٢) حديث «لو كان الحياء رجلاً لكان رجل خير»... إلخ. تقدم ذكره.

(٣) وفى هذه الحالة لا يكون منصوبًا بنزع الخافض.

(٤) حرد: غضب.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ترى الرجل النحيف فتزدريه وتحت ثيابه أسد هصور

ويعجبك الطرير فتبتليه ويخلف ظنك الرجل الطرير[١]

يروى أن النبى ﷺ لما أتاه وفد عبد القيس سألهم فقال: هل فيكم الأشج؟ فقالوا له: ذاك هو، وكان رجلاً قصيرًا دميمًا، فلما نظر النبى ﷺ إليه خاف أن يكون قد انكسر قلبه لدمامته، وتكون عين رسول الله ﷺ قد اقتحمته، فقال: «ادن أيها الرجل فإن الرجال لا يستقى فى مسوكها[٢] إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه». وأول من قال ذلك شقة التميمى، وكان يحارب النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقد نهب أمواله وقتل أبطاله؛ فطلبه كل الطلب فلم يقدر عليه مع قوة سلطانه وكثرة أعوانه، فلما يئس منه بعث إليه رجلاً من قومه فقال له: سلم على شقة وقل له: إن أنتَ أتَيتنى وسالمتنى أعطيتُك ألف نَاقة؛ فوفد إليه، فلما رآه اقتحَمته عينه واحتقَرته لدمامته وقصر قامته، ففهم ذلك شقة، وكان رجلا لبيبًا مفوهًا، فقال له: أيها الملك، أبيت اللعن، إنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه، فإذا نطق نطق ببيان، وإن صال صال بجنان؛ فأقبل إليه الملك، وأدنَاه، ورفع منزلته، فلما ناطقه أعجبه ما رأى من فصاحته، وجودة عقله، وكمال أدبه، وثبات جأشه، فقال له: أى شقة، إنى كنت أسمع بمكارمك وليس الخبر كالعيان، وإنى قد رغبتُ فيك كل الرغبة، فإن شئت أعطيتك من الأموال ما يحيط بالأموال، وإن شئت كنت لى نَديمًا وأنا لك بكل ما تشتهيه نفسك زعيمًا؛ فقال له: المال محبوب لكنى لا أختار على الملك شيئًا؛ قال له: لله أبوك يا شقة! عجزت الرجال أن تماثلك، وقصرت الأبطال عن أن تطاولك، فلأجمعن لك بين الحباء[٣] والاحتباء، فأعطاه من الأموال ما يقصر عنه الوصف، ثم اتخذه نديمًا.

والكهاء، المتقدم ذكره، مصدر كاهى الرجلُ الرجلَ: إذا فاخره بعظم الجسم.

---

(١) الطرار: النشال، السارق. الطرير: الذى طلع شاربه، والرجل الطرير: ذو طرة وهيئة حسنة وجمال، ويقال: رجل جميل وطرير.

(٢) المسوك: الجلود.

(٣) الحباء: العطية. والاحتباء: النصرة.

والقرى، بالفتح والقصر: الظهر. واللُّهى، بضم اللام المشددة: جمع لهية، وهى العطية والمأكل.

قال الشاعر:

* واللُّهى تفتح اللَّها *

والقراء، بالكسر والمد: الحياض، جمع قرة.

ومعناه: احذر جبنًا من ذى مفاخرة بعظم جسمه حال كونه مستلقيا على ظهره وقفاه، وليست له همة إلا فيما يأكل ويُعْطىَ، أو فيما يشرب منه من الحياض أو يمرح فيه من الرياض؛ فهو بهيمة فى صورة إنسان، كما قال الشاعر: (من بحر الكامل)

أبنىَّ إن من الرجـال بهيمـةً ... فى صورة الرجل الفطين المبصرِ
فطن بكـل مصيبـة فى مـاله ... وإذا يصـاب بدينه لم يبصر

عكس الأبله.

قال رسول الله ﷺ: «خير أبنائكم الأبله، قالوا: وما الأبله يا رسول الله؟ قال: من له فطنة بأمر دينه ولا فطنة له بأمر دنياه، وهم أكثر من يدخل الجنة بعد الفقراء». جعلنا الله ممن جمع له خير الدنْيا والآخرة وعافيتهما، آمين.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٧٢ـ وَكُلَّ مَلاً بُذَّ المِلاَءَ رِضًى وَذَا ... خَلاً دُمْ فَطَوْعٌ لاَ يَدُومُ خِلاَءُ

قوله: وكل ملا: الكل: لفظ موضوع للعموم، الملا: أحد الملوين: الليل والنَّهار. والملاء، بالكسر والمد: جمع مليء، أى غنى، بُذَّ، بالذال المعجمة: أى غلبهم وفاقهم، ويضبط بضم الباء وفتح الذال. ويجوز ضمها وكسرها، كما هو الشأن فى الأمر من الثلاثى المضاعف كلذوا وشذوا. وكل: منصوبٌ بالظرفية. والمِلاء: الكلام الحسن. والخِلاء، بالكسر والمد مصدر خلئت الناقة، وهو فيها بمثابة الحِران.. ومنه ما فى الحديث: خلأت القصوى، وهى ناقة النبى ﷺ، فقال ﷺ:

«ما خلأتْ القصوى وما هو لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل»[1].

والخلاء أيضًا: المشاركة.

والمعنى: وكل واحد من الليل والنهار غلب الأغنياء والأقوياء وأهل العيافة والتنجيم وفاقهم، فإنما ينبغى لك حينئذ الرضى بما قدر لك، والتسليم لأمر الله؛ فينتج لك ذلك الرضى فى كل وقت بما يوافقه.

قال ابن عطاء الله: ما ترك من الجهل شيئًا من أراد أن يحدث فى الوقت ما ليس فيه، ولا تختر على ربك، وليكن رضاك بفقرك أكثر من رضى الأغنياء بغناهم.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

وسلِّمْ للمهيمن فى قضـــاه ولا تختَرْ فليس لك اختيارُ

ودم صاحب كلام حسن. فطوع لا يدوم خلاء: أى فذلك الطوع لا يدوم، فكأنه لم يفعل أولاً.

قال ﷺ: «أحب الأعمال إلى الله ما كان ديمة ولو قلّ»[2].

وقال ﷺ: «اعملوا ولا تفتروا فإن الله لا يمل حتى تملوا».

فإن العمل إذا صنع ثم قطع فكأنه لم يفعل، وذلك مما يفسد النفس، ويحملها على الفشل والرعونة والكسل، إذ النفس كالناقة التى تخلأ قلما تحمل عليها بعد المتَاركة.

فالكلام دعاء مفرغ فى قالب الخبر؛ فَالملا: مضاف إليه ما قبله. وبذ: فعل ماض. والملاء: مفعوله. وفى البيت تعقيد وتقديم وتأخير؛ فَدُمْ: فعل أمر بمعنى الدعاء حال كونك ذا رضى وذا كلام حسن بما يجرى به الملوان من المقادير، فسلم له حال كونك ذا رضى. فرضًى وخلا: حالان من ضمير دم. وطوع: مبتدأ. لا:

---

(١) «ما خلأت القصوى»... إلخ. قاله ﷺ فى قصة الحديبية لما بركت ناقته ﷺ.

(٢) حديث «أحب الأعمال إلى الله»... إلخ. متفق على صحته. رواه الشيخان بألفاظ مختلفة، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٢٢ والسيوطى تحت رقم ١٩٧، والله أعلم.

نافية. يدوم: فعل مضارع، والجملة وصف لطوع، ومحله الرفع. وقال المبرد: لا محل لها لكونها اعتراضية بين المبتدأ وخبره، وإنما قصاراها أن تكون مسوغة للابتداء بالنكرة وخلاء: خبره.

* * *

• ثم قال رحمة الله عليه:

٧٣ - وَعِظْ نَفْسَكَ السَّهْوَى لِسَهْوَاء انْقَضَتْ ... وعُـدَّ لَقًى مـا خُـدَّ مِنْهُ لِقَـاءُ

قوله: عظ نفسك: عظ: فعل أمر من وعظ يعظ وعظًا: إذا ذكروا وأنذروا، ودعا من الغفلة إلى اليقظة، ومن الجهل إلى المعرفة، ومن الكسل إلى الخدمة، ومن التوانى إلى العزمة، إذا كان فى السامع قابلية.

قال رسول الله ﷺ: «من لم يكن له واعظ من نفسه فلا واعظ له».

نفسك: مفعول به ومضاف إليه ما قبله. السهوى: نعت لنفسك، وهو مؤنث السهوان: الذى يسهو كثيرًا.

وفى المثل: «كيف ترجو من الناس وعدًا وهم بنو سهوان؟» لأن أباهم آدم عليه السلام هو أول من سها. قال الله تعالى: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

فلا تلم من نَسِيٍّ فى محاورة ... فإن أولَ ناسٍ أولُ الناسِ

والسهواء: ساعة من الليل معروفة، فلسهواء: جار ومجرور متعلق بعظ. انقضت: فعل ماض نعت لسهواء. وعد: أى اترك. ولقى، بالقصر والفتح: وهو ما لا يعبأ به من سفساف الأمور، والأرذال من الناس. واللقاء، بالكسر والمد: من الملاقَاة.

والمعنى: عظ نفسك الساهية كثيرًا، أى حذرها وأنذرها وذكرها ما يزجرها عن انهماكها، وانتشلها من انتشابها فى وحل الغى، وارتباكها فى تُرهات الزى، وكرر ذلك عليها لمضى كل ساعة من ليل أو نهار، وعد، أى احبس نفسك عن كل لقى

من الحقير الخسيس من أمور الدنيا، فإنه إن لم يكن فى نفسك كذلك فهو فى الحقيقة كذلك؛ لأن الدنيا بحذافيرها لا تساوى عند الله جناح بعوضة؛ فما فَات منها مما تحاوله قليل من قليل، وهون عليك ما لم تنل من أمور دنياك بتحقيرك إياه وتصغيرك قدرها، بالإضافة إلى ما تطلبه تفتح لك بحول الله وقوته أبواب السلوك وتصل إلى محل لا يصل إليه إلا الملوك، وما ذلك على الله بعزيز، وهو الذى يعلى الخسيس بإضافته إليه، ويخلع خلع العز والقبول عليه، لا حرمنا الله من ذلك وإن لم نكن أهلا له، آمين.

* * *

• **قال رحمه الله تعالى:**

٧٤ـ وكُنْ لِخَفَا النَّجْوى خفَاءً يَقِى جَوًى
فَبِالصَّوْنِ لِلنَّجْوَى تُصَانُ جِواءُ

فالخفاء، بالقصر: الشىء الخفى. والنجوى: مشتقة من طلب النجاة؛ لأن بصيانة السر تتحصل السلامة، وقيل: هى مشتقة من النجوة: وهى الأرض التى لا عمارة فيها؛ لأن المتناجيين يطلبان محلاً خاليا من الناس.

روى أنه ما أذيع سر إلا كانت إذاعته سببًا للتلف، قال الله تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف:٥]، فلما أفشى يوسف رؤياه بمشهد امرأة يعقوب أخبرت امرأته أخوته؛ فحل به ما حل. ولقد أرشد الله أهل عنَايته إلى كتمان السر وتبجيله، بما حكاهُ عن خلوته بصفيه وخليله، بمستوى وحيه وتنزيله، فقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

وفى الحديث: «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود»[(١)].

(١) حديث «استعينوا على قضاء الحوائج بالكتمان»... إلخ. ضعيف، رواه الطبرانى وأبو نعيم بسند ضعيف، والبيهقى وابن أبى الدنيا بسند فيه سعيد بن سلام وقد كذبه أحمد. والعسكرى بسند ضعيف وفيه انقطاع، واللفظ عند أكثرهم: «استعينوا على إنجاح حوائجكم بالكتمان فإن كل ذى نعمة محسود».
وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم ٣٤٢، والله أعلم.

وقال على كرم الله وجهه: سرك أسيرك، فإذا تكلمت به صرتَ أسيره.

واعلم أن أمناء الأسرار أقل وجودًا من أمناء الأموال، وحفظ الأموال أيسر من كتمان الأسرار؛ لأن الأموال تحرز بالأبواب والأقفال، والأسرار بارزة يدفعها لسان ناطق، ويشيعها كلام سابق، فإن الرجل يكون سره فى قلبه؛ فيلحقه من القلق والكرب ما لا يلحق من حمل الأثقال، فإذا أذاعه سكن قلبه، واستراح خاطره، وكأنما ألقى عن نفسه حملاً ثقيلاً.

وقال عمر بن عبد العزيز: القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسن مفاتيحها؛ فليحفظ كل إنسان مفاتيح سره.

ومن عجائب الأمور أن الأموال كلما كثرتْ خُزّانها كان أوثق لها، والأسرار كلما كثرت خزانها كان أضيع لها.

قال أنوشروان: من حسن سره فله بتحصينه خصلتان: الظفر بحاجته، والسلامة من السطوات.

قال كعب بن سعيد القنوى: (من بحر الطويل)

ولست بمبد للرجال سريرتى ... ولا أنا عن أسرارهم بسؤولِ

وقال أبو مسلم صاحب الدولة: (من بحر البسيط)

قد نلت بالعزمِ والكتمان ما عَجزَتْ ... عنه ملوك بنى مروان إذ حشدوا

ما زالت أسعى بجهد فى دمارهم ... والقوم فى غفلة بالشام قد رقدوا

ما زلت أضربهم بالسيف فانتبهوا ... من نومة لم ينمها قبلهم أحدُ

ومن رعى غنمًا فى أرض مسبعة ... ونام عنها تَولى رعيها الأسدُ

قال بعضهم لرجل استودعه سرًا: أحفظت؟ قال: بل نسيت.

وقال المهلب بن أبى صفرة: أدنى أخلاق الشريف كتمان السر، وأعلى أخلاقه نسيانه ما أسر إليه.

---

(١) رواية الذهبى فى سير أعلام النبلاء لهذا البيت هى:

طفقت أسعى عليهم فى ديارهم ... والقوم فى ملكهم بالشام قد رقدوا

(٦/ ٥٣).

ومن أحسن ما قيل فى كتمان السر قول الشاعر: (من بحر الكامل)

ولها سرائر بالضمير طويتها   نسىَ الضميرُ بأنهـا فى طيِّه

وقيل: كتمان السر يدل على جوهرة الرجل، كما أنه لا خير فى آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير فى لسان لا يمسك سره.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومستـودعى سرًا كتمـت مكـانه   عن الحسِّ خـوفًا أن ينم به الحسُّ

وخفت عليه من هوى النفس شهوةً   فأودعتُـه مـن حيث لا تعلم النفسُ

وقال إسحاق بن إبراهيم الموصلى: (من بحر الطويل)

وناس أمِنَّاهم فأفشَوْا حـديثنا   فَلما كتمنا السر عنهم تَقَوَّلُوا

وقال المتنبى: (من بحر الطويل)

وللسرِّ منى موضـع لا يناله   نديمٌ ولا يُفْضى إليه شرابُ

قوله: الخفاء، بالمد: الغطاء، بالغين المعجمة، من أى شىء كان، وهو خبر كن. والجوى: هنا النتن، وكَنَّى به عن قبح إفشاء السر، ودناءة صاحبه، وعدم نظره إلى عواقب إفشاء السر، وما يؤول إليه من المفاسد، وأراد الناظم بذلك لازم معنى النتن من القبح وسوء الطوية والبعد عن مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم، ويصح أن يكون لفظيًا؛ فَالجوى استعارة لإفْشاء السر. والجواء، بالمد والكسر: جمع جواء وهو المكان المطمئن، وخصهما على ما قاله لأن سكناه إنما يكون فى المصالحة والمهادنة. يقول: وكن للسر الخفى غطاء، كفى ذلك الغطاء قبح إفشاء السر، فبالصون للسر من الإفشاء أى بكتمانه تصان جواء، ويدوم الأمن والمصالحة والحياء، وتنأى عن الساحة الأعداء والاعتداء، وتتآلف الأهواء، وتقل بسبب ذلك الشكوى والشكواء[1]، ويرفع البلا والبلواء، وتكثر الآلاء، وتزول اللأواء[2]، وتقطع الشحناء، وتحل مكان الضراء السراء، وتنجلى الأزمات وتحل مكانها

(١) الشكواء، بالمد: المرض.

(٢) اللأواء: الشدة والضيق.

السراء. جعلنا الله ممن يسره لليسرى، وفتح عليه باب الذكرى، وأصلح له الدنيا والأخرى، آمين بجاه الأمين.

* * *

• قال رحمه الله:

٧٥ ـ تَوَقَّ الرَّدى وَالْبَسْ رِداءً مِنَ التُّقَى لَعَلَّ الشَّفَا يُلْفَى لَدَيْهِ شِفَـاءُ

قوله: توق: أى احتفظ من الردى أى الهلاك مصدر رَدِى بالكسر إذا هلك، والبس رداء كائنا من التقى، لعل الشفا، بالقصر والفتح: وهو طرف كل شيء، والمراد به هنا آخر العمر، يوجد عنده شفاء، بالمد والكسر: أى برء أو ما يقع به البرء من الأدوية وشبهها؛ فالردى هنا كناية عن المهلكات من الذنوب الموبقات، أو ما يجر إليه من الأهواء والانكباب على الشهوات، فإذا لبست درع الصيانة، وجعلت على رأسك بيضة الأمانة، وأخذت بشمالك جُنَّةَ التقوى، وهززت بيمينك صارم التوكل والنجوى، فقد أخذت أهبة النجاة من المهالك، وسلكت أنجح المسالك، واستحصلت ما ضاع عليك بأفضل المدارك فاستدركته، وجز حينئذ بسيف العزم مسافة التسويف، وعُلَّ بعد الأثخان[1] علة برمح التعريف، تجد كلما أشفَيت على المخاوف ظهيراً من اللطيف، يجبر كسر الضعيف، عندما يطوف به طائف من الشيطان المخيف، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١] بدفع مكائده وسد ثغور مصائده، وتحصنوا بالتَّوبة النصوح من الغى والفضوح[2]، فوقع الشفاء، وحصل بعد الشفا على الحظوة الاصطفاء، فاضمحل المحذور، ووقع الأمن والسرور، وانحسم الغرور، وتضاعف الحبور، فأصبح العيش هنيًا والفقير غنيًا.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وجُزَّ بسيف العزم سوف ولا تكن وإيـاك عَـلَّ فَهْى أخطـر عِـلَّةِ

قال الرسول ﷺ: «إذا أراد الله بعبده خيرا بصره بأمره وجعل له كلما عثر من

---

(١) الأثخان: الجراح الشديدة.

(٢) كذا فى الأصلين: الفضوح.

ينبهه منْ نومه، وإذا أراد الله بعبده سوءًا لم يجعل له منبهًا وتركه ونفسه».

يروى أن رجلاً من السلف كان له ورد من صلاة، وكان له محراب، فغلبته عيناه ليلة، فبينما هو نائم إذ محرابه قد انشق عن سبع جوارٍ: ستة منهن عليهن الحلى والحلل وكأن وجوههن أقمار صحو، وإذا معهن جارية سوداء شوهاء منتنة الرائحة، فقال لها: مالك أيتها الجارية قد شوه الله خلقك بين صواحباتك؟ فقالت: أو ما تعرفني؟ قال لها: لا والله ما أعرفك وهذه صورتك، فقالت له: أنا ليلتك هذه التي نمتها، ثم أنشدت فقالت: (من بحر البسيط)

اضرع إلى الله فى ردى إلى حالى ... فأنت شوهت شكلى بين أشكالى

لا ترقدن الليالى ما حييت فإن ... نِمْتَ الليالى فهى الدهر أمثالى

نحن السرور لمن نال السرور بنا ... جَوف الظلام بسكنى المنزل العالى

وقد أردت بخير إذ وعظت بنا ... فأبشر فأنت من الموالى على بال

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف:٢٦] لأنه أستر للعورات، وأدفع للروعات، وأنفع فى الماضى والآت؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [1] [مريم:٧٢]، ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢، ٣] أمدنا الله باليقين، وجعلنا من حزبه المتقين.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٧٦ ـ وَشِبْهُ الْهَجَا أَهْلُ الْهِجَاءِ فَلاَ تَكُنْ [2]

حَجَا مَعْشَرٍ هُمْ بِالهِجَاءِ حِجَاءُ

قوله: وشبه الهجا: فيه تقديم وتأخير، وترتيبه: أهل الهجاء، أى أصحاب الهجا، شبه الهجا وهى الضفادع، لأنهم ينطقون ويصوتون بغير فائدة كالضفادع

(١) جثيا: جمع جاث: جلس على ركبتيه، أو قام على أطراف أصابعه.

(٢) فى النسخة (ب): فلا تطر، وعليها شرح المؤلف.

فى الماء، بل الضفادع خير منهم لأنها ترفع أصواتها بذكر الله، إلا أنها لا تفهم، لقوله ﷺ: «إن الله لم يخلق دابة من دواب البر ولا من دواب البحر أعبد ولا أكثر ذكرًا من الضفدعة».

ولذلك قيل بتحريمها لكثرة ذكرها لله، ويكون تحريمها حرمة لا تحريم خبث ولا فساد كتحريم لحم الإنسان، كما قال الدميرى.

ويروى عن على كرم الله وجهه أنها تقول فى نقيقها[1]: سبحان الواحد القهار، سبحان المعبود فى البحر والقفار. ذكره فى جملة من أذكار الحيوانات لما سأله عن ذلك حبر من أحبار يهود، فأجابه عنه كما فى التوراة، انظر البحر المحيط عند قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل:١٦].

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما من حيوان يصوت إلا ذكر الله ما عدا الحمار والغراب فإنهما يلعنان العشارين فإذا رغى البعير فإنه يقول: حسبى الله، وكفى بالله وكيلاً. وإذا حن فإنه يقول: كيف يستطيع السكوت من لم يجد القوت؟! وأما الفرس فإنه يقول: سبحان الله حافظى إذا التقت الأبطال واشتغل الرجال بالرجال. ويقول كلما أصبح وأمسى: اللهم من ملكته ناصيتى فاجعلنى من أحب أمواله إليه. وتقول الشاة فى ثغائها: سبحان اللطيف رازق الضعيف. وتقول البقرة فى خوارها: سبحان من بسط رزقه ولم يضيع خلقه. وتقول الفاجة[2] فى هديرها: سبحان من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا. ويقول الديك فى تأذينه: اذكروا ربكم يا غافلون. ويقول الصرد فى ضجيجه: سبحان من لا ينسى من ذكره ولا يكرم من كفره. الى غير ذلك مما يطول ذكره ولا تحمله هذه العجالة المختصرة.

فالهجاء، بالكسر والمد: المشاتمة بالأشعار على وجه المبالغة، وهو مما لا ينبغى شرعًا ولا عادة.

قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا عظمت على أمتى الدنيا رفعت عنها

---

(١) النقيق: صوت الضفادع.

(٢) الفاجة: كذا فى الأصلين، ولعل المراد الفالج، وهو الجمل الضخم ذو السنامين، ويسمى كذلك الدهانج. ذكره الدميرى (٢/ ٢٠٢).

هيبة الإسلام، وإذا لم يتناهوا عن منكر فعلوه رفعت عنهم بركة الوحى، وإذا تسابوا وتهاجوا أسقطوا من عين الله».

والحجا، بالفتح والقصر: الناحية. والحجاء، بالكسر والمد: جمع حجا، وهو الفرج، كأنه يقول: أهل المشاتمة بالأشعار في الأشرار شبه الضفادع؛ فلا تحم حول ناحية معشرهم. وهم مولعون بالمشاتمة بالشعر. فلا تطر: يقال: طاره يطروه طوراً: حام حوله. والحجاء أيضا: الفرج، وتصح إرادته هنا بأن يكون المعنى هم فروج أى مثلها فى الاستقذار، والحجاء يطلق ويراد به الولوع بالشىء، والحجاء: العاقل.

وهذا حيث لم يكن الهجو محموداً، وهو على قسمين: محمود ومذموم:

فالمحمود منه: ما كان فى توهين الشرك، وذم أهله، وتحقير الفجور، وشتم أهل الشرك.

والمذموم: ما كان فى شتم أعراض المسلمين، وهتك أستارهم وحرماتهم، والتفكه بلحومهم، وهذا حرام بلا خلاف، وقبيح، ويجرح أهله، لكنه ينبغى تعلمه تدريبًا وتفصحًا واستعداداً لرد مثله إن وقع من أهل الكفر والفجور؛ لقوله ﷺ: «من تعزّى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا»[1].

وإنما ينبغى تعلمه لما فيه من ألفاظ فصيحة ومعان بديعة، وليس الهجاء دليلاً على إساءة المهجو ولا على صدق الشاعر فيما رماه به، فما كل مذموم بذميم، وقد يهجو الإنسان بهتانًا وظلمًا وعبثًا وإرهابًا. وقال المتوكل لأبى العيناء: إلى كم تمدح الناس وتذمهم؟! قال: ما أحسنوا وأساءوا.

وقد رضى تعالى على عبده أيوب فقال: ﴿نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]، وغضب على عبد فقال: ﴿مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾[2] [القلم: ١٢، ١٣].

---

(١) حديث «من تعزى عليكم»... إلخ. رواه أحمد والنسائى وابن ماجه، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٤٣٧.

(٢) الزنيم: الدعى.

وقال دعبل فى المأمون بعد البيعة له وقتْل الأمين: (من بحر الكامل)

إنى من القوم الذين هم هم قتلوا أخاك وشرفوك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الأوهد(١)

فقال: ما أبهته ما أبهته! ليت شعرى متى كنت خاملا وفى حجر الخلافة ربيت وبثدييها رضعت؟!

ولما قتل جعفر بن يحيى بكى عليه أبو نُواس وحزن، فقيل له: أتبكى عليه وقد هجوتَه؟! فقال: ذلك لركوبى الهوى، بلغه أنى قلت فيه، (من بحر الطويل)

ولست وإن أطنبت فى وصف جعفر بأول إنسان خرى فى ثيابه(٢)

فكتب إلى عامله أن يدفع لى عشرة آلاف درهم أغسل بها ثيابى.

ومن الىبث بالهجو ما روى عن الحطيئة أنه أصبح وقد هم بهجاء، فلم يجد منْ يستحقه إلا نفسه؛ فهجاها فقال: (من بحر الطويل)

أبت شفتاى اليوم إلا تكلُّمًا بسوءٍ فلم أدرى لمن أنا قائلُهْ
أرى لىَ وجهًا قَبَّحَ اللهُ خلقه وقُبِّح من وجه وقُبِّح حاملُهْ

وعبث يوما بأمه فقال: (من بحر الوافر)

تنحى واقعدى منى بعيدًا أراح الله منك العالمينا
فغربالاً إذا استودعْت سرًا وكانونًا على المتحدثينا
حياتك ما علمت حياة سوءٍ وموتك قد يسر الصالحينا

وقال رجل: ما أبالى أهجيت أم مدحت؛ فقال الأحنف بنُ قَيس: أرحت نفسك من حيث تعب الكرام، لأن الإنسان إذا كان لا يخشى على عرضه فقد يستوى عنده المدح والذم، وبئس الرجل ذلك.

---

(١) الأوهد: السحيق، وشطر البيت كما هو فى العقد الفريد:

* رفعوا محلك بعد طول خموله *

(١٩٦/٢) عقد.

(٢) يعنى أنه ليس أول إنسان تغوط فى ثيابه.

وكان الرجل من بنى نمير إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بنى نمير، فلما هجاهم جرير بقوله: (من بحر الوافر)

فغضَّ الطرف إنك من نمير   فلا كعبًا بلغت ولا كلابا

صاروا إذا قيل لأحدهم: ممن الرجل؟ قال: من بنى عامر. وما لقيتْ قبيلة من العرب من الهجو ما لقيت بنو نمير من بيت جرير هذا[1].

وهجا ابن بسام رجلا فقال: (من بحر الخفيف)

يا طلوع الرقيب ما بين إلف   وغريمًا أتَى على ميعاد[2].

يا ركودا فى يوم غيم وصيف   يا وجوه التجار يوم الكساد

يروى أن أهجى شعر قالته العرب: (من بحر البسيط)

قوم إذا نبح الكلاب ضيفهمُ   قالوا لأمهم بولى على النار

فتمسك البول خوفًا أن تجود به   ولا تبول لهم إلا بمقدار

وقصد ابن عيينة قبيصة المهلبى فمدحه ولم يسمح له بشىء؛ فانصرف مغضبًا، فتوجه إليه داود بن زَيد فأرضاه وأحسن إليه؛ فقال: (من بحر الكامل)

داود محمود وأنت مُذَمَّمٌ   عجبًا لذاك وأنتُما من عود

ولرب عود قد يشق لمسجد   ويكون باقيه لحش[3] يهود

فالحش أنت له وذاك لمسجد   كم بين موضع مسلح[4] وسجود

هذا جزاؤك يا قَبيص فإنه   جادت يداه وأنت مثْلُ حديد

---

(١) وبعد هذا البيت قوله:

ولو وضعت شيوخ بنى نمير   على الميزان ما عدلت ذبابا

وهذا منتهى الذم.

(٢) فى (أ): أتى لغير ميعاد.

وفى النسختين: ما بين ألف، والعبارة غير واضحة.

(٣) الحش: الكنيف.

(٤) المسلح: مكان الغائط، أى المكان الذى ينبز فيه.

وقال في هجاء خالد: (من بحر الطويل)

أبوك لنا غيث يعاش بوبله ... وأنت جراد لا تُبَقّى ولا تذرْ

له أثر في المكرمات يسرنا ... وأنت تُعَفّى دائما ذلك الأثرْ

ويروى أن أبا دُلامة دخل على المهدى وعنده إسماعيل بن على وعيسى بن موسى والعباس بن محمد في جماعة من وجوه بنى هاشم، فقال له المهدى: والله لئن لم تهج واحدًا ممن هو فى هذا البيت لأقطعن لسانك؛ فنظر إلى القوم، وتحير فى أمره، وجعل ينظر إلى كل واحد ويغمزه بأن عليه رضاه إن كف عنه؛ فَازداد حيرة؛ فلم يرَ له أسلم من أن يهجو نفسه، فقال: (من بحر الطويل)

ألا بلغ لديك أبا دلاَمـهْ ... فلست من الكرام ولا كرامَهْ

جمعت دمامةً وجمعت لؤمًا ... كذاك اللؤم تَتْبعه الدمامَـهْ

إذا لبس العمامــة قلت قردًا ... وخنزيرًا إذا وضـع العمامــهْ

فضحك القوم ولم يبق منهم إلا من أجازه.

وقال ابن الأعرابى: أهجى بيت قاله المحدثون قول محمد بن وهب فى محمد ابن هاشم قال: (من بحر البسيط)

لم يند كفك من بذل النوال كما ... لم يند سيفك ممن قتلته بدم

ولابن منقذ بن طليب وقد احترقت داره: (من بحر الكامل)

انظر إلى الأيام كيف تسوقنا ... قهرًا إلى الأنوار بالأقـدار

ما أوقد ابن طليب قط بداره ... نَارًا وكــان خرابهـا بالنار

وكان للوجيه بن سورة المصرى دار موصوفة بالحسن فاحترقت، فجعل فيها ابن جهم هذه الأبيات: (من بحر الطويل)

أقول وقد عاينت دار ابن سورة ... وللنـار فيهـا وجهـة تتضرّمُ

فمــا هـو إلا كـافر طـال عمره ... فجــاءته لما استبطأته جهنم

وقد أحسن الأديب كمال الدين على بن المبارك الشهير بابن الأعمى فى ذم دار كان يسكنها فقال: (من بحر الكامل)

دار سكنت بها أقلُّ صفاتها ... أن تسكن الحشرات فى جنباتها

الخير عنها نازح متباعد ... والشرُّ دانٍ من جميع جهاتها

من بعض ما فيها البعوضُ عدمتُهُ ... كم أعدم الأجفانَ طيبَ سِنَاتها

وتبيت تسعدها براغيثٌ متى ... غنت لها رقصت على نغماتها

رقص بتنقيط ولكن قَافه ... قد قدمت فيه على أخواتها(١)

وبها ذباب كالضباب يسد عيـ ... ـن الشمس عن نظراتها(٢)

أين الصوارم والقنا من فتكها ... فينَا وأين الأسْدُ من وثباتها

وبها من الخطاف ما هو معجز ... أبصارنا عن حصر كيفياتها

وبها خَفافيش تطير نهارها ... مع ليلها ليستْ على عاداتها

وبها من الجرذان ما قد قصرت ... عنه العتاق الجُرد فى حملاتها

وبها خَنافيس كالطنافيس أفْرشت ... فى أرضها وعلت على جنباتها

لو شم أهل الحرب مُنتن فسوها ... أودى الكماة الصيد عن صهواتها

وبناتُ وردانٍ وأشكالٌ لها ... مما يفوت العين كِنْه ذواتها

وبها من النمل السليمانى ما ... قد قل ذرّ الشمس عن ذراتها

سجعت على أوكارها فظننتها ... ورق الحمام سجعْنَ فى سحراتها

وبها زنَابيرٌ تظن عقاربًا ... لا برءَ للملسوع من لدغاتها

ما راعنى شىء سوى وزغاتها ... فنعوذ بالرحمن من نزغاتها

وبها عقارب كالبغال فترتعى ... فينا حمانا الله لدغ حماتها

كيف السبيل إلى النجاة ولا نجا ... ة ولا حياة لمن رأى حيَّاتها

منسوجة بالعنكبُوت سماؤها ... والأرض قد نُسجت بيراقاتها

---

(١) يعنى قرصًا.

(٢) فى إحدى النسخ المطبوعة:

* الشمس ما طربى سوى غناتها *

فضجيجها كالرعـد فى جنباتهـا ... وترابهـا كالوَبْل من حصياتهـا
والبوم عاكفـة على أرجائهـا ... والدود ينحت فى ثرى عرصاتها
والنار جزء من تلهـب حرها ... وجهنـم تعزى إلى لفحاتهـا
شاهـدت مكتوبًا على أرجائها ... ورأيت مسطـورا على عتباتها
لا تقربوا منها وخافوهـا ولا ... تلقـوا بأيدكم إلى تهلكـاتهـا
أبدًا يقـول الداخلون ببابهـا ... يا رب نج الناس مـن آفاتهـا
قالوا إذا ندب الغراب منازلا ... يتفرق السكـان من ساحاتهـا
وبدارنا ألف غـراب ناعـق ... كذب الرواة فأين صـدق رواتها
صبرًا لعل الله يعقـب راحـة ... للنفس إذ غلبـت عـلى شهواتهـا
دار تبيت الجن تحرس نفسهـا ... فيهـا وتنطق باختـلاف لغاتهـا
كم بت فيها مفردًا والعين منْ ... شوق الصبـاح تسيل من عبراتهـا
فأقول يا رب السماوات العلى ... يا رازقًا للوحش فى فلواتهـا
أسكنتنى بجهنم الدنيـا وفى ... أخراىَ هب لى الخلد فى جناتهـا
واجمع بمن أهـواه شملى عـاجلا ... يا جـامع الأرواح بعـد شتاتهـا

جمع الله شملنا بدنيانا وأخرانا غير خزايا ولا ندامى، آمين.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٧٧ ـ عَلَى الْغِرِّ يَخْفَى ذُو الفَرَى لِفِرَائِه ... وَذِى الدَّارِ وَالنَّوْكَى فَلاً وَفِلاَءُ

الغر: الذى لا تجربة له بالأمور. والفرى: الدهش، مصدر فرى، بالكسر.

والفراء، بالمد والكسر: جمع فروة بمعنى ثروة: وهى كثرة المال. والنوكى: الحمقى، جمع أنوك.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

أَنْوَكُ من عبد ومن عِرسـهِ   من حكَّمَ العبد على نفسه

والفلا، بالفتح والقصر: جمع فلاة. والفلاء، بالمد والكسر: جمع فِلْو: وهو ولد الحمار.

يقول: على الغر يخفى دهش صاحب الدهش لكثرة ماله، لا على غير الغر فَلا يخفى عليه، وهذه الدار، أى دار الدنيا، كالخلاء إذ لا يحصل فيها على طائل، والحمقى رتع فيها، لقصور هممهم عليها، واكتفائهم بزرجونها[1]، كجحوش الحمير فى الفلوات، يأكلون فيشبعون، ثم يروثون فيمرحون. ولذلك قال ﷺ: «لولا الحمقى لخربت الدنيا».

وقال ﷺ: «الدنْيا جيفة وطالبها كلب».

يعنى أن كون الحمقى فى هذه الدار يشبه كون الفِلاء فى الخلاء، لأن هممهم مقصورة على الأكل والشرب ونزو بعضهم على بعض، فإذا أحسوا بخطر نفروا فتفرقوا، فإذا غاب عنهم رتعوا حتى يؤخذوا فى غراتهم أو مأمنهم. ومن أعظم النوكى أهل الفرى لأجل الفِراء؛ لأن لهم شبهًا بالفِلا فى الفِلاء.

تنبيه: أفاد الإتيان بقوله: «وذى الدار... إلى آخره» عقب ما ضمن تقديم حالهم من عدم فراهم لأجل فِراهم تنبيهًا على غير الغر، وهذا يقال لختم التنبيه به.

وقد تضمن نكتة يتم المعنى بدونها، وتلك النكتة هى تمثيل حالهم فى الدنيا بحال الفلا.

وفى البيت من البديع الاقتباس لتضمنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ﴾ [المدثر: ٥٠، ٥١].

* * *

(١) الزرجون: صبغ أحمر، والمراد: الزخرف، والكلمة فارسية.

• ثم قال رحمة الله عليه:

٧٨ ـ يَرَى ذُو الْحَنَا ذَاتَ الحِنَاءِ فيَرْتَجِي   حَظًى بَاطِلاً والحَـادِثاتُ حِظَاءُ

قوله: يرى ذو الحنا: أى يبصر المرء صاحب الحنا؛ أى انحناء الظهر من الكبر المرأة صاحبة الحِناء، بالمد والكسر: أى التى تشتهى الفحل وهو مصدر حَنِيَت الشاة: إذا اشتهت الفحل؛ فيرتجى ذو الحنا بسبب رؤيته ذاتَ الحناء حظًى، بالفتح والتخفيف والقصر: أى ظَفَرًا منْها بمراده، وهو مصدر حظ ، بالشىء، بالكسر: إذا سعد به باطلاً؛ لأن حوادث الدهر قد تحول بينه وبين ما رجاه، وقد بين ذلك بقوله: «والحادثات حظاء» أى: سهام مصيبة له قبل أن ينال ما ارتجاه.

وجملة قوله: «والحادثات خظاء» تذييلية لا محل لها من الإعراب؛ لأنها أكدتْ مفهوم قوله: «باطلاً»؛ لأن ذلك يفهم أنه لا يدرك ما ارتجاه لمانع، وإلا كان حقًا لا باطلاً، وفى ذلك نظر؛ لأن الجملة بحسب هذا أنها ليست تذييلية فتكون حالاً من فاعل يرتجى.

والبيت مفرغ فى قَالب التمثيل. وذو الحنا عبارة عن طلب الدنيا، وهو مع قرب أجله يحاول كل ما دعاه إليه هواه، ولو كان لا يصل إليه بحال وإن نواه، لتغطية غبارِ حبِّهِ شعاعَ بصيرته ولبه.

قال ﷺ: «الحب يعمى ويصم». وفى رواية: «حبك الشىء يعمى ويصم»(١).

يروى أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس بين أصحابه إذ خط خطًا مربعًا هكذا:

---

(١) حديث «حبك الشىء يعمى ويصم» ضعيف، رواه أبو داود موقوفًا ومرفوعًا، كما رواه أحمد، =

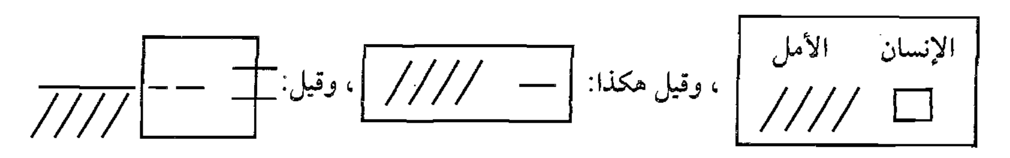
ثم خط في وسطه خطًا مستقيمًا، ثم خطوطًا صغارًا عن يمينه وعن شماله، ثم خط خطًا مستعرضا بين المربع والمستطيل وراء الجميع فقيل له: ما هذا يا رسول الله صلى الله عليك؟ فقال: «أما الخط المربع فإنه القدر المحيط، وأما الخط المستطيل فإنه الأجل والمدة، وأما الخطوط الصغار فما يلاقيه من الأعراض، وأما الخط الخارج من وراء الجميع فإنه الأمل، وأما الخط المستعرض دون المربع ووراء المستطيل فإنه الموت، فلا يزال المرء يسعى في طلب الأمل حتى فاجئه دونه الموت ويحيط به القدر»[1].

ولذلك كان على رضى الله عنه يقول في بعض مناجاته وهو يخاطب الدنيا فيقول لها: إلى تعرضت، أو إلى تشوقت، هيهات لما طلبت! فإنى قد طلقتك ثلاثًا، عمرك قصير، وشأنك حقير، وخطرك خطير، تبًا لمن غره تَمويهك، أو زاغ به تزويقك، فعهدك مكذوب، وعزك مسلوب، وصاحبك عليك مغلوب، بعدما هو على شهواتك مكبوب، فأنت سريعة الانقلاب، وشيكة الخراب، حظ الحمير

= وفى سنده ابن أبى مريم وهو ضعيف، وقد أورده الصغانى وحكم عليه بالوضع، وتعقبه العراقى قائلا: إن ابن أبى مريم لم يتهمه أحد بالكذب إنما سرق عليه حلى فأنكر عقله. وقال الحافظ ابن حجر تبعًا للعراقى: يكفينا سكوت أبى داود عليه؛ فليس بموضوع ولا شديد الضعف. وقال القارى بعد أن ناقش طرقه: فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته وإن لم يثبت مبناه. اهـ.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٩٥ ١٠ بلفظ الشيخ وقال: فى سنده ابن أبى مريم، ضعيف.
كما أورده السخاوى تحت رقم ٣٨١ وقال: رواه أبو داود والعسكرى من حديث بقية بن الوليد..
إلى أن قال: وابن أبى مريم ضعيف، وأورد المناقشة المتقدمة باختصار، والله أعلم.

(١) حديث «بينما النبى ﷺ جالس بين أصحابه إذ خط خطًا مربعا»... إلخ. صحيح رواه البخارى فى كتاب الرقاق (باب فى الأمل)، كما رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه بألفاظ مختلفة ورسوم مختلفة كذلك، منها:



قال ابن حجر فى الفتح بعد أن أورد خمس صور: والأحاديث متوافقة على أن الأجل أقرب من الأمل، والله أعلم.

والكلاب، فظاهرك غرة، وباطنك عبرة، فلئن عبثت باللئام فقد عبث بك الكرام، يا عجبًا لمن يعرفك ثم يركن إليك؛ لأنك غدارة غرارة، لا تفى بعهد ولا يوثق منك بود.

وذات الحناء هى الدنيا؛ لأن الله خلقها مهيأة لآدم وبنيه، فالمؤمن يتزود، والكافر يأكل ويتمتع، والمنافق فى ريبه يتردد، والفاسق فى غفلته يجهد، ولغيره يسعى ويحفد قال الله تعالى فى حق المؤمنين: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

وفى حق الكفار: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر:٣].

وفى حق المنافقين: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ﴾ [النساء:١٤٣].

ثم وصفهم بكونهم فى الدرك الأسفل من النار لتعظيمهم حرمة الخلق دون حرمة الخالق؛ فجازاهم بذلك جزاء وفاقًا، إذ يرجى للكافر من الخير ما لا يرجى للمنافق؛ إذ المنافق أضله الله على علم، بخلاف الكافر فإنما يمنعه من الإسلام حجاب الجهل أو مجرد التقليد، كقوله تعالى حكاية لقول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، وربما منعه الإسلام نخوةُ التكبر بأن لا يرضى أن يكون ذنبًا تابعًا بعد أن كان متْبوعا. وأما الفاسق الخارج عن محض الطاعة خروجًا ما فإنما بينه وبين الفكرة رواق رقيق، فكلما تفكر وادكر فتقه فاعتبر، فإن طال اعتباره قَاده إلى التَّوبة النصوح، وإلا بقى فى تلويثه ووحله وتنكيثه.

فالدنيا سوق المتجر، والآخرة مدينة الجمع، والملائكة هم الوكلاء والنخاسون، والرب هو مالك السوق والمدينة، والثقلان عبيده، وقد بعثهم إلى السوق بجواهر نفيسة؛ فمن عرف حق الجواهر، وأدى واجب صون الأمانة، ولم يبخس سلعته بل نَاقَش عنها حتىَّ ربح، فأفضل، وأتى برأس ماله سالمًا، فأداه إلى الملك، وأراه الفضل، وعلم منه صيانة الأمانة، أكرمه وبجله، وفى دار كرامته أدخله. ومن أضاع الجواهر ولم يعرف لها قَدرًا، وخان أمانته، ولم يصنها عن خطر، أو بخس فى تَجره، وضيَّع المال فباعه بدون قدره، أو أضاع رأس المال لتفريطه وتبذيره، ولم يأت بالفضل لسوء تدبيره، بعث إليه الملك زبانيته، وأمرهم بتوبيخه وتعزيره،

وأن يخبروه بطرده وتخسيره، فيأتوا به إلى الحضرة مغلولاً، مسربلا باللعنة مخذولاً، فيأتون به وقد اسود محياه؛ إذ باع آخرته بدنياه، وقد انقطع من رحمة الله رجاه، فينادى على رأسه باللعنة والتوبيخ، ثم يؤخذ بناصيته فيلقى فى نار الزخيخ[١]، فيجد ما قد استبعده قَرِيبًا؛ إذ لم يجعل له الرحمن من نور العقل نصيبًا، فيلقى فى نار جهنم ملومًا مخذولا.

فهذه حالة الفريقين فى دنياهم، وكيفية منقلبهم ومثواهم، جعلنا الله من حزبه الأمين من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، آمين بجاه النَّبى الأمين

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٧٩ـ وَمَا مِنْ تَوًى يُنْجِى التِّوَاءُ وذُو النَّوى
فَلَيْسَ بِمُـدْنٍ مَـا نَـواهُ نِـوَاءُ

قوله: «وما من توى»: فما: نافية، ومن: حرف جر يدل على التعميم، كقوله: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود:٦]؛ لأن إتْيَانها بعد «ما» النافية يكسبها التعميم ويورثها العموم، كما فى مختصر ابن الحاجب[٢]. والتوى، بالقصر والفتح: الهلاك. والتواء، بالكسر والمد: سمة من سمات الإبل كانت تفعله العرب فى الجاهلية تدفع به إصابة العين. والنَّوى، بالقصر والفتح: ما ينوى المسافر بلوغه من سفره، وقد يعبر به عن البعد، ويطلق ويراد به الفرقة، ويطلق فيراد به المَناوأة وهى معالجة الشىء ومكابدته. والنواء، بالكسر والمد: جمع ناوٍ، وهو السمين من الإبل وغيرها ومن استعماله فى سمن الإبل قول الأنصارية لحمزة ابن عبد المطلب رضى الله عنه: (من بحر الوافر)

ألا يا حمزُ للشرفِ النِّـواء[٣] فَهـن مُعَقَّـلاتٌ بالفنـاءِ
ضعِ السكينَ فى اللبَّاتِ منْها وضَرِّجْهُنَّ حمزةُ بالدمـاءِ

(١) الزخيخ: بريق الجمر أو النار.
(٢) يريد أن النكرة فى سياق النفى نص فى العموم.
(٣) النواء، بكسر النون والمد مخففًا: جمع ناوية، وهى الناقة السمينة.

وكان قد ثمل، فرأت الأنصارية نياقًا سمانًا قد اشتراهن على رضى الله عنه ليولم بهن على فاطمة رضى الله عنها[١]، فأتاهن حمزة رضى الله عنه فنحرهن كلهن، فلم يفجع عليًا رضى الله عنه - وقد أتى إليهن ليستاقهن - إلا وخواصرهن موضوعة على الأرض وقد سلخن؛ فسأل: منْ فعل هذا بشوارفى؟ فقيل له: عمك حمزة، فرجع إلى النبى ﷺ وهو مغضب فقال له: يا رسول الله ما لقيت كاليوم من حمزة! فجعنى فى شوارفى ولم أجمعهن إلا بعد جهد؛ فذهب إليه النبى ﷺ، وقيل: أرسل إليه، فلما قام عليه قال له: ما حملك على ما صنعت بشوارف على ما صنعت؟ فصعَّد النظرَ فى رسول الله ﷺ ثم صوبه فقال: هل أنتم إلا عبيد أبى ؟! فعلم رسول الله ﷺ أنه ثمل لا يعقل شيئًا، فذهب عنه وتركه.

فلما رجع رسول الله ﷺ[٢] قال له عمر: وددت يا رسول الله أن لو سألت الله تعالى فحرم الخمر على أمتك، فسكت عنه حتى أنزل عليه قوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا**﴾ [البقرة: ٢١٩]، فقالوا: إن الله لم يعزم فى تحريم الخمر؛ فشربه من شربه، وتركه من تركه.

ثم بعد ذلك بحين شرب رهط من الأنصار وكانوا إخوة أحباء فى الله، فلما ثملوا عبث بعضهم ببعض، فوقعت بينهم خموش، فلما أفاقوا جعل الرجل يسأل: من خمشنى؟ فيقولون: أخوك فلان؛ فيقول: لو كان مشفقًا علىّ ما فعل بى مثل هذا؛ فوقعت بينهم الضغائن لذلك، فأنزل الله تبارك وتعالى تحريم الخمر بقوله: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة: ٩١] فقال الصحابة: انتهينا ربنا انتهينا.

ويروى أنه وقع فيما بين الأمرين أن رهطًا من أهل العالية أدركتهم الصلاة

---

(١) لم يكن على اشترى الناقتين، ولا كان يريد أن يولم بهما، وإنما كان يريد أن يأتى عليهما بإذخير ليبيعه ويستعين بثمنه على الوليمة، وإحداهما كانت له من غنائم بدر والأخرى أعطاها له رسول الله ﷺ من الخمس، والله أعلم.

(٢) قصة حمزة هذه صحيحة، رواها الشيخان بألفاظ تقرب أحيانًا من لفظ الشيخ، وهى عند البخارى فى كتاب فرض الخمس ٥٧ باب (١).

فقدموا رجلاً منهم ليصليَ بهم، فلما أحرم جعل يهذي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «اللهم أفتنا في الخمر» فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فقال الصحابة: لا خير في شيء يحول بين المرء وصلاته؛ فتركته طائفة لذلك، وبقي من بقي متمسكًا بأصل الإباحة المتقدمة، فبعد ذلك بيسير بتَّ الله تحريمه بنزول الآية المتقدمة آنفًا.

ومِنْ: متعلقة بينجي. ونواء، آخر البيت: اسم ليس. وبمدن: خبره، والباء زائدة فيه. وجملة «ليس بمدن.. إلى آخره» خبر مبتدأ وهو «ذو النوى»

والمعنى: وما ينجي الوسم الذي في الجمل والناقة صاحبَه مما قضى الله عليه من إصابة العين وغيرها من الآفات. قال الشاعر: (من بحر الكامل).

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيتَ كل تميمة لا تنفعُ

وصاحب البعد لا يقرب منه النوى الذي نواه إبلٌ سمان إذا لم يقدّر له ذلك؛ فحق على المريد السالك أن لا يسند وجود شيء إلى حادث إلا على سبيل الاقتران العادي والربط الخارجي، ويجزم أنه لا يقتضي أحدهم الآخر بحسب الحقيقة؛ فبان من هذا أن الاعتماد على سبب من الأسباب أو موجود من الموجودات مع إهمال الحقيقة وإغفال أمر الله مخلٌّ بالسلوك مُفْسدٌ للعقل، كما قدمتُ ذلك مبسوطًا في صدر الكتاب؛ فيتأمل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٨٠ـ وَمَا كُلُّ مَأتَى ظل مِثْتَاءَ رِفْقَةٍ وَلاَ لأَلَى كُلَّ الإِلاَءَ تُهَـاءُ

المأتى، بالقصر والفتح: المذهب. والمئتاء، بالكسر والمد: الطريق والمَهْيَع المؤثر بكثرة السالكين. والألى، بالفتح والقصر: من ألى الحيوان: إذا عظمت أليته. والإلاء، بالمد والكسر: جمع ألية.

وكأنه يقول: ليس كل مذهب سلكته الرفاق فتأثر بسلوكهم فصار مهيعًا بمنج من سلكه من التلف بمجرد كونه مسلوكًا، فكذلك الطريقة والسنة لا تؤخذ من بطون الكتب بكون السلف قد أجمعوا على الأخذ بها والعمل بمقتضاها حتى

درجوا على ذلك؛ إذ لا بد من شيخ يريك شخوصها ويكشف لك شموسها، كما روى: أن العلم فى بطون الكتب ومفاتيحه فى صدور الرجال؛ فلا يؤخذ إلا على شخص واصل قد ارتضع ألبان الوصول ودربته أيدى الفحول؛ يريك مسالكها، ويجنبك مهالكها، حتى يوردك عذْب زلالها، ويسمعك طيب مقالها، بل يفهمك فحو خطابها، فتتضلع من لذيذ شرابها، قبل غوصك فى لجة عبابها، فإذا زال جلبابها، وفتح بابها، حتى يقول لك: ها أنت وربك، فاخْرج أو ادرج، فرب مسلك لا يسلكه إلا الخريت الماهر العالم بالطريق وسهابها ونباتها وشعابها فإذا سلكه غيره هلك فيه حيرة، فلم تحصل نجاة ولا ميرة؛ فوقع عليه قول الشاعر: (من بحر البسيط)

لما رأى واشقٌ إقعاصَ صاحبِهِ ... ولا سبيل إلى عَقلٍ ولا قَوَدِ
قالت له النفس إنى لا أرى طمعًا ... وإن مولاك لم يسلم ولم يَصِدِ

وكذلك أيضًا ليست كل ألية عظيمة تُهاء: لغة فى تهيأ فى لألائها أى عظمها، فرب ألية عظيمة شحمها رذل وعظمها به آفة وعلة؛ فأكلها قد يحدث داء عضالاً. يقال: هَاء الأمر، ويهاء ويهيء: أخذ له أهبته كتهيأ له، وهو من غريب اللغات ولو جاء به صاحب القاموس كذلك؛ فعلى هذا فالأصل: يهاء لها، فحذف اللام، وعَدَّى الفعل بنفسه، فقال: تهاء، بضم التاء: مبنى لما لم يسم فاعله، وهو ضمير لإلاء، بالمد، أو ضَمنه معنى تهيأ.

وهذا كله تمثيل أشار به إلى أنه لا بد للمريد السالك من مصاحبة الدليل المرشد، وهو الذى تسلك به الفلوات التى تتحير فيها الأدلاء، وتقطع بها المفاوز والمجاهل الفيحاء[1]، التى تضل فيها القطا، وتقل فيها آثار الخطا، ويكشف عن الأدلاء الغطا، وتهابها الخيطة والخيطا[2] لوسع المطا وقلة المطا[3]، ولا بد له حينئذ

---

(١) كذا فى (أ): الفيحاء، وفى (ب): الفيح، والأول أصح، ومعنى الفيحاء الواسعة.
(٢) الخيطة: النعامة. الخيطى: الجماعة من النعام والجراد.
(٣) المطى الأولى: مسافة السير أو امتداد السير، والثانية: الظهر: أى ما يركب عليه من المطى.
وفى النسخة (ب) زيادة: (ويكثر فيها الخطا وتكثر فيها آخر الخطا)، بعد قوله: (ويضل فيها القطا).

من العلم النافع فى المهيعين الذى يقف به علىٰ عين ما أبيحت له تناوله قطعًا، فيتناوله على بصيرة من أمره، وبينة من ربه، ويتلوهما شاهد من نفسه، يعين له ما تشابه فيتركه، وما ينبغى فيسلكه، وما يقربه من ربه فيجعله هِجِّيرَهُ، فيكون نصب عينيه، ولا يخطر بباله خطر، ولا يقوده إلا ما لا ينبغى وطر؛ فيصل وإن سار الهوينا كما قال الشاعر: (من بحر الرجز)

من لى بمثل سيرك المدلل   تمشى الهوينا وتجى فى الأول

وإنما يجتنب وقوع الخطر من استحضر الحذر، إذا ساعده بمساعدة القدر، وليس كل متسمن بسمين، ولا كل متدين بمدين، ولا كل متورم بسمين؛ إذ ليس المتنبئ كالنبى، ولا المتولى كالولى؛ إذ المتألى على الله يكذبه، والكاذب عليه يعذبه. لأن النبى ﷺ لم يتقول إسماعيلىٌّ النبوةَ قبله صيانةً لناموس الوحى، وإرهاصًا للنبى ﷺ، وتأسيسًا لنبوته.

يروى أن شيخًا من بنى عامر كان كلما رجع حجاج بنى عامر سألهم: هل حَدَثَ حدثٌ بالحرم؟ أو هل خالف على قريش رجل منهم؟ حتى قدموا عليه حجتهم التى عرض عليهم فيها رسول الله ﷺ نفسه، فسألهم كما كان يسألهم؛ فقالوا له: لا، إلا أنه أتانا فتى من قريش ثم من بنى هاشم، فعرض علينا نفسه يزعم أنه رسول الله إلى الناس على أن نحمله إلى بلدنا ونمنع ظهره حتى يؤدى رسالة ربه، فأبينا عليه، وآذاه من آذاه من سفهائنا. فلما سمع ذلك ضرب يديه على رأسه وقال: هل لذناباها من تلاق[١]؟ أين ذهبت عنكم عقولكم يا بنى عامر؟! والله ما تقولها إسماعيلى قبله. فقالوا: إن قومه يكذبونه، فقال: والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون، ولو أنكم أخذتموه لنلتم به شرف الحياة وفوز الممات.

فلما ثبتت نبوتهُ ﷺ وظهر أمر الله وهم كارهون ادعى رجال النبوة طمعًا فى نيل ما ناله النبى ﷺ واستدراجًا من الشيطان؛ فوكلهم الله إلى أنفسهم: كمسيلمة الكذاب من بنى حنيفة، والأسود العنسى من مذحج، وطليحة من بنى أسد، وسجاح من بنى تميم، وذلك قبل موت النبى ﷺ بقريب أو بعده بقريب. أما

(١) هل لذناباها من تلاق؟: مثل يضرب للأمر المهم الذى فات، ومعناه: هل لهذا الأمر العظيم من عودة؟!

مسيلمة والأسود العنسى فقد أُخبر بهما قبل موته بقريب، كما فى الصحيح قال: «رأيت فيما يرى النائم سوارين فى يدى من ذهب وقد أهمنى أمرهما؛ فنفختهما، فطارا، فقالوا: يا رسول الله، ما أولتهما؟ فقال: أولتهما كذابين، أما أحدهما فالأسود العنسى باليمن، وأما الثانى فمسيلمة بن خليفة باليمامة، وإنما سيقتلان بعدى؛ أما الأسود العنسى فيقتله العبد الصالح فيروز، وأما مسيلمة الكذاب فإن أصحابى سيقتلونه من بعدى»[(١)].

وأخبر ﷺ «بأن ثقيفًا سيكون فيهم كذاب ومبير»[(٢)]: أما الكذاب فالمختار بن عبيد بن عمرو بن عمير بن ياليل بن عبد كلال بن مالك الثقفى. وأما المبير فالحجاج بن يوسف. فأمكن الله من الجميع، فاستأصلهم ومحا آثار أباطيلهم التى تمجها الآذان وتنفر منها الأذهان.

وكذلك كلما أظهر الله وليًا ادعى أقوام جهلة الولايةَ؛ فيكذبهم الله ويفضحهم، لظهور جهلهم، وكسوف أنوارهم، ونفور الطبع من أخبارهم، فيموهون والنَّاقد بصير، ويسرقون والمالك خبير؛ فيكونون كالزبد على وجه الماء، فيظن أنه علا، بل ذهب وخلا[(٣)]. قال الله تعالى: ﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ**

---

(١) حديث «رأيت فيما يرى النائم سوارين»... إلخ. صحيح رواه مسلم فى كتاب (الرؤيا) بألفاظ كثيرة كما رواه غيره (٧/ ٥٨).

ولفظ مسلم فى إحدى رواياته: «بينا أنا نائم رأيت فى يدى سوارين من ذهب أهمنى شأنهما، فأوحى إلى فى المنام أن أنفخهما، فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدى. فكان أحدهما العنسى صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة». انتهى.

أما الزيادة التى أورد الشيخ وهى «سيقتلان بعدى»... إلخ. فلم أجدها من كلام النبى ﷺ، والعلم عند الله.

(٢) حديث «أن فى ثقيف كذابا ومبيرا»... إلخ. صحيح أخرجه مسلم فى كتاب الفضائل (٧/ ١٩٠) كما أخرجه غيره فى قصة قتل الحجاج بن يوسف لعبد الله بن الزبير وصلبه إياه، وأن أمه أسماء قالت للحجاج حديث رسول الله ﷺ: «أن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا»، فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه.

ومعنى المبير: المهلك، ومعناه: كثير القتل، الكلام الأخير تفسير من أسماء للحديث، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب) بعد خلا: (ويظن أنه غالب فإذا هو منعدم ذاهب، فصار جفاء قد حملته الرياح وألقته على السفاح، فصار هباء لا زبدًا ولا ماء)، وهذا ليس فى (أ).

فِي الأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، نفعنا الله بما آتانا، وبارك لنا فيما أولانا وتولانا في آخرتنا وأولانا، آمين بجاه النبى الأمين.

* * *

• **ثم قال رحمه الله:**

٨١ ـ وهَذا الجأَى فَإني الجِئَاء يَسُوسُهُ   وَلِيقُ الدَّوَى لِلْكَاتِبينَ دِوَاءُ

الجأى: بالفتح والقصر: هو الكميت من الخيل، وهو الذى يُخالط حمرته سواد، وهو من أحب الشيئات[1] إلى العرب. قال الشاعر: (من بحر البسيط)

يا خير من فرحت كمتُ الجياد به   عند الهياج إذا ما استوقد الشرر

وقال قيس بن زهير فى حرب داحس: لم يصبر معنا فى حربنا هذا إلا الكميتات من الخيل، وسمر النعم، وبنات العم.

والجأى، بالفتح، وهو مصدر جئِىَ الفرس فهو جأى: إذا كان أحمر إلى السواد. والجئاء، بالمد والكسر: جمع جئات: وهى غشاء القدر أو شىء يوضع عليه من جلد أو غيره. وقيل: الجئاء: هو ما يكسوها، تقول: جأوت الشىء أجؤوه إذا كسوتُه. قوله: يسوسه: يديره بالرياضة. والدوى، بالفتح والقصر: جمع دواة، ووزن الدواة «فَعَلَة» بالتحريك كشجرة، وأصلها دَوَيَةٌ، فقلبت الياء ألفًا لتحركها وانفتاح ما قبلها، واشتقاقها من الدواء لأن بها صلاح أمر الكتابة. وليقها: جعل الليقة فيها: وهو المداد، وقيل: الليقة جمع المداد والصوف، مصدر ألقتها فهى مليقة، ويقال: ألقتها أيضًا فهى ملاقة، ولا يقال لصوفتها إذا بلت، وقيل: ذلك يقال لها حيث خلطت بالمداد من غير بلل وإلا فهى صوفة. والدواء، بكسر الدال والمد: مصدر دوى الشىء كالمداواة إذا أصلح وأتقن، ويقال: دوئ الشىء: إذا تم، ودوى النهار: إذا اشتد حره، ودوى إذا صار له دَوى كدوى النحل. وأما الدواء، بالفتح: فاسم ما يتداوى به.

ومعنى البيت: فهذا الفرس ذو الجأى، وهو الجون، جعلهُ نفس الجأى مبالغةً لاشتداد جوأته حتى كأنه نفس الجأى، كقول الشاعر:

(١) الشيئات: جمع شيئة: كل لون يخالف معظم لون الشىء.

قد سنه غلمان أشوَم ....[1]

أى ذوو شؤم، وكما يسمى ذو الفرح فرحًا، يسوسه فانى الجأى لا غيره؛ إذ تقديم الفاعل يدل على الحصر، وهذا إشارة إلى كرم صاحبه واشتغاله بإطعام الطعام لاستحضاره القدور لنضجه وأوعيته وهى الجئاء إذ من عال آلة كلفها، والله يعين المرء على قدر همته، ويجعل معونته على قدر مؤونته.

يروى أن النبى ﷺ قال: «رأيت جفنة ابن جدعان يأكل منها الراكب». وهو رجل من بنى تيم بن مرة.

وكان هاشم بن عبد مناف يطعم الطعام فى جاهليته جبلة من الله جبله عليها، وما جعل فى صلبه من نور النبوة، وكان قد ولى السقاية والرفادة، وكان فيما يزعمون إذا حضر الحج قام صبيحة هلال ذى الحجة ويأتى البيت، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها، فيحض قومه على رفادة الحاج التى سنها لهم قصى بن كلاب، فيقول لهم فى خطبته: يا معشر قريش أنتم سادات العرب، أحسنها وجوهًا، وأعظمها أحلامًا، وأوسط العرب أنسابًا، وأقرب العرب بالعرب أرحامًا، يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله، أكرمكم الله بولايته، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل، حفظ منكم أحسن ما حفظ جار من جاره، وإنه يأتيكم فى هذا الموسم زوار الله يعظمون حرمة بيته؛ فهم أضياف الله، وأحق الضيف بالكرامة ضيفه؛ فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتُون شعثًا غبراً من كل بلد على ضوامر كالقداح، وقد أزحفوا وأرملوا؛ فاقروهم وأعينوهم، فورب هذه البنية لو كان لى مال يحمل ذلك لكفيتكموهم، وأنا مخرج من طيب مالى وحلاله ما لم تقطع فيه رحم ولم يؤخذ بظلم ولم يؤخذْ فيه حرام فواضعه، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعله؛ وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طيبًا لم تقطعَ فيه رحم ولم يؤخذ غصبا.

فكانت بنو كعب بن لؤى وسائر قريش يجتهدون فى ذلك، ويترافدون[2] عليه حتى يأتوا به هاشم بن عبد مناف، فيضعونه فى داره. وكان هاشم يخرج فى كل

---

(١) هذا الشطر بدون عجز فى النسختين.

(٢) ترافدوا: تعاونوا، أى يرفد بعضهم بعضًا.

سنة مالاً كثيرًا، وكان قوم من قريش أهل يسار ربما أرسل كل رجل منهم مائة مثقال هرقلية[١]، وكان هاشم يأمر بحياض من أدم[٢]، فتجعل فى موضع زمزم من قبل أن يحفر، ثم يستقى فيها الآبار التى فى مكة قبل التروية[٣] بيوم، ثم بمنى، ثم بجمع[٤] وعرفة، يثرد لهم الخبز واللحم والسمن والسويق والتمر، ويجعل لهم الماء، فيطعمهم ويسقيهم حتى يصدروا، وكان اسم هاشم عمرًا، ويقال له: عمرو العلاء، وإنما سمى هاشمًا لهشمه الخبز لقومه بمكة، وهو أول من سن الرحلتين: رحلة الشتاء والصيف، وفى ذلك يقول بعض الشعراء: (من بحر الكامل)

عمرو العلا هشم الثريد لقومه ورجال مكة مُسْنِتون عجـافُ[٥]
سَنَّتْ إليهِ الرحْلَتـانِ كلاَهُمـا سفرُ الشتـاء ورحلة الأصيـاف

ثم ولى ذلك عبد المطلب بعده، ولما هلك عبد المطلب ولى زمزم والسقاية ابنه العباس وهو يومئذ من أحدث إخوته سنًا؛ فلم تزل إليه حتى قام الإسلام وهى بيده، فأقرها له رسول الله ﷺ على ما مضى من ولايته.

وكان ﷺ يجله إجلال الولد للوالد، يقول كريب مولى ابن عباس: وما ينْبغى لرسول الله ﷺ أن يجل إلا والدًا أو عمًا فضيلة خص الله بها العباس دون من سواه.

وقال ﷺ: «احفظونى فى عمى العباس؛ فإن عم الرجل صنو أبيه»[٦].

---

(١) هرقلية: منسوبة إلى هرقل.
(٢) الأدم: الجلد.
(٣) يوم التروية: هو اليوم الثامن من شهر ذى الحجة، وهو اليوم الذى يروى فيه الحجاج ويذهبون إلى منى.
(٤) جمع: مزدلفة.
(٥) مسنتون: أصابتهم سنة أى هم مصابون بجدب وشدة، وعجز هذا البيت فى النسختين:

* تقوم بمكة مسنتين عجاف *

وهى رواية ابن هشام (١/ ١٤٥) وما أثبتناه رواية اللسان (٢/ ٤٦) وهى أصح، والله أعلم.
(٦) حديث «احفظونى فى عمى العباس فإن عم الرجل صنو أبيه» رواه أبو بكر فى الغيلانيات له، وأورده السيوطى فى جامعه تحت رقم ٥٦٢١ ورمز له بالحسن، وسكت عليه المناوى ولفظه: «عمى وصنو أبى العباس». =

وطلع يومًا علىٰ رسول الله ﷺ فقال: «هذا العباس أجود قريش كفًا، وأوصلها للرحم»[١].

ولم يزل العباس سيدًا فى الجاهلية والإسلام؛ يمنع الجار، ويبذل المال، ويعطى فى النوائب.

قال الزبير: كان للعباس بن عبد المطلب ثوب لعارى بنى هاشم، وجفنة لجائعهم، ومقطرة لجاهلهم، والمقطرة: خشبة ذات سلسلة يحبس فيها الناس. وفى ذلك يقول إبراهيم بن على بن هرمة: (من بحر الطويل)

وكان لعباس ثلاثٌ يعدُّها ... إذا ما جناب الحى أصبح أشْهبا

فسلسلة تنهى الظلوم وجفنة ... تناخ فيكسوها السنام المرغّبا

وحلة عصب ما تزال معدةً ... لعار ضريك ثوبه قد تهدبَا

قال ابن شهاب: لقد جاء الله بالإسلام وإن جفنة العباس لتدور على فقراء بنى هاشم، وإن قيده وسوطه لمعدان لسفهائهم. قال: فكان ابن عمر يقُول: هذا والله الشرف: يطعم الجائع، ويؤدب السفيه، ويكسر العارى. وكان ابنه عبد الله ترجمان القرآن كذلك . ثم تداولت وتوارثت إطعام الطعام الخلفاء والصالحون إلى يومنا هذا، وذلك من أشرف الشرف، وأدنى القربات إلى الله إن صحت النية.

وليقُ الدوى مداواة للكاتبين لا لغيرهم، وهذا تنظير[٢] وتمثيل لكون الأشياء لمن هى له لا لكل أحد؛ إذ ليس الشبعان كالمتشبع، ولا المطبوع كالمتطبع، فإطعام الطعام ـ وإن كان من أشرف الشرف ـ فإنه من أصعب الكلف، فيحتاج إلى طبع

= ورواه الطبرانى بلفظ: «استوصوا بالعباس خيرًا فإنه بقية آبائى فإنما عم الرجل صنو أبيه»، قال الهيثمى: وفيه عبد الله بن خراش، وهو ضعيف، ووثقه ابن حبان وقال: ربما أخطأ، وبقية رجاله وثقوا (٩/ ٢٦٩) مجمع.

(١) حديث «هذا العباس أجود قريش.. إلخ» حديث حسن رواه أحمد والبزار وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط له بألفاظ متقاربة.

قال الهيثمى: وفيه محمد بن طلحة التيمى وثقه غير واحد، وبقية رجال أحمد وأبى يعلى رجال الصحيح (٩/ ٢٦٨) والله أعلم.

(٢) فى (ب): وتمثيل لكل الأشياء لمن هو أهل له لا لكل أحد.

غريزى فى الكرم، وعرق ينزعه من آبائه القُدم، وتدريب وعناية ربانية، وتربية تنشأ عنها، فاعتادها من غير تكلف ولا تشوف، تسوقه رغبة الأجر، وتقوده مخافة الوزر.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لكل امرئ من دهره ما تعـودا
وعادات سيف الدولة الطعْنُ فى العدا

وفى البيت من البديع الاقتباس؛ إذ هو مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ [1] [الإنسان: ٨ ـ ١٠].

ثم قال الله تعالى فى وصف ما أعد لهم: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ إلى قوله: ﴿تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١١ ـ ١٤]؛ فلم يأت سبحانه على عمل من الأعمال بعد التوحيد بمثل ما أتى به فى إطعام الطعام لوجه الله الكريم؛ ولذلك اختاره لخليله عليه السلام كما قدمتُه قبل. عودنا الله ما يرضاه ويرضيه عنا

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٨٢ ـ وَيَشْفِى الصَّهَا رَوْمُ الصِّهَاءِ وَبالنَّهَا
عَنِ الرَّيْثِ تُرضى الوارِدِينَ نِهَــاءُ

قوله: ويشفى: أى يبرئ. الصَّهَا، بالفتح والقصر: مصدر صهى الجرح، بالكسر: إذا ندَّ[2]. والصِّهاء: ذروة كل شىء، وهى جمع صهوة. والنها، بالفتح والقصر: مصدر نهى عن الشىء، بالكسر، بمعنى انتهى عنه. والنهاء، بالمد والكسر: جمع نِهْيٍ، وهو الغدير، وروم: بالرفع فاعل يشفى.

والمعنى: يشفى رومُ الصهوات، أى قصدها ومحاولة نيل المراتب العلية، الجرحَ الذى نَدَّ، وبالانتهاء أى الكف عن الريث: وهو البطء، تُروى الواردين أى

(١) القمطرير: الشديد من الأيام.

(٢) ند: انفجر بعد برء.

الأشخاص الذين يردون الماء الحياض التي يردونها، بمعنى أنها تسعهم ويجدون فيها كفايتهم. والمقصود الإغراء بطلب معالي الأمور والتصدر؛ فإن في ذلك شفاء للصدر، والتحذير من التسويف والونى والفتور في فعل الخيرات خوفًا من العوارض والعوائق، كما قيل: (من بحر الوافر)

إذا هبت رياحك فاغتنمها ... فإن لكل عاصفة سكون
وإن درت نياقُك فَاحتلبها ... فما تدري الفصيل لمن يكون

ومن ذلك القبيل قوله: (من بحر البسيط)

تَتَبُّعُ الأمر بعد الفَوْتِ تغريرُ ... وتركه مقْبلاً عجز وتقصيرُ
وكلٌّ ما يتمنى المرءُ[1] يدركه ... بالاعتماد وتركُ الحق محظور
وكل وجدان حظ لا ثباتَ له ... فإنه عدم محض وتكدير
وكل كسر فإن الحق يجبُرُهُ ... وما لكسرِ قناةِ الدين تجبير
وكل حيٍّ وإن طالت سلامته ... فإنه ميت والحق تنوير
وكل ما راحة قبل الممات فلا ... تغررك فَالموت تنغيص وتكدير
وإنما بعدها ما تشتهيه وما ... تخشاه والعمر أرباح وتخسير[2]
فاجعل قرينك تقوى الله تحظ بما ... ترجوه فالدهر تيسير وتعسير
حتى تمر لياليه القصار كما ... تمر عادية النجدين تشمير
الميت يحزنه تضييع ساعته ... لا المال والأهل والتعمير تعمير

* * *

---

(١) في نسخة (ب): العبد.
(٢) هذا البيت ليس في النسخة (ب).

• ثم قال رحمه الله:

٨٣ـ وَمَا بِالفَضا يُحْصَى الفضـــاء وقَلَّمَا
يَهُــونُ الأسى إنْ لَم تُرِمْهُ إسَـاءُ

قوله: وما بالفضاء: فالواو: للاستئناف، وما: نافية بمعنى ليس. بالفضاء: جار ومجرور متعلق بيحصى. والفضا، بالفتح والقصر هنا: الآراء المختلفة. والفضاء بالكسر والمد: جمع فضية، وهو الماء الذى يجرى على وجه الأرض.

ويحصى: أى يعد. والأسى، بالفتح والقصر: يقال: أسوت الجرح: أصلحته. والإساء، بالكسر والمد: جمع آس، وهو الطبيب، كما قال الحطيئة العبسى فى هجو الزبرقَان بن بدر: (من بحر البسيط)

لما بَدا لىَ منكم عيبُ أنفسكم ... ولم يكن لجراحى منكمُ آسِ
أزْمعت يأسًا مبينًا من نوالكم ... ولا ترى طاردًا للحرٍّ كالياس
ما كان ذنبٌ بغيضٍ لا أبا لكمُ ... فى بائس جاء يحدو آخر الناس
جار لقوم أطالوا هون منزله ... وغادروه مقيمًا بين أرماس
مَلّوا قراه وهَرّتْهُ كلابُهُمُ ... وجرحوه بأنْيابٍ وأضراس
دع المكارم لا تَرحل لبغيتها ... واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

ولما سمع الزبرقَان هذه القصيدة غضب وقال: ليس لى فى المكارم إلا أنى طاعم كاس، قد هجانى والله أشد الهجو، فبلغ ذلك الحطيئة فقال: (من بحر الوافر)

وإنى قد علقت بحبل قوم ... أعانهُم على الحسب الثراءُ
إذا نزل الشتاء بجار قوم ... تجنب جارَ بيتهم الشتاء
هم الآسون أُمَّ الرأس لما ... تواكلها الأطبة والأساء
ألم أكُ نَائيًا فدعوتمونى ... فجاء بى المواعد والرجاء
فلما أن أتيتكمُ أبيتم ... وشرٌّ مواطن الحسب الإباء

ألم أكُ جارَكم فتركتموني ... ككلب في دياركُمُ عُواءُ

ولما أن أتيتهم حبوني ... وفيكم كان لو شئتم حباء

فلما أن مدحت القَوم قلتم ... هجوت وهل يحل لي الهجاء

فلم أشتمكم حسبًا ولكن ... حَدَوْتُ بحيث يستمع الحداء

فكأنه يقول: ليست تعد المياه الجارية على وجه الأرض بالآراء المختلفة والعزائم التي ليست بمرتبطة، بل إنما تنال وتستخرج ويقدر على تمشيتها في البساتين والأشجار، والانتفاع بها بالآراء المتفقة والعزائم التي ليست بمختلفة ولا مفتلة، وقلما يسهل إصلاح الجرح ومداواة المرضى على من رامه من غير الآراء الصالحة وإيساء الأطبة الحاذقة. وهذا تمثيل، والمعنى: أنه لا يصلح للدلالة على الطريق إلا من كان على بصيرة من مواردها ومصادرها، بحيث لا يتغير له رأى، ولا تنحل له عزيمة، فإن لم يكن كما ذكر هلك وأهلك. وكذلك أيضًا لا يصلح لمداواة الأمراض إلا من كان آسيًا عالمًا بالأدواء والأدوية التي تليق بالدواء، وإلا أهلك من يعالجه في الغالب.

قال الرسول ﷺ: «يذهب العلماء الأول فالأول، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلة؛ فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا»[(١)].

وقال الرسول ﷺ: «ما اتخذ الله وليًا جاهلا ولكن إن اتخذه علمه»[(٢)].

يروى أن الجنيدي رضي الله عنه كان يقول: أخوف ما يخاف على هذه الأمة جهلة المتصوفة، وعلماء الألسنة جهلة القلوب: المتصوفة يضلون الناس بألسنتهم فيدعون من ضلالة إلى ضلالة أشد منها، وعلماء الألسنة جهلة القلوب يدعون إلى الضلالة بأقوالهم وأفعالهم، فتميل بهم أهواؤهم إلى ترك العمل بما علموا؛ فيغتر بهم الجاهل فيقول: إنه لم يفعل ذلك إلا لعلم عنده لم نبلغه؛ فيكون أشد

(١) حديث «يذهب العلماء الأول فالأول»... إلخ. متفق على صحته، ولفظه عند البخاري: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد ولكن قبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا» (كتاب العلم - باب كيف يقبض العلم) والله أعلم.

(٢) حديث «ما اتخذ الله وليًا جاهلا»... إلخ. سبق تخريجه

فى الضلالة من الجاهل؛ لأن الجاهل لا يهتم من أمره بشىء إن هو فعله على علم، ولا يغترون بمجرد فعله لعلمهم بجهله، وربما حمله الغرور على الفتوى بالشاذ، وارتكاب التأويلات؛ حبًا للرياسة، وطمعًا فى طعمة ينالها ممن أفتاه؛ فيكون قد اقتحم باباً من أبواب السحت بعد إضلاله المقتدى والمستفتى؛ فيضل المقتدى به بحيث لا يعلم؛ **فيكون مُسْتَدْرَجًا وَمُسْتَدْرِجًا**، وذلك معنى قوله ﷺ: «إن من العلم لجهلاً، وإن من الشعر لحكمة، وإن من البيان لسحرًا»[1].

قال ﷺ: «**سيهلك المتنطعون من أمتى. قالوا**: وما المتنطعون يا رسول الله؟ قال: شرار الرجال، يجمعون شرار المسائل، يعمون بها خلق الله».

وقيل: هم المتكلفون الذين يتكلفون إلى علمهم علم ما لا يعلمون؛ فيستحى أحدهم أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم.

قال مالك بن أنس رضى الله عنه: ألا أنبئكم بعلم العلماء وحكم الحكماء؟ قالوا: بلى؛ قال: إذا سئل أحدكم عما لا يعلم فليقل: لا أعلم.

وقال ابن القاسم: كان مالك رضى الله عنه كثيراً ما يقول إذا سئل: لا أعلم، ولقد كان يقول ذلك فى المجلس ثلاثين مرة، وربما قال: لا أعلم، ثم يفتى بعد ذلك ويجيد الجواب.

وقال ﷺ: «إنه سيأتى زمان تكثر فيه المسألة ويقل الفقه، فإما أن يعجز أحدكم أو يكون منافقًا، فمن أدرك منكم ذلك الزمان فليعجز ولا يكن منافقًا».

ويروى أن رجلاً من المتنطعين أتى عاصم بن عمر فسأله عن مسألة فقال له: لا أدرى؛ فقال له: إنه يقبح بمثلك أن يسأل عن شىء من أمر الدين فلا يوجد عنده فرج ولا مخرج وأنت ابن إمام من أئمة المسلمين وخليفة من خلفاء رسول رب

---

(١) حديث «إن من الشعر لحكمة»... إلخ. صحيح رواه البخارى وأبو داود والنسائى ومالك، ولفظه عند البخارى: «إن من البيان لسحرًا» أو «إن بعض البيان لسحر» (كتاب الطب).
أما اللفظ الثانى الذى هو «وإن من الشعر لحكمة» فهو صحيح كذلك أخرجه البخارى فى كتاب (الأدب) وأبو داود وابن ماجه.
أما قوله فى أول الحديث: «إن من العلم لجهلا» فلم أجده فى المرفوع من كلام النبى ﷺ، والله أعلم.

العالمين. فقال له: أقبح من ذلك أن أقول فيما لا أعلم: إنى أعلم؛ فأفتى بجهل؛ فأَهلك وأُهلك، أو ما بلغك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ من أشد الناس عذابًا يوم القيامة من أرى عينيه ما لم يَرَيَا، وأسمع أذنيه ما لم تسمعا».

ويروى أن بعض السلف قال: إن الناس يرون الورع فى الكف عن الشبهات، وتَرك ما لا بأس فيه مخافة أن يقعوا فيما فيه بأس، وإنَّما الورع ورع اللسان.

يروى أن المقداد لم يروِ عن النبى ﷺ مع طول صحبته إياه إلا حديثًا واحدًا؛ فقيل له: ما لنا لا نراك تروى عن رسول الله ﷺ الآثار كما يرويها أصحابك؟ فقال. أما إنى قد سمعت من رسول الله ﷺ مثلما سمعوا، وعقلت عنْه مثْلما عقلوا، ولكنى تورعتُ أن أروى عن رسول الله ﷺ فأزيد أو أنْقُص بعد ما سمعته يقول: «من كذب علىَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»[1]. فرأيت الكف عن الرواية أسلم لى وقد تَولى عنى أصحابى ما هنالك، فلست أخاف من وعيد قوله ﷺ: «من كتم علمًا وهو يعلمه أُلجم بلجام من نار»[2].

وفى رواية: «من سئل عن علم وهو يعلمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة». فهم لا يسألوننى لما رأوا من عدم اشتغالى بالرواية. انتهى.

وقال مسلم فى صحيحه: اعلم وفقك الله أن الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين، أن لا يروى منها إلا ما عرف صحة مخارجه، والسِّتارة[3] فى ناقليه، وأن يتقن ما كان

(١) حديث «من كذب على متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما، وهو من المتواتر النادر.
قال العلماء: إنه مجمع على تواتره، والله أعلم.

(٢) حديث «من كتم علمًا وهو يعلمه ألجم يوم القيامة»... إلخ. صحيح رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه، وابن حبان والحاكم وصححاه، وقال فيه الترمذى: حسن صحيح. وأورده السخاوى تحت رقم ١١٦٨.
قلت: وله طرق كثيرة أوردها ابن الجوزى فى العلل المتناهية له، والله أعلم.

(٣) الستارة: هى كالسترة، والمعنى: ما يستتر به، والمراد هنا معنى الصيانة.

عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع. والدليل على الذى قلنا من أن هذا هو اللازم دون ما خالفه قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦] إلخ.

وقال عز وجل: ﴿مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ [البقرة:٢٨٢].

وقال: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ [الطلاق:٢].

فدل بما ذكرنا من هذه الآى أن خبر الفاسق ساقط غير مقبول، وأن شهادة غير العدل مردودة.

والخَبر وإن فارق معناه معنى الشهادة فى بعض الوجوه. فقد يجتَمعان فى أكثر معانيهما؛ إذ كان خبر الفاسق غير مقبول عند أهل العلم، كما أن شهادته مردودة عند جميعهم.

ودلت السنة على نفى رواية المنكر من الأخبار كدلالة القرآن على نفى خبر الفاسق، وهو الأثر المشهور عن رسول الله ﷺ «من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين»[١].

روى شعبة عن منصور عن ربعى بن خراش أنه سمع عليًا يخطب قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تكذبوا علىَّ فإنه من يكذب علىَّ يدخل النار»[٢].

وقال: قال على بن ربيعة: أتيت المسجد والمغيرة أمير الكوفة، قال: فقال المغيرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كذبًا علىَّ ليس ككذب على أحد»[٣].

وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع»[٤].

وقال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع، ولا يكون إمامًا أبدًا وهو يحدث بكل ما سمع.

---

(١) حديث «من حدث عنى حديثا»... إلخ. رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (١/٧) وهو صحيح.

(٢، ٣) حديث «لا تكذبوا على» تقدم تخريجه.

(٤) حديث «كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع» رواه مسلم فى مقدمة صحيحه (١/٨)، وعنه القضاعى، كما أورده السخاوى تحت رقم ٨٠٧.

وقال عبد الرحمن بن مهدى: لا يكون الرجل إماما يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع.

وقال سفيان بن حسين: سألنى إياس بن معاوية فقال: إنى أراك قَد كلفت بعلم القرآن، فاقرأ على سورةً من القرآن وفسرها حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لى: احفظ على ما أقول لك: إياك والشناعة فى الحديث فإنه قَلما حملها أحد إلا ذل فى نفسه وكذب فى حديثه.

وعن عبد الله بن عبيد الله بن عتبة أن عبد الله بن مسعود قال له: ما أنت بمحدث قَومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

وعن عثمان بن يسار عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «سيكون فى آخر أمتى ناس يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم فإياكم وإياهم»(١).

وفى رواية: «يكون فى آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، فلا يضلونكم ولا يفتنونكم»(٢).

وقال: حدثنى أبو سعيد الأشج عن وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المسيب بن رافع عن عامر بن عبادة قال: قال عبد الله: إن الشيطان ليتمثل فى صورة الرجل، فيأتى القوم فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلاً أعرف وجهه ولا أدرى ما اسمه يحدث.

وعن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: إن فى البحر شياطين مسجونة أوثقها سليمان، فستخرج فتقرأ على الناس قرآنًا.

وعن طاوس قال: جاء بشير بن كعب فجعل يحدث عن ابن عباس، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا وكذا؛ فعاد له ثم حدثه فقال له: عد لحديث كذا وكذا، فعاد له، فقال له: ما أدرى أعرفت حديثى كله وأنكرت هذا أم أنكرت حديثى كله وعرفت هذا؛ فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذا لم يكن يكذب عليه، قال: فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه.

---

(١) حديث «سيكون فى آخر أمتى»... إلخ. أخرجه مسلم فى مقدمة صحيحه (١/ ٩).

(٢) وهذه الرواية أيضًا فى مقدمة صحيح مسلم (١/ ٩).

وحدث نافع بن عمر عن ابن أبى مليكة قال: كتبْتُ إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لى كتابًا ويخفى[١] عنى، فقال: ولد ناصح أختار له الأمور اختيارًا وأخفى عنه، قال: فدعا بقضاء علىّ، فجعل يكتب أشياء ويمر بالشىء فيقول: والله ماقضى بهذا على إلا أن يكون ضل.

وقال سفيان بن عيينة: عن طاوس قال: أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء علىّ فمحاه إلا قدرًا، وأشار سفيان بن عيينة بذراعه.

وعن الأعمش عن أبى إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علىٍّ رضى الله عنه قال رجل من أصحاب على: قَاتلهم الله أى علم أفسدوه علينا. فلما رأى السلف ذلك أحدثوا الإسناد دفعًا لتقول المتقولين وردًا لغلو الغالين.

قال إسماعيل بن زكرياء عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فَيُنْظَرُ إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظرُ إلى أهل البدعة فَلا يؤخذ حديثهم.

وعن عبد العزيز بن سليمان بن موسى قال: قلت لطاوس: إن فلانًا حدثنى بكذا وكذا قال: إن كان صاحبك مليئًا[٢] فخذ عنه.

وقال أبو بكر بن خالد الباهلى قال: يقول سعد بن إبراهيم: لا ينبغى أن يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات. وإن الله قد خص هذه الأمة بالإسناد، وتنقيح الرواة وانتخاب المسند إليهم.

وكان ابن المبارك يقول: الإسناد من الدين؛ ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء.

وقال عبد الله بن عباس: بيننا وبين القوم القوائم يعنى الإسناد.

---

(١) كذا ورد فى مقدمة صحيح مسلم بالخاء، وفى رواية بالحاء، فيكون المعنى على رواية الحاء: ولا تكثر على، أن يكون من باب الاستقصاء والإلحاح، ويكون عنى بمعنى على، أى استقص ما تحدثنى، وقال ابن الصلاح: هو بالخاء المعجمة، ومعناه: أى يكتم عنى أشياء ولا يكتبها لى إذا كان فيها عليه مقال من الشيع المختلفة وأهل الفتن؛ لأنه إذا كتبها ظهرت، وإذا ظهرت خولف فيها وحصل فيها قال وقيل. نقل هذه الأقاويل النووى رحمه الله (١/ ٨٢) والله أعلم.

(٢) قوله مليئًا: يعنى ثقة.

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقَانى: قلت لعبد الله بن المبارك: يا أبا عبد الرحمن الحديث الذى جاء: «من البر بعد البر أن تصلى لأبويك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك» قال: فقال عبد الله: يا أبا إسحاق، عمن هذا؟ قلت: هذا من حديث شهاب بن خراش، قال: ثقة، عمن قال؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، قال: ثقة، عمن؟ قلت: قال رسول الله ﷺ، قال: يا أبا إسحاق، إن بين الحجاج بن دينار وبين النبى ﷺ مفاوز تقطع فيها أعناق المطى، ولكن ليس فى الصدقة اختلاف، غير أن الله تبارك وتعالى قيض لهذا العلم فى كل قَرن عدولاً يحفظونه من زيغ الزائغين، وتبديل المبتَدعين، وغلو الغالين، جعلهم الله فرقانًا بين الحق والباطل حتى يأتى أمر الله؛ اقرءوا إن شئتم: ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾ [الأنفال: ٢٩].

يروى أن المتقول(١) على النبى ﷺ وشهداء الزور يؤتى بهم يوم القيامة وقد أدلعت ألسنتهم. حتى قيل فى بعض الآثار: إنهم يطئون عليها. وكفى بهذا زاجرًا عن ترك الورع فى الرواية والشهادة ورؤيا المنام؛ إذ هى نوع من النبوة؛ فلا ينبغى التهاون بها ولا التساهل فى شأنها.

يروى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله يكلف من أَرى عينيه فى المنام ما لم تريا يوم القيامة أن يصنع حبلا من تراب وما هو بصانع. وكذلك المصور يكلفه أن ينفخ الروح فيما صور وليس بفاعل؛ فلا يزالان يعذبان بأنواع العذاب حتى يفرغ أهل المحشر من الحساب، فيؤمر بهما فيلقيان فى سواء الجحيم».

فالحاصل أن المقتدى بالجاهل كالمستدل بالأعمى؛ فأنى له الرشاد؟! والمقتدى بالفقيه الراغب فى جمع الحطام، ولا سيما إن كان يأخذ الرشى، المستدل بمن به لمم من الجن فلا يزيده غير خبال. وأما غير الراغب فقصاراه أن يعلم قوانين الشرع الظاهر، وليس له سبيل إلى الرشاد لعدم تَمام الوراثة، وإنما يرشد من ورث علم الرسول ﷺ وأحواله ومقاماته لوجود الأمداد الربانية، فيغذى القلوب والأرواح بأمداد الفطرة الربانية والمواهب القدسية، ويجذبهم بأحواله الزكية، لوجود الإذن فى التعبير، والتوفيق للتنوير، لنقاء ثوبه، وصفاء قلبه، ولين لبه، فهو والدٌ مُرَبٍّ،

(١) فى نسخة (ب): المتقول على الله وشهداء الزور» . . . إلخ.

وواجد ملب، وواحد بعلوم الحقائق[١]، تضلع من علوم الشريعة بعد ما تضلع من علوم الحقيقة، ليس بفظ ولا غليظ، ولا متشبع عنيظ[٢]، وهب لربه كله، واستحمله كلَّه، يغضب له لا لنفسه، فيومه خير من أمسه، قد طوى خمسه في خمسه، وباطنه في حسه؛ فهو الطبيب الماهر، والخريب الظاهر، والمشرب الطاهر، والنور الباهر ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: ١٦]. وفقنا الله بنوره لنوره، وخصنا بحبوره، آمين.

* * *

● ثم قال رحمه الله:

٨٤ـ وَلَيْسَ جَوىً عِنْدَ الجِوَاءِ أَثَارَهُ يُدَاوَى بِمَغْنىً في سَحَاهُ سِحاءُ

قوله: جوى: اسم ليس، وجملة «عند الجواء أثاره»: صفة له. ويداوى: خبر ليس. والجوى: فهو بالفتح والقصر: كل ألم باطن، وفعله جَوِيَ، بالكسر، يَجْوَى، بالفتح، والمراد به هنا الشوق والغرام، كما يقتضيه سياق البيت. قال الشاعر:

حوى الجوى وحشا الأحشاء منه هوًى مـن محيـاه وربع الدار عبران[٣]

والجواء، بالكسر: كل وادٍ واسع، وقيل: هو ما بين العدوتين من سهب واسع تخترقه السيول وليس بواد، بل هو رياض نقية وبقاع طيبة تخترقُها السيول، وتثير مراعيها الذيول، تمرع على الطل، ولا تقلى بوخم ولا سل، رقيقة الترب، كثيرة العشب

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في ذكر هجرته مع رسول الله ﷺ:

يعسفن عرض البلاد بعد أطولها وكل سهب رقيق التراب مـوار

---

(١) بياض في النسختين قدر كلمة واحدة ولعلها (قد).

(٢) العنيظ: الساخر البذيء.

(٣) هذا البيت في النسخة (أ) غير واضح، وهو في (ب) هكذا:

جوى الجوى وحشا الأحشاء منه هـوى حي المربع بالدار عبـران

ووزنه مختل.

وهى قصيدة طويلة، ونريد أن نأتى بها للتبرك بقائلها، أولها قوله رضى الله عنه : (من بحر البسيط)

قال النبى ولم يجزع يوقرنى	ونحن فى سدفة من ظلمة الغار[1]
لا تخشَ شيئًا فإن الله ثالثنا	وقد تكفل لى منه بإظهار
وإنما كيدُ من تخشى بوادرَهُ	كيدُ الشياطين كادتْه لكفار
وأنت مرتَحل عنهم وتاركهم	إما غُدُوًا وإما مدلج سار
وهاجرنْ أرضهم حتىَّ يكون لنا	قَوم عليهم ذوو عز وأنصار
حتى إذا الليل وارتْنا جوانبُهُ	وحال من دون من نخشى بأستار
جاء الأريقط يهدينا وأينقه	ينعينَ بالقَوم نعيًا تحت أكوار
يعسفن عرض البلاد بعد أطولها	وكل سهب رقيق الترب موار
حتى إذا قُلت قد أنجزن عارضها	من مدلج فارس فى منصب وار
يردى به مشرف الأقطار معترم	كأُسْدِ ذى اللبدة المستأسد الضارى
فقال كروا فقلنا إن كرتنا	من دونها لك نصر الخالق البارى
إن يخسف الله بالأَجْوَى وفَارسه	فانظر إلى أربع فى الأرض غوار
فهِيل لما رأى أرساغ مقربة	قد سخن فى الأرض لم تحفر بحفار
فقال هل لكمُ أن تطلقوا فرسى	وتأخذوا موثقى بنصح أسرار
وأصرف الحى عنكم إن لقيتهمُ	وأن أعور منهم عين عوار
فادع الذى هو عنكم كف عدوتَنَا	يطلق جوادى وأنتم خير أبرار
فقال قولا رسول الله مبتَهلا	يا رب إن كان منه غير إخفار
فنجه سالما من شر دعوتنا	ومهره مطلقًا من كل آثار
فَأظهر الله إذ يدعو حوافره	وفاز فارسه من هول أخطار[2]

(١) السدفة : الظلمة.

(٢) لا تصح نسبة هذه القصيدة إلى أبى بكر الصديق لركاكة أسلوبها وعدم وجود إسناد يوثق به لها، هذا ما أعتقده، والله أعلم.

وسراقة هذا هو الذى أظهر الله فيه هذا العلم العظيم من أعلام نبوته ﷺ قد أظهر الله فيه أيضًا أثرا آخر من الآثار الشاهدة له عليه السلام؛ لأن الله أطلعه على الغيب فى حياته بما ظهر مصداقه بعد وفاته.

روى سفيان بن عيينة عن أبى موسى الأشعرى عن الحسن أن رسول الله ﷺ قال لسراقة بن مالك: «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟»[(١)].

قال: فلما أتى عمر رضى الله عنه بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة ابن مالك فألبسه إياهما، وكان سراقة رجلا أزب كثير شعر الساعدين، وقال: ارفع يديك وقل: الله أكبر، الحمد لله الذى سلبهما كسرى بن هرمز الذى كان يقول: أنَا رب النَّاس، وألبسهما سراقة بن مالك بن جعشم أعرابيًا من بنى مدْلج، ورفع بهما عمر رضى الله عنه صوته. انتهى.

فلما رجع سراقة وفى لرسول الله ﷺ بما عاهده عليه، فما لقىَ أحدًا يطلب رسول الله ﷺ إلا رده، حتى لقى موكْبا من قُريش فيه أبو جهل فسأله عن النبى ﷺ فقال: أما هذا الوجه فقد كفيتموه؛ فقال له أبو جهل: لعلك لقيته فأمنته! قال: وإن كان ذلك كذلك فلا سبيل إلى طلبه، ثم أنشده بعد محاورة فقال: (من بحر الطويل)

أبا حكم واللات لو كنت شاهدا ... أمام جوادى حين ساخت قوائمه[(٢)]

علمت ولم تشكك بأن محمدًا ... رســول ببرهــان فمن ذا يقاومه

إليــك فرد القـوم عنـه فإننى ... أرى أمرَهُ يومًا ستعلو[(٣)] معالمه

بأمر تَود النضـر طرًا بأسرهـا ... بأنَّ جميع النَّاس طرًا تسالمه[(٤)]

---

(١) حديث «كيف بك إذا لبست سوارى كسرى» صحيح أورده ابن حجر فى الإصابة بلفظ الشيخ وبالسند المذكور وبحذف إسرائيل، وسكت عليه (٢/ ١٨) إصابة.

(٢) هذا البيت فى الإصابة هكذا:

أبا حكم والله لو كنت شاهدًا ... لأمر جوادى إذ تسوخ قوائمه.

(٣) فى الاستيعاب: «ستبدو» بدل «تعلو».

(٤) هذا البيت فى الاستيعاب هو:

بأمر يود الناس فيه بأسرهم ... بأن جميع الناس طرًا يسالمه

(٢/ ١١٩) استيعاب.

فرجعت قريش وكنانة لجواره ومنعه إياهم من الطلب. انتهى.

قوله: أثاره: أى حركه وأهاجه. والمغنى، بالغين المعجمة: المكان الذى غنى أى عمر، قال الله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس:٢٤] معناه: أنها خربت وعفى أثرها حتى كأنَّها لم تتقدم لها عمارة بالأمس، والمراد بالأمس ما مضى من الزمان وإنْ بعد العهد به، لا ما يسبق إلى الوهم وهو ما قبل يومك هذا الذى أنت فيه. والسحى، بالفتح والقصر: جمع سحاة، وهى الساحة. قال الرسول ﷺ لما وقع بصره على حصون خيبر: «الله أكبر، خربت خيبر، إنا إذ نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[1]. والسحاء، بالكسر والمد: نبت حلو ذكى له نَوْرٌ أبيض إذا رعته النحل طاب عسلها.

فكأن الناظم يقول: ليس يداوى الشوق والحزن اللذين هيجهما عهد الجواء، أى ذكر ما عهد فيه من نيل الأوطار وجميل الآثار التى فيها قُرة عينه، بالحلول فى مكان قفر نبت فى ساحته السحاء. والمعنى أنه لا يُسلى الخَسيس عن النفيس، فالدنيا لخستها لا تغنى عن الآخرة لنفاستها، فجواه إنما أثاره جواء معاهد الجنة وما أعد الله فيها لأوليائه؛ فلا يبرئه منه زرجون[2] هذه الدار التى ملئت بالأكدار، ولا راحة لمؤمن فيها دون لقاء ربه، والظفر بمقتضى حبه.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ولم أرَ فى عيوب الناس عيبًا كنقص القَادرين على التمـام

فالتمام إفراغ الجهد فى طلب الدار الباقية رغبة فى أن يكون فيها جارًا للحبيب ومنادمًا للقريب المجيب. وتخصيص الشوق لمن أمدك بالذوق، إذ القلب محل القُرب وموضع نظر الرب، قال الرسول ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم، وإنما ينظر إلى قلوبكم وأحوالكم»[3]. فجدير بمن بلغه هذا الأثر

(١) حديث «الله أكبر خربت خيبر»... إلخ. حديث صحيح رواه مسلم (٥/ ١٨٥) كما رواه غيره وهو جزء من حديث طويل.

(٢) الزرجون: تقدم.

(٣) حديث «إن الله لا ينظر الى صوركم»... إلخ، صحيح رواه مسلم فى صحيحه وابن ماجه بلفظ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».
وأورده بهذا اللفظ صاحب الكشف تحت رقم (٧٣٨).

الشريف أن لا يجعل حبه إلا لله وفى الله، وإلا فقد علق الجوهر فى أعنَاق الخنازير، ورام الكتابة من غير قَلم ولا مداد، والسلطنة وهو جالس على المزبلة، والقطع بدون المدية.

* * *

• **ثم قال رضى الله عنه:**

٨٥ ـ ومَا ذُو نَسًى بَيْنَ النِّسَاءِ بِمُبْرِئٍ ذَوَاتِ طَنًا أشْفَتْ بِهِنّ طِنَاءُ

قوله: وما ذو نسى: أى وليس صاحب نسى، بالفتح والقصر: مصدر نسى الرجل إذا اشتكى نساه، فذو: اسم «ما». نَسىً: مضاف إليه ما قَبله. بمبرئ: خبره. بين النساء: ظرف ومضاف إليه ما قبله، والجملة خبر لمبتدأ محذوف، أى: هو كائن بين النساء. والمبرئ من المرض: الذى يشفى منه بالعلاج الموافق لدفع العلة من عُقَار وغيره: من مبرد فى ثوران الحرارة، ومسخن فى هيجان البرودة وغلبتها، بل ولو كان ذلك بغذاء موافق للطبيعة والجسم. قال الرسول ﷺ: «عودوا كل جسم ما اعتاد»[1].

والطنى، بفتح الطاء المهملة والقصر: التصاق طحال البعير بجنبه من شدة العطش واليبس، وليس هو خاصا بالبعير، بل يقال: طنى الإنسان: إذ عظم طحاله من الحمى وغُلبة الصفراء، وهو مصدر طَنِى، بكسر النون فيهما. والطناء بالكسر والمد: جمع طَنِئ، بالكسر والهمز: وهو بقية الروح، ومنه قيل: هذه حية لا تطنئ، أى لا يعيش لديغها.

قوله: أشفت: أشرفت على الموت.

فكأنه يقول: ليس رجل صاحب شكاية بوجع نساه فى حال كونه بين النساء قد

(١) حديث «عودوا كل جسم ما اعتاد» ليس له أصل من كلام النبى ﷺ، رواه الخلال وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٧٨٨ وقال: قال العراقى: لم أجد له أصلا. كما أورده السخاوى تحت رقم ٧٢٢ بلفظ «بدن» بدل «جسم» ورقم ١٠٣٥ وقال: لم أجد له أصلا، وأورده الشوكانى تحت رقم ٨٠٩ ـ ١٦٢ وقال: قال فى المختصر: لم يوجد، وقال فى المقاصد: لا يصح رفعه إلى النبى ﷺ ، وأوله عنده: «البطنة أصل الداء، والحمية أصل الدواء»، وأورد باقيه سواء بسواء، والله أعلم.

أحطن به يمرضنه لشدة مرضه بمداوٍ إبلاً ذوات طنى، أى مطحولة، أشرفت على الموت، فهو لأجل مرضه ودنفه وكونه بين نساء قد أحطن به لا يغنى عن ذوات الطنى التى لم يبق فيها إلا بقايا من الأرواح، كيف وقد شغل بنفسه، وقد دنَا من مواراته فى رمسه، وحيث عجز عن مداواة نفسه، فعجزه عن علاج غيرها أحرى.

والكلام مفرغ فى قالب التمثيل؛ فهو كناية عمن يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ثم يقتحمه، إذ لسان الحال أصدق من لسان المقَال، فغاية أمره ونهيه أن يجلب بهما الازدراء لنفسه. قال الشاعر: (من بحر الكامل)

يا أيها الرجل المعلم غيرَهُ ... هَلاّ لنفسك كان ذا التعليمُ
فَابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا فعلتَ إذًا فأنت حكيم
فهناك يُسمع ما تقول ويُقتدى ... بالقول منك وينفع التَعليمُ
لا تَنْهَ عن خلق وتأتىَ مثله ... عار عليك إذا فعلتَ عظيم

فكما لا يبلغ المنهل إلا الخريت الماهر كذلك لا يوصل إلى الله إلا الواصل المتصل، كما قيل: من اتصل بشيخ واصل وصل، ومن اتصل بشيخ منفصل بان وانفصل. هيهات! كيف يوصل إلى الملوك من جهل كيفية السلوك؟ أم كيف يداوى أمراضَ الذنوب من هو متلوث بهفوات العيوب؟ أم كيف يخرج أضغان القلوب من لم يغص فى غمرات الغيوب؟ أم كيف يقوم اعوجاج النفوس من لم يشرب من مشارب القدوس؟ أم كيف يطرد جنود الهوى من لم تلج فؤاده التقوى؟ أم كيف يحى الموتى من عاش ومن العلوم اللدنية لم يؤت؟[1]. أزال الله بلوانا، ولا خيب مسعانا، آمين.

* * *

(١) لعله يريد موتى القلوب لا أموات الأجسام؛ إذ لا سبيل إلى ذلك بعد ما أعطى الله عيسى وأخبر به على سبيل الإعجاز.

● **ثم قال رحمة الله عليه:**

٨٦ـ وَلاَ ذو الحَقَى يَكفى بكُثْرِ حِقَائه وغَايَةَ ذِى الدُّنْيَا صَنىً وَصِنَاءُ

يعنى أنت صاحب الحقى، بالقصر والفتح: جمع حقو، وهو وجع الخَاصرة؛ إذ الحقو إنما هو موضع ربط الإزار، وهو من أصغر ضلع إلى منتهى الورك، كما روى أن رسول الله ﷺ لما ماتت إحدى بناته دخل على النساء وهنَّ يغسلنها فقال: «اغسلنها ثلاثًا أو خمسًا أو أكثر من ذلك إن رأيتن ذلك بماء وسدر، واجعلن فى الأخيرة كافورًا، فإذا فرغتن فآذننى. قالت: فلما فرغنا ألقَى إلينا حقوه فقال: أشعرنها إياه»[1]. وهو من باب تَسمية الشىء باسم محله أو ملازمه؛ فيقال للإزار حقو، كما يقال للمحل.

أى لا يكفى من مؤونة الموت ولا من إصابة البلايا والمحن بسبب كثر، وهو بضم الكاف هنا مراعاة للتاء المحذوفة فإذا أعيدت فتح الكاف وجوبًا، فإذا قلت: بكثرة فتحتها، وإذا قلت: بكثر ضممتها، أى بكثرة حقائه، بالكسر والمد: جمع حقو، وهو الرداء. فالمراد أن عرض الدنيا لا يكفى[2] صاحب غَرَضًا من الأغراض التى تناله فيها. والصَّنى، بالفتح والقصر: حجر مطروح لا يلتفت إليه. والصناء، بالكسر والمد: الرماد. فالمعنى أن غاية ذى الدنيا ولو بلغ فيها صاحبها المنتهى فى الملك والشرف والثروة فإنما مصيره ومأواه أن تنصب عليه أحجار لا يبالى بها ويصير تحتها رميمًا، ثم بعد صيرورته رميمًا يصير ترابًا، فيندرس رسمه، فلا يذكره ذاكر، ولا يزوره زائر، كما كان ﷺ يقول: «اللهم ارحمنا إذا عرق الجبين، وكثر الأنين، وفارقنا الحبيب، ويئس منا الطبيب، اللهم ارحمنى إذا درس رسمى، ونسى اسمى ولم يزرنى زائر، ولم يذكرنى ذاكر». فالبيت موضوع للتزهيد فى الدنيا واحتقارها، وهو فى قوة قوله تعالى: ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧] كما فى المثل: غاية كل متحرك السكون، وغاية كل متكون أن لا يكون.

---

(١) حديث: «اغسلنها ثلاثًا»... إلخ. حديث متفق على صحته، رواه الجماعة، والذى أورد الشيخ إحدى روايات البخارى، وهو عنده فى كتاب (الجنائز).
أما المغسلة فهى زينب بنت النبى ﷺ.

(٢) كذا فى الأصلين: لا يكفى، وربما كان الصواب لا يقى، من الوقاية.

• ثم قال رحمه الله:

٨٧ ـ وَرُبَّ قَوِيٍّ آضَ القِــواءُ بِهِ غَمًى   وَقَد كَانَ مِنْهُم فِى القُحُوطِ غِماءُ

قوله: رب قوى أى كثيراً ما أصبح الموضع القفر عمرانًا بعد ما كان خلاء، وربما أصبح البلد العامر بالأموال والرجال والأشجار والعقار قوى، أى خاليًا لا عمارة فيه، وبذلك سمى المسافر مُقْويًا، وجمعه مقوون؛ لأن يقطع المفاوز ويجاوز العمران طلبًا للأرباح ورجوعًا إلى المراح، فيقال: قوى المكان: إذا أقفر. والقواء، بالمد والكسر: جمع قوى، وهو على غير قياس؛ لأن القياس فى جمع قوى: أقوياء، ويقال فيه: أولُو قُوَّة: إذا كان بمعنى شدة البطش وكثرة الخطو.

قَال ﷺ: «إنما القوة الرمى» .وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠].

ويسمى القوى أيضًا؛ بالتشديد.

قال الرسول ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب»(١).

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

ليس الشديد الذى يحمى فريسته   يوم الوغـــاء ونار الحرب تشتعلُ
لكنّ من غضّ طرفًا أو ثنَى قَدمًا   عن المحارم هو الفارس البطل(٢)

وآضَ: عاد، وهي من أخوات «كان». والغمى، بفتح الغين المعجمة والقصر: الذى أغمى عليه لغبة المرض أو من إفراط الضعف، وهو أشد من الغَشْى ودون السكر.

وفى صحيح مسلم: «كان رسول الله ﷺ إذا أنزل عليه الوحى أصابه مثل

---

(١) حديث «ليس الشديد بالصرعة»... إلخ. حديث متفق على صحته، رواه الشيخان وابن حبان والنسائى، وهو عند البخارى فى كتاب (الأدب ـ باب الحذر من الغضب). ولفظ الشيخ كلفظ البخارى سواء بسواء.

(٢) الشطر الثانى مكسور الوزن، والرواية الصحيحة:

* عن الحرام فذاك الفارس البطل *

الغشْى الخفيف؛ فينفصم عنه وقد تفصد جبينه عرقًا فهو كالجمان».

فَالغشى للأنبياء والصلحاء، والإغماء للمرضى والضعفاء، والسكر لأهل الأهواء عند الموت. والجلاء: الذهاب بالكلية، وأما التخبط فالصرع، والتخبط لمن به لمم الجان ولأكلة الربا عند اللقاء؛ قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥]، وقال الله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]. فالغمى لا يثنى ولا يجمع ولا يؤنث كما فى التسهيل. والغماء، بالكسر والمد: الغيوم. قال الشاعر: (من مخلع البسيط)

هم العطيـة والأمـانى	والمُـدْنُ والمُزْنُ والغيـومُ
لم تتغيـر بنا الليـالى	حتى عفتْ منهمُ الرسوم
وهم حيـاتى وعيشى	ونور عينىَ والطعـوم
عليهـم منى سـلام	ينهل ما دامت الديوم

ومفرده غيم، وربما قيل فى مفْرده: غماء كسماء، وماضيه غَيَّم مضعفًا.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فإن غَيَّمَتْ فالويل للظهر والعصر ....[1]

ووقع سماعًا غمى على وزن رمى كما قال البنانى: وإذا أسند إلى الهلال جىء به على صيغة البناء للمجهول فتقول: غم، بضم الغين المعجمة وتشديد الميم، وله أخوات لا تأتى مواضيها إلا على هذه البنية كجم وسقط وجن وألحق وأفلس، انظر القبوس شارح القاموس.

فكأنه يقول: رب أقوياء ذوى أموال كانوا يفتخرون بقوة أجسامهم ولأجل غناهم فصاروا بعد ذلك فقراء ضعفاء حتى كادوا يهلكون بسبب فقرهم وضعفهم؛ فلم يغن عنهم شيئًا مالهم ولا منالهم بعد تغير حالهم بعد ما كانت سيول نوالهم تغنى عن الغيوم فى سنى القحوط؛ وهو جمع قحط، أى قحوط المطر بيبسه وقلته

(١) كذا فى الأصلين، لم يرد إلا شطر.

بسبب صرفه عن الخلق لأجل ذنوبهم وظلمهم؛ فيصرفه إلى البحار الملحة والأرض غير المعمورة، حتى إذا نفذ فيهم أمره فتاب تَائِبٌ أو تذكر متذكر صرفه إليهم بقدر ما يشاء.

ولأبى الشيخ أبى حيان فى كتاب «العظمة» قال: إن الغيث لا ينقص ولا يزيد، فهو ينهمل من يوم خلق الله السماوات الأرض، لا ينقطع طرفة عين حتى تقوم الساعة، وهو معظم الجزء الواحد الذى أرسل الله إلى الدنيا من تجزئة مائة جزء، ورحمة الله لا تنقطع؛ فلا يقطع المطر، ولكن يصرفه إلى الثلث الخراب من الدنيا والبحار، ولو أن بنى آدم أطاعوا الله ولم يعصوه لأمطرهم بالليل، ولأخرج لهم الشمس بالنهار، ولما أسمعهم صوت الرعد. انتهى.

والقحط جند من جنود الله، يؤيد به أنبياءه، ويؤدب به أعداءه، كما فى الصحيحين أن النبى ﷺ لما استصعبت عليه مُضرُ وردَّتْ عليه أمر ربها قال: «اللهم أعنى على مضر بسبع كسبع يوسف»[١].

وفى رواية: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف».

فَأصَابتْهم سنة حصت الأموال حتى أكلوا الميتة والعظام والعلهز[٢]، وحتى صار الرجل منهم ينظر إلى السماء فيرى كهيئة الدخان من الجهد؛ فارتحل تميم وضبة والرباب إلى السواد، حتى ارتَهنَ زرارة ابنه وقوسه عند كسرى، وأما سليم وأسد وغطفان فإنهم نزلوا بعوالى المدينة وأظهروا الإسلام أو من أظهره منهم، فأنزل الله فى شأنهم: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] فلما تَيقنت قريش الهلاك وفد إلى رسول الله ﷺ أبو سفيان مع من وفد معه من أشراف قريش، فقال أبو سفيان: إن قومَك قد هلكوا فادع الله لهم كما دعوت عليهم، فإننا ننشدكَ الله والرحم أن لا يكون هلاك قومك على يديك، وإنك كنت تأمرنا بصلة الرحم، فادع ربك أن يغيثنا؛ فأنزل الله عليه: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً

(١) الحديث متفق عليه كما قال الشيخ، وهذا أوله عند البخارى، وهو أطول من هذا ودون ذكر العلهز.

(٢) العلهز: تقدم، وهو الدم مع الشعر ييبس ثم يدق فى الشدة ويؤكل.

﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الدخان: ١٥] فدعا لهم؛ فأغيثوا من يومهم حتى سال وادى قناة شهرًا، وكان فى الوفد رجل من كنانة، وكان قد أسلم قال: يا رسول الله، إنى قلت فى أمرك هذا وإغاثة مضر شعرًا إن أذنت لى أسمعتك إياه؛ فأذن له، فقال: (من بحر المتقارب)

لك الحمد والحمد ممن شكر ... سقينا بوجه النبى المطر
دعا اللهَ خالقَهُ دعوةً ... إليه وأشخص منه البصر
وما كان إلا ككف الردى ... أو أسرع حتى رأينا الدرر
به قد سقى الله حتىَّ مضر ... وهذا العيان لذاك الخبر
نبى كريم دعا ربه ... عليه شعاع كضوء القمر

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط المطر عن أهل مصر زمن الملك الريان سببًا لولاية يوسف عليهم وملكه إياهم.

وكذلك جعل الله تبارك وتعالى قحوط الشام سببًا لنقلة يعقوب عليه السلام من البدو إلى مصر ولقائه لقرة عينه يوسف، وفى ذلك يقول الله حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]. وكذلك جعل الله القحط سببًا لطواعية بنى إسرائيل لإلياس عليه السلام؛ لأن الله أرسله إلى أهل بعل، وكانوا قد كفروا من بعد موسى عليه السلام فعبدوا صنمًا يقال له: بعل، فلما دعاهم إلى الله هموا بقتله؛ ففر منهم إلى الجبال، ثم جدوا فى طلبه، فصار كلما جاءته طائفة منهم دعا الله أن يكفيه أمرهم بما شاء؛ فيرسل الله عليهم نارًا فتحرقهم عن آخرهم ولا ينجو منهم إلا المخبر. فلما يئس من فلاحهم سأل الله أن يجعل مطرهم بيده سبع سنين، فقال الله: إنى أرحم بخلقى من ذلك، قال: ست سنين، فلم يزل يستنقصهُ حتى جعلها ثلاث سنين؛ فمنع الله عنهم الغيث ثلاث سنين حتى هلكت أشجارهم وزروعهم ومواشيَهم، وأخذ الموت فى الناس حتىَ مات خلق كثير؛ فبعثوا إليه إليسع يناشدونه الله والرحم، وأرسل إليهم أنه لا يرجع إليهم حتى يهدموا بعلاً، فهدموه، فأخبره أنه سيخلفه على بنى إسرائيل إذا أسلموا، وعلامة

ذلك أن ينزل عليه كساءً من السماء ودابة كلون النار، فرجع إلى بنى إسرائيل، ورفع يده إلى السماء، فأمطروا من ساعتهم، وجاءته الدابة كما وصف، فركب عليها، فطارت به إلى السماء، وجعل الكساء على رأس إليسع، واستخلفه على بنى إسرائيل[١].

ولقد نزل بالعراق ونواحيه قحط مجحف زمن الحجاج؛ فوفَدت عليه ليلى الأخيلية. فلما أدخلت عليه استَنسبها فانتسبت، فقال لها: ما أتَى بك يا ليلى؟

فقالت له: إخلاف النجوم، وقلة الغيوم، وكلب البرد، وشدة الجهد، وأنت لنا بعد الله الرفد. فقال: صفى لنا ما مررت به من الفجاج، فَقالت: الفجاج مغبرة، والأرض مقشعرة، والمبرك معتل، والعيال مختل، والمختبط للقل، والضارع للذل، والناس مسنتون، ورحمة الله يرجون، أَصابَتْنا سنون مجحفة مبطلة، لم تدع لنا هبعًا[٢] ولا زبعًا[٣] ولا عابطة[٤] ولا نَافطة[٥]، أذهبت الأموال، وفرقت الرجال، وأهلكت العيال. ثم قالت: قد قُلت فى الأمير أبياتًا فليأذن لى فى ذكرها، قال: هاتى ما قلت، فقالت: (من بحر الطويل)

أحجاج لا يفلل سلاحك إنما الـ ... ـمنايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعط العصاة مناهم ... ولا الله يعطى للعصاة مناَها
إذا هبط الحجاج أرضًا مريضة ... تتبع أقصى دائها فشفاهَا
شفاها من الداء العضال الذى بها ... غلام إذا هز القناةَ سقَاها
سقاها فرواها سجالاً سجالة ... دماء رجال حيثُ شاء حشاها
إذا سمع الحجاج رنَّ كتيبة ... أعد لها قَبل النزول قراها
أعد لها مسمومة فارسية ... بأيدى رجال يحلبون صراها
فما ولد الأبكار والعون مثله ... ببحر ولا أرض يجف ثراها

(١) هذه القصة من الإسرائيليات التى لا سند لها ثابت فيما أعلم.
(٢) الهبع: الفصيل الذى ينتج فى الصيف، أو الحمار.
(٣) الزبع: الشىء الحقير، والمراد أنه لم يبق لنا شىء.
(٤) العابطة: الذبيحة تنحر وهى سمينة.
(٥) النافطة: الماعزة.

فقال لها: حسبك ويحك، سلي تعطى، فقالت له: مثل الأمير أعطى من غير مسألة، فأعطاها مائة ناقة برعائها.

ويروى أنه وقع قحط زمن موسى عليه السلام، فاستسقى موسى لقومه ليالي فلم يزد الأمر عليهم إلا شدة، فقال: أي رب، لم منعتنا الغيث وأنت الواسع المفضال؟ فقال له: لو رفعتم إلى أيديكم حتَّى تسقط مناكبكم، وسجدتم حتى تتقطع أعناقكم فتصيروا كالحنايا، لما رحمتكم وفيكم نمام؛ فقال: أي رب، نبئني به أقتله، فقال: يا موسى افهم ما تقول! كيف أخبركم به فأكون نمامًا وقد نهيتكم عن النميمة؟! ولكن ادع قومك إلى التوبة من النميمة ومن كل ذنب أسقهم؛ ففعل موسى عليه السلام، فتابوا كلهم وأخلصوا لله نياتهم؛ فسقاهم، وقد تاب النمَّام من جملة من تاب[1].

وروى أيضًا أن عيسى عليه السلام خرج في أمته يستسقون وقد قحطوا قحطًا فادحًا، فلما خرجوا نزل عليه الروح الأمين فقال له: إن ربك يقول لك: إن كنت تحب السقيا فلا يخرج معك للصلاة إلا من لم يعصني فيما مضى من عمره، فرجع القوم إلا رجلاً واحدًا، فقال له عيسى عليه السلام: يا فتى، هل عصيتَ ربك قط؟ قال: لا يا روح الله إلا أني التفتُّ يومًا فوقع بصري الأيمن على أجنبية من غير قصد فاقتلعتها من أصلها ورميت بها، فقال له عيسى عليه السلام: اسأل السقيا للناس فأنت أحق بذلك مني، فرفع يديه إلى السماء، وشخص ببصره، فسقوا[2].

ولما أراد الله كرامةَ علي رضي الله عنه بالإسلام أسنتت[3] قريش، وكان أبو طالب مع سيادته قليل المال كثير العيال، فأتى النبي ﷺ العباس رضي الله عنه، وكان أكثر بني هاشم مالاً، فقال له: إنك ترى ما نزل بالناس من هذه الأزمة، وإن عمي وأخاك أبا طالب كثير العيال قليل المال، فهلم فلنأخذ من صغار بنيه اثنين: آخذ واحدًا وتأخذ واحدًا، فأجابه إلى ذلك، فأتياه، فأخذ النبي ﷺ عليًا رضي الله

(١) وهذه القصة أيضًا من الإسرائيليات التي لا يكاد عاقل يصدقها، ولا سند لها حسب علمي.

(٢) وهذه القصة أبعد عن التصديق من السابقة.

(٣) أسنتت: أي قحطت.

عنه، وأخذ العباس جعفرًا رضى الله عنه، فلم ينشب النبى ﷺ أن نبئ وهو فى حجره؛ فدعاه إلى الإسلام فأجابه وهو ابن سبع سنين، وقيل: ابن عشر، أسلم بعد خديجة بثلاثة أيام، فصارت تلك الأزمة سببًا لكرامته، وإلا لكان كسائر إخوته؛ إذ منهم من ماتَ مشركًا كطالب، ومنهم من تأخر إسلامه إلى الفتح كعقيل.

وقولى: أسنت بسكون السين يلحنه كثير ممن ينسب إلى الفصاحة فيقول: أسَن، بفتح السين، ومنهم من يقول: أسنت، وذلك كله لحن وتصحيف، بل وزنه «أفعل» بناء على أن التاء لما صارتْ عوضًا من الواو المحذوفة اعتدوا بها وصيروها كأنها من نفس الكلمة، فاشتقوا منْها[1] الفعل، كما نقل عن سيبويه، وأن يكونوا افتعلوا البناء على أن التاء لم يعتدوا بها وإنْ صارتْ عوضًا لكونها غير أصلية، وإنما لم يردوه إلى الأصل فيقولون: أسنى القوم، بمعنى أجدبوا لئلا يلتبس بقولهم: أسنوا فى هذا المكان، إذا مكثوا فيه سنة، وهذا وإن نقل عمن له حذاقة فى هذا الفن فليس بقوى؛ لأن مرادهم الدلالة على القحط بقولهم: أسنت القوم فهم مسنتون، فالسنة هكذا، فصار استعمالها فى القحط أكثر من استعمالها فى السنة التى هى العام، ولو لم يعتدوا بها وأنزلوها منزلة لام الكلمة لوجب حذفها عند الجمع فى قولهم: هم مسنتون، كما حذفوها فى جمع سنة بمعنى العام على سنين بحذفها[2]، وإن كانت عوضًا فلم حذفوه من قولهم: أكلتهم السنة، أى أذهبتهم شدة القحط، ولام السنة واو؛ لأنها مأخوذة من سنا يسنو، ثم حذفت وعوض عنها التاء، واشتقوا منه أسنت بعد التعويض، أى: أسْنت القوم، بسكوت السين، وسن الرجل فهو سان: إذا سَنّ سنة.

قال الرسول ﷺ: «من سن سنة حسنة فله أجرها...» إلخ[3].

---

(١) فى (أ): منها، وفى (ب): منه، والأول هو الأصح.

(٢) هذه الكلمة غير واضحة فى النسختين، وأقرب شىء إليها: (بحذفها) مع عدم مناسبتها تمامًا.

(٣) حديث «من سن سنة حسنة»... إلخ. صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذى والنسائى وابن ماجه بألفاظ مختلفة.

وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٥٠٩ بلفظ: «من سن فى الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة؛ ومن سن فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة».

وسن الرجل فهو مسن، إذا بلغ السن. واستن البعير فهو مستن إذا ركض طربًا وفرحًا.

قال الرسول ﷺ: «ولو أنها قطعت طيلها[١] فَاستنت شرفًا[٢] أو شرفين» الحديث[٣].

وأسّنوا، بتَشديد السين: أقَاموا بالمكان سنةً فهم مستّون، وأسنت الجلد فهو مسنت: إذا دبغ، وآسن: إذا تغير، ووسن فهو وسنان: إذا أخذته السنة، وهو النوم الخفيف، وأسنى المكان: إذا كثر به السنى. قال ﷺ: «لو كان للموت دواء لكان السنا»[٤]. وقَال: «عليكم بالسنا والسنوت»[٥].

فالسنَا معروف، والسنوت[٦]: سن تكون فيه خطوط من عسل أو رب؛ فهو خاص بما كان فى عكة الأعراب.

قَوله: رب قوى: فَرب عند جمهور البصريين حرف موضوع لإنشاء التقليل وقد تستعار للتكثير فى مقام الافتخار كثيرًا، واستدلوا على حرفيتها بأنَّها لإنْشاء التقليل، والأصل فى الإنشاء أن يكون بالحروف كما فى الاستفهام والأمر والنهى والنداء؛ ولذلك لزمت الصدر فلا تَدخُل عليها العوامل، ولو كان اسمًا لدخلت حروف الجر عليه كما تَدخل على كم الخبرية؛ فلا تقول: بِرب رجل أكرمت، ولا غلام رب رجل ضربت، كما تقول: بكم رجل مررت؟ وغلام كم رجل اشتريت؟

(١) طيلها: الطيل، بكسر الطاء: الحبل الطويل يربط فيه الفرس فيرعى مكانه.

(٢) شرفا: مسافة من الأرض نحو الميل.

(٣) حديث «ولو أنها قطعت طيلها»... إلخ. جزء من حديث طويل متفق على صحته رواه الشيخان.

وأوله: «الخيل لرجل أجر، ولرجل ستر، وعلى رجل وزر»، وهو عند البخارى فى كتاب المساقاة.

(٤) حديث «لو كان للموت دواء لكان السنا»... إلخ. صحيح أخرجه الحاكم وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى (٤/ ٤٠٤) مستدرك، والله أعلم.

(٥) حديث «عليكم بالسنا والسنوت»... إلخ. أخرجه ابن ماجه والحاكم، وأورده السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن، وزاد: «فإن فيهما شفاء من كل داء إلا السام وهو الموت». قال المناوى قال الحاكم: صحيح، وتعقبه الذهبى بأن عمرو بن بكر اتهمه ابن عدى بأن له مناكير (٤/ ٣٤١).

وتشكل حرفيتها بنحو قولهم: رب رجل كريم أكرمت؛ لأن حروف الجر موضوعة لإفْضَاءِ بفعل معنَاه آيل إلىَ مفعول لولاها لم يفض إليه؛ فأكرمتُ يتعْدى بنفسه فلا يحتَاج إلى تعدية بحرف فَإن زعموا أنه إنما عدى به لضعفه عن العمل بالتأخير كقوله تعالى: ﴿إن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾ [يوسف:٤٣]، قيل لهم: المُطَّرد فى مثله أن يتعدى الفعل باللام لما فيه من معنى الاختصاص دون غيرها من الحروف الجارة.

وتشكل أيضًا بنحو قولهم: رب رجل كريم لقيته؛ لأن الفعل لا يتعدى إلى المفعول بالحروف وإلى ضميره بنفسه؛ فلا يجوز أن تقول: لزيد ضربته، ولا للرؤيا تعبرونها إجماعًا. فإن زعموا أن «أكرمته» جملةٌ وقعت صفة للرجل والعامل فى المجرور محذوف مقَدر بما يساعد عليه المعنى قيل لهم: هذا المقدر غير محتاج إليه لاستقامة معنى الكلام بدونه، فتقديره غير سائغ؛ على أن المعنى لا يساعد على تقديره من غير لفظ ما ذكر بعده ومن غير معناه، فلقيتُه هو العامل، والضمير للمصدر المدلول عليه بالفعل لا للمجرور، كما قالوا فى قول الشاعر: (من بحر البسيط)

هــذا سراقــة للقرآن يدرســه والمرء عند الرشا إن يلقها ذئب

أى يدرس الدرس، ولقيت اللقاء. قيل لهم: هذا تخريج على ما هو قَليل الورود فى كلامهم، ونَحو «رب رجل كريم لقيته» شائع فيه؛ فلا يسوغ ترجيح القليل النادر على الكثير الشائع. فإن زعموا أن «لقيتَه» صفة ثانيةٌ وهى مفسرة للقيت مقدر يعمل فيه قيل لهم: أجمعوا على أن ما لا يجوز أن يعمل بنفسه لولا شاغل شغله لا يفسر عاملاً. وأجمعوا على أن الصفة لا تعمل فى الموصوف ولا فيما تقدمه؛ فَلا يجوز أن تفسر عاملاً يعمل فيها. على أنه لم يثبت فى كَلامهم تفسير عامل المجرور بفعل ظاهر بعده؛ فلا يجوز أن يقال: بزَيد جاوزته، على أن التقدير مررت بزيد جاوزته، بل زيداً مررت به على التقدير: جاوزت زيداً.

وعند الأخفش والكوفيين هو اسم موضوع لإنشاء التقليل كما أن «كم» اسم موضوع لإنشاء التكثير، وهما مضافان للنكرة بعدهما. وإنما لم تَدخل العوامل اللفظية على «رب» ولا عمل فيها ما بعدها كما دخلت على «كم» وعمل فيها

الفعل بعدها؛ لأن «رب» لما وضعتْ لإنشاَء التقليل ضارعت أدوات النفى: فى لزوم الصدر، وعدم دخول حروف الجر عليها، وعمل ما بعدها فيها. بل لزمت الابتداء؛ لأن عامله معنوى؛ فهى دائما عندهم مبتَدأ لا خبر له كما فى قوله: أقل رجل يقول ذلك إلا زيدٌ، إذ معناه: ما رجل يقول ذلك إلا زيد.

ومثله قول المتنبى: (من بحر المديد)

غير مأسوف على زمن ينقضى بالهم والحزن

والمعنى لا تتأسف على ما هذه الصفة صفته، فلما استَقَام المعنى بدون وجود اللفظ ولم يتوقف على تقديره وجب الاستغناء عنه كما فى قولهم: أقائم الزيدان، وذلك أن قولنا: رب رجل لقيته، قَليل من هذا الجنس. وكثيرًا ما تطلق القلة ويراد بها النفى لاستلزامها إياه؛ ولذلك كان لها الصدر، ولا يتقدم عليها عامل لفظى؛ فوجد أن يكون المعنى: ما لقيتُ من هذا الجنس إلا رجلاً واحدًا؛ لأنه جواب لقول من قال: هل لقيتَ أحدًا؟ وهذا المعنى تَام فى نفسه من غير أن يتوقف على تقدير شىء.

ويؤيده ما يحكى عن أبى عمرو بن العلاء أن «رب» لا عامل لها لأنها ضارعت النفى، والنفى لا يعمل فيه عامل، ولكونها بمعنى النفى التزموا أن يصفوا مجرورها بجملة فعلية، كقولهم: رب رجل لقيته، ورب غلام اشتريته؛ لأن النفى يطلب الفعل طلبًا حثيثًا، كما التزموا ذلك فى قولهم: أقل رجل يقُول ذلك إلا زَيد؛ ولذلك وصفَ المتنبى زَمنًا فى قوله:

* غير مأسوف على زمن *

بجملة فعلية؛ لأن المعنى لا تتأسف على زمن ينقضى متلبسًا بالهموم والأحزان. لكن «رب» لما كانت تستعمل فى معنى الكثرة عل وجه الاستعارة كثيراً خرجت لذلك على معنى النفى؛ فجاز فى مجرورها أن يوصف بجملة اسمية، كقول الشاعر:

* يا رب هَيْجا هى خير من دَعَهْ *

أو باسم مفرد كقوله ﷺ: «رب كاسيات فى الدنيا عاريات يوم القيامة».

والأكثر الأفصح في كلامهم أن يوصف مجرورها بجملة فعلية مراعاة لأصلها وإن استعيرت للتكثير، كقول الأعشى: (من بحر الخفيف)

رب رفد نصعته ذلك اليَوْ ... م وأسرى من مشعر أقيال

وقول امرئ القيس: (من بحر الطويل)

ألا رب مكروب كررتُ وراءه ... وطاعنت عنه الخيل حتى تَنَفَّسَا

قَولي: مجرور برب على أنها حرف جر هو مذهب سيبويه والبصريين، وبالإضافة إلى مذهب الأخفش والكسائي والكوفيين. آض: فعل ناسخ. القواء: اسمه. وغمي: خبره، والجملة الفعلية صفة لمجرور «رب»، والباء من به: سببية، والضمير راجع على قوى. وقد: حرف تحقيق. كان: ناقصة، اسمها غماء. منهم: شبه جملة في محل خبرها. والقحوط: جمع قحط: مضاف لمحذوف دخل عليه حرف الجر، وهو زمن القحوط، متعلق بالكون، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم:٤٢] ففي ذلك زاجر لكم عن الانهماك في شهوات الدنْيا والاغترار بعزها، فإنهم كانوا كما كنتم بل أشد قوة وآثارًا، وستعودون كما عادوا، وتَبيدون كما بادوا.

قال الشاعر وهو عمرو بن الحارث الجرهمي: (من بحر البسيط)

يا أيها الناس سيروا إن قَصدكمُ ... أن تصبحوا ذات يوم لا تسيرونا

حثوا المطايا وارخوا من أَزِمَّتِها ... قبل الممات واقضوا ما تُقَضُّونا

كنا أناسًا كما كنتم فَغَيَّرَنَا ... دهرٌ فأنتم كما كنا تكونونا

كان الله لنا في الحالتين، آمين.

* * *

باب ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد مع اختلاف المعنى

يعني أنه إذا كسر قُصر ولا يمد، وإذا فتح مد فَلا يقصر، فغاية المكسور أن يكون مقصوراً، وغاية الممدود أن يكون مفتُوحًا؛ فلا مد لمكسور، ولا قَصر لمفتوح؛ فهو عكس الباب الذى قبله؛ لأنه قدم فى هذا الباب المكسور فقصره، وأخر المفتوح ومده.

● **فقال:**

٨٨ ـ سِوَى مَسْلَكِ الأَبْرارِ يَمِّمْ سَواءَهْ   فِـدَاكَ نُفُوسٌ عَـافَهُنَّ فَـداءُ

قوله: سوى، بالكسر والقصر: عبارة عن نفس الشىء أو عينه، وهى لغة نادرة من باب تسمية الشىء باسم نقيضه لم تسمع إلا فى الشعر، كما قيل: (من بحر الرجز)

كأنهـا نَائحـة تفجع   تبكى لميت وسواها موجع

أى نفسها موجعة.

ومنْه قَول حسان بن ثابت: (من بحر الطويل)

أتَانا ولم نعـدل سواه بغيره   فجدنا له بالنفس والمال والنَّسلِ

أى لم نجعل لنفس النبى ﷺ عدلاً أى مساويًا يماثله فى المودة والإكرام والطواعية.

والعدل، بفتح العين وقد تكسر: أحد جانبى الحمل، والحمل بالفتح أيضًا، وقد تكسر، قال الله تعالى:

﴿وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ [يوسف:٧٢]. قال المبرد: إذا أريد به عدل الحمل فتح، وإذا أريد به إحدى الغرارتين كسر.

وسواء، بالفتح والمد: وسط الطريق. قال موسى عليه السلام: ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢]، وقال الله تعالى: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٥٥]، والفدا، بالكسر والقصر: جمع فدية، وهو ما يفتدى به. قال الله

تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحديد: ١٥].

وقال ﷺ: «لا فدية في الإسلام ولا سباء».

ولما هزم رسول الله ﷺ المشركين يوم بدر فقتل سبعين من أشرافهم وأسر سبعين اختلف أصحابه ﷺ؛ فمنهم من كان هواه قتلهم، منهم عمر وسعد بن معاذ، ومنهم من كان هواه الإبقاء عليهم، منهم أبو بكر، وكان ذلك هوى رسول الله ﷺ، ومنهم من كان هواه أخذ الفداء لفاقة المهاجرين وإبقاء على قومه. وكان الفداء أربعمائة درهم عن كل أسير، فلما تم الأمر نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] فهذه الآية من جملة الآي التي وافق الله فيها رأى عمر، فتقنع النبي ﷺ وأبو بكر - رضي الله عنه - وجعلا يبكيان فأتاهما عمر - رضي الله عنه - فقال لهما: ما لكما تبكيان؟ فقال له رسول الله ﷺ: كاد العذاب أن ينزل لأخذنا الفداء واستبقاء المشركين[١]. فخير النبي ﷺ أصحابه بين أخذ الفداء ويقتل منهم العام القابل عدد الأسارى وبين أن يتركوا الفداء ولا ينال المشركون منهم نيلا، فاختاروا أخذ الفداء على أن يُقتل منهم العام القابل مثلهم، قال: ما نكره من الشهادة مع ما نتقوى به على جهاد العدو من الفداء، فقتل منهم بأُحد سبعون.

فإن قلت: ما وجه كراهة الله الفداء والإبقاء مع أنه لو شاء لنسخه كما نسخ سائر الأحكام؟

قلت: الوجه فيه أن ذلك وافاهم وقد أمضوا القضية فيكون في نقضها أمران محذوران:

أحدهما: نقض العقود بعد إبرامها وتوكيدها وذلك ممنوع في سائر الشرائع.

الثاني: القتل بعد التأمين وهو أيضًا محرم لما فيه من إيهام الغدر؛ فبين الله لرسوله وأوليائه ما هو أولى، ثم أبرم أمره وأمضى حكمه مع ما قضى في سابق علمه أنه سيكون: من إباحة الفدية والغنائم لهذه الأمة، وقتل من قتل بأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، ولما في ذلك من التسلي لهم إذ قد تسببوا له ورضوا به

(١) لا صحة لكون النبي ﷺ خمر وجهه وبكى هو وأبو بكر لنزول الآية.

قبل وقوعه.

ولقد كان فى هزيمة أحد وما أصاب المسلمين من الفوائد والتأييدات ما لا يدخل تحت حصر؛ منها: تمحيص المسلمين، وكرامة من مات منهم بالشهادة، وكسر ساحة أنفسهم؛ لأنهم لما هزموا جموع فهر ببدر أشرت[1] نفوس من لا فقه له منهم؛ فظن أن ذلك لشدة بطشهم وبسالتهم، فلما أصابهم ما أصابهم يوم أحد انكسرت أفئدتهم، فتاب الله عليهم لأنه عند المنكسرة قلوبهم من أجله.

ومن الدلائل على أشر أنفسهم ما روى أن رسول الله ﷺ لما فصل من بدر فبلغ الروحاء[2] لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة بن وقش: لا تهنئونا به، فوالله إنْ لقينا إلا عجائز صلعًا كالبدن المعقلة فنحرناها؛ فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: يا بن أخى أولئك الملأ، ولكن وقى الله شرهم وأعان عليهم بجنود السماء.

ومنها: أن المنافقين كانوا يكتُمون نفَاقهم قبل وقعة أحد، فلما وقعت أظهروا الشماتة وبينوا ما كان فى ضمائرهم، فعلم المسلمون أن لهم عدواً بدارهم.

ومنها: أنه كان سببًا لنقض يهود ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من المواثيق، فأفاء الله على رسوله أموالهم، فقتل قريظة على دم واحد، وأجلى النضير وقينقاع وهذيلا إلى أذرعات وخيبر.

وحكمة الله اقتضت أن ينال من الرسول أولاً ثم ينالون، وذلك أنهم لو نُصروا دائمًا لدخلهم من ليس منهم، ولو كسروا دائمًا لذهبت فائدة الرسالة.

وقوله: فداك: يحتمل أن يكون منصوبًا على أنه مفعول لجعل محذوف، ونفوس مفعوله الثانى، فتقول: جعل الله فداك نفوسًا، وهو مصدر بمعنى الدعاء، فتقول: فداك، بالإضافة، وتقول: فدى لك، فإذا أضيف عمل فيما بعده، وربما جيء به بدلاً من فعله، ويكثر ذلك فى المصادر اللائى بمعنى الدعاء، كقول الخنساء بنت الشريد: (من بحر الوافر)

---

(١) أشر: بطر ومرح، والبطر غير وارد فى حق الصحابة حتى قليلى الفقه منهم، والله أعلم.

(٢) الروحاء: بئر بين المدينة وبدر، وهو عن المدينة قرابة ٧٠ كيلو مترًا.

فدى للفَارس الجشمى نفسى وأفديه بمـالى مـن خليـل[١]

ومنه: سحقًا وبعدًا وجدعًا وسقيا وغَوثًا ولا كرامة وتبًا ورويدًا ومهلاً وسهلاً وأهلاً، إلى غير ذلك، وإن شئت رُفعت (نفوس) على أنها فاعل للمصدر المحبوس بالإضافة، كقول الشاعر: (من بحر البسيط)

أفنى تلادى وما جمعتُ من نَشَبٍ قرعَ القـواقيز أفـــواهَ الأباريـقِ[٢]

على القول برفع أفواه وهو مذهب المبرد وابن جنى، وهو مشكل، وإن شئت قلت: نفوس: مبتدأ مؤخر، وفداك: خبره، وسوغ الابتداء به كونه موصوفًا. وكثر استعمال التفدى حتى صار الرجل يقول لصاحبه: إلى أو هلم يا فديتك ويا فِدًى لك، وربما استغنوا عنه بمتعلقه فيقتصرون على قولهم: بأبى أنت، أو بأبى أنت وأمى، وربما اقتصروا على بأبى، ويقولون: فداك أبى، ولا يفدى عندهم إلا السرى[٣]. والمفدون سعد بن أبى وقَّاص الزُّهرى، وفاطمة بنت محمد ﷺ، وبشر ابن الحارث الأنصارى، وعلى يوم قتل عمرو بن عبد ود[٤].

أى وقاك من كل مكروه يجرى به الزمان بنفوس خبيثة عافهن على تَيمم، أى قصد سبيل، كل بر من السلف والخلف، المشمرين خوف الوقوع فى التلف. فداء، بالفتح والمد: كل مائدة وضع عليها ألوان من الأطعمة مما يتباهى به من لا خلاق له من التمر والعسل والثريد والسُّكر والزبيب والإسفنج[٥]، وربما صَفَّروا بعضه بالزعفران. قال الشاعر: (من بحر الوافر).

كأن فَداءه إذ جـردوه وطافوا حوله سك يتيم[٦]

(١) هذا البيت فى النسختين هكذا، وهو غير موجود فى ديوان الخنساء المطبوع. والجشمى: ربما كان معناها النسبة إلى تجشم الأمور الصعبة أى تحملها.

(٢) القواقيز: الكئوس الصغار، وفى بعض النسخ: القوارير.

(٣) السرى: السيد، والنهر الصغير.

(٤) فدى النبى ﷺ عليًا يوم قتل عمرو بن عبد ود فى الخندق، وسعد فدى يوم أحد، وفاطمة رضى الله عنها فى مناسبات عدة.

(٥) الإسفنج: كائن بين النبات والحيوان بحرى، ولا يوضع عادة على الموائد.

(٦) السك هنا : الدرهم، ومعناه: سك يتيم فريد، هذا مع أن للسك معانى كثيرة، منها: البئر الضيقة، والطيب، وغير ذلك.

وفيه من البديع التجريد، وهو أن يجرد الإنسان من نفسه شخصًا يخاطبه، فكأنه يقول له: أيها الأخ فى الله، انتخب نفسك مسلك الأبرار، والمسلك: هو الطريق الأرحب. والأبرار: الأخيار من كل جيل، واحدهم بر، بغير ألف، ولا تقتصر على مجرد السلوك، بل يمم، أى اقصد وسطه، وكن من خيار أهله، ولا يمنعك من ذلك ما منع اللئام المنْهمكين فى طلب ما ضمن لهم، المقَصِّرين فى تَحصيل ما وكل إليهم.

قال ابن عطاء الله: اشتغالك بما ضمن لك، وتقصيرك فيما طلب منك دليلٌ على طمس البصيرة نَسأل الله أن يعافينا من ذلك.

والبيتُ مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

ولما تبرأت الروافض قالوا لابن عمر وقد حاورهم: نَبِّئْنا بما يدل على وجوب تَوليهم من كتاب الله؛ فَقَال لهم: قوله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١١٥] إلى آخر الآية: فَأفحموا؛ فتاب منْ تَاب منهم.

عافهن فداء: فعل وفاعل، والضمير مفعول به، والجملة الفعلية نعت لنفوس.

فَإن قلت: مم اشتق الفداء؟

قُلت: من الفد، وهو رفع الصوت بالدعوة به، وقيل: لرفع أصوات رعاع النَّاس وغنائهم حوله. ومن ذلك قوله ﷺ: «الكبر والخيلاء فى الفدادين أهل الوبر»(١).

وقال الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا جئت حَيَّهمُ بخصبٍ ... تجـدْ أغنامَهم ولها فديدُ

فَلا أضيافُهم يجـدون رحبًا ... ولا للجـار عندهمُ مزيدُ

فسحقًا ثم سحقًا ثم سحقًا ... وليت دونهم أمـدا مديد(٢)

---

(١) حديث «الكبر والخيلاء»... إلخ. جزء من حديث صحيح، وقد تقدم.

(٢) الشطر الثانى من البيت مختل الوزن والإعراب.

● ثم قال رحمه الله:

٨٩ـ وحِدْ عَنْ عنى ٱلْأَهْوَاءِ تَكْفَ عَنَاءَهَا
فَعِزُّ العِـزَى أَنْ يُسْتَـدامَ عَـزَاءُ

فقوله: حد، أى مل وانحرف. قال تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق:١٩] أى تنفر وتفر. عن: حرف جر متعلق بحد. وعنى، بالكسر والقصر: حافة الشىء وناحيته والقصد إليه، تقول: عنيت كذا: قصدته دون غيره.

يروى أن مروان بن الحكم أيام ولايته على المدينة وقف يومًا على الحسن رضى الله عنه، فجعل يسب عليًا رضى الله عنه والحسن معرض، فقال له مروان: إياك عنيتُ؛ فقال الحسنُ: وعنك أعرضتُ؛ فخجل مروان وانصرف، وقد فهم أن الحسن يعرض له بقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩] فاقتص منه من غير فحش بل بمجرد الفحوى.

والعناء، بالفتح والمد: التعب. والعزى، بالكسر والقصر: جمع عزة، وهى الفرق الضالة، قال الله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ [المعارج:٣٧]. والعزاء، بالفتح والمد: الصبر، وإذا أطلق فهو الصبر عن الميل.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

تعزَّ فلا شىءٌ على الأرض باقيا ... ولا وزرٌ مما قضى اللهُ واقيا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

تَعَزَّ فما لما قضى الله دافع ... ولا شىءَ فى دهمِ المنية نَافعُ

قوله: فعزُّ العزَى: وهو الانتساب إلى مذهب من المذاهب؛ إما أن يكون إلى آباء الحق والحقيقة ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ [النساء:٦٩]، ولا يتوصل إلى ذلك إلا بالعزاء الذى هو الصبر بأنواعه الثلاثة؛ فيحصل حينئذ عز الاعتزاء بسبب كونك محقًا غير مبطل؛ إذ المنتسبون منهم محق وهو المقتفى المصابر الصابر، ومنهم المبطل، وهو المدعى المخلف

المدابر، ومنهم المقتفي لأهل الأهواء، الطالب للهباء، فسعيه باطل وقصده عاطل، وهم أهل الأهواء الذين يتبعون ما سولت لهم به أنفسهم من غير هدًى من الله أتاهم، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فهذه الآية وإن نزلت في المشركين فإنها تشمل أهل الأهواء من الخوارج والرافضة والشيعة والقدرية والجبرية والمرجئة والزيدية والصفرية والمعتزلة والإباضية والإسماعيلية[(١)] وغير ذلك من أهل البدع؛ لأن رسول الله ﷺ قال: افترقت اليهود إلى سبعين فرقة، وافترقت النصارى إلى إحدى وسبعين فرقة، وستفترق أمتي إلى اثنتين وسبعين فرقة، كلهم في النار إلا واحدة وهي الناجية، فقالوا: يا رسول الله، أخبرنا عن الواحدة، قال: الذين اتبعوا ما أنا عليه وأصحابي»[(٢)].

وقال ﷺ: «الخوارج كلاب النار».

وقال ﷺ في شأن ذي الخويصرة لما قال لرسول الله ﷺ عندما أعطى المؤلفة قلوبهم: اعدل يا محمد؛ فإني أرى قسمة ما أريد بها وجه الله؛ فتلون وجه رسول الله ﷺ وقال: من يعدل إن لم أعدل؟! فقال له أصحابه: دعنا يا رسول الله

---

(١) هذه كلها فرق إسلامية، كل فرقة تدعي أنها على صواب وأن ما سواها من المسلمين ضال ومنحرف.

والحق أن كل فرقة تمسكت بسنة رسول الله ﷺ فهي ناجية، وعلى قدر بعدها من السنة تقرب من الضلال، والله الهادي إلى سواء السبيل.

(٢) حديث «افترقت اليهود إلى سبعين فرقة»... إلخ. صحيح، أخرجه الأربعة والحاكم وابن حبان بألفاظ كثيرة، وصححوه. كما أورده السيوطي تحت رقم ١٢٢٣ بدون ذكر «كلهم في النار».

قال المناوي: قال الزين العراقي: أسانيده جياد. ورواه الحاكم من عدة طرق، ثم قال: هذه أسانيد تقوم بها الحجة، وعدة المؤلف من التواتر (٢/ ٢٠) ف.

وأورده بلفظ آخر صاحب الكشف تحت رقم ٤٤٦ وأورد له طرقًا كثيرة وألفاظًا مختلفة منها، قال: رأيت في هامش الميزان مذكورًا في تخريج أحاديث مسند الفردوس للحافظ ابن حجر بلفظ: «تفترق أمتي على بضع وسبعين فرقة، كلها في الجنة إلا واحدة وهي الزنادقة». اهـ. وأسنده (١/ ١٦٩).

قلت: والتوفيق بين الروايتين إن صحت الثانية أن أهل الجنة في الرواية الثانية مآلًا، أي مآل جميع الفرق الجنة إلا واحدة، والله أعلم.

نضرب عنقه؛ فقال: ذروه فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاتَه مع صلاتهم وقراءتَه مع قراءتهم، يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية، وإنه يخرج من ضؤضؤ هذا الرجل أقوام هم أشد على أمتى من الروم، ولو أدركتهم لقتلتهم قتل عاد. ثم التفَتَ إلى على فقال: هذا وشيعته تقاتلونهم حتى تقتلوا ذا الثدية، فقالوا: وما ذو الثدية؟! قال: رجل يده كثدى المرأة تدر درًا»[(١)].

فقال أبو هريرة: أشهد لقد سمعته من رسول الله ﷺ، ولقد قاتلتُهم مع على، فَلما قتلناهم أمر على بالتماسه فى القتلى؛ فالتمسنَاه؛ فوجدناه فى القتلى؛ فجئنا به إلى على، فجمع الصحابة حتى رأوه؛ ليكونوا على بصيرة من أمرهم، وليروا هذا العلم من أعلام نبوته ﷺ؛ ليزدادوا إيمانًا ويقينًا؛ فرفعوا عند رؤيته أصواتهم بالتكبير.

وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩] فالمشهور أنها نزلت فيهم.

ومعنى قول الناظم: وحد، أى: مل عن سبلهم إلى اتباع سنة الرسول، وصالح السلف تكف معاناتها، وتكف التعب والمشقة النَّاشئين عن تلك الأهواء عاجلاً وآجلا؛ إذ هم قد تكلفوا من تلقاء أنفسهم ما لم يأت النَّبىُّ به، ولا سنَّه أصحابه من بعده، ولولا أن القرآن محفوظ لحرفوه، بل حرفوا معانيه بحسب أهوائهم الفاسدة، وكان غرضهم إبطال الدين وذهاب أصله بتكفيرهم أصحاب رسول الله ﷺ، إذ هم الذينَ حملوا إلينا الكتاب المبين، وبلغوا لنا السنة والدين، وقارعوا عنه الزحوف حتى أذاقوهم الحتوف، وجردوا السيوف طلبًا لمرضاة الله، وأن تكون كلمة الله هى العليا حتى أتاهم اليقين، فلا يغيظون إلا كافرًا مكابرًا، وبذلك استدل مالك على كفرهم[(٢)]. فمن لم يتبع سننهم وعصى أمرهم فقد دخل فى زُمرة الأذلين، ومن لم يحبهم ويتولهم فهو فى سواد المنافقين.

---

(١) حديث ذى الخويصرة متفق على صحته، رواه الشيخان وغيرهما بألفاظ كثيرة باستثناء قوله: «أقوام هم أشد على أمتى من الروم... إلى ثم التفت إلى على فقال: هذا وشيعته تقاتلونهم» فهذا القدر لم أجده فى الروايات الصحيحة، والله أعلم.

(٢) الضمير عائد على الخوارج، والخلاف فيهم مشهور.

قال الرسول ﷺ: «احفظونى فى أصحابى لا يطالبكم الله بحقهم، فإن الذنب فيهم ليس كالذنب فى غيرهم، فإنه ليس مما يتركه الله».

وقال ﷺ «إذا ذكرتم أصحابى فاذكروهم بخير أو أمسكوا، وإذا ذكرتم القدر فأمسكوا».

وقال: «أصحابى يهفون من بعدى هفوة تغفر لهم بصحبتى وسابقتهم، وإنه يأتى من بعدهم أقوام يترخصون للقتال بما وقع بينهم؛ فيكبهم الله فى النار على مناخرهم»(١).

وقال: «أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»(٢).

وقال: «أنا أمان لأصحابى، فإذا مت أتى أصحابى ما يوعدون».

وفى الصواعق المحرقة للسيوطى قال: قال رسول الله ﷺ: «لحوضى أربعة أركان: فأبو بكر رضى الله عنه على ركن من أركانه، وعمر رضى الله عنه على ركن، وعثمان رضى الله عنه على ركن، وعلى رضى الله عنه على ركن، فمن أحب أبا بكر وأبغض عمر لم يسقه أبو بكر، ومن أحب عمر وأبغض أبا بكر لم يسقه عمر، ومن أحب الشيخين وأبغض عثمان لم يسقه الشيخان، ومن أحب عثمان وأبغض الشيخين لم يسقه عثمان، ومن أحب عليًا وأبغض عثمان لم يسقه على، ومن أبغض عليًا وأحب عثمان لم يسقه عثمان، ولا يشرب من حوضى إلا

---

(١) هذه الأحاديث الثلاثة لم أجد لها سندًا عن النبى ﷺ.

(٢) حديث «أصحابى كالنجوم»... إلخ. موضوع، رواه ابن عبد البر: فى جامع العلم (٢/ ٩١)، وابن حزم فى الأحكام له (٦/ ٨٢).

وقال ابن عبد البر: هذا إسناد لا تقوم به حجة. وقال ابن حزم: هذه رواية ساقطة، أبو سفيان ضعيف، والحارث بن غصين هو أبو وهب الثقفى، وسلام بن سليمان يروى الأحاديث الموضوعة، وهذا منها بلا شك. اهـ.

وقد أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٥٨ وحكم عليه بالوضع وقال: الحمل فى هذا الحديث على سلام بن سليم، ويقال: ابن سليمان، وهو الطويل، فإنه مجمع على ضعفه، بل قال ابن خراش: كذاب، وقال ابن حبان: روى أحاديث موضوعة (١/ ٧٩).

قلت: أبو سفيان ليس ضعيفًا كما قال ابن حزم بل هو صدوق كما قال الحافظ فى التقريب، وقد أخرج له مسلم فى صحيحه، والله أعلم.

من أحب جميع أصحابى»(١).

وقال: «حب أبى بكر وعمر وعثمان وعلى واجب كوجوب الصلاة والصوم والزكاة والحج»(٢).

الإعراب: حد: فعل أمر. عن عنَى: جار ومجرور. الأهواء: مضاف إليه ما قبله. فالتقدير: حد عن أهل الأهواء، أو عن طريق الأهواء؛ إذا الأهواء أمور معنويةٌ لا يسند إليها بالاستقلال. تكف: مبنى للمجهول، وهو جواب الأمر. نائبه مستتر. عناءها: مفعول لتكف ومضاف. فعز العزى: مبتدأ ومضاف إليه، والفَاء سببية. أن يستدام: أنْ مصدرية ناصبة ليستدام: مركب للمجهول، ونائبه عزاء. والجملة خبرية، فَهو مبتدأ ثان لأنه يفهم من سياق الكلام، والمبتدأ الثانى وخبره خبر المبتدأ الأول، فهو فى قوة قولك: عز العزى هو استدامة العزاء.

وبالجملة: فَالصبر محمود إلا عن رسول الله ﷺ. قَال الشاعر (من بحر الكامل)

والصبر يحمد فى المواطن كلها إلا عليك فَإنه لا يحمـــدُ

ولذلك قال: «من حج البيت ولم يزرنى فقد جفانى، وليس من حقى أن أجفى»(٣).

يروى أن زيد بن حارثة كان شديد الحب لرسول الله ﷺ، قليل الصبر عنه، فجاءه يومًا وكان قد نزفه الدم، قال له مالك يا زَيدُ؟ قال: ما بى من مرض إلا

(١ و ٢) حديث «الحوضى أربعة أركان»... إلخ. وحديث «حب أبى بكر وعمر إلخ» لم أجد لهما سندًا ثابتًا إلى النبى ﷺ.

(٣) حديث «من حج البيت فلم يزرنى»... إلخ. موضوع، رواه ابن عدى وابن حبان فى الضعفاء وفى غرائب مالك للدارقطنى.

وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٥٤ وقال: موضوع.

وقال الذهبى فى الميزان: موضوع (٣/ ٢٣٧)، كما أورده الصغانى فى موضوعاته، والزركشى وابن الجوزى والشوكانى. وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٤٦٠ ورقم ٢٧١٢ وقال عند الرقم الأول بعد إيراد كلام ابن حجر فيه: ومع هذا فلا ينبغى الحكم عليه بالوضع فتدبر. وقال عند الرقم الثانى بعد إيراد النقول عنه: ولا يصح.

ملحوظة: (وليس من حقى أن أجفى) لم أجدها، والله أعلم.

أنى إذا غبت عن عينى استوحشتُ فلا يسكن جأشى حتى أراك، ثم أنشأ يقول: (من بحر الوافر)

ألا يا صاحب الوجه المليح بحقك لا تغب فأنتَ روح
إذا ما غاب وجهك عن عيانى عُدِمتُ فلا يُرى إلا ضريح
فراق مُغَرَّمٍ فى الحب أمسى وأصبح ذا أسى دَنِفًا طريح
محب ضاق بالأدواء ذرعًا وآوى منك للكرم الفسيح

فقال له رسول الله ﷺ: «أبشر فأنت معى فى درجتى يوم القيامة».

ويروى أنه كان رجل من الأنصار قلما يفارق مجلس رسول الله ﷺ، وكان لا يجلس إلا قُبالةَ وجهه؛ فلا يزال يتأمل وجهه الشريف، فقال له رسول الله ﷺ: مالى أراك تتأمل وجهى كثيرًا؟ فقال: أتَمتَّع بالنظر إليك فى الدنيا قبل يوم القيامة فإنى أخاف أن لا أراك، فإن دخلتُ النار فإنى لا أراك أبدًا، وإن دخلتُ الجنة كنتَ فى درجات الأنبياء وكنتُ فى درجة دون ذلك، فسكت رسول الله ﷺ حتى نزل عليه قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء:٦٩] فتلا عليه رسول الله ﷺ الآية. فما فرح أصحاب رسول الله ﷺ بشىء فرحهم بهذه المعية الشريفة.

وهناك معية أشرف من هذه وهى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨] إلا أن بينهما مغايرة: فالنبوة تقتضى المكان، بخلاف الربانية فإنما هى بالنصر والمعونة. وقيل: بالمكانة لا بالمكان.

يروى أن النبى ﷺ قال: «حُبب إلىَّ من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعلت قرة عينى فى الصلاة»[1].

وقال أبو بكر: حبب إلى يا رسول الله ثلاث: النظر إليك، والجلوس بين يديك، وإنفاق المال عليك.

وقال عمر: حبب إلى يا رسول الله ثلاث: الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر،

(١) حديث «حبب إلى من دنياكم ثلاث»... إلخ. سبق تخريجه. وقد اتفق الحفاظ على أن كلمة (ثلاث) ليست من الحديث، والله أعلم.

وإذلال أهل الشرك.

وقال عثمان: حبب إلى يا رسول الله ثلاث: تلاوة القرآن، ومداومة الإحسان، ومواساة الإخوان.

وقال على كرم الله وجهه: حبب إلى يا رسول الله ثلاث: صيام الصيف، وإكرام الضيف، والضرب بين يديك بالسيف.

ومن علامة فضيلة أبى بكر أن كان جميع ما حبب إليه فى رسول الله ﷺ، فهو حبُّهُ وخليفتُه دون مدافع ومن غير نزاع.

قال محمد بن إسحاق: لما تُوفى رسول الله ﷺ، وارتفعت الرنة، وسجى، دهش الناس، كما روى عن غير واحد من الصحابة، وطاشت عقولهم، وأفحموا، واختلطوا؛ فمنهم من خبل، ومنهم من أصمت، ومنهم من أقعد، فكان عمر رضى الله عنه ممن خبل، فجعل يصيح ويقول: إن رجالاً يقولون ماتَ رسول الله ﷺ! والله ما مات رسول الله، ولا يموتُ حتى يقطع أيدى رجال وأرجل آخرين، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلةً، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات. وأما عثمان بن عفان فقد أصمت حتى جعل يُذْهب به ويجاء ولا يتكلم. وأقعد على رضى الله عنه فلم يستطع حراكًا، وأضنى[1] عبد الله بن أنيس فمات مكانه، وبلغ الخبر أبا بكر وهو بالسنح[2]؛ فجاء وعيناه تَهملان. وزفراته تتردد فى صدره، وغُصصه[3] ترتفع كقطع الحجارة، وهو فى جميع ذلك جلد العقل والمقالة، حتى دخل على رسول الله ﷺ، فأكب عليه، وكشف عن وجهه، فمسحه، وقبل جبينه، وجعل يبكى ويقول:

بأبى أنتَ وأمى، طبتَ حيًا وميتًا، وانْقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء؛ فعظمت رزيتك عن الصفة، وجلت عن البكاء، وخَصَصتَ حتى صارتْ مسلاة، وعممتْ حتى صرنا فيك سواء، ولو أن موتك كان بالاختيار لجدنا عنك بالنفوس، ولولا أنك نهيت عن البكاء لأنفدنا عليك ماء الشجون، وأما ما لا

(١) أضنى: مرض.

(٢) السنح، بضم السين: موضع بالعوالى جنوب شرق المدينة.

(٣) غصصه: أى شيء اعترض فى صدره.

نستطيع نفيه عنا فكمد وحزن يتخالفان لا يبرحان، اللهم فأبلغه عنا السلام، اذكرنا يا محمد عند ربك، ولنكن منك على بال، فلولا ما خلفت من السكينة لم نقم بما خلفت من الوحشة، اللهم أبلغ نَبيك عنا السلام، واحفظه فينا.

ثم خرج إلى الناس وهم فى عظيم غمراتهم، وشديد سكراتهم، فَقام فيهم بخطبة، جلها الصلاة على النبى ﷺ، ثم قَال:

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وأشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الدين كما شرع، وأن الحديث كما حدث، وأن القَول كما قال، وأن الله هو الحق المبين.. فى كلام طويل ثم قال:

أيها الناس، من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد ماتَ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، وإن الله قد قدم إليكم فى أمره فَلا تَدعوه جزعًا، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، وإن الله سبحانه قد اختار لنبيه ﷺ ما عنده على ما عندكم، وقبضه إلى جواره، وخلف فيكم كتابَهُ وسنة نبيه؛ فمن أخذ بهما عرف، ومن فرق بينهما أنكر، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ﴾ [النساء:١٣٥]، ولا يشغلنكم الشيطان بموت نَبيكم، ولا يفتننكم عن دينكم؛ فعاجلوا الشيطان بالخزى تعجزوه، ولاتستنظروه فيلحق بكم.

فلما فَرغ من خطبته التفَت إلى عمر فقال: يا عمر، أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول على باب رسول الله ﷺ: والذى نفس عمر بيده ما ماتَ نبى الله؟! أما علمت أن رسول الله ﷺ قال يوم كذا: كذا وكذا، وقال الله فى كتابه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠]، فقال عمر: والله لكأنى لم أسمع بها فى كتاب الله قَبل ذلك اليوم لَمَا نزل بنا، أشهد أن الكتاب كما أنزل، وأن الحديث كما حدث، وأن الله حى لا يموت، صلوات الله على رسوله وعند الله نحتسب رسوله.

ولما سرى عن عمر وأيقَن بوفاة رسول الله ﷺ بقول أبى بكر وقع إلى الأرض لا تحمله رجلاه، فقال: (من بحر الطويل)

لعمرى لقد أيقنتُ أنك ميتٌ ولكن مــا أبدى الذى قُلتـه الجزعْ
وقلت بغيب الوحى عنـا لفقــده كما غاب موسى ثم يأتى كما رجعْ
وكـان هوائى أن تطول حياتهُ وليس لحىٍّ فى بقا ميتٍ طمَعْ
فلمـا كشفنا البرد عن حُرِّ وجــه إذا الأمر بالجزع المرعب قَــد وقَعْ
فلم تك لى عنــد المصيبـة حيلةٌ أرد بهـا أهلَ الشمـاتة والفَزعْ
سـوى أذان الله الذى فى كتابه ومــا آذنَ اللهُ العبـادَ به وقعْ[1]
وقد قُلت من بعض المقـالة قولة لها فى حلوق الشامتين بهـا شيع
ألا إنمـا كــان النبى محمــدًا إلى أجـل وافى به المـوتُ فَانقطَعْ
ندين على العــلات منَّا بدينه فنعطى الذى أعطى ونمنعُ ما مَنَعْ
فوليـت محزونًا بعيـن سخينـة أكفكف دمعًا والفؤادُ قـد انصدعْ
وقُلتُ لعينى كل دمع خزَنْتِه فجـودى به إن الشجى له دفَعْ

وذكر موسى بن عقبة أن المقَام الذى قام به أبو بكر رضى الله عنه بعد وفاة الرسول ﷺ وبعد الذى كان من عمر رضى الله عنه من القول هو أنه خرج سريعًا إلى المسجد يَتَوَطَّأُ رقاب الناس حتى أتى المنبر وعمر يكلم الناس؛ فجلس عمر حين رأى أبا بكر مقبلاً، فقام أبو بكر على المنبر، وأمر النَّاس بالجلوس؛ فجلسوا وأنصتوا، فتشهد شهادة الحق ثم قَال: إن الله قد نعى لكم نبيكم ونعاه لنفسه وهو حى بين أظهركم، ونعاكم لأنفسكم، فما هو إلا الموتُ حتى لا يبقى أحد إلا الله تعالى، فإنه يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ إلى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

وقال: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

---

(١) شطر هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا.

ثم إن الله عمَّر محمدًا وأبقاه حتى أقام دين الحق، وأظهر أمر الله، وبلغ رسالة الله، وجاهد أعداء الله حتى توفاه الله صلوات الله عليه وهو على ذلك، وترككم على الطريقة المثلى؛ فلا يهلك هالك إلا من بعد البينة، فَمن كان الله ربه فإن الله حي لا يموت؛ فليعبده، ومن كان يعبد محمدًا ويراه إلهًا فقد هلك إلهُهُ، أفيقوا أيها الناس، واعتصموا بدينكم، وتوكلوا على ربكم؛ فإن دين الله قائم، وإن كلمته باقية، وإن الله ناصر من ينصره، ومعز دينه، وإن كتاب الله بين أظهرنا هو النور والشفاء، وبه هدى الله محمدًا، وفيه حلال الله وحرامه، والله لا نُبالى بمن أجلب علينا من خلق الله، إن سيوف الله لمسلولة ما وضعنَاها بعد، ولنجاهدن من خالفنا كما جاهدنا مع رسول الله ﷺ؛ فلا يبكين أحد إلا على نفسه.

ثم انصرف وانصرف المهاجرون معه.

قال ابن إسحاق: فلما توفي رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين؛ فكانت عائشة فيما بلغنى تقول لما تُوفى رسول الله ﷺ: ارتَدتْ العرب، واشرأبت[1] اليهودية والنصرانية، ونجم النفاق، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية، حتى جمعهم الله على أبى بكر.

وذكر ابن هشام عن أبى عبيدة وغيره من أهل العلم أن أكثر أهل مكة لما توفى رسول الله ﷺ هموا بالرجوع عن الإسلام، وأرادوا ذلك حتى خافهم عتَّاب بن أسيد؛ فتوارى؛ فقام سهيل بن عمرو، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر وفاة رسول الله ﷺ وقال: إن ذلك لم يزد الإسلام إلا قُوة، فمن رابنا ضربنا عنقه. فتراجع الناس، وكفوا عما هموا به، وظهر عتَّابٌ.

وقد تقدم لنا أن رسول الله ﷺ قال فى سهيل بن عمرو لعمر بن الخطاب وقد قَال له: انزع ثنيتى سهيل ليدلع لسانُه فَلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «إنه عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه فيه». فكان هذا المقَام المتقدم هو الذى أراد رسول الله ﷺ، وهذا أيضًا منْ أعلام نبوته، إذ قاله يوم بدر، ولم يظهر مصداقه إلا بعد وفاته.

---

(١) اشرأبت: ظهرت وبانت رءوسها بعد أن كانت منخفضة.

ولما انصرف الناس قالت فاطمة لعلى: يا أبا الحسن، دفنتم رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، قالت: كيف طابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله ﷺ؟! أما كان فى صدوركم رحمة لرسول الله ﷺ؟! أما كان معلم الخير؟! قال: بلى، ولكن أمر الله لا مرد له، فجعلت تبكى وتندب: واأبتاه، أجاب ربّاً دعاه، واأبتاه فى جنة الفردوس مثواه، واأبتاه إلى جبريل ننعاه.

ولقد كان رسول الله ﷺ أَسَرَّ إليها فى مرضه أنه مقبوض؛ فبكت شفقةً من فراقه، فأسر لها ثانية أنها أول أهله لحوقًا به؛ فضحكت راضية بالموت، مسرورةً به، فى جنب ما تستعجله من لقياه فى حضرة القدس ومحل الرضوان والكرامة.

فلما رجعت إلى بيتها واجتَمع عليها نساؤها قالت منشدة: (من بحر الكامل)

اغبرّ آفاقُ السماء وكُوِّرتْ ... شمس النهَار وأظلم العصرانِ
فَالأرضُ من بعد النبى كئيبةٌ ... أسفًا عليه كثيرةُ الرجفانِ
فليبكه شرقُ البلاد وغربُها ... ولتبكه مضرٌ وكلُّ يَمانى
ولْيبكه الطودُ المعظمُ جَوُّهُ ... والبيتُ ذو الأستَار والأركانِ
يا خاتم الرسل المبارك ضنؤه[1] ... صلى عليك منزِّلُ القُرآنِ

وقالت أيضًا لما أخذتْ كفًا من تراب قبره الشريف وجعلت تشمه: (من بحر الكامل)

ماذا على من شم تربةَ أحمدٍ ... ألاَّ يَشَمَّ مدى الزمان غواليا[2]
صُبَّتْ علىَّ مصائبٌ لو أنها ... صُبَّتْ على الأيام عُدْنَ لياليا[3]

وجلست أم أيمن ـ وكانت حبشية ـ تبكى رسول الله ﷺ وهى حاضنتُه، وقيل لها: ما يبكيك يا أم أيمن؟! قد أكرم الله نبيه، وأدخله جنَّته، وأراحه من نصب الدنيا. فقالت: إنما أبكى على خبر السماء، كان يأتينا غضًا جديدًا كل يوم وليلة،

---

(١) الضنء: الأصل والمعدن. (اللسان/ ضنأ).

(٢) صحة البيت كما فى نهاية الأرب (ج ١٨ ، ص ٤٠٣):

ما ضر من قد شم تربة أحمد ... ألا يشم مدى الزمان غواليا

(٣) (صرن) بدل (عدن).

وقد انقطع ورفع؛ فعليه كنت أبكى. وعجب الناس من قولها وهى عجمية سوداء، وبكوا لبكائها.

وقال أنس بن مالك: لما كان اليوم الذى دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شىء، ولما كان اليوم الذى ماتَ فيه أظلم منها كل شىء، وما نفضنا أيدينا من التراب وإنا لفى دفنه حتى أنكرنا قلوبنا.

وحدث ابن عباس رضى الله عنهما عنه ﷺ أنه يقول: «من كان له فَرطان[1] من أمتى أدخله الله بهما الجنة». قالت عائشة: ومن لم يكن له فرط من أمتك؟ قال: فأنا فرط لأمتى لن يصابوا بمثلى».

ولله در حسان إذ قال:

وهل عدلتْ يومًا رزيةُ هالك ... رزيةَ يوم مـاتَ فيـه محمَّـدُ

وقَال ﷺ: «ليُعَزِّ المسلمين فى مصائبهم المصيبة بى».

فَيالها والله من مصيبة، أحرقت الأكباد، وعمرت بالأسف والحزن الآماد والآباد، ورزءا ثقيلا آد[2] أهل الإيمان منه ما آد، وخطبًا جليلاً أودى بكل صبر جميل أو كاد ولولا أن الله سبحانه ربط على القلوب من بعده بأمر من عند الله لأودت مكانها كمدًا، ولما وجدت إلى البقاء متسعا ولا عن الرضا باللقاء ملتحدا، ولو رجفت الأرض لفقدان أحد لأصبحت لفقده راجفة، ولو نسفت الجبال لمهلك هالك لعادت رواسبها على حكم الأسف متنافسة، ولو كسفت النَّيِّراتُ لمصرح حى لأمست دُررها منثورة، ولو تغيرت المشارع الموروده لموت إنسان لأمر لموته على كل وارد عذب مشرعه، هيهات هيهات! ذلك والله الرزء الكُبَّار، والنازلة التى يعى بها الاحتمال والاصطبار، والخطر الذى تصاغرت دونه الأخطار، والخطب الذى سَقى بمضاضة مشاهدته المهاجرين والأنصار، والمفقود الذى لا عوض منه أبدًا ولو تَطاولت الدهور والأعصار، ولو غير الأقدار أصابته لبذلت فيه أعلْاق المهج، أو غير المَنايا أتته لتعذر على قَاصده وجه السبيل المنتهج، ولكنها السبيل التى لا

(١) الفرط: ما يقدمه الإنسان من ولده قبل موته.

(٢) آد: أثقل.

يتخطاها سالك، وما سبقت به مشيئة الدائم الباقى الذى كل شىء سواه هالك، فلا مجال فى الدفاع، ولا حيلة فى الامتناع، ولا شىء يضمه حكم الممكن المستطاع، غير الانقياد لأمر الله والانقطاع، ولهفًا ثم لهفًا عليه، ويا برح شوق القلوب المشربة بنور الإيمان عليه، وشدة نزوعها إليه، وبالدموع أجريت عليه صلوات الله وبركاته واصلة إليه، لقد أجريت بحرًا، وجرت أجرًا، وحرمت نهيًا عن إسبالها وزجرًا. ولقد كان من يقدم المدينة بعد أن استأثر به مولاه الذى شرح له صدرًا ورفع له ذكرًا إذا أشرفوا عليها سمعوا لأهلها ضجيجًا يصم السمع، وللبكاء فى جنباتها عجيجًا أصحل[1] الحلوق ونزف الدموع.

حدث أبو ذؤيب الهذلي قال: إنه بلغنا أن رسول الله ﷺ عليل؛ فاستشعرتُ حزنًا، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها، ولا يطلع نورها، فبتّ أقاسى طولها، حتى إذا كان قرب السحر أغفيت فإذا بهاتف وهو يقول: (من بحر الكامل)

خطب أجل أناخ بالإسلام بين النخيل ومقعد الآطام

قبض النبى محمد فعيوننا تذرى الدموع عليه بانسجام[2]

قال أبو ذؤيب: فوثبت من نومى جزعًا، فنظرت إلى السماء ولم أر إلا سعد الذابح فتأولته ذبحًا يقع فى العرب، وعلمتُ أن النبىَّ ﷺ قد قبض، فركبتُ ناقتى فسرت، فلما أصبحت طلبت شيئًا أزجر به، فعن لى شيهم[3]، قد قبض على صل[4]، فهو يلتف عليه والشيهم يقضمه حتى أكله، فزجرت ذلك وقلت: الشيهم شىء مهم، والصل التواء الناس على القائم، وأكل الشيهم إياه غَلَبةُ القائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ، حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرت بوفاته، وزجرت غرابًا ناعبًا فنطق بمثل ذلك؛ فتعوذتُ بالله من شر ما عنّ لى فى طريقى. وقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا لإحرام؛ فقلت: مه؟ فقالوا:

(١) أصحل: بح من البكاء.

(٢) كلمة (انسجام) لا تنسجم وزنًا مع بحر الكامل.

(٣) الشيهم: ذكر القنافذ، ج شياهم.

(٤) الصل: الحية.

قبض رسول الله ﷺ، فيممت المسجد، فوجدتُه خاليًا، فذهبت إلى بيته فإذا هو مرتيج وقد خلا من أهله، وقلت: وأين الناس؟ فقيل لى: ذهبوا إلى الأنصار وهم بسقيفة بنى ساعدة؛ فجئتُ الأنصار، فوجدتُ أبا بكر وعمر وأبا عبيدة وسالمًا مولى أبى حذيفة وجماعة من قريش، ورأيت الأنصار وفيهم سعد بن عبادة وكعب وحسان فى ملأ من أشرافهم، فأويت إلى قريش، وتكلم الأنصار وأطالوا الخطاب وأكثروا الصواب؛ فتكلم أبو بكر ولله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب، وقد تكلم بكلام لا يسمعه أحد إلا انْقاد له ومال إليه؛ فبويع أبو بكر بعد ما كاد الحرب أن يقع بين الحيين، ثم عصم الله دينه فجمعهم على أفضلهم، ثم انصرفوا إلى الصلاة على رسول الله ﷺ، فصليت معهم، فلما حملوه استعبر أبو بكر، ثم أنشد فقال: (من بحر الوافر)

فقدنا الوحىَ إذ ولَّيْتَ عنا ... فودعَنا من الله الكلامُ

سوى ما قد تركت لنا رهينًا ... تضمنه القراطيس الكرام

وقال أيضا: (من بحر مجزوء الكامل)

كنت السواد لناظرى ... وعليك شاب النَّاظرُ

من شاء بعدك فليمتْ ... فَعليك كنتُ أحاذرُ

ولما دفنوه استقبل القبر الشريف، فتنهد حتى كاد يرهقُه الغشى، وقال: (من بحر الكامل)

لما رأيت نبينا متجندلا ... ضاقت علىَّ بعرضهن الدورُ

وارتَاع قلبى عند ذاك لهُلكه ... والعظم منى ما حييتُ كسيرُ

أعتيق ويحك إن حبك قد ثوى ... فالصبر عنه ما حييت عسيرُ

يا ليتنى من قبل مهلك صاحبى ... غيبتُ فى جدث علىَّ صخورُ

فلتحدثن حوادثٌ من بعده ... تعيا بهن جوانحٌ وصدورُ

وقال أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بن هاشم يبكى رسول الله ﷺ (من بحر الوافر)

أرقتُ فبت ليلى لا يزول — وليل أخى المصيبة فيه طول
وأرقنى البكاء وذاك فيما — أصيب المسلمون به قَليلُ[1]
لقد عظمت مصيبتُنا وجَلَّتْ — عشية قيل قد قُبض الرسولُ
وأمست أرضنا مما عراها — تكاد بنا جوانبها تميلُ
فَقَدنا الوحى والتنزيل فينا — يروح به ويغدو جبرئيلُ
وذاك أحق ما سالت عليه — نفوسُ الناس أو كادت تَسيلُ
نبى كان يجلو الشكَّ عنا — بما يوحى إليه وما يقولُ
ويهدينا فلا نخشى ضلالا — علينَا والرسول لنَا دليلُ
أفاطمُ إن جَزعتِ فذاك عذرٌ — وإن لَمْ تجزعى ذاك السبيلُ
فقبر أبيك سيدُ كل قبرٍ — وفيه سيد الناس الرسولُ

وقال أبو ذؤيب يبكى رسول الله ﷺ: (من بحر الكامل)

لما رأيت الناس فى غمراتهم — ما بين ملحود له ومضرحِ
متبَادرين لشرع بأكفهم — خضع الرقاب لفقد أبيض أروحِ
كسفت لمصرعه النجومُ وبدرها — وتزعزعت آطام بطن الأبطحِ
ولقد زجرت الطير قَبل وفاته — بوفاته وزجرتُ سعد الذابحِ
وتزعزعتْ أجبال يثرب كلها — ونخيلها بحلول خطب مُفْدِحِ

ولما بلغت عمرو بن العاص السهمى وفاة رسول الله ﷺ وهو يومئذ بعُمان أنشد يبكى رسول الله ﷺ ويتفجع عليه: (من بحر الطويل)

أتانى ورحلى فى عُمان مصيبة — فبتُّ بعين طرفها طرف أرمد
غداة نعى الناعى النبى محمدًا — فأعزز علينا بالنبى محمَّدِ
فقدنا به وحىَ السماء ونعمةً — تروح علينا بالمراد وتَغْتَدِى
وأوحش منه منبر كان زينة — ومسجدُه وحشٌ فيا خير مسجدِ

---

(١) فى البداية والنهاية لابن كثير: (وأسعدنى) بدل (وأرقنى) (٥/ ٢٨٢).

فلو كنتُ يومًا شاهـدًا بوفاته لمستْ ترابًا من ضريحه يدى
بأذن يـراه أهلـه ومكيـــدة أسود بها ما عشت يومى وفى غَدِى
كمـا نالهـا منـه المغيرةُ غـرةً ومـا أن دون الطائفىّ الخَفَيْدَدِ

وقال عبد الله بن أنيس الجهنى قبل موته وقد أضنى: (من بحر الطويل)

نفى النومَ ما لا تبتغيه الأضالع وخطبٌ جليلٌ للرزية جـامعُ
غداةَ نعى الناعى إلينا محمـدًا وتلك التى تستك منها المسامعُ
فلـو رَدَّ نفسًا قتلُ نفسٍ قتلتُهـا ولكنـه لا يدفع الموتَ دافعُ
فآليت لا أبكى على هُلْك هالك من الناس ما أرسى ثبيرٌ وفارعُ
ولكننى باكٍ عليــه ومتبعٌ مصيبته إنى إلى الله راجعُ
وقـد قبض الله النبيينَ قَبله وعـادٌ أصيبت بالردى والتبـابعُ
فإن مـات فالإسـلام حىٌ وربُّنا لذا الدين ممن كـاده اليـومَ مانعُ
فياليت شعرى من يقـوم بأمرنا وهل لقريشٍ يا إمامُ منازعُ
ثلاثة رهـط مـن قريش همُ همُ أزمة هذا الأمر واللهُ صانعُ
علىٌّ وصـديقٌ ألا عمرٌ لها فليس لها بعـد الثلاثة رابعُ
أولئك خير الحى فهر بن مالك وأول من تُحنى إليه الأصـابع
أولئك إن قاموا بهـا سلكوا بنا محجتنـا العظمى وقـلَّ المنـازعُ
وكـل قريـش والذى أنا عبـدُه على كل حـال للثلاثة تَابعُ
فَإن قَال منـا قائل غيرَ هذهِ أبينا وقلنـا الله راءٍ وسَامـعُ
فيا لقصى قلِّدوا الأمر بعضكم فإن ضجيـع العجز للسن قارعُ
ولا تبطئوا عنها فواقا فإنها إذا قطعت لم تسر فيها المطامعُ

ولأبى الهيثم بن التيهان الأنصارى، وكان من صلحاء الصحابة، وكان قد رأى الشماتة من النصارى واليهود والمنافقين، فشكا ذلك إلى أبى بكر رضى الله عنه لما مر عليه، فقال فى ذلك: (من بحر الطويل)

ألا قــد أرى أن المُنى لم تُخلِّدِ | لأن المنايا للنفوس بمرصدِ
لقــد جُدعَتْ آذاننا وأنوفُنا | غــداة فُجعنا بالنبى محمــد
تكلم أهل الشرك من بعد غلظةٍ | لغيبة هادٍ كـان فيها ومهتدِ
ثلاثة أصناف من الناس كلهم | يروح عليها بالشنار ويغتدى
نصارى يقولون الفرى[1] ومنافقٌ | شبيه بذاك الشامتِ المتهودِ
وأوعد كذابُ اليمامة جهدَهُ | فأخلف عودًا باللسان وباليد
فإن يك هذا اليوم منهم شماتةً | فلا يأمنوا ما يُحدث الله فى غَدِ
وما نحن إن لم يجمع الله شملَنَا | بخير قريشٍ كلها بعدَ أحمدِ
بأمنع من شاة بقفرا مطيرةٍ | بقيعة قَاعٍ أو ضباب بفرقدِ
وإنى لأرجو أن يقوم بأمرنا | علىٌّ وصديق أو المرء من عدى
أولئك خير الحى فهر بن مالك | وأنصار هذا الدين من كل معتدِ

ولما انْتَهت وفاة رسول الله ﷺ إلى ملوك همدان تكلمت سفهاؤهم بما لم يقبله حلماؤهم؛ فقام عبد الله بن مالك الأرجى، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ، وله هجرة وفضل فى دينه، فاجتمعت إليه همدان فقال: يا معشر همدان إنكم لم تعبدوا محمدًا، إنما عبدتم رب محمد، وهو الحى الذى لا يموت، غير أنكم أطعتم رسولكم بطاعة الله، ودعاكم فأجبتُموه؛ فهداكم، فاتبعتموه، واعلموا أنه ولى نعمتكم فى دينكم ودنياكم: فأما دينكم فاستنقذكم الله به من الشرك فى الدنيا ومن النار فى الآخرة، وأما دنياكم فاستنقذكم الله به من الرق، ولم يكن الله ليجمع أصحاب رسول الله ﷺ على ضلالة وقد وعدهم أن يهديهم عندما اختلفوا فيه من الحق بإذنه؛ فأطيعوا من اختاروا، وقدموا من قدموا. . فى كلام غير هذا تكلم به على هذا المثال ونسجه على هذا المنوال، ثم قال: (من بحر الطويل)

لعمرى لئن مات النبى محمــد | لما مات يا بن القَين ربٌّ محمــد
وما كان إلا مرسلا برسالة | يبلغها والحادثاتُ بمرصــدِ

(١) الفرى: جمع فرية: الكذبة.

ولما قَضَى من ذلك الأمر ما قضَى ... ولم يبق شيءٌ فيه إلحاد ملحـد

دعــاه إليــه ربُّه فأجــابَهُ ... فيا خيرَ مدعوٍّ ويا خيرَ منجدِ

وما نحن إلا مثل من كــان قَبْلَنَا ... فَرِيقَين شتى كـافرٍ وموحـد

ونحن على ما كـان بالأمس بيننا ... من الدين نَهدى منْ أراد ونهتدى

ثم قام ابن أبى مروان وكان من سادات همدان وملوكهم فتكلم فيهم فأطال نفس الكلام، وحض على التمسك بالدين، وحمل على الطاعة للقائم بالأمر بعد رسول الله ﷺ، ثم قال يرثيه ويتفجع عليه: (من بحر الخفيف)

إن حزنى على الرسول طويلُ ... ذاك منى على الرسـول قليلُ

قُلتُ والموتُ كربة يا إمامُ ... ليتنى متُّ يوم ماتَ الرسـولُ

ليتنى لم أكـن بقيـت فُـواقا ... بعـده والفُـواق منى طـويلُ

بكت الأرضُ والسماءُ عليه ... وبكـــاهُ خليله جبريـل

يا لها رحمة أصيب بها الخل ... قُ تَولت وحـان منهـا الرحيل

ليس للناس يا إمـام من الأمْـ ... ـر فتيـل وأين أين الفتيـل

وقال مسروق بن الحارث الأرحبى - وكان سيداً من سادات حمير وفتًى من فتيانها - يبكى رسول الله ﷺ: (من بحر الخفيف)

إن فقـد النبى جدعنا اليـو ... م فدته الأسمـاع والأبصار

وفَدته النفـوس ليس من المو ... تِ فرار وأيـن أين الفـرارُ

ما أصيبت به الغـداة قريشٌ ... لا ولا أفردت به الأنصـارُ

دون من وجَّهَ الصـلاة إلى الله ... وقـد هنأت به الكفـار

ورجـال منَافقُون شمـاتةً ... حيـن واروه كفرهـم إسـرار[1]

من بكته السماء تسعدهـا الأر ... ض وبكته بعد القفار البحـار

وإسرافيل قـد بكـاه وجبريـ ... ـل وميكـال والملأ الأطهار

(١) الشطر الأول من هذا البيت غير مستقيم الوزن.

يا لها كلمةٌ يضيق بها الحلـ ـق أتانا بنقلهـا السفـارُ
قيل ماتَ النبى فانصـدع القلـ ـبُ وشابت من هولها الأشعارُ
فعليـه السلام مـا هبت الريـ ـحُ ومـدتْ جنحَ الظلام أنوارُ

ولما بلغت أزد السراة وفاته ﷺ قام فيهم سواد بن قارب الدوسرى يحذرهم سوء عاقبة الارتداد، وكان قد سادهم وشرف فيهم، فأجابوه إلى ما دعاهم إليه، وهو الذى أسلم بإرشاد رئيه، وكان كاهنًا فى جاهليته، فلما بعث رسول الله ﷺ أتاه رئيه، فركضهُ برجله، فقال له: (من بحر السريع)

عجبـت للجن وإبلاسـها وشدهـا العيس بأحلاسها[1]
تَهوى إلى مكة تبغى الهـدى مـا مؤمنو الجن كأنجاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم واسمُ بعينيك إلى راسها

فقال: إنى نائم، فانصرف الرئى، ثم أتاه فى الليلة الثانية، فركضه برجله ثم قال: (من بحر السريع)

عجبت للجـن وترحالهـا وشدهـا العيس بأحبالهـا
تهوى إلى مكة تبغى الهـدى مـا مؤمنـو الجن كأرذالهـا
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين روابيهـا وأجبالهـا

فقال: إنى نائم، فانصرف عنه وتركه، فلما كانت الليلة الثالثة أتاه فركضه برجله ثم قال: (من بحر السريع)

عجبت للجن وتكرارهـا وشدهـا العيس بأكوارهـا
تهوى إلى مكة تبغى الهـدى مـا مؤمنـو الجن ككفارها
فارحل إلى الصفوة من هاشم بين بطحاهـا وأحجارهـا

فقام من حينه، وكسر وثنه، وشد رحله على قلوصه حتى أتَى النبى ﷺ، وقص عليه ما وقع له مع رِئيه؛ فأعجب رسول الله ﷺ قوله، فجمع أصحابه،

---

(٢) هذا البيت فى الإصابة ٢/ ٩٥ هو:

عجبت للجن وأرجاسها ورحلها العيس بأحلاسها

وأمره أن يقص عليهم قصته مع رئيه؛ ففعل، ثم قال: (من بحر الطويل)

أتانى رِئىٌ بعد هدْءٍ ورقدةٍ ولم أكُ فيما قَد بَلَوت بكـاذب
ثَلاث ليـال قوله كل ليلة أتاك رسول من لؤى بن غـالبِ
وأشهد أن اللهَ لا رب غيره وأنك مأمونٌ على كلِّ غائبِ
وأنك أدنى المرسلين شفَاعـةً إلى الله يا بن الأكرمين الأطايبِ
فَمُرْنا بما يأتيك يا خير مرسلٍ وإن كان فيما جاء شيبُ الذوائب
فكن لى شفيعًا يوم لا ذو شفاعةٍ بمغنٍ فتيلا عن سواد بن قارب[1]

وقال رضى الله عنه يبكى رسول الله بعد وفاته: (من بحر الكامل)

جلت مصيبتك الغداة سواد وأرى المصيبة بعدها تزدادُ
أبقى لنا فَقْدُ النبى محمد صلى عليه الله ما يعتادُ
حزنًا لعمرك فى الفؤاد مخيما وهل لمن فقد النَّبى فُؤادُ
كنا نحل به جِنانًا ممرعًا جف الجنَانُ وأخفق الروادُ
فبكت عليه أرضنا وسماؤنا وتَصدعت وَجْدًا به الأكباد
قل المتاع به وكان عيانه حلُمًا تضمن سكرتيه رُقَادُ
كان العيان هو الطريق وحزنه باق لعمرك فى الفؤاد تلادُ
إن النبىَّ وفاتُه كحياته الحقُّ حقٌّ والجهاد جهادُ
لو قيل تفدون النبى محمدًا بذلت له الأموالُ والأولادُ
وتسارعت فيه النفوس لبذلها هذا له الغيابُ والأشهاد
هذا وهذا لا يردُّ نَبِيَّنَا لو كان يفديه فَداه سوادُ

ولما بلغت وفاته ﷺ ملوك نجران ـ وكانوا نصارى أهل كتاب فأسلموا بهدى الله وبما بأيديهم من نعت رسول الله ﷺ ـ قام فيهم عبد الحارث بن أنس بن عبد

(١) هذا العجز فى الإصابة ٢/ ٩٥ هو:

* سواك بمغن عن سواد بن قارب *

المدان فجعل يبكى رسول الله ﷺ بعد ما قَام فيهم أحسن مقَام، فقال: (من بحر الطويل)

لعمرى لئن كان النبى محمد ... عليه سلام الله أودى به القَدَرْ
لقد كسفت شمس النهار لفقده ... وبكت عليه الأرض والشمس والقمر
وبكتْه آفَاق السماء وما لَها ... وللأرض شجو غير ذاك ولا غيرْ
ولو قيل تفدون النبى محمداً ... لقلنا نعم نفديه بالسمع والبصرْ
وقل له منا الفداء وهذه ... وإن بذلت لا يسترد بها بَشَر
فإن يك راقاه الحمامُ فدينهُ ... على كلٍّ دين خالف الخلقَ قد ظهر
ونحن بعون الله هامة مذحج ... بنو الحارث الخيرِ الذين هم الغررْ
بنجران نعطى من سعى صدقَاتنا ... موفرةً ما فى الخدود لها صعَر
ونحن على دين النبى نَرى الذى ... نَهانا حرامًا عنه والأمرَ ما أمَرْ
أحاذر إن لم يدفع الله جولةً ... مجدعة يَبْيَضُّ من هولها الشَّعرْ
فيحيى فيها الله من خف حلمه[1] ... ويسعد فيها ذو الأناة بما صبَرْ
نطيع قريشًا ما أطاعوا فإن عصوا ... أبينا ولا نشرى السلامة بالغَرَرْ
وكان لهذا الأمر منهم ثلاثة ... على أو الصديق أو ثالث عُمَرْ
فلم يُخطئوا إذ وسدوها لبعضهم ... همُ ما همُ ما لكل إلا رعاةُ مطر[2]

ومثل هذه المقامات لسادات العرب وملوكها نظمًا ونثرًا لا يحيط بها حصر، يستعينون بها على دفع هذه الداهية الدهياء، ويبردون بها حَرَّ هذه الحادثة النكراء، وعظيم المصيبة بوفاة من حق فى حقه بكاء الأرض والسماء، وقل لفقده أن تسح المدامع عوض الدموع بالدماء، إذ هو الرزء الذى ابتدع الرزايا وقَال لأعين الثقلين:

(١) فى (ب) :(حكمه) بدل (حلمه)
(٢) هذا الشطر فى النسخة (ب) هو:

* وما منهم إلا رعاة مطر *

وهذا الشطر مختل الوزن فى النسختين.

جودي بالعطايا، فيبكي من لم يدرك زمنه على الفوت، كما يبكي من أدركه على الموت، وهو مغناطيس أهل الإيمان، وهديل جميع الأزمان، فمن لم يُذْرِ الدموع عند ذكر وفاته فقد أعوزه الحب بموافاته، فبكاؤه حينئذ على نفسه أولى، حتى تعزيه بمصائبه الثكلى، فكيف ينسى أو يتسلى من ديم إفضاله في كل نفس علينا هطلى، ولله در خطيب الشعراء حيث يقول: (من بحر الطويل)

بطيبةَ رسمٌ للرسول ومعهد ... منير وقد تعفو الرسوم وتَهْمَدُ

ولا تمحى الآياتُ من دار حرمةٍ ... بها منبرُ الهادي الذي كان يصْعَدُ

وواضحُ آثارٍ وباقي معالمٍ ... وربعٌ له فيه مصلّى ومسجدُ

بها حجراتٌ كان ينكن وسطها ... من الله نور يستضاء ويوقدُ

معارف لم تطمس على العهد آيها ... أتاها البلى والآيُ منه تَجدَّدُ

عرفت بها رسم الرسول وعهده ... وقبرًا بها واراه في الترب ملحدُ

ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت ... عيون ومثلاها من الجفن تَسعَدُ(١)

يُذَكِّرْنَ آلاء الرسول وما أرى ... لها محصيا نفْسي فنفسي تَبَلَّدُ

مفجعةٌ قد شفها فقد أحمد ... فظلت لآلاء الرسول تُعددُ

وما بلغت من كل أمر عُشَيْره ... ولكن لنفسي بعدُ ما قد توجدُ

أطالت وقوفًا تذرف الدمع جهدها ... على طلل القبر الذي فيه أحمدُ

فبوركت يا قبر الرسول وبوركتْ ... بلادٌ ثَوَى فيها الرسولُ المسدَّدُ

وبورك لحدٌ منْك ضُمن طيبًا ... عليه بناء من صفيح مُنَضَّدُ

تهيل عليه التُّرْبَ أيدٍ وأعينٌ ... عليه وقد غارت بذلك أسعُدُ

لقد غيبوا علما وحلما وسؤددًا ... عشية علوه الثرى لا يُوسَّدُ(٢)

---

(١) في (أ): (عيون الأثر ومثلها من العين يسعد) صحة العجز. وفي (ب):

* عيون ومثلاها من الجفن تسعد *

وهكذا هو في السيرة (٤/ ٤٦٩).

(٢) هذا البيت في السيرة (٤/ ٤٦٩) هو:

لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة ... عشيسة دلوه الثرى لا يوسد

وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم وقد وهنت منهم ظهور وأعضُدُ

يُبكُّون من تَبكى السمــاوات يومه ومن قد بكته الأرض فالنَّاس أكْمُدُ

وهل عـدلت يومًا رزيةُ هالك رَزيةَ يوم مــاتَ فيـه محمــدُ

تقطع فيــه منزل الوحى عنهم وقَد كـان ذا نور يغور وينجدُ

يدل عـلى الرحمن منْ يقتـدى به ويُنْقـذُ من هول الخزايا ويُرشدُ

إمام لهم يهديهم الحق جاهدا معلم صـدق إن يطيعـوه يسعَـدُوا

عفو عن الزلات يقبل عُذرهمْ وإن يحسنوا فَاللّهُ بالخير أجودُ

وإن نَاب أمر لم يقوموا بحمله فَمن عنْـده تَيسير مـا يَتشَــدَّدُ

فبيناهمُ فى نعمة من الله بينَهم دليل به نهج الطريقَة يُقْصَــدُ

عزيزٌ عليه أن يجوروا عن الهـدى حريصٌ على أن يستقيموا ويهتَدُوا

عطوف عليهم ليس يثنى جناحَــهُ إلى كنف يحنـو عليــه ويَمْهَدُ

وبينَاهمُ فى ذلك النور إذ عدا على نُورهم سهم من الموت مُقْصدُ

فأصبح محمودًا إلى الله راجعًا يُبْكِيه حق المرسـلات ويَحْمَــدُ

وأمست بلاد الحرم وحشا بقَاعهـا لغيبة ما كانت من الوحى تَعْهَدُ

قفارًا سوى معمورة اللحـدِ ضَافَها فقيــد يُبَكّيـــهِ بَلاَطٌ وغَرْقَــدُ

ومسجــده فالموحشاتُ لفقـــده خـلاء له فيــه مقَامٌ ومقْعَـــدُ

وبالجمرة الكبـرى له ثم أوحشـت ديارٌ وعرصـــاتٌ ورَبْعٌ ومولْدُ

فأبكى رسولَ الله يا عينُ عبرةً ولا أعرفنك الدهر دمعـك يَجْمَـدُ

ومـالك لا تبكين ذا النعمــةِ التى على النَّاس منْها سابغٌ يَتغَمَّـدُ

فجودى عليـه بالدموع وأَعْولى لفقـد الذى لا مثلُهُ الدَّهْرَ يُوجَـدُ

وما فقـد الماضون مثْلَ محمدٍ ولا مثلُه حتى القيامــةِ يُفقَـدُ

أعفى وأوفى ذمــةً بعـد ذمـةٍ وأقْربُ منـهُ نَائلا لا يُنكَّـــدُ

وأبـذلُ منــه للطـريف وتـالدٍ إذا ضَنّ معطـاء بما كان يتْلدُ
وأكرم صيتًا فى البيوت إذا انتمى وأكرمُ جَـــدًا أبطحيًا يُســـوَّدُ
وأثبتُ فَرعًا فى الفُروع ومنْبتًا وعودًا غَـذاهُ المزْنُ فَالعود أغْيَدُ
تناهت وصـاة المسلمين بكفـهِ فلا العلم محبوسٌ ولا الرأى يُفْقَدُ
وليس هـواى نازعًا عنْ ثنائه لعلى به فى جنّـة الخلد أَخْلدُ
مع المصطفى أرجو بذاك جواره وفى نيل ذاك اليوم أسعى وأجْهَـدُ

فهذه رشفة عصفور من مراثى حسان رضى الله عنه.

وقال كعب بن مالك رضى الله عنه يبكى رسول الله ﷺ: (من بحر الطويل)

وباكيـةٍ حَرَّى تَحَرَّقُ بالبكـا وتَلطم منهـا خدهـا والمُقَلَّدَا
على هالك بعـد النَّبى محمـد ولو عقلـتْ لم تبـك إلا محمـدا
فلست بباك بعـد فقـد محمـد فقيـدًا ولو كـان القريبَ المسـودا
فجعنـــا بخيـر الخلـق حيًا وميتًا وأدناه من أهل السمــاوات مَقْعَدا
وأعظمهم فقـــدًا على كل مسلمٍ وأكرمهـم فى النَّـاس كلهـم يـدًا[1]
متى تنزل الأمــلاك بالوحى بعده علينـا إذا مـــا اللبس فينـا تردَّدَا!
إذا كـان منه القـول كـان موفقًا وإن كـــان وحيًا كان نورًا مجردا
جزى الله عنـا ربُّنا خَير مـا جزى نبىَّ الهدى الداعى إلى الخير أحمدَا

وقال عمر بن سالم الخزاعى: (من بحر الطويل)

لعمرى لئن جادت لك العين بالبكا لمحقـوقــةٌ أن تستَهـل وتدمعـا
فيا حفصُ إن الأمر جَلَّ عن البكـا غَداةَ نعى الناعى النَّبىَّ فأسمعا
فلـم أر يومًا كان أعظمَ حـادثًا ولـم أرَ يومًا كان أعظمَ مَوْجعَا
ولـم أر من يـوم أعمَّ مصيبــةً ولا ليلـةً كـانت أمـرَّ وأفظَعَا

(١) هذا العجز غير موجود فى النسخة (ب).

تَعزَّىْ بصبر واذكري الله واعلمي بأن سوف يُجْزَى كُلُّ ساعٍ بما سعى
ولا تُرْزَئي محض الحياة فتُفْجعي بدينك والدنيا فَتُرْزِيهما معًا
فإن يك قد ماتَ النبي فبعدما نعى نفسه بدءًا وعودًا فاسمعًا
إذا ذكرتْ نفس فراقَ محمد تَهيَّج حُزْني والفؤادُ تقطعا
فيالك نفس لا يزال يزيدها على الدهر طول الدهر إلا تَصدعًا[1]
جزى اللهُ ربُّ الناس أفضلَ ما جزى نبيًا هدانا ثم ولَّى وودعًا
فوالله لا أنساك ما دمتُ ذاكرًا لشيء وما قلبت كفًا وإصبعًا

وقد أكثرت الشعراء منْ مراثيه صلواتُ الله وسلامه عليه قديمًا وحديثًا، وقضوا من التفجع عليه حقًا؛ إذ هو الحدث الذى لا ينبغى أن يكون عهده نكيثًا، ولم يمنعهم تقادم الأيام وتطاول الأعوام من تجديد البكاء عليه وتوكيد الحنين إليه، وكيف لا يكون ذلك إذ هو الرزء الذى من حقه أن ينسى جميع الأرزاء؟! والحادث الجلل الذى يقبح معه حسن العزاء، وطواعية الأسف عليه دائمًا من الشهادات بالإخْلاص لمن قام بها واستقام على سواء السبيل؛ جعلنا الله ممنْ أحبه حقًا، وكتبنا فيمنْ غدا لشفاعته المشفعة مستحقًا. ومن بكاء المتأخرين ما وقفت عليه لأبى إسحاق إسماعيل بن القاسم العنزى المعروف بأبى العتاهية من كلمة يعارض بها حسانًا رضى الله عنه فقال: (من بحر السريع)

على رسول الله منى السلام ما كان إلا رحمة للأنامْ
أحيا به الله القلوب كما أحيا موات الأرض صوبُ الغمامْ
أكرم به للخلق من مُبْلِغٍ هادٍ وللناس به من إمامْ
وأصبح الحق به قائما وأصبح الباطل دحض المقامْ

وقال أيضا: (من بحر الطويل)

ليبك رسول الله من كان باكيا ولا تنسَ قبرًا بالمدينة ثاويا

---

(١) فى (أ): طول البين.

جزى الله عنا كل خير محمدًا فقد كان مهديا دليلاً وهاديا
لمن تبتغى الذكرى بما هو أهله إذا كنت للبرِّ المطهر ناسيا
أتَنْسى رسول الله أفضل من مشى وآثاره بالمسجدين كما هيا
وكان أبرَّ الناس بالنَّاس كلهم وأكرمهم بيتًا وشِعْبًا وواديا
تكَـدَّرَ مِنْ فَقْدِ النبى محمد عليه سلام الله ما كان صافيًا
فكم من منار كان أوضحَهُ لنا ومن عَلَمٍ أمسى وأصبح عافيا
رَكَنَّا إلى الدنيا الدنيةِ بعده وكشَّفت الأطماعُ منا المساويا
وإنا لنُرْمَى كل يوم بِعِبْرة نراها فما نزداد إلا تَعاميا
كأنَّا خُلقنا للبقاء وأنَّنا وإن طالت الأيامُ ليس بثانيا
أبى الموتُ إلا أن يكون لمن نرى من الخلق طرًا حيثما كان لاقيا
حسمتَ المنى يا موتُ حسمًا مُبَرِّحًا وعلَّمْتَ يا موت البكاءَ البواكيا
ومزقتنا يا موت كلَّ ممزق وعرفتنا يا موتُ منك الدواهيا

ولأبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الأندلسى فى ذلك قَصيدة قَد تداولتها علماء البدو والأمصار على تطاول الأعصار، فهى دليل على متانته فى العلم وحسن التأله واليقين، فَله المكان الذى يلحقه بأقرانه من العلماء المتقنين، وناهيك من براعته أن ساجل حسانًا فأربى عليه، إلا أن المتقدم له فضل السلف على الخلف ولو كان المتأخر أعلى رتبةً وأوسع باعًا فى العلوم، لأن العلم لما كان منحًا ربانية ومواهب قدسية لم يكن مستَحيلا على الله أن يعطى منه لبعض المتأخرين ما لم ينله جميع المتقدمين، فَهو من رجال الطبقة الرابعة. فمنها قوله يعارض حسانًا فى قصيدته الأولى، ويمشى فى التوجع والتفجع على منواله، ويسبح على مثاله، فقال: (من البحر الطويل)

لطيبةَ آثارٌ تُحج وتقصدُ ودار بها لله نور مخلَّدُ
ومَهبط جبريلٍ بوحيٍ وحكمةٍ يبيِّنُها للعالمين محمَّدُ
ومظهر آيات كأن رسومَها على ما محا منها البلى تَتَجَدَّدُ

وفي مسجد التقوى تأجج ضوءهُ عليه من الفردوس ظل مُمَدَّدُ[1]

يُفَاوِحُها طيب الجنان وتُربة تبوأها من جنة الخلد أحمدُ

ومنبره الأعلى على ذروة التقى وجذع له فيه حنينٌ مرددٌ

ومولد إبراهيم حيث تمخضت به أمه مثوى كريمٌ ومَوْلدُ

وموقفه من نفسه واختياره له اسم خليل الله فخرٌ مسيَّدُ

وإعلانه بالحزن تَدمع عينهُ له رحمة والنفس تَرقَى وتَصعَدُ

ومبنَى عليٍّ والهُدَى يألفُ الهُدَى بفاطمة نُور بِنُورٍ يُقَيَّدُ

ومولدُ سِبْطَيْه ورَيْحانُ قَلْبِهِ مكانُهما من عاتقيه مُمَهَّدُ

وحيثُ ابنةُ العاص أمامةُ ترتقي يقُوم بها حبًا لها ثم يَسْجُدُ

وحيثُ بَنَى بالطيباتِ نِسائِه بعِصمته الوثقى وجبريلُ يَشْهَدُ

ومَتْلَى كتاب الله فى حجراته يقمن به فى الليل والنَّاسُ هُجَّدُ

وثمتَ أصحاب الكساء طهارة من الله يحييها الكتابُ المُؤَيَّدُ

مشاهد إيمان تألَّق نُورُهَا ففى كل حَيٍّ جذوة تَتَوقَّدُ

وكَانَتْ أمانًا ثم عادت مخَافةً فزائرها فوق الردى يَتوسَّدُ

فيا أيها الدارُ التى حَقٌّ أهْلِهَا على الناس فى التنزيل أن يتوددُّوا

لقد درستْ منك المغانى وأوْحَشَتْ وكان إليها الدينُ يأوى ويَصْمَدُ

ذكرتُك ذكرى من يهيم فؤادهُ بقربك لكنى من القرب مُبْعَدُ

ومُثِّلتِ لى فى بهجة الدين والتقى وأمر رسول الله يعلو ويَمْهَدُ

إذا أبرقت نوراً أسارير وجهه تُزحزح قِطْعَ الليل والليلُ أسْوَدُ

وألْقَتْ إليه الأرضُ أفلاذَها التى تُحل بها عِصَمُ الأمورِ وتُعقَدُ

وغزو تبُوك ثم حَجٌّ وداعِه ولم يبق تبيينٌ ولم يبق مَشْهَدُ

---

(١) صحح البيت اعتمادًا على النسخة (ب).

ومثلت لى والمسلمــون بشكوة ... فرائصهم من روعة البين تَرْعُـدُ(١)
وقد جلَّلَ الدنْيا ســوادٌ مطَبَّقٌ ... فحــال به ليل على الناس سَرْمَـدُ
فمــا راعهم إلا وفاةُ رسولهم ... وكلٌّ يرى أن الرسـولَ مخَلَّدُ
وقــد ذهلوا أنَّ التى يقرؤونها ... إذا جاء نصر الله للموت مَرْصَــدُ
وودع جبـريلٌ وداعَ مفـــارقٍ ... فَلا ودَّ يُستثنى ولا حىَّ يُعهَدُ
وآوى إليهــا مسبَلاتٍ دمُوعها ... كمـا انحل من سلك فَريد مبـدَّدُ
فأوعـدهــا سرًا بكت بنحيبــه ... فأثنى بسـر فانثنـت تتجلَّـدُ
وقد أعلنت عند الرســول بكربهـا ... لكرب أبيها وَهْوَ بالموت يُجْهَدُ
فقـال لهـا كفى دموعـك واصبرى ... فما بعد هذا اليوم كربٌ يُعدَّدُ
وبشرهـا عن قرب مَلْحقِها بهِ ... ببشرى حديث صادق لا يُفَنَّدُ
فيـا مـن يرى حيًا يعَزَّى بموتِهِ ... فيرضى كـأن الموتَ خُلْدٌ مُؤَبَّدُ(٢)
فرارًا من الدنيا إلى قرب ربها ... وشحًا عليهـا من حيـاة تُنَكَّـدُ
ولطفًا من الله العظيم بموتِهـا ... وبابُ الرزايا المستكنات مُوصَـدُ
ولو أنها امتدت طويلا حياتُها ... لشرد عنهـا النومَ ليلٌ مسهَّـدُ
وغصت على كره بثكل ابن عمها ... وبعــد شهيد حزنُه ليس يُفْقَدُ
أقام كتاب الله فى كل مـارق ... يُقِرُّ به فى زعمه وهو يَجْحَدُ
فقَيض أشقى الناس يزجى شهـادة ... لمن هو أولى بالأمـان وأسْعَـدُ
فكيف بها واللهُ يأبى هــوانَهـا ... لمصرع سبط أول وهـو مقْصَـدُ(٣)
وقـد جرعته حتفَه كف جعدة ... بكرع سم مجـه فيـه أســود

(١) فى (ب): فرائصهم من روعة هى ترعد.
(٢) فى النسخة (ب): كأن الموت خلد ما يباد.
والعبارة غير واضحة فى النسختين، والبيت لا يستقيم هكذا فى (ب).
(٣) هذا العجز غير واضح فى النسختين، وهو هكذا فى السيرة، ومع ذلك فهو غير مستقيم تمامًا.

ولو حدثت عن كربلاء لأبصرت ... حسينًا فتاها وهو شلْوٌ مقدَّدُ

وثاني سبطي أحمد جحجحت به ... عُتَاةٌ جفاةٌ وهو بالأرض أوحَدُ

ولم يرقبوا إلاًّ لآل محمد ... ولم يذكروا أن القيامة مَوْعِدُ

وأن عليهم في الكتاب مودةً ... لقرباه لا يتحاشى عنها مُوَحِّدُ

فيا سرع ما ارتدوا وصدوا عن الهدى ... ومالوا عن البيت الذين بهم هُدُوا

وجُلِّي عن بَردِ الفرات عطاشهم ... فَرُوِّيَ منهم ذابلٌ ومُهَنَّدُ

فيا أوجهًا شاهت وتاهت عن الهدى ... أهذا التشفي منكم والتَّوَدُّدُ

وترتم رسول الله في ذبح سبطه ... وبؤتم بنارٍ حَرُّها ليس يَبْردُ

فما لكم عند الشفيع شفاعةٌ ... وما لكمُ في كوثر الحوض مورِدُ

لعمري لقد غادرتمُ كل مؤمنٍ ... على مضض برح يقُوم ويقْعُدُ

نفضتم الحيا وأرضيتُم العدى ... وأنتم لغير الله جنْدٌ وأعبُدُ(1)

فيا كبدي إن لم تَفيضي عليهمُ ... فنفسيَ أسخى بالحياة وأجودُ

أتَنْتَهبُ الأيام أفلاذَ أحمد ... وأفلاذُ من عاداهمُ تتَودَّدُ

ويضحي ويظمأ أحمد وبناته ... وبنت زياد وردها لا يطرَّدُ

أفي دينه في أمنه وبلاده ... يَضيق عليهم فسحة تتورَّدُ

وما الدين إلا دين جدهمُ الذي ... به أصدروا في العالمين وأوْرَدُوا

ينَامُ اليهود والنصارى بأمنهم ... ونومهمُ بالخوف نوم مشرَّدُ

وما هي إلا ردةٌ جاهلية ... وحقد قديمٌ بالحديث يُؤَكَّدُ

ألهفي على سُبُلِ الهدى ونبوة ... جرى لهما يوم من الشر أنكَدُ

شهيدين متْبوعين من كل مؤمن ... بكل صلاة برة تتعقَّدُ

فهذا أذابت سَوْرَةُ السم كبده ... وهذا أفارقه قسي تكابد(2)

---

(1) الشطر الأول من هذا البيت مختل الوزن.

(2) هذا العجز غير موجود في النسخة (أ)، وهو في (ب) هكذا، ووزنه مختل.

فما عذر أهل الأرض والقسط قائم ... وكلهمُ في موقف الفصل يشهدُ
أيفعل هــذا بابن بنت نبيكم ... فليس لكم في النصر يوم ولا غَدُ
أبى اللهُ إلا أنَّ في النفس حسرةً ... بغصتها أُضحي وأمسي وأرقُدُ
إلى أن يقيد الله من كل واتر ... على أن كفًا مُمْنَعًا ليس يوجَدُ
وأي دم يوفي دم ابن محمد ... حسين وأمسي وهو سبط موحِّدُ
فيا خاتم الأسبــاط إنَّ تحيتي ... تؤمك من أرض بعيد وتَقْصِدُ
مُثَقَّلَةٌ بالدمع شوقا ولوعــةً ... على زفرة من حرهــا أتوأَّدُ
ويا أسوة للمؤنسين كريمة ... يلين عليها الحادث المتشدد
فمن ينكر البلوى وأنت بِكَرْبَلا ... لذى البثِّ والشكوى إمام مقلَّدٌ
فإن تجهل الدنيا عليك وأهلُها ... فإنك في أهل السمـاء مبَجَّدُ
أبوك شفيعُ الناسِ وهو الذي له ... مقامٌ كريمٌ في البرية يُحْمَدُ[1]
ومشربه الحوض الروي بكفه ... تذاد رجـــال دونها وتطرد
وممن يذود اللهُ عنها عصابةً ... بقتلك في طغيانها تتجمــدُ
وذنبهمُ في قتلك الذنْب كله ... فمـا لهم إلا الجحيم مَعَمَّدُ
وهل كنتَ إلا مثل عمكَ جعفرٍ ... قتيلا لكفارٍ بذي العرش ألحَدُوا
وإلا كليث الله عمك حمزةٍ ... وحربةٌ وَحْشِيٍّ إليـه تُسدَّدُ
ومـا منهمُ إلا عريقُ شهـادةٍ ... حَيَاتُهُمُ موصولةٌ حين تَنْفَدُ
ومثل أبي حفصٍ وعثمانَ بعده ... ومثلُ عليٍّ وهو للخلق سيدُ
دماؤهمُ مسك ذكي وأجرهـا ... على الله لا يحصى ولا يَتَحدَّدُ
أقولُ ببثٍّ مستكنٍّ وظـاهرٍ ... مضاضتُـهُ عن حبهمْ تَتَولَّدُ
وما سرني أني خليٌّ من الهوى ... هوًى هو في حاميم يُتْلَى ويُسْنَدُ

---

(١) هذا البيت فيه خلل في الوزن.

سريرةُ حبٍّ يومَ تُبلَى سرائرٌ ... يقوم بها عنى الصفيح المنضَّدُ
سلامٌ على تلك المعاهد إنَّها ... لآل رسول الله طهرٌ ومَسْجِدُ
فيا رب وفَّقنى إليها مُسلِّمًا ... ويا طيبَ مسرى من إليها يُوفَّدُ
أفيض بها دمعى وأنقَع غُلَّتِى ... وأنعم فى رَبْع الرسول وأنجدُ
وأدعو إلى الرحمن دعوةَ تائبٍ ... إلى عفوه من طيبة يتزوَّدُ
وأسمو إلى البيت العتيق بفرضه ... فكلٌّ به من ذنبه يتَجَرَّدُ
ولستُ على قَبر الرسول بمؤثر ... ليحشر من ذاك البقيع محمدُ
فيا رب حقق منيتى ومنيتى ... هنالك والأرواحُ جندٌ مُجَنَّدُ

وقد اقتصرت على هذا من مراثيهما رغبة فى الإيجاز، ولو كانت غَير خالية من الإمتاع، بغوامض اللغة، والإطناب فى المعانى البليغة، والألفاظ الفصيحة، وإثارة القريحة، وتهييج الشوق، وقدح نار الحب فى سويداء القلب.

ومما ينبغى الإمتاع به فى هذا المحل مرثية حسان لحمزة سيد الشهداء: (من بحر السريع)

أتعرف الدار عفا رسمها ... بعدكَ صوبُ المُسْبِل الهاطلِ
بين السراديح فأُدْمانةٍ ... فمدفعُ الرَّوْحاء فى حائل
ساءلتها عن ذاك فاستعجمت ... لم تدر ما مرجوعةُ السائل
دع عنك دارًا قد عفَا رسمُها ... وابك على حمزةَ ذى النائل
المالئ الشِّيزى إذا أعصفت ... غبراءُ فى ذى الشَّبِم الماحل[١]
والتاركِ القِرْنَ لَدَى لبدة ... يعثر فى ذى الخُرُصِ الذابل[٢]
واللابس الخيل إذا أحجمت ... كالليث فى غابته الباسل

---

(١) الشيزى: قصعة كبيرة تصنع من خشب صلب. والشبم: البارد. الماحل: المحل، القحط. والعاصف: الريح.
(٢) القرن: الند، وذى الخرص: الرمح.

أبيضُ فى الذروة من هـاشم لم يمرِ دون الحق بالباطل

مـال شهيـدًا بين أسيافكم شُلَّتْ يدا وحشىَّ من قـاتل

أى امرئٍ غـادر فى ألَّةٍ مطرورة مـارنةِ العـامل[١]

أغْبرت الأرض لفقـدانه واسـودَّ نُور القَمر الناصـل[٢]

صلى عليـه الله فى جنة عاليـة مكرمـة النـازل[٣]

كنا نرى حمـزة حرزًا لنا فى كل هـول نابنا نـازل

وكـانَ فى الإسـلام ذا تُدْرَأ يكفيك فقـد القاعد الخاذل

لا تَفْرَحى يا هنـد واستجلبى دمعًا وأذرى عبرة الثاكـل

وابكى على عتبـة إذ قطه بالسيف تحتَ الرهج الجـائل[٤]

إذ خر فى مشيخـة منكمُ مـن كل عـات قلبـه جـاهل

أرداهمُ حمـزةُ فى أسـرة يَمشون تحت الحلق الفَاضـل

غـداة جبريلَ وزيرٌ له نعم وزير الفارس الحـامل

وله أيضًا يبكى أصحاب مؤتة: (من بحر الطويل)

تَأَوَّبنى ليـلٌ بيثربَ أعسرُ وهم إذا مـا نوَّم النـاسُ مُسْهرُ

لذكرى حبيـب هيجت لى عبرةً سفوحًا وأسبابُ البكـاءِ التذكر[٥]

بلى إن فقـدان الحبيب بليةٌ وكم من كريم يبتـلى ثم يصبر

رأيت خيـار المؤمنين تواردوا شعوبا[٦] وخلفا بعدهم يتأخر

(١) مطرورة: مسنونة، أى حادة. والمارنة: اللدنة الصلبة.

(٢) فى السيرة: أظلمت بدل أغبرت.

(٣) فى سيرة ابن هشام: مكرمة الداخل بدل النازل.

(٤) الرهج: الغبار. الجائل: الثائر.

(٥) هذا البيت وزنه مختل.

(٦) شعوب: المنية، وسميت بذلك لأنها تشعب الأحبة. أى تفرقهم. ونصبت على نزع الخافض: تواردوا على شعوب.

فلا يُبْعِدَنَّ اللهُ قتلى تتابعــوا جميعًا وأسباب المنية تخطر[1]

غــداة مضَـوا بالمؤمنين يقـودهم إلى الموت ميمـون النقيبة أزهرُ

أغرٌّ كضوء البدر من آل هــاشم أبيٌّ إذا سيم الظَّلامــــة مجْسَرُ

فطاعنَ حتى مــال غير مُوسَّـدٍ معترك فيــــه القنـا متكسرُ

فصــار مع المستشهـدين ثوابه جنان وملتفٌّ الحــدائق أخضرُ

وكنا نَرى في جعفر من محمـد وفاءً وأمرًا حــازمًا حين يأمرُ

ومازال في الإسلام من آل هـاشم دعائمُ عز لا يُزَلْنَ ومَفْخَرُ

همُ جبل الإسلام والناسُ حـولهم رِضامٌ إلى طود يروق ويقْهَرَ[2]

بهاليـلُ منهمْ جعفرٌ وابن أمِّـه عليٌّ ومنهمْ أحمــدُ المتخيَّر

وحمزةُ والعبــاسُ منهم ومنهمُ عقيل وماء العود من حيث يُعْصَرُ

بهم تُفرج اللأواء في كل مأزقٍ عِماس إذا ما ضاق بالناس مصدر[3]

همُ أوليـاْء الله أنزل حكمَـه عليهم وفيهم ذو الكتاب المُطَهَّرُ

ولما مات العباس رضى الله عنه وجد عليه ابنه عبد الله وجدًا شديدًا حتى لزم بيته فلا يكلم أحدًا، وقد عُزِّيَ مرارًا فلم ينْجع فيه العزاء، حتى أتاه رجل من الأعراب، وقد بلغه حزنه ولزومه بيته، فقال له منشدًا: (من بحر الكامل)

خير من العباس أجرُكَ بعده واللهُ خَيْــرٌ مِنْـكَ للعبـاسِ

فاصبر على البلوى نكنْ بك صبَّرًا صبرُ الرعية عند صبر الراس

فعزى فقال له: إنه قد عزانى الناسُ بالآيات والآثار والمواعظ ولم أتعز إلا

---

(١) البيت في السيرة هكذا:

فلا يبعــدن الله قتلى تتابعــوا بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبـد الله حين تتابعوا جميعًا وأسباب المنيـة تخطر

(٢) الرضام: جمع رضم: الحجارة يركب بعضها بعضًا. والطود: الجبل.

(٣) عماس: مظلم شديد. واللأواء: الشدة.

ببيتيك هذين، فلم أفهم قول رسول الله ﷺ: «إن من الشعر لحكمة»[١] إلا من يومي هذا؛ فعلمت أن للأشعار المستحسنة مواقع في النفوس لا يبلغها غيرها لكونها كفئًا لها، بخلاف التنزيل فإنه قولٌ ثقيل تذوب تحت تجليه النفوس فيؤودها[٢] حمله؛ فأعطى الأعرابي ألف دينار ومائة ناقة، وحمل له على قَلوصه من الثياب الحسنة ما تستطيعه، ثم خرج إلى المسجد فأقبل إليه الناس يهشون من كل شارع، فقال لهم: إني تعزيت ببيتين من الشعر أتى بهما أعرابي من البادية؛ فعلِّموا أبناءكم الأشعار المستحسنة؛ فإنها تورث ذكاء وكرمًا.

ولما ماتت بنت رسول الله ﷺ فحزن عليها أتاه أعرابي فقال له: يا رسول الله، عورة سترت، ومؤونة كفيت؛ فتبسم رسول الله ﷺ وقال: «لقد عزاني بقولك هذا جبريل آنفًا».

ولما مات ابن معاذ رضي الله عنه وجد عليه وجدًا شديدًا؛ فكتب إليه رسول الله ﷺ: «من محمد بن عبد الله إلى معاذ بن جبل، السلام عليك ورحمة الله وبركاته، أما بعد: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد: فإنه بلغني موت ابنك، فحسن الله عزاءك؛ فإن أبناءنا نور أبصارنا، وربيع أفئدتنا، متعنا الله بهم في غبطة، ثم سلبهم في عافية؛ فلا يُفسدن عليك ما ترتجيه من الأجر ما تجده من الجزع؛ فتجتمع عليك المصيبتان، ولتستعد يا معاذ لمثلها فكأن قد، والسلام عليك».

وقال معاذ: فوالله ما هو إلا أن قرأتُ كتاب رسول الله ﷺ أفرغ الله عليَّ درعًا من الصبر من هامتي إلى أن عفَّى أثري. فما وجدتُ على ميت بعد ذلك إلى يومي هذا.

وهذا الباب بحر لا يدرك ساحله، ومشرب عذب لا يروى منه جاهله؛ فلنقتصر على هذه النبذة اليسيرة من هذه القصة العسيرة، لا أنسانا الله ذكرها ولا أعوزنا شكرها، آمين بجاه النبي الأمين.

---

(١) حديث «إن من الشعر لحكمة» صحيح رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه، وهو عند البخاري في باب الأدب.

(٢) يؤود: يثقل.

• قال رحمه الله:

٩٠ ـ وذُدْ عَنْ زِنًى وَأُمُـرْ زَنَاءً بطُهْرِهِ ولَشَّ القضى اختر إنْ دعَاكَ قَضَاءُ

قوله: وذد أي: اكفف نفسك واقرعها واحبسها عن زنى: وهو مباشرةُ ما لا يحل من معالجة النساء، سواء كان ذلك بالعين أو باليد أو باللسان أو بالرجل، ومن باب أحرى إن كان بالفرج.

قال الرسول ﷺ: «العين تزنى، واليد تزنى، واللسان يَزْنى، والرجلُ تزنى، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه»(١).

وقال ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»(٢).

وقال ﷺ: «إن أهل النار ليتأذون من نتن فروج الزناة، وإن الغسلين لما يسيل من فروجهم».

ويروى أن الزانية تأتى يوم القيامة وقد تدلى فرجها حتى يكون كالدلو، وإن الزانى بها يلحسه وقد غشيهما من الهوان والخزى ما لم يغش أحدًا من أهل الكبائر.

ويروى أن الله تبارك وتعالى لما خلق الأرض فَدحاها من تحت البيت قال: أنا الله ذو بكة، لأغنين الحاج ولو بعد حين، ولأفقرن الزانى ولو بعد حين.

وقال رسول الله ﷺ «أبغض الرجال إلى الله ثلاثة: الشيخ الزانى، والفقير المتكبر، والغنى البخيل»(٣).

---

(١) حديث «العين تزنى واليد تزنى»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان البخارى (٥/ ٨١) ومسلم (٢٦٥٧)، كما أخرجه أبو داود.
ولفظ مسلم أتم وأشمل، وأوله: «كتب على ابن آدم نصيبه من الزنى»... إلخ. والله أعلم.

(٢) حديث «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائى وابن ماجه، وآخر الحديث عند البخارى: «ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة ذات شرف يرفع الناس إليه أبصارهم فيها حين ينتهبها وهو مؤمن»، وهو عنده فى كتاب الأشربة، والله أعلم.

(٣) حديث «أبغض الرجال إلى الله ثلاثة»... إلخ. رواه النسائى والترمذى بلفظ: «إن الله يبغض ثلاثًا: الشيخ الزانى، والبخيل المنان، والفقير المختال» وفيه. (الغنى الظلوم) بدل (البخيل المنان). وأورده الغزالى باللفظ المتقدم (٣/ ٢٤٧)، والله أعلم.

ويروى: أن الرجل إذا أزال الستر بينه وبين امرأة لا تحل له نادت ملائكة السماء: ألا إن فلانًا قد أزال الستر بينه وبين ربه ألا فالعنوه، لعنه الله.

ويروى: أنه لا يملأ بصره من النظر إلى المرأة لا تحل له إلا نكت فى قلبه نكتة سوداء فَلا يزايلها إلا الإقلاع والتوبة النصوح.

وكان سبب هلاك بَرصيص الراهب بعد طول عبادته وزهده الزنى

قال ﷺ: «باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء؛ فإنه لا يخلو رجل بامرأة لا تحل له إلا وضع عليهما الشيطان كنفَه ونفخ فى إحليل الرجل وفرج المرأة حتى يوقعهما فى الفاحشة»(١).

ويروى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه أنه قال: ما كثر الزنى فى بلدة إلا وجرد عليها السيف، ولا منع قوم الزكاة إلا ومنع الله عنهم قطر السماء، وما طفَّفَ قوم المكيال والميزان إلا وابتلاهم الله بغلاء أسعارهم، ولا ترك قوم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلا وعمهم الله بعقاب من عنده.

وقيل لرسول الله ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث».

والزنى، بالكسر والقصر، أما الزناء، بالفتح والمد: فهو عبارة عن احتقان الأخبثين.

قال على رضى الله عنه: (من بحر الطويل)

ولا تمسك الفضلات عند هياجها ... ولو كنت بين المرهفات الصوارم

وفى كل أسبوع عليك بفيئة ... لعلك تنجو من شرور البلاغم

قال ﷺ: «لا يصلينَّ أحدُكم وهو يدافع الأخبثين»(٢).

---

(١) حديث باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء» هذا القدر من الحديث غير ثابت عن النبى ﷺ، أورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٧٥ وقال: قال القارى: غير ثابت، وإنما ذكره ابن الحاج فى المدخل فى صلاة العيدين، وذكره ابن جماعة فى منسكه فى طواف النساء من غير سند (١/ ٣٢٩)، أما باقيه فلم أجده، والله أعلم.

(٢) حديث «لا يصلين أحدكم وهو يدافع الأخبثين» صحيح رواه ابن حبان بهذا اللفظ إلا أنه قال: يصلى بدل يصلين، كما رواه مسلم بلفظ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا هو يدافع الأخبثين». وأورده ابن حجر فى التلخيص تحت رقم ٥٦٦.

وقد اتفق حذاق الأطباء وجهابذتُهم أن احتقان الأخبثين يورث المليلة والخفقان ووجع المثانة والحصا، وربما أدى إلى السدد وهو عسر البول.

واتفقت العلماء المالكية على بطلان الصلاة به حيث كان مشوشًا للفكر.

وأما الشافعى فإنه قد أوجب بطلانها بمجرد الاحتقان؛ إذ مدافعتهما عنده كحملهما. وحمل نهى النبى ﷺ على التحريم؛ إذ حمله على غير ذلك يخرج بنا عن حمل الحديث على ظاهره؛ وذلك يؤدى إلى تحريف الكلم عن مواضعه؛ إذ سبيل السنة عنده كسبيل الكتاب.

وأما المالكيةُ فقد فصلوا فى ذلك، وخصصوا عموم الحديث، فقالوا: إنها تَبطل الصلاة حيث كان الاحتقان يشغل عن فرض. واختلف فى ذلك الفرض؛ فقيل: الخشوع، وقيل: الحضور، وقيل: الطمأنينة.

واستدلوا على الجميع بأدلة: منها قوله ﷺ: «ما لك من صلاتك إلا ما عقلتَ».

وقوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقال ﷺ: «صلوا كما رأيتمونى أصلى»[١].

وكان ﷺ إذا قام يصلى يسمعون لصدره أزيزًا كأزيز المرجل من شدة البكاء[٢].

واتفق أصحاب رسول الله ﷺ أنهم كانوا يسمعون وجيف صدر عمر رضى الله عنه من البكاء إذا قام فى الصلاة وهم فى مؤخر الصفوف. وعلى مثل ذلك مضى السلف، وكان زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه إذا قام إلى الصلاة اصفر حتى كأنه نزف منه الدم، حتى قيل له فى ذلك، فيقول لهم: أتدرون بين يدى من أقوم ومن أناجى؟ فلا أدرى أيقبلها منى فأُهَنَّأ أم يردها على فأعَزَّى؟.

ويروى أنه كان لا يلبى فقيل له: لم لا تُلبى؟ قال: لا أستطيع التلبية؛ فقالوا له: لا بد من التلبية، فلما ألحوا عليه لَبَّى، فلما لبى خرَّ مغشيًا عليه؛ فالتزموه

(١) حديث «صلوا كما رأيتمونى أصلى» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان بألفاظ مختلفة، وهذا لفظ البخارى، وهو عنده فى كتاب الأذان، وهو فى التلخيص تحت رقم ٢٨٤.

(٢) حديث «كان ﷺ إذا قام يصلى»... إلخ. تقدم تخريجه.

حتى أفاق، فلما أفاق قالوا له: ما بالك؟ فقال لهم: لما قُلت: لبيك خفت أن يقال لي: لا لبيك ولا سعديك؛ فحل بي ما قد رأيتم.

وكان السيد أبو العباس السبتي من شدة خوفه لله وتألهه لا يسمع أحدًا أنشد شعرًا في الغزل إلا قال لقائله: دعنا من هذا، وخذ في مدح الله، والتشوق إليه، والتحذر من أليم عذابه، ثم ينشد بديهة ما يُناقضه. وسمع منشدًا ينشد أبياتًا قال: (من بحر الكامل)

* رفعوا الهوادج للرحيل وأسلموا *

فقال هو: (من بحر الكامل).

رفعوا الأنامل للصلاة فكبروا	فبدا الخشوع بحزنهم فَتَرَنَّمُوا
وبدت سواكبُ دمعهم مسبولةً	خوفًا لما قد أخروا أو قدموا
هذي صلاة المتقين وغيرهم	نائي الفؤاد وألْسُنٌ تتكلم

وسمع منشدًا ينشد من أبيات: (من بحر الخفيف)

* يا أخي قم تر السليم عليلا *

فعارضه بهذه الأبيات: (من بحر الخفيف)

يا أخي قم تر الكتاب دليلا	واجعل الذكر والسجود سبيلا
واطلبنَّ الإلهَ جنة خلده	بخضوع يراك فيه ذليلا
إن رب العباد يدعوك ليلاً	إن فضلي لمن يكون سؤولا
أسعف العبد بالإجابة مني	ليس فضلي عليك عبدي قليلا

وكان أبو العباس يلهج بهذه الأبيات التي لشيخه أبي عبد الله العجار: (من بحر الكامل)

عقدت عليك مكمّناتُ خواطر	عقد الرجاء فألزمتك حقوقا
إن الزمان عدا عليَّ فزادني	علمًا بأنك خالقي تحقيقا
ما نالني دهرٌ بوجه مساءةٍ	إلا عبرت به إليك طريقا
أمضِ القضاء على الرضى مني به	إني وجدتك بالعباد رفيقا

فإذا سمعها يخر ساجدا لله، وأنشده إياها حفيده أبو زكرياء وهو فى النزع، فأخذ يده فقبلها، فقال: قل: لا إله إلا الله، فأخذ بيده إلى موضع قلبه، كأنه يقول له: هو فى قلبى، وأنشد عبد الله ابنه لأبيه رحمه الله فقال: (من بحر الطويل)

ألا يا مُنيبًا بات يدعـــو إلهــه
لَقــد هــاج لى شـوق إلى ذلك الورد

تبيت على قطـع المراحــل بالتقى
سبوقًا إلى الخيرات فى جنة الخلد

ومثْلى على فرش البطــالةِ غـافلٌ
فيما أسفى من قرب غيرى ومن عبدى

أأنفى من الفردوس فى جنة العلى
ويحظى بها ذو الدمع سكبا على الخـد

وقالت المالكية: وليس حمل النهى على التحريم بأولى من حمله على الكراهة؛ إذ لا دليل يخصصه بالحمل على المنع؛ إذ النهى منه جازم وغير جازمْ كما أن الأمر كذلك.

وتفصيل المالكية يقتضى الوجهين اللذين يقْتضيهما ظاهر الحديث، إذ جعلوا المدافعة حيث أفضت إلى الشغل عن واجب من سجود أو قيام أو طمأنينة، أو خيف منه مبادرة إحدى الفضيلتين فيصير حينئذ وجهُ نهى الشارع على جهة التحريم، وإن كانت المدافعةُ إنما تشوش الفكر أو يدافعها مدافعة دون تلك فَوجه نهى الشارع حينئذ إنما هو من باب خلاف الأولى؛ فلا يأثم المرتكب ولا تبطل الصلاة.

قال ابن الحاجب في مختصره: وبطلت صلاة حاقن[1] وحارق وحاقب وذى قرقرة وغثيان إن شغل الكل عن فرض.

---

(١) الحارق: المتقبض أو المتحفز. الحاقب: واضع الحزام على بطنة بشد.

قوله: بطهره: عبارة عن الطهارة المجازية، أى مره بإفراغ أخبثيه لأنه إذا أفرغهما فقد طهر من حملهما ومدافعتهما: حقيقةً على مذهب الشافعى، ومجازًا حملا على مذهب مالك؛ لقوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦]؛ أى يتطهرون من إتْيان الرجال فى أدبارهم، فلما لم يفعلوا ذلك الفعل القبيح صاروا وكأنهم قد تطهروا منه.

قوله: ولش: أى أكل. القضى، بالكسر والقصر: جمع قضية، وهو ضرب من الحمص.

وتركيب معنى البيت: ذد أيها المريد عن زنى نفسك أو من أراده بالفعل إن قدرت، فإن لم تقدر بالفعل فبالقول، فإن لم تقدر فاكره ذلك بقلبك، وأْمُر شخصًا حاقنًا للخبث بطهارته، واختر أكل ما لا يتغالى الناس فيه زهدًا وتخفيفًا وتعففًا كالقضى مثلا إن دعاه، أى اقتضى أكله، قضاء أى حكم" تعريض بأن لم تجد شيئًا سواء تأكله بدله أو شرعى بأن لم تجد معه إلا حرامًا أو شبهة.

والمعنى: مر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، وتَورع؛ فهذه معظم أحوال الإرادة؛ إذ أهل الإرادة يُنزهون أنفسهم عن تتبع الرخص لكونه من باب الانتصار للنفس وتتبع شهواتها.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:٣٢] جعلنا الله ممن جعل أساس بنيانه على تقوى من الله، آمين آمين.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٩١ ـ وأكلَ الربا احذرْ ذَا رِبَاءٍ وإنْ جزَى

وُليتَ فَوالِ الْعَـدْلَ يُسْنَ جَزَاءُ

قوله: (وأكل الربا احذر): فأكل: منصوب بفعل مقدَّر قبله يفسره احذر. الربا: مضاف إليه ما قبله، وهو بالكسر والقصر: الزيادة فى المال على وجه لا يرتضيه الشارع، قال الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، فالمعنى: أن الربا ولو زاد المال فيما يرى الناس ظاهرًا إن الله يمحقه، ويمحق

الأموال التي خالطها بذهاب بركتها أولاً، وقطع شأفتها واجتثاثها من أصلها آخراً قال ﷺ: «الحرام أصل الخراب».

وقال ﷺ: «ما من بناء دخلته حَجرةٌ أو مدرة من حرام إلا كانت سببًا لخرابه».

ويروى: ما اتَّخذَ رجل استعمال الربا فى صفقة فمات وهو غنى.

وما أوعد الله تبارك وتعالى بالحرب فى عمل من الأعمال المحْظورة إلا فى الربا ومعاداة الأولياء.

قالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

وأما معاداة الأولياء فقد قال رسول الله ﷺ فى حديث قدسى يرويه عن ربه: «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب»(١).

ومن عظيم أمره أن الله تبارك وتعالى لم يكتف بالنهى عنه حتى أوعد فاعله بالمحاربة، ولم يكتف بوعده إياهم بالمحاربة حتى بين سوء حالهم يوم القيامة؛ فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

---

(١) حديث «من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب» جزء من حديث طويل، رواه البخارى من إفراده، وأوله: «إن الله قال: من عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب»، وآخره: «وما ترددت فى شىء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».
قلت: هذا الحديث لم يروه بسند صحيح غير البخارى فى صحيحه، ومع ذلك حاول بعضهم الكلام فيه؛ لأن شيخ البخاري فيه هو خالد بن محمد العطونى رمى بالتشيع، وقيل: له مناكير. كما أن شيخ شيخه وهو شريك بن عبد الله تكلم فيه.
قال الحافظ ابن حجر: قال الذهبى فى الميزان: خالد بد مخلد له مناكير. وقال أبو حاتم لا يحتج به. وأخرج ابن عدى عشرة أحاديث من حديثه استنكرها. . إلى أن قال - يعنى الذهبى -: هذا الحديث غريب جدًا، ولولا هيبة البخارى لعدوه من منكرات خالد بن مخلد، فإن هذا المتن لم يروَ إلا بهذا الإسناد، ولا أخرجه ما عدا البخارى. (انتهى كلام الذهبى).
قال ابن حجر: وإطلاق أنه لم يرو هذا المتن إلا بهذا الإسناد مردود، ومع ذلك فشريك شيخ خالد فيه، فقال أيضًا: وهو راوى حديث المعراج الذى زاد فيه ونقص وقدم وأخر.
وللحديث طرق أخرى يدل مجموعها على أن له أصلاً. اهـ (١١/ ٣٤١) فتح، والله أعلم.

وقال ﷺ: «لعن الله آكل الربا وموكله والشاهد عليه والقاضى به وبائعه ومشتريه»[1].

وقال ﷺ: «رأيتُ ليلة أسرى بى أقوامًا بطونهم كالبيوت، كلما نهضوا سقطوا؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: أكلة الربا والسحت. ورأيت رجالاً بإزائهم لحم نضيج طيب وهم يأكلون لحمًا خبيثًا منتنًا؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: أولئك رجال يقومون من الليل عن نسائهم من الحلال الطيب فيذهبون إلى نساء خبيثات فيبيتون معهن. ثم رأيت رجالاً لهم أظافر من حديد يخمشون بها جنوبهم ثم يأكلون من لحومهم؛ فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ فقال: هؤلاء المغتابون. ثم رأيت رجلاً ورجلٌ قائم عليه بفهر[2] يشدخ به رأسه، فإذا تدهده الفهر فذهب الرجل ليأخذه رجع الرأس إلى هيئته؛ فيرجع إليه فيشدخه به، فهما كذلك؛ فقلت له: من هذا يا جبريل؟ قال: ذلك رجل يقرأ القرآن ولا يقوم به من الليل فإنه يفعل به كذلك إلى يوم القيامة. ورأيت نساء معلقات بثديهن وهن يضربن بسياط من نار؛ فقلت: ما بالهن يا جبريل؟ فقال: تلك نساء يوطئن فُرش أزواجهن من يكرهون، وفي رواية: يدخلن على أزواجهن ما ليس من أهلهم». إلى غير ذلك من تجليات الملكوت مما أُريه ليلة الإسراء.

ولما حرم الله الربا قال مشركو مكة: لم حرم محمد الربا وإنما البيع مثله؟ فأنزل الله تكذيبًا لهم وردًا عليه فقال تعالى: ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]، فالربا من حيث هو ربا.

والربا على قسمين: جاهلى وإسلامى:

أما الجاهلى: فكان الرجل يسلم للرجل أو يداينه، فإذا حل الأجل يلزمه فيقول له: إما أن يقضيه ناجزًا، وإما أن يزيد له فى الثمن إلى أجل آخر يصطلحان عليه،

---

(١) حديث «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهديه، وقال: هم سواء» (٥/ ٥٠) مسلم، كما رواه الطبرانى بلفظ آخر، وعنه السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن وزاد فيه، قال المناوى شارحه: قال الحاكم: على شرط مسلم، وأقره الذهبى وقال: إسناده صحيح (٥/ ٢٦٩)، والله أعلم.

(٢) الفهر: الحجر.

وكان قد علما قدر الزيادة.

وأما الربا الإسلامى: فهو على قسمين: ربا فضل، وربا نساء، وكل ذلك يشمله حديثه الصحيح المخرج فى الصحاح كلها بأسانيد جمة وروايات مختلفة، وهو قوله ﷺ: «الذهب بالذهب ربا إلا يدًا بيد مثلاً بمثل، والورق بالورق ربا إلا مثلاً بمثل يدًا بيد، والبُرُّ بالبر ربا إلا مثلاً بمثل يدًا بيد، والتمر بالتمر ربا إلا مثلاً بمثل يدًا بيد، واللحم باللحم ربا إلا مثلاً بمثل يدًا بيد، والملح بالملح ربا إلا مثلاً بمثل يدًا بيد».

وفى رواية: «الذهب بالذهب ربا إلا هاء وهاء، والورق بالورق ربا إلا هاء وهاء، والبر بالبر ربا إلا هاء وهاء، والتمر بالتمر ربا إلا هاء وهاء، واللحم باللحم ربا إلا هاء وهاء، والملح بالملح ربا إلا هاء وهاء، فمن زاد أو استزاد فقد أربى»(١).

ويشمل قوله ﷺ: «الذهب بالذهب والورق بالورق» المعادن النفيسة كلها كالرصاص والنحاس والقزدير والحديد. ويشمل قوله: «البر بالبر» جميع أنواع الحبوب والقطانى مما يقتات ويدخر. ويشمل قوله: «التمر بالتمر» جميع الثمار والعسول. ويشمل قوله: «اللحم باللحم» جميع الدسومات، ويدخل فى ذلك الزيت بأنواعه والسمن والأقط واللبن والودك وإن اختلفت أجناسه، ويدخل فى ذلك الجلد والعظم والمخ والنخاع. ويشمل قوله: «الملح» جمع المعادن المتغيرة من جنس التراب بملوحة أو مرارة أو حموضة كالشب والزرنيخ والنطرون والكبريت.

فالفضل: الزيادة عددًا أو حالاً بين الأجناس المتحدة، فإذا اختلفت الأجناس فلا بأس بالزيادة كإسلامك مُدَّى دخن بمد شعير لا مدى شعير بمد قمح لاتحاد الجنس ولو كان القمح أجود، لكن الطعام وإن اختلفت أجناسه فإنه لابد فيه من المناجزة، وإذا تباينت الأجناس جاز الفضل والنسيئة كسلمك جملاً أو ثوبًا بعشرين دينارًا إلى أجل، أو بيعك طعامًا بمائة دينار إلى شهر أو نحوه.

---

(١) حديث «الذهب بالذهب ربا»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما، وهما كما قال الشيخ مروى بأسانيد جمة روايات كثيرة، وليس اللحم من المتفق على صحته، والله أعلم.

والنسيئة: التأخير.

ومن البيوع ما هو فاسد من غير أن يكون ربويًا، وقد نص الشارع عليه بقوله: «لا يجوز البيع إلا بأجل معلوم وثمن معلوم وقَدر معلوم». فيدخل فى ذلك وجوب العلم بالمثْمُون والقدرة عليه؛ فلا يكون مجهول العين ولا العدد كالجنين والمغيب فى سلة ونحوها، والثوب الذى لا ينشر، وبيع الليل إلا ما يعلم من اللمس أو الذوق، وبيع العربان، أو على منتهى الحصاة، وسعر لم يعلمه، أو على ما باع به فلان كالمضامين والملاقيح والآبق والشارد وحيتان نهر وقدوم زيد لا الجذاذ وقدوم الحاج وطلوع الثريا، بخلاف رجوع العسكر وإبان المطر، وباقى مسائل البيع موكول إلى كتب الفقه المستقلة، وقد تركناها مخافة التطويل الممل.

قوله: ذا رباء، بالمد والفتح: أى حالة كونك صاحب فضل أى غنى. والجزى، بالكسر والقصر: جمع جزية، وهو ما تأخذه الولاة على الرعية من زكاة أموال المسلمين والمغرم وخمس الركاز وما يؤخذ على أهل الذمة. والجزاء، بالمد والفتح: ثواب الأعمال خيراً كان أو شراً.

قال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠].

وقال: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ [الإنسان: ١٢].

وقال: ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال: ﴿وَهَلْ نُجَازِى إِلاَّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧].

وتركيب معنى البيت فكأنه يقول: اجتنب أكل الربا فى حال كونك ذا فضل أى غنى، قال تعالى: ﴿وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِى الْقُرْبَىٰ﴾ [النور: ٢٢]، وهذا مما يفهمه قوله فى البيت الذى قبله:

* ولش القضى اختر إن دعاك قضاء *

فيكون هذا تأكيدًا لذلك المفهوم، ويسمى مفهومه تذييلاً.

قوله: وإن وليت جزى: أى جعلت واليًا على قبضها ممن تجب عليه، أو على جعلها فى مواضعها فوالِ العدل، أى تابعه والزمه ولا تحد عنه: بأن لا تأخذها إلا ممن تجب عليه بحسب الحال، ولا تدفعها إلا لمن يستحقها. قال ﷺ: «العدل إذا

دام عمر، والجور إذا دام دمر.

وليس للجباة والمفرقين إلا أجرة أمثالهم أو ما وضح لهم الإمام، كما فعل الرسول ﷺ بالذي جعله على زكاة قوم، وكان يهدى إليه لمكان من رسول الله ﷺ، فلما قدم على رسول الله ﷺ عزل جزءًا من المال فقال: هذا لي، وهذا من عملكم، فأخذ منه رسول الله ﷺ ما عزل ثم قال له: ليقعد أحدكم في بيت أمه فلينظر هل يهدى له بشيء؟!

ومعنى البيت بديهة: تورع في مأكلك فلا تأكل إلا طيبًا، واعدل فيما وليته يعظم جزاء أعمالك على قدر ذلك في الدار الآخرة. وقوله: «يُسْنَ: مضارع أسناه أي رفعه، وهو مبني لما لم يسم فاعله مجزوم بحذف آخره لكونه جواب الأمر.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٩٢ـ وحِجْلَى وحَجْلاءَ اجْتَنِبْ لَعِبًا بِهَا   فَمُعْطِي الإلَى إنْ ابطرتْهُ ألآءُ

فالحجلى، بالكسر والقصر: جمع حجلة، وهو طائر مرقم جميل يتخذه المترفون للهو، وهو من أضعف الطير طيرانًا وألينه عريكة لكونه لا يتسبع ولا يمتنع لضعفه. قال الشاعر:

ارحموا صبيتي الذين كأنهم   حجلى تدرج في المدكة أو تقع

وهي التي مثل الرواة بِزِرِّهَا خاتم رسول الله ﷺ، وهو قُرطمها، والقرطم شيء يعلو خياشيمها كأنه رقم وفيه نقط دقيقة كأنها وخز الإبر. والحجلاء، بالمد والفتح: الدابة البيضاء القوائم وسائر جسدها بخلاف ذلك. والإلى، بالكسر والقصر: مفرد النعمة، وجمعها آلاء. والألاء، بالفتح والمد: كل ما حسن منظره ومطعمه كشجر الدفلى[1]. والبطر: استعمال النعمة فيما يجر النقمة، أو التطاول بها على القرناء على وجه الفخر والازدراء والفرح بها بدون أداء واجبها، أو التكبر بها عن اتباع من أوجب الشرع اتباعه: من نبي أو ولي عالم عامل أو وال للحق موال. وحقيقة البطر الكبر والأشر، يقال: أبطرته النعم: إذا أطغته.

(١) الدفلى، بالفاء: شجر زهره كالورد الأحمر وحمله كالخروب.

فكأنه يقول اجتَنب اللعب بما يلهيك من الطير كالحجلى مثلاً، ومن النعم كالحجلاء مثلاً، فإن ذلك لا يجتمع مع شكر ما أنعم الله به عليك مما لا يحصى بل هو محض بطر بسببها؛ إذ لولاها لم يكن له لعب البتَّة؛ فالأولى به شغل خاطره بأداء شكرها الواجب عليه، المقتضى لدفع العذاب عنه، وإدامتها عليه، مع المزيد الموجب لزيادة الشكر وسرمدة الذكر، ولا يستطيع أداء شكرها إلا باستمداده من الله أن يتولى شكر ذلك عنه؛ إذ لم يكن في وسع الإنسان أداء ما هنالك؛ إذ توفيقك للشكر نعمة تقتضى منك مزيد الشكر، ولذلك قال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، فإذا كنا لا نقوم بشكر نعمة واحدة فكيف نقوم بشكر نعم لا تحصى؟! قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم:٣٤]، فإذا عجزنا عن مجرد الإحصاء فكيف نقوم بشكر الآلاء؟ تولى الله عنا ما هنالك، إذ هو القادر على ذلك.

ثم استعمل نشاطك الذى ربما دعاك إلى اللعب فى العمل بطاعة الله ونفع إخوانك من المسلمين، وتحصيل ما عسى أن يكون لك عونًا على طاعته وشكر نعمه الجسيمة؛ فإن النفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل. ولذلك خلق الله الحرف وجعلها فى طوق البشر ليتنافسوا فى تحصيلها وتكون شاغلة لهم عن الباطل.

قال الرسول ﷺ: «إن الله يحب العبد المحترف»(١).

وفى المثل: (قيمة الإنسان فيما يحسن).

ثم أنعم الله عليهم بالفاقات داعية لاستعمالهم الحرف فى تحصيل ضروريات الطبع؛ لأن الله خلق الإنسان مضطرًا إلى القوت، مفتقرًا إلى اللباس، محتاجًا إلى

---

(١) حديث: «إن الله يحب العبد المحترف» ضعيف جدًا رواه الطبرانى بلفظ: «إن الله يحب العبد المؤمن المحترف»، وعنه السيوطى تحت رقم ١٨٧٣ والحكيم، ورمز له بالضعف.

قال المناوى: قال الهيثمى: ضعيف. وقال ابن الجوزى: حديث لا يصح: وقال فى الميزان: أبو الربيع السمان ـ راويه ـ مضطرب الحديث. وقال الدارقطنى: متروك. وقال هشيم: كان يكذب. وقال السخاوى: لكن له شاهد (٢/ ٢٩١) فيض. قلت: فبان من هذه النقول أن أقل درجات هذا الحديث الضعف الشديد، والله أعلم.

النساء، محبًا للمال والبنين، ولا يمكن تحصيل شيء من ذلك إلا باستعمال الحرف، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ﴾ [الشورى:٢٧]؛ إذ من عباده من يسوقه إليه بسلاسل الامتنان، ومنهم من يسوقه إليه بسلاسل الامتحان.

وتشبيه أهل اللعب بشجر الدفلى لحسن ظواهرهم برونق النعم وقبح بواطنهم بشين البطر الذى هو من أعظم النقم.

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأعراف:٩٧، ٩٨]، فجعل الله اللعب سببًا لإتيان العذاب، أو لأن غالب أحوال من استوجب العذاب اللعب.

وقال تعالى فى ذم الدنيا وأهلها: ﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الحديد: ٢٠] فَصَدَّرَ تعالى باللعب لأنه داعية تلك الخصال المذمومة: من اللهو والزينة والتفاخر والتكاثر، فيكونون باللعب والبطر كالبهائم فى المروج الخضر، عرفنا الله نعمه بدوامها ولا عرفنا إياها بزوالها، آمين.

* * *

باب ما يقصر فيكسر ويمد باختلاف المعنى [1]

أى هذا الباب الذى يكسر أوله ويختلف آخره بالقصر والمد كما يختلف معناه فيجتمعان فى الكسر ويختلفان فى المعنى.

● **ثم قال رحمه الله:**

٩٤ ـ ورُبَّ حِمًى ضاق الحِماءُ به عِفًا فأقْفَرَ حَتَّى ليس فِيــهِ عِفَــاءُ

قول: رب قد تقدم بيانه. حمًى، بالكسر والقصر: المكان المحمى؛ ومنه قوله ﷺ: «ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كان كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»[2].

والحماء، بالكسر والمد: المحاماة والممانعة. قال أبو طالب بن عبد المطلب: (من بحر الطويل)

ونحمى حماهــا يومَ كل كريهــة ونضرب عن أحجارها من يرومها

والعِفا، بالقصر: جمع عفْوة، بكسر العين، وهى الخيار من كل شىء، والعفوة الذى هو مفرد هذا الجمع جمع أيضًا مفرده: عفو، قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾ [البقرة:٢١٩]، والعفاء، بالكسر والمد: كل ما طال وكثف من الوبر والشعر وريش النعام.

قال زهير: (من بحر الوافر)

أذلكَ أم أقب البطن جأب عليه من عقيقته عِفَــاءُ

فكأن الناظم يقول: رب مكان محمى عن الناس ضاقت المحاماة والممانغة فيه

---

(١) قبل هذا الباب ترك الشيخ رحمه الله بيتًا لم يشرحه وهو:

٩٣ ـ ولاَ تهلك المعزى بمَعزاء واعتبر بذى فِرّى وذا فَراء فذاك وَفَــاءُ

(٢) حديث: «ومن ترك الشبهات فقد استبرأ لدينه»... إلخ. جزء من حديث متفق على صحته رواه الستة، وأوله عندهم: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهة»، وآخره: «يوشك أن يواقعه»، وهذا لفظ البخارى وهو عنده فى كتاب البيوع، والله أعلم.

لأجل خيار أمواله لكثرتها، أي لم تسمع المحاماة جميعها لإفراد كثرتها؛ فأقْفَر بعد ذلك المكان المحمي، أي صار خلاء من جميع ما كان فيه من دثر حتَّى من الشعر والوبر.

فحمى: مجرور برب لفظًا مرفوع بالابتداء، وجملة «ضاق» صفة له، وجملة «فأقفر» خبر عنه، وصدرتْ بالفاء لإبهام المبتدأ لكثرة دخول الفَاء عليه؛ فَأشبه الشرط لذلك.

وأتى بالبيت تنبيهًا على أن الدنيا وإن كثر حطامها فإنها سريعة الانقلاب وشيكة الذهاب مهيأة للخراب.

يروى أن سعد بن أبي وقَّاص الزهري أدرك الخرقة[1] بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة وهي عجوز كالشن البالي، وذلك مدة ولايته في العراق، فقال لها: ما أعجب الأشياء إليك أيام دولتكم؟ فقالت له: كثرة أصوات المجيبين إذا دعونا، وكثرة الثناء علينا إذا منحنا أو عفونا، وكنت كلما جلست تقوم حولي ألف وصيفة عليهن الحلي والديباج، وأرسل إلى ابني يوم أضحى ألف ثور واثني عشر ألف كبش، فظللت غَضبى عليه حتى أعددته عاقًا لقلة ما بعث به إلي من الأضاحي، فصاح بنا صائح الدهر، فأصبح يرحمنا من كان يغبطنا. فأجزل لها في العطية، فقالت له: لا جعل الله لك حاجة إلى لئيم، وإذا سلب من ذي نعمة نعمته جعلك الله سبب ردها عليه.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٩٥- وَكَمْ باللِّوَى مِنْ ذِي لِوَاءٍ وذو بِنًى ... عَلَيْـهِ لأَيْدِي الْحَـادِثاتِ بِنَـاءُ

فاللوى: يقال لما بين رمال عالج وبلاد نجد، وهو منقطع الرمال، ورمال عالج متصلة بأرض وبار التي سكنتها الجن بعد عاد، فلم يهتد إليها بعدهم أحد إلا

(١) لعل صاحبة القصة هند الكبرى بنت النعمان، والمحاورة التي كانت معها تمت بشكل آخر مغاير لهذه الرواية، ومع المغيرة بن شعبة أيام ولايته على العراق، والقصة التي أورد الشيخ تروى كذلك عن أم جعفر البرمكي، والله أعلم.

دُعَيْميص، فتركته الجن حتى توسط رمالها، فطمست عينيه؛ فهلك وهلك جميع من معه من العساكر والنجوع. ومن هذه الرمال يمتد حتى يدنو من الشام عن يمين السالك إلى إيلياء[١]، وأما من قصد البلقاء والتخوم فلا بد من قطع بعض هذه الرمال، وهذا الذى كان رسول الله ﷺ يضْرب به المثل فى قوله: «من سبح بعد كل صلاة ثلاثًا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله كتب له من الأجر عدد رمال عالج»[٢].

ومنه قول حسان: (من بحر الطويل)

دعوا فلجات الشام قَد حال دونها ... ضراب كأفواه المخاض العوارك[٣]

بأيدى رجال هاجروا نَحْوَ ربِّهم ... وأنصاره حقًا وأيدى الملائك

إذا سلكت للغور من بطن عالج ... فقولا لها ليس الطريق هنالك

أقمنا على رأس النجود كمائنًا ... بأرعن جرار عظيم المبارك[٤]

بكل كُمَيْت جوزه نصف خلقه ... وقُبٍّ طوال مشرفات الحوارك[٥]

ترى العرفج العامى تذرى أصوله ... مناسم أخفاف المطى الدواتك[٦]

فإن نَلق فى تطوافنا والتماسنا ... فرات بن حيانٍ يكن رهن هالك

وإن نلق قَيْسَ بن امرئ القيس بعده ... يُزَدْ فى سوادٍ لونه لون حالك

---

(١) إيلياء: بيت المقدس.

(٢) حديث: «من سبح بعد كل صلاة»... إلخ. صحيح رواه مسلم بلفظ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين وحمد ثلاثًا وثلاثين وكبر ثلاثًا وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر»، والله أعلم.

(٣) العوارك: جمع عارك: المرأة الحائض. ولا يتم المعنى بهذه الرواية، وفى السيرة لابن هشام: المخاض الأوارك بدل العوارك، وهو الصحيح، ومعنى الأوارك جمع أورك وهو العظيم.

(٤) البيت حسب رواية ابن هشام هو:

أقمنا على الرس النزوع ثمانيًا ... بأرعن جرار عريض المبارك

والأرعن: الجبل الطويل. والرس: البئر القديمة. والنزوع: القريبة القعر.

(٥) الحوارك: جمع حارك، وهو أعلى الكاهل. وجوزه: وسطه.

(٦) العرفج: نبت معروف، والعامى منه الذى له سند أو هو الطويل.

وأبلغ أبا سفيان عنى رسـالة فإنك من غر الرجال الصعالك

واللواء، بالمد والكسر: كل ما استطال من الأعلام، وإذا كان مربعًا يقال له الراية، ولم تكن فى قديم الزمان، وإنما ابتدأها شداد بن عاد، فهو أول من اتخذ الرايات والألوية، فإذا بلغ الجيش ألفًا اتخذ اللواء، وإذا كان الألف إنما يتخذ رئيسهم الراية، وإنما يحمل اللواء السيد الكريم المقدام الشجاع البطل، ولا يكون إلا فى معظم الجيش، فهو الذى يقودهم إلى الحرب، ويفيئون إليه عند الكر والفر، وقلما قتل صاحب الراية إلا انهزم جيشه إلا ما كان من يوم أحد ويوم اليمامة: أما يوم أحد فإنهم خالفوا أمر رسول الله ﷺ طلبًا للغنيمة، فأدبهم الله بتلك الهزيمة حتى أصابهم ما أصابهم من التمحيص. وأما يوم اليمامة فإن البلاء كان يأتى الناس من قبل الأعراب، وكانوا معظم الجيش، وكانوا ينهزمون؛ فينهزم أهل السوابق والنيات، ويثبت أهل الرايات؛ فيقتلون.

فلما طال ذلك على أصحاب محمد ﷺ تنادوا: أخلصونا؛ فأخلصوا لا يخالطهم غيرهم. وانعزلت الأعراب جانبًا، فباشروا الموت الناقع رضى الله عنهم مخافة أن يؤتى الإسلام من قبلهم، فاستشهد من المسلمين ألف ومائتان، سبعمائة منهم حملة القرآن، واستؤصل أصحاب الألوية رضى الله عنهم، فمات زيد بن الخطاب، وكان صاحب لواء المهاجرين، ثم أخذه سالم مولى أبى حذيفة، فقيل له: لا يؤتى الجيش من قبلك فإن هلاك الجيش وفلاحه إنما هو بلوائه، فقال لهم: بئس حامل القرآن أنا إن أتى المسلمون من قبلى، فحفر لرجليه إلى أنصاف ساقيه، فلم يبرح مكانه حتى قتل رضى الله عنه. وكذلك بِشر بن الحارث الأنصارى وأبو دجانة وقيس بن شماس فى سبعين رجلاً من الأنصار.

وأول لواء عقَده رسول الله ﷺ فى الإسلام عقده لأبى عبيدة بن الجراح، وبعض العلماء يزعم أنه بعثه حين قدم من غزوة الأبواء قبل بلوغه المدينة، وأنه بعث فى مقدمه المدينة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من ناحية العيص[1] فى ثلاثين راكبًا من المهاجرين، فلقى أبا جهل بذلك الساحل فى ثلاثمائة راكب من أهل مكة، فحجز بينهم مجزى بن عمر الجهنى، وكان موادعًا للفريقين،

(١) العيص: قرية صغيرة قرب ينبع النخل.

فانصرف بعض القوم عن بعض ولم يكن بينهم قتال. وبعض الناس يقول: كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ لأحد من المسلمين، وذلك أنَّ بعثه وبعث أبي عبيدة كانا معًا؛ فاشتبه ذلك على الناس، وقد زعموا أن حمزة قال في ذلك شعرًا يذكر فيه أن رايته أول راية عقدها رسول الله ﷺ، فإن كان حمزة قال ذلك فقد صدق إن شاء الله؛ إذ لم يكن له أن يقول إلا حقًا، والشعر المروى عنه هو: (من بحر الطويل)

ألا يا لقومى للحلم والجهل ... وللنقص من رأى الرجال وللعقلِ[1]

وللراكبينَ بالمظالم لم تطأ ... لهم حرمات من سوام ولا أهلِ

كأنا نَبلناهم ولا نَبل عندنَا ... لهم غير أمر بالعفاف وبالعدل

وأمر بإسلام فلا يقبلونه ... وينزل منهم مثْلُ منزلة الهزلِ

فما برحوا حتى انتدبت بغارة ... لهم حيث حلوا أبتغى راحة الفصلِ

بأمر رسول الله أول خَافق ... عليه لواء لم يكن لاح من قبلى

لواء لديه النصر من ذى كرامة ... إله عزيز فعله أفضلُ الفعلِ

عشية ساروا حاشدين وكلنا ... مراجلهُ من غيظ أصحابه تغلى

فلما تراءينا أناخوا وعقلوا ... مطايا وعقلنا مدى عرض النَّبلِ

فقلنا لهم حبل الإله نصيرنا ... وليس لكم إلا الضلالةُ من حَبْلِ

فثار أبو جهلٍ هنالك باغيًا ... فَخاب ورد الله كيد أبى جَهْلِ

وما نحن إلا فى ثلاثين راكبًا ... وهم مائتان بعد واحدة فَضْلِ

فيا لقصى لا تطيعوا غواتكم ... وفيئوا إلى الإسلام والمنهج السهْلِ

فإنى أخاف أن يصبَّ عليكمُ ... عذابٌ فتدعوا بالندامة والثُّكْلِ

واللواء من حيث هو لواء لا بد له من حامل، وحماة يماثلون حامله أو يدانونه، وفى ذلك يقول ضرار بن الخطاب:

(١) الشطر الأول من هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا.

يا نبيَّ الهدى إليك لجاجى قريش ولاتَ حينَ لجـــاءِ
حين ضاقت عليهم وسعة الأرْ ضِ وعـــاداهمُ إله السمـاءِ
والتقت حَلْقتا البطان على القو م ونودوا بالصيلم الصلعـاءِ
إن سعدًا يريد قَاصمةَ الظهـ ـر بأهلِ الحَجـون والبْطحَاءِ
خزرجىٌّ لو يستطيـع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعَـــوَّاءِ
فلئن أقحم اللـــواءَ ونَادى يا حمـاةَ اللواءِ أهلَ اللوَاءِ
لتكونَنَّ بالبطحـــــاء قريشٌ فقعـة القاع فى أكف الإماءِ

وكان لا يوصف بحمل اللواء حقيقةً أو مجازاً إلا الكريم المنتخب. قال الرسول ﷺ: «حامل القرآن حامل لواء المسلمين؛ فلا ينبغى له أن يغفل مع من يغفل، ولا أن يجهل مع من يجهل»[(١)].

وفى المسانيد المعتبرة عنه ﷺ أنه قال: «أنا قائد الأنبياء والرسل يوم القيامة، ولواء الحمد بيدى، آدمُ ومن دونه من الأنبياء فى ظل لوائى يوم القيامة. فقيل له: ما معنى لواء الحمد يا رسول الله؟ قال: أقُوم مقامًا يوم القيامة يحمدنى فيه الأولون والآخرون ويغبطنى به الأنبياء والمرسلون، فإذا قمتُه أتانى جبريل فى ملأٍ من الملائكة يحمل لواء الحمد بيده، فيجعل قائمه بيدى، ثم ينشره على رأسى، ثم ينادى مناد فى عرصات المحشر: أن هلموا معاشر الأنبياء والمرسلين والشهداء والصديقين فاستظلوا بظل لواء سيدكم وسيد الملائكة المقربين، فتخفق له سبعون ألف ذؤابة، تحت كل ذؤابة أمة من الصالحين، وقد نصب لى كرسى من النور، ونصب للأنبياء حولى كراسى بعضها من ياقوت وبعضها من زمرد وبعضها من ذهب، وأبو بكر عن يمينى، وعمر عن شمال، وعلى بن أبى طالب بين يدى،

---

(١) حديث: «حامل القرآن حامل لواء المسلمين»... إلخ. لم أجده بهذا اللفظ، غير أن الديْلمى فى مسنده أخرج قريبًا منه بلفظ: «حامل القرآن حامل راية الإسلام، من أكرمه فقد أكرم الله ومن أهانه فعليه لعنة الله». وعنه السيوطى فى جامعه ورمز له بالضعف، قال المناوى: وفيه محمد بن يوسف، قال الذهبى فى الضعفاء له: قال ابن عدى: اتهم بالوضع (٣/ ٣٦٨) فيض.
وأورده الألبانى فى موضوعاته وقال: موضوع تحت رقم (٣٦٨)، كما أخرجه السيوطى فى الأحاديث الموضوعة له ص٢٣ ورقم ١١٦، والله أعلم.

وابن عفان بين كتفي، ثم يأمرني ربي فأخطب فيهم، فيلهمني ويفتح على من الثناء الجميل عليه والحمد له ما لم يفتح عليَّ قبل ذلك وما لم يفتح على أحد من قبلي ولا من بعدي، ثم بعد ذلك تكثر الألوية، فيؤتى كل رسول وكل نبي بلواء، ثم يؤتى كل إمام من أئمة هذه الأمة بلواء، فإن كان من أئمة الحق والعدل والهدى أوتي لواء من سندس الجنة أبيض يغشاه نور الهداية، فيذهب به حتى يقوم بين يدي الله، فيخاطبه، ويبشره، ثم يأمر ملائكته فيتوجونه بتاج الكرامة، ثم ينادي على رأسه: ألا إن فلانًا سعد سعادة لا شقاوة بعدها، ثم يبشره الله برضوانه، ويقول له: ارجع إلى أصحابك وبشرهم بأن لكل واحد منهم مثل ما لك من الأجر والثواب وعلو المنزلة، وإني عنهم راض، فينصرف إلى أصحابه وقد صار وجهه كالكوكب الدري، فيقولون: اللهم بارك لنا في القادم علينا، يعنونه، فيقول لهم: أبشروا إن الله يقول لكم: إن لكل واحد منكم مالي من الأجر والثواب وعلو المنزلة، وإنه عنكم راض، فتكسى وجوههم نضرة وسرورًا، ويزدادون بقوله فرحًا وحبورًا، وأما أئمة الضلالة فيعطون أولوية سودًا من مسوح النار، ثم يقادون إلى حضرة الله تارة تأخذ الزبانية بنواصيهم وتارة تأخذ بأقدامهم، حتى إذا أوقفوهم بين يدي الله فيقول تبارك وتعالى للزبانية: قفوهم إنهم مسئول، ويوقفون مدة بغير جواب، فلهم أذل من الذر[١]، ثم يسألون سؤال توبيخ وتعنيت يتتعتعون[٢] ويتتلتلون[٣]، ثم ينادي على كل واحد منهم: ألا إن فلانًا شقي شقاوة لا سعادة بعدها؛ فيسود وجهه، وتزرق عيناه، ويطمس أنفه، ثم يجعل على رأسه تاج الخذلان والخزي والهوان، ثم يقول الله: ارجع إلى أصحابك وأتباعك، فسحقًا لك ولهم، وبشرهم أني عليهم غضبان، وأن لهم من العذاب الأليم والهوان المقيم مالك؛ فيرجع إليهم، فإذا رأوه مقبلاً قالوا. اللهم لا تبارك في هذا المقبل، فلبئسما حملنا عليه، ولبئسما أتانا به؛ فيقول لهم: بعدًا وسحقًا؛ فإن لكل واحد منكم مثل ما لي من العذاب الأليم والهوان المقيم». انظر البحر المحيط عند قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١].

(١) الذر: النمل الصغير جدًا، أو هو كائنات أصغر لا تكاد العين تراها.
(٢) يتتعتعون: يتلجلجون ويترددون في الكلام.
(٣) يتتلتلون: كذا في الأصلين، وهو قريب من معنى الأول.

والبنى، بالقصر والكسر: جمع بنية، بكسر الباء وقد يضم: ما بنيته. والبناء، بالمد: المبنى.

فكأنه يقول: كثير من صاحبة راية كالأمير فى منقطع الرمل، أى مدفون فى التراب، وكثير من صاحب أبنية ومصانع كالقصور والمنارات فى حال كونه عليه بناء بأيدى الحادثات، أى هالك مع الهالكين، غير ممتنع بما بناه مما صار لسواه من بعد رداه.

فكم: مبتدأ، وباللوى: خبره، والباء بمعنى «فى». و«من ذى لواء» نَعْتٌ لكم. وذى بِنىً: معطوف. وجملة «عليه بأيدى الحادثات»: حال من الضمير المستتر فى الخبر، أى: كم من شريف كان مولى اللواء فى حال كونه عليه بأيدى الحادثات بناء.

فكأنه يقول: لو أغنت العساكر والحشود والمصانع والنهود فى دفع الموت عن حى موجود لدفعتها عن المنذر بن عاد صاحب القصر المشيد، فلما ولى وطغى وتجبر، ونسى الموت، ودوخ الأرض مشارقها ومغاربها، ولم يعارضه أحد إلا غلبه، حتى ملك ما بين الصين إلى البحر المحيط من جهة المغرب، فأقام بالمغرب عشرين عامًا مشتغلاً ببناء المدائن والقصور، ثم توجه راجعًا إلى اليمن، فكره أن يرجع إلى العمران من غير أن يبنى بناء بأرض فيحاء يمنعه من الموت ويحرسه من الفوت، فحشر المهندسين وأرباب التنجيم وحذاق الدهاقين، وأمر وزراءه فى أطراف البلاد وجميع المعمور أن يجبوا إليه أنواع اليواقيت والدرر والأحجار النفيسة والعقيان والزمرد والبلور وحجر المها، فبنى القصر المشيد وأكمله، فلم يدع دُرًا ولا ياقوتًا ولا ذهبًا إلا وأفرش به أرضه وجدره، ورصعه كله بأنواع الجواهر والعقيان، وبسط أرضه بالمرمر والرخام والملون والبلور، وكان قد أعطى قوة أربعين رجلاً، فكان يلوى الحديد، ويصيح بالأسد فيقع ميتًا، وطال عمره حتى كثرت ذريته، وتمردت فى الأرض، وطغت، وبغت. فلما كبرت سنه أراد أن يمتنع من الموت فى القصر المشيد؛ فبنى خارجه كله بالحديد المصقول وحجر المها المصقول، فكان ذلك الحديد المصقول يرمى بشرر النار فى النهار، والحجر يرمى بشرر النار فى الليل؛ فيحرق كل ما قرب منه على أربعين ميلاً، واتخذ له مدخلا تحت الأرض وأجرى

فيه الماء بلا حركات، فلا يدخله أحد حتى تزول حركاته ويجف ماؤه، وقال هو ووزراؤه: من أشد منا قوة؟ فأجابهم القضاء والقدر[1] بقوله تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥]، وكتب على بابه: أنا الملك الأخضر،؟ أنا المنذر الذى لا أخشى الموت ولا أخاف الفوت، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم؛ فأصبحت ديارهم خالية، وقصورهم خاوية، لا يسمع فيها غير أصوات الجن المنكرة بعد القوة الراسية.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

هو الحمام فلا تبعد زيارته ... ولا تقل ليتنى منه على حذر
يا ويح من غره دهر فَسُرَّ به ... لم يخلص الصفو إلا شيبَ بالكدر
فانظر لمن باد تنظر آيةً عجبًا ... وعبرةً لذوى الأفْهام والفكر
بادوا فعادوا حديثًا إن ذا عجب ... ما أوضح الرشد لولا شىء النظرِ
تنافس النَّاسُ فى الدنيا وقد علموا ... أن المُقَام بها كاللمح بالبصرِ
فخل عن زَمن تُخْشَى عواقبه ... إن الزمان إذا فكرتَ ذو غير
واعمل لأخراك لا تبخل بمكرمة ... ومهد العذر ليس العين كالأثر

انتهى.

فالمشيد هو المجصص المعلى المزخرف.

وفى البيت من البديع الاقتباس، وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨، ١٢٩].

* * *

(١) قصة هذا البناية العجيبة لا صحة لها إطلاقًا؛ لعدم ثبوتها نقلاً مع أن كثيرًا من المفسرين أوردها، والله أعلم.

● **ثم قال رحمه الله:**

٩٦ - وكَـانَ ثِنًا يَثْنِى الثَّناءُ بِسيبه   قِنًا ولَديْه فى الحُروبِ قِنَاءُ

قوله: وكان، أى ذلك الذى باللوى، وعليه بأيدى الحادثات بناء مشيد عظيم المنزلة مواليًا للسيد الأعلى كالخليفة مثلاً، وصفة الثِّنا أنه يثنى أى يرد الثناء، أى عقال العدم، والثناء: عقل البعير من يديه جميعًا عن قصده. بسيبه: أى عطائه، وكان أيضًا قِنًا: أى مرضى الأحوال. وكأن هذا البيت متضمن معنى البيت الذى قبله وهو نوع من البديع.

قوله: ولديه: أى عنده رماح فى الحروب لكثرة أعوانه وأنصاره وأتباعه، أى أهل قِناء يحمدونه، فلم ينفعه شىء من ذلك فى دفع الحادثات التى بنت عليه بناء بأيديها. فجملة «وكان ثنا»: حال كجملة «ولديه فى الحروب قناء»، الأولى حال من ضمير الجملة التى قبلها وهو ضمير الاستقرار محذوف، ويصح أن يكون من الضمير الذى اشتملت عليه وهو مجرور بعلى، والثانية من «ثِنًا»، وأما قِنًا فيصح أن يكون خبرًا بعد خبر، ويصح فيه أن يكون حالاً من الخبر، فالثنا، بالكسر والقصر: السيد الذى يلى السيد الأعلى. والثناء، بالمد والكسر: العقَال من اليدين. والقنا، بالقصر: مصدر قنى الرجل: إذا ارتضيت أحواله وأقواله. والقناء، بالمد: جمع قناة، وهى العوالى التى تُجعل عليها الألوية، ويقال لها أيضًا: الحراب.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فما منعت دار ولا عز أهلها   من النَّاس إلا بالقنا والقنابل[1]

وهى التى يجعلون على جرابها أغشية وعلى أواخرها الزجاج[2].

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يعص أطراف الزجاج فإنه   يطيع العـوالى ركبت كل لهزم

وكان من عادة العرب إذا لقيت خيل خيلاً وأرادوا الصلح قلبوا عنهم الحراب

---

(١) القنابل: الطائفة من الناس أو الخيل.

(٢) الزجاج ـ بالكسر ـ: الحديدة التى فى أسفل الرمح.

ومدوا إليهم الزجاج، وإن أبوا قلبوا إليهم رءوس العوالى فوقعت المناجزة أو المحاجزة.

وفى المثل: «المناجزة تورث المحاجزة».

وفى البيت تلميح بالحث على إكساب المعدم وسد الفاقة، وذلك يقتضى التلويح إلى قول خديجة رضى الله عنها للنبى ﷺ لما فاجأه الوحى فأقبل إليها ترجف بوادره من الجزع، فقال لها: زَملونى زَملونى؛ فقالت: مالك؟ فقال: إنى أخاف أن يكون قد أصابنى لمم من الجن فقالت له: كلا، لا يخزيك الله؛ إنك لتصل الرحم، وتكرم الضيف، وتحمل الكَل[1]، وتكسب المعدوم - وفى رواية: المعدم - وتعين على نوائب الحق، تعنى أن من جعله الله على هذه الخصال الكريمة لم يكن الله ليخزيه بلمم الجن، وإنما الشياطين على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون.

ثم قالت له: انظر، هل تراه الآن؟ فرفع طرفه إلى السماء فإذا جبريل عليه السلام بين السماء والأرض على كرسى من نور، فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٣] الآية. فأماطت الخمار عن رأسها فقالت له انظر هل تنحى أم هو فى مكانه؟ فقال: إنه قد غاب، فقالت له: أبشر يا بن عمى فإنه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى بن عمران.

وكانت امرأة حازمة ذات عقل وافر وذكاء، وكان عمها ورقة بن نوفل قد تنصر وقرأ الكتب القديمة، وكانت تسمع منه بعض ما يقول، ثم ذهبت به خديجة بنت خويلد إلى ورقة بن نوفل فقالت له: أى عم، اسمع من ابن أخيك ما يقول، فأخبره ﷺ بما رأى وما سمع، فقال له: اثبت يا بن أخى، والله إنه الناموس الأكبر الذى كان يأتى عيسى ابن مريم، ياليتنى كنت فيها جذعًا، ولئن أدركنى يومك لأنصرنك نصرًا مؤزرًا، يا ليتنى أكون حيًا حين يخرجك قومك. فقال له رسول الله ﷺ: أو مخرجى هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل بمثل ما جئت به إلا عودى، ثم جعل يقول[2]: (من بحر الوافر)

---

(١) الكل: المشقة.

(٢) هذه القصة ثابتة فى الصحيحين وغيرهما، إلى هذا الحد مع اختلاف فى بعض الألفاظ.

لججت وكنت فى الذكرى لجوجا ... لِهَمٍّ طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف ... فقد طال انتظارى يا خديجا
ببطن المكتبين على رجاء ... حديثك أن أرى منهُ خُروجا
بما خبرتنا من قول قِس ... من الرهبان أكره أن يعوجا
بأن محمدًا سيسود يومًا ... ويَخْصُمُ من يكون له حجيجًا
ويظهر فى البلاد ضياء نور ... يقيم به البرية أن تعوجا
فيلقى من يحاربه خسارًا ... ويلقى من يسالمه فلوجا[١]
فَيالَيْتنى إذا ما كان ذاكُمْ ... ولجت وكنت أولهم ولوجا
ولوجا فى الذى كرهت قريش ... ولو عجت بمكتها عجيجا
وأرجو بالذى كرهوا جميعا ... إلى ذى العرش إن سفلوا عروجا
وهل أمر السفاهة غير كفر ... بمن يختار من سَمَكَ البروجا
فإن يبقوا أَوَ ابْقَ تكن أمور ... يضج الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتًى سيلقى ... من الأقدار مُتْلِفةً خجوجا[٢]

وقال ورقة بن نوفل أيضًا فى ذلك، وهو مما رواه يونس بن بكير عن ابن إسحاق: (من بحر الطويل)

أَتُبْكِرُ أم أنت العشيةَ رائح ... وفى الصدر من إضمارك الحزنَ قادح
لفرقة قوم لا أحب فراقهم ... كأنك عنهم بعد يومين نازحُ
وأخبار صدق خَبَّرتْ عن محمد ... يخبرها عنهُ إذا غاب نَاصِحُ
فتلك التى وجهتِ يا خير حرة ... بغدر وبالبحرين حيث الصحاصِحُ
إلى سوق بصرى فالركاب التى غدتْ ... وهِىَّ من الأحمال قُعْسٌ دوالحُ
يخبرنا عن كل خير بعلمه ... وللحق أنوار بهن مفاتحُ

(١) الفلوج: الفوز والنصر.

(٢) الخجوج: الرياح الشديدة الملتفة فى مرورها.

بأن ابن عبد الله أحمدَ مرسلٌ إلى كل مَن ضمت عليه الأباطحُ
وظنى به أن سوف يبعث صادقًا كما أرسل العبدان هود وصالح
وموسى وإبراهيمُ حتى يرى له بهاء ومنشورٌ من الذكر واضحُ
ويتبعه حيا لؤىٍّ بنِ غالبٍ شبابهمُ والأشيبُون الجحاجحُ
فإن أبق حتى يدرك الناس يومه فإنى به مستبشر اللب فارح
وإلا فإنى يا خديجةُ فاعلمى عن ارضك فى الأرض العريضة سائحُ

فبان من هذا وغيره أن فى قوله تعالى: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] نبوته، وفى قَوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١] رسالته.

* * *

● **ثم قال رضى الله عنه:**

٩٧ ـ بَهيجُ الرِّدَى عَضْبُ الرِّداء مؤمَّلاً مِلاَهُ مِنَ الفعْلِ الجَميلِ مِلاَءُ

قوله: بهيج، أى الحسن. الردى، بالقصر: جمع رِدْية، بالكسر: وهى هيئة المرتدى، أى اللابس. الردى والرداء، بالمد هنا: السيف.

قالت الخنساء: (من بحر المتقارب)

وداهيةٍ جرها حازمٌ جعلت رداءك فيها خمارا

أى علوت رأسها بسيفك، كذا ذكره الناظم فى تفسير الأزهرى، والملى، بالقصر: جمع ملاة، بالكسر: وهى المدة، ويجوز فيها ضم الميم، فَجمعها حينئذ ملا، بالضم. والمؤمل: المرجو. والملاء، بالمد هنا: جمع ملأى مذكرها ملآن كغضبى وغضبان، فكأنه يقول: كأن من ذكر حسَّنَ هيئته لبسُه الردى. عضب الرداء: أى السيف مرجو الفضل، أوقَاتُه مملوءة من الفعل الحسن، فبهيج الردى كغضب الرداء: أخبار متعددة، وهكذا مؤملاً، ويصح فيه أن يكون حالاً من ضمير آخر بتقدير «هو».

فالبيت يقتضى التشمير وعمارة الأوقات بأفعال الخيرات: من ذكر وصلاة

وجهاد وبذل وتحسين هيئة وإرشاد. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [المزمل:٧] أى تقلبًا فى أفعال الخيرات: من تعليم جاهل، ورفعة خامل، وإرشاد ضال، ونفع معدم، ومواساة مغرم، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، ونوم ينشط للعبادة، وأكل ليتقوى عليها، وصوم ليكف نفسه عن مألوفاتها، وإفطار ليستجم[١]. فينبغى للإنسان أن يأتى من كل طاعة الله؛ لأن الله تبارك وتعالى خبأ رضوانه فى طاعته، فلعله يصادف رضوانه فى بعضها فيسعد السعادة. الأبدية كما خبأ اسمه الأعظم فى أسمائه، وكما خبأ الصلاة الوسطى[٢] فى الصلوات، وساعة الإجابة فى الجمعة، والأولياء فى عباده، وليلة القدر فى الليالى، وذلك كله بحسن النية وتصحيح العقد.

قال الرسول ﷺ: «لنوم العالم خير من عبادة الجاهل»[٣]؛ لأن العالم يعلم كيف ينام؛ فلا ينام إلا على طهارة، واستقبال قبلة، واستفراغ، وخفة، وذكر، وإقبال على الله بالكلية قائلاً: اللهم إنى وجهت وجهى إليك، وأسلمت أمرى بين يديك، وأسندت ظهرى إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت، وبنبيك الذى أرسلت، اللهم إن توفيتنى من نومى هذا فتوفنى على الإسلام، وإن أبقيتنى فأبقنى على الإيمان.

وفى رواية: «وإن أحييتنى».

وفى رواية: «اللهم اجعل نفسى نفسًا طيبة، تؤمن بلقائك، وترضى بقضائك، وتحب أهل طاعتك من أنبيائك وأوليائك. ثم قرأ القلاثل[٤]، وآية الكرسى، ولقد

---

(١) الظاهر أن الكلمة ليستجم أى ليستريح، راجعة للجميع آى لكل ما ذكر، وهى غير واضحة فى النسختين.

(٢) الصلاة الوسطى: هى صلاة العصر كما أخبر بذلك نبينا ﷺ يوم الخندق بقوله: «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر»... إلخ. وهذا الحديث ثابت لا مطعن فيه؛ وعلى ذلك فالصلاة الوسطى لم تخبأ.

(٣) حديث: «لنوم العالم خير من عبادة الجاهل»... إلخ. ضعيف جدًا، رواه البيهقى بلفظ: «نوم العالم عبادة، وصمته تسبيح، وعمله مضاعف، ودعاؤه مستجاب»، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٨٣٩، أما لفظ الشيخ فلم أجده.

(٤) القلاثل: لعل المراد: السور قليلة الآيات كالمعوذتين وقل هو الله أحد، والله أعلم.

جاءكم. فإن فعلت بعث الله إليك ملائكة يحرسونك ويكتبون لك من الأجر والثواب ما لا يحيط بعلمه إلا الله حتى تنتبه، فإذا انتبهت فليكن أول ما تقول: «الحمد لله الذى أحيانى بعد ما أماتنى وإليه النشور». ثم لتقل: «اللهم اهدنى لصالح الأعمال، واهد صالح الأعمال إلى، ووفقنى له، وأعنى عليه، ويسر على أسبابه، أنت المقدم وأنتَ المؤخر، وأنت الأول والآخر، والظاهر والباطن، وأنت بكل شىء عليم، لا يهدى للخير إلا أنت، يا أرحم الراحمين، ويا رب الطيبين، اللهم أغننى بفضلك، ولا تقابلنى بعدلك؛ فإن الفضل بيدك، وأنا البائس الضرير الفقير الخانع، من ذلت لك رقبته، وخضعت لعزتك نفسه، وانقادت لطاعتك ناصيته، وهملتْ من خوفك عبرته، فلا تطرده من واسع فضلك وأنت بغيته، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

٩٨ ـ وَكَمْ مِنْ حِذًى نَالَ العُفَاةَ حِذَاءَهُ ... وَبَيْنَ العِدَى مِنْهُ استَمَرَّ عِـدَاءُ

الحذى، بالقصر: جمع: حذوة، وهو ما يهبه الغانم من الغنيمة لمن احتذاه، وكانت العرب تعد عدم احتذاء المحتذى من الغنيمة لؤمًا، وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر البسيط)

لا يحتذى منْهم الحاذى إذا قدموا ... من غزو ناحيةٍ ولا يواسوه

والحذى أيضا جمع حذية، بالياء، وهى قطعة من لحم تقطع طولاً، والحذاء، بالمد: الإزاء، وهو من ظروف المكان. والعدى، بالكسر والقصر: جمع عدو، والعدى جمع الجمع، والعداء، بالمد: الموالاة فى الطعن والضرب والرشق بالسهام. والعفاة: جمع عاف، وهم طلاب المعروف كغاز وغزاة. فكم معناه الإخبار بالكثرة، وهى مبتدأ، خبره نال العفاة. ومن حِذى: تمييزٌ لكم. وحذاءه: ظرف لنال. وجملة «وبين العدى منه.. إلى آخره» حال من ضمير حذاءه وإن كان مضافا إليه؛ لأن المضاف وهو حذاء مثل الجزء من المضاف إليه فى عدم الانفكاك منه.

فكأنه يقول: كثر من المواهب من مغانمه حتى نال، أى استفاد، طلاب المعروف إزاءه، والحالة أنه استمر، أى ثبت واتصل، موالاة الطعن بين أعدائه فى حال كونه ذلك كائنًا منه.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

٩٩ ـ فَأَفْنَى الإنَى مِلْءُ الأوَانى إنَاؤُهُ   فَمَاتَ ولم يَنْفَعْ غِنًى وغِنَاءُ

الإنى، بالقصر هنا: أحد آناء الليل، وهى ساعته، فيقال لساعات الليل: آناء، كما يقال لساعات النهار أطراف، وتسمى أيضًا ساعات الليل زُلَفًا. والإناء، بالمد: واحد الأوانى. والغنى، بالقصر والكسر: ضد الفقر. والغناء، بالمد والكسر: رفع الصوت بالألحان .والفناء الإعدام، تقول فنى الشىء كرضى وأفناه غيره، تقول: شيخ فان: أى متغير لشدة هرمه. وملء الشىء، بالكسر: القدر الذى يملؤه كالشِّبْع، بالكسر: المقدار الذى يشبع، والشِّرْب: مقدار ما يروى من الماء. قال الله تعالى: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥] والفاء فى قوله: فَأَفنَى للترتيب اللفظى لا المعنوى.

وإناؤه: مبتدأ، وملء الأوانى: خبره، والجملة فى موضع نصب على الحال من فاعل أفنى، وهو ضمير «ذى لواء وذى بنًا» المعبر عنه على قصد التزهيد فى الدنيا وترك التنافس فيها؛ لأن صيرورتها للفناء، ولا يفْلح فيها إلا الزهاد.

فكأنه يقول: فأفنى مَنْ ذكر أزمنة، أى: أتى على آخرها، وإناؤه ملء الأوانى كلها، أى: ملأ إناؤه ملء الأوانى لسعة ذات يده وعظيم منته وفضله على الناس، فمات ولم ينفعه غناه ولا غناؤه، أى رفع الأصوات عنْده بالألحان لتطريبه، وذلك من شأن أهل الرفاهية؛ فإنهم هم الذين يفتنون بالقيان الملهيات من الجوارى المغنيات، مع أنها ليست فى شىء من الردى والفناء بمغنيات، ولا من قدر من الأقدار بمنجيات، بل هى حقيقة عين المرديات ونفس المصيبات. وأما قوله: «فأفنى الإنى» قال الأخفش عند قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ [الزمر:٩] أى طائع فى جميع ساعات الليل، واحدها: أنا وأنوا وأنًا. والزُّلَف: جمع زلفة، وهى

إحدى ساعات الليل؛ لأن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة، فى كل ساعة ألف نَفَس بالنفس المتوسط:

فأول ساعات النهار الشروق، ثم البكور، ثم الغداة، ثم الضحى، ثم الهاجرة، ثم الظهيرة، ثم الزوال، ثم القصر، ثم العصر، ثم الأصيل، ثم العشى، ثم الغروب؛ فهذه اثنتا عشرة ساعة للنهار.

وأما ساعات الليل: فأولها الشفقُ، ثم الغاسق، ثم العتمة، ثم السدفَةُ، ثم الجهمة، ثم الزلة، ثم الزلفة، وهى عند السحور وهى أفضل الساعات، ثم النزهة، ثم السحر، ثم الفجر، ثم الصبح، ثم الصباح، فهذه اثنتا عشرة ساعة لليل بالاستواء، فإذا زاد الليل نقصت من النهار وإذا زاد النهار نقصت من الليل؛ فتنتهى الزيادة إلى خمس عشرة، والنقصان إلى تسع ساعات.

وتختص الزلف فى الحقيقة دون الشريعة بثلاث ساعات قبل الفجر؛ ففيها يتجلى الحق سبحانه لقلوب عباده، فمن وجده نائمًا فهو محروم، ومن وجده يقظان فهو مكروم.

وفى الأسانيد المعتبرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا نام أحدكم فإن الشيطان يعقد على ناصيته ثلاث عقد، كلما أراد أن يستيقظ إلى الصلاة لوى الشيطان إحدى العقد ثم قال له: نم إن عليك ليلاً طويلاً، فإن ذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت عقدة، وإذا قام إلى الصلاة انحلت عقدهُ كلها؛ فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان»[1].

ويروى أن النبى ﷺ قيل له: إن فلانًا نام إلى الصبح، فقال: ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه[2].

لا جعل الله للشيطان إلينا سبيلاً.

---

(١) حديث: «إذا نام أحدكم». . . إلخ. متفق على صحته، رواه الشيخان والنسائى. البخارى (٣/ ٢٠) ومسلم (٧٧٦) والنسائى (٣/ ٢٠٣).
وأوله: «يعقد الشيطان على قافية أحدكم»، والله أعلم.

(٢) حديث: «ذاك رجل بال الشيطان فى أذنه» حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائى. البخارى (٣/ ٣١) ومسلم (١١٥٩) والنسائى (٣/ ٢٥٣)، والله أعلم.

● ثم قال رحمه الله تعالى، آمين:

١٠٠ ـ وَأَهْلَ الحِبَى زَانَ الحِبَاءُ وَلَمْ تزنْ لِحًى يَزْدَهِي أَحْلاَمَهُنَّ لِحَــاءُ

قوله: أهل الحبى: أرباب الحبى، بالقصر: جمع حِبوة، بالكسر: وهى هيئة المحتبى: وهو المدير على ظهره وساقيه عمامة أو ثوبًا، واسم تلك الشملة المدارة حُبوة، بالضم، وهى من الهيئات التى قد نهى عنها رسول الله ﷺ فى الصلاة. وقيل: نهى عنها مطلقا خوف التعرى، وإذا كان ﷺ نهى عنها خوف التعرى فإذا كان تحتها قميص أو إزار أو سراويل انتفت الحرمة وبقى النظر فى الكراهة. والحباءُ، بالمد: العطاء بلا مَنٍّ. ولحىً، بالقصر: جمع لِحية، بالكسر. واللحاء، بالمد: الملاحة، أى: المسابَبَة. والأحلام، جمع حلم، بالكسر: هى الأناة والعقل، ويجمع على حلوم أيضًا. والازدهاء هنا: الاستخفاف. وأهل الحبى: مفعول به لزان أى حَسَّن عَزْم الاهتمام.

والمعنى: زَان العطاء بلا مَنٍّ أهل الهيئات. وهم الذين يحتبون فى مجالسهم فى الأندية على هيئة مخصوصة، ولم تزن لحىً طويلة تستخف أناة أهلها وعقولَهم ملاحةٌ ومشاتمة.

ومفعول تزن محذوف أى أهلها؛ دل عليه «أهل الحباء»، أو هو مفعول له مقدر لتنزيله منزلة القاصر.

والمعنى: لم ينفع زين لِلحى موصوفة بما ذكر. والمقصود أنَّ الفضل يزين صاحبه من غير حلية وبدون جمال صورة، وحلية الجمال بطول اللحية وطول القامة وحسن الرونق وبياض الجسم من عدم الأناة والعقل لا يجدى؛ فكن مِنْ أهل الحبى والحلم لا من أهل اللحى الذين يستخفهم اللحاء، حتى تظفر بالزين وتأمَن من الشين.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فكم لحيةٍ طالت على ذقن جاهلٍ وما تحتها إلا الغباوةُ والجهلُ
وكم راكبٍ بغلاً عليهِ عِمامـةُ تأمَّـلْ تَرَى بغلاً على ظهـره بَغْلُ

قال على كرم الله وجهه: جمال الرجل فصاحة لسانه، وكماله ثبات جنانه،

وشرفه حسن فعاله، لا كثرة جماله، وحسبه كثرة أحبائه، لا حسب آبائه، وكرمه التقوى، لا التيه والهوى.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

١٠١ ـ فَأَحْسِنْ بِمُهْدًى زَانَ مِهْدَاءِ فِتْيَةً   وَمِقْرًى عَلاَ الْمِقْرَاءَ مِنْهُ بَهَاءُ

أحسن: أفعل تفضيل جيء به للتعجب منصوبة بمهدى، فهو فى قوة ما أحسن طبقاً، تقع فيه الهدايا زين فتى كثير الإهداء من فتية، وما أحسن مِقرى أى ظرفا معدًا لقرى الأضياف.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لنا الجفنات البيض يشرقن بالضحى   وأسيافنا يقطرن من نجـــدة دمًا

ولم تزل سادات العرب وأشرافها وملوكها تتباهى وتتنافس بعظم الجفان وحسنها جاهلية وإسلامًا.

قال لبيد بن الأعصم العامرى: (من مشطور الرجز)

نحن بنى أم البنين الأربعهْ

ونحن خير عامر وصعصعهْ

المالئين الجفنــة المقزعـــــهْ

والضاربين الهام تحت الخيضعهْ(١)

يا واهب الخير الكثير من سعهْ

نحن أتيناك من أرضٍ مسبعهْ

ولقد مدح الله سليمان بعظم جفانه وقدوره فقال: ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ (٢) [سبأ:١٣] فلما رأى سليمان ما آتاه الله من

(١) الخيضعة: أصوات القتال، أو الغبار فى المعركة.

(٢) الجوابى: البرك.

تسخير الرياح والطير والجن والإنس والشياطين والوحوش والدواب، وما هيأ له من الزرع والبساتين، وخرق الأنهار واستنباط المياه من الأرض والعيون، وكثرة من يجلس على موائده وجفانه، تاقت نفسه عليه السلام إلى ما هو أعظم وأشرف مما هو فيه رغبة في الأجر وإخلادًا للذكر ولتحصل له مزية لَمْ يعطها غيره من جميع ملوك البشر، وإنما حمله على ذلك توهم أنه لما سأل الله أن يعطيه ملكًا لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه طلب منه أن يجعل رزق خلقه على يديه سنة تامة ظنًا منه أن هذا من جنس ما سأل، فأوحى الله إليه، أنك لا تستطيع ذلك فطلب أن يجعله إليه شهرًا؛ فأوحى الله إليه أنك لن تستطيع ذلك، ولكنى أجعل ذلك إليك يومًا واحدًا، فإن استطعته فإنك قد أعطيت ما لم يعطه أحد قبلك ولن يعطاه أحد بعدك، وقد أمهلتك سنة كاملة تجمع قوت ذلك اليوم.

فجد سليمان عليه السلام؛ فأمر الجن والإنس بالبذر، وأمر الله السماء فأرخت ذيولها بالغيث، وأمر سليمان الطير والوحش والدواب بنقل الزروع والثمار والفواكه والبقول إلى الشط، وأمر العفاريت والسعالى والغيلان بصنعة القدور والجفان من غير تعطيل، وأمر من لا يصلح للزراعة بالطبخ والتخبيز والثرد، حتى جمع من ذلك ما لا يدخل تحت حصر حتى صار وكأنه الجبال الشامخات، فلما كان ذلك اليوم أخرج الله إلى تلك الزروع والثمار والفواكه والتين دابة من البحر، فلحست جميع ذلك بلسانها من غير أن يشبعها، فقالت له: يغفر الله لك يا سليمان، جعل الله إليك رزقى يومًا واحدًا فلم تشبعنى وأنت ملك الدنيا؟! وبقى سائر الخلق يومئذ بغير قوت. فسجد سليمان عليه السلام، فقال: رب تبت إليك من طلبى ما ليس من وسعى ولا تبلغه طاقتى، أنت الملك الحق، وأنا عبدك الضعيف المضطر إلى رحمتك، المُلْكُ ملكك، والعبد عبدك، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فأوحى الله إلى سليمان أنه لا يقدر على رزق خلقى غيرى؛ إذ لو كان فى الوجود رازق غيرى لكان شريكًا لى فى ملكى، تعاليت عن ذلك علوًا كبيرًا، أحيى الإنسان برزقه وأميته بأجله[1].

(١) هذه القصة من الإسرائيليات، ولم تصلنا بسند يوثق به.

قوله: «علا المقراء منه بهاء»: فعلا: فعل ماض. المقراء: مفعول به، وهو الكثير القرى. وبهاء: فاعل علا، والضمير المجرور عائد على المقرى، بالقصر: متعلق بعلا. والمهدى: الطبق الذى يهدى فيه إلى الملوك عند تزويج بناتهم وأخواتهم، ولا يقال له مهدى إلا إذا كانت فيه الهدية، وكثر استعماله حتى سمى به كل طبق يهدى فيه مطلقًا.

وفى كتاب الأغانى فى حكايات الأجواد وترجمة الدولة البرمكية أن رجلاً من الأزد قعد به دهرُه؛ فارتحل بأهله إلى الفضل بن يحى بن خالد بن برمك، فلما دنا من مدينته التى هو بها ترك أهله خارجها وأقبل إليه وعليه أطمار رثة، وإنما قصده ليكسوه ويعطيه ما يتقوت به هو وعياله، فوجده فى دَسْكَرَة[1] له وقد زوجت إحدى بناته فى ذلك اليوم وهو ينظر الهدايا على عادة الملوك، فالتفت إليه فقال له: كأنك غريب؟ قال: أجل، وإنما أخرجنى من بلدى وعشيرتى رجاء سيب الأمير، فتحملت بأهلى وعيالى حتى نزلت ساحته وبى من الفاقة ما يمنعنى من بيانه الحياء وإجلال الأمير.

فقال له الفضل بن يحيىٰ بن خالد: حسبك يا أعرابى، فلقد أحسنت، وستكفى مؤونة ما بينت.

فبينما هو يخاطبه إذ أتى الفضل بن يحيى بن خالد بطبق من در وياقوت، فقال: خذه يا أعرابى؛ فأراد القيام وقد أدهشه السرور، فقال له: على رسلك، ثم جيء بطبق من المسك الأذفر، فقال له: خذ يا أعرابى، فرام القيام، فقال له: على رسلك، ثم جيء بطبق من كافور، فقال له: دونك يا بدوى، فذهب لينوء فقال له: على رسلك، فجيء بأطباقٍ من ذهب وورق، فقال له: ضم الأطباق إليك يا أزدى، ثم جيء بأسفاطٍ من فاخر الثياب، فقال له. ضم إليك جميع ما ترى يا مذحجى.

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد: هل لك من أعوان على حمل هذه الأموال؟ قال: لا، أصلح الله الأمير، إنما هم صبية صغار؛ فأمر بعدد من العبيد،

---

(١) الدسكرة: القرية الصغيرة، وسبق تعريفها.

وأمرهم بحمل الأموال على الحمير والبغال إلى حومة من مدينة بها دور عالية وزروع وثمار وذخائر، وجعل يسايره حتى دخلها وحط بها ما معه من الأموال، فقال له الفضل بن يحيى بن خالد: إن جميع ما ترى قد أمسى ملكًا من أملاكك، وإن جميع ما فيه من العبيد والإماء والدواب والمواشى تابع لذلك فهذه الصلة وأنا العائذ، فهل وجدتنى عند ظنك؟

فقال: لو كان يتعاظم الملك بشيء لقلت: تقصر دون بذل هذا جميع قوى البشر، وإن أملى ليقصر دون النزر مما أسديت، لكن الأمير عاملنى على قدر منصبه وهمته لا على قدر أملى، ولقد دهشت عند أول الأطباق فضلاً عن سائر النوال، ولولا هيبة الأمير وما أنعشنى به الله من همته لصعقت، وحقيق بمن وجد فى دركات لظى ثم نقل فى ساعة زمنية إلى درجات جنة المأوى أن يصعق.

فقال له الفضل بن يحيى بن خالد وقد هَزَّهُ ما سمع: لله أبوك من عربى! ما أحسنَ خطابك وأكثر صوابك وأغزر آدابك!! والله لقد استوجبت علينا بحسن ثنائك ما لا تقوم بقيمته العطايا وإن جلت.

ولما وقع للرشيد ما أوغر صدره على البرامكة، خصوصًا الفضل بن يحيى بن خالد، فدبر لهم من المكائد ما قتل منهم بسببه ثلاثة آلاف من أشرافهم فى ليلة واحدة، ومن جملة المقتولين الفضل بن يحيى بن خالد، وكانوا قد سادوا الناس جودًا وكرمًا وبسالة وذكاء ودولة حتى كادوا يغلبون على الدولة العباسية، وقد عظموا فى قلوب العامة واستمالوها، فأوعد الرشيد من ذكرهم بخير، وقد وكل الرشيد أناسًا يستمعون ثناء الناس عليهم وما يقولون فى شأنهم، ووكل بقبر الفضل ابن يحيى بن خالد أمناء يَرون ولا يُرون.

فجاء الرجل المذكور بوهن من الليل إلى قبره، فبكى وانتحب، ثم أنشد يقول: (من بحر الوافر)

ألا يا نخلة من ذات عرق	عليك ورحمةُ الله السلامُ
أما والله لولا خوفُ واشٍ	وعينٌ للخليفة لا تَنَامُ
لطفنا حول جذعك واستلمنا	كما للناسِ بالحجر استلامُ

ولم أرَ قبل موتكَ يابن يحيى حسامًا فَلَّهُ السيفُ الحسامُ
على اللذاتِ والدنيا جميعًا ودولةُ آل برمكٍ السلامُ

فأخذه الوكلاء، فأتوا به الرشيد؛ فقال له: أما بلغك نهيى عن أن يذكر البرامك بخير؟! قال: بلى أيد الله أمير المؤمنين. قال: فما حملك على ما صنعت؟ قال: إحسانه إلى، وجودة نفسى، وكرم آبائى. فقال له الرشيد: ما بلغ من إحسانه إليك حتى خاطرت بنفسك؟ فأخبره بجميع ما جرى له معه؛ فقال: إنى أعطيك مثل ذلك ولا تعد إلى ذكرهم. ففعل الرشيد.

ثم أخذه الحراس بعد ذلك عند قبره يبكيه بقصيدة أخرى، فأتوا به إلى الرشيد، فقال له: ألم أحسن إليك مثل إحسانه ونهيتك عن ذكر الفضل بن يحيى وأهل بيته بخير؟! قال: قد فعلت يا أمير المؤمنين، ولكن إحسانك ذكرنى إحسانهم، فليقتلنى أمير المؤمنين؛ فما أرانى بمقلع عن ثنائهم؛ فأكون أول قتيل قتل على شكر النعمة؛ فقال له الرشيد: لله أبوك! فإنك لخليق أن تصطنع فولاه على ناحية، وأبَاحَ للناس ذكر البرامك بجميل صنيعهم.

وتركيب البيت هو أن هذا المهدى يزين المهداء، والمقرى يصير المقراء أبهى؛ فهو تعجب منه قصد منه بالهدية والقرى وكثرتهما الإغراء.

كما روى عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا تهادى الجيران وتواصلوا بورك عليهم وكانوا بعين الله، فنمت أموالهم، وحسنت أحوالهم، وذهبت الشحناء من صدورهم».

وقال ﷺ: «تهادوا تزدادوا حبًا»[1].

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا أتت الهـــديةُ بيتَ قومٍ تطايرت الفظاظةُ من كُوَاهَا

وفى حديث قدسى يرويه رسول الله ﷺ عن ربه: «وَجبت محبتى للمتباذلين

---

(١) حديث: «تهادوا تزدادوا حبًا» رواه العسكرى بزيادة: «وهاجروا تورثوا أبناءكم مجدا وأقيلوا الكرام عثراتهم».
وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٠٢٣ وله طرق وألفاظ كثيرة.

فىَّ، والمتواصلين فىَّ، والمتحابين فىَّ».

يروى أن سليمان عليه السلام جلس يومًا بشاطئ الفرات لتعرض عليه جنوده من الجن والإنس والشياطين، وأقبل الخلق إليه بالهدايا والتحف، فإذا هو بهدهدة تحمل جرادة بفيها، حتى إذا أقامت على رأسه ألقتها فى الماء، فقالت له: يا نبى الله أتيتك بهدية على قدرى لا على قدرك، فمن فاته اللحم لم تفته المرقة! فضحك سليمان من قولها، وفى ذلك أنشدوا فقالوا: (من بحر البسيط)

أتت سليمان يوم العرض هدهدةٌ ... أهدت إليه جرادا كــان فى فِيها

فأنشدت بلسان الحــال قائلةً ... إن الهدايا على مقــدار مُهـديها

لو كان يُهدى إلى الإنسان قيمتُـه ... ما كــان قيمتَكَ الدنيا ومــا فيها

ولم يزل التهادى شأن الكرام، ومن عوائد الملوك وسادات الأنام، وحكايات ذلك وأشعاره لا تحتمله هذه العجالة؛ فأعرضنا عنها من أجل ذلك طلبًا للاختصار.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٢ ـ وَمِقْلًى لِذِى الْمِقلاَءِ يُبْدِى حَسِيسَهُ
رِضًى وَيَسرّ الْمُحْسِنِينَ رِضَــاءُ

قوله: ومقلى: الواو: للعطف على مُهْدًى، والمِقلى، بالكسر والقصر: إناء القلى. والمقلاء، بالمد: العود الذى يضرب به الصبى. والرضى، بالقصر: ضد الغضب، والرضاء، بالمد: المراضاة وهى المعاملة بالرضى. والحسيس: صوت يختص بالنار وما فى معناها. قال الله تعالى: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠٢] بخلاف الحس، الحِسُّ بالكسر والفتح، فالحَس بالفتح خاص بالحيوان الحساس، والحس يطلق على كل ما له حس أى صوت، قال الله تعالى: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨]. وإنما عطفه على مهدى ليفهم من ذلك الإغراء به، فكأنه يقول: ما أحسن إناء قلى يظهر أزيزه ملهيًا به لأجل إرضائه بذلك الصبيان، ففى ذلك إحسان بالصبى، وملاطفة له، ومعاملة له على الرضى، ويسر

المحسنين المعاملة بالرضى فى عقباهم؛ ففى الكلام إغْراء بملاطفة الصبيان الصغار وتفريحهم والإحسان بذلك إليهم.

قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة بابًا يقال له باب الفرح لا يدخله إلا مَن يفرح الصبيان».

وقال ﷺ: «من كان له صبى فليتصابى معه».

وقال ﷺ: «ليس منا مَن لم يرحم الصغير، ويوقر الكبير، ويرق للبهيمة والمملوك»[(١)].

يروى أنَّ النبى ﷺ قال: «لما شُرح صدرى وغُسل رجعت وقد وجدت على الصغير مِن الرقة وعلى الكبير من الشفقة والتوقير ما لم أعهده قبل».

ويروى أن عيينة بن حصن الفزارى دخل على النبى ﷺ فوجده يقبل صبيًا، فقال له: أتقبل هذا يا محمد؟! لقد ولدت اثنى عشر ولدًا ذكرًا فما قبلت منهم واحدًا، فقال له رسول الله ﷺ: «تلك رحمة نزعها الله من قلبك»[(٢)].

وفى قوله عليه الصلاة والسلام: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[(٣)] أعظم شاهد على ذلك. ولقد كان الحسن يرتحله وهو فى الصلاة، فيثبت ساجدًا حتى ينزل. وحمل يومًا وهو فى الصلاة أمامة بنت أبى العاص بن الربيع وهو خَتَنُ رسول الله ﷺ، فكان كلما سجد وضعها، وكلما قام حملها، كما فى الصحيحين.

---

(١) حديث: «ليس منا من لم يرحم الصغير»... إلخ. رواه الترمذى وأبو يعلى والعسكرى بدون ذكر البهيمة والمملوك، وأورده السخاوى تحت رقم ٩٢٥ فى المقاصد له بلفظ: «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ومن لم يعرف لعالمنا حقه» وأورد له ألفاظا غير هذا، والله أعلم.

(٢) حديث: «تلك رحمة نزعها الله من قلبك» صحيح رواه البخارى بلفظ: «من لا يرحم لا يرحم» ورواه غيره بلفظ قريب من لفظ الشيخ، أما قصة عيينة ابن حصن الفزارى وكونه دخل على النبى ﷺ وهو يقبل ولدًا.. إلى آخر القصة فأعتقد أن هذا غير صحيح، والصحيح ـ إن شاء الله ـ أن القصة كانت مع الأقرع بن حابس لما رأى النبى ﷺ يقبل ولده الحسن فقال: إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم. هكذا روى البخارى فى كتاب الأدب.

أما قصة عيينة فهى أنه دخل على النبى ﷺ وعنده عائشة فقال: من هذه؟ وذلك قبل أن ينزل الحجاب، فقال: هذه عائشة، فقال: ألا أنزل لك عن أم البنين؟! فغضبت عائشة وقالت: من هذا؟ فقال ﷺ: هذا الأحمق المطاع. أورده ابن حجر فى الإصابة (٣/ ٥٥)، والله أعلم.

(٣) حديث: «يا أبا عمير ما فعل النغير»... إلخ. صحيح، وتقدم تخريجه.

• **قال رحمه الله تعالى:**

١٠٣ - وَحَاسِى الْقِرَى مِثْلُ الْقِرَاءِ حِيَاضُهُ
فَيَأْبَى الرِّوَى مِنْهَا ظَمًى وَرِوَاءُ

فالقرى، بالكسر والقصر: الماء المقرو أى المجموع فى الحياض، ماضيه قريت الماءَ أقريه قرى. وَحاسيه: الذى يشربه شيئًا بعد شىء يتحساهُ. والقراء، بالمد والكسر: جمع قروة، وهى ميلغة الكلب. والروى، بالقصر: مصدر روى، بالكسر: إذا شرب فأخذ حاجته. والرواء، بالمد هنا: جمع ريان، والظمأ، مهموز محرك: مصدر ظمئ كفرح فهو ظمئ كفرح، فالذى فى البيت يحتمل أن يكون مصدرًا أو اسم فاعل مسهل الهمز فيهمل، إلاَّ أنه على المصدرية يحتاج إلى تقدير مضاف أي: ذو ظمأ.

والمعنى: أن الذى يتحسى ماء الحياض شيئًا فشيئًا لؤمًا منه حياضُه مثل ميالغ الكلاب فى الاستقذار؛ فيعاف الارتواء منها استقذارًا لها أصحاب العطش وأصحاب الرى. والمقصود التحذير من الانتفاع بما فى أيدى اللئام، وذوى الهمم الدنيئة، والنفوس الساقطة الخسيسة، ورفع الهمة عن ذلك وإن دعت إليه الحاجة، وعلى حسبى رفع الهمم عَن الدنايا تعظم المزايا، وتتفاوت المقامات، وتتضح العلامات، وتنقشع الغمامات؛ فتتجلى الكرامات. وفى مثل هذا يقول الشاعر الأديب الكيِّس الأريب الحاذق الأديب: (من بحر الطويل)

وما كل برق لاح يستفزنى ... ولا كل مَنْ فى الأرض أرضاه مُنعما
إذا قيل هذا مشرب قلت قد أرى ... ولكنَّ نفسَ الحرِّ تحتمل الظما
أنهنهها عن بعض ما لا يشينها ... مخافةَ أقوال العدى فيمَ أولِمَا

وقال غيره: (من بحر الطويل)

دعونى ورأيى واختيارى فإننى ... جعلت عفافى فى البرية ديدنى
وأعظم مِن قطع اليدين على الفتى ... صنيعة بر نالها مِن يدى دَنى

وفى المثل: «صلة الكريم مغنم، وصلة اللئيم مغرم»، ومن ثم قال السيد المختار ابن السيد محمد الأمين الرقادى: (من بحر الكامل)

والمـــــال درعٌ للفتى ومهـــابةٌ ... ورِدًا لعرض الحر إن لم يرتدى
والمـال سيف صـــارم ومجنـةٌ ... وأسنة مهمـا تقـاتل تسعـدى
والمال فى أيدى الأفاضل روضةٌ ... كل وارع وانظر وافترش لك واحصدى
وإذا تراه لدى اللئـــام فميتـــةٌ ... بَيْنَ الكلاب متى تقاربَ تبعدى

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٤ ـ هِـداهُ أصَـارتْهُ هِـداءَ فرَأيُه ... جِرًى فى مَسَاعٍ قُبِّحَتْ وَجِرَاءُ

الهدى، بالقصر: جمع هِدية، بالكسر: وهى السيرة القبيحة، بخلاف الحسنة فإنها يقال لها: هَدْى.

قال الرسول ﷺ: «أفضل الهَدى هَدى محمد ﷺ، وأفضل الحديث كتاب الله، وأفضل ما قلت أنا والنبيّون مِن قبلى: لا إله إلا الله»[1].

والهداء، بالمد هنا: الرجل الهداء أى الأحمق الثقيل. والجرى، بالقصر والكسر: جمع جرية، وهى هيئة الجارى، وتطلق ويراد بها دم الحروب. قال الشاعر:

تخال جرية الأبطال فيها ... غداة الروع جاريًا مذوبا

والجرية أيضا: السفينة الصغيرة، والجرى أيضًا جمع جرو، وقد يمد. والجراء، بالمد: المجاراة، يقال: فرس لا يجارى، وزيد لا يجارى كرمًا، والمجاراة هنا إنما

---

(١) حديث: «أفضل الهدى هدى محمد ﷺ... إلخ» مؤلف من حديثين:
الأول: «أفضل الهدى»، وهو جزء من حديث طويل متفق على صحته، رواه الشيخان وابن ماجه وأوله: «كان ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته... إلخ» خ (٨/ ٥٣٠) و م (٨٦٧) وابن ماجه (٤٥) كما أورده النووى فى الرياض تحت رقم (١٧٠) وعزاه لمسلم فقط، وفيه: «وخير الهدى هدى محمد ﷺ» بدل (أفضل).
والثانى: «أفضل ما قلت أنا والنبيون.. إلخ» وهو جزء من حديث آخر رواه مالك مرسلاً والترمذى وحسنه، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأوله: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون»... إلخ.
وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٤٥٦ بهذا اللفظ، والله أعلم.

قصد بها المصنف مجاراة اللئيم اللؤماء.

فكأنه يقول: هدى مَن ذكر، وهو الحاسى لؤمًا، أى سيرته الخبيثة السيئة هى التى صيرته بين الناس هداء، فتزدريه وتتحاماهُ، فرأيه أن يجرى جرى ذوى خساسة ونذالة، فيكون ذلك فى مساع قبيحة، وهو من باب تسمية الشىء باسم ملازمه؛ لأنه لما كثر على أُذنيه وعلى آذَان من يصحبه أوِ يلازمه ويرتضى سيرته أو يطلب الانتفاع منه سميت قبيحة لملازمتها سماع الأفعال القبيحة والشيم السمجة، أى القبيحة، التى تمجها الأسماع الكريمة التى لم تتعود سماع القبيح، كما قال الشاعر: (من بحر المتقارب)

وسَمْعَكَ صُنْ عن سماع القبيح كصون اللسان عنِ النطقِ بِهْ
فإنك عند سماع القبيح شريك لقائله فانْتبِهْ

وإن من يجارى مَنْ جرى فيها وركض فقد صار معدودًا مِن جملة اللؤماء الحمقى لمجاراته إياهم فى ميادين السخف والجهل، كما قال الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا جاريت فى خُلُقٍ دنىءٍ فأنت ومَن تجاريه سواءُ
رأيتُ الحرَّ يجتنب المخازى ويحميهِ عن الغدر الوَفاءُ

ثم إن جريه وَجراءه فيما ذكر مِن جملة هداه التى صرفته عن طريق هداه، فعطفه عليه مِن عطف مفصَّلٍ على مجمل، فالفاء فيه لمجرد الترتيب الذكرى. فهداه: مبتدأ، أصارته: خبره، وضمير المفعول فى أصارته عائدٌ إلى حاسى القرى، وهو مفعول أصار. وهداء: مفعولها الثانى، فتصير بسبب دخول همزة التعدية عليها من باب كسا وأعطى، غير أنها باقية على كونها ناقصة، وعملت بوصفيها، كما قاله الزجاج وابن جنى؛ فرأيه: مبتدأ ومضاف إليه، وجرى: خبره، فى مساع: خبر بعد خبر، قبّحت: نعت لمساعٍ. وجراء: عطف على رأيه، وهو عطف مجازى ذكرى، والفاء فى «فرأيه» حرف ترتيبى عطف به على «حَاسى»، وضمير المضاف إليه عائد عليه.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٥ ـ وَصارِى الْكِرَى بعْدَ الْكِرَاءِ كَذِى لِوًى
وَيُجْنَى لَمَشْهُورِ الْوفَاءِ لِوَاءُ

قوله: وصارى: اسم للحاسب، ويطلق ويراد به عمود السفينة الذى تعقد على رأسه القلوع، فيقال: صارى السفينة، كما يقال: صارى الكرى، ويطلق ويراد به زمن الصير، يقال: زمن صارٍ: أى يصيب الأشجار فيه الجليدُ. والكِرى، بالكسر والقصر: مضاف إليه ما قبله: جمع كِروة، بالكسر: وهى أُجْرة الشىء المستأجر، وقد تسمى المؤاجرة بالكراء، وتمد، فهى بمعنى المكاراة، وهو من باب تسمية الشىء باسم محله وفعله، أى فعل اسم الفاعل الذى هو صارَ فى افتتاحِ البيت، صرى يصرى فهو صار. والكراء، بالمد: المؤاجَرة.

واللوى، بالقصر هنا: التواء الحية، واللواء، بالمد: من قولهم: جَاء فلان باللواء أى: بكل شىء، ويجنى، بضم الياء مضارع أجنى الروض أو النخيل، إذا أدرك ثمرهُ وبلغ أوان الجنى.

فكأنه يقول: والذى يحبس الأجرة عن أربابها بعد المكاراة كصاحب انْطواء مِن الحيات فى كونه ليِّن اللمس، قاتل السم، خفى الإذاية، ظاهر النكاية، ويتيسر للشخص الذى شهر وفاؤه بين الناسِ كل شىء يحاوله، وينجح له كل أمل، ويظفر بكل مرغوب، والمقصود التحذير من منع أهل الحق حقوقهم ومطلهم به بعد استحقاقهم إياه، والإغراء بالوفاء حتى يقع الاشتهار بذلك.

والبيت مقتبس مِن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠].

فالوفاء ركن عظيم من أركان الإسلام نَصَّ عليه الشارع فى كتابه العزيز فى غير ما موضع واحد فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١].

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وقال: ﴿وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥].

وقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

وقال. ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢٠، ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨].

وذلك أن النبي ﷺ قد كان وادع أقوامًا من المشركين، منهم: جهينة وبنو ضمرة وطوائف من سليم وغفار وأسلم، ثم بلغه عنهم بعد ذلك ﷺ أنهم يريدون التجمع والغدر به، فأتاه جِلَّةُ أصحابه وقالوا له: يا رسول الله، إنه بلغنا أن هذه الطوائف التي قد عاقدتها ووادعتها أنهم قد هموا بالتجمع والغدر بنا؛ فهلم فلنبادئهم بالحرب قبل تجمعهم، ويمنعهم ذلك من الاجتماع فيخاف كل منهم على ماله وأرضه؛ فأمسك النبي ﷺ عنهم فلم يجبهم؛ فأنزل الله قوله: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ [الأنفال: ٥٨] الآية. وبعث إليهم رسول الله ﷺ: «أنه قد بلغنا أنه قد بدا لكم في حربنا، وأنكم تريدون التجمع في ذلك فإن كان ما بلغنا عنكم حقًا فقد نبذت إليكم عهودكم وعقودكم على سواء، فإني لا أغدر ولا يحل ذلك في ديني، فاستعدوا لحربنا». فلما بلغهم كتاب رسول الله ﷺ رعبوا؛ فوفدوا إليه، فجددوا العقود والعهود فيما بينه وبينهم، فلم يزالوا عليها حتى هداهم الله إلى الإسلام وأكرمهم به.

فكل من نقض عهدًا من العهود أو تهاون بعقد من العقود فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه لكونه قد غدر وخان.

قال الرسول ﷺ: «كل شيء يطبع عليه المؤمن ليس الكذب والخيانة»[1].

---

(١) حديث: «كل شيء يطبع عليه المؤمن.. إلخ» ليس بالقوي، رواه البزار وأبو يعلى بلفظ: «يطبع المؤمن على كل خلة غير الخيانة والكذب»، قال السخاوي في المقاصد: وفي الباب أحاديث أمثلها هذا الحديث، لكن ضعف البيهقي رفعه، وقال الدارقطني: الموقوف أشبه بالصواب. اهـ (١/ ٣١٥) مقاصد.

وروى مالك في موطئه قال: قيل: يا رسول الله، المؤمن يكون جبانًا؟ قال: نعم: قيل: ويكون بخيلا؟ قال: نعم، قيل: يكون كذابا؟ قال: لا. اهـ. إلا أنه مرسل أو معضل، والله أعلم.

وقال ﷺ: «المؤمن لا يغدر».

وقال ﷺ: «المؤمن إذا عاهد وفى».

وفي المثل: (الوفاء مِن شيم الحنفاء).

وقال ﷺ: «مطل الغنى ظلم، والظالم أحق أن يحمل عليه»[1].

وقال ﷺ: «أعط الأجير حقه قبل أن يجف عرقه»[2].

واختلف في الأيمان، فقيل: مِن العهود، وقيل: مِن العقود، وقيل: منهما؛ فينبغي للإنسان أن لا يحلف بالله إلا إجلالاً له وإعظامًا، فإن حَلَف فلا يتهاون؛ فإنه قد وقع في ورطة عظيمة، فليفِ لله على ما حلف عليه سواء كان منعقدا على بر أو حنث، فإن اضْطُرَّ فليكفر، وإن كان قد حال بينه وبين أعمال البر فالأفضل له أن يكفر ويرتكب ما حال دونه مِن أعمال البر، كَما كان يفعل رسول الله ﷺ، ولنا فيه أسوة حسنة.

وقد نهى الشارع سبحانه في متن كتابه العزيز عن التحبس[3] عن البر بسبب يمين فقال: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] الآية.

وأما تعمد الحلف بِالكذب فلم يكن من أخلاق المؤمنين، وهو اليمين الغموس، وسمى غموسًا لأنه يغمس صاحبه في النار.

وقد يجب الحلف بالكذب إذا لم يخلص إلى إنقاذ نفس مسلم أو ماله إلاَّ به، فيجب عليه ويلزمُه.

وكَان أكثرِ حَلَف النبي ﷺ: لاَ والذى نفس محمد بيده. أو والذى نفس محمد بيده.

ولغو اليمين هو ما لا إثم فيه ولا كفارة، وهو ما وقع على يقين فخولف.

* * *

(١، ٢) تقدم تخريجهما.

(٣) التحبس: كذا في الأصلين، ولعل المراد الاحتباس، أى الامتناع.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٦ ـ وَنُجْحُ الْمِنَى يُنْسِي الْمِنَاء وَكَمْ مِعًى
بِهِ أَيْنَعَتْ بَعْدَ الْجُدُوبِ مِعَاءُ

قوله: ونجح، بضم النون وقد تفتح: الظفر بالشيء، مبتدأ، خبره ينسى. المنى، بالقصر والكسر: المدة التى تستبرأ فيها الناقة، أى تختبر فيها: أهى لاقحٌ أم لا، يقال: ناقة على منى، أو هى مَانية. والمناء، بالمد: الانتظار، يقال: مانيت الشيء: انتظرته. والمعى، بالقصر: مجرى المياه وما تَجْرُفُهُ من الأرض، وتطلق ويراد بها مجارى الطعام.

قال الرسول ﷺ: «المؤمن يأكل فى معًى واحد، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء»(١).

والمِعَى: الرجل الذى لا يستقل بنفسه ولا يرتجل الأمور. والمعاء، بالمد: رطب جُذت قبل النضج فنضجت وقد يبس بعضها، وما يبس بالكلية يقال له: حشف.

قال رسول الله ﷺ: «تعشوا ولو بكف مِن حشف؛ فإن تركَ العشاء مهرمة»(٢).

وإضافة النجح إلى المِنى من باب إضافة الشيء إلى زمنه الكائن فيه. قال الله تعالى: ﴿بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [سبأ:٣٣] أى مكر بالليل ومكر بالنهار على صيغة المجاز العادى.

والمعنى: أن النُّجح الكائن فى المدة التى يختبر فيها لقاح الناقة، وذلك باجتلاء

---

(١) حديث: «المؤمن يأكل فى معى»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود، وهذا الذى أورد الشيخ لفظ البخارى، وهو عنده فى كتاب الأطعمة.

(٢) حديث «تعشوا ولو بكف من حشف»... إلخ. ضعيف جدًا، أخرجه الترمذى (٣/ ١٠٠) والقضاعى (١/ ٦٣) والخطيب (٣/ ٣٩٦).
وأورده الألبانى تحت رقم ١١٦ وقال: ضعيف جداً، وأورده صاحب الكشف تحت رقم (٩٩٥).
قال الترمذى راويه: هذا حديث منكر لا نعرفه من هذا الوجه، وعنبسة يضعف فى الحديث، وعبد الملك بن علاق مجهول.
قلت: عنبسة هذا راوى الحديث قال فيه أبو حاتم: كان يضع الحديث، كما فى الميزان، والله أعلم.

تلك المدة عن كون الناقة لاقحًا، ينسى ذلك النجح صاحبه انتظاره لذلك، وارتقابه إياه، ومؤونة صبره على ذلك، ومعالجته لطلب العلم به، حتى كأن لم يكن شيء من ذلك، وهكذا شأن العواقب المحمودة أن تنسى كُلَّ مصيبة تقدمتها، كما أن مَن انتظر لقاحَ نفسه بعد ضراب فحل الإيمان، ووقوع مائه في أرحامِ القلوب مِن يعسوب ماء الغيوب، فانعقد فيها جنين الإيقان، بعد مكابدته دليل العرفان مدة المنى، حتى نال المنى، بظنون حمل الهنا فحصل الغنى، واضمحلت مدة العنا، فوقع على لذته بالمشاهدة، بعد عنائه بألم المكابدة، فحمد عواقب الصبر، إذ أفضى به إلى الظفر.

قال الشاعر:

أَخْلِقْ بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

فكنى بالناقة ولقاحها عن النفس وفلاحها، وذلك من أشرف فصول البديع لو وجد مجاريًا أو نحريرًا مباريًا، ومراده الحض على مجاهدتها، حتى تظفر بشاهدتها، بالصبر على محاولة المطالب، والمضى فى تحصيلها وإن استصعبت؛ فرب مستصعب يسهل بعد حين، ورب مستسهل يصعب بعد لين؛ فإياكَ والاستعجال؛ فإنه حيضُ الرجال، والقنوط فإنه سبب السقوط، ومثل لذلك بمسيل الماء الذى بعد عهده عن جريان المياه، يرسل الله إليه الأمطار فتمده الأنهار، فتتلاطم حافتاه بالفيض، فيسقى الغياض والرياض، ويروى البساتين والنخيل، وتلقح الأشجار؛ فينسى ذلك ما كان قبله مِن المصاب بالجدوب ذواتِ الإتعاب والإنصاب والأوصاب. وهكذا كل مرغوب تتعرض دون حصوله الخطوب، حتى يصير وجْهُ الطالب ذا نكوب، فإنه إذا زال مانعه وبدا طالعه أنْسَت لذةُ الظفر به ما تقدم مِن آلام الكد فى طلبه، وهذا أيضًا نوع آخر مِن أنواع الكناية؛ فمجارى السيول كناية عن القلوب؛ لأنها مجارى العلوم، ومحل الفهوم، وإن أصابتها الجدوب مدة، لعارض هوائى، أو مانع نفسانى، أو نازع شهوانى، أو نازغ شيطانى، فإنها مؤهلة ومهيأة للنفحاتِ الربانية، فتصيبها بعد المحول دفقات الذبول، فتحدث هوامع السيول بالحكمة والعلوم، وإلهام الغيوم الواردة مِن حضرة الحى القيوم، فتثمر حدائقها إذ هى حقائقها، وترهف شوارعها إذ هى شرائعها،

وتفرك زرْوعها إذ هي فروعُها، ويثمر نخيلها إذ هُوَ دَليلُها، وتزكو فواكهها إذ هي مداركها ويكثر عشبها إذ هو كتبها، ويبتسم زهرها إذ هو دهرها، ويزهو نورها، ويلذ للقاطفين فحوها إذ هو نحوها، ويحلو مكيثها إذ هو حديثها وتسكر خمرة خطابها إذ هو منزل كتابها، ويدهش سجع نغماتها إذ هو بحر لغاتها، ويعجبه حسن بيانها إذ هو فن تبيانها، وتلهيه الحجال بنُطقها إذ ذلك فن منطقها، وتفتنه الضفادعُ بنقيقها إذ ذلك فن بديعها، وتفجعك الفحول بصريفها وذلك نوع تصريفها، وتخبرك الهداهدُ بمكنون تعرفها إذ ذلك فن تصوفها، ويغريك بلبل الأسماء من مكنون عزفه وذلك سر حرفه، ويسر إليك الصرد مِن تغريده وذلك فن توحيده.

قال الرسول ﷺ: «إنَّ الله يحيى القلوبَ الميتة بنور الحكمةِ كَمَا يحيى الأرض الميتة بوابل المطر».

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٠٧ ـ وَكَمْ إشْفَى الإشْفَاءَ مَلكَ رَبَّهُ   فَدَامَ لَهُ مِنْهُ فِحًى وَفِحَـاءُ

قوله: وكم: الواو للاستئناف، وكم: تكثيرية مِن الأدوات التى تلازم الإضافة والابتداء غالبًا. والإشفي، بالقصر والكسر: واحد الأشافى، وهى معروفة يتخذها الخرَّازُ والرقاعُ والخصاف لشعب[1] الفتوق وجلم الشقوق. والإشفاء، بالمد: مصدر أشفى فلان فلانًا: إذ أزال ألمه بمعالجة أو دواء، ويطلق ويراد به الإشرافُ على الشيء، وهذا الأخير هو اللائق بحال الإشفي مِن جهة المعنى، ونسبة الأول إليه إنما هو بالدلالة على ما به الإشفاء مجازًا؛ لأن الاستشفاء يكون بفعل الإشفى لا بدلالته على ما به يكون. والفِحى، بالقصر ويفتح كَمَا يكسر: التابل[2]. والفحاء، بالمد والكسر خاصة: جمع فَحية، بالفتح وهى الحريرة، ونظيرهُ ظبية وظباء، ويقال لها: فحية.

(١) الشعب: موصل قطع الرأس، والمراد به هنا جمع الشق بسلك.

(٢) التابل: ما يصلح الطعام، وجمعه توابل.

فكأنه يقول: كثير مما يؤلم كالأشافى مثلا يجعل صاحبه مالكًا للإشراف على بغيته ومَا فيه جلب صحته بسبب استعماله كخصف نعله مثلاً، فيدوم له بسبب ذلكَ مَا ذكره مما يحتاج إليه الصحيحُ كالتابل الذى يصلح به طعامه وكَالحريرة التى يتغذى بِهَا، ولولا الإشفى لأودى به الجفا؛ فلم يدم له فِحاءٌ ولا فَحى، وكثيرًا مَا يقع الاستشفاء بالإشفى أيضًا كبط[1] القروح وفَصْد العروق، فبهذا الاعتبار يكون صاحب الإشفى دَالاً على مَا يستشفى به؛ لأنه يستشفى بالفصد وباستخراج المواد التى فى البدن، وذلك متوقف على الإشفى ومَا فى معناها؛ فوجوده مؤثر فى ذلكَ ومعين عليه؛ فاستعير له بالدلالة، فإذا استعملته فيما ذكر لمن احتاج إليه دامت له حياته ويدوم ما لا بد له منه فى حياته كالمذكور مثلا.

وفاعلُ ملك ضمير الإشفى، وربه: مفعول به، وملك: خبر «كم»، والإشفاء أيضًا: مفعول مقدم لأن ملك مِن باب كسا وأعطى. والفاء مِن «فدام» سببية. وَفحًى: فاعلُ دَامَ؛ إذ لا تكون ناقصة إلا بدخول مَا المصدرية عليها. وفحاء: معطوف على فحى. وله: متعلق بدام، وضميره عَائد على صاحب الإشفى، وضمير منه عائد على الإشفى، والمجرور متعلق بدام، وإن شئت جعلته متعلقًا بملك.

وأشار المؤلف بهذا إلى أن المطلوب المحبوب قد لا ينال إلا بما فيه مشقة؛ فإنه لا أحَبّ للنفوس مِن الشفاء من الأمراضِ والإبراء مِن الأدواء، وكثيرًا ما يتوقف ذلك على استعمال ما فيه ألم فادح وعناء، وفى هذا المعنى يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

تريدين إدراكَ المعـالى رخيصةً ولاَ بُدَّ دون الشهد مِن إبر النحل

وقَال غيره:

إن ابتغيت المعالى فازددنْ تعبا أو ارض بالذل واختر راحة البدنِ

* * *

(١) بط القروح: شقها.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٨ ـ وَهذَا الْكِبَى عُقْبَى الْكِبَاءِ ولِلْحِجَى
غَوَائِلُ مِنْهَا أَنْ يُطَالَ حِجَاءُ

قوله: «وهذا الكبى»: والواو: للاستئناف، وهذا: اسم إشارة مبتدأ، والكبى خبره: جمع كبة، بالكسر: وهى كناسة البيت، ونظيره لِثَةٌ ولِثًى. والكباء، بالمد: نوع مِن الطيب، وفى ذلك يقول البوصيرى برد الله ضريحه فى همزيته:

فإذا شمت أو شممت رباها ... لاَحَ منها برق وفاحَ كباء

والحجى، بالقصر: العقل. والحجاء، بالمد: مصدر حَاجيته إذا غالطته.

فكأنه يقول: وهذهِ الكناسات عاقبة الأشياء النفيسة التى يتنافس الناس فيها كالعود الذى يتبخر به ويرغب الناس فى اغتنامه، وللعقل غوائل تغتاله حتى لا يدرك مآل ما يرغب فيه لما يرد عليه مَن تلك الغوائل بإطالته مغالطة نفسه فى الحقائق وما يطرقها مِن الطوارق التى يشيب أدناها سواد المفارق، وهذه المغالطة مِن أسبابها صفاء العيش، ومنها الجهل بعواقب الأمور، ومنها الغفلة عن ذلك، وقد جمعها المتنبى فى بيتين فقال: (من بحر الكامل)

تصفُو الحيـاةُ لجاهلٍ أو غافلٍ ... عما مضى منها ومَا يُتَوَقَّعُ
ولِمَنْ يغالط فى الحقائق نفسه ... ويَسومها طلبَ المحال فتَطْمَعُ

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٠٩ ـ وأَهْلَ الفِرَى انْسُبْ لِلْفِرَاءِ ومِنْ مِرًى
تَبَرأ وَلاَ يَخْدَعْ حِجَاكَ مِرَاءُ

فقوله: «وأهل الفرى انسب»: فأهل: مفعول لانسب. والفرى: مضاف إليه ما قبله، وهو بالقصر جمع فرية. والفراء، بالمد: حمر الوحش، واحدها فرى، بالتحريك، كجمل، والمرى، بالقصر: جمع مرية، بالكسر، وهو الشك، والمراء بالمد: الجدال.

فكأنه يقول: انسب أهل الافتراء لحمر الوحش وألحقهم بها حيث لم ينتفعوا بعقولهم التى امتازوا بِهَا عن الحمر؛ إذ لو كان لهم عقول ينتفعون بها لحجزتهم عن الافتراء لإدراكهم قبحه، وتبرأ من الكذب. ولا يخدع عقلك جدال مُجادل مزين الباطل لابس للحق به، كاتم له، بعيد بمرائه مِن الصدق.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٠ـ وَإِجْلَى الْعُلَى إِجْلاَءَ ذى الْبغَى فَاعْتَمِدْ
وغَوْلَ الْعِشىَ احْذَرْ مَا أَجَنَّ عِشَاءُ

فقوله: إجلى، بالقصر: بمعنى مِن أجْلِك، على مَا حكَاه الفراء عن الكسائى أن العرب تقول: فعلت مِن إجلاك، بكسر الهمزة والقصر وبفتح الهمزة أيضا أى: مِن أجلك. والإجلاء، بالمد: الحمل على الجلاء، وهو مفارقة الوطن. والغول: مصدر غال الشىء واغتاله: إذا أهلكه على وجه الغدر والاختفاء، ومنه القتل غيلة. والعِشى، بالقصر: الأمور الملتبِسَةُ، الواحدة عِشوة، بالكسر، ومنه قولهم: أوطأنى عَشوى، وخبط عَشوى، والعِشاء، بالمد: ما بعد غيبوبة الشفق إلى نصف الليل.

وفى الأثر قال رسول الله ﷺ: «كفوا صبيانكم عند فحمة العشاء فإن للجن فى تلك الساعة انتشارا»[١].

فإجلى العلا: مفعول لأجله. وإجلاء ذى البغى: مفعول به، وفعلهما اعتمد. وغول العشا، بالنصب: مفعول مِن أجله.

والمعنى: فاعتمد إجلاء أصحاب البغى مِن أجل نيل العلم، واحذر ما أجنَّه ظلام، أى ستره، لأجل غول العشا، وهو على حذفِ مضافٍ أى: مخافة اغتيال الأمور الملتبسة عليك بأن تقع فيها وأنت لا تشعر.

(١) حديث: «كفوا صبيانكم». ... إلخ. صحيح رواه أبو داود والعسكرى، وأورده السيوطى تحت رقم (٦٢٦٧) ورمز له بالصحة، والله أعلم.

ثم إن قوله: «وغول العشا.. إلى آخره» تمثيل لحالة التباسِ الأمور واشتباهِهَا بحالة الأشياء المشتملة بظلام العشاء، فكأنَّه يقول: إذا اشتبهتْ عليك الأشياءُ ولم يتبين لك أنك مأمور بها أم منهى عنها فأمسك عنها حتى تعلم حكم الله فيها: فتتقدم إن أمرتَ، وتحجمُ إن زُجِرْتَ، كالمتوضئ يشك هل غسل العضو ثلاثًا أم أربعًا فلا يغسل، بخلاف ما إذا شك أصلى ثلاثًا أم أربعًا فإنه يحتاط؛ فيأتى بالرابعة ويسجد بعد السلام؛ إذ الغسل يُكْتَفَى فيه بالواحدة فضلاً عن الثالثة، والرابعة توقع فى المحذور؛ ففررنا إلى جانب السلامةِ كما فررنا إلى جانب الاحتياطِ فى الصلاة؛ إذ لا تصح الصلاة بدون تمام الأربع، فالفرار إلى ترقيعها أولى مِن الاعتماد على مَا عسى أن يكون مفسدًا لها، وكذلك من حرم واحدة مِن أربع فإنهن يحرمن عليه ما لم يعين الواحدة المبتوتة، وكذلك لو وقعت مضغة لحم ميتة فى لحم فإنَّ الجميع يحرم إن التبست به.

وانتهى الكلام على ما يكسر فيمد ويقصر باختلافِ المعنى.

ثم شرع يبين:

* * *

[باب] ما يضم فيقصر ويفتح فيمد باختلاف المعنى

فإنما يتفقان فى المادة خاصة ويختلفان فى الضم والفتح كما يختلفان فى المعنى، فالمقصور مضموم ولا غير، والممدود مفتوح ولا غير.

• ثم قال الناظم رحمه الله تعالى:

١١١ ـ غُدَاكَ ارْعَ وَاعْتَصْ مِنْ عَدَاء تَسَحُّرًا
وَلاَ يُنْسِكَ الذِّكْرى حُسًى وَحَسَاءُ

الغُدى، بالضم والقصر: جمع غُدوة، بالضم. قال النبى ﷺ: «عليكم بالغدوة والروحة وشىء من الدلجة، وإياكم والمنبت فإنه لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى»[1].

يعنى أنَّ المؤمن ينبغى له أن يعبدَ الله بنشاط، وذلك أن يتخذ أورادًا فى أول النهار بعد أن يصلى الصبح فى جماعة لأنه قد روى أنَّ المدْمن على صلاة الصبح فى جماعة لا يصيبه عظيمُ بلاء، وقد بلغ بعض السجانين هذا الأثر الجليل، وكان كلما أخذ إنسانًا ليسجنه يسأله: هل صلى الصبح فى جماعة يومَه ذلك؟ فيخبره أن لا، فمكث على ذلك أربعين عامًا ولم يقع فى يده من صلى الصبح فى جماعة يومه فثبت عنده صحة الخبر؛ فتاب، ولزم المسجد وصلاة الجماعة.

قال رسول الله ﷺ: «يختلفون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فيجتمعون فى صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر، فإذا رجعوا إلى الله سألهم وهو أعلم فيقول لهم: كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون»[2].

---

(١) حديث: «عليكم بالغدوة والروحة»... إلخ. الجزء الأخير منه رواه البزار بلفظ: «إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا ظهرًا أبقى ولا أرضا قطع»، وأورده فى الكشف تحت رقم (٧٩٤).

(٢) حديث: «يختلفون فيكم ملائكة»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان والنسائى، وهو عند البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة، وأوله: يتعاقبون بدل يختلفون، والله أعلم.

والمراد بقوله ﷺ: «والروحة» صلاة العصر والمغرب. قال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨] فالمراد بقرآن الفجر صلاة الصبح، والمراد بقوله: مشهودًا أنَّ حفظة الليل وحفظة النهار يجتمعون فى صلاتين: صلاة الصبح وصلاة العصر.

والدعوات المأثورة بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس وبعد العصر إلى الغروب: قال الرسول ﷺ: «مَن صلى الصبح فى جماعة، ثم جلس فى موضع مصلاه، وأخذ فى ذكر الله والقراءة والدعاءِ حتى طلعت عليه الشمس فصلى ركعتين كان له بذلك ثواب حجة وعمرة تامتين تامتين».

وفى حديث قدسى يرويه عن ربه «مَن حفظنى فى أول النهار وآخره حفظته فيما بينهما».

قوله: «وشىء مِن الدلجة» يعنى صلاة العشاء فى جماعة ومِن ثلثى الليل الأخير إلى الصبح، وإلا فمن السحر إلى الصبح.

وفى رواية: «مَن صلى العشاء الأخيرة والصبح فى جماعة فقد أخذ بحظه من قيام الليل»، لكنه ينبغى له إحياء ليلته ولو بركعتين، وكلما زاد فهو خير ما لم يؤد إلى الملل.

قال الشاعرُ: (من بحر البسيط)

مَن يبتغى جنة الفردوس يدخلها ... بركعـة فى ظَلامِ الليـل يُخْفِيهَـا

قال الرسول ﷺ: «ائتوا مِن العمل مَا تطيقون ولا تبغضوا إلى أنفسكم عبادة الله؛ فإنَ أحبَّ الأعمال إلى الله ما كانَ ديمة ولو قل، وإنَّ الله لا يمل حتى تملوا»[(١)].

قال ابن عباس رضى الله عنه: باكروا فى طلب الرزق فإنَّ البكور بركة مقلوبة.

قال الرسول ﷺ: «باكِرُوا بالصدقة فإنَّ البلاء لا يتعداها»[(٢)].

(١) حديث: «ائتوا من العمل»... إلخ. تقدم تخريجه.

(٢) حديث: «باكروا بالصدقة»... إلخ. موضوع، رواه أبو الشيخ وابن أبى الدنيا، قال السخاوى: قال ابن حجر: لا يتعين عندى أن هذا الحديث موضوع، لا سيما وفى معناه ما أورده الديلمى =

وقال ﷺ لفاطمة: «إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق وتمحق بركة العمر»[(١)].

وقال على كرم الله وجهه: إياكم والصبيحة فإنها مجأرة مجْفَرَةٌ مَبْخَرَةٌ[(٢)].

وقال ﷺ: «لغدوة أو روحة فى سبيل الله أحب إلى الله من عبادة سنة».

والغداء، بالفتح والمد: ما يتغذى به. والحسى، بالضم والقصر: جمع حُسوة، بالضم: وهو القدر الذى يتحسى منه. والحساء، بالفتح والمد: الحسو، وهو شراب رقيق فيه حموضة يستعمل فى زمن الحر للتبريد، ويطلق ويراد به الرغوة، وهى الثمالة. قال الشاعر: (من بحر الطويل)

أحسوًا تُسر اليـوم لى فى ارتقـارئه ... وَمَنْ سَرَّ لى حسوًا فسوفَ أُعارضُ

بَنِى عمنا لا تجعلوا الشعرَ بيننا ... وصالاً فألسن القريض مَقَـارضُ

فكأنه يقول: ارع أزمنتك وحافظ عليها ولا تضيعها فيما لا يعود عليك منه نفع؛

= من حديث عمرو بن قيس: «الصدقات بالغدوات تذهب العاهات»، وفى حديث آخر: «تداركوا الهموم والغموم بالصدقات» (١/ ١٤٢) مقاصد. واللفظ عندهم: «فإن البلاء لا يتخطاها» بدل «لا يتعداها».

وأورد الحديث ابن الجوزى بلفظ: «فإن البلاء لا يتخطى الصدقة» وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ. رواه عن المختار بن فلفل أربعة: أبو يوسف، وسليمان بن عمرو، وعبد الأعلى ابن أبى المساور، وابن إدريس. فأما أبو يوسف: فلا يعرف، وبشير الراوى عنه منكر الحديث. وأما سليمان: فقد أجمع العلماء على أنه كان يضع الحديث. وأما عبد الأعلى: فقال يحيى: هو كذاب، وقال على: ليس بشىء. وأما ابن إدريس: فالذى رواه عنه الصفر وكان يضع الحديث (٢/ ١٥٤) موضوعات.

(١) حديث: «إياك والتصبح فإنها تمنع الرزق»... إلخ. ضعيف جدًا أو موضوع، أورده ابن الجوزى فى موضوعاته بلفظ: «الصبحة تمنع الرزق»، وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وابن أبى مروة راويه، قال أحمد: لا تحل الرواية عنه، وقال يحيى: ليس بشىء، وقال الدارقطنى: متروك (٢/ ٦٨).

والحديث رواه القضاعى وعبد الله بن أحمد فى زوائده، وأورده السخاوى عنه تحت رقم ٦١٥، وقال: ضعيف، وقال الصغانى: موضوع، والله أعلم.

(٢) هذا من كلام عمر على الصحيح، ومعنى مجأرة: مظنة لمرض الحلق. مجفرة: تسبب الجفر الذى هو عدم الرغبة فى النساء. مبخرة: أى تسبب الرائحة الكريهة فى الفم. وفى رواية: «مجعرة» أى: تسبب يبوس المعدة.

وذلك بأن تعلم ما يلزمك فى كل وقت فاشتغل به؛ إذ ما من وقت يمضى إلاّ ولله عليك فيه حقٌ لا يقضى فى غيره؛ لأنه لا يصلح لقضائه لِمَا تعلق به هو بخصوصيته. ومن هنا يقولون: الفقير ابن وقته. واعتض من غدائك تسحرًا: أى اجعل التسحر وهو الأكل من آخر الليل لأجل الصوم فى النهار عوضًا من الغداء وهو ما يؤكل فى أول النهار أو وسطه، وأما بالذال المعجمة فهو ما يتقوت به وتقوم به البنية كان بليل أو نهار. وهذا أمر منه بالمواظبة على الصوم؛ إذ هو سياحة هذه الأمة.

قوله: ولا ينسك الذكرى: أى التذكر واستعمال الفكر فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلك، فإن ذلك من أعظم باعث على الاجتهاد فى الاستعداد للمعاد، فلا يشغلك عنه ما ضمن لك الذى من جملته ما ذكره لك من الحُسى والحِساء والعشاء والغداء.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٢ ـ فَمَنْ خَشِيَ السُّوءَى لِسَوْءَاءَ هَاجِرًا
يَفُزْ وهنا أيْضًا لَـدَيْهِ هَنَـــــاءُ

قوله: «فمن خشى السوءى»: فالفاء استئنافية. مَن: اسم شرط بمعنى الذى. خشى: فعلُ الشرط، وجوابه يفز، وفاعله مستتر، والسُّوءَى: مفعول خشى، وهو فى الأصل أنثى الأسوأ «أفعل» تفضيل مِن السوء. والسوءاء، بالفتح والمد: القبيحة من الفَعَلات وغيرها. وهنا: اسم إشارة يشار به إلى المكان القريب. والهناء، بالفتح والمد: ضد التنغيص. قوله: هاجرًا: حال مِن فاعل خشى، وهو ضمير، ولسوءاء: مفعول هاجرًا واللام فيه لتقوية العامل الضعيف عن العمل بالفرعية والتأخير. وهذه الحال لازمة لأن الخوف من سوء العاقبة السيئة فى حال كونه تاركًا لكل فعلة قبيحة. يفز بها أى: بتأديته إلى المأمَنِ مما يخاف، وذلك بأن تحسن عاقبته، ولأجل طلب الهناء العاجل عنده هنا صار ذلك سببًا لصفاء معيشته العاجلة مما ينغصها عليه؛ لأن تنغيص العيش أيضًا يكون بفوات المرجو من حصول

المعدوم وعدم فقد الموجود، ومن يَخَفْ عاقبة أمره لم يأملْ سوى الأمن من سوئها، ويخلى قلبه من كل شىء سوى ذلك؛ فلا يحزن على ما فات، ولا يتعلق له غرض بما هو آتٍ؛ فيصفو عيشه من الأكدار، وتقل فى حقه الأخطار. وصورة الكلام صورة الخبر، والمقصود منه الحث على الخوف من عاقبة السوء، وتذكر هادم اللذات وفجأة الفوات، جعلنا الله من المتذكرين لذلك، الخائفين مما هنالك.

قال الرسول ﷺ: «من خافَ أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل»[1]. والمراد بالمنزل اليقين فى الدنيا المُحِل فى حضرة القدس وجنة المأوى فى الآخرة التى قد جمع الله فيها ما تشتهيه الأنفس.

وفى المثل: «مَنْ خافَ هربَ، ومَن هربَ وَجَدَ ما طلب».

وفى المثل أيضًا: «مَن خافَ فَر، ومَن فَر فى جنة الخلد استقر».

وقوله: يفز: أى ينجح ويفلح؛ فالبيت مقتبس من قول الله تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران:١٨٥]، جعلنا الله ممن فاز بقربه وجواره، آمين.

* * *

● قال رحمه الله تعالى:

١١٣ - وما ضَرَّ ذا طُرْفَى بِطَرْفَاءَ لائذًا ضُحًى إنْ رماهُ بِالأُوَارِ ضَحَاءُ

قوله: «وما ضر ذات طُرفى»: الواو: للاستئناف، وما: نافية. ضر: فعل ماضٍ. ذا طرفى: مفعول به ومضاف إليه. طُرفى، بالضم والقصر: المنتخب من كل شىءٍ، وقد يطلق ويراد به كثرة الأنساب بين المنسوب والأب الأعلى حيث كانوا فى حسب وشرفٍ، وهو ضد الأقعد. والطرفاء، بالفتح والمد: شجر الأثل،

(١) حديث «من خاف أدلج»... إلخ. ضعيف جدًا رواه الترمذى والحاكم، قال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبى، وأورده السيوطى تحت رقم ٨٦٥٣، قال المناوى: وفيه يزيد بن سنان ضعفه أحمد وابن المدينى، وقال ابن طاهر: يزيد متروك، والحديث لا يصح مسندًا، وإنما هو من كلام أبى ذر (١٢٣/٦).

قلت: وفى الحديث مع ضعفه زيادة على رواية الشيخ، والله أعلم.

ومن العرب من يقول فى الواحدة: طرفة، ومنهم من يقول: طرفاء فى الإفراد والجمع. والضحى، بالضم والقصر: ما قرب من طلوع الشمس، وقيل: صدر النهار. والضحاء بالفتح والمد: البروز للشمس، قال الناظم: وقصره أقيس وهو كما قال؛ لأن قياس مصدر الفعل المكسور العين «فعلى» بالتحريك والقصر لا «فعلاء» بالمد. والأُوار، بضم الهمزة وتخفيف الواو على وزن غراب: حر الشمس أو النار أو العطش؛ إذ كل ذلك صالح هنا ولا يصح غيرهما من معانيه. وما: للاستفهام المراد به النفى. ذا طُرْفى: مفعول به لضر، وفاعله ضمير «مَا» الاستفهامية. ولائذًا: حال من ذا طُرفى. وبطرفاء: متعلق به. و«إن»: يصح ضبطه بكسر الهمزة وبفتحها: فبالكسر على أنها شرطية، ورماهُ: شرطه، وجزاؤه محذوفٌ بدلالةِ ما قبله عليه. والفتح على أنها مصدرية مجرورة بلام التعليل محذوفة أى: لأجل أن رماه.

فكأنه يقول: أى شىء ضر رجلاً صاحب طرفى فى نفسه أى بينه وبين أبيه الأعلى وهو آدم ـ عليه الصلاة والسلام على أفضل بَنِيه أشرف العالم بأسره ـ كثير من الآباء لا يعلم عددهم لكثرتهم إلا الله تعالى، وكلهم قد هلكوا؛ فهو كذلك من أجل أنه عريق فى الهالكين.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وما المرءُ إلاّ ميتٌ وابنُ مَيِّتٍ ... وذُو نَسبٍ فى الهالكين عَريق

فلا يضره شىء إذا كان كذلك فى حال كونه عائذًا بطرفاء يأوى إلى ظلها إذا رمته بأوارها الشمس، أى بحرها، أو بعطش، ولا يضره شىء لأجل أن رَمَى الضحاء بحر أو بعطش؛ لأن ذلك لا يجلب له ما لم يقدر عليه من الهلاك؛ لأنه عريق النَّسَب فى الهالكين كما تقدم، ولا يعجله له قبل أوانه، كما أن الثواب بالقصور والغرف لا يدفعه عنه إذا حان وقته، بل له فى الانفراد النفع المحض حيث استراح من إذايتهم له، ومن إذايته لهم.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٤ ـ وَسَارِعْ إلى الْحُسْنَى وَحَسْنَاء لا تُطِعْ
هَوَاهَـا فَفِي التُّقَى غُنًى وَغَنَـاءُ

قوله: «وسارع إلى الحسنى»: فالمسارعة المسابقة إلى الحسنى. والحسنى، بالضم والقصر: العاقبة الحسنى، وهى فى الأصل أنثى الأحسن «أفعل» تفضيل من الحسن. والحسناء، بالفتح والمد: المرأة الجميلة البيضاء. قال رسول الله ﷺ: «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد»[1].

قال الشاعر، وهو ملك غسان لما أسلم ودعاه قيصر إلى الرجوع عن دينه إلى النصرانية فأبى قال: لا أفارق دين محمد؛ فأمر به فصلب على جذع نخلة، فلما حملوه على الجذع ليصلبوه أنشد يقول: (من بحر الطويل)

ألا أبلغ الحسنـاء أن حليلهـا على باب يَرقى فوق إحدى الرواحل
على ناقـة لم يطـرق الفحل أمهـا مجـذيةً أطرافُهَـا بالمنـاجِل

ثم التفت على قيصر فقال له: والله يا قيصر إنك لتعلم من أمر محمد مثل ما أعلم، ولكن جحدت وضننت بملكك. قال قيصر: صدقت والمسيح، ولْكن لم أجد بُدًا من هذا. فلما دنوا منه ليصلبوه التفت إلى رجل من بنى عمه، فقال له: (من بحر الكامل)

أبلغ سراة المسلمين بأننى سلم لربى أسلُمِى وعظامى

والغُنى، بالقصر والضم: جمع غُنية، بالضم: وهو ما يستغنى به.

والغَنَاء، بالفتح والمد: الكفاية، وهو الذى يقوم بكل ما تولاه من الحروب وغيرها أحسن قيام.

فكأنه يقول: بادر إلى فعل ما تحصل لك به العاقبة الحسنة، ولا تطع امرأة

---

(١) «سوداء ولود خير من حسناء لا تلد» لا يصح عن رسول الله ﷺ، أخرجه ابن حبان فى الضعفاء، وعنه الغزالى، قال العراقى: لا يصح عن رسول الله ﷺ (٢/ ٢٧) إحياء.
وأورده صاحب الكشف تحت رقم ١٤٩٩ وقال: ذكره ابن الأثير فى (النهاية)، ورفعه الأزهرى، وأخرجه غيره عن عمر مرفوعًا والله أعلم.

حسنة فى أمر دين أو دنيا من أجل هواك لها؛ فإنهن ناقصات عقل ودين؛ فإشارتها على حسب عقلها؛ فطاعتها مضرةٌ لك فى الدين والدنيا، وذلك يسلبك من التقوى التى هى عين مخالفتها، وفى التزام التقوى غنية لك وكفاية عن متابعة هواها. وقال الرسول ﷺ: «شاوروهن وخالفوهن؛ فإن فى خلافهن البركة»(١).

فلما بلغه ﷺ عن قوم أن امرأة تسودهم قال: «لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة»(٢).

وقال: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربعة: آسية بنت مزاحم، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد»(٣).

والبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

* * *

(١) حديث «شاوروهن»... إلخ. لا أصل له مرفوعًا، رواه ابن الجعد، وأورده السخاوى تحت رقم ٥٨٥ وقال: لم أره مرفوعًا، وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم (٤٣٠) وقال: لا أصل له مرفوعًا، وكلاهما بدون زيادة «فإن فى خلافهن البركة»، وهذه الجملة أوردها العسكرى فى الأمثال عن عمر قال: خالفوا النساء فإن فى خلافهن البركة، والله أعلم.

(٢) حديث «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» حديث صحيح رواه البخارى بهذا اللفظ فى كتاب المغازى.

وسببه أن النبى ﷺ بلغه أن أهل فارس ملكوا عليهم بنت كسرى لعدم من يتولى الملك من البنين؛ لأن الله أبادهم بدعائه ﷺ عليهم لما مزق كسرى كتابه، فقال.. الحديث، والله أعلم.

(٣) حديث «كمل من الرجال كثير»... إلخ. حديث متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى والنسائى وابن ماجه، ولفظه عند البخارى: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» كتاب الأنبياء، والله أعلم.

● ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٥ ـ وَلِلْغَايَةِ الْقُصْوَى بِقَصْوَاءَ شَمِّرَنْ
فَمَـا بِكُسَى زَهْـوٍ يُنَالُ كَسَاءُ

قوله: «وللغاية القصوى»: كأنه يقول: شمِّر، أي: جِدَّ وأسرع، لنَيل الغاية العالية المرتفعة بناقة قصواء، أي: نجيبة مقطوعة طرف الأذن؛ فما ينال الشرفُ بِكُسى، وهى بالضم والقصر: جمع كُسوة، بالضم، على وجه التكبر بها والزهو والإعجاب والخيلاء، بل إنما ينال بالجد والاجتهاد وارتكاب مشاق تكاليف الشرع التى تشق فى أول الأمر على الطبع. والكَساء، بالمد والفتح: الشرفُ والزهو، وهنا الكبر والتيه والفخر.

وفى المثل: «ليس مِن شيم الأشراف النظر إلى الأعطافِ». وفيها أيضًا: «ليس مِن شأن ذوى الأحساب الزهو بفاخر الثياب».

يروى أنَّ النعمان بن المنذر خرج على العرب فى يوم مِن أيَّامه وعليه حلة مِن الوشى لم ير الراءون مثلها، منسوجة بالذهب والإبريز واليواقيت، فجعلت سادات العرب تهنئه بها وتعجب مِن شأنها وفيهم أكثم بن صيفى ساكت لم يهنئه ولم يذكرها بشىء؛ فقال له النعمان: ما لك لم تهنئنى بهذهّ الحلة ولم تعبأ بشأنها؟! فقال له: أيها الملك، أبيت اللعن، لو كانت هذه الحلة على تاجر أو دلال لأعجبتنى كما أعجبتهم، لكن الملك أعجب إلى منها؛ لأنَّ الأشرافَ تتعزز بهم الأشياء لا هم يتعززون بها. فقال له الملك: لله أبوك! مَا أوسع باعكَ فى العقل والذكاء! فقال: إنى أعطيها غدًا سيد العرب. فلما كان الغد أقبلت إليه سادات العرب كلٌّ يرجو أن يعطاها، إلا أكثم بن صيفىٍ، فإنه لم يذهب إليه ولم يطمع؛ فقال له قومه: هلاَّ ذهبت إلى الملك فلعله يعطيك الحلة؟! فقال لهم: إنَّ ذلك ليس من الكيس؛ فإنَّما الحلة واحدة وسادات العرب كثيرون، فإن كَان يريدنى فإنه يسأل عنى ويرسل إلىَّ؛ فيكون ذلك أحفظ للمروءة، وأتم للشرف، وأبقى لماءِ الوجه، وإن يكن لا يريدنى ففى ذهابى إليه هصم المروءة، وهدم الشرفِ، ويقع علىَّ مِن الخجل ما أخاف أن يكون سببًا للتلف، وفى تخلفى إبقاء

التهمة[1]، فأحدث نفسى أنى لو أتيته لأعطاها لى،وكذلك يقول كل مَن له بى حسن ظن. فلما اجتمعت على النعمان أشرافُ العرب سأل عن أكثم بن صيفى، فقيل له: إنه تخلف ولم يأت، فما أربك إليه؟ قال: إنى أريد أن أعطيه هذه الحلة، فقيل له: إنَّ معك من أشراف العرب وساداتها ما فيه غناء عن أكثم بن صيفى، قال: لا والله، إنه لحكيم العرب وفارسُها ومن بيت مكرمتها. فبعث إليه، فلما جاء خلعها وناولها إياه، ثم نظر إلى وجهه ليرى هل ظهر السرور عليه أم لا؟، فلم ير علامة السرور على وجهه، فقال له: مالى لا أرى السرور على وجهك وقد حبوتك بغنى الدهر وعز الأبد؟! فقال له: أيها الملك،إنَّ همتك بى شغلتنى عن السرور بالحباء فلا أدرى أأقوم بشكر نعمتك فأكون كريمًا أم لا فأكون لئيمًا؛ ففى هذا ما يمنع الكريم من السرور ويحول بينه وبين الحبور؛ فقامَ إليه النعمان فالتزمَه فقال له: لله درك، إنك لا تزيد فى كُل مقام إلا شرفًا وظرفًا؛ فتمن علىَّ فإنَّ لك ما تمنيت؛ فقال له: إنك قد حَصَرْتَ الغنى أيها الملك حيث خلعت علىّ حلتك هذه، وقد تاقت إليها نفوسُ جميع السادات، وجعلتنى لها أهلاً مع غيبتى وحضورهم؛ فالتفت النعمان إلى سادات العرب فقال لهم: هذه السيادة وأبيكم، أفيكم مَن أقول له يتمنى على فيقول: لا؟ قالوا له: ليس فينا مَن يمتنع من ذلك، فقال لَه: إذا امتنعت من التمنى فلأتمنى لك، فأعطاه عطايا جسيمة لا تدخل تحت حصر، ثم أعطَى بعد ذلك جميع السادات ووصلهم، فانصرفَ، وانصرفوا.

وكانت معدٌّ لشرفها لا تعبأ بزخرفة الثياب، ولا تكترث بها، وإنما تتنافس فى الكرم والإحسان، وفصاحة اللسان، وشجاعة الجنان، ومقارعة الأقران، والتروى من العلم والقرآن.

* * *

(١) كذا فى الأصلين: التهمة ، والمعنى: إنى أتهم نفسى بالتخلف عن شىء لو حضرته لفزت به، وهذا الاتهام من النفس والغير فيه شرف لى.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١١٦ ـ وَعُذْرَاكَ لِلْعَذْرَاءِ لاَ تَكْتَرِثْ بِهَا فَمَـا لِثُوًى يُثْنِي الْمُجِـدَّ ثَوَاءُ

وله: العُذرى، بالضم والقصر: العذر على وجه الجمع، وقد يجمع على معاذير وهو القياس، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ﴾ [القيامة:١٥]، يقال: سمعت عذراكَ ومعاذيرك وأعذارك فقبلتها، إلاَّ أنَّ عُذاركِ لغة شاذة لم تقع إلا سماعًا. والعذراء، بالفتح والمد: البكر. والاكتراث بالشيء: المبالاة به. والثوى، بالمثلثة والضم والقصر: خرقة تزال بها العذرات ويوقى بها الوطب[١]، وهو وعاء اللبن، أو يفعل بها ما يناسب ذلك. والحاصل أنها خرْقة ممتهنة مستقذرة. والثواءُ، بالمد والفتح: الإقامة. والمجد: المسرع، وهو بالنصب مفعول يثنى أى: يرد، والثواء فاعِله.

والبيت فِي المعنى كالذى قبله، أى: لا تبالِ بعذرك للعذراء ولا تهتم به، فما تريد إلا إقامة على حبها، أى: إن الشخص المجد فى رحيله ونقلته لأجل أشياء حقيرة ممتهنة كالثوى مثلاً[٢] ونظيرها ما يحب لأجله الحياة والبقاء فى الدنيا مِن متاعها الفانى قليل حقير لا قيمة له بالنسبة إلى ما أعد الله للمؤمنين ورغبهم فى طلبه مِن الجنة ونعيمها.

* * *

• قال رحمه الله تعالى[٣]:

١١٧ ـ وَلَنْ تُذْعَرَ الْحُمَّى بِحَمَّاءِ نَهْدَةٍ وَلاَ بِكُرَى اللاَّهِي تُرَامُ كَرَاءُ

قوله: «ولن تذعر الحمى» الواو: للاستئناف، ولن تذعر: ناصب ومنصوب مبنى للمجهول، والحمى: نائبه، وهى الحرارة العرقية التى تختص ببعض الأماكن. قال ﷺ: «الحمى مِن فيح جهنم فأبردُوها بالماء»[٤]. وهو أن ينغمس

(١) الوطب: الثدى العظيم، وسقاء اللبن.

(٢) الجملة السابقة فى النسختين فيها تفكك وربما تقديم وتأخير.

(٣) سقطت الآية من النسختين، وقد يكون بعدها شيء غير البيت.

(٤) حديث: «الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء» متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما بهذا اللفظ، وهو عند البخارى فى كتاب (بدء الخلق).

المصاب في نهر جارٍ قبل أن تطلع الشمس.

ومما كان يفعل رسول الله ﷺ ما روى عنه أنه كان يجلس في مخضب فيقول لهم: «صبوا على من سبع قرب لم تحل أوكيتها لعلي أعهد إلى الناس»(١).

وقد بحث في هذا الباب ابن الخطيب في تفسير هذا الأثر الشريف حتى قال: يحتمل أن يكون قول رسول الله ﷺ: «أبردوها بالماء» التصدق به ليبرد الله عنه حرّ الحمى وتلهبها كما برد عن أخيه المسلم حر العطش وتلهبه؛ إذ قد شوهد مراراً لأناسٍ أصابتهم الحمى فانغمسوا في الماءِ واغتسلوا به فانعكست إلى بواطنهم الحرارة فأتلفتهم. وقيل: إنما ينتفع بالاغتسال والانغماس مَن لم تكن حمّاه صفراوية أو بلغمية، بل كان بإقليم تغلب عليه الحرارة الملتهبة مِن شدة الحر والسموم كالحجاز وتهامة.

وقال ﷺ: «حمى يوم كفارة سنة».

وقال ﷺ: «الحُمى حظ كل مؤمن مِن النار»(٢).

ويروى عَن النبي ﷺ: «أنه دخل على عَائشة متوعكة تسب الحمى، فقال: لا تسبيها فإنها مأمورة، ولكن أعلمك كلمات إن قلتهن برئت، فقال لها: قولي:

---

(١) حديث: «أن النبي ﷺ أمر أن يغسل بسبع قرب من سبعة آبار»... إلخ. رواه الدارمي في مسنده، قال العراقي في تخريج (الإحياء): فيه إبراهيم بن المختار مختلف فيه عن محمد بن إسحاق وهو مدلس وقد رواه بالعنعنة (٤/ ٤٥٤).

قلت: وهو حديث طويل، أوله: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نغسله بسبع قرب من سبعة آبار، ففعلنا ذلك، فوجد راحة، فخرج فصلى بالناس، واستغفر لأهل أحد.. إلخ».

وأصل الحديث في الصحيحين، ولفظ البخاري: «هريقوا على من سبع قرب لم تحلل أوكيتهن لعلي أعهد إلى الناس. فأجلس في مخضب حفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب حتى طفق يشير إلينا بيده أن قد فعلتن. فخرج إلى الناس، وصلى بهم وخطبهم». كما أخرجه الترمذي والنسائي، والله أعلم.

(٢) حديث: «الحمى حظ كل مؤمن من النار» ضعيف رواه البزار، وعنه السيوطي تحت رقم ٣٨٤٦، قال المناوي: قال المنذري: إسناده حسن، وقال الهيثمي: فيه عثمان بن مخلدة ولم أجد من ذكره (٣/ ٤٢١) مجمع.

قلت: قد رمز له السيوطي بالضعف، وفي الباب أحاديث كثيرة بألفاظ مختلفة ضعيفة كلها، والله أعلم.

اللهم ارحم جلدى الرقيق وعظمى الدقيق من شدة الحريق، يا أم ملدم إن كنت آمنت بالله العظيم فلا تصدعى الرأس ولا تنتنى الفم ولاَ تشربى الدم ولا تأكلى اللحم، وتحولى عنى إلى مَن اتخذ مع الله إلهًا آخر». فلما قالتهن برئت.

والحماء، بالفتح والمد: أنثى الأحم أى: الأسود من كل شىء. والكرى، بالضم والقصر: جمع كرة، بضم الكافِ وتخفيف الراء بوزن بُرَة: وهى على ضربين: ضرب تتخذه الفرس من الغزل، ويجعلون له شراكَات، ثم يرمون به إلى الهواء، ثم يتخذونه هدفًا، ثم يرمونه بالنبل والقسى وهم يعدون تحته، فمن أصابه مرارًا متكررة فقد تعلم الخطو، ومن لم يصبه ذهبوا به إلى معلم القذفِ، ومَن أصابَ وأخطأ لم يكن عندهم برامٍ حاذقٍ فيتعلم بقدر ذلك، وأما كرة العرب فيملؤونها بالكتانِ والقطن ونحوهما، فيجعلون عليها جلدًا، فيكونون طائفتين يضربونها بالعصى، فمن أوصلها حَيَّة فقد غلب وكان أحذق فى معرفة المضارب.

ويروى: أنّ أول مَن لعب بها فتية الكهفِ، فبسببها نَجوا مِن كيد دغيانوس الجبار[١].

والكراء، بالفتح والمد: ثنية بقرب الطائف لا تكاد تسلك لارتفاعها فى الهواءِ وصعوبة مسلكها. فكأنه يقول: ولن تذعر الحمى فتفارق صاحبها بعدوِ فرس سوداء عالية الصهوة. والذعر: شدة الفزع، تقول: ذعر ذعراً وإذعاراً فهو مذعور، ورجل مذعار إذا كان كثير الفزع شديده.

قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المذعرين مِن أمتى».

وفى رواية: «ذوو الذعر مِن أمتى».

قال الشاعر:

ضرم لنار الفجر إذْ عَرَى ذُعْرُ وأعـارهُ الوجـد الفؤاد إذ عرا[٢]

قوله: لا تَرم: أىْ لا تحاول الثنية المسماة بكراء أى: صعودها باللعب بكرى الشخص الملاعب، وهذا تمثيل بعدم النجاة من المخاوف والأعراض اللاحقة بما

(١) لا أدرى عمن روى هذا القول.

(٢) هذا البيت غير مستقيم فى النسختين لا من حيث الوزن ولا المعنى.

يتنافس فيه الأحياء كالمراكب الحسان مثلاً، وعدم إدراك المعالى بالتقصير واللعب، وفى ضمنه الحث على الجد والتشمير وتركِ اللعب والفتور، وعدم الاعتداء بالحاصل مِن أمور الدنيا.

* * *

● **قال رحمه الله تعالى:**

١١٨ ـ وَمَا ذُو قُوىً أَمَّ الْقَوَاءَ بِقَاهِرٍ ... عُدَاهُ إِذَا لَمْ يَنْأَ عَنْهُ عَدَاءُ

قوله: «ومَا ذو قوى»: الواو: للاستئناف. ومَا: حجازية عاملة عمل ليس. ذو قوى: اسم ما ومضاف إليه. بقاهر: خبره. أمَّ: فعل ماض. القواء: مفعول به. والجملة نعت لذى قوى. والقوى، بالضم والقصر: جمع قوة، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم:٥]. والقواء، بالفتح والمد: القفز. والعُدى، بالضم: لغة فى العِدَى، بالكسرِ، والعَداء، بالفتح والمد: الظلم.

والمعنى: ليس صَاحب قدر ـ جمع قُدَرٍ ـ متعددة مِن متانة الجسم ووفور ذاتِ اليد مِن صفته أنه قصد القهر ليس هو بغالب أعدائه إذا لم يبعد عنه الظلم والتعدى. والمقصود منه بهذا التحذيرُ مِن الظلم؛ فإنه ظلمات يوم القيامة، ووعد على الظالم فى الدنيا. قال الشاعر:

ومَا مِنْ يدٍ إلاَّ يدُ اللهِ فوقَها ... ومَـا ظالمٌ إلا سيبلَى بِظَالِمِ

كما تقتضى ذلك عادة العزيز الجبار المنتقم مِن الظالمين والفجار.

والبيت مقتبس مِن قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وفى الحديث القدسى: «حَلَفَ الله أن لاَ يميت الظالم حتى يريه الهوانَ».

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

عِـدًى وللظلم سهـام تُنْتَظَرْ ... فى سيرها أسرعُ مِن لمح البصر

ترمى بها أيدى القضاء والقـدر

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١١٩ ـ أَلَمْ تَهْلِكِ الْعُزَّى بِعَزَاءِ حِزْبِهَا وَلِلْحَقِّ فِى هذَا سُمًى وَسَمَـاءُ

العزى، بالضم والقصر: سَمُرَة بالمجلل بَنَتْ غطفانُ عليها بيتًا وجعلت له سدنة، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فهدم البيت وحرق السمرة. وأصل العزى أنثى الأعز. والعزاء، بالفتح والمد: الشدة، وهى أيضًا الأرض الصلبة. والسُّمى، بالضم والقصر: لغة فى الاسم، تقول حمير: ما سُماك. وحزب العُزَّى: الطائفة التى عبدتها من غطفان، وهى سبب هلاكهم، وإسناد ذلك للعزى إسناد مجازى لا كَسْبىّ؛ لأنها سبب فى هلاكهم، والاستفهام هنا للإنكار، وإنكار النفى نفى، ونفى النفى إثبات، أى قد أهلكت العزى قومها، أى كانت عبادتهم إياها سببًا فى هلاكهم بشدة أو فى أرض صلبة، وهذا المعنى يراد بالاستفهام فيه التقرير؛ بأن يحمل المخاطب أن يقرَّ بما يعمله من هذا الكلام، وهو الإثبات لا النفى، والمراد بذلك الاستظهار ونصب الدليل على ما ادعاه فى البيت قبله من أن ذا القوى لا يقهر عداه إذا لم ينأ عنه الاعتداء، فإن حزب العُزَّى مع قواهم حيث اعتدوا بعبادتهم غير الله سبحانه وهو العزى أهلكهم أعداؤهم بعزاء ولم تنفعهم قواهم ولا العزى، والحق بهذا واضح، فله سمو وارتفاع، وعلو وامتناع، بمعنى أن كون ما ذكر حق لا ريب فيه ولا خفاء له، وقد صار كناية عن غاية الوضوح وشهرة الطموح، لأن لازم كونه ذا سماء أن يكون ظاهرًا ظهور الأمرية معه؛ فلا يحتاج حينئذ إلى ما يحتاج إليه غيره من الطموح، وذلك غاية الظهور، ولازم كونه ذا اسم أن يكون معروفًا به مشهورًا بتخصيصه.

فالبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٤٢].

وفى مثل هذا يقول على رضى الله عنه فى بعض وصاياه لولده: اعلم يا بنى أنه لو كان له شريك لأنبأَتْ به رسله، ولرأينا آثار ملكه وسلطانه، ولعرفنا أفعاله وصفاته، ولكنه إلهٌ واحدٌ لا يضاده فى ملكه أحد، منزهٌ عن أن يحده زمان، مقدس عن أن يحيط به مكان، تراه أبصار الأبرار فى دار القرار، على ما دلت عليه الآيات والأخبار، حى قادر مقتدر جبار قاهر، لا يعتريه عجز ولا قصور،

ولا تأخذه سنة ولا نوم، له الملك والملكوت والعزة والجبروت، خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم، لا تحصر مقْدُوراته، ولا تتناهى معلوماته، عالم بجميع المعلومات، لا يعزب عن عمله مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء، يعلم السر وأخفى، فيطلع على هواجس الضمائر وخفيات السرائر، مريدٌ للكائنات، مدبر للحادثات، لا يجرى فى ملكه قليل ولا كثير، جليلٌ ولا حقيرٌ، خير أو شر، نفع أو ضر، إلا بقضائه وقدره، وحكمه ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو المبدئ المعيد، والفعال لما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، ولا مهرب لعبده من معصيته إلا بعصمته ورحمته، ولا حول ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته، لو اجتمعت الإنْسُ والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرةً أو يسكنوها دون إرادته سبحانه وتعالى لعجزوا، سميع بصير، متكلم بكلام لا يشبهُه كلام خلقه. كل ما سواه سبحانه وتعالى فهو حادث وُجد بقدرته، فما من حركة ولا سكون إلا وله فى ذلك حكمة دلت على وحدانيته. وفى ذلك يقول أبو العتاهية: (من بحر المتقارب)

فيا عجبا كيفَ يُعْصَى الإلـ ـه أم كيـف يَجْحَدُهُ الجاحدُ
وفى كـل شـىء له آيةٌ تدل على أنه الواحـــدُ
ولله فى كل تحريكـــةٍ وتسكينة فى الورى شاهِــدُ

وقال غيره: (من بحر الخفيف)

كلُّ مــا ترتقى إليه بوهمٍ مِن جَـلال وقـدرة وسناءِ
فالـذى أبدع البـريةَ أعلى منه سبحان مبدع الأشياءِ

* * *

• **وقال رحمه الله تعالى:**

١٢٠ ـ وَكَمْ مِنْ طُخًى زَالَ الطَّخَاءُ بِوَدْقِهَا
فَفَاضَتْ هُوًى مِنْهُ وَضَاقَ هَوَاءُ

قوله: الطُّخى، بالضم: جمع طخية، وهى قطعة من السحاب، وقد تفتح الطاء ويراد به حينئذ الظلام، ويطلق ويراد به الكثافة.

قال البوصيرى: (من بحر الخفيف)

شمس فضل تحقق الظنُّ فيـه   أنه الشمس رفعة والضياءُ

فإذا ما ضحى محا نوره الظـ   ـل وقد أثْبَتَ الظلالَ الطخاء

ولابن حجر رضى الله عنه فى شرحه للهمزية عند هذين البيتين من التفسير البديع ما أجاد فيه وأفاد، وأتى بما يشفى الغليل وزاد، فقال: إنما لم يكن لشخص النبى ﷺ ظل لأنه شخص نورانى، بل هو النور الذى تنورت من مضاعفة أنواره النيرات، فكيف يثبت له ظل؟! والأنوار المكتسبة من نوره تمحو الظلال فما ظنك بنور استنارت من أدنى جزء من نوره النيرات؟ قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٥ ـ ٤٦].

فبهذا الاعتبار يكون الظل على ثلاثة أقسام: ظل مستقل، وظل ممدود، وظل موصوفٌ بالسجود للملك المعبود، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ٤٨].

فالظل المستقل هو سواد الليل فى مقابلة بياض النهار، فكما أن النهار ينفى الظلال إلا ما أبقاه الله من ظلال الأجرام الكثيفة، فتطرده الشمس يمينًا وشمالاً، وهو الظل الموصوف بالسجود للملك المعبود، قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾ [الرعد: ١٥]، فالليل لا يمحو الظلال حقيقة وإنما يغطيها ويسترها بكثافة إلا ما أظهره القمر بنوره.

وأما الظل الممدود فما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس، ومعنى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان: ٤٥]: ألم تر إلى قدرة ربك ونفوذ أمره وبارع حكمته كيف مد الظل فيما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس؟! جعله ممدودًا لأنه ظل لا شمس معه كظل الجنة، ولو شاء لجعله ساكنًا أى: دائمًا ثابتًا لا يزول ولا تذهبه الشمس، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً﴾ [الفرقان: ٤٥]، معنى دلالتها عليه أنه لو لم تكن الشمس لما عرف الظل، ولولا النور لما عرفت الظلمة، والأشياء تعرفُ

---

(١) الطخاء: الوسخ.

بأضدادها، ﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان:٤٦]، يعنى الظل إلينا قبضًا يسيرًا بالشمس التى تأتى عليه. والمعنى أن الظل يعم جميع الأرض قبل طلوع الشمس، فإذا طلعت الشمس قبض الله الظل جزءًا جزءًا قبضًا خفيفًا.

وفى ذلك يقول الفاضل النحرير الجامع بين الحقيقة والشريعة السيد محمد الأمين بن السيد المختار بن أعمر إذ يقول: (من بحر الكامل)

كالظل يظهر جرمُه من شخصه ... متقلصًا باللطف عند إيابه
إنْ قلتَ فرقًا فهو فرقٌ ظَاهرُ ... أو قلتَ جمعًا فهو عينُ صوابه
فَلقبْضِه وللطفه وبيانه ... سِرٌّ يُوَصِّلُهُ إلى أربَابه
فدَع اللآلئ فى خَفَا أصدافها ... فى لجها والسِّرُّ خَلْفَ حجَابِهِ
فعبارة العلم المصون إشارةٌ ... لأولى النهى يبديه من جلبابه
عبرٌ وأمثال وأسرارٌ بدتْ ... من نَصِّها فى حكمها المتشابِهِ

والطخاء بوزن السماء: كرب يعلو القلب. والودق: المطر الشديد الوقع، تقول: وَدق يدق كوعد يعد. والهُوَى، بالضم والقصر: جمع هوة، وهى كُل حفرة بعيدة القعر. والهواء، بالفتح والمد: ما بين السماء والأرض.

وكأنه يقول: كثيرًا ما أزال الله كربَ القلوب والضرر النازل بأهلها بسبب ما ينزل من قطع السحاب من المطر؛ فيتسبب عن ذلك الودق بكثرته فيضان الحفر البعيد القعر، ويضيق ما بين السماء والأرض بتراكم وهيجان الأنواء، وهذا من معنى قولهم: «بلغ السيل الزبى» جمع زبية، وهى الهوى. ومن شأنهم أن يحفروها فى الأمكنة المرتفعة التى لا ينالها السيل، فإذا بلغها السيل كان شديد القُوى وبطلت الحيلة فى دفعه؛ فيضرب مثلاً لشدة الأمر.

قال الشاعر:

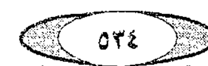
بلغ السيل الزبى يا سادتى ... وغدا السيفُ على متنِ الودجْ
فانهضوا نهضة حام للحمى ... طال ذا الليلُ ولا بدرَ يلجْ

وقد يقال: إن فى هذا الكلام إرشادًا لأن الله سبحانه هو الرزاق، وإن رزق

العباد في السماء؛ فلا يتأتى أنْ يُتَوصَّلَ إليه بقوة ولا حيلة لكن بمحض فضل الله وسابق ضمانه، كما قال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، وهو المطرُ، فهو تعالى يرسل الرياحَ بحكمته؛ فتثير سحابًا برحمته ﴿فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ [فاطر:٩] لفاقته، فأحيينا به الأرض بعد موتها إظهاراً لقدرته ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢] تصديقًا لوعده، ودليلاً على صحة بعثه. وفيها أيضًا الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يقنط لتأخير الرزق وبطئه؛ فإنه سبحانه قد وَعد بأنه ﴿يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ [الشورى:٢٨]، وكثيراً ما يكون الأمر كذلك ليَعظُم موقعُ منة الله سبحانه بالمطر ونشر الرحمة في القلوب ليعظم شكرها؛ فتتضاعف الزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب:٤].

ولما انتهى الكلام على ما يضم فيقصر ويفتح فيمد عقبه بـ:

* * *



[باب] ما يفتح فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

عكس ما قبله، فالمفتوح هنا مقصور وفيما تقدم ممدود، والمضموم هنا ممدودٌ وفيما قبله مقصور.

● ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤١ - حَلًى بِحُلاءِ ذِي الدُّنْيَا فَعَزِيزُهَا يَصِيرُ لَقًى أَوْ يَعْتَرِيهِ لُقَـــاءُ

حلًى، بالفتح والقصر: مصدر حَلِي بالشيء، بالكسر: ظفر به. والحُلاء، بالضم والمد: جمع حلاءة، وهى القشرة التى تحلى من الجلد، وهى بضم الحاء والمد، بوزن ثمامة، يقال: حلا الجلدُ، بالهمز، كمنع: زال قشره وبشره. ولقىً، بالفتح والقصر: الشيء الملقى غير معبوء به. واللُّقاء، بالضم والمد: اللَّقوة، بفتح اللام: وهى استرخاء أحد شقى الوجه، يقال: لقى الرجل كعنى، فهو مُلقى وملقاء ولقاء.

فكأنه يقول: إن هذه الدنيا وما فيها من المتاع حقير، نظير القشرة التى تخرج من الجلد عند زوال قشره وبشرته، وذلك أجلى ما يكون وأهونه فى العيون، فالظافر بأعْراضها وإن عظمت فى عينه نظير الظافر بقشور الجلد المنشور فى كونها لا تسمن ولا تغنى من جوع الآخرة، ولا ترد عن صاحبها قلامة ظفر مما يصيبه ويأتى به القدر، فعزيزها بكثرة جاهه بحسب ما جمع من أعراضها يصير مطروحًا فى حفرة من الأرض غير معبوء به، أو يعتريه قبل ذلك من الأعراض والأمراض ما يصير به عبرة لمن اعتبر، وذلك كاللُّقوة التى تشين الخلقة بتشيينها أشرف أعضائه وهو الوجه؛ فهى كالفالج فى التعطيل.

والمعنى: أن عزيز الدنيا لابُدَّ أن يذل بأن يسلب العز الذى اكتسبه فى الدنيا بما جمع بالموت حسًا ومعنى، وذلك بأن تطرأ عليه المعطلات والعلل المزمنات التى يستهون صاحبُها الموتَ، والعياذ بالله من جهد البلاء ودرك الشقاء وشماتة الأعداء.

قال رسول الله ﷺ فى بعض مواعظه: «كثير الدنيا يقل، وعزيزها يذل، وجديدها يبلى، وشديدها يفنى». لا جعلها الله أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا.

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٢ ـ رِوًى وَصَدًى لاقَتْ⁽¹⁾ صُدَاءٌ وَلِلْمَدَى
يَدَاءٌ صَحِيحٌ أَوْ يَصِحُّ مُدَاءُ

الصدى، بالفتح والقصر: مصدر صدى الرجل: إذا عطش، ضد روى. وصداء، بالضم والمد: حىٌّ من حمير، منهم الصُّدائى صاحب رسول الله ﷺ الذى قد ترجم له فى الإصابة. والمَدى، بالفتح والقصر: الغاية هنا. وَيَدَاءُ، بالفتح والمد: مضارع دَاءَ الرجلُ، بوزن جاءَ: أصابه داء، أى: مرضٌ. والمُداءُ، بالضم والمد: اسم مفعول من أدأته: أصبته بداء، فباعتبار المَداء يصح أن يكون بضم الياء مضارع أدأتَه مبنيًا لما لم يسم فاعله، وباعتبار اللفظ فالمناسب له أن يكون فعل فاعل مفتوح الياء كما تقدم، وعلى الثانى يكون مفعولاً ناب عن الفاعل. وقضَّت بتشديد الضاد المعجمة كقَضَتْ بالتخفيف، يقال: قَضى وَطره وَقضاه، بالتخفيف والتشديد، وقضَّاء بكسر القاف وتشديد الضَّاد ككذاب: أتمَّه وبلغه. ورِوى، بالكسر: مصدر رَوى من الماء وغيره كَريان ورَيَّانَان بالكسر والفتح.

والمعنى: أن هذه القبيلة نالت مع طلوع المدى الذى لا يدوم على حال ارتواء من اللبن، وعطشًا مما ذكر، أى نالت نعيمًا وبؤسًا، وشدة ورخاء، وسعة وضيقًا، وللمدى ـ أى الغاية ـ التى يعمر الإنسان من الزمان، فلا بد له أن يصح فيه بعد المرض، ويمرض فيه بعد الصحة ؛ لعدم دوامه على حال، فإن ذلك منْ قضائه، كما. قال المعتمد بن عباد: (من بحر الطويل)

نعيم وبوس ذا لذلك ناسخٌ   وبعدهما نسخ الأمانى الأمانيا

فاعتبر بحال أخى صداء يا مَن ليس أخا الصُّدَاء، والقوم أمثالكم لهم شعر فى الرأسِ، وما جاز على المثل يجوز على مماثله. فروًى وصَدًى مفعولان لقضت مقدمان عليه، يعنى أن الأول مفعول والثانى معطوف عليه.

ونظم هذه الأعراض الجارية بعض الأدباء، فقال: (من بحر الطويل)

---

(١) جرى الشرح على رواية: روى وصدى قَضَّت.

ثمانيـة تجرى على المرءِ دَائِمًا ... ولاَ بد للمرء أن يلقى الثمانيا[1]

سرور وحزن واجتمـاع وفرقة ... وعسر ويسر ثم سُقم وعَافيـا

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٣ ـ وَمَا ذُو مَكًى أَوْ ذُو مُكَـاءٍ بِمُهْمَلٍ ... فَكَمْ عِبْرَةٌ أَجْـدَى رَنًى وَرنَاءُ

المَكى، بالفتح والقصر: مأوى الثعلب. والمكاء، بالضم والمد: الصفير، قال الله تعالى حكاية عن أحوال المشركين: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

والرنى، بالفتح والقصرِ: المنظور إليه لحسنِه. الرنَّةُ على الميت.

قال الشاعرُ الشنفرى: (من بحر الطويل)

إذا زل عنها السهم رَنَّتْ كأنَّها ... مُرَزَّأَةٌ ثكلى ترنُّ وتُعْـولُ

وأجدى: أى أفاد. والعبرة، بالكسر: العجَب، بالتحريك: ما اعتبر منه، أى تعجب.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى لم يخلقْ شيئًا من خلقه عبثًا مهملاً من الحكم والفوائد، بل جميعه مشتمل على المصالح العظيمة، حتى ذو المكى كالثعلب وصاحب الصفير لما هو عليه من اللؤم، فإنه يفيد اعتبارًا لمن نظر إليه أو سمع صوته، يدلَ على أن له صانعًا فاعلاً مختارًا عالمًا حيًا، إلى غير ذلك، وهذا معنى قوله: «فكم عبرة.. إلى آخره» أى: فكم من العبر أفاد منظور إليه لحسنه أو صوت حسن كالطيور مثلاً. والمقصود الأمر بالنظر فى مخلوقات الله، واعتبار أشكالها وألوانها وأصواتها؛ فإنها تفيد الناظر فيها عبرًا كثيرة جليلة بأنها لم تخلق عبثًا، ومن أجلِّ ما خلقت له النظر فيها، ولذلك أمر الله سبحانه بذلك فقال:

---

(١) هذا العجز لا يستقيم وزنه هكذا إلا إذا كان:

* ولا بد للإنسان يلقى الثمانيا *

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ولقد قدمنا فى صدر هذا الكتاب من أنواع النظر والاعتبارات ما فيه كفاية.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٤ - وَيُبْهِى النَّقَى ذَا الْعِلْمِ حَازَ نُقَاءَهُ ... وَمِثْلُ الْمَهَى قَلْبٌ لِذَاكَ مُهَاء

ويبهى، بضم الياء: مضارع أبهى الشىء: جعله ذا بهاء. والنقى، بالفتح والقصر: دقة القصب، والنحافة هنا، يقال: رجل أنقى، وامرأة نقواء، والنقاء، بالضم والمد: جمع نقاوة، وهى الخيار من كُلِّ شىءٍ. ومن أسمائه ﷺ المنتقى أى: المنتخب من كل شىء؛ لأن الله انتقاه واختاره من جميع خلقه. والمهى، بالفتح والقصر هنا: البلور، وهو نوع من أنواع الأحجار النفيسة . والمُهاء بالضم والمد: المهيأ للشىء المؤهل لَهُ.

والنقى: فاعلُ يُبْهى. وذَا العلم: مفعوله. وحاز نُقاءه: حال من المفعول. ومثل المهى: مبتدأ، وقلب لذاك مهاء: خبره.

والمعنى أنَّ دقة القصب وَالنَّحَافة يصيران صاحب العلم ذا بهاء فى حال كونه حَائزًا خيار العلم، قلبه مهيأ لحوز نقاء الأحوال المقتضيها صفاء القلب، حتى يصير مثل البلور الذى لاَ شىء يدانيه فى الصفاء؛ ففى هذا إغراء بتعليم نفيس العلم وَخياره، وَحث صاحبه على الإقلال من الأكل والشرب الذى يتسبب من قلتهما نَحافته التى تلين القلب. قال ﷺ: «لا يصح العلم لمن يأكل حتى يشبع».

وقال ﷺ: «إن الله يبغض الحبر السمين»(١).

(١) حديث: إن الله يبغض الحبر السمين» رواه البيهقى فى الشعب وحسنه، وزاد: «وأهل البيت اللحميين»، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٦١، وأورده أبو نعيم من قول أحد الحكماء، وعزاه الغزالى فى الإحياء إلى التوراة.

وقال بعض المفسرين عند قوله تعالى: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ أن مالك بن الصيف أحد أحبار اليهود قال له رسول الله ﷺ: أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟ وكان حبراً سمينًا، فقال: ما أنزل الله على بشر من شىء. أخرجه الطبرانى مرسلاً، وكذا الواحدى فى أسباب النزول، وعزاه القرطبى إلى الحسن البصرى، والله أعلم.

وقال ﷺ: «مَن كَثر شحم بطنه قل [فقهه] فقه قلبه».

وقال على رضى الله عنه: السمن تجارة النساء، وحرفة اللئام، وعيب فى الرجال الكرماء؛ لأنه ثقل فى الحياة، ونتن بعد الممات.

وفى الحكم: البطنة تذهب الفطنة.

* * *

باب ما يضم فيقصر ويمد باختلاف المعنى

يعنى أن المقصور والمدرد كما اتفقا فى المادة اتفقا أيضًا فى الحركة وهى الضمة، ولا اختلاف فيهما إلا من المعنى.

• ثم قال رحمه الله:

١٢٥ ـ نُهَى الأَمْرِ لاحِظْ والنُّهَاءَ اعْتَبِرْ بِهِ   وَأَلْغِ مُنًى عَنْهَـا اللَّبِيبُ مُنَـاءُ

النهى، بالقصر هنا: النهايات. والنهاء، بالمد: ارتفاع النهار. والمنى، بالقصر: جمع منية: وهو ما يتمنى. والمناء، بالمد: المُبْعَد، اسم مفعول من أناَه: أبعده فناء.

فكأنه يقول: اعتبر نهايات الأمور، وارع عواقبها قبل أن تأتيها، فإنْ كان خيرًا فبادر، وإن كانت غيرًا فاترك، وإن اشتبهت عليك فأمسك، وارقب ارتفاعَ النهار فاعتبر به، ولا تتصرف فى الظلام مخافة أن تقع فيما يرديك؛ وهذا تمثيل للإمساك عند اشتباه الأمور؛ فإن ذلك بمثابة الظلام الذى لا يرى السالك فيه ما تحته، وتبين العواقب بمثابة ارتفاع النهار، واترك ما تتمناه نفسُك وتشتهيه من الأشياءِ التى تصير اللبيب مبعدًا عن ساحةِ بحر الفتوة والمروءة.

وحاصل ما ذكر أنه يأمرك بالعمل على يقين، ولا تقدم حالة الشك والالتباس واترك هوى النفس فإنه يلقى صاحبه فى الهوى.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٦ ـ وَلَوْ كُنْتَ فى قُرًى فَقُرَاءَ اثْبُتَنْ   فَمَا الأُرَبَى رِيعَتْ بِهـا الأُرَبَاءُ

قوله: «ولو كنت فى قرى»: فلو للإغياء. كنت: كان واسمها، فى قرى: خبرها. فقرى، بالضم والقصر: موضع فى بادية العراق. والقراء، بالضم والمد: الرجل الناسكُ هنا. والأربَى، بالقصر: الداهية. والأرباء، بالمد: العقلاء، واحدهم: أريب، وريع بكذا: أى حصل له روع بسببه، والروع: الفزع.

والمعنى: كن عابِدًا ناسكًا حيثما كنت، ولو كنت فى البادية المسماة بقُرى؛ فبذلك تدخل فى حزب العقلاء الذين لا يروعهم الأربى ولا يبالون بالداهية النكراء.

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٢٧ ـ وَصِدْقُ الرُّؤَى زَانَ الرُّؤَاءَ ولِلنُّهَى
دَلِيلٌ إذَا رَاقَ الْعُيُونَ نُهَاءُ

قوله: «وصدق الرؤى»: الواو: للاستئناف. والصدق: ضد الكذب، هو اسم مصدر، تقول: صدقَ يصدق صدقًا. الرُّؤَى: مضاف إليه ما قبله، وهو بالقصر: جمع رؤيا على غير قياس، وهو مَا يراه النائم. والرؤاء، بالمد: المنظر الحسن. والنهى، بالقصر: العقل التام. ولعل الناظم رَحمه الله أشارَ بهذا الكلام إلى الحديث، وهو قوله ﷺ: «أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثًا». ولا ريب أنَّ الصدق يزين صاحبه. والنهاء، بالمد: الزجاج. والرؤاء، بالنصب: مفعول زَانَ، وفاعله صدق الرؤى.

والمعنى أنَّ صدق المنامات يزين الصور الحسانَ المنظرَ؛ لأن ذلك دليل على صدقهم فى الحديث، وبذلك يقع الزين الحقيقى، وما يدل على ما به الزين يزين، وصدق الحديث مِن كَمال العقل، وبه يقع التفاوت فى الدين، وهذا أدل دليل على كَمال العقول، يعنى صدق الحديث الذى يدل على صدق الرُّؤى، وهو معنى قوله: وللعقول دليل على أكمل العقول؛ فيستدل بِهَا على وُجوده، وهو صدق المنامات التى تدل على صدق الحديث الدال على وفور العقل، جعلنا الله من أصدق الناسِ حديثًا، حتى نكون مِن أكملهم عقولاً، فنظفر بخير الدارين.

ويحتمل ـ وهو الأولى إن شَاء الله ـ أن تكون اللام فى «وَللنهى» دليلاً على بابها لا بمعنى «على»، وجعل الدليل للعقل، بمعنى أنه يدرك بمعونته حسن الأشياء بأنْ يدرك حسن الرؤاء بحسن رؤاها؛ فيستدل بذلك على صدق الحديث، وهو صفة كمال، وهذا هو الحُسْنُ العقلىُّ: يمدحُ فاعله عاجلاً، ويثاب عليه آجلاً، فهو

مِن أجل هذا حُسْن شرعى أيضًا، ويدل على أنَّ المراد بقوله: «كما راق العيون نهاء» هذا المعنى؛ فهذا تقرير معنى البيت، وليس هو ما عليه السلف من المحدثين؛ لأن المَرَائى نوع مِن الوحى لا تؤثر فيه العقول ولا النُّهى، بل لا يكون إلا بموهبة ربانية ومنقبة رحمانية اقتضتها وراثة الأنبياء، وصفاء زجاجة القلب مِن كدر الذنوب ورين العيوب، وصدق اللسان والتخلق بالتقوى والإحسان؛ إذ الأقلام التى فى أيدى الملائكة اليوم اثنا عشر قلمًا؛ منهم قلم رؤى المنام، فإذا نام الإنسان الصالح فبمجرد ما تنام عين رأسه تنفتح عينا قلبه، وبقدر ما تغيب أذناه عن إدراكِ المحسوساتِ تنفتح أذنا قلبه، فيبعث الله إليه الملائكة الموكلين بالرؤيا، فيصورون له فى لوح من نور ما لا يراه بعينيه، ويسمعونه ما لا يَسْمَعُ فيسمعه مِن غير شك ولا مراء، فهذا أدنى مراتب الصديقين، ومنهم مَن إذا نام أخذت الملائكة روحه فجالت بها فى الملكوت، فيرى ما لا يدركه التعبير ولا يحيط به التخبير.

وأما عامة المؤمنين فلاعتبار مرائيهم شروط: أن يكون صادقَ اللسان، غير ممتلئ بطنه مِن الطعام، متكئًا على شقه الأيمن، مستغرقًا فى النوم، نام على طُهر، أخذه النوم على ذكر، غير مفتون بالدنيا، ولا مغرم بأمر، ولا متعلق قلبه بالكشوفات؛ فهذا تعتبرُ رُؤياهُ وتفسر ويعتنى بها. وأقرب المرائى وأصدقها ما كان فى الثلث الأخير مِن الليل، والليليات أصدق من النهاريات. وأصدق النهاريات ما كانت من الهاجرة إلى خروج وقت الظهر، وأبعدها وأكذبها مَا رئى مِن الشروق إلى الضحى الأعلَى، وما رئى بعد صلاة العَصْرِ إلى المغرب، ومرائى الصيف أصدقُ المرائى، ويليها فى الصدق الربيع، وأكذب المرائى مرائى الخريف، ويليها فى الكذب الشتاء.

وأما الكاذب والفاسق فإنما يريان الحلم، قال ﷺ: «الرؤيا مِن الله، والحلم مِن الشيطان»[1].

وقال ﷺ: «مَن رأى منكم فى منامه ما يكره فليتعوذ بالله، ولينفث على يساره ثلاث مرات، وليقل: اللهم إنى أعوذ بك مِن شر ما رأيت فى منامى هذا أن يضرنى فى دينى ودنيايَ، ولا يحدث بها أحدًا فإنها لا تضره»[2].

(١، ٢) حديث: «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان»، وحديث: «من رأى منكم فى منامه ما =

وقال ﷺ: «إذا تلاعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يخبر بذلك أحدًا، وليتعوذ بالله من شرها».

وفى «المواهب اللدنية» ما نصه: قال: إذا نام الإنسان فإن كان صالحًا خرجت روحهُ ولها شعاعٌ متصل بالعرش، والحفظة حافون من حولها، فلا يدنو منها شيطان إلا نفحته الحفظة نفحة تبلغه أحد الخافقين، فلا يرى إلا حقًا، ولاَ يسمعُ إلا صدقًا، وذلك حقيقة الرؤيا.

قال الرسول ﷺ: «لم يبق من النبوءة إلا المبشرات، قالوا: ومَا المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح يراها أو ترى له»[1].

وأما الفاسق والمنافق فإنه إذا نام احتوشت الشياطين نفسه؛ فلا يزالون يتلاعبون بها؛ فلا يرى إلا كذبًا أو لعبًا، وربما صدق نادرًا، فيكون ذلك من باب صدق الكاهن؛ لأنَ الشياطين ربما ألقوا إلىَ الكَاهن الكلمة ونحوها مما يسترقونه من الاستماع من الملائكة؛ فيضيفون إليه مائة كذبة، ولا فرق بين اليقظة والمنام فى ذلك، وربما رأى الكافر الرؤيا فصدقت كما صدقت رؤيا الريان بن الوليد العملقى، فيجاب عن تلك أنَّ الله تبارك وتعالى أراه تلك الرؤيا الدنيوية ليخرج بسببها يوسف عليه السلام، أجراها له على قلب الريان بن الوليد. وكذلكَ رؤيا بختنصر فإن الله جعلها سببًا لنجاة عزيز وإخراج دانيال من الجب ورجعة بنى إسرائيل إلى بيت المقدس، ولتكون لهم الكرة عليهم؛ فبان من هذا أن الكافر والمنافق فى ظلمات الإشراك والارتباك، فما يقع من صدق مرائيهم نَادرًا مما يدل على مناقضة الحديث الصحيح ومخالفته فمؤول بما ذكر، فليتأول، وفى هذا كفاية لمن نور الله بصيرته؛ إذ لسنا بصدد التطويل، والله الموفق لا رب غيره، ولا خير إلا خيره.

= يكره»... إلخ. حديث واحد متفق على صحته، رواه الشيخان وأبو داود والنسائى وابن ماجه بألفاظ مختلفة، ولفظ البخارى: «الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليبصق عن يساره، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره». وهو عنده فى كتاب (بدء الخلق)، والله أعلم.

(١) حديث: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى بدون «من الرجل الصالح يراها أو ترى له» ورواه مسلم بالمعنى، وهو عند البخارى فى كتاب (التعبير)، والله أعلم.

* ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٨ـ وَكَرُّ الْمُلَى يُفْنِى الْمُلاَءَ مَعَ اللَّقَى　　كَنَارِ ذُكًى لَمْ تَعْدُهُنَّ ذُكَاءُ

قوله: «كرُّ المُلَى»: الكرُّ: بمعنى التكرار كما يقال: كرُّ الجديدين، الملى، بالقصر والضم: جمع ملوة، وهى الملوة، بالضم، أو جمع مُلْوٍ: أحد الملوين، وهما الملوان. قال الشاعر: (من بحر الرجز)

إن الجديدين إذا ما استوليا　　على جديد أدنياه للبلى

والملاء، بالضم والمد: جمع ملاءة: وهى الريطة، والريطة: الرقيق المنتخب من الكتان وربما نسج بذهب، وربما نسج بفضة، وهو من أجود الثياب بعد الوشى، كما. قال حسان: (من بحر الطويل)

أتفخر بالكتّانِ لَمَّا لبسته　　وقد يلبس الأنباط رَيْطًا مقصرا

فلا تك كالوسنان يحلم أنه　　بِقَرية كسرى أو بقرية قيصرا

ولا تك كالثكلى وكانت بمعزل　　عن الثكل لو كان الفؤاد تفكرا

ولا تك كالشاة التى كان حتفها　　بحفر ذراعيها فلم ترض محفرا

ولا تك كالعاوى عوى قبل نحره　　ولم يغشه سهم من الموت مضمرا

فإنا ومَن يهدى القصائد نحونا　　كمستبضع تمرًا إلى أرض خيبرا

واللقى، بزنة فتى: ما طرح من ثياب وغيرها استهانة وله ورغبة عنه. والذكى، بالضم والقصر: جمع ذكية، بالضم: وهو ما تلتهب به النار من حطب وغيره. وذُكاء، بالضم والمد: اسم للشمس.

فتركيب البيت هو أن كر المَلَى أى: مضى المُدَد ومرورها، يفنى الثياب الحسان، الجدد، فى حال كونها مصاحبة لِمَا أُلقى غير معبوء به بعدما كان يزهو به لابسه، كما صار يزهو اليوم بهذه الجدد؛ فإنها سيبليها مرور المُلى كما أبلى الخلقان والدارسات التى صارت بين يديه لقى، فالثياب ولابسوها يفنيها مرور الملوين كما يفنى الحطب الجزل ضرامُ النار عليه بسبب إلقائه فيها.

يروى أن النبى ﷺ قال: «إياكم والجلوس فى الشمس؛ فإنها تبلى الثوب،

وتغير اللون، وتنتن الرائحة، وتثير الداء الدفين»(١).

فنسبة النار إلى الأحطاب كنسبة الشمس إلى الثياب، فكما أن النار تحرق الحطب فكذلك تفنى الشمس الثوب، فهذا تمثيل منه أنه لا بقاء لزرجون الدنيا لأنه إلى العدم يؤول، وكما وُجد يزول؛ فلا يغتر به إلا جاهل مفتون أو خاسر مغبون. وقد تقدم فى هذا الباب ما فيه كفاية لمن له حظ وعناية؛ جعلنا الله من جعل له واعظًا من نفسه؛ فإن من لا واعظ له من نفسه لا واعظ له.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٢٩ ـ وَجَذْبُ البُرَى يُبْرِى البُراءَ وفى الرُّغَى
لِذَاتِ رُغَــاءٍ لا تَشحُّ بُقَــاءُ

قوله: «وَجذْبُ البُرى»: الجذب: هو الأخذ بقوة. وَالبُرى، بالضم وَالقصر: جمع برة، بالتخفيف: وَهى الخزامة، وَإنما تُجعل فى أنف البعير القوى الصعب الشكس. قال الرسول محمد ﷺ: «المؤمن هين كالجمل المخشوش ـ «أى الذى فى أنفه خزامة» ـ أينما قيد انقاد، ولو أنيخ على صخرة لأناخَ. والمنافق صعب شرود كأد كنود».

يروى أن النبى ﷺ لما حُصِر عام الحديبية عن الحج بعث إلى البيت ستين بدنة لتنحر، وبعث فى جملتها جملا لأبى جهل فى أنفه برة من ذهب ينكأ بذلك قريشًا. والبراء، بالضم والمد هنا: جمع براية، بالضم: وهو قوة البعير على السير، تقول: لى فرس أو جمل يبارى الريح، أى يجاريها فيغلبها، أو يماثلها، مع أن المباراة المغالبة فى كل شىء، وإنما يقال: البراء لمن عرف بذلك ونسبت إليه. والرغى: جمع رغوة، وهو ما يعلو اللبن عند الحلاب، ولقد وردت فيه آثار

---

(١) حديث «إياكم والجلوس فى الشمس» موضوع أخرجه الحاكم فى المستدرك (٤/١١/٤)، قال الذهبى: قلت هذا من وضع الطحان، وسكت عليه الحاكم، وتعقبه الذهبى بالجملة السابقة.
وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ١٨٩ وقال: موضوع، وأورده السيوطى فى جامعه فقال المناوى: فكان ينبغى للمصنف حذفه (٣/ ١٣٠)، والله أعلم.

واهية، وهو قوله ﷺ: «سيهلك من أمتى أهل اللبن، قيل له: ومن أهل اللبن يا رسول الله؟ قال: قوم يميتون الإسلام ويتبعون الشهوات، ولا أخاف عليهم إلا من اللبن؛ لأن الشيطان بين الضرع والرغوة»(١).

ويناسبه قوله ﷺ: «على سنام كل بعير شيطانان»(٢).

وقال ﷺ: «إذا تبايعت أمتى بالعينة واتبعت أذناب البقر صب الله عليها ذلاً لا يفارقها حتى تراجع دينها وهو الجهاد»(٣).

والرغاء، بالضم والمد: صوت البعير إذا عولِجَ، وإلا فحنين، وإن صوت فى صدره فرزام، يقال: أرزمت الناقة: إذا صوتت فى صدرها من غير أن تفتح فاها، وحنت إذا فتحت فاها ورفعت صوتها طلبًا لإنفٍ أو ماءٍ أو مرعًى، أو رغت: إذا عولجت، والرغاء بمنزلة التحنن والثناء. وفى المثل: «حنت ولا تأنت» وله حكاية طويلة أعرضنا عن ذكرها.

فكأنه يقول: إن جذب الحلَق التى فى أنوف الإبل الصعاب تذللها وتظهر ما عندها من القوة على السير، وهذا تمثيل لإظهار ما عند النفس من الجلد والتجلد عند أخذ صاحبها لها بالمجاهدة وحملها على ما ليس من مألوف طبعها، فإن كانت كريمة منورة هانت ولانت ثم انقادت وكادت(٤)، كما قال الشاعر:

* هى النفس ما حملتها تَتَحملُ *

فهى بمنزلة الجمل الصعب الذى يراض بالخزامة التى ربما تجمل بها بعد ذلك فمن رآه ورأى الخزامة فى أنفه علم أنه راحلة. فمن راض نفسه على الاجتراء

(١، ٢) يكفى أن الشيخ قال: إنهما واهيان.

(٣) أما حديث «إذا تبايعت أمتى بالعينة»... إلخ. فيه مقال أيضًا، رواه أبو داود، وأخرجه السيوطى تحت رقم ٥١٤ ورمز له بالحسن.

قال المناوى: وفيه أبو عبد الرحمن الخراسانى واسمه إسحاق عَدَّ فى الميزان من مناكيره خبر أبى داود هذا.

العينة، بكسر العين المثناة تحت ونون: وهو أن يبيع سلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه بأقل، وهذه الصفة مكروهة عند الشافعية، والبيع صحيح. وحرمها غيرهم تمسكا بظاهر الخبر، وهو الأولى، والله أعلم.

(٤) فى النسختين: وكادت، ولعلها خطأ إذ المعنى لا يستقيم.

باليسير والاكتفاء بالكفاف قبلت ذلك وتحملته.

قوله: وفى الرغى: معناه أن فى الاجتزاء بشرب اللبن رُغاء الإبل التى لا تشح باللبن بقاء لنفس الإنسان وكفاية لها، يقال: ارتغى: إذا شرب رغوة اللبن، ومنه المثل وهو قولهم: «يُسر حسوًا فى ارتغاء»[1].

فبقاء: مبتدأ مؤخر، وفى الرغى: خبر مقدم. ولذات رغاء: حال من الرغى. ولا تشح: صفة لذات رغاء، والتقدير: بقاء الإنسان كائن فى الرغى حال كونه لإبل صاحبة رغاد غير شحيحة باللبن. والمقصود من هذا الخبر الحث على رياضة النفس حتى تكتفى بما فيه الكفاف.

* * *

● **قال رحمه الله تعالى:**

١٣٠ - وَلَوْ ذُو الرُّشى اعْتَاضَ الرُّشاءُ اتَّقَى لَظًى
فَمَا لِلُّهَى تُجْرى الْعَذَابَ لُهَاءُ

قوله: ولو: حرف إغياء. ذو: بمعنى صاحب، اسم كان المحذوفة بعد «لو». الرُّشى: مضاف إليه ما قبله: جمع رشوة، وهى ما يأخذه الحكام على الأحكام، والقضاة على الميل والاستكتام، وهو حرام بالكتاب والسنة والاجماع:

أما الكتاب: فقوله تعالى ذمًا لأرباب الرشى على جهة الزجر والتحريم والمنع والتحتيم: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢]، أى سماعون لدعوى الكاذب لأجل ما يعطيهم من السحت أى: الرشى. ومن اعتناء الله تعالى باستقامة الحكام على الحق ودعواهم إليه أن قال لداود عليه السلام مع عصمته وعلو منزلته: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥].

وقال رسول الله ﷺ: «من حكم بين اثنين تحاكما عليه وارتضياه فلم يقض بينهما بالحق فعليه لعنة الله».

(١) هذا مثل يضرب لمن يتظاهر بأمر ويخفى سواه، والاحتساء: الشراب شيئًا فشيئًا، والارتغاء: أخذ الرغوة.

وعن أبي حاتم قال: دخل عمر على أبي بكر رضوان الله عليهما، فسلم عليه، فلم يرد عليه السلام؛ فقال لعبد الرحمن بن عوف: أخاف أن يكون وَجد عليَّ خليفةُ رسول الله ﷺ؛ فكلم عبد الرحمن أبا بكر، فقال له: أتاني وَبين يدى خصمان قد فَرَّغت لهما قلبى وسمعي وبصرى، فعلمت أن الله سائلى عنهما وعما قالا.

قلت: وادعى رجل على عليّ عند عمر رضى الله عنهما وعليّ جالس، فالتفت عمر إليه وقال: يا أبا حسن، قم فجالس خصمك، فقام فجلس مع خصمه، فناظره، وانصرف الرجل، ورجع علي إلى مجلسه، فتبين لعمر التغيير فى وجهه علي؛ فقال: يا أبا حسن مالى أراك متغيرًا؟ أكرهتَ ما كَان؟ قال: نعم، قال: وما ذاك؟ قال: كنيتنى بحضرة خصمي، هلا قلت يا عليُّ اجلس مع خصمك؟! فأخذ عمر برأس علي فقبل بين عينيه، فقال: بأبى أنتم، فيكم هدانا الله، وبكم يخرجنا من الظلمات الى النور.

وعن أبي حنيفة رضى الله عنه قال: القاضى كالغريق فى البحر الأخضر، ما عسى أن يبلغ بسبحه وإن كان سابحًا؟! وقد أراد عمر بن هبيرة أن يوليَ أبا حنيفة القضاء، فأبى، فحلف ليضربنه بالسياط وليسجننه، فضربه حتى انتفخ وجهه ورأسه، فقال: الضرب بالسياط فى الدنيا أهون عليَّ من مقامع الحديد يوم القيامة. فلما يئس منه تركه.

وعن عبد الملك بن عمير، عن رجل من أهل اليمن قال: أقبل سيل باليمن فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه، فكشف عن باب مغلق فظنناه كنزًا، فكتبنا إلى أبى بكر رضى الله عنه، فكتب: لا تحركوه حتى يقدم إليكم رسولى، ففتح، فإذا برجل على سرير، عليه سبعون حلة منسوجة بالذهب؛ وفى يده اليمنى لوح مكتوب فيه: (من بحر الوافر)

إذا خـــان الأمير وكاتبـــاه ... وقاضى الأرض داهن فى القضاء

فـويـل ثم ويـل ثم ويـل ... لقاضى الأرض من قاضى السماء

وقال ﷺ: «إن الله مع القاضى ما لم يَجُرْ، فإذا جار برئ الله منه وألزمه الشيطان».

وقال محمد بن حريث: بلغنى أن نصر بن على راودوه على القضاء بالبصرة، واجتمع إليه الناس، وكان لا يجيبهم، فلما ألحوا عليه دخل بيته ونام على ظهره، وألقى ملاءته على وجهه، وقال: اللهم إن كنت تعلم أنى لهذا الأمر كاره فاقبضنى إليك، فقبض، وانصرفوا.

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «القضاة جسور للناس يمرون على ظهورهم يوم القيامة».

وقيل: إن أول من أظهر الجور من القضاة فى الإسلام بلال بن أبى بردة بن أبى موسى الأشعرى.

وقال عمر بن الخطاب: لا تولوا اليهود والنصارى فإنهم يقبلون الرشى ولا يجلون دين الله.

وقال بعض المتأخرين لما بلغه قول عمر رضى الله عنه: أصحابنا اليوم أقبل للرشى منهم.

وعن ابن مسعود رضى الله عنه: من شفع شفاعة ليرد بها حقًا أو يدفع بها ظلمًا، فأهدى له؛ فقبل، فقد أخذ بحظه من السحت. فقيل له: كنا لا نرى السحت إلا أخذ الرشوة على الحكم، فقال: أما مستحل الرشوة على الحكم فهو كافر بإجماع الأئمة.

وفى الرشوة يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

وكنت إذا خاصَمتُ خصما كببته ... على الوجه حتى خاصمتنى الدراهم

فلما تنازعن الخصومة غَلَّبَتْ ... علىَّ وقالت قم فإنك ظالم

وفى الخبر: ما بيعت أحكام الله بقرية إلا رماها الله بالهوان.

والرشاء، بالمد: جمع رشاءة، وهو نبت تدبغ به الجلود تسميه العامة الجدارى يشبه القرنفل، وهى التى تسميها العامة الزوايا. واللُّهى، بالقصر، جمع لهوة: وهى العطية. واللهاء بالمد: المقدار، تقول: منحته مقدار لهية أى: قدرها.

وتركيب البيت هو أنه لو اجتزأ، أى اكتفى، بالنبت المسمى بالرشاء الشخص

الذى يرشى على الحيف، واقتصر على ذلك عوضًا عما يأخذه من الرُّشى لكان متقيًا بذلك حر لظى التى هى لا خير بعده بخير، ولا شر بعده الجنة بشر.

فالبيت مقتبس من قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ﴾ [المعارج: ١٥ ـ ١٨].

ولما انتهى كلامه على ما يضم أوله فى حالتى المد والقصر مع اختلاف المعنى شرع يتكلم على:

* * *

باب ما يكسر فيقصر ويضم فيمد باختلاف المعنى

* فقال:

١٣١ - وَكُلُّ بِغًى تُرْدِي اصْطَبِرْ عَنْ بُغَائِهَا
فَكَمْ فِي مِنًى بِالصَّبْرِ فَازَ مُنَاءُ

- وكل: الواو: للاستئناف، وكُلُّ: كلمة شمول تلازم الإضافة غالبًا إما إلى مفرد وإما إلى جملة كقوله تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء:٩٣].

بِغًى، بالكسر والقصر: جمع بِغية، بالكسر: وهى ما يبْتَغى. والبُغَاء، بالضم والمد: مصدر بغيت الشيء: إذا طلبته. ومنى، بالكسر: قرية بإزاء عرفة يقيم فيها الحجاج ثلاثة أيام لِرَمْى الجمار، وهى التى يقول الله فى شأنها: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣].

والمُناء بالضم والمد المنهض، يقال: ناء بمعنى نهض وأناءه بمعنى أنهضه، وأناءه بمعنى أبعده وأقصاه، وأناءه أيضًا بمعنى أثقله، وأناء أضيافه إذا سامرهم لآخرِ الليل. وتُردى، بضم التاء: مضارع أرديته: أى أوقعته فى الردى وهو الهلاك.

فكأنه يقول: كل بغية، أى طلبة، مهلكة باغيها اصطبر عن طلبها، وجاهد نفسك فى صرفها عن هواها، فإنما يفوز من فاز بالصبر على الطاعة وعن الهوى والمعصية، فكثير فاز بظفره بمنى بعدما ارتكب الكلف ومشاق السفر وتكاليف الإحرام: من التجريد من المخيط، وترك الطيب والنساء، والكف عن قتل الهوام، إلى غير ذلك. فالمراد الأمر بالصبر عن كل ما يردى، والترغيب فى كل ما يؤدى إلى الفوز بالمطلوب بحيث يذكر نفسه ويعللها بفوز الحاج فى منى بقبول حجه ورضى ربه. قال ﷺ: «الحج والعمرة ينفيان الذنوب كما ينفى الكير خبث الحديد»[1].

---

(١) حديث: «تابعوا بين الحج والعمرة»... إلخ. رواه ابن ماجه وأحمد وأبو يعلى، وأورده السيوطى ورمز له بالضعف، وسكت عليه المناوى (٣/ ٢٢٦)، والله أعلم.

وفي رواية: «تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد».

وقال ﷺ: «إن الله ليباهي ملائكة السموات السبع يوم عرفة فيقول: انظروا يا ملائكتي إلى عبيدي وإمائي أقبلوا إلى زيارتي من كل فج عميق، قد فارقوا الأوطان وهاجروا الإخوان، ولازموا السرى وحرموا جفونهم لذة الكرى، يضجون لي بالتلبية ضجيجًا، ويعجون بالذكر في مرضاتي عجيجًا ويثجون الدماء تقربًا إلى ثجيجًا، وقد أصبحوا في أكنافي، وصاروا أضيافي، وأنا أحق من أكرم الضيف، وأزال الحيف، وأمّن الخوف، فأشهدكم بأني أمنتهم من ناري، وأبحت لهم بحبوحة الجنة في جواري، فرحمتي عليهم مسبولة، وكرامتي لهم مبذولة، فهم وفدي، ولنعم الوفدُ وفدي» وقد قدمت في هذا النمط صدر الكتاب ما فيه غنية.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٢ - وَفِي ذِي مِعًى مِثْلَ الْمُغَاءِ احْتَسِبْ ثِنًى
فَضِعْفُ جَزَاءِ الْمُحْسِنِينَ ثُنَاءُ

قوله: وفي: الواو للاستئناف، وإن شئت جعلتها حرف عطف، وفي البيت تقديم وتأخيرٌ حتى صيره من نوع التعقيد، والفاء: ظرفية بمعنى عند، فكأنه يقول: احتسبت ثنًى عند ذي معًى، بالكسر والقصر، وهو واحد الأمعاء، فكأنه يلمح بذلك إلى قوله ﷺ: «في كُل ذي كبدٍ أجر». وفي رواية: «رَطْبَة»[1].

والمُغاء، بالضم والمد وبالعين المهملة والغين المعجمة أيضًا: صوت الهر، يقال: مغى يمغو: إذا صاح وهو اسم صوت حيث لم يصنع منه فعل. والثِّنى، بالكسر والقصر: المعاودة مرة بعد مرة. والثُّناء، بالضم والمد: معدول عن اثنين كمثنى. وضعف الشيء: مثله خاصة، بخلاف أضعافه أو ضعفيه، يقال: لك ضعفه أي: مثله، وثلاثة أمثاله، والمعنى الثاني هو المراد هنا. فكأنه يقول: احتسب في صاحب مغى ضعيف له صوت نحيل مثل صوت الهر في الضعف إعادة إلى

(١) حديث: «في كل كبد رطبة أجر» صحيح رواه البخاري والبيهقي.

الإحسان إليه كسقيه وإطعامه المرة بعد المرة، أى: يعتد بأجر ذلك: وجزاؤه على الله سبحانه، والله يضاعف أجر المحسنين، وضعف جزائه أى كثرة ذلك اثنان اثنان، لا يعلم كمه ولا كيفه إلا الله، فإنهم يجزون بأضعاف مَا عملوا وبأضعاف ما يجزون به، ومع ذلك قد وعدهم الله تبارك وتعالى بالخلف عَاجلاً بقوله: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ:٣٩] عاجلاً، ويضعف الأجر عليه آجلاً، مع امتنانه عليهم بالحياة الطيبة التى ليس مَعَهَا تنغيص، وهى المقرونة بالمعرفة والإيقان والتقوى والإحسان، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧]، ثم قال فى حق الجاهل الأهوج المتكاسل العاصى المتغافل، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه:١٢٤]؛ لاَ حرمنا الله ذكره وَلاَ أعوزنا شكرهُ، آمين.

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٣٣ـ وَخُـــذْ مِنْ بِرَى الْعِلْمِ الْبُرَاءَ تَيَمُّنًا
وَسُوءَ الْمَشَى اهْجُرْ ولْيُجِدْكَ مُشَاءُ

قوله: وخذ: الواو حرف عطف، وهو من باب عطف الجمل. خذ: فعل أمر مِن أخذ. من بِرَى: من: حرف جر، إن شئتَ جعلته للجنس، وَإن شئتَ جعلته للتبعيض، والبرى: عبارة عما يكتب به، سواء كان ممَّا يبرى أى يرقق لتتهيأ به الكتابةُ فيقال له: مُبْرًى أو مبْرىٌّ على غير القياسِ، فتقول: بريت القلم أبريه، بالضم: تسبب فى بريه، وَأَبرانى الوجد: أدق جسمى. وبَريت الخبر: أتيت به أولاً، وأبريته لغة فيه، فتقول: أخذت قلمًا مبرًى، وقلمًا برية.

وقد يتهيأ الشىء للكتابةِ مِن غير بَرْى كَالمتخذ مِن نُحَاس أو حديد أو صفر. واختلف فى اتخاذِ الأقلام مِن الذهب والورق: فأجازه أبو حنيفة، وَمنعه مالك وأصحابه، ووجه إباحة أبى حنيفة لهُ حملاً على أن ذلك مِن باب الإكرام للعلم والقرآن، ووجه منع مالك وأصحابه له حملاً على أنه من الإسراف إذ لم يأت عن

السلفِ من ذلك أثارة مِن علم، ولأن القرآن والسنة تتشرف بهما الأشياء لا هما يتشرفان بها، ولو كان ذلك كذلك لما نهى رسول الله ﷺ فقال: «إذا غضب الله على قوم زخرفوا مساجدهم وفضضوا مَصَاحفهم».

وإنما أضيف العلم إلى البرى لأنه سبب لتحصيله وحفظه وصيانته، وهو القلم، قال الله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق:٤] واختلف فى باء ﴿بِالْقَلَمِ﴾ فقيل: سببية، وقيل: استعانية.

فعلى تأويل السُّدى: علم الله الإنسان مِن لدنه بالوحي والإلهام، وأعانه على تحصيله وحفظه وصيانته بالقلم، ولذلك اتخذ رسول الله ﷺ كُتَّابًا يكتبون له الوحي، منهم: زيد ومعاوية، وهم جم غفير.

وَعلَى تأويل الضَّحاك وابن مَاجه مما رفعا إسناده إلى ابن عباسٍ أنها سببية، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ سبب تعليم خلقه من العالم الروحانى والإنسانى بِالقلم[1]، إذ هو ترجمان الحق أولاً عند النشأة الأولى، وآخرًا باستنساخ الفروع به أو منه.

والأقلام اثنا عشر قلمًا كما فى «المواهب»، أولها: وَأجلها قلم القدرة السَّابِقُ. الثانى: قلم الرسالة وتوابعها. الثالث: قلم رُؤيا المنام وأنواعها. الرابع: قلم الدول وتواقيعها. الخامسُ: قلم التواريخ وتفاصيلها. السادسُ: قلم الحساب وضروبه إذ به تستخرج الحقوق إلى أماكنها. السابع: قلم القضاءِ، وبه يقام قسطاسُ العدلِ، ويفرق بين الحق والباطل بفيصل الفصل. ويمتاز به بين ذوى الحلم وفريق الجهل. القلم الثامن: فى أسماء الملوك وأيامها وسيرهَا فى حَلها وإبرامها. التاسع: فى الوفيات وتفاصيل الخواتم والكَيْفيات. والقلم العاشر: فى المناكح وأسبابها وذكر رباتها وأربابِها. القلم الحادى عشر: فى اللغات وتراجيمها مِن عربها وأعاجيمها. القلم الثانى عشر: فى البيوعات وأبوابها والنهى عن ربوياتها وفاسدها عند ارتكابِهَا. القلم الثالث عشر: وهو مِن أجل الأقلام قدرًا بعد قلم الرسالة، قلم الولاية فإنه مشتمل على استحقاق الوراثة ومراتبها، وأنواع الكشوفاتِ وتنوعاتها،

(١) هكذا العبارة فى النسختين، وهى غير مترابطة.

ومشارب الذوق وتفاوتها، وأنواع المكالمات وتضوعاتها، وفجآت الواردات وروعاتها، والفنا عن الفنا وتناهي الغنا، قال بعض السادات في بيان هذا المقام:

فيفني ثم يفني ثم يفني   وكان فَنَاؤُهُ عَيْنَ البَقَاءِ

والمعرفة وغمراتها، والوجد والوجود والغيبة والشهود، والحد والحدود، والوصول والذبول والذهول، والبواح والبراح والكفاح، والدنف والكلف والشغف، بعد الميل والركون، والحب والعشق والغرام.

فالأبدال ثلاثون رجلاً وثلاثون امرأة، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلاً، وكلما ماتت امرأة أبدل الله مكانها امرأة، وهم أساسُ الدولب وأفضل أهله، وهم الملأ في هذا النوع من العالم، كل رجل منهم على قلب نبي ومقرب. منهم الغوث، ويكون في جميع الأقاليم غير أنه حيثما كان لا تغيب الكعبة عن منظره، وإذا قال السلام عليك أيها النبي قال له النبي: وعليك السلام، فإذا وقع الأمر من أمور العامة ابتهل فيه النجباء، فإن تم وإلا ابتهل السياحُون، فإن تم وإلا ابتهل الصديقون، فإن تم وإلا ابتهل الأخيار، فإن تم وإلا ابتهل النقباء وهم الأقطاب الاثنا عشر، فإن تم وإلا ابتهل الغوث؛ فتنتهي إليه؛ فيرفع الأمر إلى من له الأمر من قبل ومن بعد؛ إذ هو الذي انتهت إليه الوراثة بالقعدد[1]، فيخاطب النبي ﷺ كفاحًا؛ إذ هو على قلبه فيشفعان لما لهما من القرب الخاص ورتبة التداني؛ فترفع البلوى وتضمحل الشكوى[2].

وأما قول العلامة: «إنه لا يكون إلا في البيت» فكذب وافتراء على الشارع، ومجازفة في القول؛ فقد كان النبي ﷺ بالمدينة وهو رأس الغوثية، والسيد عبد القادر الجيلي الذي لم يختلف اثنان في غوثيته في العراق ببغداد، والشاذلي بتونس. والجنيد بالمدائن، والغزالي بطوس، وأويس القرني بالكُوفة، وأبو مدين الغوث بالمغرب.. إلى ما لا يحيط به الحصرُ؛ مما يدل على بطلان ذلك القول الفاسد الأصل، بل لا يمتنع أن يسكنها قطب أو غوث مدة، أوْ يكون من أهلها أوْ

(١) كذا في الأصلين: بالقعدد، ولعل المراد: بالتعدد.

(٢) لم يثبت شيء عن النبي ﷺ في الأبدال، أما هذا التقسيم الذي أورد الشيخ فلم أر له سندًا عن النبي ﷺ.

ساكنيها كأبى طالب المكى وعلى زين العابدين بن الحسين بن على رضى الله عنهم أجمعين. وإنما الممتنع التخصيص، بل ينتقل ذلك بانتقال الملة وتفحلها فى إقليم أو أقاليمَ، فلو قُدِّر خلاء الأقاليم من الإسلام إلا إقليمًا واحدًا لكان الجميع فى ذلك الإقليم، إلاَّ أنَّ السياحين أهل الخطوات يسلكون الأقاليم كلها، فالله يختص برحمته مَن يشاء، وعلى قدر توجُّهات جلالاته ورحمته، لاَ معقب لحكمه، ولاَ رَادَّ لقضائه.

وَالقلم له حرمة حتى قيل: إنه لا ينبغى وضْعه بالأرض إجلالاً لما هيىء لَه من مباشرة كتابة العلم والقرآن والأسماء الحسنى، ولنسْبَتِه للقلم الأعلى. بل يروى أنَّ الصحابة كَانوا إذا فرغ أحدهم مِن الكتابَةِ جَعل قلمه على أذنِه، فقيل: إن سبب ذلك ليكون أذكر له. وقيل: للإجلال، حتى روى عن محمد بن العربى أنه قال فى بعض مصنفاته: ينبغى إجلال النباتات التى تتخذ منها الأقلام؛ فلا تختلى إلا لحاجة، كما روى ذلك للسدر لنسبتها إلى سدرة المنتهى.

والقلم أجل من سدرة المنتهى، ونسبة الأقلام الدنيوية إلى قلمِ القدر السابق أتم مِن نسبة سدرة الدنيا إلى سدرة المنْتَهى؛ فكما ينبغى أن يتبركَّ بورق سدر الدنيا فى أشد الحالات وهى غسل الميت فمن باب أحرى أن يتبرك بنخالة الأقلام على وجه التيمن ولذلك قال الناظم:

* وخذ مِن برى العلم البُراءَ تيمنًا *

أى خذ نخالة القلم المبرى حالة كونك متيمنًا، أى متبركًا بها، فضلا عن القلم نفسه، فضلا عن مداده، فضلاً عن العلم عينه فضلا عن الكتابة والسنة اللذين عنهما تفنن الجميعُ، وُبنورهما تجهبذ العالم وَعبد المطيع.

قال الرسول ﷺ: «لآية مِن كتاب الله خيرٌ مِن محمد ومِن آلِ محمد».

فلما كان التيمن بقلامةِ القلم مما ينبغى فالتيمن بتحقق مسائله، وتدقيق معانيه، وتصحيح مبانيه، والاعتناء بالكيفيات التى يتحصل بها، ومحاولة تحصيله بسببها؛ كالمدارسة وَالممارسةِ والمذاكرة، وإدمان السهر وَالجوع، والتملق وَالخضوع، وَبذل الكلِّ، وترك الملل، وتحمل الكل، والعناء والكلل، من باب أولى؛ فإنه صعب

التحصيل سريع التَّعْطيل، لاَ يناله متكبر ولاَ ملول، ولاَ مستحيى ولاَ جهول، بَل هو حرفة الفحول ومطرة المحول وجرعة النحول، وليكن ذلك على سبيل التيمن والتبرك لاَ على سبيل الرياء والسمعة وطلب الجاه والحظوة.

وفيه نَوع استعارة: وهى استعارته بحتات القلم عما يتحصل مِن متشابه العلم ودقائقه ورقائقه، ومشكله واستنباطه بآلاته، كَالنحو واللغة والتصريف وفنون البلاغة والأمثال والعبر ولحن القول وفحواه، إلى غير ذلك مما يطول ذكره.

قوله: «وسوءَ المشى اهجر» لأنها المُطيطَا، ولأنها الهيئة التى تدل على جهل صاحبها وسوء طويته. قال الرسول ﷺ: «إذا مشت أمتى المطيطَا واستخدمت أبناء الملوكِ كَانت الدولة للعدو»[1].

وقال لأبى دجانة ـ وكَان يختَال عند الحرب سجية لاَ يستطيع غيرها ـ: «تلك مِشية يبغضها الله ورسوله إلا فى مثل هذا الموضع».

والمشاء، بالضم والمد: الالتجاء إلى الله فى السراء والضرَّاءِ، وهى مِن نوادر اللغات، وذلك بأن تتصف بالاضطرار إلى الله والالتجاء إليه؛ بأن تنزل نفسك منزلة الغريق فى السعة والضيق، وإلا كان الالتجاء فى طريقٍ وأنت فى طريقٍ، وكنت بمعزل عن خير رفيق، وذَلك بأن تُسقط التدبيرَ والاختيار، وتحقق بأن الله يفعل مَا يشاء ويختار، فتكون بذلك فى جنات مِن الرضى والتسليم تجرى مِن تحتها الأنهار، قال الله تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٦٢]: جنة الإحسان، وجنة الإيقان، جعلنا الله مِمن قدمها له، فمن لم يظفر بهما فقد فاته طيب الحياة.

ولما انتهى كلامه على ما يكسر فيقصر ويضم فيمد شرع يتكلم على:

* * *

(١) حديث: «إذا مشت أمتى المطيطا»... إلخ. ضعيف رواه الترمذى وقال: غريب، وعنه السيوطى فى جامعه ورمز له بالحسن، وقال الهيثمى: وإسناده حسن، قال المناوى: وفيه زيد بن الحباب، قال فى الكشاف: قد وهم، وموسى بن عبيد ضعفوه، وعبد الله بن دينار غير قوى (١/ ٤٤٥).
قلت: رواية الترمذى «سلط شرارها على خيارها» بدل «كانت الدولة للعدو»؛ والله أعلم.

[باب] ما يضم فيقصر ويكسر فيمد باختلاف المعنى

عكس الباب الذى قبله.

• فقال رحمه الله تعالى:

١٣٤ - بِمُؤْتَاكَ لِلْمِئْتَاءِ فُقْ مُوثَّقًا عُرًى مَحَامِدَ عَنْهَا الْبَاخِلُونَ عِرَاءُ

قوله: بمؤتاك: الباء سببية. مؤتاك، بالضم والقصر: المعطى من الأشياء. والمئتاء، بالمد والكسر: المعطاء، مبالغة فى كثرة العطَاء، وهو اسم فاعل دال ببنيته على كثرة العطاء، مصروف لزيادة الوصف وقصد المبالغة عن مُعْط، تقول: معطاء، بكسر الميم، فى كونه اسم فاعل، وتضم حيث كان اسم مفعول. واليد المعْطاة خير من اليد المُعْطاة، وهو معنى قوله ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[1]. كما روى: «اليد المنطية خير من اليد المنطاة».

وقوله ﷺ: المنطاة: لغة حميرية. خاطب بها حمير ملاطفة بهم؛ لتوسعه ﷺ فى لغات العرب حتى كان يخاطب كل قوم بلغتهم، فيكون أفصح منهم فى لغتهم لما خصه الله به من مزيد الفصاحة والبلاغة.

يقال: رجل معطاء، وامرأة معطاءة. والعرى، بالضم والقصر: جمع عروة، بالضم، وهى عبارة عما يتوصل به إلى أخذ الأشياء التى لولاَ هى لم يقدر عليها كعروة الدلو والسقاء وعروة المعراج، ومنهن المعنويات، وأتى بما ذكر كناية عن عرى الإسلام الخمسة وأصوله الثلاثة، قال الله تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة:٢٥٦]. والعِراء، بالكسر: جمع عروى على وزن عِكْلى بمعنى خلو. فباء بمؤتاك تتعلق بفق. والمئتاء: مفعول فق، واللام فيه لتقوية العامل. ومُوثَّقًا وهو مضاف إلى محامد[2]. وجملة «عنها الباخلون عراء» فى موضع

(١) حديث: «اليد العليا خير من اليد السفلى» حديث متفق على صحته رواه البخارى بهذا اللفظ وزيادة: «وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غنى، ومن يستعف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله» (كتاب الزكاة)، كما رواه مسلم بإيجاز، والله أعلم.

(٢) ليس موثقًا مضافًا إلى محامد، والأولى أن يكون حالاً.

خفض صفة لمحامد، والمحامد: جمع محمدة، والمحمدة بمعنى الحمد، وهو الشكر، حمده كسمعه.

فكأنه يقول: فق الشخص الكثير العطاء بما تعطيه، أى غالبه فى ذلك حتى تفوقه فى حال كونك محكمًا عرى محامد خلى عنها الذين يبخلون، أى لم يظفروا منها بشىء لفقدهم أسباب الظفر بها من المكارم والجود.

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٣٥ ـ وَدَعْ ذَا القُلَى يُجْرِى القِلاء وَمَنْ لُهًى
تَعَوَّضْ ثَنَـاءً تَشْتَهِيـه لِهـاءُ

قوله: ودع: فعل أمر بمعنى اترك، أى: صاحب القُلى، بالضم والقصر: جمع قلة، وهى لعبة للصبيان، بل دع كل لهو. والقلاء، بالمد والكسر: الحمر الخفاف، واحدها قلو. واللهى، بالضم والقصر: ما يضعه الطَّاحِنُ فى فم الرحى. واللهاء، بالمد والكسر: جمع لهاة، وهى اللحمة الرقيقة الممتدة من منتهى اللثة إلى منتهى الحلق، ويجمع أيضًا على لهوات. كما روى أنه ﷺ كان يُدخِلُ السواكَ إلى لهواته عند الاستياك حتى يقول: هَقْ.

قال الشاعر: (من بحر الرجز)

يا لك مِن تمر ومِن شيشاء ينشب فى المسعل واللهاء

فكأنه يقول: اترك صاحب اللعب بالقلى يجرى الحمر الخفاف، واتخذ عوضا مما يجعل فى فم الرحى من القوت ثناء عليك جميلا تستلذه اللهاء لاشتهاء اللهاء له، المراد منه لازمه لكونه جميلا باقيا محمود العواقب. وفى المثل: «خير المال ما أفاد شكرًا واقتنى ذخرًا».

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وما على مشتر حمدًا بموهبة غَبْنٌ ولو كان ما أعطاه ياقوتا

وفى مثل هذا يقول الشاعر: (من بحر الطويل)

ذهاب المال في خير ومحمدةٍ ذهـابٌ لا يقال له ذهاب

ويروى أن ابنة هرم بن سنان وفدت على عمر رضى الله عنه فى خلافته، فقال لها: ما أعطى أبوك هرم لزهير؟ فقالت له: خيلا لا تجارى، وإبلا لا تبارى، وثيابًا فاخرة، وسيوفًا تنتضى. فقال لها: إن كان أبوك أعطاه ما يبلى فقد ألبسه ثناء لا يفنى.

وفى هذا البيت من بديع الكناية. وهى كناية عن اللهاء باشتهائها باستماع الثناء الجميل، فتمنى بذلك أن تكون سمعًا لأنها موضع إدراك الذوق، فتمنت بحبها الثناء ذهاب حاسته التى هى الذوق، فتستل منها حاسة الأذن التى هى سماع الثناء الجميل لفتوتها وعلو همة صاحبها؛ إذ عودها اختيار تلك على هذه؛ إذ ليس من شأنه حب الطعام واغتناء الحطام، بل دأبه الشغف بجميل الثناء لما يجرى على راحتيه من سنى العطاء، فأيامه بين اكتساب ذخر واستجلاب فخر، حتى صارت جوارحه لذلك يغار بعضها من بعض، حيث لم تهيأ لما هيئت له صاحبتها من اكتساب المعالى، والثناء الغالى، الذى هو أعلى رتبة من الذهب واللآلئ فتصير بذلك الثناء تحسد الأسماع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

سلام كما أحيا أزاهير عَرْفِهِ فلا سمعٌ الا وَدَّ أنه أنفُ

وقال آخر:

بَعْضى يَغَارُ علَيْكِ من بعضى ويَحْسُـدُ سمعى فِيكِ ناظِرى

وقال آخر: (من بحر الكامل)

وتمنت الأعضاء لو كانت معًا أذنًا فتسعـد مثله بالْمُسْعِـد

وقال غيره: (من بحر الكامل)

فى جنة ما كان ألطف نشرها حسدَتْ عليه أنوفَهَا الأفـواه

فالبيت مشتمل على قول الشاعر: (من بحر الطويل)

وشتان ما بين اليزيدين فى الندى يزيدِ سُلَيْمٍ والأغَرِّ بنِ حـاتم

يزيد سليم سالم المال والفتى ... فتى الأزد للأموال غير مسَالمِ
فهمُّ الفتى الأزدى تفريق ماله ... وهمُّ الفتى القيسى جمع الدراهمِ
أيحسبنى القيسى أنى هجـوته ... ولكننى فضلت فعل المكَـارم

وأبلغ ما قيل فى هذا الباب قول طرفة بن العبد (من بحر البسيط)

قالت طريفـة لا تبقى دراهمنا ... وما لنا سرف فيها ولا خَرَقُ
لكن إذا اجتمعـت يومًا دراهمنـا ... ظلـت إلى طرقِ الخيرات تستبـق
لا يسكن الدرهم المنقوش صرتنا ... لكن يمر عليهـا ثُمَّ ينطَلِـقُ

* * *

• ثمَّ قال رحمه الله تعالى:

١٣٦ ـ فَكَمْ فى الْعُدَى تَحْتَ الْعِدَاء فَتًى لَهُ
ذُرًى كَـانَ فِيهَـا لِلْعُفَـاة ذِرَاءُ

قوله: «فكم فى العدى»: الفاء: ترتيبية. وكم: تكثيرية. فى العدى: جار ومجرور، وهى بالضم والقصر: جميع عدوة أى: ما علا وارتفع من جانبى الوادى وغيره، قال الله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ﴾ [الأنفال: ٤٢]. وربما سمى بالعدوة الإقليم؛ فإن الأندلس والغرب يسميان العدوتين، كما فى «النفح» والعداء، بالمد والكسر: ما يوضع على الميت من حجارة وخشب. والذرى، بالضم والقصر: جمع ذُروة، والذروة، بالضم والكسر، ما علا كل شيء. والذراء بالمد والكسر: جمع ذرى، وهى الحصون التى يلجأ إليها ويتمنع بها. والمنعة حيث كانت يقال لها ذراء، وإذا فتح فإنما هو ذَرى الشجرة مما يُتَرَفَّقُ به للدفء ونحوه.

فكأنه يقول: كانوا ذوى حصون تأوى إليها العفاة، أى طلابُ المعروف، فتجد بها ما تنتفع به من أمن الخائف وإشباع الجائع.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

ومن يأته من خائف ينس خوفه ... ومن يأته من جائع البطن يشبع

ومع ذلك فإنه ذكر لا يغنى من دهاء الموت شيئًا؛ إذ الموت لا يبقى على ذى فضيلة لفضله، ولا يمهل صاحب معروف لمعروفه، وإنما قصارى صنائع المعروف أن تقى مصارع السوء دنيا وأخرى، كما روى عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول: «عليكم بصنائع المعروف فإنها تقى مصارع السوء»[١].

كما وقع كثيرًا حتى صار كالعادة: فمن ذلك قضية محمد بن حمير مع الحية، وكان رجلاً صالحا ساكنًا فى البيداء، وكان يتصيد لذلك، فبينما هو يسير ذات يوم وقد رجع من قنصه إذا بحية تهوى نحوه وتخاطبه بلسان فصيح: أن أجرنى من عدوٍّ لى جَدَّ فى طلبى؛ فإنه بلغنى عنك أنك ذو معروف! فقال لها: هَلُم فادخلى فى كمى، فقالت له: إن ذلك لا ينجينى من عدوى، فقال لها: وما ينجيك؟ قالت: لا ينجينى إلا أن أدخل بطنك، فقال لها: أخاف على نفسى، فقاسمته وأعطته المواثيق أن لا تضره، وقالت له: كيف أتسبب فى هلاكك وقد صرت سببًا لنجاتى؟! ففغر لها فاه، فانسابت، فدخلت بطنه، فلم ينشب أن جاء الطالب، فقال له: يا محمد ابن حمير إن عدوى عندك فأعطنيه أقتله بأخى، فقال له: إنى لم أر لك عدوًا، فإن لم تستيقن بقولى فهلم ففتشنى، ففتشه، فلما لم يجد الحية انصرف، فلما بعد قال لها: اخرجى إن عدوك قد بعد، فأخرجت رأسها من فيه لتسبر ما قال لها، فلما استيقنت أنه قد بعد انكمشت إلى جوفه فقالت له: اختر إما أن أفتت قلبك أو كبدك أو كليتك، فقال لها: سبحان الله ما على هذا عاهدتنى ولا عاقدتنى، فقالت له: إن العداوة القديمة لا تزيلها الصداقة الحادثة، فقال لها: إن كنت ولا بد فاعلة فاتركينى حتى أصلى ركعتين وأهيئ لنفسى مكانًا أموت فيه، قالت له: أفعل، فصلى ركعتين، ثم رفع بصره إلى السماء وقال: يا أرحم الراحمين، ثلاث مرات، أجرنى أجرنى من عدوى، فلم يستتم قوله حتى نزل عليه من السماء فارس، عليه ثياب خضر، وتحته جواد أبلق، وإذا بيده ثلاث ورقات خضر يقطر منهن الماء، فناوله واحدة وقال له: ابتلعها، فابتلعها، فما هى إلا أن استقرت فى بطنه حتى عربدت الحية فتقطعت إربًا إربًا، ثم ناوله الثانية، فأخرجت أجزائها ودماءها من دبره، ثم ناوله الثالثة، فأذهبت ألم سمها ووجد لها

---

(١) حديث: «صنائع المعروف» تقدم تخريجه.

بردًا، فلما استراح من سمها قال له الفارس: أتعرفنى يا محمد؟ قال: لا، ولكنى علمت أنك من ملائكة الله أو من عباد الله الصالحين، فقال له: أنا المعروف، وفى رواية: الإحسان، وكنت فى السماء السابعة، فلما قلت: يا أرحم الراحمين أول مرة أمرنى الله بإغاثتك، فلما قلتها المرة الثانية بلغت سماء الدنيا، فلما قلتها الثالثة أتيتك فلا تترك صنائع المعروف؛ فإنها إن ضاعت عند الخلق لم تضع عند الخالق(١).

وحيث فعل صانع المعروف فينبغى له أن يقصد بها وجه الله ليأتى بها على وجهها النافع، فإن كل شىء هالك إلا وجهه.

* * *

• **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٣٧ - **ثَوَى فى ربًى يَنْفى الرِّباءُ انْتِيَابَهَا**
بِهَا لِمُوَافِيهَا كُفًى وَكِفَاءُ

قوله: ثوى، أى: أقام. فى ربى: جار ومجرور، والرُّبى، بالضم والقصر: جمع ربوة، وهو ما ارتفع من الأرض. قال الله تعالى: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠]، وذلك أن عمران أبا مريم كان إمام بنى إسرائيل وعالمها ومن أفضلها مكانًا وأعبدها، وكانت زوجته حمنة امرأة صالحة، وكانت بنو إسرائيل حينئذ على الحق، ومن أفضل عالَم زمانهم، فلما أحست حمنة بالحمل قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥] أى: حبيسًا محررًا من طلب الدنيا والاشتغال بها، موقوفًا على خدمة بيت المقدس، وقمه، والاشتغال بمصالحه، والعبادة فيه.

ثم لم ينشب عمران أن مات وحمنة حبلى بمريم، وكانت تظن أن ما نمَا فى بطنها ذكر، فلما وضعتها نظرت إلى رجاء منها أن تكون ذكرًا: إذ هو الذى يصلح لخدمة المسجد لخلوه من الحيض المانع لدخول المسجد مدة ومن العادة حينًا، ولأن الذكر أقوى على الخدمة من الأنثى، وأسلم من الحياء المانع من مزاحمة الرجال،

(١) ما أشبه هذه القصة بالقصص الخرافية!!

فلما وجدتها أنثى قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران:٣٦] أي: العابدة في لغتهم، ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران:٣٦].

قال رسول الله ﷺ: «ما من مولود يولد إلا ونخس الشيطان في خاصرته حين يوضع، وذلك حين يستهل صارخًا، إلا ما كان من مريم وابنها عيسى فإنه أتى ليطعن، فطعن في الحجاب»(١) لدعوة أم مريم، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران:٣٧]: بأن نشأت في النسك والعبادة.

وذلك أنها لما ولدت تنافست في كفالتها رؤساء بني إسرائيل؛ فأخذوا أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم، فكتبوا عليهم أسماءهم وألقوها في بحيرة الأردن، فرسبت أقلامهم وطفا قلم زكرياء؛ فعلموا أنه أحق بكفالتها، فبنى لها بيتًا في بحبوحة المسجد، وجعل من دونها ثلاثة أبواب، وكان رجلاً مقلاً، فضاق ذرعًا بكفالتها لضيق حاله وقلة ماله، ولم يكن له بد من كفالتها لمكانة خالتها منه، وعلم أن الله لم يرتضِ لكفالتها غيره؛ فكان كلما دخل عليها وجد عندها رزقًا، فيقول لها: يا مريم أنى لك هذا والأبواب مغلقة ولا يدخل عليك غيري؟! فتقول له: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فطابت نفسه، واتسع لكفالتها صدرُه لما رأى ما آتاها الله من الكرامة، وعلم أنه معان عليها، وأنَّها من إماء الله الصالحات القانتات. وكانت تقوم حتى تتورم قدماها من القيام.

واختلف في الرزق الذي كان يأتيها؛ فقيل: هو من الجنة، وقيل: هو من الكون.

يروى أن النبي ﷺ دخل على ابنته فاطمة يومًا وقد وقعت في المدينة مجاعة عظيمة، فوجد عندها طعامًا زكي الرائحة؛ فقال لها: من أين لك هذا الطعام؟

---

(١) حديث: «ما من مولود»... إلخ. صحيح أخرجه البخاري وغيره، ولفظه عند البخاري: «ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد؛ فيستهل صارخًا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها. ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: ﴿وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم﴾، وهو عنده في كتاب التفسير وأحاديث الأنبياء، ولا عبرة في طعن صاحب الكشاف في معنى هذا الحديث وتوقفه في صحته، والله أعلم.

فقالت له: هو مِن عند الله، رزقنيه رزقًا؛ فاستبشر ﷺ حتى أضاء جبينه الجدران، فقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى فى أمتى من يأتيه الرزق من عند الله كمريم ابنة عمران[1].

وكانت مريم رضى الله عنها رائعة الجمال لم يكن فى زمنها مَن يماثلها جمالاً ولا كمالاً، وكانت تشب شبابًا لا يشبه غيرُها، وكانت تحتطب كل يوم لبيت المقدس حتى بلغت. فخرجت يومًا تحتطب على عادتها، فتمثل لها جبريل على صورة فتى جميل، فعارضها، فلما رأته انصرفت فإذا هو أمامها، ثم انصرفت يمينًا فإذا هو أمامها، ثم انصرفت شمالاً فإذا هو أمامها، فلما تيقنت أنها لا تفوته وقفت وقد ذعرت وطاش لبها، فلما رأته يقصدها قالت له: ﴿**إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا**﴾ [مريم:١٨]، فقال لها جبريل ليذهب روعها ويسكن جأشها: ﴿**إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا**﴾ [مريم:١٩]، فكَان بيده كفٌّ مِن التربة التى خلق منها آدم عليه السلام، وكَان الله قد استودعَها رضوان خازن الجنان، فلما أرسل الله جبريل إلى مريم أخذها مِن رضوان ليلقيها فى رحم مريم، فلما خاطبها وسكن جأشها قالت مجيبة لجبريل: ﴿**أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا**﴾ [مريم:٢٠]، فقيل: إنما قالت ذلك استبعادًا، وقيل: إنما قالته حملاً على العادة البشرية ولتختبر مَا عند جبريل مِن الأمر الخارج، فقال: ﴿**كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ**﴾ [مريم:٢١]، فألقى التربة فى رَحمها، ونَفخَ؛ فعلقت بعيسى عليه السلام.

وكانت بعد ذلك إذا ذهبت إلى الحطب تذهب معها أختها زَوجة زكرياء أم يحيى، وكانت حبلى بيحيى، وكانت تقول لمريم كلما انصرفتا إلى الحطب: يا أُختاه، هل رأيت زرعًا مِن غير زارع؟ فتقول لها: إنَّ الله يفعل ما يشاء، فلما أكثرت عليها مِن السؤال قالت لها: إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك، فأخبرتها بقصتها، واستكتمتها.

فلما أخذها المخاض فرت مِن المدينة حياءً مِن قومها وخوفًا منهم أن يرمُوها بالزنى؛ فبعث الله إليها قوابل مِن الحور العين ليتولين ولادتها وملكًا يهديها إلى

---

(١) كون النبى ﷺ دخل على فاطمة ابنته... إلخ. هذه القصة لا أظنها تثبت مع أنى لم أجدها بهذا السياق عند أحد يعتد بنقله، والله أعلم.

بيت لحم، وكان يومئذ ربوة ذات ماء ونخيل، فأومأت إلى جذع نخلة مِن تلك النخيل فولدت تحتها، فأمرها الله تبارك وتعالى أن تهز جذع النخلة ليتساقط عليها الرطب؛ ففعلت، فأمرها الله تبارك وتعالى بأكله عَلى وجه التداوى وليذهب عنها ما تجده النفساء مِن المغص.

قَال رسول الله ﷺ: «لو علم الله أن شيئًا أنفع للنفساء مِن الرطب لأمر مريم بأكله»(١).

فمن يومئذٍ اتخذت النفساء الرطب فى دواء المغص.

واختلف فى المدة التى مكثت مريم وابنها عند بيت لحم، وهو الذى عناه الله بقول: ﴿وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] وإنما وصفها الله بالقرار والمعين لارتفاعها وبهجتها وكثرة ثمارها وفواكهها، مع كون مَائها معينًا يُرى بالعين ويؤخذ باليد مِن غير مؤونة، مع كونه عذبًا زلالاً. وقيل: مكثت ثلاثة أيام، وقيل: سبعة أيام، وقيل: أربعين يومًا.

فآتاه الله العلم والحكمة وهو فى المهد والقماط، كما علم آدم عليه السلام الأسماء كلها وهو بين الطين والماء، لما بينهما من المناسبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فلما انقضت المدة التى أمرها الله فيها بالصوم، وهو ترك الكلام، أمرها الله تبارك وتعالى بالرجوع إلى قومها؛ فرجعت إليهم تحمله، فأقبلت عليها بنو إسرائيل، فمنهم من يلومُها، ومنهم من يتعجب، ومنهم من يشتمها، ومنهم من يقول: ارجموها، ومنهم من يقول: حرقوها بالنار، وهى ثابتة لم تكترث ولم

---

(١) حديث: «لو علم الله أن شيئًا أنفع للنفساء»... إلخ. موضوع أورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وأوله: «أطعموا نفساءكم فى نفاسهن التمر»، وآخره: «ولو علم الله طعامًا كان خيراً من التمر أطعمها إياه». اهـ.

وقال: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وسليمان راويه قال فيه أحمد بن حنبل: يضع الحديث، وقال يزيد بن هارون: لا يحل لأحد أن يروى عنه، وقال النسائى والدارقطنى: متروك، وقال يحيى بن معين: سليمان وداود بن سليمان كذابان (٣/ ٢٧).

وأورد أوله صاحب الكشف تحت رقم ٣٩٠ وقال فيه: قال ابن حجر: رواه عبد الله بن المنذر بسند فيه كذاب (١/ ١٤٩)، والله أعلم.

تجبهم بشيء. فلما سكتوا أمرتهم أن يسألوه؛ فقالوا لها: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم:٢٩]، فترك الثدى، وكان فى فيه، ثم أقبل عليهم بوجهه وقال لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٣]؛ فكف عنها بعض الناس، وشقى من شقى فنسبه للسحر.

وهو من جملة الأربعة الذين تكلموا فى المهد: منهم: شاهد يوسف وزليخا، وهو عيسى، وصاحب جريج، والصبى الإسرائيلى الذى مرت عليه امرأة تُسْحبُ وتُضرَب وقد اتهموها بالسرقة، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابنى مثلها؛ فترك الثدىَ وقال: اللهم اجعلنى مثلها؛ فإنهم يسبونها ويتهمونها ويضربونها وهى بريئة. ثم مر عليها رجل ذو هيئة وهو فى غاشيته؛ فأعجبها زيه ومَن معه مِن أعوانه؛ فَقالت: اللهم اجعل ابنى مثله؛ فترك الثدى وقال: اللهم لا تجعلنى مثله؛ فإنه جبار شقى.

ومنهم مبارك اليمامة فإنه أتى به رسول الله ﷺ، فقال له: منْ أنا؟ قال: أنت رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: صدقت بارك الله فيك؛ فسمى مِن يومئذ: مباركَ اليمامة.

قوله: «ينفى الربا»، أى يزيل ويذهب، مضارع نفى. الرِّباء، بالكسر والمد: مفعوله، وهو الحذر والخوف، وهو مصدر ربأت. وانتيابها: النزول به المرة بعد المرة، وهو بالرَّفْع فاعل ينفى. والرباء، بالكسر والمد: مفعوله. والكفى، بالضم والقصر: جمع كفية، وهو الكافى مِن الأقوات. والكفاء، بالكسر والمد: الطاقة، يقال: لا كفاء له بذلك، أى: لا طاقة له، ومواقيها: الذى يأتيها.

فكأنه يقول: أقام ذلك الفتى الذى تحت العداء فى العدى فى أمكنة مرتفعة مِن الأرض حصينة لا خوف على من ثوى بها؛ لأنه بمجرد نزوله فيها المرة بعد المرة يزول حذرها، وكذلك كل من يوافيها وعنده من القوت ما يكفيه وما يطيقه، ومع ذلك فقد انتقل عنه إلى القبور؛ فصار مقيمًا تحت الخشب والصخور، فاعتبر أيها الموفق بمثله ومثاله، ولا تغترْ بمآله ولا حاله، فإنه إلى الزَّوال يؤول، ولو لابَسهُ الطول.

• **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٣٨ ـ وَذَاتَ العُجَى يَحْمِي العِجَاءَ بِهَا الأُلَى
وَفْتُ عَزَمَاتٍ مِنْهُمُ وإِلاَءُ

قوله: العجى، بالضم والقصر: جمع عجاية، وهو عصب سوق الخيل وأذرعتها مما يلى السنابك. والعِجاء، بالكسر والمد: جمع عَجْوٍ، بالفتح: وهو ضرب مِن ثمار المدينة رطب أحمر، وفيه ورد الأثر الشريف عن رسول الله ﷺ قال: «من أكل فى يوم سبع تمرات مِن العجوة أمِنَ مِن القولَنْج»[١]. ويليه فى الجودة البرنى.

وفى كتاب «الدرر» أن أجودَ التمر نوع بالبصرة يقال له: الرب، إذا أكله الإنسان وَجد له لذة فى جميع جسده.

وقال ﷺ: «بيت لا تمر فيه جياع أهله»[٢].

وكان إذا أتى بباكورة مِن التمر مسحها على وجهه ثم ناولها من يليه.

وكان يقول: «أكرموا عمتكم النخلة ولو بدفن نواها»[٣].

وسأل يومًا أصحابه عن شجرة هى مثل المؤمن، فوقع أصحابه فى شجر البادية، فلما لم يعرفُوها قال لهم: «هى النخلة». فلما انصرفوا قال ابن عمر لأبيه عمر: والله لقد وقع فى نفسى أنها النخلة، فنظرت فإذا أنا أصغر القوم فاستحييت أن أخبر بها رسول الله ﷺ، فقال عمر: لو أخبرته بها لكان ذلك أحب إلى مِن حمر النعم[٤].

---

(١) حديث: «من أكل فى يوم سبع تمرات»... إلخ. متفق على صحته بدون «من القولنج». ولفظ البخارى: «من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره فى ذلك اليوم سم ولا سحر». اهـ. وهو عنده فى كتاب الأطعمة.

(٢) حديث: «بيت لا تمر فيه جياع أهله» صحيح رواه مسلم وأحمد والترمذى وأبو داود فى كتاب الأطعمة. وأورده السيوطى تحت رقم ٣١٦٥. والله أعلم.

(٣) حديث: «أكرموا عمتكم النخلة»... إلخ. موضوع أخرجه العقيلى فى الضعفاء (٤٣٠) وابن عدى (١/ ٣٣٠) وأبو نعيم. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٢٦٣، وفيه زيادة على لفظ الشيخ، وقال: موضوع، والله أعلم.

(٤) قصة ابن عمر مع النخلة صحيحة.

الألى، بالضم والقصر: اسم موصول بعنى الذين. وإلآءٌ، بالمد والكسر: جمع إلوة، وَالإلوة، مثلث الهمزة: اليمين، وهى لغة رديئة جىء بها على غير القياسِ، والقياس فيها ألية، بإبدال الواو ياء كما قال على رضى الله عنه: (من بحر الكامل)

آلى ابن عبدٍ حين شدَّ ألية وحلفت فاستمعوا من الكذاب

أن لا يفر ولا يهلل فالتقى أسـدان يتقيان كل ضرابِ[1]

نصر الحجـارة مِنْ سفاهـة رأيه ونصرتُ رب محمد بصـوابِ

وهى قصيدة طويلة جدًا ضربت عن عزوها للاستغناء عن جلب سائرِهَا.

والعزمات: جمع عَزْمة، بالفتح وسكون الزاى: وهو مصدر عزَم على الأمر: أراد فعله، وصمم عليه، أو جد فيه.

يعنى أنَّ الذين وفت عزائمهم على الأمور، وبرت أيمانهم أن لا يفرطُوا فى أموالهم، بل دأبهم أن يعالجوا فى تتميمها، ويسعوا فى إصلاحِها، ويباشروا ذلك بأنفسهم؛ فيحيوا ثمار نخيلهم وأشجارهم بسقياهَا بالنواضح القوية ذات العجى من خيل وإبل وبغال، وذلك لا ينافى توكلهم، ولا يحط مِن مراتبهم العلية قدر نَواة، بل ذلك مما يزيد فيه، بل هو عين التوكل على الله تعالى، فإن الله تعالى قد شرع الأسباب، وجعل لكل شىء سببًا يكون عنده لا به.

ومباشرة الأموال وحفظها كان دأب الأنصار رضوان الله عليهم؛ فقد كانت لهم ضياع يسنون إليها بالإبل النواضح، وهم ممن قد ثبت أجرهم على الله وفضلهم على الناس على لسان رسوله الصادق المصدوق، يقول: «لو أن أحدًا أنفق ملء الأرض ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصفه»[2].

ولقد صدق الله نبيه بقوله: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ**﴾ [الحديد: ١٠].

---

(١) هذا الشطر غير واضح بهذه الرواية، والرواية الصحيحة:

* أسدان يضطربان كلَّ ضرابِ *

(٢) حديث: «لو أن أحد أنفق»... إلخ. متفق على صحته، رواه الجماعة، ولفظه عند البخارى: «لا تسبوا أصحابى، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه» (كتاب المناقب).

وفى بيان قيامهم بإصلاحهم على أموالهم حديث أبى هريرة مع ما هم عليه مِن الفضل والجهاد والأثرة، حديث أبى هريرة المشهور المخرج فى جميع الأسانيد، وهو قوله: قالوا: أكثر أبو هريرة؛ ووالله ما أكثرت؛ فقد أخذتُ عن رسول الله ﷺ جرابى علم: أما أحدهما فقد بثثته، وأما لآخر فوالذى نفس أبى هريرة بيده لو قلت لكم منه كلمة لقطعتم هذا البلعوم قبل أن أتمها، أما إخواننا مِن الأنصار فقد أشغلهم عن حضور بعض مجالس رسول الله ﷺ إصلاح أموالهم، وأمَّا المهاجرون فقد شغلهم الصفق بالأسواق، وأما أنا فكنت ألازم رسول الله ﷺ على ملء بطنى، فكنت أشهد مِن الأمور ما لم يشهدوا، وأعى مِن أحاديثه ما لم يعوا، ولقد شكوت إليه النسيان، فقال: انشر ثوبك، فنشرته، فقال ما شاء الله أن يقول، ثم قال لى: ضم إليك ثوبك، فضممته إلىَّ، فما نسيت بعدها شيئا أريد ذِكرَه[1].

وكان عمر رضى الله عنه إذا أتاه الوفد تفطن لأيدى مصافحيه؛ فولى عليهم أخشنهم يدًا مِن أثر العمل.

وفى الخبر: إن الله يبغض الشاب الفارغ.

---

(١) حديث: «قالوا: أكثر أبو هريرة»... إلخ. مؤلف من حديثين صحيحين:

الأول: رواه البخارى ومسلم والنسائى وأحمد، وأوله: «إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ، والله الموعد، إنى كنت امرأ مسكينًا أصحب رسول الله ﷺ على ملء بطنى.. إلى آخر الحديث»، وله روايات كثيرة.

والثانى: حديث: «أخذت من رسول الله ﷺ جرابى علم»... إلخ. فهو صحيح كذلك رواه البخارى بلفظ: «حفظت من رسول الله ﷺ وعاءين، فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم»، وفى رواية لأحمد: «لو حدثتكم بما سمعت لرميتمونى بالقشع».

والذى يظهر لى - والله أعلم - أن الجراب الثانى إنما هو أسماء الملوك الذين أخبر ﷺ بأن هلاك الأمة على أيديهم، ويخاف إن ذكر أسماءهم أن يؤذى.

أما كون هذا الحديث دليلاً على العلم الباطن فلا يتأتى ذلك لاعتبارين:

الأول: أنه لو كان هذا الجراب علم الباطن لكان النبى ﷺ كتم شيئًا مما أمر بتبليغه؛ وهذا محال، وإن لم يؤمر بتبليغه فمن أين علمه أبو هريرة؟! وإن قلنا بالخصوصية فهذا على رضى الله عنه يقسم وهو على المنبر بعدم الخصوصية.

الثانى: أن هذا الجراب لو كان على الباطن فأبو هريرة لم يقله لأحد خوفًا على نفسه كما قال، فمن أين وصل إلى القائلين به؟! والله أعلم.

وقال ﷺ: ليس المتوكل مَن فعل هكذا - وقبض يديه - ولكن المتوكل من وضع بذره في الأرض وتوكل على الله في إخراجه ليغني بذلك نفسه عن التكفف.

وأتى بهذا البيت تنبيهًا على أن العزلة وترك التسبب والكد في تحصيل المال الحلال لا يفضل فاعله على من فعل ذلك تعففًا وتعطفًا على العيال، كما يوهمه ما تقدم من قوله «ومردًى بمرداء لدى متوكل... إلخ»، فإنهما طريقتان توصلان إلى الله، جعل لكل منهما رجالاً، فهذا مجتهد صابر، وهذا محسنٌ شاكرٌ، وكل منهما مجاهد مصابر؛ لأنَّ الله قسم بين الناس أعمالهم كما قسم بينهم أرزاقهم ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فإن لله عبادًا لا يصلحون إلا للغنى، فلو أفقرهم لهلكوا، ومنهم من لا يصلح إلى على الفقر، فلو أغناهم أهلكهم الغنى، ومنهم مَن لا يصلح إلا على الدؤوب على العمل، فلو منعهم من العمل لهلكوا، ومنهم من لا يصلحه إلا الكف عن العمل والمنع فلو خلى بينه وبين العمل لهلك؛ فهو أعلم بمصالح عباده.

والحاصل أن الطرق إلى الله بعدد النجوم في السماء، وكلها موصلة إلى الله تعالى ما اجتنب الشرك والمعاصي: (من بحر الطويل)

عباراتنا شتى ومعناك واحد   وكل إلى ذاكَ الجمال يُشيرُ

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٣٩ - وَيَحْمِي الْمُهَى ضَرْبُ الْمِهَاء طُلَى العدَا
إذَا لَمْ تُوَاصَلْ قَيْنَةٌ وطِلاَءُ

قوله: «ويحمى المُهَى»: مضارع حمى. والمُهى، بالضم والقصر: مفعوله، وضربُ: فاعله، وهو ماء الفحل في حَيَاء الناقة. والمهاء، بالكسر والمد: السيوف الرقائق، واحدها مهوى؛ وسمي بذلك لكثرة هويه إلى الضرب، وَهوى: صاحبه حينئذ. والطُّلى، بالضم والقصر: الأعناق، وإحداها طلية، مبالغة في الطول؛ لأنَّ العرب تمدحُ بطول العنق، فيقولون: فلان طويل النجاد عبارة عن طُول العنق والصدر. والنجاد: علاقة السيف، ويقولون: كأن عنقه جيد دمية وإبريق فضة.

وقال الشاعرُ: (من بحر الوافر)

وربَّ أسيلة الخدين بكر مهفهفة لها فرع وَجيدُ

أي فرع كَحيل وجيد طويل.

وقال الشاعر: (من بحر الطويل)

طوال النجاد طيِّبٌ حجزاتُهم يُحَيَّوْن بالريحان يوم السباسبِ

والطلاء، بالمد والكسر: من أسماء الخمر، وبالفتح: الخلوق، والقطران أيضًا. والقينة: الأمة المغنية. ومواصلة الشيء: المواظبة عليه.

وَكَأَنَّهُ يقول: لا يحمي الماء الذي في أرحام الإبل، وهو أنفه تافه فضلاً عن كَرائم الأموال، إلا أن تضرب دونها أعناقَ العدو بالسيوف الجياد المعدات للمهوى إلى ضرب الأجياد الرقاق المتون، بشرط العدل والتُّقى المعبر عنهما بقوله: «إذا لم تُواصَلْ قينَة وطلاء»، أي: إذا لم يواظَب على الخمر والغناء، فإن فعل لم ينفعه سيفٌ ولا سنان، كما رفع النصر عن أهل الأندلس لما اشتغلوا بالشرب، وانهمكوا في سماع الشعر والضرب، فسلط الله عليهم عبيدَهم من الروم؛ فأبَادوا خضراءهم بعد العز الباذخ والعلو الشامخ؛ فأصبحوا أحاديث بعدما كانوا وجوه الناسِ؛ ففيهم كانت الفرسان والأنجاد، والعلماء الأمجاد، والكرماء الأجواد، والأولياء الأطوال، فصاروا كالأمسِ الذاهب، واستوى في العبرة بهم الحاضرة مع الغائب؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ومما يفتت الأكباد بكاء بعض علمائها يبكي ملة الإسلام وأهلها، والأندلس وفلها، ولم يبق في حفظي منها إلا القليل، فمطلعها: (من بحر البسيط)

لكل شيء إذا ما تمَّ نُقصانُ فلا يغر بطيب العيش إنسانُ

وهذه الدار لا تدوم على حال ولا تبقى على أحدٍ لَهُ شانُ

أمـا لكم نبأ بأهل أندلسٍ فقد مضى بِحديث القوم رُكبَانُ

(١) هذا البيت هو هكذا في النسختين، ووزنه لا يستقيم ولعله:

وهذه الدار لا تبقى على أحد ولا يدوم على حال لها شان

والله أعلم.

مــاذا التقاطعُ والإسلامُ ملتكُمْ ... وأنتمُ يَا عِبــادَ الله إخْـــوانُ
يا أيهــا الملك البيضـــاءُ رايتُه ... أدْرِك بسيفك أهْلَ الكفرِ ما كانوا
يا راكبين جياد الخيل ضـامرةً ... كأنها فى مجال السبق عقبان
وحاملينَ سيوفَ الهنـدِ مرهفةً ... كأنهـا فى ظلامِ الليلِ شُهبـان
تبكى الحنيفيـةُ البيضـاءُ مِن أسفٍ ... على فوارسَ فى الميــدان أركَـان
حتى المساجدُ تبكى وهى جامـدةٌ ... حتى المنابرُ تبكى وهى عيدانُ
فلو رأيت بكـاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستولتك أحزان
وطفلة ما رآتها العين جمالاً ... كأنهـا هى ياقوتة ومرجـــانُ[1]
يقودهـا العلجُ للمكـروه مكرهـة ... فالعين باكيـةٌ والقلـبُ ولهـان
وفرقـــوا بين أبنــاء ووالدةٍ ... كمَـــا تفـرق أرْواحٌ وأبْـدَانُ
لمثل هـذا يذوب القلبُ مِن أسفٍ ... إن كَانَ فى القلبِ إيمانٌ وَإحْسَان
فأين حمصٌ ومــا تحـويه مِن نزه ... ونهرهـا العـذبُ فياضٌ وملآنُ
وأين قرطبـةٌ دارُ العلـوم بهـا ... وأين مالقــــةٌ وأين جيــانُ

ثم جعل يعد مدنها ومرافقها وحصونها وحدائقها؛ إذ ليس فى معمور الدنيا مثلها بهجة، ولا مثل أهلها ظرفًا وفطنة، فلما غيروا غير الله بهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ﴾ [الرعد: ١١].

ويروى أن الإسكندر سأل علماء بابل أيهما أبلغ فى دفع العدو عنكم الشجاعة أو العدلُ؟ قالوا: إذا استعملنا العدل استغنينا عن الشجاعة.

ويقال: عدل السلطان أنفع مِن خصب الزمان.

وفى الحكم: إذا رغب الملك عن العدل رغبت الرعية عن طَاعته.

---

(١) هذا البيت لا يستقيم وزنه إلا أنه بتحريف بسيط يستقيم الوزن ليصبح:
وطفلة ما رأت عينى مماثلها ... كأنما هى ياقوت ومرجــان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو خراب مدينة باليمن ويسأله عما يَرُمُّها[1] به؛ فكتب إليه عمر: قد فهمت كلامك، فإذا قرأت كتابي فحَصِّنْ مدينتك بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم؛ فإنه مرمتها، والسلام.

ويروى أن الله رخص في كل شيء إلى في ثلاثة: العدل، والذكر، وأداء الأمانة.

فقال في العدل: ﴿وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقال في الذكر: ﴿فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]، ولم يرخص في تركه بحال؛ فهو ملازم للمؤمنين ملازمة الروح للبدن، فيلقن الذكر وروحه تنتزع بين لحمه ودمه وسكرات الموت تغشاه، بل يطالب به بعد مفارقة الروح للجسد، فقد صار تحت أطباق الثرى، وذلك كله عناية من الله تعالى لعبده المؤمن؛ ليرى ملائكته الذين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ملازمته ذكره، وثباته على توحيده، ومدافعته جنود الغواية عند النَّزع بالثبات، وإلا لما قام بهذا الخطب الجليل وقد ثُل عرش حياته بحلول طود مماته، وذلك قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وأما أداء الأمانة فإن الله يقول في شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

وقال ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولاَ تخن مَن خانَكَ».

يروى أن الصحابة لما فتحوا الأقاليم واستولوا على العراق وخراسان وكرمان وسجستان والرق وإصطخر وفارس وبابل وما وراء النهر استغاث كسرى بخاقان بعد ما خرج من جميع مملكته.

فلما جاءه رسول كسْرَى قال له: قد علمت أن صاحبك لم يُرسلك إليَّ حتى اختبر عقلك وذكَاءَكَ واختارك على جميع من معه، ولقد بعثك في أمر عظيم نزل به، وإني مما نزل به لفي وجل أن ينزل بي مثله، ونصرة الملوك على الملوك واجبة،

---

(١) يرمها: يصلحها.

وإني سائلك عن هؤلاء القوم الذين استولوا على هذه الأمم العظيمة بالقهر والغلبة، ودخول هذه الممالك الواسعة في هذه المدة القصيرة: أكثيرون هم؟ قال: لا، بل قليلون؛ فقال له: فكيف عدتهم وخيولهم؟ فقال: أما عدتهم فإن أكثرهم حُسَّرٌ أي: لا دروع لهم، ومنهم من لا سلاح له، قال: أحضرتَ قتالهم؟ قال: حضرته مرارًا، قال: صف لي قتالهم، قال: إذا شدوا صدقوا، وإذا شددنا عليهم صبروا، ولا يكترثون بعدد ولا بعدد، يذكرون ربهم على كل حالة، ويتلون كتابهم في غمرات القتال، لا يغدرون ولا ينقضون، صفوفهم في صلاتهم كصفوفهم في قتالهم، رهبان بالليل أسد بالنهار، وكلمتهم واحدة، وأمرهم سواء، لا يتكبر شريفهم على مشروفهم، ولا يحيف قويهم على ضَعيفهم، ولو سرق أميرهم قطعوه، ولو زنى لرجموه. ثم قال له: أيحرمون شيئًا ثم يأتونه؟ قال: لا، إذا حرموا شيئًا اجتنبوه، فقال له الخاقان: أما هؤلاء فليس لأحد بهم قِبَل، ولو حاولوا زوال جبل لأزالوه ما لم يغيرهم الدهر، ولكن ارجع إلى صَاحبك، وأخبره بأني ممده بالجنود بعد الجنود، مع أني أعلم أني لا أغني عنه شيئًا، وإني لأخافهم على ما تحت قدمي، ولكني أغيثك إذَا استغثت بي، والقوم قد حصنوا أنفسهم بالتمسك بدينهم، فلن يُغْلبوا ما تمسكوا به، ولا حيلة لأحد في قهرهم؛ لأني سألتك: هل كَانوا ذوي عدد؟ وذكرت من قلتهم، فلو كانوا قد غلبوكم بالعدد غلبنَاهم بِه حتى نظهر عليهم أو نُعذر في أمرهم، ولو كَانوا قد غلبوكم بتضاعف العُدَد لفتحنا خزائننا حتى لا يقاومنا في ذَلك أحدٌ؛ فنحن الملوك وأربابُ الحصون وأهلَ الحلقة والسلاح والبيض والنطاح.

ثم أخذ في الأهبة والتهيؤ والتسيير، ثم قال له: ارجع إلى صاحبك، وأخبره أن موعدنا جلولاء؛ فرجع إليه وقد رأى مِن العساكر ما لا قبل لأحد بِه إلا الله تعالى.

فلما أتاه رسوله حشد فارس ومن تجمع إليه مِن أهل الجبال [وما أمدته به أطراف الروم]. وقصد جلولاء على ميعاد خَاقان.

وبلغ الخبرُ الصحابة برجوع كسرى وإمداد خَاقان؛ فاجتمعوا وتأهبوا للقاء مع قلتهم، وقد أرسلوا يزيد إلى عمر رضي الله عنه ليخبره بما توجه إليهم مِن أمداد

خَاقان، ورجوع كسرى بعد الهزيمة، وانضواء فارس إليه وأهل الجبال، وما أمدت به أطراف الروم، وقد أقبلوا معهم على الصعب والذلول.

فلما بلغ ذلك أهل المدينة جعلوا كلما صلوا يرفعون أيديهم بالضراعة إلى الله تعالى يستنصرونه لأصحاب رسول الله ﷺ.

ثم إن جنود خَاقان سبقت جنود كسرى، فعسكرت بين البحر وجلولاء.

وكَان مِن عادتهم إذا أرادوا السير إلى أحد أن يقدموا ثلاثة مِن أشرافهم مع كل واحد منهم دُفٌّ، ويتفاوتون على قدر شرفهم، فيأتي الأول ويضرب دفه ضربات، ثم يقف على ربوة مشرفة، ثم يأتي الثاني فيفعل مثل ذلك، ثم يأتي الثالث فيفعل مثل ذلك، ثم يأتي العسكر بعد ذلك، فيسيرون إلى عدوهم.

وكَان في عسكر المسلمين الأحنف بن قيس وقد بلغهُ ذَلك مِن عادتهم، فذهب وحده بليل يرصد الفَوارس ليقتلهم، فلما ضَرب الأول دفه حمل عليه الأحنف فتطاعنا، فلم يلبث أن قتله، فغيب فرسه. وأخذ دفه بيده، ثم قام مكانه حتى أقبل الثاني، فحمل عليه، فلم يلبث كذلك أن قتله، ثم جاء الثالث، ففعل به مثل ما فعل بصاحبيه، فأخذ خيولهم وأسلحتهم، وكسر الدفوف وشققها، وغَادر كل واحد عند رأس صاحبه.

فأقبلت عساكر العجم بغلس، فلم يفاجئهم إلا أصحابهم وهم بالدماء مضرجون ودفُوفهم عند رءُوسهم مخرقة؛ فذعروا وتشاءمُوا، فبعثوا فَوارسَ منهم لتقتص الأثر، فوجدوه فارسًا واحدًا، فازدادوا رُعبًا لذلك؛ فرجعوا إلى خاقان وأخبروه بما رأوا، فأمرهم بالانْصراف، فقال لهم: هذا ما لم يقع قط، فأمرهم بالانصرافِ، فانصرفوا راجعين.

فقال له بعض وزرائه: أترجع من غير قتال؟ قال له: السلامة ظفر، فإن القوم مصنوع لهم، تقاتل معهم الملائكة، وينْصرهم إله السماء، وقد علمتم مِن قول لصاحب فارسَ أن لا قبل لنا بهم. وقد بلغني أن نبيهم أمرهم بترك الترك، فقال لهم: «اتركوا الترك ما تركوكم»[1]. ولن يغلبوا ما تحصنوا بدينهم وأقاموا شريعتهم.

---

(١) حديث: «اتركوا الترك»... إلخ. ضعيف جدًا أورده ابن الجوزي في موضوعاته، وقال: =

فبعدما انصرف خاقان بيوم أقبل كسرى فى عساكره من فارس والروم وأهل الجبال، وأمر الأحنف الصحابة بالمسير إليهم ليلاً، وأن يجعل كل واحد منهم على سنان رمحه شعلة نار ومصباحًا؛ ففعلوا، فلما دنوا من عساكر كسرى ورأوا ما دبَّرَ لهم الأحنف ظنوا أنها عساكر الجن؛ فذعروا، فوطىء الصحابة أكنافهم يقتلون ويأسرون، وانحاز كسرى إلى دَيْر خراب، فرآه بعض فارس من عاهد المسلمين وعاقدهم، فقتله، واجتز رأسه، وأتى به أميرَ العسكر؛ فسجد لله شكرًا، وظهر مصداق قول رسول الله ﷺ: «إذا مات كسرى فلا كسرى بعده»(١).

فالبيت مقتبس من حديث قدسى يرويه ﷺ عن ربه: «إذا عصَانى مَن يعرفنى سلطت عليه مَن لا يعرفنى».

يروى أن الله تعالى لما سلط بختنصر وأهل بابل على بنى إسرائيل، فجاسوا خلال الديار، فقتلوا، وسبوا، ودمروا، وخربوا بَيْتَ المقدس، وردموه بالتراب، وحرقوا أستاره؛ فقال أرمياء: يا رب لِمَ سلطت علينا بختنصر وجنوده وقد قابلت بين ذنوب أعصانا لك وأطوعهم، وأقلهم معصية لك أكثر ذنوبًا من أعظمنا جُرْمًا؟

فأوحَى الله إليه أنَّ بنى إسرائيل عصونى وهم يعرفون جلالى؛ فضربتهم بسوط من سياطى وهم كفرة بابل، فأنتقم منهم، ثم أنتقم بهم، يَا أرمياء، كيف أنصر

= موضوع عن أحمد بن محمد بن الأزهر وسلمة بن حفص، وعنه صاحب تنزيه الشريعة، وقال: تعقب بأن ابن الأزهر - وهو المتهم - تابعه إسحاق ابن أيوب الواسطى، أخرجه أبو الشيخ؛ فزالت تهمته (٢/ ٣٢).

والحديث رواه الطبرانى وعنه السيوطى فى جامعه تحت رقم ١١٠ ولم يرمز له، وفيه زيادة على رواية الشيخ.

قال المناوى: قال الهيثمى: فيه مروان بن سالم متروك، وذكره فى موضع آخر وقال: فيه عثمان بن يحيى الفرقابى لم أعرفه، بقية رجاله رجال الصحيح وقال السمهودى: المقال إنما هو فى سند الكبير، أما الأوسط والصغير فإسنادهما حسن؛ إلى أن قال: وكيفما كان لم يصب ابن الجوزى حيث حكم بوضعه، والله أعلم.

(١) حديث: «إذا مات كسرى»... إلخ. متفق على صحته، أخرجه البخارى فى كتاب فرض الخمس وكتاب علامات النبوة، ومسلم فى كتاب العين، ولفظ البخارى: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذى نفسى بيده لتنفقن كنوزهما فى سبيل الله»، والله أعلم.

قومًا أتودد إليهم بالنعماء والإحسان ويقابلوننى بالذنب والعصيان؟! أنصر عبدى مَا أطاعنى واستنصرنى وَخضع لجلالى، فإذا طغى وبغى ونسب إلى نفسه ما هو منى إليه سلبت منه أمْداد نصرتى، ونزعت عنه جلبات نعمتى، وضربته بسوط نقمتى، فأنا القاهِرُ فوق عبادى، أعز مَن شئت بطاعتى، وأذل مَن خذلت بمعصيتى.

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٤٠ ـ وَصَوْنَ الْخُطَى عَنْ ذى الخِطَاء الْتَزِمْ وَهبْ
صُفَـــاكَ لِمُهْدى مَنْ لَدَيه صِفَـــاءُ

قوله: الخُطى، بالضم والقصر: جمع خُطوة، وهو ما بين القدمين فى التخطى، والخِطاء، بالكسر والمد: الأثر وصوته أو خشخشة الماشى. والصُّفى، بالضم والقصر: جمع صَفْوة، وهى خيار كل شىء.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣] أى: اختارهم واصطفاهم، وإنما ذكر آدم ونوح فقط دون ذكر ما بينهما لأن الرسالة والنبوة لم تكثر فيما بينهما، أما آدم عليه السلام فلم ينبأ من بنيه سوى أخنوخ وهو إدريس، وأما شيث فإنما هو وصى آدم عليه السلام ووارث علمه، وكان رجلا صالحا فى أمة مؤمنة، وكان له خمسة من البنين كلهم صلحاء، وهم: وُد وسواعُ ويغوث ويعوق ونسر، وكانوا علماء، وكانت بنو آدم تأتيهم من الأقاليم لأخذ العلوم عليهم ونشر التوحيد وطلب الزيارة، إلا ما كان من بنى قابيل فإنهم اعتزلوا بقعر عدن، فلما مات هؤلاء الصلحاء عبدوا النار، وذلك أول منشأ دين المجوسية، فغزوهم فأبادوهم قتلا، إلا من فاتهم منهم فتمنع برءُوس شواهق الجبال.

وكان إذ ذاك لكل إنسان خليل من الملائكة يأتيه جهارًا، ولا يزال يعلمه العلم والحكمة، ويريه مطالع البروج والمنازل، ويعظه، ويخبره بما حدث فى الجنة من النعيم. ويبشره بمنزله فيها، فإذا كان وقت العصر صعدت الملائكة الى السماء ليعبدوا الله فيها.

فلما ذهب ذلك القرن الصالح وطال الأمد أتاهم إبليس فى صورة حكيم وقد اجتمعوا عند قبور الصالحين الخمسة، فقال لهم: إنكم تأتون من شقة بعيدة وقد مات هؤلاء الصلحاء، الذين كنتم تأخذون منهم العلم، فإنكم اليوم لا تأتونهم إلا لمجرد الزيارة والتبرك، ، فهلم أصور لكم صورهم كأنكم تنظرون إليهم، فيذهب كل إقليم بصورة؛ فتستريحون من التعب ومعاناة الأسفار وقطع الشقة البعيدة، ويحصل لكم ما تريدون؛ فأجابوه إلى ذلك، فصنع تلك الصور، وسمى كل صورة باسم صاحبها.

فلما فنى ذلك القرن جعلت الشياطين تخاطبهم فى أجواف تلك الصور فيقولون لهم: إنما كان آباؤكم الأقدمون يعبدوننا ونحن آلهتهم، فأصفقت[1] حينئذ بنو آدم على عبادة الأصنام، وذلك أول ما عبدت، فاعتزلتهم الملائكة والتزمتهم الشياطين؛ فصاروا يعلمونهم السحر والغناء والشعر والمزامير والرقص والنياحة والسرقة والغَصْب والتعدى وغير ذلك من أنواع المعاصى.

فبعث الله إدريس عليه السلام، فجعل يدعوهم سرًا خوفًا من أن يصيبوه بالسحر، فأنزل الله عليه الأربعين المقدسة التى يقال لها الآن: الإدريسية، وعلمه الخياطة، وهو أول من خاط، وكان لا يفتر عن ذكر الله حتى قيل: إنه ليدخل الإبرة بالذكر ويخرجها به، وكان يقوم الليل كله، ويصوم الدهر جميعه، وكان يصعد، له من العمل الصالح ما يصعد لجميع أهل الأرض، وكان يكسو من أسلم مخيط الثياب، ويفطر [على الريقّ من عمل يده؛ فآتاه الله علم الأفلاك والتنجيم والخط فى مقابلة ما كانت تعلم الكفرة من السحر وأكاذيب علم الغيب والشعوذة؛ فغلبهم بذلك معجزة له وتأييدًا عليه.

فلما رفع ارتد كثير ممن آمن به واتبعه، وبقيت صحفه بيد بنيه، فتغلب الفساد، وشاع العناد، وعبدت من دون الله الأنداد. وسد ما بين السماء والأرض السواد، ، مما اجترحه من الذنوب والمعاصى العباد. فشكت إلى الله من كثرة ذنوب بنى آدم الأرض والأشجار والأطواد، فتصلبت الحجارة ومرت وشاكت الأشجار[2] فذلك

(١) أصفقت بنو آدم: أى اجتمعوا على عبادة الأصنام.
(٢) مرت وشاكت: أى صارت مرة ونبت فيها الشوك.

أول ما ظهر المرارة والشوك.

فلما رأت الملائكة ذلك طعنت على بنى آدم، فقال الله تبارك وتعالى: ولا تطعنوا على بنى آدم؛ فإنهم صفوتى من خلقى، لو أنى ركبت فيكم ما ركبت فيهم من الشهوات والأغراض لكنتم أكثر منهم مخالفة، فاختاروا ثلاثة منكم، فلينزلوا إلى الأرض، فأركب فيهم ما ركبت فى بنى آدم من الشهوات والأغراض وضروريات الطبع؛ فاختاروا هاروت وماروت وعزازيل، فأما عزازيل فإنه لما أحس بما ركب فيه من الطبع والشهوة استقال الله؛ فأقاله. وأما هاروت وماروت فأنزلهما الله إلى الأرض على صور بنى آدم، وركب فيهما ما ركب فى بنى آدم، ولم يحرم عليهما إلا الشرك وقتل النفس والزنى وشرب الخمر، وكانا يقضيان بين الناس النهار كله، فإذا كان الليل ذكرا اسمًا من أسماء الله وصعدا إلى السماء فيبيتان يعبدان الله، حتى إذا أصبحا يرجعان إلى الأرض، فيحكمان بين الناس، فلم تمض عليهما أربعة أشهر حتى افتتنا بالزهرة، وهى امرأة من بنات الملوك، وقد تحاكمت إليهما مع زوجها، فغلَّباها عليه شغفًا بها واتباعًا للهوى، فوقعا فى جميع ما نهاهما الله عنه؛ فسجدا للصنم، وقتلا النفس، وزنيا، وشربا، فمسخت هى كوكبًا، وهما خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة، فاختارا عذاب الدنيا، فهما معلقان فى بئر منكستان مغللان، يعذبان بالجوع والعطش، وقد وكل الله بهم ملائكة من زبانية العذاب يضربونهما بسياط من نار إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة غفر لهما، فقيل: يدخلان الجنة مع بنى آدم مكان ما عذبا، ولمَا ركب فيهما مما يقتضى ذلك، وهو الأولى. وقيل: يرجعان إلى ما عليه جنسهما من الملائكة، فيكون التسبيح والتقديس قوتهما[1].

فبعث الله نوحًا، وكان من أمره ما قص الله فى كتابه، وكان له من البنين أربعة: سام وهو أفضلهم، وحام، ويافث، وكنعان.

---

(١) هذا الكلام المتقدم عن الملكين، واختيار الملائكة لهما، وأن الشهوة ركبت فيهما، وأنهما عملا كل شيء من المحرمات. وأنهما الآن يعذبان . . . .إلخ، لا يصح منه شيء، قال القرطبى رحمه الله بعد أن أورد القصة: هذا كله ضعيف وبعيد عن ابن عمر وغيره، ولا يصح منه شيء، فإنه قول تدفعه الأصول فى الملائكة الذين هم أمناء الله على وحيه (٢/ ٥٢) قرطبى.

قلت: والذى يظهر أن هذه القصة من صنع خيال اليهود، والله أعلم.

فمن ذرية سام جميع الأنبياء والمرسلين، وهو أبو العرب والروم وفارس وبنى إسرائيل. فتنبأ من أبناء نوح عليه السلام: هود وصالح وشعيب ولوط وعلقمة بن صفوان، وأربعة عشر نبيًا أرسلهم الله إلى أصحاب الرسم فلم يسلموا. وأكثر الأنبياء كان من بنى إسرائيل.

وجملة الأنبياء والمرسلين مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، وعدد المرسلين ثلاثمائة وثلاثة عشر على المختار المرتضى، وأولو العزم منهم خمسة على المشهور: محمد ﷺ ونوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى. وقيل: تسعة، فيكون منهم: داود وسليمان وهود وصالح. وزاد بعضهم إسماعيل لصبره على الذبح.

وأما حام فهو أبو القبط والحبشة والزنج والزط والنوبة والهند وجميع أنواع السودان.

وأما يافث فهو أبو الترك والخزر والصقالبة والروس والتتار ويأجوج ومأجوج.

وأما كنعان فإن نسله قد انقرض، وقيل: ترك ولدًا أسلم مع نوح، ومن ولده كانت العمالقة والديلم والأكراد والبرابرة.

قوله: والصفاء، بالكسر والمد: المصافاة. ومُهدى، بضم الميم: السيد، اسم مفعول من أهدى إليك هدية. والصفاء: نائب عن الفاعل.

فكأنه يقول: احفظ خطاك من السعى بها إلى الإثم والمأثم، بل وعن صاحب الإثم، والتزم ذلك، وأهلك خيار ما عندك بلا عوض، وهو أصل عظيم من أصول الدين، قال الله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢]، فجعل الأثار فى مقابلة جميع أفعال البدن؛ لأنها الواسطة والسبب الموصل إلى ذلك؛ ولذلك سميت جميع الأعمال بالسعى لأنه معظمها والسبب فى تحصيلها، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩]، أى: عمل الأعمال التى تقضى تحصيل الثواب والنجاة من أليم العذاب بالامتثال والاجتناب.

قال ﷺ: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله دخل الجنة»[1].

---

(١) حديث «من اغبرت قدماه»... إلخ. صحيح أخرجه البخارى والترمذى والنسائى، ولفظه عند البخارى، «من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار» وهو عنده فى كتاب الجمعة.

وقال أيضًا: «ما من عبد مؤمن يخرج من بيته إلى مسجد من مساجد الله لا يخرجه إلا الصلاة واحتساب الأجر إلا رفع له بكل خطوة يخطوها درجة فى الجنة، وكتبت له بها حسنة، وحطت عنه بها سيئة، وكان كالمجاهد فى سبيل الله».

ويروى أن جبريل عليه السلام أتى النبى ﷺ فقال له: أتدرى فيما يختصم الملأ الأعلى؟ قال: تكثير الخطى إلى المساجد، والصلاة فى الجماعة، وإسباغ الوضوء فى المكاره، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، ثلاث مرات، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط فذلكم الرباط»[1].

وقال ﷺ: «بشر المشائين فى الظلمات إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[2].

وقال أيضًا لوفد قدموا من اليمن لَمَّا قالوا له: أتيناك يا رسول الله رغبة لا رهبة من غير أن تبعث إلينا بعثًا ولا رسولا، ولله المنة ولرسوله علينا، فقال: «أما إنكم لم يصبكم ظمأ ولا مخمصة، ولم تقطعوا واديًا ولا جبلا، إلا كتب لكم بذلك عمل صالح، وما خطا أحدكم خطوة إلا رفعت له بها فى الجنة درجة وحطت عنه بها سيئة وكتبت له بها حسنة، فلما أتيتمونى خرجتم من ذنوبكم كيوم ولدتكم أمهاتكم».

وكان بعض السلف لا يتنعلون فى ذهابهم إلى المساجد وزيارة الإخوان فى الله وعيادة المرضى وتشييع الجنائز والمشى فى حوائج الأرامل عملا بقول رسول الله ﷺ: «من اغبرت قدماه فى سبيل الله دخل الجنة» وفى رواية: «لم تمسه النار إلا تحلة القسم». وفى رواية: «غفر له».

ويروى أن الحسن رضى الله عنه حج أربعين حجة والنجائب تقاد معه وهو يسعى على رجليه. فتارة يمشى حافيًا فإذا أدلقه ألم الحر انتعل رغبة فى الأجر.

وحج الرشيد بعد قتله البرامكة حجات ماشيًا، وهو خليفة الوقت، رغبة فى الأجر وإظهارًا للضراعة مع الإقلاع والتوبة، وكان يصلى كل ليلة مائة ركعة،

---

(١) حديث «أتدرى فما يختصم الملأ الأعلى»... إلخ. صحيح رواه مسلم. وأوله عنده: «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات»... إلخ.

(٢) حديث: «بشر المشائين»... إلخ. صحيح رواه الترمذى وأبو داود (١/٢٤٣) و (٥٦١).

ويتصدق كل يوم بمائة دينار من خالص ماله الذى لم تخالطه شبهة ولا شوب حرام. فكان ذلك دأبه حتى مات رحمه الله.

وقيل: الآثار عبارة عن الآجال، والأول أولى وأقرب إلى معنى التنزيل وأكثر أدلة. وقيل: المراد بقوله: ﴿وَآثَارَهُمْ﴾ أى: ونكتب ما سنوا من سنة حسنة وسيئة.

وعن جرير بن عبد الله البجلى قال: قال رسول الله ﷺ: «من سَن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ فى الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة». وفى رواية: «من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا»[(١)].

وهذه الآثار هى الآثار المجازية العلمية، فكأنه ترك فى الإسلام أثرًا يقتفى ويتبع فيه كما يقتفى، آثار القدم حقيقة.

عن أبى سعيد الخدرى قال: كانت بنو سلمة فى ناحية المدينة، فأرادوا النقلة إلى قرب المسجد، فنزلت هذه الآية: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢]، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إن آثاركم تكتب»؛ فلم ينتقلوا. أخرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب. وأخرجه البخارى عن أنس قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول الله ﷺ أن تعرى المدينة؛ فقال: «يا بنى سلمة، ألا تحتسبون آثاركم؟» فأقاموا.

قوله: تعرى: يعنى: تخلى فتترك عارية، وهو الفضاء من الأرض الخالى الذى لا يستره شىء.

وأخرج مسلم عن جابر قال: خلت البقاع حول المسجد، فأراد بنو سلمة أن ينتقلوا إلى قرب المسجد، فبلغ ذلك النبى ﷺ. فقال لهم: «بلغنى أنكم تريدون أن تنتقلوا قرب المسجد؟» قالوا: نعم يا رسول الله، قد أردنا ذلك، فقال: بنى سلمة، دياركم تكتب آثاركم، فقالوا: ما كان يسرنا أنا كنا تحولنا بعد[(٢)].

---

(١) حديث «من سن فى الإسلام سنة حسنة»... إلخ. صحيح رواه مسلم وأحمد والنسائى، وله ألفاظ كثيرة، والله أعلم.

(٢) حديث «يا بنى سلمة»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان، وهذا لفظ مسلم (٢/ ١٣١).

قوله: بنى سلمة: أى يا بنى سلمة. وقوله: دياركم: أى: الزموا دياركم.

وأخرج الترمذى فى الألقاب عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «أعظم الناس أجرًا فى الصلاة أبعدهم فأبعدهم ممشى، والذى ينتظر الصلاة حتى يصلى مع الإمام أعظم أجرًا من الذى يصلى ثم ينام».

قوله: وهب: أى التزم ذلك، وملك خيار ما عندك بلا عوض شخصًا أهدى إليك على وجه المصافاة لا جَرَّاء البذل والمكافأة.

قال الرسول ﷺ: «من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ولو بالدعاء»[1].

بل من الواجب فى حق الفتوة أن تصل من صافاك وأحبك مجانًا.

قال الشاعر: من بحر الطويل:

لمن تجمع الدنيا إذا لم تُرِدْ بها ... سرور محب أو إساءة مجرم

وقال غيره: (من بحر البسيط)

ومَن أطاعَك فانفعه بطاعته ... كما أطاعك وادْلُلْه على الرشدِ

ومن عصاك فعاقبه معاقبة ... تنهى الظلومَ ولا تقعد على الضمد

ومن شيم الكرام المكافأة على الهمة بدون العطية والشكر عليها.

يروى أن بعض الفضلاء دخل على المنصور، فأقبل عليه ثم قال له: يا أبا فلان، لقد هممت بوصلتك مرارًا فتدافع الأمر فلم يقدر الله شيئًا من ذلك، فقال له: يا أمير المؤمنين، من لم يشكر على الهمة لم يشكر على العطية، وإن شئت أنشدتك من ذلك ما بلغنى، فقال له: افعل، فقال: (من بحر البسيط)

لأشكرنك معروفًا هممت به ... إن اهتمامك بالمعروف معروف

ولا ألومُك إن لم يمضه قدرُ ... فالشىء بالقدر المحتوم مصروف

فاستحسنها المنصور حتى كتبها بيده، ثم خلع عليه، وأمر له بصلة سنية، فانصرف.

---

(١) حديث «من أسدى إليكم معروفًا»... إلخ. صحيح رواه أبو داود والنسائى بلفظ: «من صنع» وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٢٣٦٨ بلفظ الشيخ إلا أنه قال فى آخره: «فإن لم تستطيعوا فادعوا له» بدل «ولو بالدعاء»، والله أعلم.

● **ثم قال رحمه الله:**

١٤١ ـ وَسَامِ السُّهَى وَاحْمِلْ سِهاءً عَلَى سُرًى
تُخَـــالُ بِطِيَّــاتٍ لَدَيْـهِ سِـرَاءُ

قوله: «وسام السُّهى»: المساماة: المباراة والمفاخرة، تقول: ساميت الرجل: إذا طاولته في المجد والعلا. والسُّهى، بالضم والقصر: نجم خفي يختبر الناس به أبصارهَم بإزاءِ بنات نعشٍ، وكثيرًا ما تضرب العرب به الأمثال، كما قال الشاعر: (من بحر الطويل)

فإن أخَا دنياك أعمى يرى السُّهَى ... سميع بصيرٌ جـاهلٌ يترقب

وقال غيره من المتأخرين: (من بحر الوافر)

عليك تحية من خل صدق ... حبيب غـابط منك السريرهْ
جـزاك الله عنـــا أبى خير ... لحلك للعويصـــات العسيرهْ
سعيت لها على التحقيق حتى ... تركت سَهِيها[1] شمسًا منيرهْ
فمن تَلكُ أرضُـه منَّا سباخا ... بقوا جدبا مَعَ السُّحب الغزيرهْ
ومن يك مُنبتًا قـد آض روضًا ... وجـاوز فى مراتبـه نظيرهْ

وقال المتنبى[2]: (من بحر الطويل)

فوا أسفـا كم يدعى الفضل ناقصٌ ... ووا أسفًا كم يَدَّعى النقـص فاضلُ
وقال السُّهى للشمس: أنت خفيـةٌ ... وقال الدُّجى: يا صبحُ لونُكَ حائلُ
وطاولت الأرضُ السماءَ تفاخُرًا ... وطَاولت الشهبَ الحصى والجنـادلُ
فقلت لدنيـا إنَّ عيشَـك باطـلٌ ... وقلـت لنفسى إنَّ دهـرك هازلُ

والسِهاء، بالكسر والمد، جمع سهوة، بالفتح: وهى الناقة الرقيقة للسير والحمل فلا يكلفها السير وحمله عليها. والسهواء: بين السهاوة، وتقول: نَاقة سهواء: إذا

---

(١) السهى: الليل أو قطعة منه.

(٢) هذه الأبيات ليست للمتنبى وإنما هى من شعر أبى العلاء المعرى.

كانت وطيَّة لينة السير غير قطوف. والسهاوة: مصدر سهت الناقة سهوة وإسهاء أو سهاوة فهى سهواء وسهوانة على وزن سلوانة. والسُّرى، بالضم والقصر: سير الليل. والسِّراء، بالمد والكسر: جمع سروة، مثلثة السين، كما فى القاموس: السهم الصغير القصير، أو عريض النصل طويله. وتخال، بضم التاء: مضارع خال أى: ظن، مبنى لما لم يسم فاعله، مسند للمفعول الثانى وهو سراء؛ فلأجل ذلك رفع.

فكأنه يقول: اربأ بنفسك عن سفساف الأمور، واجنح إلى معاليها حتى تكون فى السمو نظير السُّهى الذى هو أشد الكواكب خفاءً من أجل ارتفاعه فى الأفلاك، فالأمر بمساماة السهى أى: مغالبتها فى السموِّ، تمثيل لما ذكرناه، واستعمل أيضًا السير فى الليل بالنوق السهلة السير، واحملها على ذلك حتى تضمر وتظن بطاناتها مع ضخامة أجسامها شبهًا لشدة نحافتها وفرط ضمورها بالسُّرى سهامًا حنايا؛ فإن فى الحركة ـ كما قيل ـ بركة أى: بركة فى الجسم بما يعيده السير من صحته، لخروج فضلاته، وتحلل مواده التى تسترخيه وتذبله وتعيده غَرَضًا لِلْمَرَضِ، وفيه أيضًا البركة فى العلم بما يستفيده المسافر برؤية ما لم يره فى الإقامة من الأشجار والأنهار والجبال والبحار وغير ذلك؛ مما يقوى علمه بأن الله على كل شىء قدير، وأنه الفعال لِمَا يريدُ، وأنه بكل شىء عليم، وأنه الحى القيوم. وفيه أيضًا البركة بالتخلق بما يقتبسه المسافر مما يلقاه من أهل الفضل وذوى النفوس الزكية؛ لأنَّ الطباع ـ كَمَا قيل ـ تسرق من الطباع. وفيه أيضًا البركة المطوية فى الذكَاء والفطنة؛ فإنّ ما يراه مما ذكرنا، وما يشربه من المياه المختلفة الطعم، وما يلهم به من الهواء المختلف باختلاف ما جاوره من رطب ويابس وحجر وماء، كله مُوقد لنار فطنته، ومنبه لذكائه من نومته، إلى غير ذَلك من بركات الحركَات، ولو لم يكن فيها من الفوائد إلا أنَ فراق الوطن والاعتياد به يسهل له من نفسه فراق دَار الدنيا لكَان كَافيًا، فكيف وفيه أنه يُعَرّفَ بقدر نعمة الراحة الكائنة فى الإقامة من المأكل والمشرب والملبس والمنكح مثلاً؛ فيعظم قدرها عنده، والاعتراف بَهَا، والتحدث عنها. وكُل هذه نعم جليلة، وشكر جليل يقتضى المزيد، فهذه أيضًا بركة فى الشكر، وبركة فى النعم.

ومن فوائد السفر العظيمة أن يذكر عذاب الآخرة كما في الحديث المشهور من قوله ﷺ: «السفر قطعة من العذاب»(١). وقالت عائشة رضى الله عنها: لولا أن أزيد على رسول الله ﷺ لقلت: العذاب قطعة من السفر.

فيحذر منه، ويتعوذ بالله من شره، فيعمل على حسب النجاة منه، فيكون من مفاتيح السعادة، ويرجع هذا إلى البركة فى العمر؛ لأنها عندهم بكثرة الأمداد لا بكثرة الآماد، فكم من أمد طويل قلت أمداده؛ فلا بركة لعمر صاحبه، ورب أمد قصير كثرت إمداداته؛ فبورك لصاحبه؛ فالبركة فى العمر والبركة فى العمل هُما شىءٌ واحدٌ.

كما روى أن ذا القرنين الذى ذكر الله فى كتابه ملك جميع المعمور، وأدرك ما أدرك من العلوم والحكمة، حتى صار الخضر عليه السلام وزيره، توفى وهو ابن ثلاثين سنة.

ولما مات النبى ﷺ جعل عمر يبكيه ويقول: بأبى أنت وأمى يا رسول الله أدركت فى قليل مدتك ما لم يدركه نوح عليه السلام فى طول مدته؛ فآمن بك الكثير وما آمن به إلا القليل. جعلنا الله ممن بارك الله فى علمه وعمله وعمره آمين.

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٢ ـ وَحَاذِرْ ظُبَى عِنْدَ الظِّبَاءِ فَلَنْ تَرَى
دُمًى فَتَكَتْ إلاَّ تُطَلُّ دِمَـــاءُ

قوله: وحَاذِر: فعلُ أمر من حذِر، بالكسر، والمحاذرة مفاعلة من الحذر، بالكسر، والحَذَر، بالتحريك، والاحتذار، والمحذرة، جميع ذلك من الاحتذار، فهو حاذر وحَذران وحَذرون، يجمع على حَذارى أى متيقظ شديد الحِذْر، بكسر

(١) حديث: «السفر قطعة من العذاب» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان والثلاثة دون أبى داود. وهو عند البخارى فى كتاب الحج، ولفظه: «السفر قطعة من العذاب؛ يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه، فإذا قضى نهمته فليعجل إلى أهله»، والله أعلم.

الحاءِ وَسكون الذال المعجمة. قال الله تعالى: ﴿خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ [النساء: ٧١].

والظبى، بالقصر والضم: جمع ظُبَة، بالظاء المشالة وفتح الباء مخففة بوزن ثبة: وهو حدُّ السيف أو السيف نفسه. والظباء، بالكسر والمد: جمع ظبى.
والدمى، بالقصر والضم: جمع دمية، وهى صورة مِن الرخام أو المرمر.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

كأن دمى شغف على ظهر مرمرٍ كَسَاء مُربِدَ الساجوم وشيًا مصورا

ويعبر بها عن النساء وهو المراد هنا. يقال: طُلَّ دَم، بالبناء لما لم يسم فاعله: أى لم يقتل قاتله ولا أخذت فيه ديَّة، ومثله هُدر وَسُفح وبطل، وناحَ عليه الذئب، ولم ينتطح فيه عنزان، وكدم فُعيس. والفرق بين الإهدار والطل أنَّ الإهدارَ يكونُ القاتل فيه آمنًا مِن المطالبة بالثأر، كَإِبَاحة دَم المقتول من جهة سلطان أو غيره. والفتك، مثلث الفاء، كالفتوك: ركوب مَا هم به مِن أمرٍ دعت إليه النفس مع القدرة عليه والإتيان به على وجه يعجز عنه حتى يكون ذلك الأمر كأنه طوع يده.

وفتاك العرب كثيرون، ومن أشدهم فتكًا البراض الكنانى، وفيه يقول الشاعر: (من بحر الخفيف)

والفتى مَن تَعَارَ فَتْهُ الليالى والقيان كَالحية النضناضِ
كُل يوم له بصرفِ الليالى فكتة مثل فتكة البرَّاضِ

ومنهم تأبَّطَ شرا القيسيُّ، والشنفرى الأزدى، وسليك المغانب التيمى.

يقال: فتك، بالفتح، يفتاك، بالضم والكسر، كبتك يبتك ويبتك.

وكأنه يقول: خذ حذرك مِن ظبى أى: عيون تشبه ظُبى السيوف بالفعل؛ وهى استعارة تحقيقية. وقوله: عند الظباء صفة للظبى، كنَّى بتلك الظبى عن النساء الحسان الشبيهاتِ بالغزلان فى الحسن، فلست ترى حسناء فتكت بشخصٍ، أى: قتلته بحبها، إلا ومقتولها لم يطلب له بثأر ولم تؤخذ فيه دية، وهذا علة الأمر، وبيان لعاقبة ظُبَى الظِّبَاءِ؛ فإن مقتولها مطلول الدماء، وهو فى الحقيقة أمر بغض

البصر، والتحذير مِن غوائل النظر، كما قال أبو محمد بن عبد البرّ بن عمر: (من مجزوء الكامل)

لا تكثـــــرن تأمُّـــــلاً واحبس عليك عنان طرفك

وجملة قوله: (إلا تطل دماء): في موضع نصب على الحال مِن فاعل فتكت، وهو ضمير دُمًى، وتطل، بضم التاء: مبنى لما لم يسم فاعله، مرفوعُهُ: دماء، ولاَ يبنى للفاعل أبدًا كماضيه، وهو طلَّ كما تقدم.

ومن مات حبًّا ووجدًا من فتيان العرب يحتاج إلى مجلد، منهم: نصر بن الحجاج الذى نفاه عمر رضى الله عنه مِن المدينة إلى البصرة. وذلك أن عمر رضى الله عنه كان مِن كُل ليلة يطوف بالمدينة يستمع ما يقال ويرى ما يفعل صيانةً للدين وحياطة لجنابه، فبينما هو فى ليلة يطوف بالمدينة إذ سمع فتاة فى بيتها وقد رفعت عقيرتها بهذا البيت: (من بحر البسيط)

هل مِن سبيل إلى خمر فأشربهـا أم مِن سبيل إلى نصر بن حجاجِ

فحفظ عمر البيت. فلما كان مِن الغد واجتمع عليه وجوهُ الناس فقال: من المُتَمَنَّى البارحة واسمه نصر بن حجاج؟ فقالوا: هو يا أمير المؤمنين فتى مِن بنى سليم، فقال: علىَّ به، فلما رآه عمر بهره حسنه وجماله؛ فقال: والله لأزيلنّ جمالك؛ فبعث إلى الحجام فحلقه، ثم نظر إليه بعد الحلق فإذا بِحلق رأسه قد زاده حسنًا وجمالاً؛ فقال: سبحان الله ما زاده إلاَّ حسنًا وجمالاً، فقال الفتى لعمر: لا ذنب لى، قال: صدقت، والله لا سكنت معى فى المدينة بعدما فتنت المخدرات فى حجالِهِنّ؛ فحمله، وزوده، ونفاه إلى البصرة.

فقدم البصرة وأميرها مِن قبل عمر رجل مِن بنى سليم قريب النسب منه؛ فَأدناه وقربه حتى جعل زوجته هى التى تخدمُه على عادة الأعراب. فأتته يومًا بغدائه فلما وضعته كتب بالأرضِ: إنّ بى مِن هواكِ ما لو كان فوقى لأظلنى، أو كان تحتى لأقلنى. ولقد هوته كما هواها، فلم تتمالك أن كتبت تحت كتابته: وأنا كذلك. فقال لهما. ما كتبتَ لها وما كتبتْ لك؟ فسكت الفتى وأجابته زوجته ـ وكانت ابنة عمه ـ قالت له: كتب لى أنه قد أثمر نخيلنا، فكتبت تحت كتابته:

وأنا. فقال لها: لا مناسبة بين اللفظين؛ فإنَّ قولَه: أثمر نخيلنا أجنبى مِن قولك: وأنا، فكفأ على الخَط قدحًا، ثم أرسل لِمن يقرأ؛ فأتاه، فلما قرأ عليه الكتابة التفت على ابن عمه فقال: ارجع أدراجك فما وراءك أوسع، مَا نفاكَ أمير المؤمنين وفيك خيرٌ، فأفرش له فراشًا فى بيته، وجعل يجرى عليه النفقة، فلم ينشب أن دنف وَجْدًا بِهَا، فمر به ابن عمه فإذا هو كفرخ الطير قد أشرفَ على المنية؛ فرق له، وأتى زوجته سمية وقال: أنشدك بالله إلا ما ذهبت إليه وضممته إلى صدرك لعله يثوب ثائبٌ مِن صحته؛ فأتته ووجدته لا ينقلب إلا أن يقلب، فأخذته وضمته إلى صدرها، وأشمته قلادتها، فقام، وكأنما نشط مِن عقال، فبقى كذلك يومًا أو يومين، ثم عاوده الكمد؛ فمات.

وأكثر ما يكون الموت مِن العشق فى بنى عُذْرة مِن قضاعة، وفى بنى جذيمة مِن كنانة.

وحدثنا ابن أبى حَدْرَد الأسلمى قال: كنت فى خيل خالد بن الوليد حين وجهنا رسول الله ﷺ إلى دعاء كنانة إلى الإسلام وقتالها، فظفرنا، فلما جمعنا السبى قال لى فتى مِن بنى جذيمة، وقد جمعت يداه إلى عنقه برمة[1]، ونسوة مجتمعات غير بعيدات منه: يا فتى، قلت: ما تشاء؟ قال: هل أنتَ آخذٌ بهذه الرمة فقائدى إلى هذه النسوة حتى أفضى إليهن حاجة ثم تردنى بعد فتصنع بى ما بدا لكم؟ قلت: والله ليسير ما طلبت، فأخذت بالرمة فقدته بها حتى وقفته عليهن، فقال: اسلمى يا حبيش على نفاد العيش:

رَأَيْتُكَ إن طلبْتُكُمْ وَجدتكم ... بحلبة وألفيتكم بالخوانق[2]

ألم يكن أهلاً أن تَأَوَّه عَاشقٌ ... تكلف إدلاجَ السرى والودَائِق

فلا ذنب لى قد قلت إنْ ذهلنا معًا ... أثيبى بود قبل إحدى الصفائق[3]

أثيبى بود قبل أن يَشْحَطَ النوى ... وَيَنْأَى الأمير بالحبيب المفارقِ

(١) الرمة: القطعة من الحبل.

(٢) هذا البيت مختل وزنه.

(٣) البيت فى النسختين غير واضح.

فقالت: حييت سبعًا وعشراً أثرًا أو ثمانيًا تترى، قال: ثم انصرفت به، فضربت عنقه، فحدث مَن حضرها أنها قامت عليه حين ضُربت عنقه، فما زالت تقبله حتى ماتت عنده.

وأخرج النسائي هذه القصة في مصنفه في باب «قتل الأسارى» من حديث ابن عباسٍ أنَّ النبي ﷺ بعث سرية، فغنموا، فإذا في السبي رجلٌ، فقال: إني لست من القوم، عشقت امرأة فلحقتها، فدعوني أنظر إليها نظرة ثم اصنعوا بي ما بدا لكم، قال: فإذا امرأة طَويلة أدماءُ، قال لها: اسلمي حبيش قبل نفاد العيش، قالت: بلى، فديتك. فقدموه، فضربوا عنقه، فوقفت عليه، فشهقت شهقة أو شهقتين، ثم ماتت. فلما قدمُوا على رسول الله ﷺ أخبروه الخبر، فقال رسول الله ﷺ: «أما كان فيكم رجل رحيم»؟!

ثم بعث إليهم علياً رضي الله عنه بمال، فودى لهم الدماء وما أصيب من الأموال حتى أنه ليودي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دَمٍ ولاَ مال إلا وداه وبقيت معه بقية من المال، وقال لهم حين فرغ منه: هل بقي دم أو مال لم يود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيكم هذه البلالة، أي البقية، احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل.

ثم رجل إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: أصبت وأحسنت. ثم قام رسول الله ﷺ، فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يده حتى إنه ليرى ما تحت منكبيه فقال: «اللهم إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد بن الوليد ـ ثلاث مرات ـ»(1).

وقد قال بعض من يعذر خالدًا: إنه قال: ما قتلت حتى أمرني بذلك عبد الله ابن حذافة السهمي.

قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام».

* * *

(١) حديث: «اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد ثلاث مرات» صحيح رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب (المغازي)، وسببه ذلك أن رسول الله ﷺ أرسل خالد بن الوليد إلى بني جذيقة فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل يقتل منهم ويأسر، فذكر ذلك للنبي ﷺ؛ فقال: الحديث، والله أعلم.

● ثم قال رحمه الله تعالى:

١٤٣ ـ وَوَالِ الْهُدَى تُرْزَقْ هِدَاءَ كَوَاعِبٍ
وُلَّى نِسْـــوَةٍ يُصْفَى لَهُنَّ وِلاَءُ

قوله: ووال: فعل أمر من والى الأمر: إذا باشره بنفسه. الهدى: مفعوله، وهو عكس الضلال، والهدى هو الحق، ويعبر به أيضًا، ويعبر به أيضًا عن الاستقامة.

قال الله تعالى: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

وقال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ﴾ [يونس: ٣٢].

وقال: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢].

وقال: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال ﷺ: «من كان هواه تبعًا لما جئت به أو تابعًا لدينه فهو مهتد، ومن كان دينه تابعًا لهواه فهو ضال». وفي رواية: «ناج» بدل «مهتد»، و«هالك» بدل «ضال».

والهداء بالكسر والمد: مصدر هديت العروس إلى زوجها أي: زففتها. ووُلَى، بالضم والقصر: جمع وُلَى، بالضم والقصر: أنثى الأولى، يقال: هو أولى بهذا، وهم الأوْلَى والأوْلَوْنَ. وفي المؤنث: الوُلْيا والوُلْيَيان والوُلَى والوُلْيَيات كما في القاموس. وولاء، بالكسر والمد: مصدر واليته، كالموالاة، أي: اتخذته وليًا أي: صديقًا هنا. والإصفاء: الإخلاص. والكواعب: الجوارى اللاتى نهدْن، الواحدة: كاعب، ويقال: كعب ثدى الجارية، بالفتح، يكعب ويكعِب، بالكسر والضم، كعوبًا، وكعب ثديها أيضًا تكعيبًا، فهي كاعب، ومكعب كمحدث، وكَعاب كسَحاب. وقوله: «وُلَى نسوة»: مخفوض على أنه نعت كواعب، وجملة «يصفى لهن ولاء»: صفة للنسوة، وهي في محل خفض.

والمعنى: تابع الهدى يرزقك الله نكاح نساء كواعب أبكار، فتزف إلى منزلك تلك الكواعب أحق نسوة موصوفة بإخلاص الصداقة والحب لهن بذلك؛ لكونهن عُرُبًا أترابًا لا يبغين ببعولتهن بدلا، ولا يلتفتن إلى غيرهم؛ فإن موالاة الهدى

أساسها لزوم التقى. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فالمغنجة والتربة والعروبة ألفاظ مترادفة بمعنى واحد، وهى عبارة عن الحسناء الكاملة الخلق. فأهل تهامة يسمونها الغنجة، وأهل الحجاز يسمونها التربة، وأهل العراق يسمونها العروبة. وحقيقتها البيضاء البضة الهيفا الشكلة اللعساء الغانية وإنما عنى المؤلف هذا وكنى به عن حور الخلد والإنْسيات الأنيسات.

قال الرسول ﷺ: «لو أن حوراء أبدت معصمها لأضاء له ما بين الخافقين ولغطى نور معصمها نورَ الشمس والقمر، ولبنات آدم فى الجنة أشرف منهن وأتم حسنًا وجمالاً»، لأن الصورة البشرية أتم الصور وأشرفُها، ولذلك خلق الله الحور على شكل بنات آدم؛ إذ لو كان فى الوجود صورة أتم من الصورة البشرية لجعل عليها الحور العين.

ثم قال رحمه الله تعالى:

* * *

باب ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد

وهذا شروع من الناظم رحمه الله فى الكلام على ما اتفق فى المعنى من المقصور والممدود كما فى قوله رحمه الله تعالى:

١٤٤ ـ سَيَفْنَى الْغَمَى وَالْجَدْرُ بعدَ غمائه
ويَبْقَى الْفَـدَى لَوْ يُسْتَطَاعُ فِدَاءُ

قوله: «سيفنى الغمى» يعنى: أن البنيان سيفنى ولو بعد حين، فيسقط سقفه وحجراته، وتتهدم وتفنى جدرانه. فالغَمَى، بفتح الغين المعجمة والقصر: كالغِماء بالكسر والمد. ويبقى: أى يدوم. الفَدى، بالفتح والقصر: كالفِداء، بالكسر والمد: وهو ما يُفْتدى به فيهما معًا، وحقيقته ما يفْتدى به من عذاب الله من الأعمال الصالحات لو كان ما يفتدى به من ذلك مستطاع للشخص أى: تتعلق به قدرته الحادثة؛ فلو هنا متضمنة معنى التمنى؛ إذ حقيقة التمنى أن تعلق الرجاء بمستبعد عادة أو طبعًا؛ فأفادت بذلك أن استطاعة الفداء، أى: كونه فى الطوق، متمنى، ومن حق المتمنى أن يكون مستبعد الحصول، ولا شك أن استطاعة الأعمال الخالصة مما يستبعد حصوله لعدم الثقة بالقبول: إما من جهة العامل، وإما من جهة الآفات المبطلة لها كالرياء والسمعة والعجب وما فى معنى ذلك؛ لكون النفس لها فيه حظ، أو من جهة العامل لما يتعرض له دونها من الكسل والموانع والمبطلات الشرعية.

قال ابن عطاء الله: المعصية فى المخالفات ظاهرة جلية، وفى الطاعات كامنة خفية، فإذا كان ذلك كذلك فالاعتماد على غير فضل الله مجرد عناء من غير غناء. قال الله تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ**﴾ [يونس:٥٨] من مال أو عمل.

يروى أن عابدًا عَبَدَ اللهَ سبعين سنة فقال فى بعض مناجاته: يارب، ألستُ قد استوجبتُ عليك الجنة لطول خدمتى وانقطاعى إليك؟ فقال له: برحمتى، فقال: رب بل بعملى؛ فرماه الله بصداع شغله عن كل شىء، فقال له الله: إن عافيتك

من صداعك تترك لي ثواب أعمالك سبعين سنة؟ قال: نعم؛ فنودي: إذا كانت أعمال سبعين سنة تعطى في صداع فما ظنك بغير ذلك من البلايا العظام؟ اذْهَبْ فقد رددت عليك عملك ومنحتك الجنة برحمتي. وكان علي رحمه الله تعالى يقول: ليس العجب لمن هلك كيف هلك، إنما العجب لمن نجا كيف نجا!

والبيت مقتبس من قوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ [الكهف:٤٦]، وفيه تلميح إلى قوله ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه أو موبقها»(١). أعتقنا الله بواسع فضله، آمين.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

١٤٥ ـ وَيُنْبَذُ سَهْمٌ ذُو غَرًى بِغِرَائِهِ ... وَيَذْهَبُ وُرَّادُ الأَضا وَإِضاءُ

قوله: ويُنْبَذُ: أي يطرح، والغَرى، بالفتح والقصر، والغراء، بالكسر والمد: الذي يلصق به الريش على السهم. والأضا، بالفتح والقصر، كالإضاء، بالمد والكسر: جمع إضاءة، وهي الغدير. فقوله: ينبذ معطوف على قوله: سيفنى أي: سيفنى ما ذكر من البنيان ويؤول أمره إلى الخراب، وسيطرح سهم عليه ريش ملصق بغرى مع غرائه أيضًا، أي يفنى الذين يردون الغدر من أهل البادية أهل العمود والمسافرين.

فالبيت في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] فلا يبقى أهل بنيان، ولا أهل عمود، ولا تعول على شيء من ذلك؛ فإن النعيم يذهب كما يذهب المتنعم به؛ فتنبذُ الإضاء ووِرادها، وتموتُ المرضى وعوادها، وتضمحل الجيوش وقوادها، وتبدل الأرض غير الأرض، وتنسف أطوادها، وتيبس أنهارها، وينعدم اطرادها، وتجف البساتين ويحول سوادها؛ فالأحوال تحول، والمماليك تزول، ويخلف العز الخمول، ويحل محل النضارة الذبول، ويعقب الفطنة الخرف والذهول، ويزيل البياض القحول(٢)، ويطرد نعومةَ البدن النحولُ، ويبقى العز

---

(١) حديث: «كل الناس يغدو»... إلخ. حديث صحيح، وقد تقدم.

(٢) القحول: يبوسة الجلد من الكبر.

والبقاء للملك الذى لا يزول، فله الجمال والبهاء، والمرجع والمنتهى، وبيده مقاليد المخوف والمشتهى، فعليه فليعتمد المعتمدون، وإلى جنابه فليصمد الملتجئون، وكل ما سواه باطل.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

١٤٦ ـ ومَأْوَى السَّحَى فُقْدَ السَّحاء خَرابُه

وَكَمْ ذِى دَلاً لَمْ تُغْنِ عنه دِلاَءُ

قوله: «ومأوى السَّحى»: يعنى أن مسكن السَّحَى الذى هو الخفاش الحصون المشيدة فى الخراب وانعدام ساكنها وهوانهما على الله تعالى سواء. وإنما مثل بالسَّحى دون سائر الطير لأنه أوهنها عشًّا، وأخفها منعة، وأقلها مؤونة، وهو أتم الطير خلقًا مع صغر حجمه وقبح منظره، فله أسنان دون سائر الطير، وله ثدى كثدى المرأة، وأجنحتها تباين أجنحة سائر الطير إذ لا ريش لها، وفى خلقتها كأنها علم، ومع ذلك تقدر على الطيران، وتلازم الكهوف والبيوت الخربة والآبار المعطلة غالبًا، ومع ذلك تخالف الطير؛ فإن سائر الطير يطير بالنهار ويسكن بالليل، وهى تَطير بالليل وتسكن بالنهار، وهو الذى كان عيسى ابن مريم عليه السلام يخلق على هيئته، فينفخ فيه، فيصير طيرًا بإذن الله، فيطير حتى إذا توارى عن أعين الناس سقط ومات.

ويروى أنه قال: يا رب، لم أَعَشْتَ ما خلقتَ ولم تعش ما خلقتُ؟ قال: يا عيسى، خلقت وجعلته مقرونًا برزقه وأجله، وخلقت خلقك فلم أجعل له رزقًا ولا أجلاً؛ فكيف يعيش خلق بلا رزق ولا أجل؟! أتُريد يا عيسى أن تكون شريكا لى فى ملكى تخلق كما أخلق وترزق كما أرزق؟! ذلك مما لا يكون، إنما أظهر على يدىْ من أكرمته من خلقى خارقًا فأظهره على يديه؛ لأظهر كرامتى عليه، وأؤيده بآثار قُدرتى، فأنا الخالق فى الحالتين؛ فسجد لله شكرًا، وسأل منه غفرانًا وسترًا.

والسحاء بالكسر والمد: الخفاش أيضًا.

والدلى، بالفتح والقصر: كالدلاء، بالكسر والمد: وهو فى الحالتين جمع دلو وإن شئت قلت: الدَّلى بالفتح والقصر: جمع دلوة، وهى الأعناب إذا نضجت، فتقول: عندى دلا ودوالى ودلاء بالمد ودوالى، كما فى الصحاح: العنبة.

فكأنه يقول: إن عش الخفاش يخرب، وخرابه بفقد الطائر الذى كان يعمره، وكثير من صاحب دلو كان يستسقى به الماء من الآبار لم تغن عنه شيئًا فى نفى الفناء؛ ففنى وبقى دلوه وراءه زمانًا، ثم فنيت، وفى ذلك يقول المتنبى: (من بحر الكامل)

تتخلف الآثارُ عن أصحابها حينًا ويدركهـا الفنـاء فتتبعُ

* * *

• ثم قال رحمه الله:

١٤٧ ـ وذَاتَ الجَرَى لا تَفْتَتِنْ بِجِرائِها حِذَارَ الصَّلَى لا يُستطاعُ صِلاءُ

قوله: وذات الجرى: أى صاحبة الجرى، بالفتح والقصر: كالجراء، بالمد والكسر: سمة الجارية، يقال: جارية بينة الجِراء، فيقصر مع الفتح ويكسر مع المد فى معنى الجارية. . والصلى، بالفتح والقصر: كالصلاء، بالكسر والمد: وقود النار، أو عود معوج يعرض عليها، ليَلين حتى يقومه الثقاف، والمراد هنا نفس النار. والافتتان: إصابةُ الفتنة، وهى هنا الإعجاب بالشىء.

يروى أن النبى ﷺ أتى بخميصة، وهى الكساء الجيدة ذات الأعلام، فلما انفتل من صلاته ألقاها وقال: «ائتونى[1] بأنْبجانية[2] فإن هذه فتنتنى فى صلاتى بحسنها؛ فجىء بأنْبجانية، فلبسها»، فقال: «البذاذة[3] من الإيمان»[4].

(١) حديث «أن النبى ﷺ أتى بخميصة»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان، وهو عند مسلم بلفظ: «قام رسول الله ﷺ يصلى فى خميصة ذات أعلام، فنظر إلى علمها، فلما قضى صلاته قال: اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبى جهم، وائتونى بأنبجانية فإنها ألهتنى آنفًا عن صلاتى»، وهو عند البخارى فى كتاب الصلاة وكتاب المساجد وكتاب اللباس، والله أعلم.

(٢) الأنبجانية: كساء بلا أعلام.

(٣) البذاذة: رداءة الهيئة.

(٤) حديث «البذاذة من الإيمان» صحيح رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وأبو داود، وأورده السيوطى=

ولا منافاة بنى هذا وقوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال؛ فتجملوا»[١].

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]؛ فإن استعمال البذاذة من باب التواضع لله، والخضوع تحت جلاله، والتحقير لأمر الدنيا، والاستغناء عن زينتها بالباقيات الصالحات، لأن النبى ﷺ أدرك الناس فى جاهلية جهلاء؛ لا يرجون ثوابًا ولا يخافون عقابًا، بل هممهم مقصورة على التنافس بالدنيا وزينتها؛ فخالفهم بلبس الأنبجانيات والمرقعات تحقيرًا لما هم عليه، وربما لبس الثياب الفاخرة لأمور منها: لقاء الوفود، والتأهب للحروب، والجمع.

والحاصل أنها ليس من همه، ولا مما تتعلق به همته، لكنه كيفما وجده لبسه، فلا يرغب عن الخشن لبذاذته، ولا يرغب فى النفيس لنفاسته، إلا ما بلغ حد السرف فيتركه ولا يدانيه كالحرير البحت والخز والجوخ، وكان لا يحب الأحمر القانى.

فلما ذهب الصدر الأول واتخذ الناس التقشف زيًا حبًا للدنيا وانكبابًا عليها انعكس الأمر فصار المطلوب من الشرع تحسين الهيئات.

ويجب تجمل القلب بالاعتقادات الكاملة، والظن الجميل، والحب الخالص. وتجمل الروح باليقين الثابت، والمعرفة التامة. وتجمل اللسان وتحسينه بالذكر والفصاحة، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتحسين البدن بالختان، والإخفاض، وحلق الشارب، وتوفير اللحية، وتقليم الأظافر، وتحسين الوفرة[٢] إن كانت بالدهن والخلوق والغسل والفرق[٣] وإلا فالحلق.

قال أبو الحسن: الشعر على الرأس زينة، وتركه سنة، وحلقه بدعة.

= تحت رقم ٣١٩٦، وقال المناوى: قال العراقى فى أماليه: حديث حسن، وقال الديلمى: هو صحيح، وقال ابن حجر فى الفتح: حديث صحيح، والله أعلم.

(١) حديث «إن الله جميل يحب الجمال»... إلخ. جزء من حديث صحيح رواه مسلم (١/ ٦٥) والترمذى والحاكم، وأوله عند مسلم: «لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر؛ قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال...» بدون «فتجملوا»، والله أعلم.

(٢) الوفرة: ماسال من الشعر على الأذنين.

(٣) الفرق: الطريق فى شعر الرأس.

ويروى أنه ﷺ ما حلق إلا ثلاث مرات.

وقيل: إنه ما حلق إلا فى حج أو عمرة، فلما اتخذ ذلك أهل الأهواء زيًا صار تركه أولى؛ لأن الشرائع تنتقل بانتقال الأحوال وتتغير بتغيرها:

فإن نكاح الأخت كان حلالا فى عهد آدم حيث دعت الحاجة إليه، فلما استغنى عنه حرم.

ثم كان للرجل أن يتزوج ما شاء من النساء، فلما هرمت الدنيا وضعفت حرم على الرجل ما زاد على الأربع، ووسع عليهم فى التسرى؛ لخفة مؤونته، ولكون ذلك أدعى إلى تمام العفاف. وأبيح نكاح المتعة صدر الإسلام لما دعت الحاجة إليه، فلما استغنى عنه حرم.

وكان الواجب على النبى ﷺ وأصحابه الصبر على أذى المشركين والإعراض عنهم حيث لا يد لهم بدفعهم، فلما طال البلاء عليه وأدركتهم غيرة الحق بوأ لهم محلا يجتمعون فيه، فلما اجتمعوا نسخ وجوب الكف والإعراض، وأوجب الجهاد والغلظة على الكفار والمنافقين.

ولما أتم نعمته على الأحرار بالحرية جعل حد الحر العزب مائة جلدة، وحد العبد على النصف من ذلك لنقص نعمته بالاسترقاق.

وإذا قطعت يد المسلم كانت ديتها خمسين ناقة حيث ظلمت، فإذا سرقت قطعت فى ربع دينار.

قال الشاعر: (من بحر البسيط)

يدٌ بخمسمئين عسجدًا وُدِيَتْ ... ما بالها قُطِعَتْ فى رُبع دينار

فأجابه آخر بقوله:

هناك إذ ظلمت فاعتز جانبها ... هنا لما ظلمت هانت على البارى

والكذب حرام إجماعًا، فإذا تعينت فيه المصلحة الدينية وجب، وقد قسمه الفقهاء على أقسام الشرع الخمسة، فنظم ذلك بعض الأدباء فقال: (من بحر الرجز)

للخمسة الأقسام قسم الكذب فمنه منْدوب ومنه مـــا يجب
واجبــه لفــك مــال مسلم أو مــال نفسه حقيق فى الدم
مندوبـه للحـرب والإرهــاب لكـافر يخــدع بالكـــذاب
مباحـه يا صــاح للإصلاح بين الورى مـا فيه من جناح
مكروهــه لزوجـــة تطييبًا لنفسهـــا ولابنـــه تحبيبـا
حرامــه هو الذى لغير ما منفعة شرعيــة قَدْ علما
وقـــال قوم كلـه قبيــح وهُوَّ فى مذهبنــا الصحيح

وكذلك الميتة حرام إجماعًا، وقد يباح أكلها للمضطر، ويتعين عند تحقق الهلكة أكلها.

والفرار من الزحف حرام إجماعًا، وقد يباح للتحرف والتحيز.

والحرير حرام لبسه فى مذهبنا، وقد أباحه النبى ﷺ للزبير بحكة به.

وأخذ الرشوة على الحكم حرام إجماعًا، وقد أباحها بعض الفقراء حيث لا إمام ولا بيت مال حيث أرض سيبة وخيف دوام الفتنة بتعطيل الأحكام الشرعية؛ فيجب عليهم نصب قاض، ويجعل له على من يختصم إليه قدرًا معلومًا يسد به خلته؛ إذ قد شغلوه عن التكسب، فإن لم يقم ذلك بمؤونته المتقصدة التى هى دون الإسراف وفوق الإقتار وجب عليهم أن يعطوه من زكواتهم ما يسد به تلك الخلة وإن أحاطت بزكاة أموالهم؛ لأنه قام بمنفعة عامة وهو أحق بأخذها حينئذ، ولو لم يكن من الأصناف الثمانية التى ذكر الله فى كتابه، بل يدخل فى جملتها؛ لأن الله يقول: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠] وقد أحرز به الله رقابًا كثيرة لتسكينه بأحكامه الفتنةَ التى تؤدى إلى الهرْج[1] وسفك الدماء؛ فهو من باب أخف الضررين؛ فصار أخذه ما صورته صورة الرشى أولى من تركه الأمة سدى يعدو بعضها على بعض، من غير قاض يفصل بينها؛ فيؤدى ذلك إلى الهرْج، وتعطيل الأحكام الشرعية، وترك ما جاء به الرسل ومضى عليه السلف والخلف، فلو قيل بوجوب ذلك لكان وجهًا[2].

---

(١) الهرج، بسكون الراء: القتل.

(٢) إن الشريعة الإسلامية حرمت الرشا ولا وجه لإباحتها تحت أى ظرف، والله أعلم.

وكذلك يجب تغيير المنكر، فإذا أدى تغييره إلى منكر أعظم منه وجب تركه والإعراض عنه، وفى مثل ذلك قال الصادق المصدوق: «إذا رأيت شحا مطاعًا. وهوى متبعًا، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخويصة نفسك، ودع أمر العامة»[1].

ويروى أن الحسن البصرى رضى الله عنه لما وقعت تلك الحروب التى وقعت بين الصحابة رضى الله عنهم وامتدت إلى زمن التابعين قيل له: هلا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر وأنت المشار إليه بالأصابع؟ قال: أرأيتم البحر إذا انفتق أيردُّه شىء؟ قالوا: لا، قال: كذلك الأمة اليوم: كانت على الحق فأقبلت على الباطل، فمن أراد كفها عنه فقد ضرب فى حديد بارد، ولقد رأيت رجالاً حاولوا ذلك وتصدوا له فما زادوا على أن افتتنوا وأهلكوا أنفسهم فى غير طائل، وإنما يمكن الأمر بالمعروف اليوم والنهى عن المنكر لإمام صالح قاهر، قد وضع الناس بيده أزمة القيادة، وأذعنوا له بالطواعية، وذلك اليوم كالكبريت الأحمر.

وقد اتفق علماء الأمة على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والاشتغال بأمر العامة قد سقط وجوبه من القرن التاسع؛ لأن الأمة قد انتحلت لنفسها مذاهب وعوائد اتخذتها دينًا قويمًا وسبيلا مستقيمًا، فمن دعاهم إلى الحق اتخذوه هزءًا؛ لما قد تَوغلوا فيه من الضلال وما تعودوه من ارتكاب المحال[2]. وبذلك أخبر الصادق المصدوق إذ يقول: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء»[3].

وإنما يجب على المؤمن فى عصرنا هذا أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فى حيه خاصة، فإن عجز عن ذلك ففصيلته، فإن عجز عن ذلك فعشيرته، فإن عجز عن ذلك فرهطه، فإن عجز عن ذلك فأهل بيته، فإن عجز عن ذلك فزوجته وبنيه وأعبده وإخوته، وإن أعجزوه فعليه الفرار حينئذ، ولا يحل له أن يقيم فى الفتنة

---

(١) حديث: «إذا رأيت شحًا مطاعًا» تقدم.

(٢) يظل الأمر بالمعروف قائمًا ما دامت الأمة الإسلامية، وهو على الدرجات التى حدد النبى ﷺ: باليد واللسان، وحتى بالقلب، والله أعلم.

(٣) حديث: «بدأ الإسلام غريبًا»... إلخ. صحيح رواه مسلم (١/ ٩٠) والبيهقى فى الشعب.

وما لا يطيق دفعهُ؛ فلا يكون واجبًا عليه إلا صلاح نفسه وتقويم أوده.

وفى هذا المجال أصول اقتصرنا على هذا القدر منها للإمتاع به ومس الحاجة إليه، جمح بنا إليه عنان القلم ولو لم نكن بصدده، لكن جلب بعضهُ بعضًا كنيل الذهب؛ لأنها يلذ تتبعها ولو لم يقْصد إليها رغبة فى التغنى بها.

ثم اعلم أن من تَمام جمال البدن نتف الإبط، وحلق العانة. ومما ينبغى جمال ظاهره بالثياب الحسنة والوضوء والغسل، وتحسين رائحته بالتطيب والاستياك وزوال عين الخبث وحكمه، وجمال أحواله بالأخلاق الحسنة.

قال رسول الله ﷺ: «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن»[1].

وتَجميل شمائله بالآداب المستحسنة، وتحسين طبائعه بالكرم والجود والشجاعة، فإذا اجتمعت فى الإنسان هذه الخصال فقد أسبغ الله عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وقد أدرك السعادة دنيا وآخرة، وقد تحلى بالجمالين: جمال الظاهر والباطن، وقد فاز بالحبين: حب الله وحب رسوله ﷺ؛ لأن المتجلى بالمحبوب محبوب؛ لأن الله جميل ويحب الجمال، كامل يحب الكمال، نظيف يحب النظافة.

ولذلك كانت القادرية والشاذلية تجمل هيئاتها. يروى أن متقشفًا مَرَّ على الشاذلى رضى الله عنه وهو يصلى، فرأى صلاة كاملة، وسمة حسنة؛ فأنكر حسن ثيابه مع ذلك، فوقف عليه وقال: ما هذه الصلاة التامة والسمة الحسنة مع هذه الثياب التى لا ينبغى لبسها إلا لأهل الشهوات من أرباب الدنيا؟! فقال: يا هذا إن ثيابى هذه تحمد الله وتشكره، وثيابك هذه تقول بلسان حالها: أعطونى أعطونى. أين قولك هذا من قول رسول الله ﷺ: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»[2]؟!

وقوله ﷺ: «إن الله يبغض من عبده أن يكون حسابه حساب غَنى وحاله حال فقير».

(١) حدث: «أول ما يوضع فى الميزان الخلق الحسن» رواه الطبرانى وأبو الشيخ بهذا اللفظ، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٨٢٩، والله أعلم.

(٢) حديث: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته»... إلخ. حسن رواه البيهقى والترمذى وحسنه إلا أنه من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٧٥٢.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢]؟!

وقوله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»(١)؟!

فقال له: ألستَ بالشاذلى؟ فقال: يقال ذلك، فانكب عليه يقبل يديه، فقال له: إنك تكلمت بحق، ونطقت بحقيقة، فبمثلك فَلْيَقْتَدِ المقْتَدون، وعلى سبيلك فليسر المهتدون.

وتطلق الفتنة ويراد بها الضلال؛ قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، أى لضلاله.

فكأنه يقول: احذر الجارية ذات الفتاء، فلا تعجب لفتائها، أى لا تكن معجبًا به، ولا تضل به عن سبيل الله، وهذا الثانى أولى، ويؤيد ذلك قول الناظم: «حذار الصلى» أى: مخافة النار. ويجىء الإعجاب بدون الضلال؛ فلا يخاف منه حينئذ النار، بل ربما كان ذلك مؤديًا لدخول الجنة إذا عشق فعف؛ لأن قتيل الحب مع العفة معدود من جملة الشهداء، كما جاء ذلك فى غير حديث واحد(٢).

وهذه النار المحذر منها هى نار الآخرة التى تزيد عن نار الدنيا بتسعة وتسعين جزءًا؛ لأن النبى ﷺ سئل عما تقول النار فى أزيزها، فقال: «إنها تتعوذ بالله من نار جهنم» فقالوا: كيف تستعيذ النار من النار؟ قال: «إن حَرَّ نار جهنم يزيد على حر ناركم هذه بتسعة وتسعين جزءًا»، فقالوا: إنها لكافية، فقال ﷺ: «ثلاثة فى النار أشد من النار: النتن، والظلمة، وغضب الجبار».

قال الله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤] فالباب الأول جهنم، وهو باب الطبقة العليا، وسكانها العصاة من أمة محمد ﷺ.

---

(١) حديث: «إن الله جميل يحب الجمال» تقدم فى ص٦٢٦.

(٢) الحديث الذى أشار إليه الشيخ وهو: «من عشق وكتم وعف فمات فهو شهيد» موضوع رواه الخطيب والثعالبى وابن عساكر، وأورده الألبانى تحت رقم ٤٠٩ وقال: موضوع.

قلت: قد تكلم كثير من العلماء فى هذا الحديث: فمنهم من ضعفه فقط، ومنهم من قال: إنه موضوع، وحاول بعض المتأخرين تقويته بمجيئه من طرق أخر، إلا أن جميع الطرق لا تخلو منها واحدة من قدح شديد؛ لذا فإنى أميل إلى ترجيح قول من قال بوضعه، والله أعلم.

ولظى، وسكانها الوثنيون. والحطمة، وسكانها النصارى. والسعير، وسكانها اليهود. والزمهرير، وسكانها فرعون وقومه، وسقر، وسكانها قوم عاد، والهاوية، وسكانها المنافقون وقوم نوح، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، وفيها من أنواع الوبال والنكال ما لا يحيط به الوصف.

يروى أن النبي ﷺ ليلة أسرى به مَرَّ على النار فسمع أصواتًا منكرة؛ فقال: يا جبريل، ما هذه الأصوات المنكرة التي يقشعر منها الجلد؟ فقال: تلك النار تسأل ربها، قال: وما تسأله؟ قال: إنها تقول: اشتد حري، وبعد قَعري، وأكل بعضي بعضًا، وقد كثر ضريعي وغسليني وغسيقي وزقومي وحميمي وعقاربي وحيّاتي وقُيودي ونكالي؛ فآتني ما وعدتني.

فقال ﷺ: «أيما مسلم يقول كلما أصبح وأمس: اللهم أجرني من النار، سبع مرات، إلا قَالت النار: اللهم أجره مني، فكتب الله له جوازًا من النار. وأيما مسلم قال كلما أصبح وأمسى: اللهم ارزقني دار الفردوس، سبع مرات، إلا وقالت الجنة: اللهم ارزقْه إياي، وكتبه الله في ديوان أهل السعادة».

* * *

• ثم قال رحمه الله:

١٤٨ ـ وَكُنْ قَائِلاً خيرًا أوِ اصْمُتْ وَذَرْ حَجًا
فَمَـــا لاَقَ إلاَّ بِالْمجُوسِ حِجَـــاءُ

قوله: «وكن قائلا خيرًا أو اصمت»: أي: كن أيها المريد الطالب النجاة لنفسه قائلاً خيرًا: من تعليم علم، أو قراءة قرآن، أو ذكر، أو نصح لأخ في الله، أو أمر بمعروف، أو نهي عن منكر. وهو واحد من الأحاديث الأربعة لأزِمَّة الخير، قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[1].

(١) حديث: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» جزء من حديث متفق على صحته رواه الشيخان وابن ماجه.
وأوله عند البخاري: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه» وباقيه ما أورده الشيخ، وهو عنده في كتاب الآداب.

والثاني: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

الثالث: قوله ﷺ: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه»(٢).

الرابع: «لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه، ولا يَسُمْ على سومه»(٣).

فالحديث الأول مشتمل على ربع المعاملات النفسية، والثاني على ربع المناصفات والأخوة والمعاضدات، والثالث على ربع المسالمات والاحترازات والتورع وترك الشبهات والمناصحات، والحديث الرابع مشتمل على ربع المعاملات الشرعية كالأنكحة والبيوعات والأجرات والجعول والمغارسات والشفعة والتشفيع والأقضية والقضاء وحكم التركات والوصايا إلى غير ذلك.

قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: من أراد الكلام فعليه أن يفكر قبل كلامه، فإن ظهرت المصلحة فليتكلم، وإن شك فَلا، حتَّى تظهر المصلحة.

وفي الصحيحين عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي المسلمين أفضل؟ قال: «من سلم الناس من لسانه». وفي رواية: «المسلم من سلم الناس من لسانه ويده»(٤).

---

(١) حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» حديث حسن رواه الترمذي وابن ماجه، وأورده السيوطي تحت رقم ٨٢٤٣ ورمز له بالصحة، قال المناوي: حسنه النووي في الأذكار، بل وصححه ابن عبد البر، وقال الهيثمي: رجال أحمد والطبراني ثقات، وقال مرة: فيه محمد بن كثير بن مروان، وهو ضعيف. وقال آخرون: لا يصح إلا مرسلاً (١٣/٦) فيض، والله أعلم.

(٢) حديث: «لا يبلغ أحدكم حقيقة الإيمان حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» متفق عليه بلفظ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» وهو عند البخاري في كتاب الإيمان.

(٣) حديث: «لا يخطبن أحدكم على خطبة أخيه»... إلخ. متفق عليه رواه مسلم بهذا اللفظ (١٣٨/٤) كما رواه البخاري بلفظ: «نهى ﷺ أن يبيع بعضكم على بيع بعض، ولا يخطب الرجل على خطبة أخيه حتى يترك الخاطب قبله أو يأذن له الخاطب» (كتاب النكاح)، والله أعلم.

(٤) حديث: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» متفق على صحته، رواه الشيخان وأحمد والترمذي والنسائي والحاكم.

ولفظ البخاري: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»، كتاب الإيمان.

وفى كتاب الترمذى: عن عقبة بن عامر قال: قلنا: يارسول الله، فيم النجاة؟ قال: «أمسك عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك»، وهذا حديث حسن.

وفى كتاب الترمذى أيضًا وابن ماجه: عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1].

والأحاديث الصحيحة فى ذلك كثيرة، وفيما أشرت إليه كفاية لمن وفق.

وأما الآثار عن السلف وغيرهم فى هذا الباب فكثيرة لا حصر لها، لكنى أنتخب من ذلك روائع الحكم النفيسة.

منها: ما بلغنا أن قُس بن ساعدة وأكثم بن صيفى اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت فى ابن آدم من العيوب؟ قال: أكثر من أن تحصى، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها؛ قال: ما هى؟ قال: حفظ اللسان.

وقال الإمام الشافعى رضى الله عنه لصاحبه الربيع: يا ربيع، لا تتكلم فيما لا يعنيك؛ فإنك تَملك؛ الكلمة ما لم تتكلم بها، فإذا تكلمتَ بها ملكتك.

وقال بعضهم: مثل اللسان مثل السبع: إن لم توثقهُ أهلكك أو كاد.

وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر الكامل)

احفظ لسانك أيها الإنسانُ ... لا يلدغنَّكَ إنه ثعبانُ

كم فى المقابر من قتيل لسانهِ ... قد كان هاب لقاءه الشجعانُ

وقال الفارسى رضى الله عنه: (من بحر الوافر)

لعمرك إن فى ذنبى لشغلاً ... لنفسى عن ذنوب بنى أميهْ

على ربى حسابهمُ إليه ... تناهى علم ذلك لا إليَّهْ

وقال رضى الله عنه: إذا تَم العقل نقص الكلام.

وقال أعرابى: رب منطق صدع جمعًا، وسكوت شعب صدعا.

---

(١) حديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه» تقدم فى الصفحة السابقة.

وقال وهيب بن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء: تسعة منها فى الصمت، والعاشر فى العزلة عن الناس.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

لعمركَ إن الحلم زينٌ لأهله ... وما الحلم إلا عادة وتَحَلُّمُ

إذا لم يكن نطق الفتى عينَ حكمة ... وعلم فإن الصمت أولى وأسلَمُ

وقال ابن عيينة: من حرم النطق بالخير فليصمت، فإن حرمهما فالموت خير له من الحياة.

وقال ﷺ لأبى ذر: «عليك بالصمت إلا من خير؛ فإنه مطردة للشيطان، وعون على أمر دينك».

ومن كلام الحكماء: من نطق فى غير خير فقد لغا، ومن نظر فى غير اعتبار فقد سها، ومن سكت فى غير فكر فقد لها.

وقيل: لو قرأتَ صحيفتك لأغمدتَ صفيحتك، ولو رأيت ما فى ميزانك لختمت على لسانك.

ولما خرج يونس من بطن الحوت طال صمته؛ فقيل له: ألا تتكلم؟ فقال: الكلام هو الذى صيرنى فى بطن الحوت.

وقال حكيم: إذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم.

وكان يقال: من السكوت ما هو أبلغ من الكلام؛ لأن السفيه إذا سكت عنه كان فى اغتمام. وفى ذلك يقول الشاعر: (من بحر الوافر)

إذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من تَحاوره السكوتُ

وقيل لرجل: بم سادكم الأحنف فوالله ما كان بأكبركم سنًا ولا بأكثركم مالاً؟ فقال: بقُوة سلطانه على نفسه.

ويروى أنه اجتمع أربعة ملوك، فقال ملك الفرس: ما ندمتُ على ما لم أقل مرة واحدة، وندمت على ما قُلت مرارا. وقال قيصْر: أنا على رد ما لم أقل أقدر منى على رد ما قلت. وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها فإذا تكلمت

بها ملكتنى. وقال ملك الهند: العجب ممن يتكلم كلمة إن رفعت ضرت وإن لم ترفع لم تنفع.

وكان بهرام جالسا ليلة تحت شجرة، فسمع منها صوتًا، فرماه، فأصابه، فقال: ما أحسن حفظ اللسان، ما هو إلا طائر، ولو حفظ لسانه ما هلك.

وقال ﷺ: «بكثرة الصمت تكون الهيبة».

وقال عمرو بن العاص: الكلام كالدواء؛ فإن أقللت منه نفع، و إن أكثرت ثقل.

وقال لقمان: يا بنى إذا افتخر الناس بحسن كلامهم فافتخر أنت بحسن صمتك.

ويروى أن اللسان يقول كل صباح ومساء للجوارح: كيف أنتن؟ فيقلن: بخير إن تركتنا.

ومن غوائله: الغيبة، وهى من أقبح القبائح وأكثرها انتشارا فى الناس، حتى إنه لم يسلم منها إلا قليل، وهى ذكر الإنسان بما فيه مما يكرهه، سواء كان فى دينه أو فى بدنه أو نسبه أو خلقه أو ماله أو ولده أو والده أو زوجته أو خادمه أو ثوبه أو مشيته أو حركته أو بشاشته أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابتك أو رمزت أو أشرت إليه بعينك أو يدك أو رأسك أو نحو ذلك.

أما الغيبة البدنية فقولك: هو أعمى أو أعرج أو أعمش أو قصير أو طويل أو أسود ما لم يقصد بذلك تعريفًا فلا بأس به.

وأما الدينية فقولك: سارق، ظالم خائن متهاون بالصلاة متساهل بالنجاسات ليس بارًا بوالديه أو لا يضع الزكاة موضعها ما لم ترد بذلك التحذير والزجر عن مثل ذلك فيكون من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وأما الدنيوية فكقولك: فلان متهاون بالناس لا يرى لأحد عليه حقًا، وهو كثير الكلام، قليل الأدب، كثير الأكل والنوم، وما أشبه ذلك.

وأما النسبية فكقولك: فلان أبوه نجار أو إسكافى أو حداد أو حائك أو حجام أو دباغ أو جزار على وجه التنقيص.

وأما الخلقية فكقولك: فلان سيئ الخلق متكبر مراءٍ معجب عجول جبار ونحو ذلك.

وأما الهيئة فكقولك: فلان واسع الكم طويل الذيل وسخ الثياب ونحو ذلك

وفى صحيح مسلم: عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك فى غيبته بما يكره. قيل: وإن كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته»(١).

وفى سنن أبى داود: عن عائشة رضى الله عنها قالت: قلت للنبى ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا ـ وقال فى بعض الروايات: يعنى قصيرة ـ قال: «قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته»(٢) أى: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه.

وروى عن جابر عن النبى ﷺ أنه قال: «إياكم والغيبة؛ فإنها أشد من الزنى». ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليزنى، فيتوب؛ فيتوب الله عليه، وإن صاحب الغيبة لا يغفر الله له حتى يغفر له صاحبه»(٣).

وعن أنس رضى الله عنه: من اغتاب المسلمين بغير حق أو سعى إلى السلطان جيء به يوم القيامة مزرقة عيناه ينادى بالويل والثبور ويعرف أهله ولا يعرفوه.

وقال معاوية رضى الله عنه: أفضل الناس عند الله أسلمهم صدرًا وأقلهم غيبة.

وقال الأحنف بن قيس: فىَّ خصلتان: لا أغتاب جليسى إذا غاب عنى، ولا أدخل فى أمر قوم لم يدخلونى فيه.

---

(١) حديث «أتدرون ما الغيبة»... إلخ. حديث صحيح رواه مسلم، كما قال الشيخ.

(٢) حديث «حسبك من صفية كذا وكذا»... إلخ. أخرجه أبو داود (١٣/ ٢٢١) عون، كما أخرجه الترمذى.وقال: حسن صحيح، والله أعلم.
وفى أبى داود زيادة: «قالت: وحكيت له إنسانًا، فقال: ما أحب أنى حكيت إنسانًا وأن لى كذا وكذا».

(٣) حديث «إياكم والغيبة فإنها أشد من الزنى... إلخ» رواه ابن أبى الدنيا وابن حبان فى الضعفاء، وعنهم الغزالى فى الإحياء بهذا اللفظ، وسكت عليه العراقى (٣/ ١٣٨).

وقيل للربيع بن خيثم: ما لنا لا نراك تغتاب أحدًا؟ فقال: لست لنفسى راضيًا فأتفرغ لذم الناس، وأنشد: (من بحر الطيل)

لنفسى أبكى لستُ أبكى لغيرها　　　لنفسى من نفسى عن الناس شاغلُ

وقال كثير: (من بحر الكامل)

وسعى إلىَّ بعيب عَزَّةَ نسوةٌ　　　جعل الإلهُ خدودهن نِعَالاَ

قال محمد بن حرب: أول من اغتاب إبليس، اغتاب آدم عليه السلام.

ويروى أن الله أوحى إلى موسى عليه السلام أن المغتاب إذا تاب فهو أخر من يدخل الجنة، وإن أصر فهو أول من يدخل النار.

وفى الحكم: لا تأمن من كذب لك أن يكذب عليك، ولا من اغتاب عندك غيرك أن يغتابك عند غيرك.

وقيل للحسن البصرى رحمه الله: إن فلانًا اغتابك؛ فأهدى له طبقًا من الرطب؛ فأتاه الرجل فقال: اغتبتك فأهديت إلى؟! فقال الحسن: أهديت إلى حسناتك فأردت أن أكافئك.

وعن ابى المبارك رحمه الله: لو كنتُ مغتابًا أحدًا لاغتبتُ والدى لأنهما أحق بحسناتى.

وكان بعض المتفقهين يعرضون بالغيبة تعريضًا يفهم به كما يفهم بالتصريح، فيقال لأحدهم: كيف حال فلان؟ فيقول: الله يصلحنا، الله يغفر لنا، الله يصلحه، أسأل الله العافية، الحمد لله الذى لم يبتلنا بالدخول على الظلمة، نعوذ بالله من الشدة، ويعافينا الله من قلة الحياء، الله يتوب علينا، وما أشبه ذلك مما يفهم به تنقيصه إياه؛ وكل ذلك غيبة محرمة.

واعلم أنه كما يحرم على المغتاب ذكر الغيبة كذلك يحرم على السامع استماعها، فيجب على من سمع إنسانًا يبتدىء بغيبة أحد أن ينهاه إن لم يخف ضررًا فإ خافه وجب عليه الإنكار بقلبه، أو مفارقة ذلك المجلس إن تمكن من مفارقته، فإن قال بلسانه: اسكت، وقلبه يشتهى سماع ذلك فإنه قد جمع بين الغيبة والنفاق، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ

يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [الأنعام:٦٨].

وأنشدوا فى المعنى: (من بحر المتقارب)

وسمعك صُنْ عن سماع القبيح ... كصون اللسان عن النطق به

فإنك عند سماع القبيح ... شريك لقائله فانتبه

ولم أر أعجز من طالب ... فوافى المنية فى مطلبه[1]

ومن غوائل الكلام أيضًا النميمة، وهى من الكبائر وفى الصحيحين: عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «لا يدخل الجنة نمام».

وفى رواية: «لا يدخل الجنة قتات[2] ولا نمام ولا لحمٌ رَبا من حرام»[3].

وروى أن النبى ﷺ مرَّ على قبرين، فقال: «إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير: أما أحدهما فكان يمشى بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرىء من بوله»[4].

وفيه يقول الشاعر:

كم خرب النمام من قصر مشيد ... بشفتيه لا بفأس من حديد

فأبعد النمام من بعيد ... .

قال أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه: لا ينبغى أن يكون النمام إلا ولد بغى.

وروى أن النبى ﷺ قال: «ألا أخبركم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: أشراركم المشاءون بالنميمة، المفسدون بين الأحبة، الباغون العيوب»[5].

---

(١) فى النسخة (ب): وكم أزعج الحرص من طالب.

(٢) القتات: النقال للحديث على وجه الإفساد.

(٣) حديث «لا يدخل الجنة قتات»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى.

وهو عند البخارى بلفظ: «لا يدخل الجنة قتات» فى كتاب الأدب.

(٤) حديث «أن النبى ﷺ مر على قبرين فقال إنهما ليعذبان.. إلخ». حديث متفق على صحته رواه الشيخان (١٠/ ٣٩٤) بخارى، و (١٠٥) مسلم، كما أخرجه أبو داود والترمذى. وفى إحدى روايات مسلم: «لا يستنزه من بوله».

(٥) حديث «ألا أخبركم بشراركم»... إلخ. رواه أحمد، وعنه الغزالى (٣/ ١٥١)

ويروى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «ملعون ذو الوجهين، ملعون ذو اللسانين، ملعون كل شقّار، ملعون كل قتات، ملعون كل نمام، ملعون كل فتَّان».

والشقَّار: هو المحرش بين الناس حتى يوقع القتال بينهم أو يكاد، وهو من خطباء الفتنة. والقتات: من جعل شغله وعادته النميمة. والمنان: الذى يعمل الخير ويمن به.

وأما السعاية إلى السلطان أو إلى السلطان أو إلى كل ذى قوة فهى المهلكة والحارقة؛ إنها تجمع الخصال الذميمة من الغيبة والنميمة والتغرير بالنفوس والأموال بالنوازل والأهوال، وتسلب العزيز عزه، وتحط المكين عن مكانته، والسيد عن مرتبته، فكم دم أراقه سعى ساع، وكم حريم استبيح بنميمة باغ، وكم من صفيين تقاطعا، ومن متواصلين تباعدا، ومن متحابين افترقا، ومن لبيبين تهاجرا، وكم من زوجين تطالقا؛ فليتق الله ربه رجل ساعدته الأيام أو تساعدت عليه الأقدار أن يصيخ لساع أو يستمع لنمام.

ووجد فى حكم القدماء: أبغض الناس إلى الله المثلث. قال الأصمعى: هو الرجل الذى يسعى بأخيه إلى الإمام فيهلك نفسه وأخاه وإمامه.

وقال بعض الحكماء: احذروا أعداء العقول، ولصوص المودات، وهم السعاة والنمامون، إذا سرق اللصوص المال سرقوا هم المودات.

وفى المثل السائر: من أطاع الواشى ضيع الصديق. وقد تقطع الشجرة وتنبت ويقطع اللحم بالسيف فيندمل، واللسان لا يندمل جرحه.

ورفع إنسان إلى الصاحب بن عبادة براءة يحثه فيها على أخذ مال يتيم، وكان مالا كثيرًا، فكتب إليه على ظهرها: النميمة قبيحة وإن كانت صحيحة، والميت رحمه الله، واليتيم جبره الله، والساعى لعنه الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقوله: «وكن قائلا خيرًا»: كن: فعل أمر ناقص. قائلا: خبرها، واسمها مستتر وجوبًا مفعول اسم الفاعل. أو اصمت: عاطف ومعطوف. وذر: فعل أمر.

حجا: مفعول به، وهو بالفتح والقصر: كالحجاء، بالكسر والمد: زمزمة المجوس على الطعام، وهو صوت يخرجونه من خياشيمهم يتفاهمون به لحرمة الكلام

عليهم إذ ذاك بزعمهم.

ولذلك رغب الشارع فى الكلام على الطعام مخالفة لهم، ويحصل مقصود الشارع بالترغيب فى الكلام بدون المبالغة فيه والإكثار منه، لا كما يفعله الجهلة حيث استشعروا هذا الحكم من مجاوزة الحد فيه والتغالى؛ فيؤدى إلى ما لا يليق من ضجر الجليس وإدخال الفتنة عليه من غير فائدة، فربما حمل المؤاكل له على سرعة الجواب، والحال أن الطعام فى فيه، وربما حمله ذلك على سرعة جوابه بدون إنعامه المضغ، فأدى الى البشم وضرر المعدة وربما أورثت كثرته العطش، وسببه أن آلة الكلام والنفَس، وهى الرئة، من شأنها أن تروح على الباطن بإخراج النفس منه وإدخال الهواء إليه، وذلك الترويح موقد للحرارة الغريزية، فكلما كثر الكلام كثر النفس، فتشتد لذلك الإيقاد الحاجة إلى الماء فيشربه، وشرب الماء فى أثناء الأكل أو بعده بيسير مضر بالبدن عند أهل الطب مفسد لقوة الطعام مؤد إلى استرخاء الأمعاء وتكثير الرطوبات.

وقد خرج الناظم عن عادته فى هذا البيت؛ فاقتصر فيه على ذكر كلمتين، وهما الحجا والحجاء؛ لعدم وجود كلمتين يكمل بهما العدد الذى التزمه فى غيره من الأبيات.

وزمزمة المجوس وما فى معناها مما لا يفهمه جميع الناس كالعجمية فإن ذلك من التناجى المنهى عنه؛ لقوله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون الثالث»[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المجادلة: ١٠].

وإلى ذلك يشير الناظم فى قوله: «فما لاق إلا بالمجوس حجاء».

ولما انتهى كلامه على ما يفتح فيقصر ويكسر فيمد والمعنى واحد شرع فى الكلام على:

* * *

---

(١) حديث «لا يتناجى اثنان دون الثالث» متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس من أجل أن ذلك يحزنه»، البخارى فى كتاب الاستئذان، ومسلم فى كتاب السلام، والله أعلم.

باب ما يكسر فيقصر ويفتح فيمد والمعنى واحد

وهذا الباب على العكس من الذى قبله.

• ثم قال رحمه الله:

١٤٩ ـ سِوَى الْحَقِّ فَارفُضْ والضَّلالُ سَواءُهُ
وَدَعْ ذَا قِلًى يُنْمَى لَدَيْهِ قَــلاَءُ

سوى الشىء، بالكسر والقصر، وسَواءه، بالفتح والمد: غيره. والقلى، بالكسر والقصر، والقَلاء، بالفتح والمد: البغض. والرفض: الترك، رفضه يرفضُه ويرفِضه، بالكسر والضم فى المضارع. وينمى، بضم الياء وفتح الميم: مضارع نمى، مبنى لما لم يسم فاعله: أى يرفع وينقل ويذاع على وجه الفساد كإنماء الحديث. وقد أخرج الناظم «سوى» عن الحرفية فجعلها مفعولا به فى قوله: «سوى الحق فارفض»، وخبرًا فى قوله: «فالضلال سواءه» جريًا على مذهب الكوفيين. خلافًا للبصريين فإنها لا تخرج عندهم عن الحرفية إلا فى ضرورة الشعر. وقد صحح الناظم مذهب الكوفيين بكثرة ورودها متصرفة فى الأشعار من غير اضطرار: فمن ورودها فاعلاً قول الشاعر: (من بحر الوافر)

ولم يبق سوى العُدوا ن دِنّاهم كما دانوا

ومن شواهد صَرْفها عن الحرفية للمفعولية قول الشاعر: (من بحر الطويل)

تجانفُ عن جو اليمامة ناقتى فَما قَصدتْ من أهلها لسوائكا

فاللام زائدة وسوائك مفعول به.

ومن شواهد كونها مبتدأ قول الشاعر: (من بحر الطويل)

وإذا تُباعُ كريمةٌ أو تُشترى فسواك بائعها وأنت المشترى

فكأن الناظم يقول: اترك غير الحق، فالضلال غيره، والضلال يجب رفضه؛ فارفضه، واترك أيضًا شخصًا صاحب بغض لإخوانه المؤمنين، أى: اهجره فى الله،

ودعه، وابغضه في حال كونه يضاعف عنده البغض؛ أو يذاع ويفشى على وجه الفساد؛ مخافة أن يعديك بذلك؛ فتصير ذا بغض؛ فإن من المعلوم أن الطباع تسرق من الطباع، واتركه تنج من شره وما تكسبه خلطته من الإثم لتعذر السلامة من ذلك؛ إذ لا يؤمن على من خالطه من تقصير فيما يجب عليه من النهى له والذب عن أعراض المسلمين؛ لأن النبي ﷺ يقول: «التحبب إلى الناس نصف الإيمان». وفي رواية: «التودد إلى الناس نصف الإيمان، والاقتصاد نصف العيش»[1].

فإذا تساهل من يصاحبه بذلك صار شريكا له في بغضه؛ لأن النبي ﷺ وأصحابه لما ظهروا على بغض المنافقين للمسلمين هجروهم وأغلظوا عليهم وأهانوهم من غير قتل، وفي رسول الله ﷺ وأصحابه أسوة حسنة. على أن من يخالطه يلقى منه البرح الثقيل لبغضه، وما يقتضيه طبعه؛ فيثقل ذلك عليه إن كان من المؤمنين المسلمين، فإن المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه. فإذا كان ذلك كذلك فلا يجوز ذلك إلا على من في إيمانه دخل، والعياذ بالله، فكما لا يحتمل الإيمان حب الكافر لا يحتمل بغض المؤمن مجانًا من غير فسق ولا عدوان، بل ولو كان فاسقًا؛ فإنه في تلك الحالة يجب إظهار البغضاء والغلظة مع إقامة قسطاس الشريعة عليه، وتجب الرحمة والرأفة عليه لأنه أخوك مقهور، ولا تكن عونًا للشيطان عليه؛ فلا يجمع عليه الحد والشتم، بحيث لو وجدتَ مندوحة إلى ارعوائه بالتلطف والقول اللين لكان ذلك أولى وأليقُ بالحال.

قال الرسول ﷺ: «من نصح أخاه في العلانية فقد شانه، ومن نصحه في السر فقد زانه».

قال الله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤].

* * *

(١) حديث «التودد إلى الناس»... إلخ. سبق.

• **ثم قال رحمه الله:**

١٥٠ ـ وَلَيْسَ مَعِيبًا ذو الصِّبَا لِصَبَائِه إِذَا حُمَّ لِلْبَاغِي قِراهُ قَرَاءُ

قوله: «وليس معيبًا ذو الصبا»: ليس[1]: حرف نفى ونسخ. معيبًا: خبره. ذو الصبا: اسمه ومضاف إليه ما قبله. لصبائه: جار ومجرور متعلق بمعيب، وضمير المضاف إليه عائد على «ذو الصبا »إذا: ظرف لما يستقبل. حم: مبنى للمجهول، قراهُ: نائبه. للباغى: جار ومجرور، متعلق بحم. وقِراهُ قَراءُ: عاطف ومعطوف، والضمير عائد على الباغى. فالمعيب: اسم مفعول من عابه يعيبه: إذا نسب إليه عيبًا. والصبا، بالكسر والقصر: كالصباء، بالفتح والمد: أصغر الأسنان، بل يقال: أول أسنان الإنسان وليد، ثم صبى، ثم رضيع، ثم فطيم، ثم جفر، ثم غلام، ثم مراهق، ثم بالغ، ثم فتى، ثم شاب، ثم رجل إذا بلغ أشده، ثم كهل، ثم نصفٌ، ثم أشمط، ثم شيخ، ثم معمر، ثم هرم، ثم فان.

والقرى، بالكسر والقصر: كالقراء، بالفتح والمد: الضيافة. وحم الشىء، بالبناء للمفعول به: قدر، ويطلق ويراد به قرب.

قال الشنفرى: (من بحر الطويل)

لقد حمت الحاجاتُ والليل مقمر وشدت لِطيَّاتٍ مطايا وأرحل

ومنه حم الأمر وجاء النصر.

فكأنه يقول: إذا قُدمتْ الضيافة لطالبها لم يُعَبْ ذو صغر لصغره عيبًا يمنعه من استحقاقها، بل الصغير فى استحقاقها كالكبير، بل إنما يمنع من استحقاقها مخالفة المضيف وهو الله تعالى، فالقرى المراد به، هنا ما يكرم الله به عباده من الحبور والنضرة والسرور والشرب من الماء الطهور والتمتع بالحور والقصور، مع أنهم متفاوتون فى ذلك على حسب مسارعتهم لامتثال أوامره واجتناب نواهيه، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٠﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الواقعة: ١٠ ـ ١٢]، فلا يضرهم فى ذلك صغرهم، ولا يزيدهم به حظوة كبرهم، بل ذلك موكول إلى السابقة الحسنة والعمل الصالح الأسنى.

---

(١) ليس فعل جامد وليس حرفا كما قال المصنف رحمه الله.

وفى الصحيح أن النبى ﷺ قال: وقفتُ على رهط من الملائكة وأنا بين النائم واليقظان، فقال قائلهم: مثل الرجل، فقال بعضهم: مثاله رجل صنع مأدبة فيها من كل شىء ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، فلما أكملها بعث رجلاً من خواصه يدعو الناس إليها دعوة عامة، فدعاهم، فمن أجابه أكل منها، ومن لم يجبه بعث أعوانه فى طلبه فأخذوه، فعذبه بأنواع العذاب، فالملك هو الله، والمأدبة الجنة، والداعى محمد ﷺ، فمن أجابه دخل الجنة، ومن لم يجبه دخل النار، جعلنا الله ممن جعله فى حزبه وأتحفه بقربه بجاه النبى وصحبه.

* * *

• ثم قال:

١٥١ ـ وَمَا ذُو إنًا إلا أَنَائه بإثْرِ ... بِلًى وَلِكُلٍّ جِـدَّةٌ وَبَلاَءُ

قوله: «وما ذو إنا»: أى: وليس صاحب غاية يراد لها إلا كائن بلاه على إثر أنائه أى: بلوغه غايته، فبلاؤه يعقُب جدتَه، وضعفُه يعقب شدته، وفله[1] يعقب حدته. فهو بالكسر والقصر كالأناء، بالفتح والمد: عبارة عن بلوغ الحد والتناهى بعد الكد والجد.

قال ابن دريد: (من بحر الرجز)

وإن أمُتْ فقد تناهتْ لَذَّتى ... وكُلُّ شىءٍ بلغَ الْحدَّ انْتَهَى

والبلى، بالكسر والقصر: والبلاء، بالفتح والمد: ضد الجديد، بالكسر، وهو قرب العهد بزمان الشباب.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

أترجـو أن تكـون وأنتَ شيخٌ ... كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوبٌ ... جـديد كالقديم من الثياب

فكأنه يقول: إن الجديد إذا اكتنفه الجديدان أكسباه بعد جدته بلاء وبعد جودته فناء من غير تراخ؛ إذ لا مرتبة ثالثة تتوسط بين الجدة والجودة والبلى والبلاء.

قوله: ولكل جدة وبَلاء: أى لكل من الحوادث التى لها غاية وأناء وجدة وبلاء

(١) الفل: ذهاب العقل، أو المال، والمعنى: أن الإنسان بعد حدة عقله يذهب عقله مع الكبر.

ورخاء غاية تنتهى إليها؛ فاسكن عند اشتدادها، وارض بقضاء الله عند امتدادها، ولا تتعب نفسك بدفعها وعنادها، حتى تَنْقَضى مدتها، ففى الجزع عند تراكمها زيادة تعاظمها.

قال ﷺ: «إن الإيمان يَخْلَقُ فى الصدور فجددوه بالإكثار من قول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ».

وقال على كرم الله وجهه: إذا نزلت بكم الشدائد فنفسوا عنكم ألمها وخففوا عنكم أعباءها بانتظار الفرج من الله؛ فإنه ما من شدة إلا بإثرها فَرَج قريب.

وإن الحوادث تبلى وتجد كما يبلى الثوب ويجد؛ فما من رخاء إلا وبعده شدة، ولا من شدة إلا ويعقبها رخاء. فالكرام لا يجزعون عند نزول الشدائد كما لا يفرحون عند وجود الزوائد. قال الله تعالى: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٣].

ويروى أن تميمًا الدارى رضى الله عنه لما اختطفه العفريت الذى بلغ به منتهى المعمور أنشأ يقول: (من بحر الوافر)

إذا شاب الغراب أتيتُ أهلى وصار الغَار كاللبن الحليب

فأجابه هاتف: (من بحر الوافر أيضًا)

عسى الكرب الذى أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب
وتفرج كربة ويفك عانٍ ويبلغ أهله النَّائى الغريب

فبينما هو يطوف فى جزائر البحر المحيط إذ عن له رجل وهو قائم يصلى فى روضة خضراء، فقصده حتى أتاه، فسلم عليه، فتجوز فى صلاته، ثم انفتل إليه فقال له: أأنت تميم الدارى؟ قال: أجل بأبى أنت وأمى، من أين عرفتنى؟ قال له: عرفتك وأنت مع رسول الله ﷺ، فقال: وأنَّى لك بمعرفة رسول الله ﷺ وأنت فى منقطع المعمور؟ فقال له: إنى لصاحبه كما أنك صاحبه، أو ما تعرفنى؟ قال له: كيف أعرفك؟ قال: أنا الخضر[1].

---

(١) لم يثبت أن الخضر قدم على النبى ﷺ ولا صحبه ولا رآه، بل ولم يثبت أنه موجود على عهد النبى ﷺ وما بعده، والله أعلم.

فبينما هو عندى إذا بسحابة قد أقبلت من المشرق، فأشار إليها الخضر عليه السلام؛ فأقبلت تهوى حتى وقعت عليه والملائكة آخذون بأطرافها يسبحون الله ويهللونه ويقدسونه، فقال لهم الخضر عليه السلام: أى بلاد الله تؤمون؟ فقالوا: مدينة رسول الله ﷺ، قال: هلم فاحملوا صاحب رسول الله ﷺ إلى منزله بالمدينة، فركب السحابة، وأمره بإغماض عينيه، فغمض عينيه، فما ساروا إلا هنيهة فإذا هو بالمدينة وقد أمطرت، فوجد زوجته وقد تزوجت، إلا أنها لم يدخل بها، فتنازعا؛ فَأَمَرَتْهُمَا المرأة بالاعتزال، فاعتزلا فى بيت، فلما أصبحا أتيا عمر رضى الله عنه ليتحاكما إليه، فعرفه عمر والصحابه، فاستخبروه؛ فأخبرهم بما رأى من العجائب، وقد تغيرت هيئته لما رأى من الشدائد، فقال عمر: أشهد لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليرينْ تميم هذا من العجائب ما لم يره أحد من أمتى»[1]؛ ففسخ عمر نكاح الرجل، وأمره بالذهاب إلى منزله وزوجته.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

١٥٢ ـ وقَبْلَ إيًا بَادٍ أَيَاءٌ مُغَيَّبٌ ... وَبَيْنَا رِوًى يحْلُو أمَرَّ رَوَاءُ

الإيا، بالكسر والقصر، كالأَياء، بالفتح والمد: ضوء الشمس. والرِّوى، بالكسر والقصر، والرَّواء، بالفتح والمد: الماء الروِّى. وبينا، بالألف: لغة فى بين فيقال، بينا، بالألف، من غير ميم، وبينما بالميم. وحلا الشىء يحلو فى الفم، وحلى كرضى يحلَى فى العين، يقال: امرأة حلوة: إذا كانت العين تَرومها وتميل إلى حسنها وملاحتها.

قالت عائشة رضى الله عنها: كانت جويرية امرأة حلوة، ذات ملاحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، وقد كاتبت ثابت بن قيس بن شماس، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها، فوالله ما هو إلا أن رأيتُها فى باب حجرتى كرهتُها،

(١) قصة تميم هذه غير صحيحة بهذا السياق، وإنما صح عنه كما هو فى مسلم أنه هو وجماعة من قومه ركبوا البحر فى سفينة، فتكسرت بهم، ووجدوا الدابة والدجال، وأن تميمًا أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فأمر أن يجتمع الناس، وقص عليهم حديث تميم (٨/ ٢٠٧) م، أما كونه وجد الخضر فذلك لم يثبت والله أعلم.

وعرفت أنه سيرى منها ما رأيتُ، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويريةُ بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء ما لا يخفى عليك، فوقعت فى سهم ثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسى؛ فجئتك أستعينك على كتابتى قال: هل لك فى خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله ﷺ؟ قال: أقضى كتابك وأتزوجك. قالت: قد فعلت. فخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله ﷺ قد تزوج جويرية، . فأرسلوا ما بأيديهم من السبى. قالت: فلقد أعْتِق بتزوجه إياها مائةُ أهل بيت من بنى المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها.

وأمر الشىء، بالألف: صار مرًا، وهو الصحيح المرتضى، وقد يقال: مَرَّ، بدون ألف، وهو على غير قياس.

قال الشاعر: (من بحر الكامل)

ولئن أمر بكل آن ليلة　　　فلربما انجلى بليل مصبح

فكأن الناظم يقول: إن قَابَلَ ضوءُ الشمس الذى يظهر ضوءًا آخر متقدم عليه مغيب[1]، وكما انقضى ذلك المغيب ينقضى هذا الظاهر، إذ لولا انقضاء المغيب لم يكن للظاهر ظهور، ولكل شىء تدعو إليه ضرورة الحياة ويوجب العيش فإن جلاءه كالماء المروى ينتقل من حالة حلاوته إلى حالة مرارته؛ إما لكونه مرًا زعاقًا،أو ملحًا أجاجًا لطبعه، أو لما يعرض للإنسان من العوارض التى تقتضى مرارة العذب الزلال فى فيه كالحمى الصفراوية والسم الشديد.

قال الشاعر: (من بحر الوافر)

ومن يك ذا فم مرٍّ مريضٍ　　　يجـد مرًا به المـاءَ الزلالا

وقال جساس لأبيه لما قتل كليبًا سيد بنى وائل: (من بحر الوافر)

تأهب عنك أهبة ذى وشاح　　　فإن الأمر جل عن التلاحى

فإنى قد جنيت إليـك حربًا　　　تُغِصُّ الشيـخَ بالمـاءِ القراح[2]

---

(١) هذه العبارة فى النسختين غير واضحة، وفيها تفكك.

(٢) العجز فى (ب) هو: (يقضى الشىء بالماء القراح)، وهو الصواب.

واعلم أن المرارة تعقب الحلاوة من غير تراخ إذ لا واسطة بينهما، فبينما الشىء حلو إذ صار مرًا، وليس المراد بهذا خصوص الماء بالمرارة، وإنما المراد كل ما لا يوافق الطبع ولا يجلب النفع من حال أو مكان أو زمان.

قال الشاعر: (من بحر الطويل)

وكم من يدٍ قبلتها عن ضرورة وكـان هوائى قطعهـا لو يُمْكِنُ
ولكن على حلو الزمـان ومره أدافـع عنى بالتى هى أحسـنُ

وقال غيره:

إذا ما الدنيا احلولت أمرت وإنْ هى استلانت قست
وإن هى استقَامت تَولت

وهذا منه مبالغة فى تقلب الزمان ومحاينة[1] الأحيان وتغير الأعيان. والمقصود التزهيد فى الدنيا بالتنفير من متاعها لانتهاء غايتها إلى التنغيص، والمراد بعد النزهة والافتخار وبعد الحلاوة والبهاء يأتى العنقفير[2] الدهماء. وما زهد من زهد فى الدنيا إلا بوجدان مراراتها. وفى الحديث: «يا دنيا مرى على أوليائى ولا تحلوى لهم فتفتنيهم»[3].

* * *

(١) المحاينة: انتظار وقت معين.
(٢) العنقفير: الداهية.
(٣) حديث «يا دنيا مرى على أوليائى» تقدم.

باب ما يكسر فيقصر ويضم فيمد وعكس ذلك والمعنى واحد

هذان نوعان من المقصور والممدود: الأول ما يقصر إذ كسر، وإنما جعلهما فى ترجمة واحدة لأنه لم يجد لكل منهما على حدته العدد الذى يتضمنه البيت من الكلمات حسبما التزم ذلك؛ إذ ليس للأول إلا كسر الفاء مع القصر وضمها مع المد، ولا للثانى إلا اللُّقَى بالضم والقصر، واللقَاءُ بالكسر والمد، حسبما تضمن ذلك قول الناظم رحمه الله:

١٥٣ ـ وَذُو الْقِرْفِصَى عَنْ قُرْفُصَاءَ مُحَاسَبٌ
غَــدًا فى اللُّقَى فَلْيُخْشَيَنَّ لِقَــاءُ

قوله: «وذو القرفصى»: يعنى أن صاحب جلسة القرفصى، بالقصر والكسر، وكذلك بالضم والمد: هيئة المحتبى بيده لا بثوبه، تقول: قرفصت فلانًا: إذا شددته جامعًا يديه تحت ركبتيه. واللُّقى، بالضم والقصر، واللِّقاء، بالكسر والمد: مصدر لقيت. وفى شرح التسهيل قال: لا أعلم مصدرا على فُعَل إلا اللقى والقُفى والهُدى والبُكا والسرى.

فكأنه يقول: إن الشخص صاحب الجلسة المخصوصة المسماة بالقرفصى محاسب لأجلها؛ فيسأله الله عما قصد بها يوم القيامة، وهو يوم لقائه تعالى، فلا تخفى عليه خافية من أفعال العبيد، فيسأله عما قَل وجل منها حتى جلسة القرفصاء مثلا، ومن نوقش الحساب فقد عذب.

يروى أنه ﷺ بينما هو جالس فى حجر عائشة رضى الله عنها إذ تذكر الحساب فقال ﷺ: «من حوسب عذب» فقالت عائشة رضى الله عنها ـ وكانت كثيرة الغوص على المعانى ـ فقالت له: كيف ذلك يا رسول الله؟ بعد أن قال الله فى كتابه: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٨، ٩] فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض وأما من نوقش الحساب فإنه يعذب»[1].

---

(١) حديث «من نوقش الحساب»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان بلفظ: «من نوقش الحساب عذب» وفى الطبرانى: «من نوقش المحاسبة هلك» والله أعلم.

وذلك أن العبد لا محالة محاسب عند اللقاء؛ فينبغى أن يكون أخوف شيء عنده اللقاء، فيقتضى فحو الكتاب تخويف العبد من اللقاء لأجل ما يكابده من معاناة الحساب؛ وذلك المقصود من قول الناظم: «فليخشين لقاء»: مركب للمجهول موصول بنون التوكيد ليكون ذلك أبلغ فى التهويل، أى فليرهبن من اللقاء لأجل مافيه من المحاسبة التى من حقها أن يشيب من هولها العذارى النواهد لشدة بأسه وأليم تَعسه، وقَد ألجم الناس الفرق، وكثر الخوف والقلق؛ إذ صارت أفئدتُهم هواء، والجبال هباء، ولم يبق الله أرضًا ولا سماء، وأقبلت النار بزفراتها وقَد دهم الناس هول غمراتها، فهم جاثون على الركب، فلم ينتفعوا بالمال ولا بالحسب، وهم يخافون أن يكونوا من جملة الحطب، وقد ذهلوا من رحبة اليحموم واللهب، وتيقنوا حلول المحذور والعطب، فلا شفيع يشفع، ولا حميم ينفع، ولا حلية لماحم تَدفع، إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، فيشفع الحبيب المنتخب المرتضى، لجميع الخلق فى الفصل بينَهم والقضا،، من بعد ما ألهت كل نبى مرسل نفسه، ولم يبال ما فعل ابنه ولا عرسه، حتى إذا أذهل المخصص بحضرة القدس الغمرات، وأزال عن جميع السكارى المكسرات، فنشر اللواء، وذهب اللأْوَاء، وانزاحت بظهور طلعته الغماء، وانقشعت الشدة واضمحل البلاء، فيشفع حينئذ الشفعاء، وتنشر الآلاء والنعماء، فمن أدخل الجنة فقد فاز، ونجا من جميع المكاره وفاز؛ جعلنا الله من أولئك، ومتعنا بقرة العين فيما هنالك، آمين.

قال رحمه الله:

* * *

باب ما يضم فيقصر ويفتح فيمد والمعنى واحد

يعنى أن المقصور مضموم لا مفتُوح، والممدود مفتوح لا مضموم.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٤ ـ وإنْ كُنْتَ ذا رُغْبىَ فَرَغْبَاءَكَ فَاصْرِفَنْ
لِدَارِ البُقَى مَــا فى دُنَاكَ بَقَــاءُ

قوله: «وإن كنت ذا رُغبى»: أى: وإن كنت أيها المؤمن أو المريد أو السالك صاحب رغبة أو لك رغبة لا محالة أو ميل لنفسك إلى شىء فاصرف رغبتها إلى ما هو أهل للرغبة، ورد محبتك إلى دار البقاء إن لم تكن لك همةٌ عالية تسمو بك إلى استفراغ رغبتك وقصور محبتك عل محبة الواحد القهار دون دار القرار، فكيف ترضى همةُ موحد عارف أو ولى مكاشف بإعطاء ذرة من محبته لهذه الدار المملوءة بالأكدار، لأنه لا يرضى بمحبة مالا يبقى إلا الحمقى.

فالرغبى، بالضم والقصر، كالرغباء، بالمد والفتح: الرغبة فى الشىء. والبُقَى، بالضم والقصر: لغة فى البقاء، بالفتح والمد.

يروى أن الله جعل لكل نبى دعوة مستجابة، فكل من الأنبياء قدمها فى الدنيا إلا نبينا ﷺ، فإنه ادخرها للعقبى اختياراً منه للدار الباقية على الدار الفانية، وذلك من علامة سمو قَدره، وعلو همته، وفخامة شرفه، وظهور فضله على جميع الرسل، كما اختار كونه نبيًّا عبدًا لما خير بين أن يكون نبيًا ملكًا، فلما اختار العبودية المحضة رفعه بها إلى غاية لم يبلغها نبى مرسل ولا ملك مقرب؛ فأسرى به إلى حضرة القدُس ومحل الأنس، وحضرة الكفاح ورؤية الملاح، فكع دون سيره جبريل، وقصر دون ما ناله الكليم والخليل، فأبهم الأمر على وجه التعظيم وضرب من دونه حجابًا ليدل ذلك على التفخيم، فقال: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ثم وصفه بوصف خُص به دون السوى؛ إذ هو صاحب اللوا، فقال: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] وما تلجلج اللب وما بغى ولا طاش

اللسان ولا لغا، وما مال الخاضر ولا شغا، بل تواطأ القلب والقالب والحضرة والحضيرة، والأدب والتأديب، والقربةُ والتقريب، والحب والتحبيب، والنسبة والانتساب، والحظوة والاكتساب، والطفو والرسوب، والحضرة والعزوب، إذ قَرب من حضرة الرب المربوب، قرب مكانة لا قرب مكان، وسير تحبب لا سير زمان، برمز قول الرسول ﷺ إذْ أفْتَى: «لا تفضلونى على يونس ابن متَّى»[1]، وفى تنزيهه نفسه فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] ما يدل على نفسى قربه وبعده، فسبحان من ليس بالقريب وصلاً ولا بالبعيد فصلاً، فهو أقربُ من حبل الوريد فى الهداية والتسديد وأبعد من العرش المجيد فى حالة الخذلان والتبعيد. فشتان ما بين من قيل فى حقه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١] وبين من قيل فى حقه: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:٨١] وبين من قيل فى حقه: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح:٢، ٣] وبين من قال: ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم:٤٧]، فمغفرته ﷺ على حد اليقين، ومغفرة غيره على حد الرجاء، وكذلك هدايته بالنسبة إلى هداية غيره، فليس قول الله له: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢] كقول غيره لنفسه: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩]، و ﴿عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص:٢٢].

* * *

• ثم قال رحمه الله:

١٥٥ـ ونُعْمَى تَلِي نَعْمَاءَ فَاشْكُرْ مُشَمِّرًا   لِجُلَّى فَـذَا الْجَـلاَّءِ زَانَ عَزَاءُ

قوله: ونُعمى، بالضم والقصر، كنَعماء، بالفتح والمد: النعمة فى الحالتين. والجُلَّى، بالضم والقصر، والجَلاَّءُ، بالفتح: الحادثه العظيمة.

قال صاحب لامية العجم: (من بحر البسيط)

(١) حديث: «لا تفضلونى على يونس بن متى»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان والنسائى بلفظ: «ما ينبغى لعبد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى ونسبه إلى أبيه» البخارى كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم فى كتاب الفضائل، والله أعلم.

فقلت أدعــوك للجُلَّى لتنصرنى وأنت تخذلُنى فى الحادث الجللِ

وقال الحجاج بن يوسف: (من بحر الوافر)

أنا ابن جَـلاَ وطـلاعُ الثنايا متى أضعِ العمامةِ تعرفونى

والعزاء: الصبر، وقد قدمت فى أجره ما يشفى ويكفى. ونعمى: مفعول فاشكر. وجملة «تلى»: صفة لنعمي. ومشمراً: حال من فاعل « اشكر»، والتشمير للأمر: التهيؤ له، والذى فى القَاموس بهذا المعنى: التشمر، بفتح الشين المعجمة وضم الميم مشدداً، فالتشمير بمعنى التشمر، ولام الجُلى للتعليل. وذا الجلاء، بالنصب: مفعول زان، وعزاء: فاعله.

فكأنه يقول: اشكر النُّعمي بعد النَّعْماءِ، وتهيأ لأجل حلول البلوى؛ فإن ذلك مما يعينك على الصبر عليها. والعزاء زين لصاحب الجلاء والعزاء الصبر؛ فقد اشتمل البيت على مقصدين عظيمين لا محيص لأحد عنهما: وهما الصبر على البلوىٰ، والشكر على النعماء، فلا بد من الجمع بينهما لعدم قيام أحدهما مقام الآخر؛ فالشكر لا يسقط الصبر، والصبر لا يسقط الشكر، وقد قَدمتُ فى صدر الكتاب فى شأن الصبر والشكر ما لا مزيد عليه، فالفقير تقتضى حالته الصبرَ، كما أن الغنى تقتضى حالته الشكرَ، فلا حالة إلا ويجب عليه الصبر على ما دونها وغضُّ البصر عنها.

قال رسول الله ﷺ: «أُنظروا فى الدنيا إلى من هو دونكم ليؤدين ذلك شكر ما أنتم فيه، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فتزدروا نعمة الله عليكم»[1].

* * *

(١) حديث: «انظروا فى الدنيا إلى من هو دونكم.. إلخ» متفق عليه بلفظ: «انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من فوقكم؛ فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».
ولأحمد وابن حبان عن أبى ذر: «أوصانى خليلى ﷺ أن أنظر إلى من هو دونى ولا أنظر إلى من هو فوقى»، أما لفظ الشيخ فلم أجده، ولعل كلمة فى الدنيا زائدة من أحد النساخ، والله أعلم.

• ثم قال رحمه الله:

١٥٦ - وبُؤْسَى اخْشَ فَالْبَأْسَاءُ حَقٌّ مُخَالف
حُلاوَى قَفَاهُ لِلْهَوانِ مُبَاءُ

والبؤسى، بالضم والقصر، كالبأساء، بالفتح والمد: ضد النعمى والنعماء، وحق مخالف: ما يقضى به له من سوء الجزاء. وحُلاوى القفا، بضم الحاء والقصر، ولامه مفتوحة بعدها ألف، ومثله حلاواؤه، بفتح الحاء والمد، وهذه هي اللغة المتروكة من النظم. ومباء، بضم الميم: اسم مفعول من أباء بالمكان: انقطع إليه، وحله، وأقام به، بمعنى تبوأه، أي: اتخذه مبوأ. والهوان: الذل مصدر هان أي: ذل، كالمهانة والهُون بضم الهاء.

فكأنه يقول: خف المكر والنقمة المؤديين إلى سلب النعمة بسبب ارتكاب المعاصي، وحضها بطاعة ربك تَدم لك نعمته، ولا تخالفه فتحيق بك نقمته وهي البأساء، فإنها جزاء المخالف لأمر ربه، فَإنّه يكون ذليلا لأجل ذلك عاجلا. وجعل نقرة قفاه، أي: وسطه، محلاً للذل؛ لأنه أول ما يظهر فيه، وخص القفا لكونه محلاً لما كان يظهر من آثار الذل والهوان من الطأطأة والانكسار. قال الله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤].

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

ذلتْ رقاب بنى النجار كلهم إذ غادروه جميعًا بينهم حسرا

ولأن الذمي من سنته أن يقَام فيصفع على رقَبته ثم تؤخذ الجزية منه، قال الله تعالى: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]؛ ولذلك يوصفُ العزيز باستقامة العنق وبكونه أصْيَد[١]، أي مرتفع العنق، إلى جهة قفاه مع اعتدال، وذلك من شدة رفعه إياه كبرًا وخيلاء، وهو من صفة الملوك والمتكبرين.

ويروى أنه لما ضُربتْ الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل وباءوا بغضب من الله لا تجد أحدًا منهم إلا مُطأطئ العنق، يغشاه الذل والهوان وعلامة المسكنة، ولو كان من أكثر الناس أموالاً؛ ولذلك كان صفع قفا ذى المروءة فى ملأ من الناس مما يبالغ

(١) الأصيد: الرجل الذى يرفع رأسه تكبرًا.

فيه في تعزيره، وهو أشد ما يعزر به.

وكون المعصية تورث العاصي ذلاً عاجلاً لكون الطاعة تورث المطيع عزًا عاجلاً أمر محسوس؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»[1]. قيل: معنىَ ذلك أنه لا ينبغي له أن يرتكب معاصي الله فيذل عند الله وعند رسوله وحفظته وعند عباد الله الصالحين، حتى يُفضى به ذلك إلى تهاون الجن به وازدراء البهائم له.

قال الحسن رضي الله عنه: إني لأفعل الفعلة فأجد ذلك قد أثر في خلق دابتي، فإذا أقلعت عنها ونَدمتُ عليها ورجعتُ إلى الله بالتذلل والضراعة استقام لي خلق دابتي كما كان.

وأخرج السيوطي رضي الله عنه في كتاب «الخصائص الكبرى»: ومن المعجزات أن حمار النبي ﷺ يعفور لما أتي به سجد بين يدي النبي ﷺ وقال: الحمد لله الذي خصني بك، كنت آخر حمار من نسل الحمير التي كانت تركبها أنبياء بني إسرائيل، وكنت عند يهودي، وكان إذا ركبني تعثرتُ به عمدًا لبغضي إياه؛ بسبب كفره ومعصيته، فلم يبق من الأنبياء غيرك، ولم يبق من نسل الحمير التي كانت تركبها الأنبياء غيري[2].

وكان ﷺ يرسله إلى من يشاء من أصحابه، فيأتيه؛ فيقرع عليه بابه برأسه، فإذا رآه الصحابي علم أن رسول الله ﷺ بعثه إليه لما يعلم من عادته، فلما توفي رسول الله ﷺ مكث بعده يومين لم يأكل ولم يشرب، فلما كان اليوم الثالث تردى في بئر من آبار المدينة فمات.

اللهم أعزنا بطاعتك، ولا تذلنا بمعصيتك، يا من لم تنفعه طاعة مطيع ولا تضره معصية عاص، يا ذا الطول والحول، يا من بيده نواصينا، وبِتوفيقه طاعتُنا، وبِعَدْله معاصينا.

---

(١) حديث: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه» رواه أحمد والترمذي وصححه، وابن ماجه بزيادة: «قيل: كيف يذل نفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يطيق». وأورده صاحب الكشف تحت رقم ٣١٣٦، والله أعلم.

(٢) قصة الحمار التي أوردها السيوطي وعنه الشيخ لم أجد لها سندًا.

● **ثم قال رحمه الله:**

١٥٧ - وغُمَّى أجَلُ فَالْغَمَّاءَ مَنْ يَجْلُها يَفُزْ
بعُلْيَا وذُو الْعَلْيَاء ذَاكَ يَشَاءُ

قوله: الغُمَّى، بالضم والقصر: كالغماء، بالفتح والمد: الشدة التى يعسر الاهتداء إلى كشفها، وقيل: هى التى تغم العقل حتى لا يهتدى صاحبها إلى حيلة يكشفها بها. والغماء: أُنثى الأغم.

قال رسول الله ﷺ: «اللهم فارج الغم، كاشف الهم، مجيب دعوة المضطرين، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمهما، أنت ترحمنى؛ فارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك، إنك على كل شىء قدير» ؛ تستعمل لقضاء الدين وتفريج الهموم والغموم.

ويروى أن جبريل عليه السلام لما أتى النبى ﷺ وهو فى النزع قال: إن الله أرسلنى إليك بخاصة وكرامة لم يرسلنى بها إلى رسول قبلك، قال له: وما هى؟ قال له: إنه يقول لك وهو أعلم بحالك: كيف تجدك يا محمد؟ قال له: أجدنى مغمومًا وأجدنى مهمومًا، فقال له: لا غم عليك بعد اليوم، فإن الملأ الأعلى قد استبشروا بقدومك، وإن حضرة القُدس قد هُيِّئت لقدوم روحك، وإن الله قد اشتاق إلى لقائك، فقال له: ليس عن ذلك أسألك، وإنما أسألك عن غَمِّى وهمِّى وهو ما تصير إليه أمتى، من لها بعدى؟ فقال له: إن ربك يقول لك: أنا خليفتك من بعدك على أمتك، ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه ما حاسبت أمتك، فقال: الآن طابت نفسى للموت يا جبريل، فإذا عزرائيل يستأذن، وما استأذن على أحد قبله، ولا يستأذن على أحد بعده إلى يوم القيامة، فأذن له فقال: السلام عليك يا محمد، إن الله أمرنى بطاعتك، فإن أمرتنى بقبض روحك قبضتها، وإن أمرتنى بتركها تركتها. فالتفت النبى ﷺ إلى جبريل كالمستشير، فقال له: إن الله قد اشتاق إلى لقياك، فقال النبى ﷺ لعزرائيل: افعل ما بدا لك، فانصرف جبريل؛ فقال له: يا جبريل، تصاحبنى فى الرخاء وتفارقنى فى الشدة؟! فقال له: يا محمد من يقدر أن ينظر إليك ونفسك تُنْزَع بين جنبيك؟! فانصرف[1].

(١) قصة جبريل هذه لم أجد لها سندًا صحيحًا، ولا أظنها ثابتة عنه ﷺ، والله أعلم.

ويروى أن بعض الصحابة سمع بكاء فى جو السماء وهو يقول: وامحمداه! وفى ذلك يقول الشاعر:

بكت الأرض والسماء عليه　　　وبكـــــاه خليله جبريل

والعليا، بالضم والقصر، والعلياء، بالفتح والمد: المنزلة الرفيعة. والفوز: الظفر، ويطلق ويراد به النجاة.

ويروى أنه لما ضرب ابن ملجم ـ ألجمه الله بلجام من النار ـ عليًا فلمس جبهته فإذا دماغه قد انتثر عليها قال: فُزتُ ورب الكعبة، فيحتمل أن يكون معنى قوله: فزت: نجوت من الدنيا وغمها وأهوالها كما كان دأبه الفرار منها، ويحتمل أن يكون فزتُ بالشهادة والظفر بدخول الجنة.

فكأنه يقول: اكشف الشدة التى يعسر كشفها، وفرج الضيق الذى يصعب تفريجه؛ فإن من يفعل ذلك يظفر بمنزلة رفيعة، وصاحب المنزلة الرفيعة، أى مالكها، من عادته تفريج الكروب على المكروبين رغبة فيما عند الله تعالى من الثواب الجزيل، والثناء الجميل، والدعاء الصادق كما فى قوله ﷺ: «من فرج عن مؤمن كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه كربة من كرب الآخرة»(1).

وفى حديث آخر: «من دفع عن مؤمن كربة لا قدرة له على دفعها إلا به دفع الله عنه سبعين كرب من كرب يوم القيامة».

وتفريج الغمة مما يثيب الله فاعله ثوابًا جزيلا ويحبه ويصطفيه، وناهيك بثواب يثيب الله به سبحانه من فعل فعلا يحبه.

ويصح أن يفسر «ذو العلياء» بالشخص صاحب المنزلة الرفيعة بسبب ما اتصف به من الأخلاق الجميلة: كعلو الهمة، ونزاهة النفس، ولين الجانب، وسهولة الخلق، وهو أجل ما يكون عليه الإنسان صاحب المنزلة الرفيعة؛ فينشىء ذلك، أى يوجب، الفوز بالعلياء، ومن أحب شيئًا فعل ما يوصله إليه. وكشف الغمى عمن لا يستطيع كشفها عن نفسه؛ فيكون مبالغة فى الترغيب فى كشف الشدائد وتفريج الغم على كلا التقديرين؛ فاعتبر ذلك.

---

(1) حديث «من فرج عن مؤمن كربة»... إلخ. صحيح، وتقدم تخريجه.

وهذا هو المسمى بالإرقال: وهو ختم البيت بما يفيد نكتة يتم المعنى بدونها؛ فالمعنى هنا الحث على كشف الغمى وقد تَم بقوله: «فالغماء من يجلها يفز بعليا» فقوله: «وذو العليا ذاك يشاء» فيه زيادة مبالغة فى ذلك لا تكمل له، ويصح أن يكون تذييلاً: وبيان ذلك أن قوله: «يفز بعليا» أى: يحصل له الفوز بها من عند مالكها، فيفهم ذلك أن تفريج الغمى محبوب له، وإلاَّ لم يفز المفرج بالعليا المملوكة؛ لأن الفوز بها تمليك منه، والتمليك منه، والتمليك فعلة باختيار من غير تكلف ولا تكليف، فلا يملك لعلياء الأمور الشاقة التى لا يحبها كل أحد ولا يجيب إليها إذا دعى لقلتها ومخالفتها لهوى النفس، كما فى قول الشاعر: (من بحر الطويل)

ولن يكشف الغماء إلا ابنُ حرةٍ يرى غمرات الموت ثم يزورها

ويكون قوله: «وذو العلياء ذاك يشاء» مؤكداً لذلك المفهوم، وهذا هو التذييل.

* * *

باب ما يفتح فيقصر ويمد والمعنى واحد

يعنى أنه قد وقع الاتفاق هنا فى الحركة والمعنى كالمادة.

● **فقال رحمه الله:**

١٥٨ ـ قَوًى وَحَزًى فَحْوَى وحَلْوَى بَهًا وَنًى
وهَيْجَـا مَعَ الدَّهْنَا قَصًا وَبَـذَاءُ

قد ترك الناظم الأسلوب الذى كان عليه: من الأزدواج، والجناس الناقص، والتلويح، والاقتباس، والتضمين، والاستطراد، فنفض هنا من جميع ذلك يديه، وعمد إلى جمع النظائر مجرداً عن تضمين المعانى بتلك المبانى فقال:

قَوًى، بالفتح والقصر ويمد: مصدر قَوِيتْ الأرض، بكسر الواو: إذا أقفرت. والحزى، بالحاء المهملة والزاى كما فى القاموس، خلافًا لما فى الجوهرى فإنه ذكره بالخاء المعجمة، وهو بالقصر والمد: نبتٌ تزعم العرب أن الجن لا تدخل بيتًا يكون فيه. وفحوى، مقصورة: ما يفهم من معنى الكلام. وفحاء، ممدودة: جزالة الكلام وحسن تركيبه ومواطأة لفظه لمعناه، يقال له: فحوى الكلام، بالقصر، وفحواؤه، بالمد: ما يظهر من معناه مما لا يعلمه إلا أربابه من أذكياء العرب ومن تفحل فى أنواع البلاغة، وله أبواب: فحوى الخطاب، ولحن القول، والتلويح، والتلميح، والمنابذة، والتورية. والحلوى والحلواء، بالقصر والمد: كل طعام عولج بحلو.

وفى الخبر: «كان ﷺ يحب الحلو والعسل»[1] ولم يكن حبه ﷺ إياها تشهيًا، وإنما كان يأخذ منها أخذاً صالحًا إذا وجدها؛ إما لمعنى طبى يعلمه فيها، وإما أن تكون موافقة لطبعه.

وفى حديث واهٍ: أن الله يحب التمر ويحب من يحبها[2].

---

(١) حديث «كان النبى ﷺ يحب الحلو والعسل» متفق على صحته رواه الستة إلا الترمذى، وهو عند البخارى فى كتاب الأطعمة.

(٢) حديث «إن الله يحب التمر لم أقف عليه ويكفى أن الشيخ قال: إنه واه.

وكان ﷺ كلما أصبح اصطبح بعسل ممزوج بماء بارد، يسكن بذلك الحرارة الغريزية، ويدفع بها حرّ الإقليم، وهواء الحجاز؛ لأنه أشد بلاد الله حرارة، وكان ﷺ يقول: «الشفاء فى ثلاث: كية من نار، أو جرعة من عسل، أو آية من كتاب الله، ولا أحب أن أكتوى»[(١)].

ويروى أنه ﷺ أتاه رجل فقال له: يا رسول الله، إن أخى قد استطلقت بطنه، فقال: اسقه عسلا، فذهب فسقاه، ثم أتى النبى ﷺ فقال له: ما زاده العسل إلا استطلاقًا، فقال له: ارجع إليه فاسقه عسلا، فلا أدرى أفى الثانية أم فى الثالثة لما قال له: ما زاده العسل إلا استطلاقا، قال له ﷺ: صدق الله وكذبت بطن أخيك[(٢)]. يعنى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩].

والبَهَى كالبَهَاء: مصدر بهىَ البيت، بكسر الهاء: تخرف وتعطل، وقصره أقيس من مده؛ إذ قياس مصدر «فَعِلَ» بالكسر «فَعَل» بالتحريك كالجوى والفرح. والونى، بالقصر: الفتور، حكى مده عن الفراء. والهيجا والهيجاء: الحرب. والدهنا والدهناء: بادية بنى تميم، ويطلق ويراد بالدهناء كل مفازة واسعة كأن حصباءها مدهونة لغيرها عن البياض. قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

كل دهناء يقْصر الطرف عنها ... أرْقَلَتْهـــا قِلاصُنـا إرقَـالا

والقصى، بالقصر ويمد: فناء الدار. والبذاء، بالذال المعجمة والمد وقد يقصر: السفه وقلة الحياء.

فقوى: خبر مبتدأ محذوف، أى هو قوى وحزى وفحوى.. إلى آخره كذلك.

* * *

(١) حديث «الشفاء فى ثلاث»... إلخ. صحيح رواه البخارى وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الطب بلفظ: (الشفاء فى ثلاثة: فى شرطة محجم، وشربة عسل، وكية نار، وأنهى أمتى عن الكى)، والله أعلم.

(٢) حديث «أنه ﷺ أتاه رجل فقال له يا رسول الله إن أخى... إلخ» حديث متفق على صحته رواه الستة إلا أبا داود وابن ماجه، وهو عند البخارى فى كتاب الطب، وفيه: يشتكى بدل استطلقت بطنه، والله أعلم.

● ثم قال رحمه الله:

١٥٩ - وبِزْرُ قَطُونَى والكَثِيرَى الجَفَا الرَّحَى
وهِنَبَـــاءُ أَيضًا والضّحَى وَسَفَـــاءُ

قوله: وبزر قطونى: مضاف ومضاف إليه، والبزر، بالزاى والراء: وهو ما يكون من الحب فى جوف البقول ونحوها. وقَطونى، بفتح القاف وضم الطاء المهملة: نباتٌ له بذر، ذكره ابن القوطية فى الأسماء العجمية المعربة كالنانجى والقسطاس والبرسيم والدَّرْنُوكِ وغير ذلك. وذكر الناظم جواز الوجهين فيه. والكثيراء: رطبة تخرج من أصول شجر يكون بِشَروَى وجبل لبنان. والجفاء، بالمد والقصر: ضد الصلة. والرحى، بالقصر: آلة الطحن، حكى الجوهرى مدها. والهنْبَا، بتقديم النون على الباء مقصور وممدود: المرأة الشديدة البله، ولفظه فى بيت الناظم ساكن النون، وصوابه التحريك، ولعل الناظم إنما حمله على ذلك ضرورة الشعر، ونظير المقصور: أجَلَى: موضع، وبردى: نهر بدمشق، وهو كثير. ونظير الممدود: حنفاء وقُدماء، بالتحريك: موضعان، قال ابن القوطية: لم يأت غيرهما إلا ما تقدم مما اشترك مع فعلاء الساكن العين كثأداء وأأباء، بتحريك الهمزة وتسكينها فيهما. ومن هذا الباب نفساء لغة فى النُفَساء، بضم النون وفتح الفاء، وهى قريبة العهد بالولادة. ومنه السحناء، والسحناء الهيئة، وقيل: بياض ولين البشرة. والضحى فى بيت الناظم بالقصر ويمد وقصره أقيس: وهى مصدر ضَحِيَ أى: برز للشمس. والسفَاء، بالمد وقد يقصر: خفة الناصية.

* * *

● ثم قال رحمه الله:

١٦٠ - وعَوَّى وَعَاشُورَى مناَةَ مَعَ الْغَرَى
كَــذَا زَكَرِيَّا وَالجَرَى وَوَحَـــاءُ

فَعَوَّى، بوزن قضَّى بتشديد العين: نجم فى برج السنبلة، وهى العذراء، وقصرها أكثر من مدها، وقد تمد كما قال الشاعر: (من بحر الخفيف)

خزرجى لو يستطيع من الغيـ ـظ رمانا بالنسر والعَـواءِ

وفى قصرها يقول الحطيئة: (من بحر الطويل)

ولو بلغت عوى السماء قبيلةٌ زادَتْ عليها نهشلٌ وتعلت

وقال الخَطْمى فى المد: (من مجزوء الرجز)

وأنثرت عواءها تناثر العِقد انقطع

وعاشورى، بالقصر وقد تُمد. ومناة، بالقصر: اسم صنم. والغرى، بالقصر: مصدر غرى بالشىء، بالكسر: أولع به، وحكى عن يونس وسيبويه مده. وزكريا، بالقصر والمد: معلوم، وهو نبى من أنبياء بنى إسرائيل. والجرى، بالجيم والقصر وقد تمد: اسم الجارية. والوحاء، بالواو والحاء المهملة والمد وقد يقصر: السرعة.

ثم قال رحمه الله تعالى:

* * *

باب ما يكسر فيقصر ويمد المعنى واحد

وهو المتفق فى الكسر والمعنى، من المقصور والممدود متفقين فى المادة فالاختلاف هنا كالذى قبله، وإنما هو بمجرد الكسر والمد.

• ثم قال رحمه الله:

١٦١ - زِمِكَّى صِنًا مشْفى زِمِجَّى وَهِنْدَبَا
وِمِينَا وَخِصِّيصًا زِنًّى وشِـــراءُ

قوله: زمكى، بالزاى بوزن «فِعِلَّى» بكسر الفاء والعين وفتح اللام المشددة: كالزمجى، بالجيم: أصل ذنب الطائر، وهو اليعصوص. والصِّنا بالكسر والقصر: الرماد وقد يمد. والمشفَى، بالكسر والقصر، بدون همزة، ومهموز مقصور، ومهموز ممدود: المشط[1]. والهِنْدَبا، بكسر الهاء وفتح الدال والقصر: بقلة من أحرار البقول، وقد قيل فيه بكسر الدال ويمد، وسميت هندبا لتهدب ورقها، فظاهره أن المقصور ليس فيه إلا فتح العين، وأن الممدود ليس فيه إلا كسر العين، واحدة الهندَبا هندباة. ومِينا، بالكسر والقصر وقد يمد: حجر الرخام، وموضع إرساء السفن. والخصيصى، بالكسر والقصر وقد يمد: خواص القوم، ويطلق ويراد به الاختصاص بالشيء. والزنى كالشرا وقد يمدان: وهما معلومان.

* * *

(١) عند هذا المحل فى النسخة (ب) أورد المؤلف قصة سحر اليهود للنبى ﷺ بمناسبة المشط، وهذه القصة ليست فى النسخة (أ)، وقد تركناها للتنبيه فقط.

باب ما يضم فيقصر ويمد والمعنى واحد

فالحركة التى اتفقا فيها ضمة هنا.

● **ثم قال رحمه الله:**

١٦٢ ـ صُلَيْمَى وَغُزَّى وَالجُلَنْدَى وَمَعْ أُولَى
كُشُوثَى الرُّتَيْلَى اللُّوبِيَا وَبُكَاءُ

قوله: صليمى، مضموم مقصور وقد يمد: بطن من الأزد، وهم بنو كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن نبى الله هود بن عاد بن إرم بن سيم بن سام بن نوح عليه السلام، وهم قبيلة أبى هريرة رضى الله عنه، والطفيل بن عمرو صاحب رسول الله ﷺ الملقب بذى النون، وكان سيدًا شريفًا سريًا[1] لبيبًا مفوهًا، وكان قد أتى مكة زمن شدة الأمر وتظاهر قريش على رسول الله ﷺ. فلما سمعت قريش بمقدمه تجمعت له، فلما طاف البيت أقبل على أنديتهم فقالوا له: إنك يا طفيلُ سيد شريف فى قومك، وإن بين أظهرنا رجلا قد فرق جماعتنا، وأفسد علينا النساء، وإنما قوله الذى يقول كالسحر، يفرق بين الرجل وابنه، وبين الرجل وأخيه، وبين الرجل وزوجته، وإنما نخشى عليك أن يصيب قومك من شره ما قد أصابنا؛ فإياك أن تسمع من قوله حرفًا واحدًا، فلم يزالوا به حتى جعل فى أذنيه كرسفًا[2] خشية أن يسمع من قولْ رسول الله ﷺ شيئًا.

فبينما هو فى المسجد إذا رسول الله ﷺ قد دخل المسجد، فطاف بالكعبة أسبوعًا ـ أى: سبع مرات، يقال: سبعا وأسبوعًا ـ ثم أقبل على أندية قريش، فدعا الله، فأنذر، وبشر، وتلا عليهم من كتاب الله ما تيسر.

قال الطفيلُ بن عمرو: فلما رأيت ذلك قلت فى نفسى: ما يمنعنى أن أسمع من قول هذا الرجل، والله إنى لرجلٌ لبيب شاعر فلا يخفى علىَّ القبيح من

---

(١) السرى: السيد والنهر الصغير، وهو هنا السيد.

(٢) الكرسف: القطن.

الحسن، فإن كان قوله الذى يقول حسنًا قبلته واتبعته، وإن كان قبيحا رددته وتركته.

فلما انصرف رسول الله ﷺ إلى بيته اتبعته، فلما دخل بيته جلست إليه فقلت له: يا محمد، إن قومك قد حذرونى أمرك وأن أسمع من قولك حتى سددت أذنى بكرسف مخافة أن أسمع من قولك، فأبى الله إلا أن يسمعنيه، فسمعت قولا حسنا؛ فاعرض علىَّ أمرك. فعرض علىَّ الإسلام، وعلمنيه، وتلا علىَّ من القرآن، فما هو إلا أن سمعته أخذ بمجامع قلبى، وهان على كل ما سواه، ووقع فى قلبى من اليقين والثبات ما هو أقوى من الجبال الراسيات، فقلت لهﷺ: ابعثنى إلى قومى يا رسول الله، واجعل لى آية أستعين بها عليهم، فإنى مطاع فيهم. فقال له رسول الله ﷺ: إنى قد أرسلتك إليهم، وسيجعل الله لك آية عليهم.

فانصرفت من عنده وقد أكرمنى الله بالإسلام، وامتحن قلبى بالإيمان، فلما كنت بالثنية التى تخرجنى على الحاضر خرج من ناصيتى نور كأنه المصباح؛ فقلت: اللهم فى غير وجهى لئلا يقولوا: مثلة أصابتنى لما فارقت دينهم، ثم انتقل ذلك النور إلى أصابعى، فقلت: اللهم فى غير يدى، فانتقل إلى سوطى، فخرجت على القوم، فلم يبق فى القوم رجل ولا أمرأة إلا قام كلهم ينظرون إلى ذلك النور الذى برأس سوطى ويعجبون منه.

فلما أتيت بيتى أنخت، فأقبلت إلى أهلى فقلت لها: وجهى من وجهك حرام، فقالت: لم بأبى أنت وأمى؟ فقلت لها: إن الاسلام فرق بينى وبينك. قالت لى: دينى دينك، وكان عند صنم لنا وشل[1]، فقلت لها: اذهبى إلى ذلك الوشل واغتسلى منه، فقالت: ألا تخشى على من الصنم؟ فقلت لها: أنا ضامنٌ لك؛ فإنما هو جماد لا ينفع ولا يضر ولا يغنى من الله شيئا؛ فاغتسلت، ثم أسلمت. ثم أقبلت إلى أبوى، فقلت لهما مثل ذلك، فقالا: وما ذاك؟ قلت لهما: قد أسلمت، وتابعت دين محمد ﷺ، وآمنت بالله رب العالمين؛ فقالا: ديننا دينك؛ فأمرتهما بالاغتسال فاغتسلا، فأسلما. ثم أقبلت إلى إخوانى وأخواتى - وكانوا

(١) الوشل: الماء القليل يتحلب من الصخر.

رهطًا ـ فقلت لهم مثلما قلت لأبوى، وقالوا لى مثل ما قالا، فلم يمس أحد من أقاربى إلا وقد أسلم.

ثم دعوتُ دوسًا، فاستصعبت على. فركبت قلوصى، ثم قدمت على رسول الله ﷺ وقد هاجر إلى المدينة، فقلت له: يا رسول الله، ادع على دوس فإنهم قد استصعبوا على، فقال النبىّ ﷺ: اللهم اهد دوسا وائت بهم تائبين؛ فقلت: يا رسول الله، أتيتك لتدعو على دوس فدعوت لهم؟! فتبسم ﷺ: ارجع إلى قومك فارفق بهم وادعهم إلى الإسلام؛ فإن الله سيهديهم بك؛ فيكونون من خير قبائل المسلمين وأكثرها جهادًا فى سبيل الله.

فرجعت إلى قومى، فدعوتهم إلى الله فرزقهم الله الإسلام، فأتيت رسول الله ﷺ يوم فتح خيبر بخمسمائة أهل بيت من دوس، فرضخ[1] لنا من المغنم، وعليهم دارت رحى الإسلام يوم اليرموك، فكانوا سببًا لفتح الشام وإبادة بطارقة الروم، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

وغُزّى كذلك: جمع غاز، و«فُعَّل» و «فعال» قد يرادان فى جمع «فَاعل» معتل اللام؛ فتقول: غُزى، كما قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ [آل عمران: ١٥٦]. وغزاة، وقد يشدد، وقد يؤتى فيه بهمزة المد، فيقال: غزاء على وجه المبالغة فى جمع فاعل معتل اللام. والجلندى أبو جيفر الذى أدركه الإسلام وهو جيفر بن الجلندى ملك عمان.

ذكر الواقدى بإسناد له إلى عمرو بن العاص، أن رسول الله ﷺ بعث نفرًا سماهم إلى جهات مختلفة برسم الدعاء إلى الإسلام. قال عمرو: فكنت أنا المبعوث إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، وكتب رسول الله ﷺ معى كتابًا، قال: وأخرج عمرو الكتاب، فإذا صحيفته أقل من الشبر، فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

من محمد بن عبد الله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإنى رسول الله

---

(١) رضخ: اعطاهم.

للناس كافةً لأُنْذرَ من كان حيًا ويحق القول على الكافرين، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما، وخيلى تَحل بساحتكما، وتظهر نبوتى على ملككما». وكتب أبى بن كعب، وختم رسول الله ﷺ الكتاب.

ثم خرجت حتى انتهيت إلى عمان، فلما قدمتها عمدت إلى عبد، وكان أحسن الرجلين خلقًا وألينهما وأسناهما خلَقًا، فقلت: إنى رسولُ رسولِ الله ﷺ إليكَ وإلى أخيك، فقال: أخى هو المقدم على بالسن والملك، وإنى أوصلك إليه حتى يقرأ كتابك.

ثم قال لى: وما تدعو إليه؟ قلتُ: أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وأن تخلع ما عُبِدَ من دونه، وتشهد أن محمدًا عبده ورسوله. قال: يا عمرو، إنك ابن سيد قومك، فكيف صنع أبوك فإن لنا فيه قدوة؟ قلت: مات ولم يؤمن بمحمد ﷺ، وودت أنه كان أسلم وصدق به، وقد كنت على مثل رأيه حتى هدانى الله إلى الإسلام. قال: فمتى اتبعته؟ قلت: قريبًا، فسألنى: أين كان إسلامى؟ فقلت له: عند النجاشى، وأخبرته أن النجاشى قد أسلم. قال: فكيف صنع قومه بملكه؟ قلت: أقروه واتبعوه. قال: والأساقفة والرهبان اتبعوه؟ قلت: نعم. قال: احذر يا عمرو ما تقول؛ إنه ليس من خصلة فى رجل أفضح له من كذب. قلت: وما كذبت، وما نستحله فى ديننا.

ثم قال: ما أرى هرقل علم بإسلام النجاشى؟ قلت: بلى، قال: بأى شىء علمت ذلك؟ قلت: كان النجاشى يخرج له خرجًا، فلما أسلم وصدق بمحمد ﷺ قال لى: والله لو سألنى درهما واحدًا ما أعطيته إياه، فبلغ هرقلَ قوله. فقال له يناق[1] أخوه أتَدع عبدك لا يخْرِج لك خرجًا ويدين دينًا محدثًا؟ قال هرقل: رجل رغب فى دين واختاره لنفسه ما أصنع به؟ والله لولا الضن بملكى لصنعت مثل ما صنع.

قال: انظر ما تقول يا عمرو، قلت: قد والله صدقْتُك. قال عبد: فأخبرنى ما الذى يأمر به وينهى عنه؟ قلت: يأمر بطاعة الله عز وجل وينهى عن معصيته،

(١) فى النسخة (ب): يناو.

ويأمر بالبر وصلة الرحم، وينهى عن الظلم والعدوان وعن الزنى وشرب الخمر، وينهى عن عبادة الحجر والوثن والصليب. فقال له: ما أحسن هذا الذى يدعو إليه وأجمله، لو كان أخى يتابعنى لركبنا حتى نؤمن بمحمد ونصدق به، ولكن أخى أضن بملكه من أن يدعه ويصير ذنبًا. قلت: إنه إن أسلم ملكه رسول الله ﷺ على قومه؛ فأخذ الصدقة من غنيهم فردها إلى فقيرهم. قال: إن هذا لخلق حسن، وما الصدقة؟ فأخبرته بما فرض رسول الله ﷺ من الصدقات حتى انتهيت إلى الإبل، قال: يا عمرو تُؤْخَذُ من سوائم مواشينا التى ترعى الشجر وترد المياه؟ قلت: نعم، قال: والله ما أرى قومى فى بعد دارهم وكثرة عددهم يطيعون بهذه.

قال: فمكثت ببابه أيامًا وهو يصل إلى أخيه ويخبره كل خبرى، ثم إنه دعانى يومًا فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضبعى، فقال: دعوه؛ فأرسلونى؛ فذهبت لأجلس، فأبوا أن يدعونى أجلس، فنظرت إليه، فقال: تكلم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختومًا، ففض خاتمه، فقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه، فقرأ مثل قراءته، إلى أنى رأيت أخاه أرق منه، ثم قال: ألا تخبرنى عن قريش كيف صنعت؟ قلت: اتبعوه، إما راغب فى الدين، وإما مقهور بالسيف. قالا: ومن اتبعه؟ قلت: الناس قد رغبوا فى الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنهم كانوا فى ضلال، فما أعلم أحدًا بقى غيرك فى هذه الخرجة، وأنت إن لم تُسلم اليوم وتتبعه يوطئك الخيل ويُبيد خضراءك، فأسلم تسلم ويستعملك على قومك، وإلا تَدخل عليك الخيل والرجال. قال: دعنى يومى هذا وارجع إلى غدًا. فرجعت إلى أخيه، فقال: يا عمرو إنى لارجو أن يسلم إن لم يضن بملكه.

حتى إذا كان الغد أتيت إليه، فأبى أن يأذن لى، فانصرفت إلى أخيه، فأخبرته أنى لم أصل إليه، فأوصلنى إليه، فقال: إنى فكرت فيما دعوتنى إليه، فإذا أنا أضعف العرب إن ملكت رجلا ما بيدى، وهو لا تبلغ خيله ههنا، وإن بلغت خيله لقيت قتالا ليس كقتال من لقى قبلنا. قلت: فإنى خارج غدًا. فلما أيقن بخروجى خلا به أخوه فقال: ما نحن فيمن قد ظهر عليه إلا كأكلة شاة، وكل من أرسل إليه أجابه.

فلما أصبح أرسل لى فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه جميعا وصدقا بالنبى ﷺ، وخليا بينى وبين الصدقة والحكم فيما بينهم، وكان لى عونًا على من خالفنى[1].

وفى الحديث غير الواقدى أن عمراً قال له فيما دار بينهما من الكلام: إنك وإن كنت منا بعيداً فإنك من الله غير بعيد، إن الذى تفرد بخلقك أهل أن تفرده بعبادتك وأن لا تشركه من لم يشركه فيك، واعلم أنه يميتك الذى أحياك ويعيدك الذى بداك، فانظر إلى هذا النبى الأمى الذى جاء بالدنيا والآخرة، فإن كان يريد أجراً فامنعه، أو يميل به هوى فدعه، ثم انظر فيما يجىء به: هل يشبه ما تجىء به الناس؟ فإن كان يشبه فاسأله العيان وتخبر علمه فى الخبر، وإن كان لا يشبهه فاقبل ما قال وخَفْ ما وعد.

قال ابن الجُلندى: إنه والله قد دلنى على هذا النبى الأمى أنه لا يأمر بخير إلا كان أول آخذ به ولا ينهى عن شر إلا كان أول تارك له، وإنه يَغْلبُ فلا يبطر، ويُغْلَبُ فلا يضجر، وإنه يفى بالعهد وينجز الموعود، وإنه لا يزال يطلع على سر لا يشاركه فيه غيره، وإنى لأشهد أنه نبى.

قوله: ومع أولى، بالضم والقصر لا غير على وزن طولى، قال الله تعالى: ﴿أُولاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]. وأما عد الناظم إياها من ذوات الوجهين فلعله قصد به «أُلَى» التى بمعنى «الذى» فتمد حينئذ وتقصر، فتقول: ألى وألاء على لغة حمير، وكذلك تُمد وتُقصر إذا كانت بمعنى جمع وال، وكذلك إذا كانت بمعنى الاستحقاق، فتقول: رجال أولى أى: هم خليقون بكل خير، فصوغت لهم العرب وصفًا أولى لك فأولى. وكذلك إذا كانت اسم إشارة. والكشوثى[2]، بالمثلثة مضموم الأولى مقصور ويمد: نبت يتعلق بالأغصان ولا عرق له فى الأرض. والرُّتيلى، بالضم والقصر: نوع من العناكب، وهى أنواع كما فى القاموس، وهى التى كانت تنسج على الأنبياء: فأول من نسجت عليه

(١) من المعلوم أن الواقدى لا تقوم الحجة بحديث انفرد به، وقد جرحه كثير من العلماء، بل وعده الذهبى وغيره من رؤساء الوضاعين، والله أعلم.

(٢) فى النسخة (أ): الكشوشى بالشين، وفى (ب): الكشوثى، بالثاء المثلثة، وهو الصحيح.

داود عليه السلام حين فر من طالوت، وعلى رسول الله ﷺ حين هاجر إلى المدينة.

وذكر ابن هشام عن الحسن بن أبى الحسن[1] قال: انتهى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى الغار ليلاً، فدخل أبو بكر قبله، فلمس الغار أفيه سبع أو حية؟ يقى رسول الله ﷺ بنفسه، ولما فقدت قريش رسول الله ﷺ طلبوه بمكة أعلاها وأسفلها فبعثوا القافة يتبعون أثره فى كل وجه، فوجد الذى ذهب قِبَل ثور أثره هناك، فلم يزل يتبعه حتى انقطع له لما انتهى إلى ثور، وشق على قريش خروج رسول الله ﷺ عنهم، وجزعوا لذلك، وطفقوا يطلبونه بأنفسهم فيما قرب منهم، ويرسلون من يطلبه فيما بعد عنهم، فجعلوا مائة ناقة لمن رده عليهم.

ولما انتهوا إلى فم الغار وقد كانت العنكبوت ضربت على بابه بِعِشعاش بعضها على بعض بعد أن دخله رسول الله ﷺ، فقال قائل منهم: ادخلوا الغار، وقال أمية بن خلف: وما أربكم إلى الغار إن عليه لعنكبوتًا أقدم من ميلاد محمد؟!

قالوا: فنهى النبى ﷺ يومئذ عن قتل العنكبوت، وقال: إنها جند من جنود الله، وفى ذلك يقول لسان الدولة ابن الخطيب برد الله ضريحه: (من بحر الوافر)

ودودُ القز قد نسجت حريراً ... يُجَمِّل لبسه فى كل حَىٍّ
فإن العنكبوت أجل منه ... بما نسجت على رأس النبىِّ

فسدت الباب، وأضلت الطلاب؛ فإن الله يحمى من أراد حمايته بأضعف سبب؛ إذ لا شى أضعف ولا أوهى من بيت العنكبوت. وفى هذا يقول البوصيرى رضى الله عنه: (من بحر البسيط)

وقَايةُ الله أغنت عن مضاعفةٍ ... من الدروع وعن عال من الأطم[2]

وقال أيض فى همزيته: (من بحر الخفيف)

أخرجوه منها وآواه غـارُ ... وحمتـه حمامـةُ ورقَاءُ
وكفته بنسجهـا عنكبوتٌ ... ما كفته الحمامةُ الخضراء

---

(١) يعنى الحسن البصرى.
(٢) الأطم: الحصون.

أخرج أبو بكر البزار فى مسنده من حديث أبى مصعب المكى قال: أدركتُ زيد ابن أرقم والمغيرة بن شعبة وأنس بن مالك يحدثون أن النبى ﷺ لما بات فى الغار أمر الله تبارك وتعالى شجرة، فنبتت على وجه الغار، فسترت وجه النبى ﷺ، وأمر العنكبوت فنسج على وجه الغار، وأمر عز وجل حمامتين وحشيتين فوقفتا بفم الغار. وأتى المشركون من كل بطن، حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على قدر أربعين ذراعًا معهم قسيهم وعصيهم تقدم رجل منهم، فنظر، فرأى الحمامتين، فرجع، فقال لأصحابه: ليس فى الغار شىء؛ رأيت حمامتين على فم الغار، فعرفت أن ليس فيه أحد. وسمع قوله النبى ﷺ، فعلم أن الله قد درأ بهما عنه؛ ففرض ﷺ جزاءهما وأُسْكِنَتَا فى حرم الله، أحسبه قال: فأصل كل حمام فى الحرم من فراخهما.

وذكر قاسم بن ثابت، فيما تولى شرحه من الحديث، أن الله أنبت شجرة الراث على باب الغار لما دخله رسول الله ﷺ وأبو بكر رضى عنه، وهى شجرة معروفة، وقال غيره: تكون مثل قامة الإنسان ولها زهر أبيض تحشى به المخاد للينه وخفته.

وقال ابن الخطيب فى «مواهبه»: هى شجرة أم غيلان: شجرة تشبه شجر القطن.

وحكى الواقدى أن النبى ﷺ لما دخل الغار دعا بشجرة كانت أمام الغار؛ فأقبلت حتى وقفت على باب الغار، فحجبت أعين الكفار وهم يطوفون فى الجبل.

وقال أبو بكر لرسول الله ﷺ يومئذ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا. فقال له: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟

وأقام رسول الله ﷺ وأبو بكر معه فى الغار ثلاثًا حتى سكن عنهم الناس، أتاهما صاحبهما ببعيرهما، وأتتهما أسماء بنت أبى بكر الصديق بسفرتيهما، ونسيت أن تجعل لهما عصامًا، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس فيها عصام، فحلت نطاقها فجعلته عصامًا، ثم علقتها به؛ فكان يقال لها: ذات النطاقين. انتهى.

والعنكبوت أنواع، وجمعها عناكب، كما فى القاموس، أشهرها التى تشبه الذباب الذى يطير حول السراج، ومنها ما هى سوداء رقطاء، فهذه مثل الحية فى لدغها أو هى شر منها، فربما أضرت بمجرد مشيها على البدن، وربما أضرت



بريقها، ومنها صفراء زغباء ولسع جميعها مورم مؤلم.

واللوبيا، بالقصر والمد: معلوم نوع من القطانى، ومن لغاتها اللبياج بالجيم بعد الألف. والبكاء، بالمد والقصر: معلوم. ومن الناس من يقول: البكا، بالقصر: مجرد رفع الصوت.

وأما قصة نسج العنكبوت على داود عليه السلام، وهى أنه لما كثرت الأحداث فى بنى إسرائيل بعد موسى وعزير سلط الله عليهم الجبابرة من بقية العماليق، وهم قوم جالوت، وقد سكنوا جزائر صقلية[1] وجبال الروم بعدما نفاهم يوشع بن نون، فخربوا أكثر مدائنهم، وسبوا نساءهم وذراريهم، واستولوا على أكثر الشام، وضربوا على بنى إسرائيل الضرائب، فصارت بنو إسرائيل بين مقهور بالجزية ومغلوب بالسبى، فبعث الله شمويل نبيًا، فلما بعثه طمعت بنو إسرائيل بالنصر؛ لأن صلاح أمر بنى إسرائيل كان بسياسة الملوك وتسديد الأنبياء؛ فالملك يسير العساكر ويقوم بسياسة الملك، والنبى يسدده ويأتيه بخبر السماء ويدعو لهم بالنصر عند العظائم؛ فمنزلةُ أنبياء بنى إسرائيل مع ملوكهم كمنزلة علماء هذه الأمة مع سلاطينها.

قال النبى ﷺ: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل علمًا وحُكما»[2].

وقال: «الولى فى قومه كالنبى فى أمته»[3].

وهى أحاديث واهية الإسناد إلا أنه يؤيدها حديث صحيح الإسناد، وهو قوله ﷺ: «بين العالم العامل والنبى فضْلُ درجتين»[4].

---

(١) صقلية، بكسر الصاد: جزيرة فى البحر المتوسط تابعة لإيطاليا، احتلها الأغالبة العرب عام ٨٢٧ ولا تزال فيها آثار عربية حتى اليوم، وقاعدتها (بالرمو).

(٢) «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل»... إلخ. لا أصل له عن النبى ﷺ، أورده صاحب الكشف تحت رقم ١١٧٤ وقال: قال السيوطى: لا أصل له، وقال: قال ابن حجر: لا أصل له. وأورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٤٦٦ وقال: لا أصل له باتفاق العلماء. كما أورده السخاوى تحت رقم ٧٠٢ وقال: قال شيخنا ومن قبله الدميرى والزركشى: إنه لا أصل له. زاد بعضهم: ولا يعرف فى كتاب معتبر. اهـ. أما زيادة الشيخ فلم أجدها، والله أعلم.

(٣) «الولى فى قومه»... إلخ. ليس بحديث ولا تجوز نسبته إلى النبى ﷺ، والله أعلم.

(٤) حديث: «بين العالم العامل»... إلخ. أورده ابن عبد البر فى كتاب العلم له بلفظ: «للأنبياء =

فلما طال عليهم البلاء أتوا شمويل فقالوا له: إن بنى إسرائيل قد طال عليهم البلاء والسباء، فادع لنا ربك يبعث لنا ملكًا نقاتل فى سبيل الله. فقال لهم: هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا لما جبلتم عليه من الفشل والجبن وحب السلامة؟ فقالوا مجيبين له: ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة:٢٤٦].

فسأل الله تبارك وتعالى بعد ما أخذ من بنى إسرائيل المواثيق إن يبعث لهم ملكًا، فأتته الملائكة بدهن القدس والحكمة فى قرن من ورق، فقالوا له: إن من نش على رأسه هذا الدهن فهو ملك بنى إسرائيل الذى قد ارتضاه الله لها ملكًا وعلى يديه ينصرون، فأخذه النبى، ثم دعا من ظن فيه أهلية الملك من سبط الملك، فلم ينش عليه الدهن، ثم دعا من فيه قابلية ذلك من سبط النبوة فلم ينش على رأس أحد منهم؛ فتحير.

فبينما هو جالس فى بيته إذ وقف عليه طالوت فى طلب حمار أضله، فنش الدهن فى القرن، فقال: ادن، فدنا منه، فجعل القَرنَ فوق رأسه فنش حتى صار على رأسه كالإكليل؛ فدعا الملأ من بنى إسرائيل، فلما اجتمعوا قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ [البقرة:٢٤٧] فقالوا مجيبين له: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ [البقرة:٢٤٧] وسبطه ليس منْ أخس أسباط بنى إسرائيل، وكانوا دباغين ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ [البقرة:٢٤٧]؛ لأننا من سبطى النبوة والملك بنى يهود وبنى لاوى، وهم يعنون أن طالوت من سبط بنيامين الذين لم يبعث الله منهم نبيًا ولم يجعل فيهم ملكًا، فأجابهم شمويل فقال: إن الله اصطفاه عليكم ولو كان سبطه كما ذكرتُم وسبطكم كما قلتم؛ فالملك بيده يُؤتيه من يشاء، فليس بالوراثة ولا بالحسب، وزاده بسطة فى العلم، وكأن أعلم بنى إسرائيل، والجسم، وكان يفوت بنى إسرائيل بالرأس والمنكب، فقالوا له: إنا لا نرضى بذلك ولا نقبله حتى يأتينا بآية تطمئن إليها أنفسنا، وقال لهم شمويل: ﴿إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ﴾ [البقرة:٢٤٨]، وكانوا

= على العلماء فضل درجتين، وللعلماء على الشهداء فضل درجة» وسكت عليه (١٩/ ١)، ولم أعثر على من صححه، والله أعلم.

يستنصرون بها على الأمم قبل أن يحدثوا الأحداث، فلما أحدثوا الأحداث سلط الله عليهم من أخذها من خزائنهم، فلما فارقتهم فارقهم النصر.

وكان صندوقًا مربعًا فيه رضاض الألواح ورداء موسى وقميص هارون وعمامة إبراهيم، وقيل: وعصا موسى، وكانت السكينة تسير معها حيثما سارت، فجاءت الملائكة تحملها ضُحًى حتى وضعتها في بيت طالوت، وقيل: في بيت شمويل؛ فانقادت حينئذ بنو إسرائيل، ورضيت بولايته عليها، وخضعت لطواعيته.

فأمرها بالتهيؤ لغزو عدوها، كانوا قد استولوا على غوطة دمشق وحمص وقيسارية وسواحل الشام. فلما تَهيأوا للمسير - وكانوا سبعين ألف مقَاتل وقيل: مائة ألف - أتاهم نبيهم فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة:٢٤٩] أي: يريد أن يختبر إيمانكم وطاعتكم بأن يمتحنكم بالعطش، ويجرى ذلك النهر أمامكم، فمن شرب منه جبن، ومن لم يطعمه ثبت الله جنانه وشجع قلبه وأتم إيمانه، إلا من اغترف غرفة بيده فيكون دون من لم يطعم وفوق من شرب، فَشربوا منه إلا قليلا منهم، وكانت عدتهم كعدة أصحاب بدر، وهم ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً.

واختلف في النهر الذى ابتَلاهم الله به: فقيل: هو نهر الأردن، وقيل: بحيرة طبرية.

فلما سمع بهم جالوت عارضهم بجنوده، فدعوا الله تبارك وتعالى لما رأوا قلة عددهم وكثرة جنود جالوت قالوا: ربنا أفرغْ علينا صبرًا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين.

وكان جالوتُ يهزم العساكر وحده لقوته وشجاعته وإقدامه، وكانت زنة بيضته سبعين قنطارًا من العين[١].

فتقاولوا فيما بينهم أنه لا قدرة لنا على جالوت وجنوده إلا بقتل جالوت، فردوا أمرهم إلى نبيهم، فأوحى الله إليه أنه يقتله رجلٌ من بنى آش، وأتوه بدهن القدس فقال: إنه من نش على رأسه من ولد آش فهو الذى يقتل جالوت، وكانوا اثنى

(١) المراد بالعين عادة الذهب والفضة، والمبالغة في القوة هنا من الإسرائيليات التى لم تثبت، والله أعلم.

عشر ولدا كلهم رجال، وكانُوا طوالاً حسانًا إلا داود عليه السلام فإنه كان قصيراً أزرق، فتركه فى أغنامه، فأرسل النَّبى إلى آش فقال له: إنه أوحى إلى أن رجلاً من بنيك هو الذى يقتل جالوت؛ فأتاه ببنيه واحدًا بعد واحد فلم ينش القرن على واحد منهم؛ فقال له: اصدقنى فإنه أوحى إلىَّ أنه يقتله رجل من بنيك، فقال له: ما بقى عندى ولد ينبغى لهذا الأمر، فقال له: وإن كان كذلك فأت به.

فذهب إلى داود، فأتاه فى أغنامه وإذا هو قَد رفع صوته بالذكر والتسبيح، وإذا الجبال يسبحن معه، ولم يسمع مثل صوته حسنًا فقال له: إن الله أوحى إلى شمويل أن رجلاً من ولدى يقتل جالوت، وقد اختبرهم بدهن القدس فلم يجد فيهم من ذكر له، فلم يبق غيرك، وكانت عينى تقتحمك[1]، فهل تحس من نفسك شيئًا؟ فإن الملك جعل لمن يقتل جالوت شطر ملكه وأن يزوجه ابنته، فعسى الله أن يكرمك بقتل جالوت. فقال له: إن قلبى لا يفزعه شيء، وكنت لا أرمى بنبلى شيئًا إلا حظوته[2]، ولا أحظوه إلا نفذتُه، أى أنفذته السهم حتى يقَع بالأرض، ولى قوة، وكان الأسد يأخذ الشاة فأفك عنها حنكيه بيدى لا يستطيع حراكًا، وربما قتلته.

وذهب مع أبيه، فمر بحجر: فخاطبه، قال له: خذنى يا داود فإن الله سيقتل بى جالوت على يديك، ثم مر على حجر آخر فقال له مثل ذلك؛ فجعلهما فى مقلاعه[3].

فما هو إلا أن أتَى شمويل، فنش الدهن فى القرن، فأخذ شمويل القرن فجعله على رأسه فنش حتى تكلل رأسه. فلما رأوا ذلك طابت أنفسهم للقتال.

فلما تراءت الفئتان قال الذين اغترفوا من النهر: لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، فأجابهم الذين لم يطعموه وهم الذين عبر الله عنه بقوله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

---

(١) تقتحمك: تحتقرك.

(٢) حظوته: أصبته.

(٣) المقلاع: وعاء يكون فيه زاد الراعى ومتاعه.

فقال طالوت لداود: ابرز إلى جالوت، فلئن قتلته لأزوجنك ابنتى ولأشاطرنك ملكى. فأعطاه فرسًا من جياد الخيل ودرعًا وبيضة وسلاحًا وعدة، فركب الفرس، ولبس الدرع، وجعل البيضة على رأسه، فأخذ العدة والسلاح.

فلما قرب من جالوت رجع إلى طالوت، فنزل عن الفرس، ووضع الدرع والبيض، فقال له طالوت: أكرهت لقاء الرجل؟! قال: لا، ولكن خفت أن يكلنى الله إلى فرسك وعدتك؛ فأتنى بحمارى، فأتى به،فأخذ مقلاعه، وجعل فيه حجرين. فلما دنا من جالوت ضحك إعجابًا منه فقال: أتريد أن ترمينى بحجر كما يرمى الكلب؟ فقال له: نعم، أنت شر من الكلب؛ لأنك كافر بالله. فلما خاطبه داود عليه السلام ألقى الله الرعب فى قلبه، وجعل الحجرين فى المقلاع، وسمى الله، ورماه، فصكته على ناصيته حتى خرجت من قفاه، فمات، وانهزمت عساكره.

فلما رجعوا إلى إيلياء وَفَى طالوت لداود على كره. ثم اتخذ الله داود نبيًا رسولاً، وآتاه الملك والحكمة. فلما رأى طالوتُ إقبال الناس على داود وعظمته فى قلوبهم وما آتاه الله من النبوة والرسالة حسده؛ فهم بغدره، فأخبرته بذلك ابنة طالوت وكانت تحت داود، فقالت له: إن أبى يريد غدرك الليلة فَما أنت صانع فاصنعه؛ فعمد إلى زق فملأه خمرًا، ثم جعله على سريره، وغطاه بالثياب.

فلما نامت العيون وانقطعت الأصوات قصد طالوت بيت داود عليه السلام وبيده سيف، فلما دخل البيت ورأى الزق على السرير ظنه داود نائمًا؛ فضربه بالسيف، فانشق الوعاء، وسال الخمر، فلما وجد طالوت رائحة الخمر قال: قاتل الله داود ما أكثر شربه للخمر!!

فرجع وقد تيقن أنه قَتَل داود، فأتى أصحابه، وأخبرهم بقتل داود.

فلما نام دخل عليه داود عليه السلام، فأخذ أربعة أسهم من كنانته، فوضع سهمًا عند رأسه، وسهمًا عند رجليه، وسهمًا عند يمينه، وسهمًا عند شماله، ثم قطع شيئًا من طرف ثوبه وشيئًا من شعره، ثم رجع إلى بيته ليريه أنه لا يريد قَتْله، وأنه لو أراد قتله لقتله.

فلما أصبح ورأى السهام عرفها، وعلم أنه لَم يظفر بحاجته، وأن داود إنما فعل ذلك ليريه أنه لو أراد قتله لقتله.

فلما رأى ذلك أظهر العداوة وجد فى طلب داود عليه السلام ليقتله؛ ففر داود إلى الجبل، وتبعه طالوت فى خيل، فلما رآهم داود شد ليسبقهم إلى الجبل وقد أسرع هو وخيله ليدركوه قَبل صعوده الجبل، فلما أرهقوه أوى إلى كهف، فنسجتْ عليه العنكبوت، فلما رأوا نسج العنكبوت لم يتفسخ علموا أنه لم يدخله، فجعلوا يطوفون فى الجبل حتى ردهم حر الظهيرة.

فلما فاته داود عليه السلام وضع يده فى قتل الحكماء الذين أخذوا الحكمة على داود عليه السلام، يقتل كل من ذكر داود بخير، حتى ذكرت له امرأة من بنى إسرائيل كانت عابدةً صالحةً وعندها اسم الله الأعظم، فأمر وزيره بقتلها، فلما أتاها خاف من الله إن قتلها ومن الملك إن تركها؛ فأمرها بالتغيب، فقال لها: إن الملك قتل الصالحين من بنى إسرائيل والصالحات فتغيبى؛ فإنه إن علم أنى لم أقتلك قتلنى، ولئن قتلتك لأخافن عقَاب ربى وعذابه؛ فتغيبت، وجعلت تعبد ربها.

ثم ألقى الله التوبةَ والخوفَ فى قلب طالوت؛ فجعل يصيح الليل والنهار من خشية الله حتى احمرت عيناه وكاد بصره يذوب؛ فدعا وزيره فقال له: ويلك، هل من عبد صالح فى بنى إسرائيل أشكو إليه ما نَزل بى فلعله يدلنى على ما يتقَبل الله به تَوبتى ويمحو به حوبتى؟ فقال له: إنك أفْنيت صلحاء بنى إسرائيل، ونفيتَ داود من البلد، ولم يبق أحد من العباد، فلما قال له ذلك صاح حتى ظن أنه قد انصدع صدره عن قلبه، ثم أغمى عليه، فلما أفاق ورأى وزيره منه الجد قال له: اربع على نفسك فإن الفرج منك قَريب؛ قال له: وكيف ذلك؟ قال له: إن المرأة الصالحة التى أمرتنى بقتلها فإنى لم أقتلها، وقد أعددتها لمثل هذا اليوم العسير؛ قال له: فهلم فاذهب بنا إليها.

فذهبا إليها ولما دنيا من الكهف الذى هى فيه تقدم إليها الوزير فقال لها: أيتها المرأة الصالحة، إن طالوت قَد تَاب ورجع إلى الله، وإنه قد أتاك ليجعل الله له فرجًا ومخرجًا مما هو فيه.

فذهبت معهما إلى قبر أورياء النبى عليه السلام، فلما وقفوا عليه دعت الله باسمه الأعظم أن يرد إلى أورياء روحه فيخاطبهم ويسمعوا خطابه، فكلمها أورياء عليه السلام فقال لها: ما تريدين يا أمة الله؟ قالت: إنى أريد أن تخبر طالوت بالسبب الذى يتقبل الله به توبته، فقال لها وهما يسمعان: لا توبة لطالوت حتى يرسل إلى داود ويمكنه من ملكه؛ فإنه قد نفاه ظلمًا، وإنه أحق بالملك منه، ثم يذهب ببنيه إلى البربر، فيجاهدهم حتى يموتوا كلهم، ثم يموت آخرهم، فإنه إن فعل ذلك غفر الله له ورحمه وتقبل توبته.

فرجع إلى بنيه وقد تضاعف بكاؤه وحزنه مخافة أن لا يقبلوا ذلك منه، فجمعهم - وكانوا اثنى عشر رجلاً - وقال: يا بنى، كيف وجدتُم تَربيتى إياكم وشفقتى عليكم وإحسانى إليكم؟ قالوا: ربيتنَا خير تربية، وأحسنت إلينا كُلَّ الإحسان، وكنت لنا نعم الأب. فقال لهم: إن كان ذلك كذلك فهى النار إلا أن تنقذونى بأنفسكم، وإنى ذاهب إلى البرابر حتى يقتلونى تَوبةً من الله، وقد أخبرنى الله على لسان أورياء أنه لا تَوبةَ لى حتى تقتلوا كلكم أمامى ثم أموتُ آخركُمْ. فقالوا له: لا خير فى العيش بعدك، وإن هذا ليسير فى طلب مرضاة الله ومرضاتك.

فأخذوا فى التهيؤ للمسير، وتهيأ إلى المسير معهم، وقد أرسل إلى داود عليه السلام أن ارجع إلى ملكك فإنى قد انخلعت ـه ووهبته لك رجاء أن يتقبل الله تَوبتى.

ثم ذهبوا إلى الكفرة فقتلوا بنيه جميعًا، ثم قتلوه آخرهم، ثم رجع داود عليه السلام من الجبال؛ فاجتمعت عليه بنو إسرائيل، فجمع الله له بين الرسالة والملك، ولم يجمع ذلك لنبى من أنبياء بنى إسرائيل قبله.

والبكاء، بالمد: هو البكاء مع ذكر مناقب الميت، والنياحة: الاجتماع للبكاء على الميت على وجه النوح على عادة العرب فى الجاهلية.

قال محمد بن المسيب: لما حضرت عبد المطلب الوفاة وعرف أنه ميت جمع بنَاته وكن ستة: صفية وبرة وعاتكة وأم حكيم البيضاء وأميمة وأروى، فقال لهن: ابكين على قَبل أن أموت؛ فقالت كل واحدة منهن شعرًا ترثيه به وأنشدته إياه،

فأشار برأسه وقد أصمت أن كذلك فابكينني. وذكر ابن إسحاق تلك الأشعار، قال ابن هشام: إنه لم ير أحدًا من أهل العلم بالشعر يعرفها.

قال ابن إسحاق: وقال حذيفة بن غانم أخو بنى عدى بن كعب يبكى عبد المطلب ابن هاشم ويذكر فضله وفضل قُصى على قريش وفضل بنيه من بعده عليهم، فقال: (من بحر الطويل)

أعَيْنَىَّ جُودًا بالدموع على الصدر ... ولا تسأما أُسْقِيتُما مُسْبَلَ القَطْرِ
وجودا بدمع واسفحا كلَّ شارقٍ ... بكاء امرئ لم يُشَوِّه نَائبَ الدهرِ
وسحًّا وجمًّا واسْجُما ما بقيتما ... على ذى خباء من قريش وذى سَتر
على رجل جلد القوى ذى حفيظةٍ ... جميلِ المحيا غيرِ نكس ولا هَدْرِ
على خير حافٍ من معد ونَاعلٍ ... كريم المساعى طيِّبِ الخِيمِ والنَّحرِ
على شيبة الحمد الذى كان وجهُهُ ... يضىء سوادَ الليل كالقمر البدْرِ
وساقى الحجيج ثم للخير هاشم ... وعبد مناف ذلك السيد الفهرى
طوى زمزمًا عند المقام فأصبحت ... سقايتهُ فخرًا على كل ذى فَخْرِ
ليبك عليك كل عانٍ بكربه ... وآل قصى من مُقلٍ وذى وَفْرِ
بنوه سراة كلهم وشبابهم ... تفلَّقُ عنهم بيضه الطائر الصقرِ
فصف الذى عاذتْ كنانة كلها ... ورابطة بيت الله فى اليسر والعسرِ[1]
فإن تك غالته المنايا وصرفها ... فقد عاش ميمونَ النقيبة والأمرِ
وأبقى رجالاً سادةً غير عزل ... مصاليتَ أمثال الردينيَّةِ السُّمْرِ
أبو عتبة الملقى إلى حباؤه ... أغر هجان اللون منْ نفر غُرِّ
وحمزة مثل البدر يهتز للندى ... نقى الثياب والذمام من الغَدْرِ
وعبدُ منافٍ ماجدٌ ذو حفيظةٍ ... ومولى لذى القربى رحيم بذى الصهر

---

(١) هذا البيت لا يستقيم وزنه هكذا.

كهولُهمُ خير الكهــول ونسلهم كنسل الملوك لا يبور ولا يَجْرِ
هم ملوك البطحاء مجدًا وعزة إذا أسبق الخيرات فى سالفِ العَصْرِ
وهم حضروا والنــاس باد فريقهم وليس بها إلا شيوخُ بنى عمرِو
بنوهــا ديارًا جمــةً وطووا به بثارًا تحج المــاء من ثبج البَحْرِ
لكى يشرب الحجاجُ منْها وغيرهمْ إذا ابتكروها صبح تَابعة النَّجْرِ
ثلاثة أيام تظـل ركـــابهمْ محبسة بين الأخاشب والحِجْرِ
وقــدمًا غنينا قَبل ذلك حقبة ولا نستقى إلا بخَمْرٍ أو الحفْرِ
همُ يغفرون الذنب ينقم دونه ويعفون عن قول السفاهةِ والهجْرِ
ولا تنس مـا أسدى النبىُّ فإنه قد اسْدى يدًا محفوفة منك بالشكرِ
وأنتَ نبىٌّ من قُصى إذا انْتَمى بحيث انتهى قصدُ الفؤاد من الصدْرِ
وأمك سر من خزاعــة جوهر إذا فَصَّل الأنسابَ يومًا ذوو خُبْرِ
إلى سبأ الأبطـال تُنْمى وتنتمى وأكرمْ بهــا منسوبةً فى ذُرى الغُرِّ

فأول من ناح إبليس لعنه الله. وأول من بكى آدم عليه السلام.

أخرج ابن الخطيب فى مواهبه: أن آدم عليه السلام لما أهبط من الجنة بكَى على خطيئته ثلاثمائة سنة لم يرفع طرفه إلى السماء حياءً من الله تعالى، حتى أنْبتَ الله من دموعه العود الرطب والقرنفل والأفَاوية[١]، وبكت حواء حتى أنبت الله من دموعها الزعفران والسنبل[٢].

يروى أنه لو اجتمعت دموعُ بنى آدم كلهم لكانت دموع آدم أكثر منها حينَ أخرج من الجنة، ولما بنى الكعبة وطاف بها جعل ينزلق فى دموعه كأنها ضحضاح؛ قيل: بذلك سميت بكة بكة.

ولما اقْترف داود عليه السلام الخطيئة سجد أربعين يومًا ودموعه تسيل على الأرض حتى نَبتَ بها العشبُ وغطى رأسه. فلما نُودى عليه بالتوبة زَفَرَ زَفْرَةً

(١) الأفاوية: محسنات الطعام، كالأبازير.
(٢) ما أظن قصة البكاء هذه والإنبات إلا من نسج خيال اليهود.

أيبست العشب لحرها[١].

وسمى نوح نوحًا لكثرة نوحه.

وبكى شعيب عليه السلام حتى ذابَتْ عيناه فردهما الله عليه، ثم ذابتا فردهما الله عليه، ثم ذابتا فى الثالثة فردهما الله عليه؛ فقال: يا شعيب، إن كان يبكيك خوفُ النار فقد أمنتك منها، وإن كنت إنما تبكى شوقًا إلى الجنة فقد أبحتها لك وأوجبت لك الخلود فيها. فقال له: فوعزتك ما بكائى خوفًا من نارك ولا طمعًا فى جنتك ولكن شوقًا إلى لقائك. فقال له: فوعزتى وجلالى لأجعلن راعى غنيمتك نبيًا أكلمه فى كل يوم اثنتى عشرة مرة؛ فساق الله إليه موسى، وكان من أمرهما ما قصّ الله.

وكان يحيى عليه السلام مع كونه سيدًا حصورًا[٢] لا يرقأ له دمع حتى أثر فى خديه فصارتْ مواضع مجراه أخدودا.

وكذلك إبراهيم عليه السلام وموسى وعيسى ومحمد ﷺ، إلا أنهم متفاوتون فى ذلك بحسب التجليات.

فالحاصل أن البكاء خُلُقُ الأنبياء ودأب الأصفياء، وعليه تفَانت جماهير الأتقياء؛ فجمودُ العين علامةُ الشقاء وديوان الحمقاء. والبكاء لا يستغنى عنه بحال.

قال ﷺ: «ابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا».

وهو سبعة أقسام: بكاء خوف، وبكاء خشية، وبكاء هيبة، وبكاء حياء، وبكاء ذَنْب، وبكاء محبة، وبكاء شوق.

فبكاء الخوف بكاء يقتضى منك الفرارَ والقلقَ والانكسارَ، وهو الذى يقول فيه النبى ﷺ: «ليس الخائف من بكى وسَحَّ الدموع إنما الخائف من ترك ما نهى الله عنه»[٣] وهو بكاء التائبين المقلعين.

---

(١) هذه القصص الموغلة فى الخيال مما أتى به الإسرائيليون وسربوه إلينا، ولا تصح عقلاً ولا نقلاً، والله أعلم.

(٢) الحصور: الذى لا رغبة له فى النساء.

(٣) حديث: «ليس الخائف من بكى»... إلخ. لم أجده هكذا.

وبكاء الخشية هو بكاء أهل التمكين، وهو الذى يصاحبه خشوع وسكينة وخضوع بدون صوت وانتحاب، يبكى متى شاء وكيف ومتى أراد.

وبكاء الهيبة هو بكاء يثيره الإجلال والعظمة، وهو حظ العارفين أهل التمكين، لم يبعثه خوف عقاب ولا طمع فى ثواب، بساطهم قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

الرابع: بكاء الحياء، وهو الذى يثيره انكسار واحتقار، انكسارًا أن يكون أهلاً للإقبال، واحتقارا لعمله أنه يكون أهلاً للقبول، وهو مقام المراقبة، وبساطهم قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠].

قال على كرم الله وجهه: الحياء من الله كُلُّ الحياء أن تستحى من الله أن يفقدك حيث أمرك، أو يراك حيث نهاك. مع ملازمة الذبول، ومخامرة الذهول، تعرفهم بسيماهم.

واختلف فى تلك السيما، فقيل: هو نحول الجسم من غير مرض، واصفرار اللون من غير عرض، وظهور الخشوع، وإسبال الدموع، وقلة الهجوع. وقيل: هى آثار السجود، واللهج بذكر الواحد المعبود، والإعراض عن الكون بالعزلة والصدود.

الخامس: بكاء الذنب على ما مر، وهو البكاء السخن، وهو الذى يثيره القلقُ والخوفُ والفَرقُ والحياءُ والملقُ، وهو الذى عنى الشاعر بقوله: (من بحر الطويل)

فوليْتُ محزونًا بعين سخينـة ، أكفكف دمعى والفوادُ قد انصدع

وأما بكاء الشوق فبخلاف ذلك، فإنما تثيره قرة العين، وزوال البين؛ فهو مأخوذ من القَر الذى هو ضد الحر، فينبجس عن ثَلَج الصدر، وبساطهم قوله تعالى: ﴿فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فهؤلاء بكاؤهم من جنس معناهم.

والسادس: بكاء محبة، وهو الذى أثاره تجلى الجمال، فلهيبه زمهريرٌ، ومعين نهره غزير، لا يوازيه نهر ولا غدير، وهو بحر قد طمى، وتلاطمت أمواجه فهمى، وفيه يقال:

من لغمرات البين قد رمى   وللغرب قد نسب وانتمى

وقال الشاعر: (من بحر البسيط)

الله أكبر هذا البحر قد زخرا   وهيج الريح موجًا يقذف الدرَ رَا
فاخلع ثيابك واغرق فيه ودع   عنك السباحة ليس السبح مفتخرا
ومت فميت حب الله فى رغد   حياته بحياة الله قد عمرا

السابع: بكاء قرب، وحقيقته التهتك، وإسقاط التمالك، فهو بحر البحور، ولجة الحبور، للدخول فى البيت المعمور، والرق المنشور، والبحر المسجور، فيعبر عن نفسه بنفسه، ويأخذ علم الشريعة من رمسه، وعلوم الحقيقة من حسه، فيصير عين الكتاب المسطور، فيخط فيه بقلم النور، فبحره مداده، وغيضته أعواده، والأقدام كلها أمداده، والملأ الأعلى عواده فتكلُّ دون بيان النزر من صفاته العبارة، وتستقل الإشارة، فلا يعرفه إلا من شاكله، أو من على عوائد الحق واكله، فهو الاسم المكتوم، والسر المختوم، والعلم المعلوم، وقفت دون حده الرسوم، وطاشت دون فحواه الفهوم، وخاطبته بحقائقها العلوم.

يروى أن الجنيد رضى الله عنه كان يخرج كل يوم على أصحابه فيقول لهم: هلم فلنخرج إلى الصحراء، فلنبك على ذنوبنا وسوء أدبنا مع الله ؛ فيخرجون إلى الصحراء يبكون، ويذكر كل واحد منهم ما ألم به من سوء آدابه مع ربه، ومن لم يجد منهم سوء أدب قال: إن كلى سوء أدب،فإن من لم ير لنفسه سوء أدب فقد أساء الأدب.

وكان مالك رضى الله عنه إذا قيل له: ما يبكيك؟ يقول لهم: ليس العجب ممن بكى إنما العجب ممن لم يبك وهو فى سجن الدنيا وإسار الغيوب.

ولقد بكى بشر الحافى حتى عمشت عيناه، واتصل بكاؤه بموته؛ فقيل له: إذا قطعت عمرك بالبكاء فما معنى بكائك عند اللقاء؟ فقال لهم: كان بكائى على تفريطى فى الأيام الخالية، وقلة صبرى على النار الحامية، وعدم استعدادى للجنة العالية.

وقال بعض الحكماء: إذا أخصب القلب بالمعارف والأعمال الصالحات جرت

أنهار الخشوع بمعين الدموع، وإذا أجدب القلب وتمحل[١] جمد الدمع وتقلل.

وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً أسيفًا[٢] قلما تراه إلا باكيًا. وكذلك على كرم الله وجهه. وكان عمر رضى الله عنه إذا مر على آية من ورده فيها وعد أو وعيد تخنقه العبرة حتى يسقط ويلزم الفراش حتى يعاد، يحسبه الجاهل مريضًا وما به إلا الخوف والهيبة . وكذلك عثمان رضى الله عنه عند ذكر الموت.

وكان بكاؤه ﷺ من جنس ضحكه من غير رفع صوت ولا نطق بمحذور، كما كان يقول: « العين تدمع، والقلب يخشع، ولا نقول إلا ما يرضى الرب».

كما قال: حامل لواء المدَّاحين سيدى محمد بن سعيد البوصيرى فى همزيته: (من بحر الخفيف).

سَيِّد ضحكه التبسمُ والمشىُ ... الهوينا ونومه الإغفاءُ

إلا أن لسان الدولة ابن الخطيب قال فى «مواهبه»: لما وقف النبى ﷺ على عمه حمزة يوم أحد فوجده وقد مثل به وجد لما رأى وجدًا شديدًا، فبكى حتى كاد يبلغ به البكاء حد الغشى، وحتى سمع نشيج صدره، وربما نشغ من غلبة البكاء، وجعل يقول: «رحمك الله يا حمزة، يا فاعل الخيرات، رحمك الله يا عمى، يا كاشف الكربات، لم أقف موقفًا هو أغيظ من هذا لقلبى من هذا الموقف، ولن أصاب بمثلك إلى يوم القيامة، ولقد أخبرنى جبريل أن اسمك فى الملأ الأعلى: حمزة أسد الله وأسد رسوله، ولئن أظهرنا الله على قريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين رجلاً منهم»[٣].

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظهرنا الله عليهم يومًا من الدهر لنمثلن بهم مثلةً لم يمثلها أحد من العرب؛ فأنزل الله عز وجل فيما قاله من ذلك وما قالته صحابته: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا**

(١) تمحل: قحط.

(٢) آسيفًا: كثير الحزن.

(٣) فى (أ): لأمثلن بستين، وهو تصحيف.

تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٦، ١٢٧]؛ فعفا رسول الله ﷺ، وصبر، ونهى عن المثلة.

* * *

• ثم قال رحمه الله:

١٦٣ ـ وَذِى تُحْفَةُ المَوْدُودِ تَمَّتْ مُحِيطَـةً
بِمَـا اهْتَمَّ باسْتِقْصَـائِهِ الأُدَبَاءُ

قوله: «وذى تُحفة المودود»: فَذى: اسم إشارة للمفرد المؤنث مبنى على السكون، ويقال: ذى وذا بالاختلاس، وذِهِ بسكون الهاء. وتا بفتح التاء، وتى بالإشباع، وتِ بالاختلاس، وتهْ بالسكون، وتهِ بالإشباع، وته بالاختلاس. وروى المبرد فيها أوجهًا أخر فتقول: تَهْ بفتح التاء وسكون الهاء، وتَهى وتُهْ بضم التاء. وقيل: إنها لا تضم إلا للجمع. ويقال فى لغة مذحج: تَذْ وتَذِهْ وتذوك. ويضاف إلى الجميع فيقال: تيك وتيكم، وذيك وذيكم وذاكم وذلكم.

والتحفة: الكرامة على المعسر القريب على وجه التعظيم والإجلال بأنفس ما يكون وأرفعه، وإن كانت بدون ذلك يقال لها كرامة، وإن كانت بدون ذلك يقال لها مأدبة، وإن كانت بدون ذلك قيل لها دعوة.

قال النبى ﷺ: «الموت تحفة كل مؤمن».

ولما احتضر رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام فقال له: إن لكل قادم تحفة، فما تحفتى؟ قال: تحفتك أن الله يغفر لكل مؤمن وكل مؤمنة تحت أديم الأرض قد فجع وتألم بمصيبتك؛ فسر رسول الله ﷺ بذلك، ثم قال: ثم ماذا؟ قال: يكون خليفتك فى أمتك من بعدك حتى يظهرهم على من ناوأهم، ثم لا يجتمعون على ضلالة ما بقوا، ولا يعمهم الله بعذاب من عنده، ولا يسلط عليهم عدوًا ومن غيرهم فيستأصلهم؛ فطابت نفسه ﷺ حينئذ للموت[1].

---

(١) ما أشبه أن يكون هذا الكلام موضوعًا؛ فأمارات الوضع عليه بادية.
نعم صح فى حديث آخر أن الأمة لا تجتمع على ضلالة، وصح فى حديث آخر أن الله لا يسلط على المسلمين عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، والله أعلم.

وفي كتاب «البِشْرِ بخير البَشَر» وكتاب «عمل اليوم والليلة»: أن العباس رضى الله عنه دخل على النبى ﷺ فوجده مستبشرًا، فقال لأتحفنك يا عباس بتحفة هى خير لك من حمر النعم، فقال: وما هى فديتك من مبشر بخير؟ ودعا له، فقال: «إذا صليت العشاء أو الظهر فصل أربع ركعات تقرأ فيهن بالفاتحة وسورة الإخلاص، فإذا أتممت القراءة فقل: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم خمس عشرة مرة، وإذا ركعت فقل ذلك فى ركوعك عشرًا، وإذا رفعت فقله عشرًا، وإذا سجدت فقل ذلك فى سجودك عشرًا، ثم فى رفعك عشرًا، تفعل ذلك إلى آخر صلاتك فإذا سلمت فصل على محمد مائة مرة ثم اسأل الله حاجتك فإنها تقضى كائنة ما كانت، وليغفرن الله لك ذنوبك ولو كانت مثل زبد البحر، فصلها فى كل يوم مائة مرة، وإلا ففى كل جمعة، وإلا ففى كل شهر، وإلا ففى كل سنة، وإلا ففى عمرك مرة واحدة؛ فإنها صلاة التسبيح، هى حجاب من الفقر والبلايا وعذاب القبر، لا يفعلها مكروب إلا فرج كربه، ولا صاحب دين إلا قضى دينه»[1].

---

(١) حديث: «لأتحفنك يا عباس»... إلخ. هذه الصلاة تسمى صلاة التسبيح، والحديث أورده ابن الجوزى فى موضوعاته، وقال بعد إيراد طرق الحديث: هذه الطرق كلها لا تثبت:

الطريق الأول فيه صدقة بن يزيد الخراسانى قال أحمد: حديثه ضعيف، وقال البخارى: حديثه منكر.

والطريق الثانى فيه موسى بن عبد الله مجهول عندنا.

وأما الثالث ففيه موسى بن عبيدة قال أحمد: لا تحل عندى الرواية عنه، وقال يحيى: ليس بشىء. اهـ (٢/ ١٤٥).

وأورده الشوكانى فى موضوعاته تحت رقم ١٢٣ وقال: رواه الدارقطنى عن ابن عباس والديلمى.

وقال السيوطى فى اللآلئ ما حاصله: أنه أخرج حديث ابن عباس أبو داود وابن ماجه والحاكم إلى أن قال: وقال ابن حجر: لا بأس بإسناد حديث ابن عباس، وهو من شرط الحسن؛ فإن له شواهد تقويه، وقد أساء ابن الجوزى بذكره فى الموضوعات إلى أن قال: وقال العقيلى: ليس فى صلاة التسبيح حديث يثبت. وقال ابن العربى: ليس فيها حديث صحيح ولا حسن. انتهى كلام الشوكانى (١/ ٢٧) فوائد.

وقال فى اللآلئ نقلاً عن ابن حجر: والحق أن طرقه كلها ضعيفة، وأن حديث ابن عباس يقرب من درجة الحسن إلى أنه شاذ لشدة الفردية فيه وعدم المتابع والشاهد من وجه معتبر، ومخالفة هيئتها لهيئة باقى الصلاة.

قلت: فالحديث لما ذكر لا تقوم به الحجة، والله أعلم.

والمودود: هو المحبوب. قال الله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا﴾ [مريم:٩٦]، أى: يُلقى لهم محبة فى قلوب الخلق. تمت: أى كملت حالة كونها محيطة بالذى اهتم باستقصائه أى: اعتنى باستقصائه أى: بالإحاطة به الأدباءُ، وواحد الأدباء أديب، والأدب، بالتحريك: الظرف وحسن تناول المعانى على الوجه اللائق وافتتاحها من المبانى على وجه يأخذ بمجامع القلوب، ويؤتى به على أحسن أسلوب، حتى يحيط بالمرغوب المحبوب.

قال ﷺ: «إنَّ من البيان لسحرًا»[1]. معناه: أن اللفظ الفصيح البديع له تأثير فى القلوب والأرواح، كما أن السحر له تأثير بذلك؛ فيأخذ بمجامع القلوب والأرواح، حتى تناقد بذلك جميع الأشباح، فربما أنقذ اللفظ البليغ صاحبه من حبائل، فسلم على الشفا على الموت وتعين الهلاك والفوت.

ولما أتى بالحطيئة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما هجا الزبرقَان بن بدر، فأمر بحبسه؛ فجعل فى السجن، فمكث مدة، ثم أمر به عمر رضى الله عنه فجىء به، وأنشد فذكر حال بنيه وعياله من بعده، فلما سمع عمر ذلك من قوله بكى؛ فقال عمرو بن العاص: رحمك الله يا عمر ما أشفقك إذ تبكى لبكاء الحطيئة؛ فكان ذلك سببًا لإطلاقه بعد الهَمِّ بقتله.

ولما بلغ عبد الملك بن مروان ما أوغر صدره على الحجاج حتى هم بقتله والانتقام منه كتب إليه:

أما بعد: فقد بلغنى إسرافك فى الدماء وتبذيرك فى العطاء، وقد حكمت عليك بالحد، أما فى الخطأ فالدية، وأما فى العمد فالقَوَد، وفى الأموال أن تردها إلى مواضعها، ثم تعمل فيها برأْيِى؛ فإنما هو مال الله تعالى، ونحن فيها أمناء، فإن كنت أردت الناس لى فما أغنانى عنهم، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم، وسيأتيك منى أمران إن رشدت فيهما فلا يؤمنك إلا الله، ولا يوحشك إلا المعصيةُ، فإن أعطاك الله تعالى الظفر فلا تقتل ذا نفس معصومة ولا أسيرًا. وكتب له فى أسفل الكتاب: (من بحر الطويل)

---

(١) حديث: «إن من البيان لسحرا» صحيح، وتقدم تخريجه.

إذا أنت لم تترك أموراً كرهتُها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبُهْ

فإن ترمنى غفلةً قرشيةً ... فيا ربما قَد غص بالماء شاربُهْ

وإن ترمنى وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كله أنا صاحبُهْ

فلا تأمَنَنّى والحوادثُ جمةٌ ... فإنك مجزًى بالذى أنت كاسبُهْ

ولا تعدُ ما يأتيك منى وإن تَعُدْ ... يقمن به يومًا عليك نوادبُهْ

فلا تمنعنَّ الناس جمًا جمعتَه ... ولا تعطينْ ما ليس للناس واجبُهْ

فإنك إن تعطِ الحقوق فإنها ... نوافل شيء أنت لا شك واهبُهْ

فلما ورد هذا الكتاب على الحجاج كتب:

أما بعد: فقد ورد كتاب أمير المؤمنين يذكر إسرافى فى الدماء وتبذيرى فى الأموال، ولعمرى ما بلغت الغاية فى عقوبة أهل المعصية، ولا قضيت حقوق أهل الطاعة، فإن كان قتل العصاة إسرافًا وإعطاء المطيعين تبذيرًا فليغفر لى أمير المؤمنين ما سلف، فوالله ما أصبتُ القوم خطأ فأديهم، ولا ظلمتهم فأُقْتاد بهم، وما قتلت إلا لك، وما أعطيتُ إلا فيك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته.

وكتب أسفل الكتاب: (من بحر الطويل)

إذا أنا لم أبقى رضاك وأتقى ... أذاك فيومى لا توارى كواكبُهْ

وما لامرئٍ بعد الخليفة جُنةٌ ... تقيه من الأمر الذى هو راكبُهْ

إذا اقترف الحجاج فيك خطيئةً ... فقامت عليه بالصياح نوادبُهْ

إذا أنا لم أدن الشفيق لنصحه ... وأُقصِ الذى تَسرى إلىَّ عقاربُهْ

وأعط المواسى فى البلاء عطيةً ... لرد الذى ضاقت على مذاهبه

فمن يتقى بأسى ويرجو مودتى ... ويخشى غدًا والدهر جم نوائبه

والأمر إليك اليوم ما قلتَ قلتهُ ... وما لم تقله لم أقل ما يقَاربُهْ

ومهما أردتَ اليوم منى أردتُه ... وما لم ترده اليوم إنى مجانبه

فقف بى على حد الرضا لا أجوزه ... مدى الدهر حتى يُرجعَ الدرَّ حالبُهْ

وإلا فدعنى والأمــــور فإننى شفيـق رَفيق أحكمتـه تجـاربهُ

فلما انتهى الكتاب إلى عبد الملك قال: خاف أبو محمد صولتى، ولن يعود إلى أمر كرهتُه إن شاء الله، فمن يلمنى على محبته؟ اكتب إليه يا غلام: يرى الشاهد ما لا يرى الغائب، وأنت أعلى عينًا بما هنالك.

وكان الحجاج مع إسرافه من فصحاء الرجال وبلغائها ومن أكرم الناس، كان يقول: رسولى إلى الناس طلوع الشمس. وكان كلما طلعت الشمس يحشر الناس إليه فلا يذاد عن موائده أحد.

يروى أن الحسن بن الفضل بن العباس دخل على بعض الخلفاء وعنده كثير من أهل العلم، فأحب الحسن أن يتكلم، فزجره، وقال: صبى يتكلم فى هذا المقام؟! فقال: يا أمير المؤمنين، وإن كنت صبيًا فلستُ أصغر من هدهد سليمان ولا أنت أكبر من سليمان، قال له: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل:٢٢]، ثم قال: ألا ترى أن الله قد فَهَّمَ الحكم لسليمان عليه السلام؟ ولو كان بالكبر لكان داود أولى.

ولما أفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز أتته الوفود فإذا فيهم وفدُ الحجاز، فنظر إلى أصغرهم سنًا يريد أن يتكلم، فقال له: ليتكلم من هو أكبر منك فإنه أحق بالكلام، فقال: يا أمير المؤمنين، إنا قَد قَدمنا من بلد يحمد الله الذى منَّ بك علينا، ما أقدمنا عليك رغبة ولا رهبة؛ أما الرغبة فقد أمنا بك فى منازلنا، وأما الرهبة فقد أمنا جورك بعدلك، فنحن وفد الشكر والسلام.

فقال له عمر: عظنى يا غلام؛ فقال: يا أمير المؤمنين، إن ناسًا غرهم حلم الله وثناء الناس عليهم؛ فلا تكن ممن غره حلم الله وثناء الناس عليه؛ فتزل قدمك؛ فتكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال:٢١].

فنظر فى سن الغلام فإذا له اثنتا عشرة سنة، فأنشد عمر رضى الله عنه: (من بحر الطويل)

تعلم فليس المرء يولدُ عالـمًا وليس أخو علم كمن هو جاهِلُ

فإن كبير القوم لا علم عنده صغيرٌ إذا التفتْ عليـه المحافِلُ

حكى أن هرقل ملك الروم كتب إلى معاوية بن أبى سفيان يسأله عن الشىء ولا شىء، وعن دين لا يقبل الله غيره، وعن غراس الجنة، وعن مفتاح الصلاة، وعن صلاة كل شىء، وعن خمسة فيها الروح ولم تركض فى أصلاب الرجال وأرحام النساء، وعن رجل لا أب له، وعن رجل لا قوم له، وعن قبر سار بصاحبه، وعن قوس قزح وما هو؟ وعن بقعة طلعت الشمس عليها مرة واحدة، وعن الظاعن الذى ظعن مرة واحدة ولم يظعن قبلها ولا بعدها، وعن شجرة نبتت من غير ماء، وعن شىء يتنفس ولا روح له، وعن اليوم وأمس وغد وبعد غد، وعن البرق وضوئه، والرعد وصوته، وعن المحو الذى فى القمر.

فقال بعض البلغاء لمعاوية: لست هناك؛ إن هذا مما لا تهونه البلاغة، فلو كان كذلك كُفيتَهُ، ولكنه لا يروى إلا عن نبى، ولا يطعم جناه إلا عن وصى، ومتى أخطأت فى شىء من ذلك سقطت من عينه، وكان سبة على الإسلام وأهله، فاكتب إلى ابن عباس يخبرك عن هذه المسائل. فكتب إليه فأجابه:

أما الشىء فالماء؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠] وأما لا شىء فإنها الدنيا، تبيد وتفنى.

وأما دين لا يقبل الله غيره فدين الإسلام. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأما مفتاح الصلاة فالله أكبر.

وأما غراس الجنة فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وأما صلاة كل شىء فسبحان الله وبحمده.

وأما الخمسة الذين لهم أرواح ولم يركضوا فى أصلاب الرجال وأرحام النساء فآدم وحواء وعصا موسى وكبش إسحاق وناقة صالح.

وأما الرجل الذى لا أب له فالمسيح.

وأما الرجل الذى لا قوم له فآدم.

وأما القبر الذى سار بصاحبه فالحوت سار بيونس فى البحر.

وأما قوس قزح فأمان الله لعباده من الغرق. وكانت العرب فى الجاهلية تسميه قوس قزح فسماه رسول الله ﷺ قوس الله، وقال: لا تقولوا قوس قُزح؛ فإن قزح الشيطان، ولكن قولوا قوس الله[1].

وأول ما ظهر زمن الطوفان لما شكا نوح عليه السلام إلى الله كثرة الطوفان أوحى الله إليه: إنى مخرج لك يدًا، فإذا رأيتها فاعلم أن الطوفان قد انقلع، وهو أمان لك ولذريتك من الغرق والصواعق إلى يوم القيامة.

وأما البقعة التى خرجت عليها الشمس مرةً واحدة فالبحر حين انفلق لبنى إسرائيل.

وأما الظاعن الذى ظعن مرة ولم يظعن قبلها ولا بعدها فجبل طور سيناء كان بينه وبين الأرض المقدسة أربع ليال، فلما عصت بنو إسرائيل أطاره الله بجناحيْن، فنادى منادٍ: إن قبلتم التوراة كشفته عنكم وإلا ألقيته عليكم؛ فأخذوا التوراة مذعنين؛ فرده الله إلى موضعه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الأعراف: ١٧١] الآية.

وأما الشجرة التى نبتت من غير ماء فشجرة اليقطين التى أنبتها الله على يونس.

وأما الذى تنفس بلا روح فالصبح، قال الله تعالى: ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ [التكوير: ١٨].

---

(١) حديث: «لا تقولوا قوس قزح»... إلخ. موضوع، أخرجه أبو نعيم والخطيب من طريق زكرياء عن حكيم الحبطى، وعنهما ابن الجوزى فى موضوعاته، وقال: هذا حديث لم يرفعه غير زكريا، قال أحمد ويحيى: ليس بشىء، وقال يحيى مرة: ليس بثقة، وكذلك النسائى، وقال ابن المدينى: هالك (١/ ١٤٤).
كما أورده الألبانى فى موضوعاته تحت رقم ٨٧٢ وقال: موضوع. وقد تعقب السيوطى فى اللآلئ ابن الجوزى فقال: أخرجه أبو نعيم فى الحلية، وقال النووى فى الأذكار: يكره أن يقال: قوس قزح، واستدل بهذا الحديث، وهذا يدل على أنه غير موضوع (١/ ٨٧)، هذا هو دليل السيوطى رحمه الله على أن الحديث غير موضوع، وهو ليس دليلاً.
قلت: وقد أورد الحديث السخاوى تحت رقم ١٢٩٧ وصاحب الكشف تحت رقم ٣٠٣٩ وسكتا عليه، والله أعلم.

وأما اليوم فعمل، وأما أمس فمثل، وأما غد فأجل، وأما بعد غد فأمل.

وأما البرق فمخاريق بأيدى الملائكة يضربون بها السحاب.

وأما الرعد فاسم الملك الذى يسوق السحاب، وصوته وزجره هو ما تسمعون، قال الله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد:١٣].

وأما المحو الذى فى القمر فقال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢]، ولولا ذلك المحو لم يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل.

ودعا بعض الأدباء لصديق له فقال: تمم الله عليك ما أنت فيه، وحقق ظنك فيما ترجوه، وتفضل عليك بما لم تَحتَسبه.

ويروى أن الغضبان بن القبعثرى كان من أحذق الأدباء وأنجب النجباء، وكان الحجاج قد وجد عليه فهم بقتله فبعث إليه، وكان يسمع بذكائه وجودة أدبه. ولما مثُل بين يديه سأله عن مسائل يمتَحنه بها، من جملتها أن قال له: من أكرم الناس؟ قال: أفقَهم فى الدين، وأصدقهم لليمين، وأبذلهم للمسلمين، وأكرمهم للفقير، وأطعمهم للمسكين.

قال: فمن ألأم الناس؟ قال: أطولهم جفوةً، وأدومهم صبوة، وأكثرهمَ خلوة، وأشدهم قسوة.

قال: فمن أشجع الناس؟ قال: أضربهم بالسيف، وأكرمهم للضيف.

قال: فمن أجبن الناس؟ قال: المتأخر عن الصفوف، المنقبض عن الزحوف، المرتعش عند الوقوف، المحب لظلال السقوف، الكاره لضرب السيوف.

قال: فمن أثقل الناس؟ قال: المتعقد فى الكلام، الضنين بالسلام، المهذار فى الكلام، المبقبق[1] على الطعام.

قال: فمن خير الناس؟ قال: أكثرهم إحسانًا، وأقومهم ميزانًا، وأدومهم غفرانًا، وأوسعهم ميدانًا.

---

(١) البقباق والمبقبق: كثير الكلام عند الطعام.

قال: لله أبوك، فكيف يعرف الرجل الغريب أنه حسيب أو غير حسيب؟ قال: أصلح الله الأمير، إن الرجل الحسيب يدلك على حسبه أدبه وعقله وشمائله وعزة نفسه وكثرة احتماله وبشره وحسن مداراته على أصله، فالعاقل البصير يعرف ذا الحسب بشمائله، والنذلَ الجاهل بجهله ورذائله، فالرجل الحسيب كالدرة النفيسة إذا وقعت عند من لا يعرفها أرذلها، وإذا نظر إليها العقلاء أكرموها وعرفوها؛ فهى عندهم لمعرفتهم بها نفيسة.

قال الحجاج: لله أبوك، فمن العاقل والجاهل؟ قال: أصلح الله الأمير، العاقل الذى لا يتكلم هذرًا، ولا ينظر شزرًا، ولا يضمر غدرًا، ولا يطلب عذرًا، والجاهل المهذار فى كلامه، المنان بطعامه، الضنين بسلامه، المتطاول على إمامه، الفاحش على غلامه.

قال: لله أبوك، فمن الحازم الكيِّس؟ قال: المقبل على شأنه، التارك لما لا يعنيه.

قال: فمن العاجز؟ قال: المعجب برأيه، الملتفت إلى ورائه.

قال: هل عندك من النساء خبر؟ قال: أصلح الله الأمير، إنى خبير بشأنهن إن شاء الله، قال: أخبرنى عن أمهات الأولاد. قال: أصلح الله الأمير، إن النساء بمنزلة الأضلاع: إن رمتَ تعديل إحداهن لانكسرت، وكسرها طلاقها، وإن تركتها انتفعت بها وبها اعوجاجُها، ولهن جور لا يصلح إلا على المداراة، فمن داراهن انتفع بهن وقَرت عينه، ومن شارهن كدرهن؛ فتكدر بذلك عيشه، وتكدرت عليه حياته، وتنغصت لذاته. فأكرمهن أعفهن، وأفخر أحسابهن العفة، فإذا زلن عنها فهن أنتن من الجيفة.

ثم أمر للغضبان بجائزة سنية، وأتحفه بتحفة جليلة، وخلع عليه؛ فانصرف الغضبان سالمًا من الحجاج وحبائله، وزاد على ذلك أن أحسن إليه بأنواع الإحسان، وما ذلك إلا لأدبه وما أوتيه من سحر البيان.

وفى حديث الزبرقان: دخل محمد بن عبد الملك بن صالح على المأمون، وقد كانت ضياعهم أخذت، وكان أديبًا شاعرًا لبيبًا، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، محمد بن عبد الملك بين يديك، سليل نعمتك، وغصن من أغصان دوحتك، أتأذن له بالكلام؟ فقال: تكلم؛ فقال:

الحمد لله رب العالمين، ولا إله إلا الله رب العرش العظيم، وصلى الله والملائكة على محمد خاتم النبيين، ونستمتع الله بحياة ديننا ودنيانا، ورعاية أقصانا وأدنانا ببقائك يا أمير المؤمنين، ونسأل الله أن يمد في عمرك من أعمارنا، وأن يقيك الأذى بأسماعنا وأبصارنا، فإن الحق لا يعفو أثره، ولا يتهدم مناره، ولا ينْبَتُّ حبله، ولا يزول أصله، ما دمت بين الله وبين عباده، والأمين على بلاده. يا أمير المؤمنين، هذا مقام العائذ بظلك، الهارب إلى كنفك، الفقير إلى رحمتك وعدلك، من انتابته النوائب وسهام المصائب، وكَلَب الدهر وذهاب النعمة، وفي نظر أمير المؤمنين ما يفرج به كربة المكروب، ويبرد غليل القلوب، وقد نفذَ أمر أمير المؤمنين في الضياع التي أفادناها نِعَمُ آبائه الطيبين، ونوافل أسلافه الراشدين، وقد قُمتُ مقامي هذا متوسلاً إليك بآبائك الطيبين، بالرشيد خير الهداة الراسخين، والمهدي ناصر المسلمين، والمنصور منكل الظالمين، ومحمد خير المحمدين بعد خاتم النبيين، مزدلفًا إليك بالطاعة التي أفرع عليها غصني، وحنكت بها سني، وريش بها جناحي، متعوذًا من شماتة الأعداء، وحلول البلاء، ومعاودة الشدة بعد الرخاء، يا أمير المؤمنين، قد مضى جدك المنصور وعمك صالح بن علي جدي وبينهما من الرضاع والنسب ما علمه أمير المؤمنين، وقد أثْبَتَ الله الحق في قضائه، وأبرمه في قدره، وأجراه على أربابه، إن الدهر ذو اغتيال، وقد ينقلب حالا بعد حال؛ فارحم يا أمير المؤمنين الصبية الصغار، والعجائز الكبار، الذين سقاهم الدهر كدرًا ومرًا بعد حلو، وهبْتَنَا ذلك نِعمُ آلائك التي غذيتنا بها صغارًا وكبارًا، وشبانًا وأشياخًا، وأمشاجًا في الأصلاب، ونطفًا في الأرحام، فقدمنا في القرابة بحيث قَدمنا الله منك في الرحم، فإن رقابنا قد ذلت لسخطك، ووجوهنا قد عنت لطاعتك، فأقلنا عثراتنا يا أمير المؤمنين إن الله قد سهل بك الوعور، وجلا بك الديجور، وملأ من خوفك القلوب والصدور، بك يردع الفاسق، ويقمع بك المنافق، فارتبطتْ نعم الله عندك بالعفو والإحسان، فإن كل راع مسئول عن رعيته، وإن النعم لا ينقطع المزيد فيها حتى ينقطع الشكر عليها. يا أمير المؤمنين، إنه لا عفو أعظم من عفو إمام قادر على مذنب عاثر، وقد قال جل جلاله: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢]، حفظ الله أمير

المؤمنين بستره الضافى وصنعه الكافى، ثم أنشد: (من بحر الوافر)

أميـر المـؤمنين أتاك ركبٌ ... لهم قُربى وليس لهم تـلادُ

هم الصدر المقدم من قريش ... وأنت الرأس تتبعها العباد

لقد طابت لك الدنيا فذلت ... وأرجو أن يطيب لك المَعَادُ

فكيف تنالكم لحظات عينى ... وكيف يقل عندكم السهاد

فاستحسن المأمون كلامه، وأمر له بالخلع الفاخرة والجوائز السنية، وأمر برد ضياعه، وقرب منزلته وأدناه، ودفع إليه من الأموال ما غناه.

وكان أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان يعجبه السمر ومنازعة الرجال فى فنون الأدب، وجلس يومًا وعنده جماعة من خواصه وأهل مسامرته، فقال: أيكم يأتينى بحروف الهجاء فى بدنه وله ما تمنى؟.

فقام إليه سويد بن علقمة فقال: أنا يا أمير المؤمنين؛ قال: هات: قال: أنف، بطن، ترقوة، ثغر، جمجمة، حلق، خد، دماغ، ذكر، رقبة، زند، ساق، شفة، صدر، ضلع، طحال، ظهر، عين، غببة[1]، فم، قفاء، كف، لسان، منخر، نغنوغ، هامة، وجه، يد، وهذا آخر حروف الهجاء، والسلام على أمير المؤمنين.

فقال بعض أصحاب عبد الملك: يا أمير المؤمنين، أنا أقولهم من جسد الإنسان مرتين؛ فضحك عبد الملك وقال لسويد: أسمعت ما قال؟ قال: أنا أقولها أصلح الله الأمير ثلاثًا ثلاثًا، فقال عبد الملك: هات ولك ما تتمناه؛ فابتدأ يقول: أنف، أسنان، أذن ـ بطن، بصر، بز ـ ترقوة، تمرة[2]، تينة ـ ثمر، ثنايا، ثدى ـ جمجمة، جنب، جبهة ـ حلق، حنك، حاجب ـ خد، خاصرة، خاسر ـ دبر[3]، دماغ، دبر ـ ذكر، ذقن، ذراع ـ رقبة، رأس، ركبة ـ زند، زردمة[4]، زب ـ ولما بلغ هناك ضحك عبد الملك حتى استلقى على ظهره، ثم قال: ـ ساق، سرة،

---

(١) الغبب: اللحم المتدلى الحنك، هذا إذا كانت الكلمة بالغين. أما إذا كانت بالعين المهملة فهى العيبة: الكرش.

(٢) تمرة: تمرة اللسان: طرفه.

(٣) لم يثلث الدال فى النسختين، وكرر الدبر.

(٤) الزردمة: موضع الابتلاع.

سبابة ـ شفة، شعر، شارب ـ صدر، صدغ، صلعة ـ ضلع، ضفير، ضرس ـ طحال طرة، طيز ـ ظهر، ظفر، ظبح ـ عين، عنق، عاتق ـ غببة، غلصمة، غنة ـ فم، فك، فؤاد ـ قلب، قفا، قدم ـ كف، كتف، كعب ـ لسان، لحية، لوح ـ مرفق، منخر، منكب ـ نغنوغ، ناب، نثير ـ هامة، هيئة، هيف ـ وجه، وجنة، ورك ـ يمين، يسار، يافوخ. ثم نهض مسرعًا فقبل الأرض بين يدى عبد الملك، فقال: والله لا يزيدون عليها شيئًا، أعطوه ما تمنى، ثم أجازه وأنعم عليه وبالغ فى الإحسان إليه.

ومن مآثر الأدب أنه يهيج على السلوك، وتستفتح به خزائن الملوك:

أما إثارته على السلوك فأكثر من أن تُحصى وأوسع من أن تستقصى، وفى كتب التصوف منه ما يشفى ويكفى؛ ولذلك اتخذوا السماع ليحركوا به الساكن وليثيروا به الكامن.

وأما استفتاح خزائن الملوك به فمنه ما حكاه صاحب المستطرف فى «جامعه»، وما حكاه أبو بكر الطرطوشى فى «سراج الملوك»، ولنأت منه بما يوافق الغرض للإمتاع من غير طول ممل ولا ترك مخل.

من ذلك أن معن بن زائدة، وكان من الأجود، ومن السادة الأمجاد، وكان عاملا على العراق، فحضر[1] بابه شاعر أديب، فأقام مدة يريد الدخول عليه، فلم يتهيأ له ذلك، فقال يومًا لبعض الخدم: إذا دخل الأمير البستان فعرفنى، فلما دخل أعلمه، فكتب الشاعر بيتًا، ثم نقشه على خشبة وألقاها فى الماء الذى يدخل البستان، وكان معن جالسًا على القناة، فلما رأى الخشبة أخذها، فإذا فيها مكتوب: (من بحر الطويل)

أيا جودَ معنٍ ناج معْنًا بحاجتى فليس إلى معنٍ سـواك رسـولُ

فقال: من الرجل صاحب هذه الخشبة؟ فأتى به إليه، فقال: كيف قلت؟ فأنشده البيت، فأمر له بعشرة بدر، فأخذها وانصرف. ووضع معنٌ الخشبة تحت بساطه، فلما كان اليوم الثانى نظر إليها ودعا بالرجل فأمر له بمائة ألف درهم،

(١) الصواب أن يقول: حضر؛ لأنها خبر (أن).

فلما كان اليوم الثالث فعل معه مثل ذلك، فتفكر الرجل، وخاف أن يأخذ منه ما أعطاه، فخرج من البلد بما معه، فلما كان اليوم الرابع طلب الرجل ليعطيه فلم يوجد، فقال معن: لقد ساء ظنه، ولقد هممت أن أعطيه حتى لا يبقى فى بيت مالى درهم ولا دينار.

وفيه يقول القائل: (من بحر الطويل)

يقولــون معنٌ لا زكـاة لماله ... وكيـف يزكى المـال من هو باذله

إذا حال حول لم يجد فى دياره ... من المــال إلا ذكره وجمائله

تراه إذا مـــا جئته متهلِّلا ... كأنك تعطيـه الذى أنـت سائله

تَعَـوَّدَ بسـط الكـف حتى لو انه ... أراد انْقباضًا لم تُطعـه أناملُهْ

ولو أن ما فى كفه غير نفسه ... لجـاد بهـا فليتق الله سائله

ومن كلامه: (من بحر الوافر)

دعينى أنهب الأموال حتى ... أُعـف الأكرمين عن اللِّئَامِ

وكان يزيد بن المهلب من الأجواد، وله أخبار فى الجود عجيبة: من ذلك ما رواه عقيل بن أبى طالب قال: لما أراد يزيد بن المهلب الخروج إلى واسط أتيته فقلت له: أيها الأمير إن أردت أن تأذن لى فأصحبك، قال: إذا قدمت واسطَ فأتنا إن شاء الله، فسار، وأقمت؛ فقال لى إخوانى: اذهب إليه، فقلت: كان فى جوابه ضعف، فقالوا: أتريد من يزيد جوابًا أكثر من هذا؟ قال: فسرت حتى قدمت عليه، فلما كان الليل دعيت إلى السمر، فتحدث القوم حتى ذكروا الجوارى، فالتفت يزيد إلى فقال: إيه يا عقيل، فقلت: أفاض القوم فى ذكر الجوارى فأما الأعزبون فلم يقولوا، فقال: إنك لن تبقى عزبًا، فلما رجعت إلى منزلى إذا بخادم قد أتى ومعه جاريةٌ وبدرةٌ وعشرة آلاف درهم وفرش ست، وفى الليلة الثانية كذلك، فمكثت عشر ليالٍ أوتى كل ليلة بما أوتيت به فى الليلة الأولى والثانية، حتى أخجلنى كثرة العطاء والتحف، فأتيته بعد الليلة العاشرة فقلت: أيها الأمير، قد والله أغنيت وأوفيت، فإن رأيت أن تأذن لى فى الرجوع فأكبت عدوى وأسر صديقى؛ فقال: أخيرك بين خلتين: إما أن تقيم فنوليك، أو ترجع فنغنيك،

فقلت: أو لم تغنني أيها الأمير؟ فقال: إنما هذا أثاث المنزل وتحفة النازل. فنالني من فضله ما لا أقدر على وصفه.

وقيل: إن الحجاج حبسه في خراج وجب عليه مقداره مائة ألف درهم، فجمعت له، وجاء الفرزدق يزوره في السجن، فقال للحاجب: استأذن لي عليه، فقال: إنه في مكان لا يمكن الدخول عليه، فقال الفرزدق: إنما أتيته متوجعًا لا مادحًا؛ فأذن له، فأنشد: (من بحر الطويل)

أبا خالد ضاقت خراسان بعدكم ... وقال أولو الحاجات أين يزيد
فما قطرت بالشام بعدك قطرة ... وما اخضر بالمروين بعدك عودُ
وما لسرور بعد عزلك بهجة ... وما لجواد بعد جودك جود

فقال يزيد للحاجب: ادفع إليه المائة الألف التي جمعت ودع الحجاج ولحمي يفعل به ما يشاء، فقال الحاجب للفرزدق: ومن هذا خفت، ثم دفعها إليه.

وقال مروان بن الجموح، وكان أديبًا ماهرًا: أمر لي المتوكل بمائة وعشرين ألفًا وخمسين ألفًا ورواحل كثيرة، فقلت أبياتًا في شكره، فلما بلغت قولي: (من بحر الطويل)

فأمسك مدى كفيك عني ولا تزد ... فقد خفت أن أطغى وأن أتكبرا

تلميحًا منه إلى قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦، ٧] فقال له الأمير: والله لا أمسك حتى أعرفك بجودي، فأمر له بضياع تقوم بمائة ألف ألف.

وقال أبو العيناء: تذاكر الناس السخاء، فاتفقوا على أن أسخى الناس بني المهلب في الدولة الأموية، وعلى البرامك في الدولة العباسية، وأن أحمد بن داود أسخى من الجميع وأفضل.

وسئل إسحاق الموصلي عن سخاء أولاد يحيى بن خالد بن برمك فقال: أما الفضل فيرضيك فعله، وأما جعفر فيرضيك قوله، وأما محمد فيفعل بحسب ما يجد.

وفى يحيى يقول القائل: (من بحر الطويل)

سألت النـدى هل أنت حرٌّ فقال لا ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة توارثنى عن والد بعـد والد

وفى الفضل يقول القائل: (من بحر الطويل)

إذا نزل الفضل بن يحيى ببلدة رأيتَ بها زهر السماحة ينبت
فليس بسعال إذا سيل حاجة ولا بمُكِب فى ثرى الأرض ينكت

وفى محمد يقول القائل: (من بحر الطويل)

سألت الندى والجود مالى أراكما تبدلتما عزًا بذل مـؤبَّد
وما بال ركن المجد أمسى مهدمًا فقالا أصبنا بابن يحيى محمد
فقلت فهلا متُّما بعد موته وقد كنتما عبديه فى كل مشهد
فقالوا أقمنا كى نُعزى بفقده مسافة يوم ثم نتلوه فى غد

وقال على كرم الله وجهه: من كانت له إلىَّ حاجة فليرفعها إلى فى كتاب لأصون وجهه من المسألة.

وجاءه أعرابى فقال له: يا أمير المؤمنين، إن لى إليك حاجة الحياء يمنعنى أن أذكرها، فقال له: خطها بالأرض، فكتب: إنى فقير، فقال: يا قنبر أعطه حلتى، فقال الأعرابى: (من بحر البسيط)

كسوتنى حلةً تبلى محاسنها فسوف أكسوك من حسن الثنا حللا
إن الثناء ليَحْيَا ذكرُ صاحبه كالغيث عم نداه السهلَ والجبلا
لا تزهد الدهر فى عرف بدأت به كل امرئ سوف يجزى بالذى فعلا

فقال: يا قنْبرُ، زده مائة دينار، فقال: يا أمير المؤمنين، لو وفرتها على المسلمين لأصلحت بها من شأنهم، فقال: مه يا قنبر، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اشكروا لمن أثنى عليكم، وإذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[1].

(١) حديث: «اشكروا لمن أثنى عليكم»... إلخ. لم أجد هذا الجزء منه، أما الجزء الأخير والذى =

ويروى أن أبا عطاء السِّندى وفد على نصر بن سيار بخراسان مع رفيقين له، فأنزله وأكرمه، فقال له: ما عندك يا أبا عطاء؟ قال: وما عسى أن أقول وأنت أشعر العرب؟! غير أنى قلت بيتين، قال: هات ما قلت، قال: (من بحر البسيط)

يا طالب الجـود إمَّا كنت تطلبـه فاطلب على باب نصر بن سيار

الواهب الخيل تَعـدو فى أعنتهـا مع القيان وفيهـا ألف دينـار

فأعطاه ألف دينار ووصائف، وكساه كسوة جليلة، فقسم ذلك بين صاحبيه ولم يأخذ لنفسه منها شيئًا، فبلغ ذلك نصرًا، فقال: قاتله الله من سُدى ما أفخم قدره! ثم أمر له بمثل ذلك.

ووقف أعرابى على ابن عمر فقال له: يا قمر البصرة وشمس الحجاز، يا بن ذروة العراق، ويا بن بطحاء مكة، برحت بى الحاجة؛ فلذت بآمال نعمائك، فامنحنى على قدر الطاقة لا على قدر المجد والشرف والهمة؛ فأمر له بمائتى ألف دينار.

وسمع المأمون قول عمارة بن عقيل: (من بحر الطويل)

أأتْركُ إن قَلَّتْ دراهمُ خالد زيارتَـــه إنى إذًا لَلَئيـمُ

فبلغ قوله المأمون فقال: أو قلت دراهم خالد؟ فبعث المأمون إليه بأموال، فبعثها خالد بن يحيى إلى عمارة، قال: هذه قطرة من بحارك.

ولما عزل عبد الرحمن بن الضحاك عن المدينة بكى وقال: والله ما بكائى جزعًا من العزل، ولا أسفًا على الولاية، ولكن أخاف أن يلى هذه الوجوه من لا يعرف لها حقًا.

وقال الغنوى: أشرف عمر بن هبيرة يومًا من قصره فإذا هو بأعرابى على

= هو «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه» فهو ضعيف جدًا، رواه ابن ماجه بسند ضعيف، والطبرانى فى الأوسط له وسنده كذلك ضعيف، والبزار وغيرهم، وعنهم صاحب الكشف تحت رقم (١٨٠)، والسخاوى فى مقاصده تحت رقم (٥٠) وقال بعد أن أورد جميع طرق الحديث: وبهذه الطرق يقوى الحديث، وإن كانت مفرداتها كما أشرنا إليه ضعيفة، ولذا انتقد شيخنا ـ يعنى ابن حجر ـ وشيخه ـ يعنى العراقى ـ رحمهما الله الحكم عليه بالوضع (١/ ٣٤) مقاصد، والله أعلم.

قلوصه، فقال لحاجبه: إن أرادنى هذا فأت به، فأتاه الحاجب فسأله، فقال له: قصدت الأمير، فدخل به عليه، فلما مثل بين يديه قال: ما حاجتك؟ فقال الأعرابى:

أصلحك الله قَلَّ ما بيدى ولا أطيق العيالَ إذ كثروا
أناخ دَهْرٌ علىَّ كَلْكَلَهُ فأرسلونى إليك وانتظروا

فأخذته الأريحية فجعل يهتز ثم قال: «أرسلونى إليك وانتظروا»؟ إذًا والله لا تجلس حتى ترجع إليهم، ثم أمر له بألفى دينار.

وقال أبو العيناء: ضقت ضائقة شديدة، فكتمتها عن الأصدقاء، فدخلت يومًا على يحيى بن أكثم القاضى فقال: إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ فى القصص، ولما قام قمت معه إلى دار أمير المؤمنين، فلما دخلنا عليه أجلسه وأجلسنى، ثم قال: يا أبا العيناء، بالألفة والمحبة، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة؟ فأنشدت: (من بحر البسيط)

لقد رجوتُك دون الناس كلهم وللرجـــاء حقوقٌ كلها تجب
إلا تكن لى أسبابٌ أعيش بها ففى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال: يا سلامة انظر إلى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين، فقال له: ادفع له مائة ألف درهم، وابعث له مثلها فى كل شهر، فلما كان بعد اثنى عشر شهرًا مات المأمون؛ فبكى عليه أبو العيناء حتى قرحت عيناه، فدخل عليه بعض أولاده فقال: يا أبتاه بعد ذهاب العين ما الذى ينفع البكاء؟ فقال مجيبًا له: (من بحر الكامل)

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى تؤذنا بذهـاب
لم تبلغا المعشار من حقيهمـا فقد الشباب وفرقة الأحبـاب

وقال سلمة بن عياش، وكان أديبًا لبيبًا، فى جعفر بن سليمان: (من بحر الطويل)

فما شم أنفى ريح كف شممتها من الناس إلا ريح كفك أطيَب

فأمر له بألف دينار ومائة مثقال مسك ومائة مثقال عنبر.

وكان عبد العزيز بن عبد الله مضيافًا جوادًا، فتغدى عنده أعرابى يومًا، فلما كان من الغد مر على بابه فرأى الناس فى الدخول على هيئاتهم بالأمس، فقال: أكل يوم يطعم الأميرُ الناس؟ قالوا: نعم؛ فأنشأ يقول: (من بحر الخفيف)

كل يوم كأنه عيد أضحى　　　عند عبد العزيز أو عيد فطر

وله ألف جفنة مترعـات　　　كل قـدر تَعدهـا ألف قـدر

فلما بلغه قوله بعث إليه فأجزل له فى العطاء.

وتعشى الناس ليلة عند سعيد بن العاص، فلما خرجوا تركوا فتى من أهل الشام قاعدًا، فقال له سعيد: ألك حاجة؟ وأطفأ الشمعة كراهة أن يخجل الفتى، فذكر أن أباه مات وخلف دينًا وعيالا، وسأله أن يكتب إلى أهل دمشق ليقوموا ببعض إصلاح حاله، فدفع له عشرة آلاف دينار، وقال: لا أدعك تقاسى الذل على أبوابهم.

ودخل رجل على علىّ بن سليمان الوزير فقال له: سألتك بالله العظيم ورسوله الكريم إلا أن أجرتنى من خصمى؛ قال: ومن خصمك حتى أجيرك منه؟ قال: الفقر، فأطرق الوزير ساعة، وقال: قد أمرت لك بمائة ألف درهم، فأخذها وانصرف فلما بلغ أثناء الطريق أمر الوزير برده إليه، فقال له: سألتك بالله العظيم وبرسوله الكريم أن تأتينى كلما جاءك خصمك معنفًا، فأكون لك عليه معينًا ومشرفًا.

وحكى أبو قدامة القرشى قال: كنا مع يزيد بن مزيد يومًا، فسمع صائحًا يصيح: يا يزيد بن مزيد، فأرسل إليه من يطلبه، فأتى به إليه، فقال: ما حملك على هذا الصياح؟ فقال: فقدتُ دابتى ونفدتْ نفقتى وسمعت قول الشاعر:

إذا قيل من للجود والمجـد والندى　　　فناد بأعلى الصوت يا يزيد بن مزيد

فأمر له بفرس أبلق كان معجبًا به ومائة دينار وخلعة سنية، فأخذها وانصرف.

واعلم أن الأدباء وإن كانت شعراء الجاهلية أذكر منهم وأقوالهم فى العربية حجة دون أقوال الأدباء، فإن الأدباء أغوص منهم على المعانى النفيسة، والحقائق الدقيقة، وأكثر حكمة، وأغزر معنى، وأرق حاشية، وأكثر فى البديع غاشية. ومن

الأدباء من أجمع أهل هذا الفن على الاحتجاج بقوله كالعجاج وأبى تمام وأبى الطيب المتنبى وأبى فراس، وأما غير هؤلاء من الأدباء فلا يحكون قوله حجة.

ومن أحسن ما قاله الأدباء فى الغوص على المعانى الدقيقة قول أبى الطيب المتنبى فى ديوانه المشهور: (من بحر الخفيف)

عللانى فإن بيض الأمانى ... فنيت والظلام ليس بفانى

إن تناسيتما وداد أناس ... فاجعلانى من بعض ما تذكران

ثم بعدها بأبيات نسيتها[1].

ومن هذا القبيل أيضًا قوله: (من بحر البسيط)

الفاعل الفعل لم يفعل لشدته ... والقائل القول لم يترك ولم يقل

والباعث الجيش قد غالت عجاجته ... ضوء النهار فصار الظهر كالطفل

الجو أضيق ما لاقاه ساطعها ... ومقلة الشمس فيه أحير المُقل

ينال أبعد منها وهى ناظرة ... فما تقابله إلا على وجَلِ

قد عرض السيف دون النازلات به ... وظاهر الحزم بين النفس والغيل

ووكل الظن بالأسرار فانكشفت ... له ضمائر أهل السهل والجَبَلِ

هو الشجاع بُعَيْدَ البخل من جبن ... وهو الجواد بعيد الجبن من بخل

يعود من كل فتح غيْرَ مفتخر ... وقد أغذ إليه غير مُحْتَفِلِ

ولا يجير عليه الدهر بغيته ... ولا تحصن درع مهجةَ البَطَلِ

إذا خلعتَ على عرض له حللا ... وجدتها منه فى أبهى من الحُلَلِ

لذى الغباوة من إنشادها ضرر ... كما تضر رياحُ الورد بالجُعَلِ

وللمتنبى أيضًا: (من بحر الطويل)

علينا لكَ الإسعادُ إن كان نافعًا ... بِشَقّ قلوبٍ لا بشق جيُوبِ

فرب كئيب ليس تَنْدَى جفُونُه ... ورب كثير الدمع غيرُ كئيبِ

---

(١) لم أجد الأبيات التى ذكر الشيخ أنه نسيها فى دواوين أبى الطيب المطبوعة.

تسلَّ بفكر فى أَبَيْـكَ فإنما ... بكيت فكـان الضَّحْكُ بعد قَريب[1]

إذا استقبلتْ نفس الكريم مصابَها ... بخبث ثَنتْ فاستَدْبَرَتْهُ بطيب

وللواجـدِ المكروبِ من زفَراته ... سُكونُ عزاءٍ أو سكون لُغوب[2]

وكم لكَ جَدًا لم تر العينُ وجهَهُ ... فلم تَجْرِ فى آثارِهِ بغُرُوبِ

فدَتْكَ نفوسُ الحاسدين فإنها ... معذبةٌ فى حضرةٍ ومغيبِ

وفى تعب من يحسدُ الشمس نُورَها ... ويجهد أن يأتى لَها بِضَرِيبِ

وقال أبو العتاهية من قصيدة أنشدها بين يدى أمير المؤمنين محمد المهدى بن أمير المؤمنين المنصور بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس، وذلك أن المهدى أذن فى بعض الأيام بالدخول عليه للخاصة والعامة، فدخل جملة من أعيان الأجناد والأمراء، وشرذمة من العلماء والشعراء فيهم بشار بن برد العُقيلى، وأشجع السلمى وزياد الأعجم وأبو العتاهية، فلما دخل القوم وجلسوا على مراتبهم، واطمأن بهم المجلس، واتفق أن جلس بشار بإزاء أشجع، فقام أبو العتاهية متهيئًا للإنشاد، فسمع بشار حسه، فقال: يا أشجع، من هذا؟ قال: فقلت له: أبو العتاهية، فقال: أتراه ينشد فى هذا المحفل العظيم؟ فقلت: أحسب أنه سيفعل، فاستأذن فى الإنشاد، فأذن له المهدى، فابتدأ قائلا: «ألا ما لسيدتى مالها» فنخسنى بشار بمرفقه، فقال: أرأيت ويحك أجسر من هذا يبتدئ هذا الابتداء فى مثل هذا المحفل؟! فلما انتهى إلى قوله: (من بحر المتقارب)

أتته الخلافة منقادةً ... إليه تجرجر أذيالها

فلم تك تصلح إلا له ... ولم يك يصلح إلا لها

ولو رامها أحـدٌ غيرَه ... لزُلْزِلَتِ الأرض زلزالها

ولو لم تطعه بنات القلوب ... لما قبل الله أعمالها

---

(١) أبيك بفتح الباء وسكون الياء: يريد أبويك، وهى لغة فصيحة، والمعنى تسل عن هذا المفقود بالتفكير فى مصابك بأبويك، فقد بكيت لفقدهما ثم ضحكت بعد ذلك، وكل حزن سيذهب عما قريب.

(٢) اللغوب: الإعياء، والمعنى: لابد للمحزون من سكون، فإما أن يسكن عزاء وإما سكن إعياء.

فقال بشار معجبًا بإنشاده: انظر ويحك يا أشجع، هل بقى الخليفة على فراشه أم طار عنه طربًا؟!

فانصرف الناس من ذلك المجلس ولم يحظ أحد بجائزة ولا فاز بعائدة غير أبى العتاهية.

وأبو العتاهية هذا هو إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزى بالولاء، وكان جده من سبى عين التمر، وهى بلدة من أعمال العراق فتحت فى خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وكان أمير الجيش الذى افتتحها عكرمة بن أبى جهل المخزومى، ثم نزل الكوفة، وبها نشأ أبو العتاهية، فلما كبر وتأدب وقرأ وتهذب انتقل إلى بغداد، وكان مع كونه من المتقين النجباء معدودًا من جملة الشعراء الخبثاء، أكثر فى الهجاء، فاشتهر بين الناس ذكره، وسار فى الخافقين مسير الشمس شعره، فهو من شعراء الدولة العباسية المكثرين ومن نجبائها المبرزين، وإن عد من المولدين، ويقال: إنه لم يجتمع ديوانه عند أحد لكثرته، وكان يتصرف فى أنواع الشعر من التشبيب والغزل والهجاء والمديح، ثم تنسك فى آخر عمره، فتزهد، فانقطع عن غير الوعظ، وعدل إلى القول بالزهد والوعظ، فأجاد وأربى على من تقدمه من الزهاد.

ولأبى الحسن على بن بسام البغدادى من قصيدة يرثى بها الأمير عبد الله بن سليمان الخزاعى قال:

قد استوى الناس ومات الكمال ... وصاح صرف الدهر أين الرجال

هذا أبو القاسم فى نعشه قوموا ... انظروا كيف تزول الجبال

ثم قال أيضا: (من بحر الطويل)

أودى محمد بعدما ضربت به ... فى فضله الآمال والأمثال

ملك تنافست العلا فى عمره ... وتنافست فى يومه الآجال

من لم يعاين سير نعش محمد ... لم يدر كيف تسير الأجبال

ومن هذا قول أبى الطيب المتنبى من قصيدة يرثى بها عبد الله بن محمد بن إسحاق التنوخى: (من بحر الكامل)

ما كنت أحسب قبل دفنك فى الثرى أن الكواكب فى التراب تَغور
ما كنت، آمل قبل نعشك أن أرى رضوى على أيدى الرجال يسير[1]
خرجوا به ولكل باك خلفه صعقات موسى يوم دك الطور
والشمس فى كبد السماء مريضة والأرض واجفة تكاد تمور
وحفيف أجنحة الملائك حوله وعيون أهل اللاذقية صور[2]

ومن مثل هذه القصائد أخذ بعض المحدثين يرثى القاضى أبا بكر بن محمد بن الباقلانى رحمه الله: (من بحر البسيط)

انظر إلى جبل تمشى الرجال به وانظر إلى القبر ما يحوى من الشرف
وانظر إلى صارم الإسلام منغمدًا وانظر إلى درة الإسلام فى الصدف

انتهى.

وفى وصفه إياها بالإحاطة بما اعتنى الأدباء بجمعه مدح لها بذلك، وإغراء بتعاطيها وتحصيلها[3].

* * *

• ثم قال رحمه الله تعالى:

١٦٤ ـ وَلا بُدَّ من حَمْدِ الإله فَإنَّه لَدَى الْبَدْءِ والإنها سَنًى وَسَنَاءُ

قوله: ولا بد: أى لا محيد ولا محيص من حمد الله. والحمد حقيقةً تبليغ الثناء للمتفضل إجمالا بلا علة وإلا فشكر. والإنهاء، بالمد: إبلاغ الشىء نهايته، وهذا النوع فى علم البديع يقال له براعة المختم: وهو أن يأتى المصنف أو الناظم بكلمة تدل على الختم من غير تكلف. والسنى: الضوء. والسناء: الرفعة. فكأنه يقول: لا محالة ولا انفكاك من الثناء على الله بالجميل فى بدء كل ذى بال وانتهائه؛ تلميحًا إلى قوله ﷺ: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو

(١) رضوى: اسم جبل قرب المدينة المنورة.
(٢) صور: جمع أصور، وهو المائل.
(٣) يشير إلى منظومة ابن مالك هذه.

أجذم»[1] أى: ناقص قليل البركة، وكما لا بد من البدء بالحمد على وجه الاقتداء كذلك لا بد منه عند الختم على وجه الشكر والثناء؛ فإنه ضوء ورفعة لما بدئ وختم به، وما لا بد منه واجب، وحمد الله على نعمه التى من أجلها الإلهام للتأليف، والإعانة عليه، والتسديد فيه، والتأهيل له، وختمه كذلك شرعًا لا عقلا خلافًا للمعتزلة.

فإن قيل: الإخبار بوجوب الحمد لا يكفى فى تأدية ما وجب عليه من حمد الله على نعمة الانتهاء، أى الثناء عليه بصفة من صفاته بأن يذكرها فى مقابلة ما وجب عليه من ذلك.

فالجواب أن فى ضمن الإخبار بوجوب حمد الله سبحانه الإعلام بأنه تعالى أهل للحمد، وبأن له وصفًا جميلا يكون ذكره حمدًا، وأنه من أول البدء والانتهاء موصوف بذلك الوصف الجميل، وذلك وصف بالجميل واعتراف بأنه المنعم بما ذكر، والتحدث بالنعم شكر وإن كان بعده صمت.

وأول من قال «الحمد لله» بعد الحمد الذى مدح الله به نفسه أزلا آدم عليه السلام، وأول من نطق بكلمة الشهادة ودعا إليها نوح عليه السلام، وأول من أظهر التكبير محمد ﷺ؛ فتحت له بسببه جميع الأقاليم، وأتى بمفاتيح خزائن الأرض، فصار سنة المجاهدين إلى يوم القيامة، وسببًا لدفع الجان والغيلان.

قال ﷺ للذى اشتكى له من العُمَّار: «ارفع صوتك بالتكبير فى أركان دارك فإنهم لن يعودوا إليها».

وقال ﷺ: «إذا رأيتم الحريق فكبروا فإن الله يطفئه»[2].

---

(١) حديث «كل أمر ذى بال . . . . إلخ» حسن رواه أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة مرفوعًا، وفى رواية لأبى داود: «كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أبتر».
وقد أورده صاحب الكشف تحت رقم ١٩٦٤ وقال: قد ألف فيه السخاوى جزءًا . . إلى أن قال: رواه عبد القادر باللفظ الأول وزاد: «والصلاة على فهو أقطع أبتر ممحوق من كل بركة»، والله أعلم.

(٢) «إذا رأيتم الحريق فكبروا». . . إلخ. رواه الطبرانى عن عمرو بن شعيب، ورواه البيهقى بلفظ: «استعينوا على إطفاء الحريق بالتكبير».
كما أورده السخاوى تحت رقم ٦٣ فى مقاصده، وصاحب الكشف تحت رقم ٢٣٤، والله أعلم.

وكذلك يشرع التكبير عند معاينة العدو ثلاثًا، يقول: اللهم إنى أدرأ بك فى نحورهم، وأعوذ بك من شرورهم، اللهم اهزمهم وزلزلهم.

وفى رواية: اللهم منزل الكتاب، هازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم. وزاد بعض الحكماء قراءة ﴿وَالشَّمْسِ...﴾ و ﴿إِذَا زُلْزِلَت...﴾ إلى ﴿أَشْتَاتًا﴾ ثم يقول: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه:١١١] شاهت الوجوه، ثلاثًا، يد الله فوق أيديهم، وسطوته على عاديهم، اللهم انصر عبادك، وأصلح بغلبتنا على أهل الفساد بلادك، واحفظنا لنبيك ودينك، واحفظه فينا، وارزقنا النصر على أعدائنا حتى تقر بذلك أعين أشياعنا، أنت المستعان وعليك اتكالنا ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

وعند التذكية والنحر يقال بعد التسمية، تنوى بذلك أن الله أكبر من كل كبير، يعظم بالنحر والذبح؛ لأن الكفرة كانوا يعظمون أصنامهم وأوثانهم بالنَّحر والذبح، فيلطخونها بالدماء والخلوق(١) تعظيمًا وإجلالا، وكانت قريش تلطخ البيت تعظيمًا له على أنه بيت الله فلما جاء الإسلام نهى الله عن ذلك فقال: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الحج:٣٧]، أى يصعد إليه ويتقبله، كما قال الرسول ﷺ: «إذا تصدق أحدكم بصدقة أخذها الله بيمينه. فيربيها له كما يربى أحدكم فلوه»(٢) ومعنى تربيته إياها مضاعفتها أو زيادتها من فضله، والله واسع عليم.

وتجب عند افتتاح الصلاة، وهى تكبيرة الإحرام، أى التى يدخل بها المصلى حرمة الصلاة، أو التى يدخل بها المصلى فى حرم الله، أو التى يحرم بها على المصلى كل فعل ينافى الصلاة؛ ومعناها أن كل من يعظم بركن من أركان الصلاة فالله أكبر منه، بل هو المستحق لذلك لكونه أكبر، بل هو الحق وما سواه الباطل،

---

(١) الخلوق: نوع من الطيب جيد الرائحة. والخلوف، بالفاء: عكسه.

(٢) حديث «إذا تصدق أحدكم بصدقة»... إلخ. صحيح رواه البخارى ومسلم، ولفظ مسلم فى إحدى رواياته: «ما تصدق أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة، فتربو فى كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله». (٣/ ٨٥) مسلم.

لأن الأمم منها من يعظم الملوك بالركوع، ومنها من يعظمهم بالإشاره باليد، ومنها من يعظم بالإشارة بالرأس وبالسجود، ومنها من يعظم بالقيام، ومنها من يعظم بالجلوس، وفى جميع الحالات يثنون عليهم، ويطلبون الحوائج منهم، فكأن المكَبِّر يقول: المستحق لذلك على الحقيقة هو الله الواحد القهار الذى لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، ولا موجود إلا ما صنع، ولا مرئى إلا ما اخترع، فهو المعبود فى كل زمان، والمذكور بكل لسان، والمشكور فى كل حين، وهو الذى خلق الكافر، وخلق كفره فيه، وجبله عليه وطبع عليه بطابع المنع، وخلق المؤمن وخلق إيمانه فيه وزينه فى قلبه وحببه إليه، وطبع عليه بطابع الإقبال والنفع، قال الله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٨٤]، جعلنا الله ممن تولاه ولم يكله إلى نفسه ولا سواه.

* * *

● **ثم قال رحمه الله:**

١٦٥ـ وَخَيْرَ صَلاةٍ أَسْتَدِيمُ عَلَى الَّذِى   هُــداهُ لأَدْواءِ الْقُلُوبِ دَوَاءُ

وخيرَ صلاة، بالفتح: مفعول «أستديم»، صلاة: مضاف إليه ما قبله. على الذى: جار ومجرور متعلق «بأستديم» والموصول محذوف صدر صلته أى: على الذى هو دَواء. وقال: «هُدَاهُ لأدواء القلوب» لأن النبى ﷺ سبب الهداية لا هو الهادى، ولا هو عين الهداية، وليس الهُدَى هداه، وإنما الهُدَى هُدَى الله.

قال ﷺ: «إنما بعثتُ داعيًا وليس إلى من الهداية شىء».

وقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقال له فى شأن عمه: ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] وهو أبو طالب ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦] وهو حمزة والعباس.

وقوله: «أستديم» أى: أطلب دوام صلاتى عليه، أو مطلق الصلاة لدوامها بدوام بقاء أمته، وأسأل الله أن يديم صلاته عليه.

لأنه قد استُشْكِلَ دعاؤنا للنبى ﷺ بالصلاة، وإنما يكون الدعاء من الأعلى إلى الأدنى، بخلاف الطلب فإنه يكون من الأدنى إلى الأعلى.

فالجواب: أنه الله تبارك وتعالى أمرنا بالصلاة عليه إكرامًا لنا وإجلالا لرسوله، فلما أمرنا بذلك لم تكن صلاتنا من تلقاء أنفسنا كفئًا له ﷺ فأحلناها على الله، لتكون الصلاة من رب قاهر على نبي طاهر؛ فحصل مقصود الشارع، وهو كرامتنا بأن تكون صلاتُنا تبعًا لصلاة العلى الأعلى، أو مقتدين فى ذلك برب الأرض والسماوات العلى، إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦]، فالصلاة عليه ﷺ من خواصه التى لا توازى، ومزاياه التى لا تُنَازَى(١)؛ إذ لم يعطها نبى قبله، وإنما غايتهم وقصاراهم السلام، كما قال تعالى: ﴿سَلامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]، ﴿سَلامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات:٧٩]، ﴿سَلامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾ [الصافات: ١٢٠].

فإن قلت: فما معنى قوله ﷺ: «كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم». فالمراد أن الصلاة على إبراهيم ليست بصلاة مُتَعَاطَاة ورد بها النص المحتوم، واستوجبها الخصوص والعموم، ولكنها صلاةُ رحمة وتشريف وتقرب وتعريف كما لسائر الصالحين من الأنبياء والمؤمنين. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب:١٤٣]، كما كان ﷺ يصلى على من أتاه بالزكاة، كما ورد أنه ﷺ قال: «اللهم صلِّ على آل أبى أوفى»(٢)، فتكون حينئذ بمعنى عموم الرحمة.

فإن قلت: فما معنى قولنا: «كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» وقد انعقد الإجماع وورد النص وانتفى الدفاع أنه ﷺ أفضل من جميع العالمين، وقد ثبت بالضرورة أن المشبه بالشيء لا يقوى قوته؟

فالجواب: أن التشبيه منقلب، أى منعكس، فكأننا نقول: اللهم صل على إبراهيم وعلى آل إبراهيم صلاة مثل صلاتك التى خصصت بها محمدًا وميزته بها من بين جميع أجناس العالمين، أو لأن إبراهيم عليه السلام أكرم محمدًا ﷺ بوراثة شرعته ومنهاجه، فقال تعالى فى ذلك ممتنًا عليه ومادحًا له ومشرفًا لدينه على جميع الأديان: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٦١].

---

(١) لا تنازى: أى لا تنازع.

(٢) حديث «اللهم صل على آل أبى أوفى» صحيح رواه مسلم وغيره.

وقيل: إنه لما كان النبى ﷺ دعوته جازاه أن أشركه معه فى الصلاة عليه التى هى من أعظم الكرامات وأوضح المزايا والعلامات.

يروى أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] سأله أصحابه عن كيفية الصلاة التى أمرهم الله أن يصلوا بها عليه، فقال لهم: «قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وارحم محمدًا وآل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صليت ورحمت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، فى العالمين إنك حميد مجيد»[١].

فذكر ذلك اجتهادًا منه، وتكرمة لوالده إبراهيم، وشيخه وقدوته، فاعتنى بإبراهيم آخرًا كما اعتنى به إبراهيم أولا فى قوله: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩]، فبين الله تعالى قول إبراهيم بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:١٢٨]، فكأنه يقول: إن الرسول الذى اختاره إبراهيم ودعا أن يكون من أنفسكم قد بعثت به إليكم؛ فأكرموه واتبعوه؛ لكونه حريصًا عليكم كافركم ومؤمنكم، عزيز عليه ما يعنتكم أى: يثقل عليه ما يشق عليكم أو يغلبكم، بالمؤمنين رءوف شديد التعطف عليهم، كثير الترحم بهم، ثم التفت من خطاب القوم إلى خطابه ﷺ فقال: فإن تولوا بأن لم يعزروك بما استوجبته من الصفات والأخلاق التى تستوجب ذلك منهم إليك، ولم يتبعوك من علمهم بصدقك وأمانتك، وشرف موضعك وكرم آبائك من ولادتهم إياك فَقل: حسبى الله، أى: كفانى الله حافظًا ونصيرًا ومؤيدًا وخبيرًا ومانعًا ومجيرًا، وقد آتانى عليكم ملكًا كبيرًا، إذ أنزل علىَّ كتابًا منيرًا، وجعل روح القدس لى صاحبًا ووزيرًا، فستعلمون أينا أحسن منقلبًا ومصيرًا.

قوله: «لأدواء القلوب دواء» فالأدواء: جمع داء، وهى الأمراض التى تخالط القلوب من الشكوك والشبه. والدواء: ما يستشفى به، ولاَ شِفَاءَ إلا ما جاء من

---

(١) حديث «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وباقى الستة.

وهذا اللفظ الذى أورد الشيخ ليس من بين الألفاظ المتفق عليها، والله أعلم.

بينات كتابه الذى هدى به، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس:٥٧] فهو ماحق لجميع ذلك، مزيل لما فيه من الدلائل الظاهرة، والبراهين القاهرة، والحجج المفحمة الملجمة؛ جعلنا الله ممن جعله حجةً له ولا جعلنا ممن جعله حجةً عليه، آمين.

ثم تنوعت الصلاة، وتنوعتْ رواياتها بحسب المنافع والحاجات:

فمنها ما أخرجه البيهقى من طريق أبى أمامة أن النبى ﷺ قال: «رغم أنف رجل ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ، ورغم أنف رجل أدرك والديه فلم يدخل الجنة»[1].

وأخرج أيضًا بإسناد لا بأس به أنه قال: «من أصابه كرب أو غم أو ألمت به ملمة أو أراد أن يسأل من الله حاجة فليقل: اللهم صل صلاة تامة وسلم سلامًا تامًّا على نبى تُفْرَجُ به الكروب، وتزال به الهموم، وتدرك به الرغائب، وتقضى به الحوائج، وتنال به الآمال، وسلم عليه وعلى آله».

وأخرج أبو داود فى صحيحه أن المدمن على هذه الصلاة لا يصيبه عظيم بلاء، وهى: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تنجينا بها من جميع الأهوال والآفات، وتقضى لنا بها جميع الحاجات، وتطهرنا بها من جميع السيئات، وترفعنا بها عندك أعلى الدرجات، وتبلغنا بها أقصى الغايات من جميع الخيرات، فى الحياة وبعد الممات.

ومما جاء فى عمل «اليوم والليلة» اللهم صل وسلم على سيدنا محمد النبى الأمى والرسول العربى وعلى آله وصحبه وسلم مائة مرة، فإن قالها فى ليل كان فى ضمان الله حتى يصبح، أو فى نهار كان فى ضمان الله حتى يمسى، ولم ترد له دعوة، وكتب له الأجر والثواب حتى يمسى أو يصبح، وصلى الله عليه بكل

---

(١) حديث: «رغم أنف رجل.. إلخ» رواه مسلم بلفظ: «رغم أنف ثم رغم أنف ثم رغم أنف من أدرك أبويه عند الكبر أو أحدهما أو كليهما ولم يدخل الجنة» (٢٥٥١) مسلم، كما رواه بهذا اللفظ أحمد، ورواه بلفظ أطول الترمذى والحاكم، وقال الترمذى: حسن غريب. وأخرجه السيوطى تحت رقم ٤٤٥٩، ولفظ مسلم تحت رقم ٤٤٦٠، والله أعلم.

صلاة صلاها عشر مرات، ولم يبق عليه من سيئاته إلا ما تكفره الأعمال الصالحات.

ومما روى بسند واهٍ أن السبعة منها تكون فدية لصاحبها من النار، اللهم صلِّ وسلم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد صلاة لا نهاية لها كما لا نهاية لكمالك.

ويروى بأسانيد مستحسنة أن النبى ﷺ قال: «من صلى على واحدة صلى الله عليه عشرًا، ومنْ صلى عليَّ عشرًا صلى الله عليه مائة، ومن صلى عليَّ مائة صلى الله عليه ألفًا، ومن صلى عليَّ ألفًا حرم الله جسده على النار»(١).

ومما قيل أن الواحدة منها تماثل الألف، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تستغرق العَدَّ وتحيط بالحد، صلاة لا نهاية لها ولا نفاد أبد الآباد، وسلم عليه كما ينبغى له وكما هو أهله، حبيبك محمد أشرف العالمين ذكرًا، وأكثرهم لديك ذخرًا، وأكملهم يوم القيامة مجدًا وفخرًا، وأعلاهم عندك سؤددًا وقدرًا، عيبة علمك، ومدينة حلمك، الناطق بالفضل، والحاكم بالعدل، والضارب فى مرضاتك بالنصل، أكرم الأنْبياء مولدًا وخيرهم محتدًا، من كرمتَه قبل الوجود، وسميته بالمحمود، وأكرمت آدم من أجله بالسجود، وقلبته فى أصلاب الركع السجود، حتى أخرجته من الوجود إلى الوجود، فشققت فى الصبا صدره، ورفعت فى العالمين ذكره، ووضعت عنه وزره، وهو أمينك المأمون، وسرك المكنون، وعلمك المخزون، الذى فتحت به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفا حتى أقاموا واستقاموا فى مرضاتك، قد جدوا فَما خانوا، اللهم أبلغه المقَام المحمود الذى وعدته، وأتمم عليه نوره ودرجته، واجعل فى أعلى الوسيلة منزلته، وارزقنا اتباعه واجعلنا من أشياعه، وشفعه فينا، وأغننا برحمتك من شفاعتك،

---

(١) حديث: «من صلى على واحدة صلى الله عليه بها عشرا» صحيح إلى هذا القدر، وبهذا اللفظ رواه مسلم وأبو داود والنسائى وأحمد، وأخرجه السيوطى فى جامعه رقم ٨٨٠٩ وصاحب الكشف تحت رقم ٢٥١٧.
أما باقيه فلم أجده، وورد لفظ: «من صلى على مرة لم يبق من ذنوبه ذرة». وهو موضوع كما قال الصغانى، والله أعلم.

ومتعنا بقربه، وأمتنا على محبته[(١)]، واسقنا من حوضه المورود، واجعلنا فى ظل لوائه الممدود، يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما يريد، يا أرحم الراحمين، ياذا الجلال والإكرام.

ومما روى عنه ﷺ أن من قاله حلت له شفاعته يوم القيامة وبعد الأذان خاصة: «اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والشرف والدرجة الرفيعة، وابعثه المقام المحمود الذى وعدته إنك لا تخلف الميعاد»[(٢)].

* * *

● **ثم قال رحمه الله تعالى:**

١٦٦ ـ وأزْكَى[(٣)] سَلامٍ أَجْتَنِيهِ لآلِه وأَصْحابِهِ إذْ هُمْ بِذَاكَ حِجَاءُ

قوله: وأزكى: الواو: حرف عطف، وهو من باب عطف العام على الخاص، وهو الإلحاق والاستحقاق، بعكس عطف الخاص على العام، فإنه لتأكيد الشرف وعلو المنزلة وزيادة التخصيص. أزكى: من أوزان المبالغة، وهو منصوب بالاشتغال. وللزكاء معان، منها: الطهارة، ولعلهُ المقصود هنا، ومنها الكثرة، ومنها الحلية، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ [الكهف:١٩]، ومنها نفى العيب والخلل، تقول: رجل زكى: إذا كان سالم العرض والخيم، ومنه تزكية الشاهد، ومنها زكا الشيء: إذا بورك فيه، ومنها زكا الرجل: إذا صلح ما بينه وبين الله قال الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور:٢١]، فهو أفعل تفضيل من زكى، بالكسر، ورُوِى بالفتح، وهى لغة القرآن

---

(١) فى النسخة (ب): صحبته.

(٢) حديث: «اللهم رب هذه الدعوة»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان وغيرهما، ولفظه عند البخارى: «من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت سيدنا محمدًا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقامًا محمودًا الذى وعدته حلت له شفاعتى يوم القيامة» (كتاب الأذان ـ باب الدعاء عند الأذان).

وليس فى شيء من طرقه (الدرجة الرفيعة)، وهى عند مسلم، والذى أورد الشيخ لفظ مسلم إلا كلمة (الشرف) فليست فى شيء من طرقه، والله أعلم.

(٣) فى النسخة (ب): وأزكى ثناء بدل سلام وهى التى عليها الشرح.

وأهل الحجاز تقول: زكا يزكو زكاء وتزكية: إذا طهر وصفا، ومنه الزاكيات لله: وهى الأعمال الطاهرة، أو التى تضاعف الأجور عليه، أو تتظاهر البركات من أجلها.

فإن قلت: ما معنى قوله: «وأزكى ثناءٍ»؟ فهل فى الثناء ما ليس بزكى؟

قلت: نعم، ما بلغ حد الإطراء كثناء النصارى على عيسى ابن مريم حتى نسبوه إلى الربوبية والبنوة، وكثناء الشيعة على علىٍّ رضى الله عنه حتى أشركوه مع النبى ﷺ فى نُبُوَّته، وقالوا: هو بمنزلة هارونَ من مُوسى[(١)]. ثم زادوا غلواً فقالوا: إنما قصد جبريلُ علياً ثم غلط فى محمد ﷺ؛ فأفضى ذلك بهم إلى بطالات وجهالات وأكاذيب على الله ورسوله، حتى كفروا أصحاب النبى ﷺ بتَركهم استخلافه، فمنهم من يقول: لا إله إلا الله على فارس الله، ولا يذكرون للنبى ﷺ رسالة؛ ولذلك قال النبى ﷺ لأصحابه: «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، ولكن قولوا: عبد الله ورسوله»[(٢)].

وقال لعلى رضى الله عنه: «يهلك فيك رجلان: محب مفرط، ومبغض مفرط، وإنك فى هذه الأمة بمنزلة عيسى ابن مريم، فإن اليهود نسبُوه إلى أنه ابن زِنًى»[(٣)] بغضًا له وحسدًا، والنصارى قالوا: ابن الله إفراطا وغلوًا، تَعالى الله عن قولهم عُلوا كبيرًا.

---

(١) قوله: «هو بمنزلة هارون من موسى» ليس من كلام الشيعة، وإنما هو من كلام رسول الله ﷺ فى حديث متفق على صحته رواه الشيخانُ والترمذى وأحمد، ولفظه عند البخارى: «قال النبى ﷺ لعلى: أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه ليس نبى بعدى» (٧/ ٧١) فتح ـ كتاب فضائل الصحابة، ورقم (١١٢/ ٨).

(٢) حديث: «لا تطرونى كما أطرت النصارى»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى فى كتاب «أحاديث الأنبياء ـ باب واذكر فى الكتاب مريم).

(٣) حديث: «يهلك فيك رجلان»... إلخ. ضعيف رواه البزار وأبو يعلى بأوسع من لفظ الشيخ، وأخرجه الهيثمى فى مجمعه بلفظ: «قال على: دعانى رسول الله ﷺ فقال: إن فيك مثلاً من عيسى: أبغضه اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزل الذى ليس به، ألا وإنه يهلك فى اثنان: محب مفرط يقرظنى بما ليس فى، ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى»... إلخ. وقال: أخرجه البزار وأبو يعلى وفى إسنادهما الحكم بن عبد الملك وهو ضعيف، وفى إسناد البزار محمد بن كثير القرشى الكوفى وهو ضعيف (١٣٣/ ٩) والله أعلم.

قَوله: أجتنيه أيْ: أقتطفه، وهو من اجتناء الثمر، وهو اقتطافه رطبًا، فكنى بذلك عن اجتنائه الحسنات بالثناء على آله.

واختلف فى آله فقيل: هم كل من أسلم من بنى هاشم والمطلب. وقيل: بل آله كل من أسلم من بنى عبد مناف. وقيل: كل من أسلم من قُصى وزهرة. وقيل: كل من أسلم من مرة. وقيل: كل من أسلم من بنى كعب. وقيل: كل من أسلم من بنى لؤى. وقيل: كل من أسلم من بنى غالب. وقيل: آله سائر قريش. وقيل: آله جميع خندف. وقيل: بل جميع مضر. وقيل: كل نزار. وقيل: جميع بنى معد، فيدخل فى ذلك قُضاعة وخثعم وأنمار وبجيلة وخزاعة.

وقيل: آله كل بنى إسماعيل؛ لخبر: أتى جبريلُ إبراهيمَ عليه السلام وهو بالحجر، وبين يديه إسماعيلُ عليه السلام، فمسح ظهره وبارك عليه، ثم قال له: إن ابنك هذا أبو شعوب حتى يكون منهم النَّبىُّ الكريم الذى يبعثه الله من هذا الحرم، ويتم به الكلمة، ويقيم به الملة، وهو أحب خلق الله إلى الله، يصطفيه على العالمين، يجتزئ[1] بالكسرة واللقمة، ولا يبالى من لقى، أكثر جنوده الملائكة، فيسير النصر أمامه حيثما سار مسيرة شهر، اسمه محمد، وأمته الحمادون؛ يحمدون الله على كل حال، ويكبرونه على كل شرف، يكتفون باليسير من الرزق، ويدخلهم الله الجنة بالقليل من العمل، أناجيلهم فى صدورهم، وقربانهم دماؤهم، يجاهدون الأمم الضالة حتى يجاهدوا الأعورَ الدجالَ، هم رعاة الشمس والقمر والظلال لإقامة الصلاة، طوبى لتلك الوجوه والقلوب التى أخلصت دينها لله، دويهم فى مساجدهم بالذكر والتلاوة كدوى النحل، يوحدون الله فى جو السماء على الصوامع والمنارات، واختارهم الله على الأمم كما اختار نبيهم على الأنبياء، هم شهداء الله فى أرضه، والشهداء بينَ الأنبياء وأممهم يوم عرضه، يَصفُّونَ فى الصلاة كصفوف الملائكة، ويصفون فى الجهاد كصفوفهم فى الصلاة، يدخلون قبورهم بذنوبهم، ويخرجون وقد محصت بدعاء صلحائهم، افتضَحت الأمم عندهم ولم يفتضحوا عندها، على رءوسهم تقوم الساعة، وإليهم انتهت الأمانة. «مثالهم فى الأمم قبلهم كمثال رجل استأجر أجيرًا ليعمل له النهار على

(١) كذا فى (ب) يجتزئ، ومعناها: يكتفى. أما فى (أ) فلا توجد هذه الكلمة.

أن يعطيه قيراطًا فعمل إلى الظهر ثم قال للمستأجر: إنى سئمت العمل فلا حاجة لى بقيراطك، ثم استأجر أجيرًا ليعمل له فيما بقى من النهار على أن يعطيه قيراطًا، فلما كان العصر قال للمستأجر: إنى سئمت العمل فلا حاجة لى بقيراطك، ثم استأجر أجيرًا ليعمل له فيما بين العصر والمغرب على أن يعطيه قيراطين، فعمل فيما بين العصر والمغرب فأعطاه قيراطين، فذلك مثال أمة محمد ﷺ فيما تقدمها من الأمم، فهم أقل عملاً، وأكثر أجرًا»[1].

وقيل: كل من آمن به واتبعه من جميع أجناس بنى آدم إلى يوم القيامة لقوله ﷺ: «أنا جد كل تقى ولو كان عبدًا حبشيًا، وأنا برىء من كل شقى ولو كان حرًا قرشيًا»[2].

قوله: وأصحابه: وهو كل من أدرك زمنه ﷺ، وصاحبه ولو ساعة، غزا معه أو لم يغز، ومات على ذلك[3].

وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر الصديق على المختار المرتضى، ثم عمر بن الخطاب، وقد توقف مالك رضى الله عنه فى تفضيل عثمان على علىّ فقال: لا يستبعد أن يكون على أفضل من عثمان، فمن فضله على عثمان أو فضل عثمان عليه بعد أن أقر لكل واحد منهما بفضله وسابقته وأعطى لكل منهما ما يستحقه من توليه ومودته فما ظلم ولا جار.

---

(١) حديث: «مثالهم فى الأمم قبلهم»... إلخ. حديث صحيح رواه البخارى وغيره فى (كتاب الإجارة - باب الإجارة من العصر إلى الليل)، وأوله عنده: «مثل المسلمين واليهود والنصارى»... إلخ. وفى آخره: «فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور».

(٢) حديث: «أنا جد كل تقى»... إلخ. لا أصل له؛ سئل عنه الحافظ السيوطى فقال: لا أعرفه. ذكر ذلك فى كتابه الحاوى للفتاوى (٢/ ٨٩)، كما أورده الألبانى فى كتابه (سلسلة الأحاديث الضعيفة) وقال لا أصل له (١/ ٢١) وأورده كذلك صاحب الكشف تحت رقم ٦١٥ وقال: لا يعرف. ووروده بلفظ: «آل محمد كل تقى» وفيه قال السيوطى أيضا: لا أعرفه. وقال مرة: رواه الديلمى وتمام بأسانيد ضعيفة، ولفظ تمام: «سئل رسول الله ﷺ: من آل محمد؟ فقال: كل تقى من أمة محمد، ثم قرأ ﴿إن أولياؤه إلا المتقون﴾.

قلت: ومع أن للحديث شواهد منها ما هو صحيح فلا يصح الاحتجاج به، والله أعلم.

(٣) لا بد من إضافة كلمة (مسلمًا) ليتم تعريف الصحابى، وبدونها فالتعريف ناقص.

وكان الصحابة على عهد النبى ﷺ يقولون والنَّبىُّ بين ظهرانيهم: أفضل الأمة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وعمر، فيسمع ذلك رسول الله ﷺ فلا ينكره.

وكان رسول الله ﷺ كثيرًا ما يقول: «إن الله أيدنى بوزيرين من أهل الأرض ووزيرين من أهل السماء: أما وزيراى من أهل الأرض فأبو بكر وعمر، وأما وزيراى من أهل السماء فجبريل وميكائيل»[1].

وكان ﷺ يقول: «أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر»[2].

ويروى أنه بينما النبى ﷺ فى ملأ من أصحابه يقُصُّ عليهم أنْبَاء ما قَد سلف إذ قال: «بينما رجل على بقرة إذ ضربها، فالتفتت عليه فقالت: ليس لهذا خلقنى ربى إنما خلقنى لإثَارة الأرض، فقالوا: أبقرة تتكلم؟ فقال النَّبى ﷺ: آمنت أنا وأبو بكر وعمر»[3]. وما هما ثَمَّ. ومعنى ذلك أنهم آمنوا مع التعجب، وأبو بكر وعمر يؤمنان من غير تعجب.

ولما افتتح أصحاب رسول الله ﷺ الشام والعراق، فرأت اليهود والنصارى حسن سيرتهم وعدلهم ووفاءهم وقيامهم بالدين، وزهدهم فيما فتح على أيديهم من كنوز كسرى وقيصر، وإنفَاقهم إياها فى سبيل الله، وحسن طاعتهم للقائم بالأمر بدون حُجَّاب ولا حجاب، وتَعاطفهم فيما بينهم، وإذلالهم للأمم الكافرة،

---

(١) حديث: «إن الله أيدنى بوزيرين من أهل الأرض»... إلخ. موضوع، رواه الطبرانى بلفظ: «إن الله أيدنى بأربعة وزراء نقباء، قلنا: يا رسول الله، من هؤلاء الأربع؟ قال: اثنين من أهل السماء، واثنين من أهل الأرض»... إلخ. كما رواه البزار بالمعنى، وعنهما الهيثمى فى مجمعه (٩/٥١).

قلت: فيه عند الطبرانى محمد بن مجيب الثقفى وهو كذاب، وعند البزار فيه عبد الرحمن بن مالك بن مغول وهو كذاب، والله أعلم.

(٢) حديث: «أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر»... إلخ. رواه الطبرانى بلفظ: «لا غنى لى عنهما إنما منزلتهما من الدين منزلة السمع والبصر». وفى أخرى (إنما مثلهما) بدل (منزلتهما)، وهو طرف من حديث طويل، وفيه محمد مولى بنى هاشم قال الهيثمى: لا أعرفه، وفى الرواية الأخرى راوٍ لم يسم (٩/٥٢) هيثمى، والله أعلم.

(٣) حديث: «بينما النبى ﷺ فى ملأ من قومه»... إلخ. متفق على صحته رواه الشيخان والترمذى، وأوله عند البخارى: «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت: لم أخلق لهذا»، وهو عنده (فى كتاب المزارعة ـ باب استعمال البقر للحراثة).

فقالوا: والله ما لنقباء موسى ولا لحواريي عيسى من الفضل ما لهؤلاء. وفى ذلك يقول البوصيرى برد الله ضريحه: (من بحر الخفيف)

ما لموسى ولا لعيسى حواريـ ـون فى عدهم ولا نقباء

وقيل: إن تفاوتهم فى الفضل على قَدر تفاوتهم فى الخلافة؛ لأنَّهم مسددون ومصدقُون[1] فيهم.

وفى «الصواعق المحرقة» ما نصه: أن النبى ﷺ كان كلما انفتَل منْ صلاة الصبح أقبل على أصحابه بوجهه الكريم فيقول لهم: من رأى منكم رؤيا فليقصها على؛ فيخبرونه ﷺ بمرائيهم، فيعبر منها ما شاء الله أن يعبر، حتى سألهم يومًا فقال له رجل من الأنصار: رأيتُ يا رسول الله صلى الله عليك وسلم فيما يرى النائم كأن أبا بكر نيط بك ونيط عمر بأبى بكر ونيط عثمان بعمر ونيط على بعثمان؛ فتغير وجه رسول الله ﷺ، فلم يعبرها كراهةً لإفشاء السر وكشف الغيب، ثم جاءه رجل بعد ذلك فقال له: إنى رأيت يا رسول الله فيما يرى النائم أن دلوًا نزل من السماء، فلما دنا من رأسك نضح عليك حتَّى أخضل ثيابك، ثم انتقل فنضح على أبى بكر، ثم نضح على عمر، ثم نضح على عثمان، فلما نضح على عثمان انتشط فرفع إلى السماء فمازلت أنظر وهو يرتفع حتى حالت السماء دونه؛ فما سأل رسول الله ﷺ بعد ذلك أحدًا عن رؤيا رآها إلا أن يكون هو الذى يخبره بها.

فإن قلت: فما وجه سؤال رسول الله ﷺ أصحابه عن مرائيهم وهو غنى عن ذلك بما أوتيه من الوحى والإلهام والكشوفات؟

فالمراد، والله أعلم، أن الرؤيا نوع من النبوة، وهو الباقى بعده، وأحب ﷺ أن يترك فى أمته من التأويلات الواردة عنه والتعابير ما يبنون عليه أساس تأويل الرؤيا، لما يُمدون به من مشكاة نوره ﷺ، ولأن زمن الأنبياء زمن التجليات صالح لخوارق العادات، لتوجه أمداد الحق حينئذٍ لما سرى فى ذواتهم من نور طلعته ﷺ

---

(١) هذه العبارة غير واضحة فى النسختين، وأقرب شىء إلى المكتوب: ومصدقون فيهم؛ لذا أثبتناها مع أنها غير مناسبة تمامًا.

وبركات صحبته، ولتخصيص الله إياهم بمواجهة خطابه وإنزال كتابه، فورثه ﷺ في تعبير الرؤيا أبو بكر رضي الله عنه، فكان في ذلك الفن لا يجاري ولا يماري، ثم ورثه حذيفة بن اليمان وهو صاحب السر، وكان لعلي من ذلك الحظ الأوفر، بل له ذلك في جميع العلوم.

قال الصادق المصدوق ﷺ: «علي ابن عمي حامل علمي، وإنه ليقاتل المارقين على تأويله كما قاتل المشركين على تنزيله، وهو خاتم الخلفاء كما أني خاتم الأنبياء»[1]. كما روي بسند واه وقيل: إنه من وضع الشيعة. وله رضي الله عنه من المآثر والمناقب ما فيه غنى عن وضع الشيعة.

ثم أفضل الصحابة بعد الخلفاء الأربعة الستة الباقون من العشرة، وذكر مناقب كل واحد منهم لا تحتمله الدفاتر، وتجف دون إحصاء النزر منه المحابر.

يروى أن الله تبارك وتعالى لما أمر نوحًا عليه السلام أن يصنع الفلك كان معه جبريل عليه السلام، فقال له: ومن لي بصنعة الفلك ولا علم لي به؟ فقال له: عليك بنَحت الألواح، ولتكن على عدد الأنبياء والمرسلين؛ فقال له: ومن لي بأسمائهم؟ فقال له: عليك النحت فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه مكتوبًا، فلما تمت أسماء الأنبياء بقيت في السفينة أربع ثلمات، فقال له: إن السفينة لم تتم على أسماء الأنبياء، فقال: تلك ألواح الخلفاء من أمة محمد ﷺ؛ فإنها لا تتم الكلمة ولا تستقيم الملة العوجاء إلا باستخلافهم؛ فانحت أربعة ألواح فإنك تجد على كل لوح اسم صاحبه؛ فنحت اللوح الأول فإذا مكتوب عليه اسم أبي بكر، وعلى الثاني اسم عمر، وعلى الثالث اسم عثمان، وعلى الرابع اسم علي، فلما جعلوا في السفينة تَم حسنها وزادت بهجتها، فأمر الله حينئذ أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين[2].

ويروى أن معاوية لما تم له الأمر بعث أربعة من أصحاب رسول الله ﷺ إلى

---

(١) هذا الحديث يدل لفظه على وضعه، وقد أشار الشيخ إلى أنه قد يكون من وضع الشيعة، وأراه كذلك، والله أعلم.

(٢) أول هذه القصة كما هو واضح من الإسرائيليات، وآخرها الذي فيه الخلفاء الأربعة من وضع الكذابين، والله أعلم.

قيصر ملك الروم في أمر، فلما أتَوه أكرمهم وبجلهم وأمر لهم بمنزل كريم، فلما جن الليل بعث إليهم وأدخلهم بيته، فإذا بالشموع تزهر، وإذا بالمكان قد فرش بأنواع البسط، وضمخت جدران الدسكرة(١) بأنواع الطيب، ثم أمر بهم فطيبوا.

فلما جلسوا واطمأنوا قال لهم: إنما أريد أن أتحفكم بتحفة لم أتحف بها أحداً قبلكم؛ لأنه بلغني أنكم من أصحاب محمد المبعوث في العرب فهل تحققون معرفته؟ فبكوا، ثم قالوا: كيف لا نحقق معرفته ونحن أصحابه وهو قرة أعيننا؟!

فأرسل بعض أصحابه، فأتوا بصندوق على هيئة الرقعة حتى وضعوه بين يديه، فأخرج منه حريرة بيضاء، فإذا فيها صورة آدم، فإذا هو رجل له ذؤابتان، طويل العنق، خفيف العارضين، كأن وجهه قطعة قمر، وإذا هو أحسن ما يرى من الرجال، قال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: هو آدم عليه السلام.

ثم رده وعمد إلى بيت آخر تحته، فأخرج منه حريرة سوداء، فإذا فيها صورة بيضاء، فإذا هو رجل عظيم الهامة مدور الوجه عظيم المنكبين واسع الصدر أحمر العينين، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: إنه نُوح عليه السلام.

ثم عمد إلى بيت آخر، وأخرج منه حريرة خَضراء، فإذا فيها صورة بيضاء، وإذا رجل له جمة، عبل(٢) الذراعين، مهفهف(٣) القد، صلت(٤) الجبين، أقنى(٥) الأنف، براق الثنايا، كأنه يبتسم(٦)، وكأنه النور يخرج من ثناياه فيغشى وجهه، وهو أشبه الخلق بآدم، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: لا، قال: ذاك يوسف عليه السلام.

ثم عمد إلى بيت ليس تحته إلا أربعة بيوت، فَاستخرج منه حريرة سوداء، ثم استخرج صورة بيضاء، فَإذا هو رسول الله ﷺ كأنك تنظر إليه، فبكينا؛ فقال:

---

(١) الدسكرة: القرية العظيمة، فارسية، أو صومعة أو بيوت يكون فيها اللهو والشراب.

(٢) عبل الذراعين: ضخمهما.

(٣) المهفهف: الضامر البطن الدقيق الخصر.

(٤) أصلت الجبين: الواضح المستوى البارز.

(٥) أقنى الأنف: ارتفع وسط قصبته.

(٦) في (أ): وكأنه يبتسم عن لؤلؤ.

أتعرفون هذا؟ فقلنا: نعرفه، هذا نبينا ورسولنا محمد ﷺ، فقام قائمًا وقد اسود وجهه ثم جلس، ثم قام، ثم جلس، فقال: يا ليتني أدركته وكنت عبدًا من عبيده أغسل الرغام[1] عن قدميه، ولو أعلم أني أخلص من الروم لوددت أن أكون عبدًا لأسوئكم ملكة.

ثم فتح البيت الذي تحته، فاستخرج منه صورة أبي بكر، وقال: أتعرفون هذا؟ قلنا: نعم، هو صاحبه أبو بكر، ثم فتح بيتًا تحته. فاستخرج من الحريرة صورة عمر، فقال: أتعرفون هذا قلنا: نعم، هو عمر بن الخطاب.

فقال لنا: أما إن بيتَ محمد ﷺ آخر البيوت، ولكن قدمته لأختبركم بذلك، فقالوا له: أخبرنا عن هذه الصور وقد علمنا بحقيقتها لما رأينا صورة محمد ﷺ.

فقال لهم: إن الله تبارك وتعالى لما أنزل آدم عليه السلام من الجنة استوحش فأنزل الله عليه صور الأنبياء من ذريته ليستأنس بهم، فكانت في خزانة آدم عليه السلام. ثم توارثها الأنبياء من بعده، فلما كان زمن الطوفان فقدت؛ فاستخرجها دانيال، فلما تغلب الروم على بني إسرائيل واستولوا على بيت المقدس أخذوها من أيديهم؛ فتوارثها ملوكهم حتى وصلت إليّ. فقالوا له: فما بال صور الصحابة في هذه المربعة وليسوا من الأنبياء؟ فقال لهم: لما كان لهم من المزية ما للأنبياء ألحقوا بالأنبياء وليسوا أنبياء.

ثم أفضلهم بعد ذلك السابقون من المهاجرين والأنصار، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]. ثم أصحاب بدر، فأحد، فالحديبية، فخيبر، فالفتح، فسائر الصحابة، فالوافدون، فالمخضرمون، فالأقيال[2]، فالتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأفضلهم على الإجمال القُرون الثلاثةُ، جعلنا الله من جملتهم، وحشرنا في زُمرتهم مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وختم لنا ولجميع المسلمين بحسن الختم والخاتمة في الدنيا وعند الموت وفي القبر

(١) الرغام: التراب، المخاط.

(٢) الأقيال جمع قيل: لقب لملوك حمير، ويطلق على الرئيس، والمراد من أسلم من ملوك حمير، أو من الرؤساء غيرهم.

ومعاينة الملكين[1] آمين، إنه الخليق بذلك والقادر عليه ومولى الإحسان ومالك الفضل والامتنان، آمين يا أرحم الراحمين، يا رب العالمين، وصلى الله على خاتم النبيين وخير المرسلين ونخبة جميع العالمين ونبى الأميين وأشفع الشافعين وأقرب المقربين صلى الله عليه وعليهم أجمعين.

* * *

• ثم قال رحمه الله على وجه الدعاء لنفسه:

١٦٧ - وَسَلْ لِى عَفْوًا وَنَيْلَ جِوَارِهِمْ   غَدًا فَإِلَى ذَا سَارَعَ السُّعَدَاءُ

وقد ترك رحمه الله الأَوْلى: وهو الإتْيان بالدعاء على وجه العموم لنفع الإجابة؛ لخبر: الدعاء إذا عم نفع، وإذا خص ارتفع. ولأن دعاء المؤمن لأخيه عن ظهر الغيب مستجاب.

يروى عنه ﷺ أنه قال: «إن الله وكل بكل مؤمن ومؤمنة ملكًا، فإذا دعا لنفسه ولم يشرك معه أحدًا أمسك، وإذا أشرك معه أحدًا من المسلمين قال له: ولك مثل ذلك».

ولقد أرشد الله تبارك وتعالى إلى ذلك فى محكم تنزيله، فجاء به على وجه التمدح فقال: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحشر: ١٠] حتى يكون من الغل عدم الدعاء لهم والترحم عليهم.

يروى أنه ﷺ لما بلغ المستوى حياه الله بأن قال له: السلام عليك أيها النبى ورحمةُ الله تعالى وبركاته، فلم يرضَ أن يكون السلام خاصًا دون أمته، فقال مجيبًا: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

فلو أنه قال: ونسأله عفوًا ونيل جوارهم لكان أولى؛ فإن النون تُدخل معه المسلمين؛ إذ هى للمتكلم المعظم نفسه أو معه غيرُه، فتعظيمه نفسه لا ينبغى له

---

(١) فى النسختين: ومعاينة الفانين، ولا معنى لها.

ولا لمثله؛ إذ من بلغ درجة التأليف يستحيل[١] فى حقه أن يعظم نفسه لانتفاء الجهل المؤدى إلى ذلك؛ فبانتفاء السبب الذى هو الجهل ينتفى المسبب الذى هو تعظيم النفس؛ فَلا يبقى إلا أن يكون معه غيره، وقد قصده بالدعاء فينتفى حينئذ المحذور؛ فيقع الانتفاع، ويتحصل السرور.

وفى ذلك فائدة أخرى، وهى الإتيان بالضمير المشتمل على اسم الجلالة المشار به إلى الاسم الأعظم؛ إذ لو ساغ حذفه لما كان من الأدب تركه؛ لأنه لم يرد فى طلب العفو حذف اسم الجلالة فى كتاب ولا سنة؛ لأن ذكر الاسم والثناء على مسماه مما لا يستغنى عنه شرعًا ولا عقلاً ولا عادة؛ فإن الله يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وقال: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

ولما علمهم كيفية الدعاء أمرهم بتكرار ذكره مع كل دعاء معلمًا لهم فقال: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال ﷺ فى سؤال العفو: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة فى الدين والدنيا والآخرة»[٢].

وحقيقة العفو المجاوزة عن الذنوب بعد التنبيه عليها. والغفران المجاوزة عن الذنوب من غير تنبيه عليها. والصفح المؤاخذة ببعضها دون بعض أو التنبيه على بعضها دون بعض.

قوله: ونيل جوارهم: أى الظفر بجوارهم، أى: الموت فى أحد الحرمين، كما كان عمر رضى الله عنه يقول: اللهم إنى أسألك الموت فى سبيلك، وفى بلد رسولك.

---

(١) لا يستحيل ذلك مطلقا؛ إذ العلم لا يمنع من الوقوع فى الزلل.

(٢) حديث: «اللهم إنى أسألك العفو والعافية.. إلخ» صحيح أخرجه النسائى وأحمد والبيهقى بألفاظ يزيد بعضها على بعض، وعنهما الغزالى فى الإحياء (١/ ٣٢٣).

كما أنه ﷺ قال: «أولُ من تنشق عنه الأرضُ أنا، فأبعثُ، فإذا أبو بكر عن يمينى، وعمر عن شمالى، ثم أذهب بهما إلى أهل البقيع، فيبعث جميع من مات بالمدينة، فيغفر الله لهم بسبب جوارهم إياى، ثم أذهب إلى الحرم، فيحشر إلىَّ أهله فأشفع فيهم»[١].

ويحتمل أن يريد بذلك جواره إياهم فى الدار الباقية دار المقامة إن لم يحصل له جوارهم بالحرمين. فَإلى هذا الذى هو سؤال العفو من الله وسؤال نيل جوار النبى ﷺ وآله وأصحابه سار ع السعداء، ومسارعتُهم هى سابقتهم إلى امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه، والتشبث بأذيالهم، والسير على منوالهم، أو التطبع بأحوالهم، والاقتداء بهم فى أقوالهم وأفعالهم.

والسعداء: جمع سعيد «فعيل» بمعنى «مفعول». قال الرسول ﷺ: «إذا سمعت بمسعود أخذ عودًا فأثمر فى يده فلا تكذب، وإذا سمعت بمحروم أتى عين ماء ليشرب منها فغازت فلا تكذب»[٢]. ويشبه هذا قوله ﷺ: «إذا سمعت بطبع زال من صاحبه فكذب، وإذا سمعت بجبل زال عن محله فلا تكذب»[٣].

وحقيقة السعيد من ساعدته الأقدار، وصاحبته الأنوار، وكلأه العزيز الجبار، جعلنا الله ممن تَولاه الله بكلاءته، ورعاه بعين عنايته، وقواه بكنف كفالته، وجعلنا ممن يباهى به النبىُ الكريم الأنبياء من أهل ولايته، وممن يكاثر به الأمم ممن استنار بنور هدايته، وصلى الله على محمد وآله وأزواجه وذريته وصحابته.

---

(١) حديث: «أول من تنشق عنه الأرض أنا» صحيح إلى هذا القدر، وهو جزء من حديث رواه مسلم وأبو داود والترمذى وابن ماجه، وأوله: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» وفيه« وأنا أول من تنشق عنه الأرض»، أما باقيه من قوله: «فأبعث فإذا أبو بكر عن يمينى»... إلخ. فلا أعرفه ولا أر من أخرجه، ولا أظنه يصح عن النبى ﷺ، بل أكاد أجزم بأن أمارات الوضع عليه بادية، والله أعلم.

(٢) لم أجد هذا الكلام المنسوب الى النبى ﷺ فى شىء من كتب الحديث.

(٣) حديث: «إذا سمعت بطبع زال»... إلخ. ضعيف أخرجه أحمد (٦/٤٤٣)، وعنه العجلونى تحت رقم ٢٣٣ ورقم ٢٠٠ وقال: رواه أحمد بسند صحيح، والسيوطى تحت رقم ٦٩٦ قال شارحه المناوى: قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح إلا أن الزهرى لم يدرك أبا الدرداء. كما أورده الألبانى تحت رقم ١٣٥ وقال: ضعيف، وبعد إيراد كلام الهيثمى والسخاوى والعجلونى فيه وإقرارهم بانقطاعه قال: إنه منكر، والله أعلم.

وكان الفراغ من شرح هذه المنظومة المباركة غرة المحرم لستة أيام مضين منه ضحوة الاثنين من عام إحدى ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية، صلى الله وسلم على صاحبها، والحمد لله على ما ألهم، وعلى ما من فضله علم، وللمقصود تمم، وأسأل الله أن يجعله لوجهه خالصًا، وعن الرياء والسمعة قالصًا، وأن ينفع به قارئه وسامعه وكاتبه ومن سعى فى تحصيله كما رأيتُ مخايل ذلك[1]، جعل الله ذلك كذلك، وتمم ما هنالك، آمين، آمين. انتهى.

* * *

كان الفراغ من تصحيحه وإعداده للنشر ليلة الاثنين

التاسع عشر من شهر رجب عام ثلاثة وأربعمائة وألف للهجرة النبوية الشريفة

فى مدينة رسول الله ﷺ، على يد الفقير إلى ربه، المعترف بذنبه،

مأمون محمد أحمد، غفر الله له ولوالديه، آمين

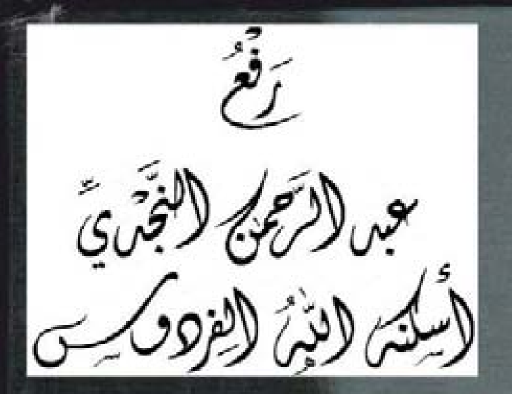
* * *

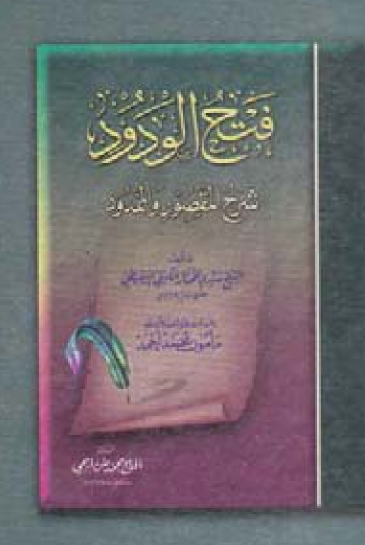
(١) هذه العبارة وردت فى النسخة (أ) وهى غير موجودة فى النسخة (ب) إذ انتهى عند (وأزواجه وذريته وصحابته).

فهرس الموضوعات

الموضـــــوع — الصفحة

* * *


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس


فتح الودود
شرح المقصور والممدود